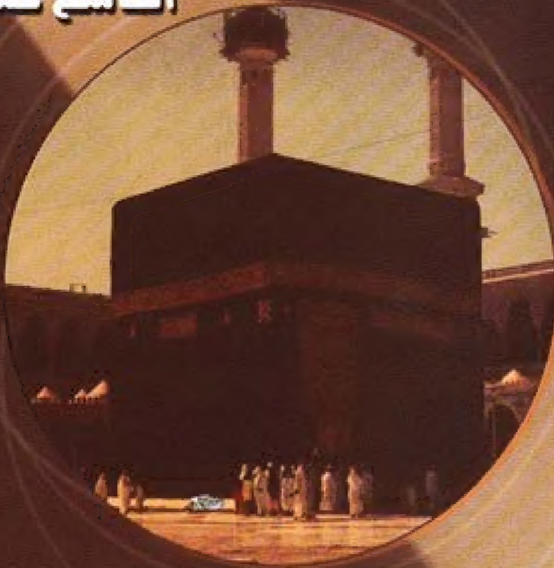
سى . سنوك هيرجرونجى

مكة فى أواخر القرن التاسع عشر



ترجمة

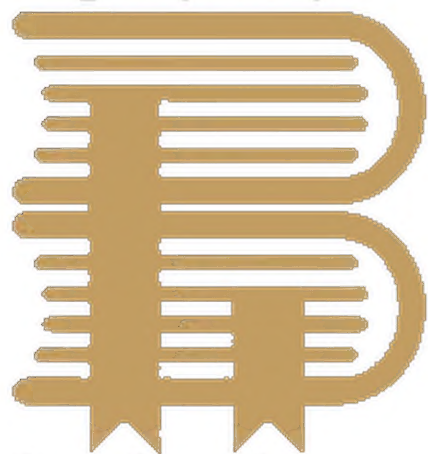
صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم

جمال زكريا قاسم

1157

مكة
فى أواخر القرن التاسع عشر



المركز القومى للترجمة

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٥٧
- مكة في أواخر القرن التاسع عشر
- سى . سنوك هيرجرونجى
- صبري محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

MEKKA

in the latter part of the 19th century

Daily life, Customs and Learning

The Moslims of the East-Indian - Archipelago

By : C. Snouck Hurgronje

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

مكـــة

فى أواخـر القـرن التاسـع عشـر

تـأليـف : سى . سنوك هيرجرونجى

ترجمـة : صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم : جمال زكريا قاسم



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هيرجرونجي ، سي سنوك .
مكة في أواخر القرن التاسع عشر ، تأليف: سي. سنوك هيرجرونجي؛
ترجمة: صبري محمد حسن؛ مراجعة وتقديم : جمال زكريا قاسم -
ط١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٧ ،
٤٩٦ ص ، ٢٤ سم
١ - مكة المكرمة - تاريخ
(أ) حسن ، صبري محمد (مترجم)
(ب) قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
(ج) العنوان ٩٥٣,١٢١

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٦٩٦٢
الترقيم الدولي : 2 - 431 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المراجع

مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا هو الدكتور سى . سنوك هيرجرونجى، الذى كان يعمل أستاذا فى جامعة ليدن فى تخصص الدراسات الإسلامية أو فى علم الاجتماع على الأرجح كما يتضح ذلك من مؤلفاته . وقد نشر أول أعماله باللغة الهولندية فى عام ١٨٨٠ عن مناسك الحج، ليس من أجل التعريف بتلك المناسك والشعائر التى كانت معروفة جيدا لدى الأوروبيين منذ نهاية القرن السابع عشر ، وإنما فى محاولة منه لتحليلها وردها إلى أصولها الأولى.

وفى عام ١٨٨٤- ١٨٨٥ أتيحت له الفرصة لكى يقضى عاما كاملا فى إقليم الحجاز ، قضى نصفه فى مكة (المكرمة) من أجل التعمق فى الدراسات الإسلامية ، وقضى نصفه الآخر فى جدة ، بينما لم تتح له الفرصة لزيارة المدينة (المنورة) أو الإقامة فيها .

وعلى أثر عودته إلى موطنه عكف على تسجيل تجاربه وخبراته الشخصية التى أسفرت عن نشره مجلدين باللغة الألمانية فى عام ١٨٨٨- ١٨٨٩ ، تناول فى المجلد الأول تاريخ مكة منذ البعثة النبوية حتى عام ١٨٨٥ ، بينما تناول فى المجلد الثانى الحياة اليومية والأسرية والتعليم فى مكة، مركِّزا فيه على العادات والتقاليد وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية التى لمسها أو شاهدها بنفسه فى المجتمع المكى . وبوصفه هولندى الجنسية فقد خصص القسم الرابع والأخير من ذلك المجلد للجالية الجاوية فى مكة . وكلمة "الجاوة" هى الكلمة التى كان يطلقها أهالى مكة على جميع الوافدين من الأرخبيل الهندى الشرقى الذى كان خاضعا لهولندا آنذاك . وكان يطيب لكثير من أولئك الجاويين بعد تأديتهم فريضة الحج الإقامة لعدة سنوات فى مكة من أجل التعبد أو الدراسة فى الحرم المكى ، والذين يعودون منهم إلى مواطنهم يصبحون

دعـاة ومـرشـدين لبني جلدتهم، ويقـومــون بدور مـهـم في نشــر الإســلام في تلك الأصقاع النائية .

وبين أيدينا المجلد الثاني الذي أعادت نشره جامعة ليدن في عام ١٩٣١ بعد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية التي راجعها هيرجرونجي بنفسه ، أما المجلد الأول الذي يتناول تاريخ مكة فقد ظل فيما يبدو أسير لغته الألمانية، حيث لم تتح فرصة ترجمته إلى اللغـة الإنجليـزية أو إلى غـيـرها من اللغـات الأوروبيـة الأخـرى . ومن الواضح أن هيرجرونجي استهدف في المجلد الثاني تعريف الأوروبيين بالمجتمع المكي ، فضلا عن تعريف السلطات الهولندية بأوضاع الجالية الجاوية في مكة .

وثمـة مـلاحظة تستـحق الانتبـاه، وهي أن هيرجـرونجي لم يطلعنا على البـواعث الحقيقية التي دفعته للإقامة في مكة ، وهل كانت إقامته هذه من أجل الدوافع العلمية باحثًا اجتماعيا أو باحثـا في التعاليم الإسلامية ، كان يهدف من ورائها - كما قرر ذلك صراحة - تصحيح المفاهيم الخاطئة العالقة بأذهان الأوروبيين عن ماهية الدين الإسلامي ؟ كما أننا لا نعلم ما إذا كانت إقامته في كل من مكة وجدة لمدة عام كامل على نفقته الخاصة ، أو أنه أوفد من قبل جامعته ، أو من قبل الحكومة الهولندية التي كان يهمها التعرف على أوضاع الجالية الجاوية في مكة ، نظرا لما كان يثيره الحجاج الجاويون بعد عودتهم إلى أوطانهم من متاعب لدى السلطات الهولندية في جزر الهند الشرقية، نتيجة حفزهم مواطنيهم على مقاومة الحكم الأجنبي ، ومن هنا يمكن أن نتفهم السبب الذي جعله يخصص القسم الأخير من كتابه عن الجاوة ، أو بمعنى أكثر وضوحا يمكننا التعرف على الدوافع السياسية التي دفعته للإقامة في مكة، وهي دراسة الجالية الجاوية وما ينجم عن عودتها إلى مواطنها من تزكية الصحوة الإسلامية لمواجهة الاستعمار الهولندي ، ولعل ذلك ما جعله يكرس جانبا من دراسته للجالية الجاوية والوسائل التي ينبغي أن تتخذها السلطات الهولندية لمقاومة تلك الصحوة الإسلامية التي باتت تشكل خطرا عليها، بأن تزيد من معرفتها بالعقلية الدينية لدى

الجاويين ، والتعامل معهم بأسلوب متعقل يتقى خطرهم ويحافظ فى الوقت نفسه على نفوذها .

كان مما ساعد هيرجرونجي على الإقامة في مكة معرفته العميقة باللغة العربية التي كان حريصا على تعلمها ، وخاصة أن جامعة ليدن كانت معقلا للدراسات الاستشراقية ، هذا فضلا عما عرف به خلال إقامته فى مكة بأنه طالب علم يبغى دراسة التعاليم الإسلامية . ومن المحتمل أن يكون قد أسلم ، أو على الأقل تظاهر باعتناق الدين الإسلامى ، إذ كانت منطقة المدن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة – كما هو معروف – محروسة حراسة مشددة خشية أن يتسلل إليها أحد من غير المسلمين ، كما كانت موانئ هاتين المدينتين المقدستين فى كثير من الأحيان محرمة بدورها على غير المسلمين .

ومن الواضح أن هيرجرونجي اعتمد فى تأليف كتابه على دراسته الميدانية ، إلى جانب تعمقه فى قراءة سجلات الرحالين الأوروبيين الذين سبقوه فى زيارة المدن المقدسة ، فضلا عن اعتماده بشكل لافت للنظر على كتاب إدوارد لان عن " أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم " ، حيث تطابقت إلى حد كبير العادات والتقاليد المصرية والعادات والتقاليد الشرقية بصفة عامة ، مع العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع المكى .

ونظرا لاهتمام هيرجرونجي بالدراسات الإسلامية فقد كان اعتماده على العديد من المصادر التاريخية والدينية الكلاسيكية التى يمكن أن نستشفها مما أورده عنها من معلومات، ومن بينها على سبيل المثال " أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار " لأبى الوليد محمد بن عبد الله الأزرقى ، وكتاب "الأعلام" لخير الدين الزركلى ، وأحمد الزينى دحلان فى مؤلفه " خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام " ، والقاضى قطب الدين الحنفى فى تسجيله لحوليات مكة التاريخية حول نهاية القرن العاشر الهجرى ، هذا بالإضافة إلى العديد من المؤلفات التى وضعها أبناء جاوة أنفسهم فى الدراسات الدينية والفقهية، وفى الدراسات الخاصة باللغة والأجرومية العربية .

ولعل أهمية كتاب هيرجرونجي أنه يعرض بإفاضة لحياة المجتمع الحضرى فى شبه الجزيرة العربية ، وبذلك اختلف عن غيره من الرحالين الأوروبيين الذين ركزوا فى غالبيتهم على المجتمعات البدوية التي نالت اهتماما كبيرا منهم ، من أمثال لويس دارفيو ، الذى كان أقدم من تحدث عن حياة البدو ومجتمعاتهم وذلك فى دراسته المعنونة " أخلاق عرب البادية وعاداتهم " . كما تجدر الإشارة إلى لويس بوركهارت ، ذلك العالم الديني الورع الذى اعتنق الإسلام ولقب نفسه بالشيخ إبراهيم ، والذى يعزى إليه اكتشاف مجتمع البادية من خلال الرحلة التي قام بها فى الجزيرة العربية فى عام ١٨١٤ ، وتمكن فى أثنائها من جمع معلومات كثيرة عن البدو، سجلها فى دراستين مهمتين له، هما " ترحال فى بلاد العرب" ، و "ملاحظات على البدو والوهابيين" . كما استطاع تشارلز دوتي – من خلال معايشته الواقعية للبدو معايشة استمرت مدة عامين كاملين – أن يسجل تسجيلا دقيقا الحياة فى مجتمعات البادية بجميع مظاهرها .

هؤلاء الرواد الأول قدموا لوحات كاملة عن المجموعات القبلية وتنظيماتها الاجتماعية والسياسية والأوضاع الاقتصادية لكل منها ، إضافة إلى عاداتها وتقاليدها ومبادئها الأخلاقية . بينما لم تحظ المجتمعات الحضرية فى شبه الجزيرة العربية بمثل ما حظيت به المجتمعات البدوية . ومن هنا تبرز أهمية كتاب هيرجرونجي من حيث إلقائه الضوء على تلك المجتمعات ، وإن كان – كما هو واضح – ركز على دراسة المجتمع الحضرى فى مكة ، رغم ما تتميز به تلك المدينة المقدسة من خصوصية بوصفها مدينة إسلامية عالمية ، وملتقى للعديد من الجنسيات والأعراق التى تفد – ولاتزال – إليها سنويا لتأدية فريضة الحج أو للإقامة فى الحرم المكى بغرض الدراسة أو التعبد أو ما إليها .

ولما كان هيرجرونجي قد سبق أن خصص المجلد الأول من كتابه هذا لدراسة الأوضاع التاريخية والسياسية فى مكة ، فمن الطبيعى ألا يتعرض لتلك الأوضاع فى هذا المجلد الذى خصصه – كما سوف يتضح – للنواحى الاجتماعية التى تكتنف حياة

المكيين اليومية والأسرية، إلى جانب الأساليب المتبعة فى التعليم وخاصة فى الحرم المكى . وفيما يبدو فإن تركيز المؤلف على تلك النواحى كان تمشيا مع شدة رغبة الأوروبيين فى التعرف على الحياة الاجتماعية فى المدن الإسلامية المقدسة من حيث عادات سكانها وتقاليدهم ، ومن ثم استطاع هيرجرونجى أن يسجل العديد من اللوحات الشيقة عن تلك الظواهر الاجتماعية . وبالإضافة إلى ذلك فقد خصص القسم الأخير من كتابه لدراسة الأوضاع الاجتماعية للجالية الجاوية ، إذ كانت جاوة آنذاك، أو بالأحرى جزر الأرخبيل الشرقى، من المستعمرات الهولندية ، فضلا عن كونه هو نفسه هولندى الجنسية .

وقد تميزت الفترة التى قضاها هيرجرونجى فى الحجاز بأنه كان خاضعا آنذاك للدولة العثمانية التى كانت حريصة على تشديد قبضتها على الحرمين الشريفين من أجل الحفاظ على هيبتها فى العالم الإسلامى ، ومن ثم ورثت إلى حد كبير التنظيمات السياسية والإدارية وطرائق الحكم وأساليبه التى وضعتها الإدارة المصرية إبان خضوع الحجاز لمحمد على خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، غير أنه لم يلبث أن شاب الحكم العثمانى الكثير من السلبيات ، لعل من أبرزها ازدواجية السلطة بين الحاكم العام للحجاز – الذى كانت تعينه الدولة العثمانية فى المدينة – وبين أشراف مكة . وكان ازدواج تلك السلطة من أهم العوامل التى أدت إلى عدم الاستقرار، ولم تكن الدولة العثمانية تأبه بما صار إليه الحجاز من أوضاع متخلفة أو غير مستقرة، إلا أن تكون الخطبة للخليفة العثمانى مع إبقاء حاميات عسكرية هزيلة حفاظا على هيبتها . ورغم ضعف حكم الأشراف، والتنافس والصراع الذى كان كثيرا ما يحتدم فيما بينهم ، فإن العثمانيين أبقوا على حكمهم رغم سلبياته، تقديرا لمكانتهم الدينية من حيث انتسابهم للسلالة النبوية الشريفة . ومع ذلك فقد ظل بقاؤهم فى الحكم ظاهريا أكثر منه واقعيا ، إذ كانت السلطة العليا مركزة فى يد الوالى العثمانى فى المدينة ، بينما سلبت من الأشراف السلطة الفعلية. كما كانت الدولة العثمانية ترسل إلى مكة فى كل عام قاضيا شرعيا على المذهب الحنفى، وهو المذهب الرسمى فى الدولة العثمانية. كان الهدف من إرساله تنفيذ الأحكام ومنع الحكام المحليين،

بمن فيهم الأشراف أنفسهم، من التدخل فى شئون العدالة . ورغم أن الدولة العثمانية وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والإعياء ، فإن نفوذها الروحي ظل باقيا بوصفها دولة الخلافة الإسلامية وإن لم يكن لحكمها وزن كبير من الناحية الفعلية .

ومن ناحية أخرى فقد تميزت الفترة التى قضاها هيرجرونجي في الحجاز فى عام ١٨٨٥ بكونها شهدت تصاعد حركة الجامعة الإسلامية التى دعا إليها السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦– ١٩٠٨) فى محاولة منه لاستخدامها فى التغلب على الضغوط التي كانت تواجهه من قبل القوى المسيحية، وذلك بدعوته للجهاد ضد أعداء الدين . كما جاءت إقامة هيرجرونجي فى مكة فى أعقاب الحرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٧، وما ارتبط بهزيمة الدولة العثمانية فى تلك الحرب من صحوة دينية إسلامية، وإن كانت تلك الصحوة لم تصل فى مكة – بحكم طبيعتها العالمية – إلى درجة التعصب الدينى ضد المسيحيين ، ذلك التعصب الذى عانى منه تشارلز دوتى فى المناطق التي ارتحل إليها فى أواسط نجد وصحراء الجزيرة العربية .

ولعل الجديد في دراسة هيرجرونجي أنه رغم إقامته فى مكة لم يعن فى دراسته بالتعريف بمناسك الحج وشعائره ، إذ كانت تلك الشعائر والمناسك معروفة لدى الأوروبيين، نتيجة ما قدمه لهم الرواد والرحالون الأوروبيون من معلومات عن تلك المناسك منذ بدايات القرن السادس عشر ، إضافة إلى ما كانت تقدمه الكتيبات الخاصة بتلك المناسك من معلومات ضافية عنها .

ومن أبرز الرحالين والرواد الذين زاروا الأماكن المقدسة وأدوا الحج وشرحوا مناسكه وشعائره، تجدر الإشارة إلى كل من لويس فارتيما البولونى ، وديكسترا ، والرحالة الإسبانى دومينجو باديا دى لبليخ ، الذى انتحل شخصية إسلامية بادعاء كونه آخر سلالة العباسيين، وسمى نفسه على بك العباسى. وحج فى عام ١٨٠٦ وقدم للغرب أول تقرير دقيق عن شعائر الحج، كشف فيه عن تلك الشعائر كاملة ، وتفوقت رواياته على روايات كل من سبقوه من حيث الدقة وشرحه للقيم الدينية فى مناسك

الحج من خلال عقلية التدين الفلسفي ، وكان بالإضافة إلى ذلك أول من حدد موقع مكة بالاستعانة ببعض الأجهزة الفلكية التى كان يحملها معه ، إلى جانب وصف المناطق المحيطة بها . كما تجدر الإشارة أيضا إلى الرحالة الألمانى جاسيار ستيزن الذى أعلن إسلامه فى القاهرة ولقب نفسه بالحاج موسى، وحج إلى بيت الله الحرام فى عام ١٨٠٩ ، وتبعه لويس بوركهارت فى عام ١٨١٤، والذى تمكن - بفضل تجاربه ومعرفته بالحياة العربية ، وبعد أن أشهر إسلامه - من أن يجول جولات متعددة فى الحجاز، زار فى خلالها الطائف وجدة ومكة والمدينة ، وساعده على ذلك حالة الاستقرار التى خضعت فيها الحجاز لمصر فى أعقاب الحملة المصرية التى استعادت الحجاز من الدولة السعودية الأولى، وعاد بوركهارت إلى أوروبا حاملا معه معلومات ضافية عن شعائر الحج ومناسكه .

وهكذا يبدو الأمر واضحا، وهو أنه رغم ما فرضه العثمانيون على المدن المقدسة من حراسة مشددة ، فإن ذلك لم يمنع العديد من الرحالين الأوروبيين من دخول تلك المدن متنكرين ، بل تأدية مناسك الحج تحت غطاء إسلامى، أو على الأقل تظاهرهم باعتناق الإسلام . وبفضل أولئك الرحالة والمغامرين توافرت المعلومات الخاصة بشعائر الحج ، كما توافرت أيضا المعلومات عن الحياة فى المجتمعات البدوية ، إلا أن حياة الحضر وخاصة فى مدينتى الإسلام المقدستين كانت لا تزال بعيدة عن المعرفة الأوروبية . ومن هنا يمكننا أن نقوِّم العمل الذى قام به هيرجرونجي واختلافه عمن سبقوه؛ إذ لم يكن تركيزه على مناسك الحج ، وإنما عمد إلى التركيز على الحياة فى المجتمع المكى ، إلى جانب التعريف بأحكام الدين الإسلامى من حيث الفرائض والسنن والنوافل، بما في ذلك الصلاة وصوم رمضان والأحكام الشرعية، حيث أتاحت له إقامته في مكة أن يدرس التعاليم الإسلامية بعمق. ومن الواضح أن جميع ما ذكره من معلومات عن الدين الإسلامي وتعاليمه ، وكذلك عن العادات والتقاليد في المجتمع المكى ، هى من المعلومات العامة التى يعرفها المسلمون جيدا . ومن هنا

يمكن القول إن هيرجرونجى لم يضع كتابه للمسلمين ، وإنما وضعه للأوروبيين الذين كانوا يجهلون بطبيعة الحال تلك المعلومات التى أفاض فى شرحها، عن الإسلام وعن العادات والتقاليد فى المجتمع المكي بصفة خاصة .

ولعل الإسهام الذى قدمه هيرجرونجى هو محاولته تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى الأوروبيين عن الدين الإسلامي ، مؤكدا أن العالم المسيحى يقف من الدين الإسلامى موقفا مبنيا على سوء الفهم ، وخاصة فيما يتعلق ببعض القضايا الاجتماعية التى كانت سائدة آنذاك فى المجتمع الإسلامى، ومن بينها وضع المرأة ومسألة الرق. ومن ثم ناقش ما كان يثور فى المجتمع الأوروبى من تساؤلات فيما يتعلق بتعدد الزوجات والمحظيات ، حيث أكد أن الشرع الإسلامى يتيح للزوجة مسكنا مستقلا ، وألا تجتمع زوجتان أو أكثر فى مسكن واحد ، وأن الموسرين وحدهم هم الذين يستفيدون مما أتاحه الشرع من تعدد الزوجات بأن يكون لهم أكثر من زوجة ، أما أفراد الطبقات الوسطى والفقيرة فإن هذا النوع من الترف الدنيوى أكبر بكثير مما تتيحه طاقة هؤلاء الأفراد ، ومن ثم يصبح الزواج بامرأة واحدة هو القاعدة وليس الاستثناء . وفضلا عن ذلك أكد ما أتاحه الشرع الإسلامى للمرأة من حقوق خاصة باستقلال ذمتها المالية عن الزوج ، وحقها فى الانفصال عن الزوج فى العديد من الحالات التى كفلها الشرع لها .
ومن ثم استطاع هيرجرونجى، بتعمقه فى قضايا المرأة الشرعية، أن يزيل الأفكار الخاطئة التى كانت عالقة بأذهان الأوروبيين، فيما يتعلق بوضع الحريم فى المجتمعات الإسلامية. غير أنه مع إقراره بأن الأدبيات والتعاليم الشرعية تقدر مكانة المرأة وتعلى من شأنها ، فإنه قد نجم عن التدهور الذى طرأ على تلك الأدبيات والتعاليم الشرعية سيادة أفكار متخلفة، أدت إلى قصر وظيفة المرأة على إشباع احتياجات الرجل الجنسية وإنجاب الأطفال ، ومن ثم بات تعليم المرأة أمرا لا لزوم له ، وساد الاعتقاد بأن النساء أبعد ما يكن عن فهم أمور الدين ، وأن جهنم ستكون وقودا ومأوى لهن !

وفيما يتعلق بمسألة الرق والاسترقاق الذى كان لا يزال سائدا فى المجتمعات الإسلامية ، فإنه رغم تحريم تجارة الرقيق بمقتضى الحركة المناهضة للاسترقاق التى

تزعمتها بريطانيا فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر فقد ظلت تجارة الرقيق قائمة في تلك المجتمعات ، وحتى بعد أن وقعت الدولة العثمانية مع بريطانيا المعاهدة الخاصة بتحريم تلك التجارة في عام ١٨٤٨ ، ظل الرقيق المنزلى سائدا ، كما ظلت أسواق الرقيق تقام علانية فى مكة وعلى مقربة من الحرم المكى . ومع أنه كان للعبيد مطلق الحرية في التحرر من إسار الرق ، فإن معظمهم رفضوا مغادرة سادتهم الذين تربوا في كنفهم . واعتبر هيرجرونجى أن إلغاء الرق في المجتمعات الإسلامية قد يؤدى إلى حدوث ثورة اجتماعية ، ومن ثم عاب على دعاة الإلغاء من الساسة الأوروبيين مواصلتهم إشعال نار حرب زائفة ضد الاسترقاق مختلفة تماما عن الأهداف الإنسانية التى يتشدقون بها .

ويصدد حديث هيرجرونجى عن قضية الرقيق كان حديثه عن المحظيات اللاتى غالبا ما يكن من الجوارى اللاتى يهيم بهن الرجال المكيون ، وخاصة الإماء الحبشيات، حيث لا يكلفهم اتخاذ محظية أو أكثر لتكون ملكا لهم ما يتكلفونه من أعباء مالية كبيرة فى حالة زواجهم من امرأة حرة ، غير أنه كان يتحتم إذا ما أنجبن أطفالا منهن أن يبادروا بتحريرهن على الفور .

ولعل هيرجرونجى كان منصفا إلى حد كبير فى إشادته بحسن معاملة السيد العربى لعبيده ، ووازن بين تلك المعاملة وما كان يمارسه تجار الرقيق الأوروبيون فى معاملتهم للعبيد من إساءة وقسوة بالغة ، وكان بذلك خير شاهد على حسن معاملة العرب للرقيق ، وحتى إذا أساء السيد العربى معاملة عبد له أو استخدم القسوة فى تأديبه ، فإن هذا ما كان يفعله غالبا مع أحب أبنائه ، وأنه رغم أن الإسلام أدان بشدة خصاء العبيد فقد ظلت عادة الخصى منتشرة فى المجتمع المكى وفي غيره من المجتمعات الإسلامية .

كذلك أفاض هيرجرونجى في الإشادة بمعاملة تجار الرقيق العرب لما يقتنصونه من عبيد ، وهى معاملة كانت بالقطع أفضل بكثير من معاملة تجار الرقيق الأوروبيين، إذ كان من الطبيعى أن يحافظ تاجر الرقيق العربى على ما جلبه من أعداد قليلة من

العبيد بوصفهم يشكلون بضاعته ورأس ماله ، وذلك بخلاف تجار الرقيق الأوروبيين وشركاتهم العاملة فى هذا المجال، الذين كانوا يكدسون الألوف ممن يحصلون عليهم من رقيق فى غرب إفريقيا فى سفن "الموت " عبر الأطلنطى إلى مزارع العالم الجديد ، ويستبدلون بمن يموتون منهم من جراء تلك الرحلة القاسية غيرهم .

ومع تقديرنا لما أكده هيرجرونجي من حسن معاملة العرب للرقيق وقلة الأعداد التى كانوا يحصلون عليها، إذا ما قورنت بالأعداد الضخمة التى كان يتحصل عليها الأوربيون ، فإننا نختلف معه فى أن الرق هو الرق في بشاعته سواء قل أو أكثر عدده ، وسواء حسنت أو ساءت أساليبه . ولعلنا نختلف معه أيضاً فيما ذهب إليه من أن الدين الإسلامي كان يأمر أتباعه بإدخال الزنوج بالقوة فى الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية ، وهو أمر لم يحدث ، إذ من المعروف حدوث امتزاج طوعى بين الثقافتين الإسلامية والزنجية ، وأن الإسلام، سواء فى إفريقيا أو فى جزر الأرخبيل الهندى الشرقى، شق طريقه سلميا وبصورة متدرجة ومن خلال الإصلاحات الداخلية، ومن غير طريق العنف أو استخدام السلاح . ولعل هيرجرونجى كان موضوعيا فى عرضه للنتائج التى ترتبت على انتشار الإسلام ، وإشادته بالحضارة التى أدخلها المسلمون فى المجتمعات الزنجية ، والتى أدت إلى تغيير حياة الزنوج رأسا على عقب ، وذلك رغم أن الإسلام انتشر على أيدى أفراد أو جماعات من التجار أو الدعاة لم تكن تساندهم دول أو جمعيات دينية على غرار بعثات التبشير المسيحية التى وجدت فى الإسلام أكبر منافس لها .

سبق أن ذكرنا أن الفترة التى قضاها هيرجرونجى فى مكة، والتى استغرقت قرابة نصف العام، كانت فيها مكة خاضعة للدولة العثمانية ، وذلك منذ انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية فى عهد محمد على، تنفيذا لمعاهدة لندن عام ١٨٤٠-١٨٤١ . وقد أعقب الانسحاب المصرى اشتداد ساعد الدولة السعودية الثانية على عهد الإمام فيصل بن تركى بين عامى ١٨٤٣ و ١٨٦٥ ، غير أن تلك الدولة ما لبثت أن أخذت تتعرض تدريجيا للانهيار، ولم يمتد نفوذها إلى الحجاز إلا فى خلال عشر

السنوات من عهد الدولة السعـــودية الأولى، وعلى وجــه التحـديد بين عامى ١٨٠١ و ١٨١١ . وظل الوضـع على ذلك إلى أن تمكن عبد العزيز بن سـعـود أخيرا من ضم الحجاز إلى حكمه على عهد الدولة السعودية الثالثة فى عام ١٩٢٥ . ويتضح من ذلك أن المجتمع الحجازى بصفة عامة والمجتمع المكى بصفة خاصة حتى ذلك العام كان أبعد ما يكون عن التشدد الوهابى ، ومن ثم لم تتأثر المدينتان المقدستان مكة والمدينة بالتيار السلفى الذى كان سائدا فى كثير من أجزاء الجزيرة العربية وخاصة فى إقليم نجد، ولعل ذلك كان يرجع أيضا إلى طبيعة هاتين المدينتين المقدستين المنفتحتين على مواسم الحج وعلى الأجناس والأعراق العديدة التى كانت تفد إليـهما ، ومن ثم كان الحجاز بصفة عامة ومكة بصفة خاصة أكثر انفتاحا على العديد من الحضارات والثقافات التى كانت تفد إليهما .

قسم هيرجرونجى كتابه إلى أربعة فصول، أو بالأحرى إلى أربعة أقسام ، رسم فيها صورة نابضة للحياة اليومية ولحياة الأسرة المكية ، وللنشاط التعليمى الذى كان يتخذ من الحرم المكى مركزا له ، هذا فضلا عن تركيزه فى القسم الرابع والأخير من الكتاب على الحجاج وطلاب العلم الوافدين بصفة خاصة من جاوة ، أو بالأحرى من الأرخبيل الهندى الشرقى ، ويعنى بهم سكان شبه جزيرة الملايو وجزر الهند الشرقية الهولندية.

ورغم الفترة القصيرة التى قضاها هيرجرونجى فى مكة ، فإنه استطاع أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة، وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة ، فضلا عن مكانته العلمية، جعلته يقدم وصفا دقيقا للحياة فى المجتمع المكى ، كما استطاع أن يسبغ على ما شاهده أو على ما سمعه قدرا كبيرا من عمق الدراسة والتحليل .

فى القسمين الأولين من الكتاب قدم هيرجرونجى دراسة ممتعة وصورا شيقة عن حياة السكان، وللأسرة المكية فى معيشتها ومساكنها، وحتى المواد المستخدمة فى بنائها ، إلى جانب الأوضاع الصحية وما يكتنف حياتها من خرافات وشعوذة

وأساطير . ومن الصور النابضة التي تحدث عنها ما ذكره عن الموالد أو الأحوال المنتشرة في مكة، التي كان يحتفل بها المكيون تأبينا لأولياء الله الصالحين ، ومن أبرزها مولد " ستنا ميمونة بنت الحارث " آخر زوجات الرسول وآخر أمهات المؤمنين ، و"السيدة آمنة بنت وهب" والدة الرسول (ﷺ)، و"الشيخ محمود" ابن ولي الله "إبراهيم العظم" الذي تحتفل بمولده التقاليد والأدبيات الدينية في شرقي الهند، وغيرهم من أولياء الله الصالحين . ورغم ما كان يتخلل تلك الموالد من طقوس دينية سليمة كان يمارسها قلة من الزهاد والمتدينين ، فإن كثيرا من المكيين وخاصة من الشباب والنساء كانوا ينتهزون تلك التجمعات الدينية الكبيرة لكي يسعوا فيها إلى المتع المحرمة في الإسلام، ومنها الموسيقى والطرب والغناء، هذا فضلا عما يقوم به العامة عادة من التمسح بقبور أولئك الأولياء من أجل الاستغاثة أو الاستعانة بهم على قضاء حوائجهم ، وما إلى ذلك من نذور وبدع وغيرها من أمور، ترجع إلى أصول وثنية أو جاهلية ارتبطت بتقديس الموتى وعبادة الأحجار، وغير ذلك من العادات التي حرص الإسلام على القضاء عليها واستئصالها، إلا أنها، ومن أجل المحافظة، على بقائها، عادت تقوى من جديد تحت غطاء إسلامي وتستتر بأسماء بعض الأولياء .

ويخلص هيرجرونجي من حديثه عن الموالد إلى أنه رغم قدسية مكة فإن ذلك لم يمنع من وجود أفعال وعادات شاذة وسيئة أفاض في الحديث عنها . ولعل ذلك مما دفع الوهابيين – عقب سيطرتهم على الحجاز إبان عهد الدولة السعودية الأولى – إلى قمع تلك المظاهر بما أقدموا عليه من هدم القباب وتصحيح الأوضاع الدينية التي شابها الكثير من البدع والشركيات، غير أن الأمور لم تلبث أن عادت من جديد بعد أن سقطت الدولة السعودية على أيدي قوات محمد علي . ولم تتخذ الدولة العثمانية التي ورثت الحكم المصري إجراءات من أجل إلغاء تلك المظاهر والبدع، بل على العكس كانت تجد تشجيعا من السلطات العثمانية وأيضا من الأشراف وأرباب الطرق الصوفية .

كانت الفترة التي قضاها هيرجرونجي في الحجاز تتوافق مع العهد العثماني، ومن ثم فقد شاهد بنفسه تلك البدع والشركيات التي ظلت قائمة في المجتمع المكي، إلى أن خضعت الحجاز مرة أخرى للوهابيين على أثر نجاح عبد العزيز بن سعود عام ١٩٢٥ في ضمها إلى حكمه ، ومن ثم عمد الوهابيون إلى هدم المزارات وتقويض الأضرحة والقباب التي كان الكثير من المكيين يؤدون لها الإجلال والتقديس الذي كاد يتحول إلى نوع من العبادة لغير الله .

وإلى جانب حديث هيرجرونجي عن الموالد والأحوال عُني بوضع دراسة اجتماعية شيقة تناول فيها تركيبة المجتمع المكي بجميع طوائفه ونقاباته ، من بينها طائفة أو نقابة المطوفين التي كانت من أهم الطوائف والنقابات في مكة، لارتباطها بمواسم الحج ، إلى جانب نقابة مرشدي الحجاج وشيوخ الحج، وطوائف الزمازمة ، والمؤذنين، وشيوخ الأحياء والحارات ، وشيوخ الطرق الصوفية ، وشيوخ العبيد الذين يقومون بفض ما ينشب بينهم من منازعات ، وشيوخ العلماء، وغيرهم ، وحتى النساء كان لبعضهن نقاباتهن وأعمالهن الخاصة .

ورغم تلك التنظيمات الطائفية ، فكثيراً ما كانت تحدث مشكلات داخل الطائفة، وعلى سبيل المثال كانت تقوم منازعات بين شيوخ الحج بغرض الاستئثار بأكبر عدد من الحجاج والتركيز على المناطق المهمة التي يفدون منها ، وقد وصلت تلك المنازعات إلى الدرجة التي حدت بالسلطات العثمانية إلى إصدار بعض التنظيمات، أو بالأحرى بعض الإصلاحات التي تناولت شئون الحج ، حيث حددت لكل شيخ من شيوخ الحج المنطقة التي يفد منها الحجاج ليكونوا تحت رعايته، أو بالأحرى ليقعوا تحت استغلاله ، ومع ذلك فكثيرا ما كان يقوم النزاع بين الشيوخ حول تحديد تلك المناطق ، وحين يلجأ أولئك الشيوخ إلى شيخ الطائفة لكي يفصل فيما ينشب بينهم من نزاع ، فإن ذلك الشيخ لم يكن يعرف بطبيعة الحال الأوضاع الجغرافية أو الإدارية للمناطق التي يأتي منها الحجاج الجاويين بصفة خاصة ، ولذلك كان كثيرا ما يبني ما يتخذه من قرارات على حجج وأسانيد غير منطقية، كانت تدعو إلى السخرية والاستهزاء .

كان نظام الطوائف، رغم ما كان يحيط به من مساوئ وسلبيات، هو النظام السائد فى مختلف ولايات الدولة العثمانية ، وخاصة فى مصر وفى غيرها من الولايات العربية الأخرى ، حيث كانت فلسفة العثمانيين فى الحكم، حتى بداية حركة الإصلاحات المركزية في السنوات الأولى من القرن العشرين ، تقوم على التخفف قدر الإمكان من أعباء الحكم المركزى المباشر. ورغم استفادتها من أساليب الإدارة المصرية، وخاصة فيما يتعلق بالسلطة العليا، فإن الشئون المحلية ظلت على حالها، حيث ترك العثمانيون لكل طائفة من طوائف المجتمع أن تقوم على تنظيم شئونها وتدبير أمورها بنفسها وفقا لتقاليدها ونظمها الخاصة ، فأهل العلم من الشيوخ والعلماء والمجاورين يكونون طائفة لها اعتبارها وكيانها، والمتصوفة وأرباب الأشاير لهم طرقهم ... إلخ . والفرد لا يستطيع أن يمارس نشاطه إلا إذا كان منتميا إلى طائفة يخضع لنظامها ويحتمى بظلها. وهكذا توزع المجتمع المكى بين طوائف مختلفة لكل طائفة كيانها وتقاليدها وزعامتها (رئاستها) ، وهى تأخذ المنتمين إليها بفنون من التنظيم والتدريب والتأديب . وكانت تلك الطوائف لا بد من وجودها فى وقت انكمشت فيه وظيفة الدولة وتفتت سلطانها . وكثيرا ما كانت الدولة العثمانية تلجأ - للمحافظة على نفوذها - إلى استعداء طائفة على طائفة أخرى عن طريق إصدار قواعد وتعليمات متعارضة.

ولم يكن من اليسير أن يتحول فرد من طائفة إلى طائفة أخرى ، فقد جرت العادة على أن ينشأ ابن الزمزمى زمزميا ، وابن المؤذن مؤذنا ، وابن العالم عالما. وبقيت كل طائفة تواجه ما ينزل بها أو تتعرض له بوسائلها الخاصة ، ولا يتجاوز محيط اهتمامها الدائرة الضيقة التى تعيش فيها. ومهما يكن من سلبيات تلك الأوضاع فإن الانتماء إلى طوائف ونقابات قوية الكيان والتقاليد كان من أهم العوامل التى حفظت للمجتمع المكى تماسكه ، وأشاعت فيه روحا زاخرة بألوان من مختلف الأنشطة ، فتوثقت الصلات الاجتماعية بين أفراده، حتى كانوا أشبه ما يكونون بخلايا من الأسر يتضامن أفرادها فى السراء والضراء .

وفيما يتعلق بالقضاء، فقد كان من عادة الدولة العثمانية تعيين أربعة قضاة ينتمون إلى المذاهب الدينية السنية الأربعة، بحيث يمثل كل واحد منهم مذهبا من تلك المذاهب . غير أنه لما أدرك العثمانيون أن إدارة الشريعة من مسئولياتهم وليست من مسئوليات رعاياهم فقد لجأوا إلى قمع المذاهب الثلاثة ولم يبقوا إلا على المذهب الحنفى الذى أصبح القاضي المنتمي إليه هو القاضى الوحيد فى الحياة الدينية والشرعية المتعلقة بشئون الأسرة ، أما بقية الأمور الأخرى فكان يجرى البت فيها طبقا للقانون (المنيف) الذى حل محل الأحكام الشرعية . وبمرور الزمن بدأ النظام القضائى ، بل نظام الحكم العثماني بكامله، يفقد فاعليته، وأصيب بالضعف والفساد؛ حيث خربت ذمم المنفذين والقضاة ، وبيعت المناصب القضائية لمن يدفع حلوانا أكبر، دون النظر إلى المكانة الفقهية أو العلمية ، وقس على ذلك بقية المناصب الأخرى .

ويبدو واضحا من تصوير هيرجرونجى للحياة اليومية والأسرية للمجتمع المكى أن كثيرا من العادات والتقاليد - إن لم تكن كلها - كادت أن تكون متطابقة مع العادات والتقاليد فى أى مجتمع عربى أو إسلامى آخر ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الخصوصيات التي يتميز بها المجتمع المكي ، وخاصة فيما يتعلق باختلاف المسميات المتعلقة ببعض العادات والتقاليد .

وقد عرض هيرجرونجي بإسهاب لحفلات الزواج ومراسمه والختان والولائم والوفاة وتعليم النشء في الكتاتيب وتحفيظ القرآن ، إلى جانب الأعياد والمناسبات الدينية ومواسمها كالمولد النبوى وليلة الإسراء والمعراج ومنتصف شهر شعبان وغير ذلك من مناسبات وأعياد دينية أخرى . وفيما يبدو فإن تلك الأعياد والمناسبات الدينية، بما كانت تتضمنه من احتفالات وولائم ، قد استهوت هيرجرونجي؛ الأمر الذى دفعه إلى أن يخصص لها دراسة مستقلة ومستفيضة فى كتاب آخر أشار إليه بعنوان " الأعياد المكية " ، وللأسف لم نتمكن من التعرف على ذلك الكتاب الذى من المرجح أن يكون قد وضعه باللغة الهولندية أو الألمانية .

ونظرا للتطابق الواضح بين عادات المجتمع المكى وتقاليده مع المجتمعات العربية الأخرى ، فلعل ذلك كان دافعا لهيرجرونجي إلى الاعتماد اعتمادا كبيرا على كتاب إدوارد لان السابقة إشارتنا إليه ، إذ لم يجد ثمة فروقًا بين العادات والتقاليد المصرية وعادات وتقاليد المجتمع المكى ، أو غيره من المجتمعات العربية والإسلامية الأخرى . غير أنه كان مع ذلك حريصا على أن يروى لنا ما شاهده وسمعه بنفسه من دقائق مفصلة ، وكان كثيرا ما يعتمد على أصدقائه ومعارفه المكيين فى إجاباتهم عن استفساراته وتساؤلاته التى كان يطرحها عليهم. والحق أنه كان أمينا فيما رواه وفيما شاهده أو سمع به .

ومن ناحية أخرى فإن هيرجرونجي لم يقتصر فيما رواه على جانب واحد من جوانب المعرفة فيما يتعلق بالمجتمع المكى ، إذ نراه ينتقل من جانب إلى آخر . ففى الوقت الذى يركز فيه على أهالى مكة الزهاد والمتدينين ، نجده يقدم لوحة أخرى عن المغنيات والمطربين والموسيقيين ، وما كان يكتنف الاحتفالات الصاخبة التى كان المكيون يقيمونها وخاصة فى الموالد من أنواع الآثام الدنيوية المحرمة. وفضلا عن ذلك فقد رسم صورة نابضة عن التسابق المحموم بين المكيين حول كسب العيش ، وشيوع الربا ، وما دأب عليه المطوفون وشيوخ الحج وغيرهم من أرباب الطوائف الأخرى من استغلال الحجاج أسوأ استغلال . وليس من شك فى أن تلك التصرفات الشاذة التى كان يلحظها الحاج الورع، بما فيها من مظاهر دنيوية فاسدة تبعد تماما عن التعاليم الدينية المثلى، كانت تعطيه انطباعا سيئا، على عكس ما كان يتوقعه فى تلك المدينة المقدسة من نسمات روحية مثلى، بل قد يصل به الانطباع إلى حد الاعتقاد بأن أقدس مكان فى الأرض قام عليه مجتمع بابلى(*) شديد الدناسة .

(*) المجتمع البابلى، نسبة إلى بابل Babylon التى ورد ذكرها فى الكتب الدينية المقدسة، وعرفت بفسادها وسوء أخلاق أهلها، فأصابهم الله باللعنة وأنذرهم بسوء المصير. [وقد استخدم المؤلف هذا الوصف فى كتابه الذى بين أيدينا] .

وفيما يتعلق بالنواحي الصحية والشفائية ، يمضى هيرجرونجي فى حديثه عن العادات السيئة المتبعة فى العلاج ، أو بالأحرى الخرافات العلاجية التى كان يؤمن بها المكيون ، بما فى ذلك طرد الأرواح الشريرة بالعزائم والرقى ، ومواجهة الحسد بالأحجبة والتمائم ، إلى جانب تلك الكوميديا، أو بالأحرى التراجيديا العلاجية المعروفة باسم الزار الذى يتلبس أجسام النساء . والكثير من تلك الخرافات العلاجية وفدت إلى المجتمع المكي عن طريق العبيد القادمين من الحبشة ، أو من الحجاج الوافدين من شمال وغرب القارة الإفريقية ، أو من جزر الهند الشرقية الذى يشتهر سكانها بالسحر ، ولم تكن تلك الخرافات وافدة على الجزيرة العربية من خارجها فقط، بل وفدت إليها أيضا من بعض مناطقها وخاصة من حضرموت . وكثير من تلك الخرافات العلاجية كانت تعد ضرورة من ضرورات الحياة عند السواد الأعظم من أبناء المجتمع المكى، وخاصة من النساء المكيات اللاتى كن يلجأن إلى تلك الوسائل العلاجية لطرد الأرواح الشريرة التى تستهدفهن بغرض وقف الإنجاب ، أو وقف تغذية أطفالهن الرضع ، أو ما يتعرض له أولئك الأطفال من وفاة ، ومعظم تلك الخرافات تعود بأصولها إلى طقوس وثنية وجاهلية قديمة . وإلى جانب تلك الشعوذة العلاجية كان المكيون يغالبون العديد من الأمراض والأوبئة التي كانت تنتقل إليهم عادة خلال مواسم الحج نتيجة انعدام أو ضعف المراقبة الصحية ، كالجدرى والسل الرئوى والنزلات المعوية والالتهابات الرئوية، بوسائل الطب الشعبى أو ما كان يعرف بطب الركة، إلى جانب الأعشاب ومركباتها ، أو الاستعانة بوسائل الكى والحجامة والفصاد وما إليها .

ويأتي هيرجرونجي بعد ذلك إلى القسم الثالث من كتابه الذى خصصه للعلم والعلماء والمتعلمين ، وأشاد فى ذلك القسم بإعلاء الدين الإسلامى من شأن العلماء الذين أعفاهم الشرع من الجهاد الدينى ، بل إن من يموت منهم فى أثناء انكبابه على العلم يكون فى منزلة الشهداء عند الله .

وأوضح هيرجرونجي، من خلال حديثه عن التعليم، أن المكيين كانوا يزاولون أعمالهم الدنيوية إلى جانب الدراسة والتحصيل العلمى ، وأن من يتفرغون منهم للعلم فإنهم فى هذه الحالة يتلقون هبات أو عونًا من أصدقائهم أو معارفهم الموسرين ، أو من الأوقاف المخصصة لطلاب العلم فى الحرم المكى .

وكان التعليم مقتصرا على التعليم التقليدى الذى يبدأ من تعليم الناشئة فى الكتاتيب ، ثم بعد ذلك فى حلقات الدراسة فى الحرم المكى ، حيث كان لكل شيخ أو عالم حلقة خاصة به في أحد أركان المسجد، حيث يدرِّس العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية لطلابه . ورغم أن العلوم الدينية كانت هى العلوم السائدة في المجتمع المكى ، فإن المكيين كانوا يهتمون إلى جانبها بالعلوم الدنيوية التى ترتبط بحياتهم، ومن بينها على سبيل المثال علم الحساب من أجل تنظيم المواريث، وعلم الجغرافيا بهدف التعرف على البلدان التى يفد منها الحجاج ، أو من أجل التجارة والأسفار، والتاريخ الذى كاد يقتصر على سيرة النبي وصحابته ، إضافة إلى الأحاديث النبوية الشريفة ، إلى جانب علوم الفلك لمعرفة المواقيت وأسرار بعض الظواهر الكونية، وأيضًا الطب الذى كان حرفة لبعض المكيين وكان غالبا ما يرتبط بالطب العربى أو الشعبى ، وعدم الاعتداد بالطب الحديث الذى لم يفلح في إيجاد علاج ضد الموت ! هذا فضلا عن علم الكيمياء الذى استهدف به بعض المكيين الجشعين تحويل المعادن إلى ذهب ، حتى إن الكثيرين منهم فقدوا ثرواتهم طمعا فى الربح . وكثير من تلك العلوم الدنيوية كان يراها المكيون المتدينون بمثابة علوم غير إيمانية، ومن ثم كان رفضهم منتجات العلم الحديث بما فى ذلك الاختراعات الحديثة، لاعتقادهم أن ما ينجم عنها هو المزيد من الشر أكثر من الخير .

ولعل مما يستلفت الانتباه فى حديث هيرجرونجي عن التعليم خروجه عن الدراسة الميدانية لكى يبرز أستاذيته ، أو بالأحرى أكاديميته فى تناوله العديد من المسائل المتعلقة بهذا المجال . ومن بين المسائل التى عرض لها تصحيح بعض الأخطاء التى وقع فيها بوركهارت الذى ذكر فى سجلات رحلاته فى الجزيرة العربية افتقار المكيين

إلى الثقافة والمعرفة بشكل صارخ ، وذلك على عكس ما أكده هيرجرونجى من أنه على امتداد كل قرن من قرون الإسلام كانت مكة تؤوى بين سكانها علماء أجلاء . وربما كان العذر الذى نلمسه لبوركهارت أنه كان فى تقديرنا معنيا فى الدرجة الأولى بدراسة حياة البدو دون الحضر .

ويمضى هيرجرونجى فى الإغراق فى أمور فلسفية وفقهية كادت تبعد به إلى حد كبير عن الدراسة الميدانية التى اتبعها فى القسمين الأولين من كتابه ، فهو يعنى فى القسم الذى خصصه للتعليم بالفرق الدينية المختلفة بما فى ذلك المعتزلة والأشاعرة ، إلى جانب الطرق الصوفية بما فيها السنوسية والنقشبندية والقادرية والشاذلية والسمانية وغيرها ، ورأى علماء الدين وخاصة الغزالى فى مؤلفه إحياء علوم الدين فى التصوف وفى غيره من المسائل الشرعية . ومما هو جدير بالذكر أن الدولة العثمانية كانت تشجع الطرق الصوفية التى شاهدها هيرجرونجى فى مكة بمؤسساتها الزوايا والإخوانيات . وقد ظلت تلك الطرق قائمة في مكة إلى أن قضى عليها الوهابيون بعد ضمهم للحجاز، لما كان يكتنفها من مظاهر رأوها لا تتماشى مع التعاليم السلفية، وخاصة بعد أن دب الانحلال فى تلك الطرق، وفقد التصوف مكانته ونقاءه الأول وأصبح مثالا سيئا لما بلغته التعاليم الإسلامية من أوضاع متردية، حيث ارتبط بالشعوذة وما كان يصاحب مواكب الطرق الصوفية من جحافل الشحاذين والمداحين والدراويش وغيرهم ، فضلا عما كان يضفيه العامة على شيوخ تلك الطرق من كرامات، أو بالأحرى معجزات روى لنا جانبا مثيرا منها .

ويبدو واضحا من حديث هيرجرونجى عن التعليم أن مكة كانت أرفع مستوى فى التعليم عن بقية مناطق شبه الجزيرة العربية ، وعزا ذلك إلى وجود الحرم المكي الذى عرض لسير التعليم فى أروقته المتعددة ، وكانت الدراسة تتوقف عادة فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع لما يقال من أن الإمام أبا حنيفة لقى ربه فى ذلك اليوم ، إضافة إلى توقف حلقات الدرس فى أيام الجمع بسبب الصلاة . كما رسم صورة لحلقات الدرس التى كان يتحلق فيها الطلاب حول شيوخهم من المذاهب الدينية الأربعة . وكان معظم

طلاب العلم يفدون من غرب إفريقيا والهند وأواسط آسيا وجزر الهند الشرقية، حيث كانت تعطي لهم دروس في اللغة العربية قبل مواصلة دراساتهم في العلوم الدينية والفقهية . وكان المذهب الحنفي والمذهب الشافعي هما المذهبين السائدين ، وذلك بحسبان أن المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، وشيوع المذهب الشافعي في أجزاء كثيرة من الحجاز والجزيرة العربية وفي كثير من الولايات الإسلامية التابعة للدولة العثمانية . وكان مما استرعى نظر هيرجرونجي أن الصلاة كانت تقوم في الحرم المكي وراء أئمة المذاهب الأربعة ، وكأن الإسلام يتكون من أربع ديانات ، كما كان القضاء يقوم بدوره على أربعة قضاة من تلك المذاهب الدينية الأربعة ، وقد انتهت تلك الأوضاع على أثر ضم الحجاز للدولة السعودية ، وأصبح المذهب الحنبلي هو المذهب الرسمي السائد في الدولة السعودية .

وفي خلفية تاريخية ركز هيرجرونجي على مدارس العلم في مكة التي أنشأها السلاطين المماليك والعثمانيون ، وأن مصر كانت ملتزمة بتقديم العطايا العينية والنقدية سنويا إلى مكة والمدينة فيما كان يعرف بصرة الحرمين ، وكان الأشراف يحصلون على جانب من تلك المنح والعطايا التي كانت تنفق أيضا على التعليم ، كما كانت إلى جانب ذلك أوقاف أوقفها بعض الحكام والسلاطين المسلمين في جزر الهند الشرقية الهولندية خصصت للصرف على طلاب العلم وعلى الأروقة المخصصة لسكناهم وإيوائهم .

ونظرا لطبيعة تخصص هيرجرونجي في الدراسات الإسلامية فقد أفرد جانبا كبيرا من حديثه عن علماء مكة وعلماء جاوة الذين التقى بهم في الحرم المكي . وبوصفه دارسا للشرع الإسلامي كان يلقى احتراما زائدا من علماء مكة ، وفضلا عن ذلك فإنه لم يدخل معهم في منافسة، بل ارتبط بالكثيرين منهم بصداقات وثيقة ، وأشار بصدد ذلك إلى أحمد الزيني دحلان، كما أفاض في حديثه عن الآثار العلمية للعديد من العلماء المكيين والجاويين .

ولم يكن التدريس في الحرم المكي قاصرا على علماء مكة ، وإنما كان متاحا لغيرهم من الجنسيات الأخرى، متى حصل العالم منهم على ترخيص من شيخ العلماء بعد امتحانه، وكان غالبا لا يرسب أحد في ذلك الامتحان . ومن العلماء غير المكيين الذين درّسوا في الحرم المكي عبد الحميد الداغستاني ومن المصريين يوسف السنبلاويني والشيخ النحراوي، وغيرهم كثيرون . كما وصل العديد من العلماء الجاويين بفضل دراستهم في الحرم المكي إلى مكانة عالية ، وأشار هيرجرونجي بصفة خاصة إلى الشيخ النواوي البانتيني الذي ألف أكثر من عشرين كتابا في مجالات النحو والقواعد والأجرومية العربية، إلى جانب مؤلفات أخرى تناولت الأمور الفقهية ومن بينها "ذريعة اليقين" و"ركائز الإسلام الخمسة"، وقد شقت تلك المؤلفات طريقها إلى مطابع مكة والقاهرة .

ويخلص هيرجرونجي في فصل التعليم إلى أن الحرم المكي كان يمثل جامعة دينية عتيدة ، وأنه بقي محافظا على مكانته العلمية رغم تردي الأوضاع في كثير من الحواضر العربية والإسلامية . وكان وصول الحرم المكي إلى تلك المكانة الرفيعة نتيجة لما آل إليه وضع الجامع الأزهر في القاهرة على أثر اتجاه مصر إلى الأوربة والتحديث منذ عهد الخديو إسماعيل ، ثم أعقب ذلك الاحتلال الإنجليزي، حيث أخذ المعتمدون البريطانيون يسيطرون على الأزهر، مما جعل مركز الثقل الديني يتحول إلى الحرم المكي بعد أن كانت مصر بعلمائها وأزهرها الكعبة الرئيسة للإسلام ، ومن ثم أخذت مكة تنازع مصر مكانتها هذه بعد خضوعها للإنجليز . وأصبح المصريون أنفسهم ينظرون إلى الحرم المكي بوصفه الملاذ الحقيقي للإسلام، بعد أن هالهم أن الإنجليز "الكفار" لهم علاقة بتعيين شيوخ الأزهر والمفتين وغيرهم من علماء الدين ، بينما ظلت مكة بمنأى عن دخول الأجانب إلى أراضيها ومقدساتها، وذلك على عكس الأزهر الذي دنس بأقدام الإنجليز والأوروبيين .

غير أنه رغم تلك الصورة القاتمة التي رسمها هيرجرونجي فقد ظلت القاهرة تحمل منارة العلوم ، حيث كانت الكتب تصل دون انقطاع إلى مكة من مطبعة بولاق

الأميرية ، وكانت معظم تلك الكتب لها طابعها الديني أو الأدبي، كالعقد الفـريد لابن عبد ربه وألف ليلة وليلة ومقامات الحريري وغيرها . ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه رغم أن الدولة العثمانية أدخلت في مكة في عام ١٨٨٣ المطبعة الحكومية ، فإن تلك المطبعة كانت ضعيفة المستوى إذا ما قيست بما كانت عليه المطابع في مصر وبلاد الشام ، ولذلك سرعان ما انطفأ بريقها وظل الاعتماد على ما كان يرد إلى مكة من مطابع القاهرة ، إضافة إلى قوائم الكتب والمطبوعات التي كان يبعث بها باعة الكتب في القاهرة إلى الحرم المكي .

نصل أخيرا إلى القسم الأخير من كتاب هيرجرونجي الذى خصصه للجالية الجاوية التي كانت من أبرز الجاليات في مكة . وقد سبقت الإشارة إلى أن كلمة جاوة كانت لا تعني القادمين من جزيرة جاوة فقط ، وإنما كان ذلك اللفظ يطلقه المكيون عادة على جميع الوافدين من جزر الهند الشرقية التي تشتمل على مئات من الجزر، أهمها جزيرة جـاوة وسومطرة وشبه جزيرة الملايو وسيليبس ومولوكاس وبورنيو وغيرها .

وقد يكون من المفيد أن نتوقف بعض الوقت للتعرف على الكيفية التي وصل بها الإسلام إلى سكان تلك الجزر، فمن المعروف أن التجار العرب من جنوب الجزيرة العربية وخاصة الحضارمة كانوا أول من وطئ تلك الجزر، وكان قدومهم إليها للتجارة حينا أو للاستيطان حينا آخر ، إذ كانت طبيعة أراضيهم القاحلة تدفعهم إلى خوض عباب المحيط الهندى من أجل البحث عن أبواب جديدة للرزق . ورغم أنهم كانوا قلة من التجار يأتون في فترات محددة من كل عام ، فإنهم بمضى الزمن بدأ اختلاطهم يشتد بالسكان . وقد ساعدت العوامل الجغرافية على تنشيط حركة التجارة والملاحة ، لأن الرياح الموسمية التي تهب على الجزء الغربي من المحيط الهندى كانت تمكن السفن الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود ، ففي فصل الربيع كانت تدفعها تلك الرياح في اتجاه شمالي شرقي؛ فتخرج من خليج عمان وسواحل

حضرموت إلى المحيط الهندى ، وفى فصل الخريف تدفعها فى اتجاه معاكس يمكنها من العودة إلى قواعدها فى السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية .

وفى خلال الدورة الأولى للرياح كان التعامل التجارى مع السكان وبناء المستودعات لحفظ بضائع التجار انتظارا لدورة الرياح المعاكسة؛ ومن ثم أتيح لكثير من التجار العرب التعايش والتزاوج مع السكان المحليين؛ وخاصة بعد أن وجد أولئك التجار احتراما من السكان والحكام نتيجة الثقة فى معاملاتهم ، فضلا عما كان يدعيه أولئك التجار من الانتساب إلى البيت النبوى، حيث حرص الكثيرون من السكان على التقرب إليهم وتزويج بناتهم منهم ، وكانوا يتفاخرون إذا ما ولدن سادة وأشرافا . وربما كان كثير من أولئك التجار قد تعمدوا تزييف أنسابهم حتى يكتسبوا احترام السكان البسطاء ، وإن كان هذا لا ينفى أن هناك أسراً من الأشراف قد وصلت بالفعل إلى تلك المناطق النائية .

ورغم أننا لا نستطيع أن نحدد تحديدا قاطعا الزمن الذى دخل فيه الإسلام إلى تلك المناطق ، فإن الأمر الذى لا شك فيه أن الإسلام بدأ وصوله إلى تلك الجزر منذ القرن الثامن الميلادى . وكان للتجار من عمان وحضرموت ومن تبعهم من الدعاة وأرباب الطرق الصوفية الفضل الأكبر فى تحويل كثير من السكان الوثنيين والبوذيين والهنادكة إلى الدين الإسلامى ، كما لا ينبغى أن نغفل عنصرا آخر وهو أن من أسلم من تلك الشعوب كان لهم تأثير على إسلام غيرهم من بنى جلدتهم .

ولعل السؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو : إلى أى حد نجح التجار العرب فى نشر الإسلام فى تلك الجزر؟ ورغم أن العمل التجارى ومصلحة التجار أنفسهم كانت هى الهدف الرئيسى لهم ، وبالتالى فإن عملية نشرهم الإسلام لم تكن سوى عملا ثانويا، فإن هناك من يؤكد عدم وجود أى تعارض بين العمل التجارى والدعوة إلى الإسلام ، ويرجع ذلك إلى بساطة التعاليم الإسلامية التى لا تشترط وجود كهانة معينة، ومن ثم فإن الظاهرة التى استرعت انتباه كثير من الباحثين هى انتشار الإسلام

بغير عنف وبغير جهاد فى الدعوة في كثير من الأحيان ، وهذا أمر منطقى، لأنه لم يكن للتجار العرب ولا للدعاة الذين تبعوهم إلى تلك المناطق قوة مسلحة إزاء الممالك الهندوكية القوية التى تغلغلوا فى أراضيها ، ومن ثم كانت القدوة الحسنة والتعامل السليم هما الكفيلان بنشر الإسلام . ومن ناحية أخرى كان للطرق الصوفية دورها فى سرعة انتشار الإسلام ، إذ إن تلك الطرق لم تكن ببعيدة فى قليل أو كثير عن معتقدات السكان القديمة؛ الأمر الذى أتاح لها التغلغل ، وخاصة حينما نجح الدعاة وأرباب الطرق الصوفية بفضل استخدامهم لبعض العناصر والتقاليد المحلية أن يحافظوا على موروثات تلك الشعوب بعد وضعها فى إطار إسلامى .

ومن أبرز النتائج التى ترتبت على انتشار الإسلام ظهور العديد من السلطنات الإسلامية ، لعل أولها سلطنة باساى التى تأسست فى سومطرة فى القرن الثالث عشر الميلادى . ويسجل قيام تلك السلطنة القوة التى وصل إليها المسلمون، إلى الدرجة التى أتاحت لهم فيها تأسيس سلطنة إسلامية حاكمة . ومن تلك السلطنة انتقل الإسلام إلى جزيرة جاوة بعد أن نجح المسلمون فى إسقاط سلطنة الماجاباهيت الهندوكية فى عام ١٤٧٥ ، وبسقوط تلك السلطنة أحرز الإسلام انتشارا كبيرا بين الأمراء والأهالى . ومن جاوة شق الإسلام طريقه إلى بورنيو ثم إلى سيليبس ومولوكاس وغيرها من الجزر .

وقد أتيح لكثير من المصنفين العرب والمسلمين ومن بينهم أبو زيد السيرافى وأبو الحسن المسعودى والشريف الإدريسى الحديث عن بلاد الجاوة وعن السلطنة الهندوكية التى كانت تحكم كثيرا من أجزائها ، وأن حدود تلك السلطنة لا يمكن معرفة مدى اتساعها، وأن جيوشها لا تعد ولا تحصى .

ولم يكن المصنفون العرب أو المسلمون وحدهم هم الذين تحدثوا عن بلاد الجاوة، وإنما أمدنا ماركو بولو فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٢٩٢، بمعلومات وفيرة عن جزيرة سومطرة التى قضى فى سواحلها الشمالية

قرابة خمسة أشهر ، حيث ذكر أن غالبية سكانها من الوثنيين والمجوس عدا سكان المناطق الموجودة فى شمالها الشرقى الذين اعتنقوا الإسلام .

وفى إبان النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى زار ابن بطوطة سلطنة جاوة ، ويفهم من رواياته أن الإسلام قد توطن فى تلك السلطنة ، حيث ذكر أن سلطانها الملك الظافر من فضلاء الملوك ، شافعى المذهب محب للفقهاء الذى يحضرون مجالسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الغزو والجهاد ، وأهل سلطنته يخرجون معه للجهاد طوعا، وهم غالبون على ما يليهم من الكفار الذين يعطونهم الجزية على الصلح. ورغم ما توحي به روايات ابن بطوطة أن الحكام المسلمين اتبعوا أسلوب الغزو والجهاد فى نشر الإسلام ، فإنه من الثابت أن تلك كانت حالات قليلة لا تجعلنا نتراجع عن التأكيد بأن الإسلام انتشر سلميا دون استخدام العنف أو السلاح . وقد حفلت الروايات المحلية فى الملايو وسومطرة وجاوة بقصص عن دخول الإسلام إلى تلك المناطق، حيث حفلت بكثير من الأحداث المثيرة، التى تحكى جوانب من البطولات والشجاعة الخارقة التى تذكرنا بأساطير الإلياذة والأوديسة .

جدير بالذكر أن عملية التحول إلى الإسلام لم تقوض سلطة الحكام المحليين ، إذ كان الإسلام غالبا ما يدخل بلادهم برضاهم بل تحت حمايتهم . ونحن إذا ما استثنينا قوة اجتذاب العقيدة الإسلامية وتأثيرها فى النفوس فضلا عن بساطتها وفطريتها ، فإنه كانت هناك دوافع سياسية واقتصادية أدت إلى إقبال كثير من الحكام على اعتناق الدين الإسلامى الذى وجدوا فيه وسيلة لتدعيم حكمهم المستقل والتخلص من السلطة الهندوكية ، كما تمثلت الدوافع الاقتصادية فى رغبة أولئك الحكام فى الحصول على دعم التجار العرب الذين كان فى إمكانهم – قبل قدوم البرتغاليين بأسلوبهم الاحتكارى – إنعاش أو خنق أى ميناء بحرى . أما بالنسبة للأهالى فقد أقبلوا على اعتناق الإسلام وتحولوا من دياناتهم البوذية والهندوكية بعد أن قدم لهم الإسلام أملا جديدا وأعطى لهم إحساسا بقيمتهم الذاتية، أعضاء فاعلين فى المجتمع، بينما كانت غالبيتهم فى ظل العقائد الهندوكية والبوذية أقل قيمة من أبناء الطبقات العليا .

لم يقتصر صراع المسلمين ضد السلطنات الهندوكية فى جزر الهند الشرقية ، وإنما أخذوا بعد ذلك يصطدمون بالاستعمار الأوروبى بداية من قدوم البرتغاليين وتبعهم الإسبان والإنجليز . ولم تلبث هولندا أن دخلت دائرة الصراع منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادى حين نجح تجار أمستردام فى إنشاء شركة الهند الشرقية الهولندية فى عام ١٥٩٤ ، ووجه الهولنديون نشاطهم لطرد البرتغاليين وغيرهم من القوى الأخرى والحلول محلهم . وفى عام ١٦١٩ تأسست مدينة باتافيا التى أصبحت عاصمة للمستعمرات الهولندية فى جزر الهند الشرقية. وكان من الطبيعى أن يصطدم الاستعمار الهولندى بالقوى الإسلامية فى كل من جاوة وبورنيو وباساى وآتشيه وغيرها. ورغم نجاح هولندا فى التغلب على تلك القوى الإسلامية جميعها وكانت آخرها سلطنة آتشيه التى أخضعتها لحمايتها فى عام ١٩٠٣ ، فإن الإسلام ظل قوة تتحدى النفوذ الهولندى ، ولم تستطع هولندا أن تقلل من انتشار الإسلام ، ولا تزال جزر الهند الشرقية، أو بالأحرى الجمهورية الإندونيسية تعد فى وقتنا الحاضر من أكبر الدول الإسلامية قاطبة .

ترتب على انتشار الإسلام فى جزر الأرخبيل الهندى وفود كثير من سكان تلك الجزر إلى مكة لتأدية فريضة الحج ، وبمرور الزمن غدت الجالية الجاوية من أكبر الجاليات وأهمها فى مكة، ومن ثم عكف هيرجرونجى على إعداد دراسة مستفيضة عن أوضاع تلك الجالية وحياتها الاجتماعية . وكان مما استلفت نظره علو شأن الجاوى الذى كان محل ثقة المكيين فى معاملاتهم معه، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه كان يفد إلى مكة فى بداية الأمر الموسرون من أهالى تلك الجزر، الذين كانوا موضع ثقة المكيين لما كانوا يتصفون به من صدق وأمانة . أما بعد أن تزايدت أعدادهم بعد ظهور شركات النقل البحرية وتقدم الملاحة البخارية التى عملت على نقل آلاف من الحجاج إلى جدة ، فلم يعد الأمر قاصرا على الموسرين وإنما بدأ يخالطهم أفواج من أفراد الطبقات المتوسطة والفقيرة ، ومن ثم أخذ الجاويون يفقدون مكانتهم فى المجتمع المكى. ولعل ذلك كان يرجع أيضا إلى تنافسهم مع المكيين فى كسب العيش ، ووصول بعضهم إلى مناصب شيوخ للحج أو مرشدين لبنى جلدتهم، كما ترتب على تصرفاتهم السلبية

تعرضهم للسخرية والاستهزاء من أفراد المجتمع المكى ، يضاف إلى ذلك ما ترتب على سوء أوضاعهم الاقتصادية المتردية من عدم استطاعتهم الوفاء بديونهم ، ومن ثم ولَّى كثير منهم الفرار تاركين زوجاتهم وأطفالهم لكي يتولى رعايتهم المحسنون أو الموسرون من أبناء جلدتهم أو غيرهم .

ترتب على زيادة أعداد الجالية الجاوية أن انتشرت في الشارع المكى كثير من المفردات والجمل القصيرة، التى أتقنها جانب كبير من المكيين خاصة من الباعة والشباب، غير أن تلك المفردات لم تكن أكثر من وسيلة للتواصل، أى أنها لم تصل إلى درجة التمازج اللغوى أو الثقافى ، أو فيما يعبر عنه علماء الاجتماع بالتلاقح الثقافى .

ولعل أبرز ما أشار إليه هيرجرونجى هو ما اتسم به الجاويون من بساطة وسذاجة، إلى درجة أن كثيرا منهم كانوا يعمدون إلى تقبيل أيادى خدام الحرم المكى ، وكان من بينهم أمراء وحكام ، ومن الواضح أنهم كانوا يفعلون ذلك من منطلق دينى ، إذ كانوا ينظرون إلى أوطانهم باعتبارها كومة من الحمأة مقارنة بما كانوا يضفونه على مكة والحرم المكى من احترام وتقديس . غير أنهم بعد إقامتهم الطويلة ، وبعد أن خبروا حقيقة المجتمع المكى أخذوا يتخلون عن تلك العادات المشينة للذات . يضاف إلى ذلك أنهم عانوا كثيرا من سوء استغلال المكيين لهم ، فضلا عن السرقات العديدة التى كانوا كثيرا ما يتعرضون لها . وقد أفاض هيرجرونجى فى حديثه عن كثير من أوجه الاستغلال التى كان يتعرض لها البسطاء منهم، سواء من قبل شيوخ الحج أو المطوفين أو غيرهم، بدعوى تنقيتهم من دناستهم الفطرية التى كانوا عليها قبل اعتناقهم الإسلام . وكان من أبرز مجالات هذا الاستغلال إقناعهم بتغيير أسمائهم التى كانوا يسمون بها إلى أسماء عربية إسلامية تحمل أسماء النبى أو الصحابة أو كبار علماء المسلمين، وذلك نظرا لما كانت تحمله أسماؤهم التى كانوا عليها من معانى قد يكون بعضها إباحيا. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت الأسماء العربية هى الأسماء السائدة فى جزر الهند الشرقية . غير أن تغيير تلك الأسماء ما لبث أن أصبح عملا استغلاليا

يلجأ إليه الوسطاء لدى الشيوخ المكلفين بذلك لقاء مبالغ مالية بطبيعة الحال . ومن الطريف ما ذكره هيرجرونجى من إقناع طائفة الحلاقين للجاويين بضرورة تصحيح أخطاء ختانهم قبل الإحرام، على الرغم من كونهم مختونين وفقا لتقاليدهم الوثنية، وذلك حتى يبتزوا منهم شيئا من المال .

ورغم تلك الصور التى تحدث عنها هيرجرونجي، والتى كشف فيها عن بساطة الجاويين وسذاجتهم ، فإنه لم يغفل عن تأكيد أن بعضهم وصلوا إلى درجة كبيرة من العلم جعلتهم شيوخا وعلماء أجلاء في الحرم المكى ، أو مدراء للمساجد والأوقاف ونظارا للمدارس لمن يعودون منهم إلى أوطانهم . وبصدد ذلك تعرض لاتصالاته الشخصية بكثير من أولئك العلماء ، وأهم الإسهامات التى قدموها في مجالات مختلفة من العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وأهم مؤلفاتهم التى شقت طريقها إلى مطابع القاهرة ومكة والملايو وإستانبول وغيرها .

ومن المؤكد أن الإسلام كان له أثره القوى فى الأرخبيل الشرقي لجزر الهند الهولندية إلى درجة أن أصبح الجاويون لا يعتدون بحضارتهم القديمة رغم عراقتها، ويعتبرون أن حضارتهم الحقيقية بدأت بدخولهم فى الإسلام . كما أتاح لهم اعتناقهم الإسلام قيامهم بالعديد من الانتفاضات التى اندلعت فى العديد من السلطنات الإسلامية، وارتبطت تلك الانتفاضات في غالبيتها بعودة الحجاج الجاويين إلى بلادهم، ومن ثم غدوا مادة قابلة للاشتعال ضد الحكم الهولندى . ومن هنا يذهب هيرجرونجي إلى القول بأن الجاويين العائدين من مكة كانوا يحملون معهم ميولا ثورية ، ومن ثم أصبحوا فى نظر السلطات الهولندية بمثابة الطاعون الذى يسرى فى مجتمعات الأرخبيل الشرقى ، بسبب إيقاظهم الوعى فى نفوس مواطنيهم وتشجيعهم على مقاومة الحكم الأجنبى وكراهيته .

والأمر الذى لا شك فيه أن تأدية الجاويين للحج قد ترتبت عليها تأثيرات سياسية ضد الاستعمار الهولندى، ولم تقتصر تلك التأثيرات على الحجاج الجاويين وحدهم ، بل

كانت نتيجة أيضا لانتشار الطرق الصوفية التي - رغم سلبياتها - كان لها دور كبير في نشر الإسلام وإثارة الوعي القومي. وإلى جانب الطرق الصوفية وعودة الحجاج الجاويين ، كان هناك عنصر ثالث تشكل من العلماء الجاويين الذين تلقوا تعليمهم في الحرم المكي، وكان لتلك العناصر الثلاثة أثرها في الصحوة الدينية الإسلامية التي عمت جزر الهند الشرقية . ولعل ذلك مما أثار السلطات الهولندية من حيث نظرتها إلى مكة التي رأتها بمثابة قلب الحياة الدينية في جزر الهند الشرقية، ومن ثم عملت على اتخاذ شتى الوسائل لقمع تلك الصحوة الدينية ، ووجدت سبيلها إلى ذلك في تقييد حركة الحج، بحيث كانت لا تسمح به إلا للمقتدرين وممن تكون مواردهم كافية لتغطية نفقاته . ورغم القيود التي وضعتها السلطات الهولندية تحت ضغط الجمعيات التبشيرية المسيحية ، فإنها عجزت عن إقامة سد لمواجهة تيار الحج الجارف، إضافة إلى أن الإسلام كانت قد قويت جذوره بحيث كان من الصعب اقتلاعها. ومن الوسائل الأخرى التي لجأت إليها السلطات الهولندية الاستعانة بحكام هولنديين بدلا من الحكام المسلمين في تولي المقاطعات والجزر، فضلا عن منع قدوم الحضارمة أو هجرتهم إلى جزر الهند الشرقية . ورغم تلك القيود فقد ظل نشاط الحضارمة الملاحي قائما حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلى أن بدأ نجمهم يأفل على أثر استخدام الملاحة البخارية منذ النصف الأول من ذلك القرن .

وليس من شك في أن زيادة اتصال الجاويين بالمراكز والحواضر الإسلامية الكبرى هي التي ساعدتهم على الاستقرار في عقيدتهم الإسلامية ، فضلا عن تفاعلهم معها وتأثرهم بما كان يقع في قلب العالم الإسلامي من أحداث سياسية أو فكرية ، من ذلك تأثرهم بالدعوة الوهابية، وبحركة الجامعة الإسلامية التي ظهرت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، مما جعل هولندا تتوجس من هذه الحركة على نفوذها ، وخاصة حينما ظهر اهتمام الدولة العثمانية - بوصفها دولة الخلافة الإسلامية - بمسلمي جزر الهند الشرقية . وثمة ما يؤكد أن الحركات الاستقلالية التي قامت في

تلك الجزر كانت متأثرة بالعقيدة الإسلامية، التى كانت عاملا رئيسا فى تعميق مفاهيم تلك الشعوب لوعيها القومى وزيادة إحساسها بوحدتها والوصول إلى استقلالها .

ولعل الدراسة التى خصصها هيرجرونجي للجالية الجاوية فى مكة هى التى دفعته لتقديم نتائج ما توصل إليه إلى السلطات الهولندية في جزر الهند الشرقية، ناصحا إياها بضرورة كسب العائدين الجاويين من الحج إلى جانبها، اتقاء لخطرهم على نفوذها فى أضعف الأحوال ، كما يتعين عليها أن تزيد معرفتها بطبيعتهم الدينية تجنبا لوقوع أو ارتكاب أخطاء قد يصعب تداركها والتعامل معهم بأسلوب يتقي خطرهم ويحافظ فى الوقت نفسه على نفوذها .

وفى تقويمنا لما ذهب إليه هيرجرونجي فى كتابه هذا يمكن القول بأنه لم تبدر منه إساءة للدين الإسلامى ، إذ كان كثيرا ما يكرر شدة احترامه لذلك الدين ولمثله العليا ولنبيه العظيم ، وذلك رغم ما كان سائدا فى زمنه من جدل كبير حول ماهية الدين الإسلامي، وما اتسمت به الكتابات عنه بالتعصب الشديد والكراهية المقيتة . ومن الواضح أن هيرجرونجي كان على عكس كثير ممن سبقوه من الذين جابوا أجزاء من الجزيرة العربية ، ومن بينهم على سبيل المثال تشارلز دوتى الذى تحامل تحاملا عنيفا على الدين الإسلامي وعلى النبى الكريم ، كما أبدى وليام بالجراف شدة ازدرائه واحتقاره لسكان الجزيرة العربية. غير أننا نكاد نلمح بعض العبارات المسيئة للمقدسات الإسلامية ، وإن كنا نرجح أنها صدرت من هيرجرونجي بطريقة تلقائية أو عفوية ودون قصد متعمد . يضاف إلى ذلك مبالغته الشديدة فى تركيزه على سلبيات المجتمع المكى بما فيه من استغلال وربا وتصارع حول المكاسب الدنيوية ، إضافة إلى ما كان يتخلل احتفالات الموالد من أمور حرمها الدين، بما فى ذلك من دعارة وشذوذ؛ الأمر الذى غدا فيه المجتمع المكى أقرب ما يكون إلى مجتمع بابلى قام فى أقدس المقدسات الإسلامية، كما صدرت منه إلي جانب ذلك بعض العبارات التى يحتمل

أن يكون فيها خدش للحياء، وقد بقيت على حالها إيثاراً لمبدأ الأمانة في النقل، دون التدخل إلا في صورة تعليق هامشي أو حاشية .

وقد جهدنا ما وسعنا الجهد خلال مراجعتنا للترجمة العربية لذلك الكتاب وضع تعليقات وشروح على بعض ما ورد من معلومات كانت في حاجة إلى تصحيح أو تعليق أو إيضاح .

لقد سبق أن ألمحنا في بداية تقديمنا للترجمة العربية لذلك الكتاب أنه صدر في طبعته الأولى في عام ١٨٨٩ باللغة الألمانية ، ثم أصدرت جامعة ليدن طبعة أخرى من ذلك الكتاب في عام ١٩٣١ بعد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية ، وهي الترجمة التي راجعها هيرجرونجي بنفسه . ومن الواضح أن أربعة العقود أو أكثر التي انقضت منذ ظهور الطبعة الألمانية إلى صدور الطبعة الإنجليزية كانت سنوات مليئة بالأحداث السياسية المهمة ، إلى جانب العديد من التغيرات التي حدثت في الجزيرة العربية بصفة عامة وفي إقليم الحجاز وفي الحرمين الشريفين بصفة خاصة، ففي خلال تلك السنوات انتهى الحكم العثماني، ونجح الملك عبد العزيز بن سعود في ضم الحجاز إلى حكمه في عام ١٩٢٥ . وترتب على الحكم السعودي المتشدد زوال كثير من المظاهر الاجتماعية التي كان بعضها يبعث على المرح والحيوية ، وإن كان بعضها الآخر مخالفا للتعاليم الإسلامية . وفي خلال تلك السنوات أيضا حلت وسائل النقل الحديثة بدلا من وسائل النقل التقليدية التي كان يستخدمها الحجاج من أجل وصولهم إلى بيت الله الحرام . ولم تعد مكة مغلقة على سكانها كما شاهدها هيرجرونجي خلال إقامته بها، بل حدث انفتاح بينها وبين دول العالم الأخرى، وأصبح المكيون أكثر اتصالا بتلك الدول، وهم الذين لم يسبق لهم مبارحة مدينتهم المقدسة، حتى ذهابهم إلى جدة القريبة منهم توجسا من وجود " الكفار" بها !

وكان أهم ما ترتب على ضم الحجاز للحكم السعودي الدعايات التي أثيرت ضد ذلك الحكم واستهدفت تخويف الجاويين وإبعادهم عن المجيء إلى مكة، مما أدى إلى معاناة السعوديين من ضائقة اقتصادية في وقت لم يكن قد اكتُشف فيه النفط ولم

يُستغل ، ومن ثم كان حرص الملك ابن سعود على إيفاد الدعاة من أجل حث الإندونيسيين على الحج ، فضلا عن قيامهم بتطهير الدين الإسلامى ومناهضة الطرق الصوفية التى أخذ يتخللها الكثير من المعتقدات المحلية، مما كان يهدد بعودة الموروثات الوثنية القديمة .

بقى أن نؤكد - ونحن بصدد إنهاء تقديمنا للترجمة العربية لذلك الكتاب - الجهد الذى بذله الدكتور صبرى محمد حسن الذى ترجم النص الإنجليزى إلى اللغة العربية، واستطاع إلى حد كبير الحفاظ على أسلوب المؤلف وطريقة عرضه للموضوعات التى تناولها، وليس من شك فى أن تمرس المترجم فى ترجمة العديد من كتب وسجلات الرحالة الأوروبيين في الجزيرة العربية هو الذى مكنه من بلوغ هذا المستوى من الأداء الذى يلمسه القارئ بنفسه .

ولا يسعنا فى النهاية إلا أن ننوه بأهمية الترجمة العربية لذلك الكتاب، والتى نعتقد أنها سوف تسد فراغا فى المكتبة العربية التى لا تزال تفتقر إلى المصادر الكلاسيكية المترجمة ، إذ إنه رغم الجهود الكبيرة التى بذلت فى السنوات الأخيرة فى ترجمة الكثير من سجلات الرحالين الأوروبيين ، فإنه لا يزال هناك العديد من السجلات الأخرى عن شبه الجزيرة العربية التى نحن أشد ما نكون حاجة إلى ترجمتها وإضافتها إلى المكتبة العربية .

جمال زكريا قاسم

القسم الأول

الحياة اليومية فى مكة



درویشان بخاریان

المراقب الذى يتفحص مختلف السكان فى شوارع مكة، قد يجد نفسه يتدبر مبدأ "رغبة الجموع فى التعايش سويا" الذى يعده رينان(*) أساسًا فى تكوين الأمم، وأن ذلك المبدأ هو الذى يُجمِّع ذلك الحشد الكبير من السكان؛ ذلك الحشد الذى يبدأ بالأتراك شُقر البشرة، مروراً بمختلف الظلال إلى أن يصل إلى التوبيين السود ذوى السواد الكالح . غير أن الأمر ليس بهذه السهولة أو اليسر، هذه الجنسيات المختلفة، هى فى معظمها هنا، بل أيضًا فى أى مكان آخر، تتخذ لنفسها موقفًا غير ودى من الجنسيات الأخرى، كما تعبر عن رأيها فيها بأساليب عامرة بالقدح والذم والشتيمة، فضلاً عن النكات التى تنضح حقدا وحسداً. ومن هنا تنتفى رغبة العيش أو التعايش بين هذه الجنسيات المتباينة. يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من أولئك المكيين الذين ما يزالون يكشفون عن أصولهم الأجنبية، جاءوا إلى هنا تحدوهم رغبة القرب من الله، وهذا القرب بحد ذاته يترك انطباعا خاصًا لهذه الجماعات الأجنبية على اختلاف أنواعها.

وهنا يتعين علينا ألاّ نعير الحامية التركية – أو المسئولين الأتراك الذين يتغيرون بصورة مستمرة – أى قدر من الاهتمام. المؤمنون الآخرون الذين يقيمون فى مكة غالبا ما يمارسون العبادات بإيعاز من بعض الأسباب الدنيوية. تتمثل المزايا والعطايا الربانية التى يتطلع الناس إليها فى مكة، فى الصلاة التى تجرى باعتبارها تجارة رابحة (حج مبرور وذنب مغفور وتجارة لن تبور) . هناك كثير من الأتراك والمصريين والسوريين والبخاريين وأناس آخرين من وسط آسيا ومن الهنود، ومن يتجمعون

(*) جوزيف إرنست رينان ١٨٢٣ – ١٨٩٢ ، فيلسوف ومؤرخ فرنسى شهير له العديد من المؤلفات، وله اهتمامات واسعة بفلسفة اللغات . (المراجع)

ويدمجون تجاراتهم في تجارة واحدة، ويُدْخلون إلى تلك المدينة الفقيرة أشياء وسلعا فاخرة، يعد وجودها في هذه الأرض الفقيرة ضربا من المعجزات في أذهان أولئك الحجاج البسطاء. يضاف إلى ذلك أن السلع التى تنتج عن صناعة أرقى من ذلك، والتى لا تستورد جاهزة، هى هنا، وإلى حد كبير جدا فى أيدي الأجانب؛ فالنجار، وعامل اللحام، وصانع الأنابيب، كل هؤلاء جاءوا من الخارج، وهذه الحرف تأتى إلى هذا البلد من البلدان الخارجية، أو من البلاد المسلمة صاحبة الثقافة.

هؤلاء الحرفيون يتبعهم فى مكة عدد كبير من الشحاذين، الذين يجيئون طمعاً فى أداء الحج، أو لأنهم يستطيعون ممارسة مهنتهم هنا فى مكة، على نحو أفضل من بلادهم. هؤلاء الشحاذون يأتون إلى مكة من وسط آسيا على شكل دراويش، ملتحفين ملابس عبارة عن خرق مهلهلة مختلفة الأنواع، ويلبسون على رءوسهم طراطير مصنوعة من اللباد، ويمسك الواحد منهم فى إحدى يديه عصا يتوكأ عليها، كما يحمل معه أيضاً "شخشيخة" من الخشب فيها بعض الحلقات المعدنية التى ترافق الأصوات الناتجة عنها تلك الابتهالات التى يرددها أولئك الشحاذون؛ وفى اليد الأخرى يمسك ذلك الشحاذ وعاءً لتلقى الصدقات. هذا الوعاء يمكن أن يطلق عليه اسم فنجال الشحاذ الخشبى، وهو عادة ما يكون نصف الغطاء الخشبى الذى يغطى ثمرة جوز الهند.

السواد الأعظم من هؤلاء الشحاذين ينتمون إلى طبقة من اثنتين، إما "الشحاتين" Shahhatin أو "المداحين" maddahin (وهذان المصطلحان ينطبقان على الشحاتين) فهم يسلكون سلوكا مهذبا، والأغنية أو الابتهال الذى يتغنى به الشحاذ يكون موجها دوما للخالق. ومن يقف أمامه هؤلاء الشحاذون، سواء أكان فى مجلسة أم فى بيته يستطيع صرف أولئك الشحاذين إلى البيت التالى لبيته أو المجلس الثانى لمجلسه بقوله (الله كريم). أما الشحاذون الأجانب الذين يجيئون برفقة الأثرياء من الناس، والذين يقررون عدم العودة إلى بلادهم، فيرضون لأنفسهم القيام بالأعمال التى تعافها أنفس المكيين الأصليين ويرفضون القيام بها. من هنا فمن الملاحظ أن القسم الأكبر من هذه النوعية

من الشحاذين الغرباء يعملون حراسا للمنازل والمساجد، وتتمثل مهمتهم فى حراسة نعال المصلين عندما يدخلون المساجد لأداء الصلاة، كما يعملون أيضا حمالين فى المنازل التي تعيش فيها عائلات عدة، كما يقومون أيضا بالأعمال التى تعافها أنفس العبيد ولا يقومون بها.

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أن الهنود يجنون أرباحًا كبيرة لا من التجارة وحدها التى لهم فيها نشاط كبير، وإنما من إقراض النقود أيضًا. ومعروف أن أحكام الإسلام صارمة فى مسألة الربا والمراباة والمرابين، وفى الأيام الأخيرة وصلت فائدة الإقراض إلى ٥٠ فى المائة وتلك علامة من علامات اقتراب الساعة، ومع ذلك نجد كثيراً من المرابين لا يتورعون عن الخروج على الشريعة، ويؤولونها على نحو يتيح لهم فرصة الالتفاف عليها.

تتمثل أكثر طرق الالتفاف على الشرع والشريعة فيما يأتي:

١ - فى الصكوك المحددة تُرفع قيمة المبلغ المدون بأكثر من قيمته الأصلية.

٢ - يبيع المقرض للمقترض سلعة من السلع بسعر أعلى يُسدد فى المستقبل، ويعيد شراء السلعة من المقترض، حسب اتفاقهما، بمبلغ أصغر يُدفع فى الحال، وهذا المبلغ الأخير هو القيمة الحقيقية للقرض.

ثبت أن أناسًا آخرين كانوا تلاميذ نجباء للهنود فى هذه الأمور، وقد تعرفت بعضًا من أهل مكة الأصليين كانوا يحصلون من الجاويين وحدهم على مبالغ سبق أن اقترضوها وكانت تتراوح بين ٥٠٠٠٠ إلى ٨٠٠٠٠ دولار من دولارات ماريا تريزا(*)، رغم أن إقراض النقود لم يكن مهنتهم الأصلية وإنما هى مهنة فرعية، هؤلاء المرابون

(*) دولار ماريا تريزا أو بالأحرى ريال ماريا تريزا، وهو عملة نقدية نمساوية شاع استخدامها في العديد من الأقطار العربية، وخاصة أقطار الخليج العربي. وكانت تعرف أيضًا بالتاليرى وكذلك بالريال الفرنسى، كما عرفها المصريون بريال "أبو طاقة"، حيث طبع على أحد وجهيها درع كان يشبه فى نظرهم طاقة أو مشربية مثل تلك التى كانوا يستخدمونها فى منازلهم. (المراجع)

كانوا مستائين لسوء الأحوال فى جزيرة جاوة، على الرغم من وصول المبالغ إلى نصف المبالغ المدونة فى الصكوك. ينتمى السواد الأعظم من هؤلاء المرابين إلي الطبقة المتوسطة. تجعل هذه الممارسات الربوية أهل مكة الأصليين يتوقعون قيام الساعة فى أية لحظة من اللحظات. والناس هنا يتحاشون تماما ذكر كلمة الربا، وإنما الذى يرمى إليه المكيون هو المرابحة .

الحضارمة يعدون منافسين منافسة خطيرة للهنود فى مسألة الربا هذه. هؤلاء الحضارمة يفدون إلى مكة ويأتون إليها خاويً الوفاض وبلا أية نقود، لكن لديهم قدرة كبيرة على التكيف مع الحياة وظروفها فى مكة، فضلاً عن قدرتهم الكبيرة على التحمل. وهم لا يجدون غضاضة فى جعل خياراتهم التجارية أو مواقفهم تتواءم مع ما تتيحه لهم الظروف. وقد بدأ كثيرون من هؤلاء الحضارمة حياتهم فى جدة على شكل حمالين للأثقال الكبيرة، نظراً لأن نقابة الحمالين هى التى تتولى حركة النقل بكاملها ما بين مدينة جدة والميناء، ويتحول بعض من هؤلاء الحمَّالين إلى أثرياء. عندما يكون هؤلاء الحضارمة فى مكة يبدأون أولا بالبحث عن أماكن تتيح لهم العمل فى بعض الحرف فى أثناء النهار. وبذلك يكتسبون معرفة تقنية ومحلية سرعان ما يبدأون فى تسخيرها لحسابهم الخاص، والصبى الحضرمى الذى يبلغ من العمر أربعة عشر عاما سرعان ما يتجه بعد أن يكسب مبلغ ٢٥ دولارا بوضع عشرين دولاراً منها فى المرابحة (الربا)، وهذا المبلغ الصغير سرعان ما يعود على صاحبه بمائة فى المائة من قيمته، على الرغم من أن مدة الاقتراض لا تزيد على أشهر تعد على أصابع اليد الواحدة.

ويأتى كثير من اليمنيين إلى مكة للهدف نفسه الذى يتوخاه الحضارمة، الذين لا يمكن لهم أن يضاهوهم فى القوة والقدرة على التحمل. والحجاز نفسه، وبالتحديد المنطقة الممتدة من جنوب شرقى الطائف إلى وادى ليُّة يطرد بعض البدو المساكين إلى مكة، وكل أسرة من هذه الأسر البدوية تتخذ لنفسها مكاناً حقيراً للمعيشة فى ركن من أركان الردهات الموجودة أمام المنازل الكبيرة، وبالتالى يتحتم على هذه الأسر القيام بدور الحراس والبوابين بمنتهى الإخلاص. هذا العمل مهم جدا وبخاصة فى موسم

الحج، عندما تُجمع أمتعة عشرات الأسر القائمة بالحج في الطوابق الأرضية . والحجازيون الفقراء يحظون بالمزيد من الثقة عندما يعملون بوابين أو حمالين، عن كل من السليمانيين، والمغاربة وغيرهم.

وفى الحى الجنوبى الغربى من مكة توجد مجموعة كبيرة من البدو جاءوا من "منطقة الحرمين الشريفين" (أو بالأحرى منطقة الحجاز)، والسواد الأعظم من هؤلاء البدو يعيشون في أكواخ بائسة حقيرة، أما ميسورو الحال منهم فيعيشون في منازل بسيطة. هؤلاء البدو هم الذين يتعاملون في تأجير الإبل المسافرة إلى جدة والطائف وإلى المدينة المنورة (وهؤلاء البدو يطلق عليهم اسم المخَرِّجين أو المتسببين)، كما يجلبون أيضاً الأغنام والحليب والزبد والتمور من مواطنهم.

وفى شمال مكة وجنوبها نجد أيضاً مستوطنات أخرى من هذا القبيل، لكنها أصغر كثيراً من المستوطنات الأولى، وتوجد على مسافات بعيدة جدا يصعب معها حسبانها جزءاً من المدينة نفسها . وبالقرب من الجزء الجنوبى من مدينة مكة، توجد أكواخ الزنوج، وبخاصة أولئك التكارنة المولودون أحراراً، ومعهم العبيد الذين أُعتقوا وآثروا الانضمام إليهم. هؤلاء التكارنة يعملون حمالين، أو يقومون بتنظيف المراحيض، أو يصنعون أشياء وأوعية من الطين، أو قد يصنعون المكبّات(*)، أو قد يعملون خدماً فى المنازل، إلخ.

وإن جاز لنا أن نضيف أن النساء من مصر بصفة خاصة يأتين إلى مكة ليكن زوجات لمن يريد الزواج، وأن يكون ذلك بمثابة ستار فقط لممارسة الفسق أو الدعارة، فإن القارئ سرعان ما يتبين الدوافع الدنيوية التي تحدو المسلمين وتجعلهم يطمعون فى أن يكونوا من أهل مكة. يعيش من بين كل هذه الجنسيات التى أتينا على ذكرها

(*) المكبَّة (بتشديد الباء وفتحها) اسم لغطاء يشبه القبعة من سعف النخيل المضفور، يجرى تزيينه بخيوط من الصوف مختلفة الألوان، ويوضع فوق طبق يرسل إلى أناس دُعوا لتناول الغداء ولم يتمكنوا من الحضور. (المترجم)

أفراد كثيرون في مكة من منطلق أسباب ودوافع دينية خالصة؛ هذا يعني أن هؤلاء الناس يرغبون في دراسة الموروث المقدس والاستزادة منه في مكة، ذلك المكان المقدس، وأن يحيوا إلى جوار العلماء أو المتصوفة المشهورين، لكي يكفروا عن خطاياهم الماضية، ويطهروا مكتسباتهم المدنسة، عن طريق الإنفاق في أوجه الخير، أو لأنهم يودون قضاء ما تبقى من حيواتهم في رحاب الأرض المقدسة.

والجاوة وحدهم (شعوب أرخبيل جزر الهند الشرقية والملايو) هم الذين يمكن القول عنهم إنهم هم الذين يودون أن يكونوا مكيين، وإنهم ليست لديهم بواعث خفية للكسب، على الرغم من أن بعضًا من هؤلاء الجاوة بعد سنوات من إقامتهم قد يصابون بالجشع والشراهة المكية. هذه الصفات الفريدة، وانعدام الشحاذين بين هؤلاء الناس، هي التي تجعلهم مميزين عن سائر جيران الله الآخرين. هؤلاء "الجيران الآخرون" يمكن العثور عليهم بين مختلف الطبقات السكانية في مكة، ولكن الغريب أن قلة قليلة فقط من بين مواطني آسيا الوسطى هم الذين يفضلون الإقامة الدائمة في مكة نفسها. هؤلاء الذين يفضلون البقاء فيها هم جميعا من التجار، أما البقية فيأتون للحج ثم يعودون إلى بلادهم. ومع ذلك، فهم يوقرون الأرض المقدسة شأنهم شأن المسلمين الآخرين تمامًا، سواء أكانوا من أتباع المذهب الحنبلي المتشدد أم من البدو المتساهلين. هؤلاء الجاوة ينظرون إلى المجتمع المكي على أنه مجتمع مصاب بالفساد، وفي رأي هؤلاء الناس أن أقدس مكان في الأرض، قام عليه مجتمع بابلي(*) شديد الدناسة، وهم يرون أيضًا أن مكة بلد عظيم جلب الشيطان إليه الخلاعة بكل أنواعها تحت اسم الثقافة.

***

(*) المجتمع البابلي ، نسبة إلى بابل Babylon التي ورد ذكرها في الكتب الدينية المقدسة وعرفت بفسادها وسوء أخلاق أهلها، فأصابهم الله باللعنة وأنذرهم بسوء المصير . (المراجع)

يبدأ النازحون إلى مكة من الجنسيات المختلفة بتشكيل مجتمعات منفصلة، وعلى الرغم من أن معاملات أولئك النازحين قد تضطرهم إلى الاتصال بمختلف الدوائر، فإن اتصالاتهم المحكمة تكون مع مواطنيهم فقط. وفيما يتصل بالرعايا الأتراك على اختلاف مشاربهم، أو أولئك الرعايا من المغاربة الذين يُخلط بينهم وبين الأتراك، نجد أن ذلك الانعزال المعيشي له قيمة اجتماعية وليست له قيمة سياسية. يزاد على ذلك أن رعايا الدول الأوروبية يحرصون على عدم الظهور بمثل هذا المظهر مخافة أن يسخر السكان منهم ويلعنوهم، وأن تطردهم الحكومة من المدينة. والسلطات المحلية لا تخشى مساندة القنصليات فى مدينة جدة للرعايا الأجانب، وخاصة الرعايا البريطانيين، إلا فى أحوال جد نادرة تمامًا. هذا يعنى أن هؤلاء الرعايا يندر أن يتصلوا بالقنصليات أو المسئولين، وإذا ما تحتم ذلك، فإنهم يعاملون مثل المواطنين تمامًا، أو يتعين عليهم قبل المطالبة بحقوقهم التقدم بالتماس طلب الحماية إلى السلطان، وبالتالى يتمكنون من البقاء فى المدينة فى ظل تلك الحماية.

فى السنوات الأخيرة درج الناس على أن الأجانب الذين يودون تملك عقارات فى مكة يتحتم عليهم أن يكونوا من رعايا تركيا. هذا التطبيع حدث فى أحيان كثيرة ولكنه لم يكن له أى أثر أو تأثير أو حتى صلاحية أو نفاذ خارج مدينة مكة، ولم تكن للسلطات الأوروبية أية علاقة بذلك التطبيع من قريب أو بعيد. وفيما يختص بالمعاملات بين المسئولين وأعضاء هذه الجاليات الأجنبية، نجد أن الطرفين بحاجة إلى من يقوم بالسعى فيما بينهما. يضاف إلى ذلك أن اختلاف اللغة والسلوكيات، يجعل من الصعب على الشرطة، على سبيل المثال، تحاشى الوقوع فى كثير من الأخطاء بصورة مستمرة. وعندما بدأ دور هؤلاء السعاة يتزايد، أو بالأحرى هؤلاء الشيوخ والمطوفين، استقرت الأمور، نظرًا لأن هؤلاء الشيوخ أو المطوفين هم الذين يقضون حاجات أولئك القادمين الجدد منذ البداية ويتولون أمورهم.

والحضارمة الذين لا تخضع بلادهم ولن تخضع لأية دولة من الدول الأجنبية ولا حتى لتركيا، لهم شيخهم الخاص بهم من قديم الزمن ، وهو الذى يتولى تيسير

المعاملات بين الحكومة المحلية وإخوانه المواطنين من الحضارمة، شأنه في ذلك شأن شيوخ حارات مكة المختلفة، التي يقوم شيوخها بتصريف أحوال "أبنائها" في أحيائهم الخاصة ، ودور هذا الشيخ دور إداري بالدرجة الأولى. السليمانية، أو بالأحرى الأفغان، هم وأقاربهم وأهلوهم، لهم أيضًا شيخهم الخاص بهم، الذي يقوم على تصريف أمورهم. والحكومة التركية تتدخل في شئون هاتين الجاليتين من وراء ظهر الشيخ إذا ما تطلب الأمر ذلك.

إذا كانت مكة (المكرمة) تعد مدينة للأجانب إلى حد ما، فإن تلك الجماهير مختلفة الألسن واللغات التي أتينا على ذكرها من خلال هذا الاستعراض السريع يحسون جميعًا وكأنهم يعيشون في أوطانهم، ومع ذلك يظلون أجانب. ومع ذلك هناك كثير من الأجانب الذين بدأوا يحسون ويستشعرون أنهم لم يعودوا يعيشون في جاليات أجنبية. هذا يعني أن ميول هؤلاء الأجانب وعلاقاتهم العملية والمالية، أو الأسباب الأخرى، هي التي دفعتهم إلى إقامة مثل هذه العلاقة الوثيقة مع المجتمع المكي الأصلي، وعلى نحو جعل هؤلاء الأجانب يبدون وكأنهم جزء من نسيج هذا المجتمع الأصلي. صحيح أن هناك سلسلة لا تنتهي من التدرجات بين هؤلاء الأجانب الذين انخرطوا في المجتمع المكي الأصلي و"المستوطنين"، ولكن لا يوجد حد فاصل بين هؤلاء وهؤلاء. والزواج هو الرابطة الرئيسية من روابط الاتحاد في هذا المجتمع؛ ومن يتزوج من امرأة ولدت وتربت في مكة يصبح هو الآخر مكيًا بشكل أو بآخر، وبحلول الجيل الثاني أو الثالث يكون أفراد الأسرة قد تناسوا أصلها الأساسي. من هنا نرى أن هذا القسم الأساسي أو المركزي من المواطنين يستوعب، أو بالأحرى يضم إلى نفسه، عناصر جديدة لا يرتبط بعضها ببعض بأي شكل من أشكال القرابة. ويحق عندما نأخذ في حسباننا مسألة تعدد الزوجات وما يترتب عليها، هي ونظام المحظيات، نستطيع القول إن كل حي من أحياء المدينة يحتوي على كل الأعراق البشرية التي يمكن أن تخطر على البال، وإن البشرة الإنسانية بكل أنواعها ممثلة في كل عائلة من

تلك العائلات. وبذلك يمكن القول إن عملية الاستيعاب المستمر هذه لها تأثيرها على مختلف العناصر السكانية، وأن هذا التأثير ينصب ويتركز بصورة أساسية فى العادات وفى السلوك والكلام والشخصية؛ الأمر الذى يؤكد وجود واستمرارية وتزايد ذلك التوحُّد غير الكامل.

ورغم تباين ألوان هذا المجتمع فهو يكشف عن طابع غرب الجزيرة العربية الأصيل الذى يتجلى من خلال المعاملات والعادات المستوردة، والتى فرضت على هذا المجتمع من أعلى بواسطة ذلك العدد الكبير من السادة الأشراف (أى أحفاد النبى ﷺ من ابنته فاطمة)، والعائلات المكية العريقة الأخرى، كما فرض ذلك الطابع من أسفل عن طريق ذلك الدفق الكبير من الحجازيين وأفراد قبيلة حرب. هذا الطابع أمكن الحفاظ والإبقاء عليه إلى حد بعيد، نظراً لأن النازحين إلى مكة من جنوب الجزيرة العربية يشبهون المكيين إلى حد بعيد فيما يتصل بالكلام والسلوك. هذا يعنى أن الحضارمة الذين جاءوا من جنوب الجزيرة العربية واليمنيين هم الذين يقوون الطبقة المنتجة بصورة مستمرة فى ذلك المجتمع، وهذه الطبقة بمثابة المعيار النمطى فى شخصية هذا المجتمع المدنى بكامله. اضطر بعض آخر من المواطنين الجدد إلى التخلى عن بعض عادات أوطانهم الأصلية، قبل الحصول على المواطنة الكاملة، وذلك رغم أنهم استطاعوا أيضًا التأثير على الحياة فى مكة عن طريق عاداتهم وتقاليدهم. ورغم أن كل جنسية تكشف عن نفسها عن طريق بعض الكلمات الغريبة التى شقت طريقها إلى اللهجة المكية، فإن هذه اللهجة هى المميزة لغرب الجزيرة العربية بشكل قاطع. وأيضًا، رغم استعارة المكيين لكثير من تفاصيل ملبسهم من الهنود، فإننا نستطيع التعرف على المكى من لباسه، كما أنه لا يمانع فى بعض المناسبات من ارتداء الزى البدوى. وكرم المكيين يتمثل فى مختلف الأطباق الأجنبية التى يقدمونها ضمن موائد كرمهم وسخائهم. والمكيون يكشفون عن كرم شكلى ومظهرى أمام الحجاج، ولكنهم فى حياتهم الاجتماعية الواقعية كرماء إلى حد الإسراف والتبذير.



سيد من "سادات" مكة

السبب الرئيسى الذى يتمثل فى تحويل المدينة من مجرد مدينة عادية إلى مدينة مقدسة هو الذى أدى إلى تدهور الطابع الشخصى لهذه المدينة، ذلك التدهور الذى لم يكن للعناصر الأجنبية فيه ناقة ولا جمل.

الغريب بحق هو أن مختلف أحياء مكة استطاعت من خلال علاقاتها المتبادلة أن تحذو حذو وسط الجزيرة العربية، أو إن شئت فقل المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية. هنا فى مكة، كما هو الحال فى المنطقة الوسطى، تنشب صراعات ونزاعات لأسباب تافهة وتدوم سنين طويلة. من ذلك مثلاً المشاجرات التى تجرى بين أطفال من حيين مختلفين من أحياء مكة، أو أن يقوم أحد العابثين الذين لا أمل فى إصلاحهم بطرد كلاب حى من الأحياء إلى حى آخر، الأمر الذى قد يسفر عن نشوب عداء لا ينتهى. هذا يعنى أن أحداً من رجال الحيين لا يمكن أن يغامر بالدخول إلى الحى الآخر دون أن يرميه الناس بالحجارة من داخل منازلهم، أو الهجوم عليه بالسكاكين فى أثناء الليل. هذا فى الوقت الذى نجد فيه النبلاء، أو بالأحرى الأشراف[1]. وبعض السادة من الأسر العريقة، يتسلحون دومًا بالخناجر (الجمبية)[*] التى يعلقونها فى أحزمتهم، أما "أبناء البلدة" فيتسلح كل واحد منهم بسكين تشبه الحربة أو السونكى، يخفيها تحت ملابسه من ناحية صدره. وإذا ما وصل الأمر إلى حد العراك أو الشجار الكبير (الذى يقول له المكيون "هوشة" بلهجتهم) فإن هؤلاء الناس يسلحون أنفسهم أيضًا بهراوات (نبابيت)، يضاف إلى ذلك أن أبطال وفتوات تلك المشاجرات التى تجرى بين الأحياء، متيمون - لكن بطريقة فيها الكثير من الود - بتعرية الشجوج التى فى رءوسهم لكى يستعرضوا النُّدب الناتجة عن ضرب "العدو" لهم.

---

(١) الأشراف هم أحفاد الحسن، ولد (سيدنا) على. والأسياد، وهم كثيرون جدا، هم أحفاد الحسين، شقيق الحسن.

(*) Jambiyeh المعنى الحرفى للجمبية هو الملبوسة على جانب واحد، على الرغم من أنها تلبس فى المقدمة، بوضعها فى الحزام، وفى وسط الجزيرة العربية يسمونها "القدَّامية"، وهذه التسمية أصح من الأولى. (المترجم)



أعضاء من عشيرة الأشراف

جرت العادة على أن تجرى المشاحنات والمشاجرات التى من هذا القبيل عند سفح تل أبى قبيس، فى المكان الذى تقول الأساطير إن محمداً ﷺ نادى القمر عنده وطلب إليه الانقسام. والمتشاجرون ينتهزون فرصة أيام الأعياد التى يتجمع الناس خلالها عند مقابر الأولياء والصالحين، حتى لا تتدخل الشرطة فى غير الموعد المحدد. وإذا ما توفى متشاجر متأثراً بجراحه، فإن شيوخ الأحياء والحارات المعنية بذلك الشجار هم الذين يرتبون مسائل دفع الدية النقدية لأهل المتوفى، والتى تُجمع من كل أفراد الحى المذنب. هذا يعنى أن كل فرد من أفراد الحى يتعين عليه، حسب الاتفاق المبرم، دفع ما يسمى "بالفِرقة" Firqah، التى تعنى قسماً أو إسهاماً فى الدية حسب موارده، وتُدفع هذه الدية كلها (والتى لا تقل بحال من الأحوال عن ٨٠٠ دولار من دولارات ماريا تريزا) على شكل أقساط. أما الجراح فيجرى التعامل معها طبقاً لما يسمونه "الجوستاليونس"، أو السلطات(*). هذا يعنى أن الانتقام يكون من أول شخص يقوم بتسليم المتعلقات للطرف المعادى، ويتبقى بعد ذلك حساب يتعين تسويته من هذا الجانب أو ذاك. وإذا ما عرف رجل يكون قد تسبب فى إحداث جرح خطير، يقوم الشيوخ بعقد تسوية سلمية من خلال ذلك الذى يسمونه "الناقه" naqa . وطبقاً لاتفاق الناقه هذا يقوم الحيَّان بعمل وليمة يدعو بعضهما بعضاً إليها، ويجتمع الحيان قبل إقامة الوليمة وجها لوجه، وهنا يتقدم من تسبب فى الجرح من بين الصفوف ويجرح نفسه مستخدماً فى ذلك سكيناً، ويواصل الرجل طعن نفسه إلى أن يصيح الطرف الخصم قائلاً "هذا يكفى". وهنا يقوم الطرفان بتحية بعضهما بعضا، ويتناول الوجبة سويا، ويصبحان طرفين فى "العيش والملح"، وهنا يدوم السلام بين هذين الحيين إلى ما شاء الله.

(*) الجوستاليونس Justalionis يعنى بهم رجال العدالة . (المراجع)

وعليه فإن المواطنين المكيين يستسلمون تمامًا للأشراف "ذرية النبى" ﷺ فى مسألة التعدى على الأمن والسلام الإلهى الذى ينبغى أن يسود الأرض المقدسة. هؤلاء الأشراف لهم أيضًا "حروبهم" و "موروثهم" شأنهم فى ذلك شأن "لورداتنا الأشراف"، وشأن العادات والتقاليد العربية. وإذا كانت سلوكيات ولغة أهل المنطقة الغربية الأصليين هى السائدة والغالبة فإن الطابع المميز للسكان كلهم، الأصلاء والوافدين على حد سواء، يوحى بانطباع عن مهمة هؤلاء السكان الأساسية، التى تتمثل فى استغلال الحجاج. هؤلاء السكان بدءًا بأكبر الأشراف وانتهاء بالشحاذين يحصلون على عيشهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة من تدفق الغرباء أو إن شئت فقل "ضيوف الرحمن" (هذا عندما يكونون فى مكة [المكرمة]، أما فى المدينة [المنورة] فهم "ضيوف محمد" ﷺ) . من هنا فإن الغرباء ينظرون إلى "ضيوف الرحمن"(*) نظرة غير طيبة، ويعودون إلى بلادهم بأفكار غير سليمة وحيدة الجانب عن هؤلاء المكيين. من هنا نجد أن الحاج المتدين الذى كانت تراوده فى أحلامه صورة مثالية عن الأحوال والأمور فى الأرض المقدسة يصاب بخيبة الأمل عندما يلاحظ ذلك التصارع المحموم على الكسب خلال موسم الحج بصفة خاصة. ولكنى أرى ذلك طبيعيا؛ نظرًا لأن مكة ليس فيها من سبيل للعيش غير هذا السبيل، ومن هنا يتزايد التنافس ولا يتناقص أو يقل. ومن ثم يتعين علىَّ أن أؤكد من جديد أن من يرى المكيين ويلاحظهم فى غير موسم الحج (الذى يكونون فيه مثل رجال المال والأعمال عندما يتبدل "سعر" الصرف أو يتغير) يجدهم مرحين أليفين، وكرماء إلى حد التبذير، ومكرسين أنفسهم تمامًا للحياة الاجتماعية، ومن تُتحْ له فرصة الدخول إلى دوائر الأسر الطيبة يلتقِ وكثير من المخلوقات غير المتحضرة، كما يلتقِ أيضًا وشخصيات إنسانية نبيلة شديدة التقوى والورع.

***

(*) يقصد "المجاورين" الذين ينقطعون لجوار البيت الحرام، وقد يلقب الواحد منهم "جار الله" . (التحرير)



تاجر مكي ثري ومعه عبده الشركسي

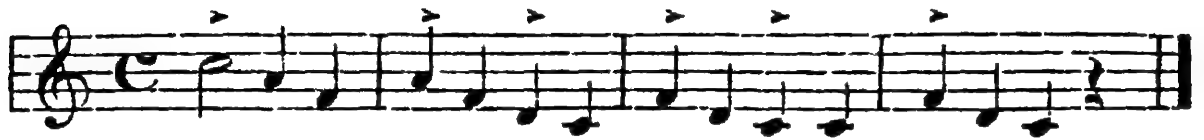
يتعين علينا قبل البدء فى رسم صورة أكثر تفصيلا للحياة الاجتماعية للمواطنين فى مكة، بالشكل التى عليه هذه الحياة المتمثلة فى جاليات أو مستوطنات أجنبية، علينا أن نأخذ بعين اعتبارنا عنصراً مهما من هؤلاء السكان، هذا العنصر السكانى كان يتوافد على المدينة منذ قديم الأزل وبأعداد كبيرة، وكانت له أهمية مادية وروحية بالغة فى تشكيل النمط أو بالأحرى الأنماط السكانية المكية. وأعنى هنا أولئك النازحين على غير رغبة منهم، من إفريقيا ومن القوقاز، وكذلك العبيد الذين بدأ الحديث يدور عنهم مؤخراً.

الشراكسة ذكوراً وإناثًا، يأتون إلى مكة عن طريق القسطنطينية، أو إن شئت فقل إسطنبول. وأعدادهم قليلة نظراً لارتفاع أسعارهم (العبد الأبيض يباع بالجنيهات الإنجليزية الكثيرة وغيره يباع بريالات ماريا تريزا)، يزاد على ذلك أن العبيد الشراكسة لا يباعون فى سوق العبيد فى مكة. والإماء الشركسيات محظيات متباهيات لا يفضلهن العرب الخلَّص، أما الصِّبية من العبيد فيعملون خدما فى المنازل، أو "أماسِيّ" amasii على حد قول المكيين، لدى الناس الأثرياء. أما اللواطة واسعة الانتشار فهى نتيجة واضحة من نتائج الثقافة البابلية التى تسودت غربى الجزيرة العربية، وهذه اللواطة أمر كريه ومقيت لدى أهل المنطقة الوسطى. وقد بلغ إدمان أحد المقرئين المشهورين فى مكة لهذه الرذيلة مبلغًا جعل الناس يحرصون على إبعاد أبنائهم الصغار عن منزله. والأماسى (خدم المنازل) الشراكسة عندما يكبرون يعتقهم أسيادهم. والمعروف أن هذه النوعية من العبيد تكون على قدر من التعليم، وإذا كان أسياد هؤلاء العبيد يعملون فى مجال المال والأعمال فإنهم يكتسبون المزيد من المعرفة العملية، الأمر الذى يسهل لهؤلاء العبيد العمل وكلاء لرعاتهم، أو قد يعملون فى مجال التجارة لحساب أنفسهم. ومعروف أيضاً أن هذه الفئة من العبيد استطاعت بسهولة ويسر الحصول على بعض المناصب فى خدمة الحكومة التركية.

العبيد الأفارقة لهم أهمية أكبر بكثير من أهمية العبيد الآخرين، فى مسألة التجارة من ناحية ومسألة مشاركتهم فى المجتمع المكى نفسه من الناحية الأخرى. واسم النوبيين يطلق على أولئك الزنوج العبيد أصحاب البشرة اللامعة شديدة السواد الذين يعملون فى مجال أشق أعمال البناء وقطع الأحجار. أما العمال العبيد أصحاب البشرة السمراء الذين يُجلب السواد الأعظم منهم من السودان فيعرفون باسم الزنوج، أو بالأحرى السُّودان (ومعروف أن "سودان" جمع أسود) . هؤلاء السودان بدأوا مؤخرًا يعملون أيضًا فى أعمال "الأحجار والملاط". وسادة هذه النوعية من العبيد يرسلونهم أيام صباهم إلى صناعة البناء كى يتعلموا تحدث العربية بطلاقة، وطوال فترة هذه التلمذة يعلمهم إخوانهم المواطنون التأقلم مع ظروف حياتهم الجديدة، شأنهم فى ذلك شأن المجندين فى أسابيعهم الأولى فى ثكنات الجنود، وبذلك يستطيع سادتهم بعد ذلك تأجيرهم للغير، للعمل مع البنائين وغيرهم من أصحاب الحرف. ويقتصر تعليم هؤلاء العبيد على تعلم مبادئ الإسلام الأساسية، وعلى الرغم من أن هؤلاء العبيد يهملون ذلك فى معظم الأحيان فإن الميول الإسلامية لدى هؤلاء الناس تكاد تصل إلى حد التشدد والتزمت. هؤلاء العبيد يبدأون تسلية أنفسهم بموسيقاهم الوطنية ورقصهم الوطنى وأغانيهم الوطنية بدءًا من عصر يوم الخميس وحتى صباح يوم الجمعة.

معروف أن كل جالية من جاليات العبيد لها شيخها الخاص بها، وتتمثل مسئولية هذا الشيخ فى فض المنازعات عن طريق أحكامه العادلة، ويقف إلى جانب هذا الشيخ ضابط يطلقون عليه اسم النقيب، ويحمل فى يده عصا لتنفيذ الأحكام. الفرقة الموسيقية

الزنجية تتكون من الطمبورة الريشية ذات الأوتار الستة (وكلمة طمبورة هذه تطلق على الفرقة الموسيقية كلها) وبعض الطبول . هذا بالإضافة إلى عبد آخر يرتدى حزامًا مجلجلاً معلقة فيه أظلاف الأغنام، ويروح يرقص به رقصًا يهز فيه بعصبية أجزاء جسمه كلها محدثًا جلبة كبيرة. ويتحلق السواد الأعظم من الحاضرين مع الموسيقيين ليكونوا دائرة، ويرددون تلك الأغنية المملة التى يزيدون ويعيدون فيها عن طريق تكرار النغمة الآتية:



الفاصلة الموسيقية الثالثة من هذه النغمة تكرر فى معظم الأحيان، ثم تكرر الفاصلة الموسيقية الرابعة متبوعة بالفاصلة الأولى، وهكذا. وداخل الدائرة يرقص عبدان أو أكثر فى سائر أنحاء الدائرة، ويمسك كل واحد منهما بعصا طويلة فى يده، ويأتيا ببعض الحركات كما لو كانا يتشاجران أو يتقاتلان. وفى أثناء الاستراحة يتناول بعض الحاضرين مشروبًا مسكرًا يسمونه البوظة، لكن حتى فى عدم وجود هذه البوظة فإن هذه الحفلة الموسيقية بحد ذاتها تكفى لتوليد الإحساس بالسكر لدى هؤلاء الزنوج المبتهجين دومًا. وفى عصر يوم الجمعة يعود هؤلاء الزنوج إلى أعمالهم التى لا تعد شاقة بالنسبة لهم، على الرغم من أن السواد الأعظم من مواطنى الجزيرة العربية لا يستطيعون القيام بها فى الأجواء المفتوحة.

طعام هؤلاء الزنوج يكفيهم تماماً، فالعامل هنا يستطيع أن يتغذى غداء تاما بما قيمته أربعة بنسات يوميًا، أما الملبس والمسكن فى هذا المناخ فيكادان لا يعنيان شيئًا ولا يكلفان الكثير. والمواطنون والزنوج على حد سواء، يستطيعون الحصول على الملبس والمسكن كيفما يشاءون. وبعد عتق هؤلاء العبيد يبدأون البحث عن أعمال نهارية، مثل سقائين، أو غيرها من مثل هذه الأعمال. ومع ذلك، يفضل هؤلاء الزنوج بقاءهم تحت وصاية أسيادهم، وبخاصة إذا ما سمحوا لهم بالزواج.

أما السود الأكثر ذكاء فيسهل عليهم العمل فى كل الأعمال المنزلية، أو قد يعملون خدمًا فى المحلات. والأثرياء من الناس، وبخاصة التجار منهم[٢] يحبون امتلاء منازلهم بالعبيد، وبذلك تطيب الحياة وتسهل على أولئك العبيد، يضاف إلى ذلك أن العبد الذى يقوم بكل الأعمال لا يعانى أية مصاعب فى منازل المواطنين، لأن الجميع يصبحون أعضاء فى أسرة واحدة[٣]. والفئة الطيبة من عبيد المحلات يتحولون إلى مستخدمين مستأمنين، الأمر الذى يجعل مسألة الرق أو الاستعباد عندهم مجرد اسم ليس إلا. خدم المنازل من هؤلاء العبيد يعتقون أيضا عندما يبلغ الواحد منهم عشرين عاماً، ومن بين أسباب هذا العتق أن العمل الذى سيمارسه أى واحد منهم سيجعله على اتصال يومى بكثير من النساء العتيقات وغير العتيقات. يضاف إلى ذلك أن السيد الغنى يجد لزاما عليه، إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أن يفتح لخادمه المخلص بيتًا وأن يجعل له

---

(٢) من يعمل بتجارة الجملة هو الذى يطلق عليه اسم تاجر، أما تجار التجزئة فيطلق عليهم اسم "بياعين" إضافة إلى الملبوسات التى يتجرون بها، ومهنتهم يطلق عليها اسم "بيع وشراء".

(٣) على سبيل المثال كان هناك ابنٌ شديد السواد لواحد من التجار أنجبه من أمة سوداء، كانوا ينادونه فى وجودى على أنه عبد والده.

أسرة، كما أن العتق نفسه يعد عملاً كبيراً، ومع ذلك يظل الارتباط الأسرى مثلما كان فى السابق.

يندر ألاَّ يصل هؤلاء العتقاء (الأحرار) من العبيد إلى أى منصب أو مركز من المراكز. هذا يعنى أن هؤلاء العتقاء يتنافسون مع المولودين أحرارا على قدم المساواة، والنتائج خير دليل على أن هؤلاء العتقاء هم الأكثر استعدادا لمثل هذا الصراع، نظرا لأنهم هم الأكثر عدداً فى المجالات المؤثرة، كما أنهم يمتلكون منازل ومؤسسات مالية وأعمالية. سبب آخر من أسباب تحرر هؤلاء العتقاء من عقدة اللون، أن الأحرار أنفسهم يربون أطفالهم السود من أمهات (أو بالأحرى محظيات) سوداوات.

قد لا يصدق الكثيرون هذا، ومع ذلك فالصحيح أيضًا أن سوق العبيد فى مكة، والذى يعد حاليًا فى ظل الظروف السياسية الراهنة، السوق الرئيسية للعبيد، تصله بين الحين والآخر شحنات صغيرة من العبيد الذين يجلبون من جزر الهند الشرقية البريطانية والهولندية. والعبيد الذين هم من الرعايا الهولنديين يكون السواد الأعظم منهم من الأحياء الوثنية فى جزر سلبيز(*)

(*) جزيرة سلبيز celebes (ويقول لها الإندونيسيون سولاويسى Sulawesi) إحدى الجزر الإندونيسية، تقع إلى الشرق من جزيرة بورنيو، وهى غير منتظمة الشكل، وتوصف فى بعض الأحيان بأنها مجموعة من أشباه الجزر المرتبطة ببعضها من الوسط. مساحة هذه الجزيرة تقدر بنحو ٧٢٠٠٠ ميل مربع، ويقدر عدد سكانها منذ حوالى أربعين عامًا، بنحو ٧ ملايين نسمة. والقسم الأكبر من سطح هذه الجزيرة جبلى، ويصل ارتفاعه فى بلدة رانتيماريو Rantemario إلى حوالى ١١٢٨٦ قدمًا، وجزء كبير من سطح هذه الجزيرة تغطيه الغابات. وهى تصدر لباب جوز الهند المجفف، والبن، والتوابل، وأسل الهند وهو نوع من القصب. والجزيرة مقسمة إلى منطقتين، أو بالأحرى مقاطعتين: سولاويسى الشمالية وسولاويسى الجنوبية. وعاصمة سولاويسى الشمالية هى منادو manado أما عاصمة سولاويسى الجنوبية فهى مكسَّار macassar، وهى ميناء بحرى رئيسى. كان البرتغاليون الغزاة قد استقروا فى مكسَّار فى القرن السابع عشر، ولكن الهولنديين طردوهم وحلوا محلهم، ثم جرى بعد ذلك تقسيم الجزيرة إلى رناستين تابعتين لجزر الهند الشرقية الهولندية. (المترجم)

أو بورنيو (*) أو من جزيرة نياس، هذه النوعية من العبيد يجرى إرسالهم أيضًا إلى مصر، وقد حكى لى مدرس الأمراء المصريين التركى عن معارفه العدة الذين لديهم هذه النوعية من العبيد. وقد شاهدت عددًا كبيرًا من الصبية العبيد الذين جرى جلبهم من هندستان، كما شاهدت مؤخرًا أربع إماء هنديات من الرعايا البريطانيين، جرى جلبهن مؤخرًا. ولم أستطع أن أعرف إن كن قد خطفهن اللصوص، أو باعهن آباؤهن، كما لم أستطع معرفة المكان الذى جُلبن منه.

والرباط الذى يربط الإماء بالعائلات التى ينتمين إليها يبلغ من الوثاقة حدًا يجعلنى أتناول مسألة هؤلاء الإماء تناولاً طبيعيًا فى الفصل الثانى، أو بالأحرى فى القسم الثانى الذى خصصته للحياة الأسرية والعائلية. ويكفينى هنا القول إن الإماء بسبب قوتهن البدنية يعملن هنا فى الأعمال المنزلية الخاصة بالمطابخ أو غرف المعيشة، ومحظيات فى بعض الأحيان، فى حين إن الحبشيات، اللاتى تتمثل فيهن كل الظلال اللونية التى تتدرج من اللون الأصفر اللامع إلى اللون البنى الغامق يكن محظيات فى المقام الأول، والكثيرات منهن يقمن ببعض الأعمال المنزلية الخفيفة. والأحباش الذكور، وهم من النوع نفسه تقريبًا، لا يعملون جميعًا فى عمل واحد. ولما كان الأحباش يعدون أرقى من الزنوج وأذكى منهم، فضلاً عن أن تعليمهم أحسن وأفضل من تعليم

(*) Borneo أكبر جزر أرخبيل الملايو، وهى تقع شرقى شبه جزيرة الملايو وسومطرة، وتصل مساحتها إلى نحو ٢٨٧٠٠٠ ميل مربع، وعدد السكان يقدر بنحو ستة ملايين إلى ثمانية ملايين على أكثر تقدير. والجزيرة مقسمة من الناحية السياسية إلى أربعة أقسام، وأكبرها يشكل جزءًا من إندونيسيا، ومساحته تقدر بثلثى مساحة الجزيرة، ويعرفه أهل إندونيسيا باسم كاليمانتان kalimantan، وهو مقسم إلى أربعة أقسام فرعية : الغرب، والجنوب، والشرق، والوسط. أما الأقاليم الثلاثة الأخرى وكلها فى الشمال، فهى المستعمرتان البريطانيتان السابقتان اللتان يطلق عليهما اسم سرواك Sarawak وشمال بورنيو (الذى أعيد تسميته باسم صباه Sabah)، والذى أصبح جزءًا من اتحاد ماليزيا الفيدرالى بدءًا من عام ١٩٦٣. ثم محمية بروناى البريطانية. وجبل كيتابالو يقع فى صباه، ويصل ارتفاعه إلى ١٣٦٩٧ قدمًا. وهناك سلسلة من المرتفعات تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى عبر الجزيرة. ومناخ هذه الجزيرة حار، والرطوبة عالية على مدار العام، ومعدل سقوط المطر يزيد على ١٠٠ بوصة فى العام، وجزء كبير من الجزيرة عبارة عن غابات كثيفة. (المترجم)

الزنوج، فإنهم يعملون حرّاساً خصوصيين أو مستخدمين فى عالم المال والأعمال، وفى تجارة العبيد. وتحت اسم الحبوش (أى الأحباش) نجد أن هذه النوعية من العبيد تضم كل العبيد الذين يجلبون من البلدان القريبة من الحبشة، والخبراء هم القادرون على تمييز هذا من ذاك، يضاف إلى ذلك أن جمهور المشترين يعرفون حق المعرفة الخصائص والسمات المميزة لكل من الجلاً والجوارج، إلى حد أن الرجل الواحد يأخذ امرأة واحدة من نساء الجلاً، أو امرأة واحدة من نساء الجوارج لتكون رفيقة له طيلة حياته.

***

طوال العامين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ كان الحصول على العبيد الأفارقة على اختلاف أنواعهم، وبأعداد كبيرة عن طريق السماسرة (الدلاّلين) . والعبيد رجالاً ونساءً المعروضون للبيع فى سوق العبيد (تلك الصالة الكبيرة التى تقع بالقرب من المسجد الحرام، وبالتحديد بالقرب من باب الدريبه **Bab Dereybah** بعضهم جُلب حديثًا والبعض الآخر يعرضهم سادتهم للبيع لأنهم لم يعودوا بحاجة إليهم بعد.

ومن يدخل إلى هذه الصالة وفى ذهنه الأفكار والتخيلات الأوروبية، وربما أيضًا ذكريات كابينة العم توم(*)، سيتولد لديه على الفور انطباع مقيت، ويغادر هذا المكان وهو يشعر من داخله بالاشمئزاز. هذا الانطباع الأولى يكون زائفًا وغير حقيقى بطبيعة

(*) Uncle Tom's Cabin رواية إنسانية ألفتها فتاة أمريكية تدعى هرييت ستو Herriet Stowe تناولت فيها معاناة الرقيق الذين كانوا يفرون من الولايات الجنوبية الاسترقاقية إلى الولايات الشمالية الحرة. وقد ألهبت هذه الرواية شعور الأمريكيين المناهضين للاسترقاق إبان الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦١ - ١٨٦٥، ونالت هذه الروائية تقديراً من الرئيس الأمريكى إبراهام لنكولن . (المراجع)



الخادم والخصى ومعهما طفل سيدهما

الحال، ومن سوء الطالع أن السواد الأعظم من الرحالة الشرقيين لم يعطونا سوى انطباعاتهم الأولى المزيفة وغير الحقيقية.

هؤلاء هن البنات والنساء، يجلسن على المقاعد بالقرب من الجدار، البالغات منهن محجبات حجاباً خفيفاً، ومن أمامهن يقف أو يجلس على الأرض العبيد كبار السن، وفى المنتصف يلعب عشرات الأطفال. بعض سماسرة العبيد وتجارهم يتحدث مع بعض، أو مع بضاعتهم الحية. وهذا واحد من النظارة يتفرج على صبى أسود صغير. وهذا هو التاجر المكلف ببيع ذلك الصبى يطلب منه الوقوف ويكشف شعره لذلك الغريب، ويكشف أيضاً عن رجليه وذراعيه، كما يجعله يخرج لسانه ويكشر عن أسنانه، ويمتدح فى الوقت نفسه أسلوبه ومهارته. والزبون - إذا كان رجلاً عاقلاً - يتحدث مع العبد نفسه، والسبب فى ذلك أن العبد لا يخدع مطلقاً أى إنسان يحتمل أن يصبح له سيداً، فيما يتعلق بسماته وخصائصه.

"هل تتكلم العربية جيداً يا ولدى؟"

"أنا لا أتكلم العربية جيداً، ولكنى أفهمها جيداً".

بعد هذه المقدمة يقوم الصبى الذى يجرى استجوابه بحكى كل ما يعرفه عن نفسه. وهنا لا يستنكف التاجر أو السمسار أن يعرِّى ذلك الجزء المصاب بآثار مرض الجدرى فى جسم ذلك الصبى وهو يقول للمشترى: "لقد أصيب بمرض الجدرى" (مجدَّر خالص)، ولا يحتاج إلى تطعيم، رغم سريان ذلك التطعيم فى وسط الجزيرة العربية، وموافقة مفتى المذهب الشافعى فى مكة عليه. ومع ذلك لا يُعطى للعبيد بأى حال من الأحوال. وإذا ما بقى الزبون متشككاً فإنه يذهب بالعبد إلى طبيب يفحصه(*) نظير مبلغ من المال. وإذا ما كان المشترى متديناً فإنه يلجأ إلى ما يسمى "الاستخارة"، بمعنى أنه يوكل أمره إلى الله، وذلك عن طريق صلاة الاستخارة، ويذهب

(*) اللفظ الذى استخدمه المؤلف : yeqellib er-raqiq "يُقَلِّب الرقيق" . (المترجم)

بعدها للنوم معلقًا القرار على أحلامه، أما إذا كان المشترى من المؤمنين بالخرافات فإنه يذهب إلى واحد من المباركين أو إلى الرمَّال(*) .

وقبيل إبرام الصفقة، يسأل الزبون العبد: "هل تود، وعلى استعداد لخدمتى؟" (أنت راض)، ومن الرد، حتى وإن جاء سلبيا، يفهم الرجال الخبيرون إن كان العبد راغبًا فى ذلك بحق أو لا، ويفهمون أيضًا إن كان ذلك الرفض يعنى كراهية وعدم رضاء عن وضعه المستقبلى، أو أن ذلك مجرد تحسب للتغيير المجهول. لكن لا يستطيع أى أحد من الناس شراء عبد من العبيد على غير رغبة منه، أو شراء أَمَة من الإماء دون رضاها وعلى غير رغبة منها . وعلى الجانب الآخر، إذا ما استاء عبد أو أمة من البيت الذى يخدم فيه، فإنه لا يخفى استياءه ويروح يردد على مسامع سيده قوله "بعنى"، إلى أن يقوم صاحبه بإحضاره فى نهاية المطاف إلى طاولة (دكة) البيع، بل يحدث أن تقوم الإماء بلا استئذان بعرض أنفسهن للبيع فى السوق، وهذا بطبيعة الحال لا يعد عملاً قانونيا، لكن السيد يندر أن يفرض حقوقه على الأَمَة أو يضطرها إلى البقاء معه على غير رغبة منها .

الشىء الذى يولد فى نفوسنا انطباعًا كريهًا هو فحص وتحسس تلك السلعة البشرية كما لو كانت فى سوق من أسواق الماشية، وبخاصة عندما تكون امرأة شابة. ومع ذلك فإن التحرى الدقيق يثبت أن الإماء (ناهيك عن العبيد الذكور) يستأن من هذا التقليب الشامل أكثر من خشية السيدة الأوروبية للفحص الطبى. وهذا سرعان ما يتضح فى سوق العبيد، بعد أن ينصرف الزبون مباشرة. وما إن يبتعد ذلك الغريب بضع خطوات حتى يبدأ القيل والقال . فهذه أَمَة تحكى لأخواتها وتروى لهن تلك الأسئلة الطريفة التى سألها الزبون إياها، وكيف أن التاجر حاول خداع الزبون،

(*) الرمَّال : المنجمُ الذى يستخدم الرمل فى تكهناته ، ويعرف أيضًا بضارب الرمل . (المراجع)

ولكنها أوقفته عند حده، ويضحك الجميع ويمزحون فى المنزل أو السوق. لا يسيل العبيد دموعهم على حالهم المقيد، وكرب وبلاء هؤلاء العبيد يتمثل فى استيائهم من سيد بعينه، أو انتقالهم إلى وضع جديد عليهم. وإن قدر لهم البكاء بعد البيع فإن هذا البكاء لا يعدو أن يكون مثيلاً لبكاء طفلة يأخذها أبواها إلى مدرسة داخلية ، أو بكاء مجند صغير وهو فى طريقه إلى الثكنات العسكرية. وإذا ما تدبرنا بعض الأمثلة القليلة فى هذا الصدد فسوف يثبت لنا ذلك كيف يمكن أن نصل بسهولة إلى استنتاجات خاطئة ومحصلات غير دقيقة إذا ما درسنا العلاقات الاجتماعية دراسة مفصلة.

***

قد يحدث أن يقضى أوروبىٌّ الليل فى جدة، ويستقيظ فى أثناء الليل على ضوضاء وهرج ومرج فى منزل من المنازل المجاورة يعيش فيه واحد من العرب. وعندما ينظر الأوروبى من نافذته قد يرى عبداً مطروحاً على الأرض على ظهره وقدماه مرفوعتان فى الهواء، ويرى عربيا يوسعه ضربا على قدميه مستخدما فى ذلك عصا، فى حين يصيح الصبى قائلاً: "تبت بالله، لا إله إلا الله. الغوث، بجاه النبى، عفواً يا سيدى، عفواً يا رجَّال!" هذه المناظر لا تسر الخاطر، وهذه المناظر ليست نادرة الحدوث فى جدة أو مكة. هل يمكن أن يكون الأوروبى على صواب عندئذ عندما يعود إلى بلده وهو يحمل معه انطباعات العم توم مدعمة عن العبودية وعن الرق؟

فى كل الأحوال، لو قدر لمثل هذا الأوروبى اكتساب المزيد من الخبرة لعرف أن العربى يعاقب ولده عقاباً أشد من هذا العقاب إذا ما ارتكب ذنباً أو خطأ . لم يشهد الرحالة أى مشهد من مشاهد حياة العبيد، وإنما رأى مثالاً من أمثلة التهذيب والتأديب العربى، الذى يطبق على العبيد وعلى الأبناء على حد سواء، ولكن هذا التهذيب والتأديب لا يتفق مع الأفكار الحديثة.

مشـهد آخر مـختلف تماما شاهدته فى مكة. اعتـاد أحد المكيين، من أصـحاب المراكز الطيبـة، (الكُبارية) kubaryeh، وينتمى إلى واحدة من عائلات المفتين السابقين، اعتـاد على زيارتى فى كثـير من الأحيان، شـأنه فى ذلك شـأن المكيين الآخـرين كرام المحتد، وكان من عادة هذا المكى أن يصـحب مـعه عبداً صـبيا صـغيراً يعمل خادمًا منزليا . وقد اندهشت أيما دهشة من الأسلوب والطريقة المؤدبة التى كان ضيفى يسأل بها عبده إن كان يريد شيئًا من الأشياء، كما كان يطلب من خادمى الذى كان يقف إلى جوار الباب الجلوس، وما إلى ذلك كله من أمور. وعندما حييته ذات مرة على أسلوبه هذا، حكى الرجل لى القصة التالية:

عندما كنت صبيا صغيراً، لم يكن أحد من أهل البيت يهتم بى قدر اهتمام واحد من عبيد أبى، هذا العبد كان يدعى سليمًا، الذى أصبح بفعله هذا بمثابة "الداد" dad عندى، أو إن شئت فقل: بمثابة الوالد الصغير. كان يفعل كل ما يرضينى، وربانى تربية طيبة تماما، الأمر الذى جعلنى أطلب منه القيام بالمزيد والمزيد من الأشياء. ذات مرة كنت فى الطابق الثالث، وكنت بحاجة إلى لعبة من اللعب، كانت فى الغرفة المجاورة لغرفتى. وبحكم كسلى وتكاسلى طلبت إليه إحضار اللعبة. كان سليم فى فناء الدار، ولم يسمعنى عندما ناديته من النافذة قائلاً: "بابا سليم، يا دادى، يا والدى الصغير". وناديته غاضبًا فى النهاية قائلاً: "أوه، يا سليم، هيا، تعال هنا فوق، قلت لك تعالَ". ونظرا لأنه لم يكن يسمعنى رحت أُناديه بذلك النداء الغاضب وأكرر النداء مرة بعد أخرى قائلاً: "يا سليم، يا وغد، ألا تسمعنى؟" فى ذلك الوقت نفسه كان والدى قد تسلل إلى غرفتى دون أن ألاحظه، وفجأة وجه إلىَّ لكمة فى أذنى دفعتنى إلى الخلف وطرحنى أرضًا، وأوسعنى ضربا على قدمىَّ، فى الوقت الذى راح يوجه إلىَّ فيه درسًا عن الأدب والتأدب مع من هو أقل منى، والذى بدونه لا يمكن أن ننال أو نحظى برحمة الله، وطلب منى النزول إلى فناء الدار وطلب العفو والسماح من العبد الذى لم يكن يدرى شيئًا عما يدور. ولم تغب عنى تلك اللكمة أو ذلك الدرس، ومن ذلك التاريخ بدأت أقدر حنان

والدى الصغير، واستمر معى ذلك الدرس فى تعاملى مع هؤلاء الذين أعطانا الله إياهم ليكونوا خدمًا لنا"(*) .

هذه المبادئ لها كثير من الأتباع، وهذه الفكرة المثالية وحيدة الجانب عن حياة العبد يمكن أن تكون مخطئة تماما مثل الفكرة المناقضة لها. وبشكل عام يمكن القول إن حياة العبيد المسلمين تختلف عن حياة الخدم والعمال الأوروبيين اختلافا شكليا فقط. وهؤلاء الذين يعرفون الظروف المحلية معرفة دقيقة يدركون هذا الاختلاف، ويعرفون أيضا أن إلغاء الرق والعبودية يمكن أن يشعل ثورة اجتماعية فى الجزيرة العربية. هناك كثير من المطلعين الذين لا يودون المجاهرة بذلك السبب الذى سبقت الإشارة إليه، والذى مفاده أنه ليس من صالحهم أن يضعوا أنفسهم فى مواجهة مع رأى كاسح يعتمد على مشاعر إنسانية حقيقية.

يمكن لنا القول إن الرأى العام الأوروبى يمكن أن يتصالح مؤقتًا مع مسألة استمرار الرق والعبودية فى البلدان الإسلامية، نظرا لأن هذا التقليد أو النظام الاجتماعى منصوص عليه ومعترف به شرعيا فى الموروث الدينى، وبالتالى لا يمكن إلغاؤه فى هذه البلدان عن طريق قرار يصدر عن مؤتمر أوروبى، هذا إذا ما اقتنع الناس بعتق ما لديهم من عبيد وامتنعوا عن الحصول على بضاعة جديدة عن طريق مصائد العبيد القاسية فى القارة السوداء. الآن فقط (فى العام ١٨٨٨) بدأت حمى معاداة الرق والعبودية تثور وتنتشر فى أجزاء مختلفة من أوروبا، وهذا بحد ذاته يُصَعِّب علينا سماع الآراء فى تلك الحقيقة الدامغة. نحن على استعداد للابتعاد عن استعادة ذكريات مشاهد اصطياد العبيد أو الإغارة عليهم، تلك الذكريات التى بالغت الصحف والدوريات فى أشكالها. ونحن لا نشك لحظة واحدة فى انتماء المصايد والإغارات إلى شرور الإنسانية وأمراضها، ومع ذلك يظل السؤال قائمًا: كيف نوجه تلك

(*) هذا المثال الذى أورده المؤلف يوضح المعاملة الطيبة التى كان يلقاها العبيد من قبل سادتهم ، والمثال السابق يوضح أنه على الرغم مما فيه من القسوة التى كان يتبعها السيد فى تأديب عبيده فإنها لم تكن تزيد على تأديبه لأبنائه من صلبه . (المراجع)

المصائد إلى الخير؟ وكيف نغير أشكالها طبقًا للنظرية المثالية؟ أو ندرس فى المقام الأول النتائج العملية المترتبة على كل طريقة من طرق الهجوم، وما يمكن عمله فى الوقت الراهن.

يركز المنظرون أنظارهم على الإلغاء الكامل لصيد العبيد، الذى يدينه الجميع. وعلى الرغم من الإضرار بآلاف الأبرياء جراء هذا الاصطياد، يجىء الكثير من حثالة الأوروبيين إلى إفريقيا، كما أن حل المشكلة الإفريقية على نحو يفيد منه المواطنون يزيد من صعوبة المشكلة نفسها. لا يزال الأمر يحتاج إلى الحكم بالعدل أو بالأحرى إلى إقامة العدالة! إلى أى مدى وصل الحال؟ الزنوج لم يدعوا الأوروبيين أو العرب إلى المجىء إلى بلادهم، والأوروبيون هم والعرب ضيوف غير مرغوب فيهم عند الزنوج، نظرا لأنهم يُقِضُّون مضاجعهم ويقلقون راحتهم التى يبث الاضطرابَ فيها بين الحين والآخر إشعالُ الحروب القاتلة والمدمرة بين القرى المتجاورة. لقد استمعت إلى قصص كثيرة من العبيد الأفارقة (وهم يسعدون عندما يتكلمون إلى الأصدقاء الطيبين عن ماضيهم وما حدث لهم)، وهذه القصص تؤكد ذلك الذى بقوم به المحققون الأفارقة عن تلك المجازر المتبادلة، ويضيف هؤلاء المحققون أن الأماكن التى تخلو من هذه المجازر، ولا تنشب فيها تلك الحروب المدمرة بين الجيران، يصعب فيها السطو أو الإغارة على العبيد. هذا المجتمع الهمجى المتوحش ينخرط فيه كل من العرب والأوروبيين.

العربى، والمسلم بشكل عام، ينشر الإسلام فى كل مكان يذهب إليه، بل إن بعثات التبشير البريطانية المسيحية فى إفريقيا عجزت عن ستر إعجابها بالنتائج التى تترتب على ذلك(*). والقرى النظيفة، وهى التى يرتدى أهلها ملابس جيدة، والتى يحيا أهلها حياة اعتدال، ويكرسون جهودهم لكل من الزراعة والصناعة من ناحية، وللتعليم من الناحية الأخرى، هذه الأشياء كلها تميز المناطق التى يعيش فيها المسلمون عن المناطق

(*) واضح هنا إشادة المؤلف بالحضارة التى أدخلها المسلمون فى إفريقيا، والتى أدت إلى تغيير حياة الزنوج، وذلك على الرغم من أن انتشار الإسلام كان على أيدى أفراد أو جماعات لم تكن تساندهم دول أو جمعيات دينية على غرار بعثات التبشير المسيحية. (المراجع)

التى يحيا فيها الوثنيون. مناطق الوثنيين هذه تفتقر إلى كل ما يجعل للحياة قيمة، ومن هنا تصبح حياة أولئك الوثنيين حياة متدنية ومنحطة.

فى هذه البلاد يحسب العربى أن من حقه وضع اليد بصورة أو بأخرى عليها . إن دينه يسمح له، أو بالأحرى يأمره، أن يجعل من هؤلاء الوثنيين ممتلكات له، طالما أن أراضيهم لم يُستول عليها ولم تُضم إلى العالم الإسلامى، أو إن شئت فقل دولة الإسلام.

فى الوقت الراهن، إذا لم تحقق الدول الإسلامية مهمة الإسلام وهدفه، فإن الدين يتيح للأفراد والجماعات إدخال الزنوج بالقوة فى ثقافة هؤلاء الأفراد وتلك الجماعات، على أن يحقق هؤلاء الأفراد وتلك الجماعات شيئًا من المال نظير ذلك(*). هؤلاء الأفراد وتلك الجماعات يسطون على القرى، وإلا تعرضت لهجوم الوطنيين عليها، ويجتثون كل من يحاول الوقوف فى طريقهم ويمنعهم من أخذ كل الأبناء والبنات الصغار، وفى بعض الأماكن الأخرى يشترون أسرى الحرب، الذين يفشلون فى دفع الفدية، فيقتلهم إخوانهم من المواطنين، أو قد يشترون الأطفال فى المناطق التى يفضل الآباء فيها النقود على أبنائهم.

كان الأمر يستلزم السير بضعة أيام على الأقدام لنقل هذه البضائع البشرية المكونة من البشر إلى أقرب مستودع من مستودعات العبيد. وقد أدت مقاومة العبودية إلى إجبار الجلابين على اختلاق طرق غير مباشرة يستغرق قطع الواحد منها، فى أغلب الأحيان، نحو اثنتى عشرة ساعة وصولا إلى الماء. وتأسيسًا على ذلك فمن الطبيعى فى مثل هذه المسيرات الطويلة، وفى أثناء الرحلات الطويلة داخل إفريقيا نفسها، أن تموت أعداد كبيرة من هؤلاء الأسرى، قياسا على ما فات، وجاء ذلك بمثابة أثر من آثار مقاومة العبودية والرق، والتى لم تؤدِّ إلى تناقص أعداد العبيد. لكن قانون

(*) الدين الإسلامى لم يأمر المسلمين بإدخال الزنوج بالقوة فى الثقافة الإسلامية ، وإنما حدث امتزاج بين الثقافتين الإسلامية والزنجية . (المراجع)

الرق الإسلامى الإنسانى لا يطبق على هؤلاء العبيد إلا بعد مجيئهم إلى البلاد الإسلامية الآمنة. هؤلاء العبيد يُعاملون فى أثناء الرحلة على أنهم غنائم، الأمر الذى ينحى الاعتبارات الأخرى جانبًا. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن ذلك يكون فى مصلحة الجلاب، عندما يحاول قدر المستطاع تحمل هؤلاء العبيد وعدم الإساءة إليهم بعد أن خلصهم من القسوة، فإن هذه السلعة الضعيفة تظل معرضة للمرض طوال تلك الرحلة الطويلة. يزاد على ذلك أن كثيرا من هؤلاء العبيد الذين هدهم التعب كانوا يجلدون ويُضربون إلى أن يصلوا إلى نهاية الطريق. لقد حكى لى العبيد أيضًا عن جلابين كانوا يشجعونهم تشجيعا حانيا فى أثناء المسير، وأنهم كانوا ينقلونهم على حيوانات الركوب إذا ما تيسر لهم ذلك(*) ومع ذلك تبقى حقيقة أنه على الرغم من التطور الكبير الذى طرأ على الحياة، فإن مسالة سرقة البشر هذه، وما يترتب عليها من نتائج، تظل شرا مستطيرا ومخيفا فى نظر هؤلاء العبيد الذين وصلوا بسلام إلى المناطق التى جُلبوا إليها.

الأوروبيون فى إفريقيا يتصرفون بطريقة مخالفة لطريقة المسلمين. بعض من الرجال المتحمسين، وبعض آخر من الرجال المكسورين أو المحطمين المعدمين، يفدون من مختلف الأنحاء إلى إفريقيا سعيًا إلى جمع المال وتحقيق الثراء، وبعض هؤلاء الناس بمثابة أداة لسياسة الجشع التى تمارسها بعض الدول الأوروبية. تحقيق هذه الأهداف لا يمكن أن يتأتى دون إزهاق الكثير من حيوات الأفارقة وأرواحهم وسعادتهم. نحن بصفتنا أوروبيين نرى أن ذلك ضرورة، هذا يعنى أن قسمًا كبيرا من هذه المكاسب عن طريق استيراد الأرواح والأنفس على نطاق هائل. وعندما أدت طريقة التحضر الاستعمارية هذه، هى والشرور الأخرى المتصلة بها، إلى بث التمرد فى نفوس "الأطفال" السود، وجعلتهم يواجهون الوصاية المفروضة عليهم، أُخمد ذلك التمرد

(*) من الطبيعى أن يحافظ تجار الرقيق العرَب على ما جلبوه من رقيق باعتبارهم يشكلون رأسمالهم، وذلك على عكس تجار الرقيق الأوروبيين، الذين كانوا يكدسون الرقيق فى غرب إفريقيا، فى سفن عبر الأطلنطى إلى العالم الجديد، ويستبدلون بالالاف الذين يموتون منهم آخرين. (المراجع)

والعصيان باستعمال البارود. وحتى إذا ما أُبقى عليهم باستعمال المشروبات الروحية وباستعمال البارود، فقد أُخذت منهم أراضيهم، وحُوِّلوا إلى خدم، لا يمكن ضمهم إلى المجتمع الثقافى الذى يعيشه سادتهم، وإنما هم يعملون كما لو كانوا مجرد أدوات فى أيدى هؤلاء السادة.

ننظر هنا وهناك، فنرى المبشر المسيحى يحذو بعلاجه الروحى حذو الجيش الثقافى غير المنظم، لكن ما الخير الذى يمكن أن يصيبه أو يحققه ذلك المبشر فى هذا الجو ووسط هذه الأمور؟ هذا المبشر عندما يهرع إلى المقدمة ليتولى دور الريادة سرعان ما يتبعه أولئك المسيحيون المنتفعون الذين طردتهم بلادهم. ولكن المسيحيين المخلصين الذين تدبروا الحقائق ودرسوها كانوا يحسون الخجل والأسف دوما عندما يرون من ناحية ذلك الزنجى شبه العارى ممثلا لحضارتنا، وهو يضع قبعة على رأسه ويمسك فى يده قارورة من البراندى، وعلى الجانب الآخر يرى ذلك الزنجى المسلم الأسود الذى يجد ويجتهد شاهداً بذلك على قوة الإسلام. هل أوروبا، أمام هذه الحقائق، على استعداد، بل قادرة - قبل الإشارة إلى دولة زنجية شبه متحضرة وتحت نفوذها - على القيام بحملة صليبية ضد اختطاف العبيد أو الإغارة عليهم، رغم معرفتها أن مثل هذه الحملة لن تكون فى صالح الزنوج، ومع أنها قد تكلف الزنوج إزهاق الكثير من الأرواح مثلما فعلت حضارتنا، ومع ذلك يظل من يبقون على قيد الحياة بمثابة أعضاء تربوا وانتظموا فى إطار مجتمع منظم؟ تلك الآلاف المؤلفة من الزنوج ومن الأحباش الذين نقلوا إلى البلاد الإسلامية يتذكرون حياتهم الأولى ويذكرون تماماً أن العبودية هى التى حولتهم إلى رجال. الكل راضون عن ذلك وقانعون به، ولا يود أحد منهم العودة إلى موطنه. هل يسمح عندئذ، لأوروبا بكل شرورها الاجتماعية أن تصر على مواصلة حملتها المتشددة فى إفريقيا ضد تجار العبيد؟ الإجابة لا! هناك شىء ما لابد من عمله أولا فى إفريقيا، والزنوج عندما يعرفون قيمة الحياة، فإن ذلك سيؤدى إلى توقف الإغارة على العبيد من تلقاء نفسها. المشكلة كلها تكمن فى الحالة الداخلية للبلاد.

التدليس والغش فى مجال مقاومة العبودية ليس من جانب الجمهور العريض، وإنما أصحاب المناصب السياسية العالية يواصلون إشعال تلك النار الزائفة لأهداف أخرى مختلفة عن الأهداف الإنسانية تماماً. من هنا نجد أن العالم المسيحى يقف من الإسلام موقفاً مبنيا على سوء الفهم وعلى الزيف.(٤)

نستميح القارئ العذر لاستطرادنا من ناحية فى مسألة الأهمية الكبيرة المعلقة من قديم الأزل على العبيد والأحرار فى المجتمع المكى، ومن الناحية الأخرى استطرادنا فى مسألة العبيد فى الوقت الراهن فى هذه المدينة. ومن السهولة بمكان أن يقف المرء على تبين مدى تأثير الأفارقة على المجتمع المكى بعد أن تكيفوا مع أسلوب الحياة العربية. هذا يعنى أن النساء أصبحن أمهات للمكيين، فى حين ساعد الرجال على تربيتهم وتنشئتهم .

هذه اللعنة الكبيرة التى أدانها الإسلام ولا تزال قائمة حتى الآن، لن نتركها هنا دون التعرض لها والإتيان على ذكرها، تلك اللعنة التى تتمثل فى خصى هؤلاء العبيد الذين يقومون على خدمة نساء أصحاب المراكز الكبيرة، أو أولئك الذين يقومون على أمر المحافظة على النظام فى مساجد مكة المكرمة(٥). فى مكة نجد أن السواد الأعظم

(٤) يجوز لى هنا أن أروى تلك الطرفة التى سمعتها من كثير من العبيد: عندما كانت البوارج البريطانية منذ سنوات مضت تقوم فى كثير من الأحيان بعمليات قرصنة فى البحر الأحمر مربحة تماماً تحت اسم مقاومة العبودية، كان من الطبيعى أن يسعى تجار العبيد إلى إيجاد الوسائل التى تمكنهم من إخفاء العبيد على ظهر المركب فى الوقت الذى تُفتش فيه السفن، وكان الصبية والبنات يروحون يغنون ويصيحون فى تلك المناسبات لكى يستتروا أو يخفوا وجودهم، وكان تجار العبيد يقولون لهم إن هؤلاء القراصنة بيض اللون بسبب البرص هم من المتوحشين آكلى لحوم البشر! والمؤكد أن نشاط هؤلاء المتوحشين لم يسهم ولو بأقل القليل فى رفاه العبيد الذين كانوا يُحررون أو الذين كانوا يفتحون عليهم نيرانهم، أو حتى فى حماة إلغاء العبودية والرق.

(٥) هؤلاء يطلق عليهم اسم "أغاوات"، أو بالأحرى "طواشى"، وعليه عندما يسمح رجل لرجل أعزب بالتحدث إلى أهل بيته من الحريم فإنه عادة ما يقول لمن يشمئزون من مثل هذا التصرف، إن ذلك الشاب أغا.

من هؤلاء الطواشى ينتمون إلى الطبقة الأخيرة. قلة قليلة من هذه الفئة هم الذين يعملون فى المنازل الخاصة أو لدى أفراد بعينهم. بل إن هذه النوعية تستورد، أو بالأحرى تُجلب وهى مخصية تماماً، ولكن الطلب على هذه الفئة من قبل المساجد فى مكة يجعل هذه المدينة شريكة فى ذلك الشر المستطير. وبين الأغاوات (خدم المساجد) نجد نوبيين وزنوجا وأحباشا، أقوياء وأشداء ولكنهم ليسوا ودودين.

***

أصبحنا الآن على بيِّنة من أن المكيين يكسبون عيشهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من الأماكن المقدسة فى مدينة مكة ذاتها أو بالقرب منها. وفيما يتصل بمختلف الطبقات والحرف يتعين علينا الوقوف على الأساليب والطرق التى يسلكونها لكى يجعلوا العاصمة الدينية بلداً منتجا. ونظراً لأن المسلم لا يحتاج إلى أى تدخل من جانب أى رجل من رجال الدين(*) إذا ما أراد القيام بأى عمل من الأعمال الدينية فإن قلة قليلة من البشر هم الذين يحتلون أو يشغلون مناصب تتيح لهم فرض ضرائب على استعمال الأماكن المقدسة أو الاستفادة منها . من هنا فإن امتياز استغلال الكعبة يعد حكراً على عائلة شيبة العريقة، وهم يتخذون لأنفسهم تجارة من كسوة الكعبة (المشرفة) القديمة فى كل عام، ويبيعون منها قطعا صغيرة على سبيل التذكار، كما يستفيدون أيضاً فى الأيام التى تُفتح الكعبة فيها للجمهور(٦)، أو فى الأيام القليلة عندما يدفع أحد

(*) فى الأصل "قس من القساوسة"، والمقصود رجال الدين ، إذ إن الإسلام ليس فيه قساوسة ولا طبيعة كهنوتية . (المراجع)

(٦) يختلف عدد أيام فتح الكعبة وتواريخ فتحها، شأنها شأن الترتيبات الأخرى الخاصة بالمسجد الحرام طبقًا لإدارة السلطات المعنية. والكعبة تفتح فى اليوم العاشر من شهر المحرم، وفى السابع والعشرين من شهر رجب، وفى الخامس عشر من شعبان، وفى بعض أيام رمضان، وأشهر الحج هى أكثر المناسبات التى تفتح فيها الكعبة .



بواب من بوابى الكعبة (المشرفة)

الذى تتولى عائلته (عائلة شيبة) هذا العمل منذ قديم الأزل

الأثرياء مبلغًا كبيرًا نظير فتح الكعبة فى غير المواعيد المحددة ، كما يحصلون أيضا على هبات مالية من كل الغرباء الذين يدخلون الكعبة (المشرفة). والمكى يطلق نكتة عندما يبصر واحداً من أهل شيبة وهو يبتسم فيقول: "يبدو أنهم فتحوا الكعبة اليوم". فى تلك الأيام، وفى بعض المناسبات الأخرى يحصل الأغاوات (الطواشى) أيضًا على شىء من النقود، يضاف إلى ذلك أن جحفلا كبيراً من مختلف البشر يتتبعون الزائر لكى يقدموا له المزيد من الخدمات الشكلية غير الضرورية.

كانت إدارة بئر زمزم حكراً على العباسيين، وبعد أن رفع العباسيون أيديهم عن هذه المهمة أصبح المبنى، الذى توجد فيه فتحة البئر المحاطة بجدار سميك، مفتوحا للجميع، وبوسع أى إنسان تسلق ذلك الجدار والإدلاء بدلو من الجلد عن طريق قضبان حديدية إلى داخل البئر. ومع ذلك، فإن الفقراء من الناس هم والخدم يحتلون المكان عند سحب الماء من البئر، ولا يطلبون أجراً أو مكافأة على ذلك، واقع الأمر أن هناك نقابة للزمازمة الذين يحتكرون توزيع ماء البئر. وكل من يريدون سكب الماء عليهم، أو شرب الماء ساخنًا من البئر يذهبون بأنفسهم إلى هناك، إلى فتحة البئر، وهذا هو ما يفعله المكيون عندما يريدون ملء جرارهم. وبشكل عام فإن رعاة وموزعى الأشياء المقدسة يلتقون مواطنى المدينة، ويقدمون لهم الخدمة دون أن يطلبوا على ذلك أجراً من أى نوع كان، يضاف إلى ذلك أن خدام المسجد الآخرين هم وحراس الأبواب يحسون بالسعادة، عندما يكونون على وفاق مع أهل المدينة، والسبب فى ذلك أن المواطنين المكيين لهم أيضًا أصدقاؤهم من بين الحجاج، ومن ثم يستطيعون استخدام نفوذهم فى المشاركة فى هذه العطايا. والزمازمة كلهم يحتفظون لأنفسهم بجرار كبيرة مصنوعة من الفخار، يضعونها فوق مقاعد من الخشب، ومربوطة إليها أكواب معدنية بسلاسل من المعدن أيضًا، يضاف إلى ذلك أن جرار التبريد المصنوعة من الفخار (الدوارق) والتى تُملأ العشرات منها، يضعها الزمازمة فى أكثر أركان المسجد الحرام ظلاً. مسألة هذه الأنواع من الجرار أمر يقوم عليه الزمازمة أنفسهم، والجرار كبيرة الحجم تبرد الماء بعض الشىء ويشرب منها زوار المسجد الفقراء، فى حين تشرب الطبقة الأرقى بواسطة الزمازمة الذين يقومون بصب الماء وتقديمه لهم فى كوب من

النحــاس من جــرة التــبــريد، وبوسع أى إنســان أن يهب أية جــرة من هذه الجــرار لاستعمال الناس كافة، وأن يكلف شخصاً ما، نظير أجر، بملء تلك الجرة وتوزيع الماء على الناس بصورة منتظمة.

على كل حال، فقد جرى العرف على إسناد هذه الخدمات إلى الزمازمة وحدهم. هؤلاء الزمازمة على الرغم من قيامهم بالأعمال التى يكلفون بها وتقديمها للناس كافة نظير الأجر الذى يحصلون عليه، فإنهم لأسباب ومن باب الدوافع الحميمة، يخدمون من بين الغرباء أولئك الذين يعدون فى حكم الزبائن عندهم. وقد جرت العادة على أن يعطى الحاج فور وصوله للزمزمى ما لا يقل عن دولار واحد، ويشترى من هذا الزمزمى جرة تبريد بهذا الدولار، ثم يحفر اسم المتبرع عليها، ويضمها إلى الجرار التى يرعاها ويهتم بها، واعتباراً من ذلك التاريخ يجىء الزمزمى للقاء الحاج ومعه جرته، ولا يتورع الزمزمى عن إخبار الحاج إذا ما سنحت الفرصة، ويستلفت انتباهه إلى تأسيس المزيد من أسس الخير والتقوى، ويعرض على الحاج صب الماء على جسده، لقاء الحصول على مكافأة طيبة.

ويقول الزمزمى للحاج ويحكى له كيف أن الحصير والسجاد الذى يفرشه لكى يصلى عليه المصلون داخل المسجد قد بدأ يبلى وأصبح بحاجة إلى التجديد. قصارى القول أن الزمزمى يستهدف دوماً حافظة نقود الحاج، وكل من ينفق عن سعة يحصل يوميا على جرته فى منزله بعد ملئها بالماء، وبخاصة فى شهر الصيام الذى يجرى فيه إحضار هذه الجرار بأعداد كبيرة، حتى يمكن لرفاق الزبون الإفطار على ماء زمزم، فى منزله، علاوة عليه هو نفسه وأيضاً الحصول على المكافأة عقب انتهاء رمضان، على سبيل العيدية. جاء على سلم منزلى ذات يوم اثنان من الزمازمة، وكان كل واحد منهما يحمل جرة من جرار التبريد، ونشب صراع انتهى بكسر الجرتين.

يضاف إلى ذلك أن تصدير ماء زمزم فى صفائح معدنية مع الحجاج يعود عليهم بربح كبير، ومن بين المنجزات المكتسبة جراء هذه المنافسة، التحدث بلغات مختلفة،

الأمر الذى يجعل الزمازمة محل ثقة زبائنهم. هذه واحدة من الحرف المربحة التى تجذب المزيد من الاهتمام من جانب الحكومة؛ الأمر الذى يجعل الزمزمى يحصل لنفسه على ترخيص (تقرير) من الشريف الكبير، وبطبيعة الحال لا يمنح هذا الترخيص بلا مقابل.

***

يوجد خارج الحرم كثير من الأماكن المقدسة التى يستطيع الإنسان الدخول إليها عن طريق إعطاء هبة لصاحب هذا المكان، أو بالأحرى لراعيه، منها المنزل الذى ولدت فيه السيدة فاطمة "مسقط رأس ستنا فاطمة **Masqat Sitina Fatimah**" الذى عاش فيه محمد ﷺ سنوات مع السيدة خديجة، والذى يقبل زواره حجراً مجوَّفاً فى منتصفه، والقبلة تعطى لهذا الحجر لأن فاطمة ﵂ ولدت فى هذا التجويف. وهناك أيضاً المنزل الذى عاش فيه أبو بكر الصديق، وهناك أيضاً المنزل الذى ولد فيه النبى ﷺ وسيدنا على، وأبو بكر، وهذه البيوت أو المنازل فيها أحجار بيضاء وأحجار خضراء[7]، وهذه الأحجار يقبلها الزوار أيضاً، ومن فوق هذه الأحجار توجد صناديق خشبية مغطاة بالسجاد مثل تلك الصناديق التى توجد فى الكنائس الجنائزية الصغيرة. وفى مقبرة المعلاة يوجد قبر كل من خديجة وآمنة، وبالقرب من هذه المقبرة يوجد مصلى الجن، الذى نزلت فيه السورة الثانية والسبعون من القرآن الكريم. وهناك أيضاً مزارات أخرى عدة ذات أهمية تاريخية.

---

(٧) نشاهد فى السواد الأعظم من هذه الأحجار بقايا عتيدة من عبادة الأصنام القديمة، كما يوجد أيضاً فى المنطقة المقدسة آثار عدة للخرافات العربية القديمة، وأنا لا يمكن أن أنظر إلى مسألة تقبيل (وليس احتضان) الحجر الأسود فى الكعبة إلا على أنها مسألة حديثة نسبيا(*)، والمقطوعة الخاصة بأنساب الأشراف (فى صفحة ٢٣٠ من كتاب جيوجى Geoje المعنون ذكريات إلخ. الحاشية الموجودة على صفحة ١٠٢) لا تشير إلى الحجر الأسود، وإنما إلى عادة التعلق فى أثناء الدعاء بالكعبة. ذلك التعلق الذى يبدأ منذ قديم الأزل بالمسافة ما بين الركن الشرقى وباب الكعبة.

(*) تقبيل الحجر الأسود سنة لمن يستطيع، فقد روى من عمر بن الخطاب ﵁ أنه قال: والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك . (التحرير)



بحارة القوارب في جدة بصحبة رئيس النقابة

حارس المكان، أو بالأحرى راعيه هو الذى يتلو صيغة الدعاء التى يرددها الحاج بعده جملة بجملة، فى هذه الأدعية التى تشتمل على مكونات عامة مثل سورة الفاتحة، وتشتمل أيضًا على توكيد الزائر لإيمانه عند صاحب هذا المكان المقدس، اعتقاداً من الزائر أنه سيحصل فى يوم البعث على شاهد موثوق جديد على إيمانه بالإسلام. يضاف إلى ذلك أن الأماكن المقدسة المفتوحة للجمهور لها أيضًا متطفلوها المعروفون الذين يضايقون الحاج ويلحون عليه إما شحاذين أو دعاة، هؤلاء الناس ليست لهم صفة رسمية، لكنهم على استعداد لتأكيد حقوقهم الأولى بالقوة عندما يظهر لهم أى أحد من المنافسين.

***

هذا يعنى أن المكيين، أو بالأحرى السواد الأعظم منهم، يحصلون على عيشهم من الأماكن المقدسة بطريق غير مباشر، وبغض النظر عن مدى إتقان الغريب لمناسك الحج أو العمرة (وغالبية الغرباء لا يعرفون هذه المناسك) فهو لا يستطيع الفكاك من مساعدة رجل له، يكون على علم ومعرفة بالظروف المحلية، والشيء نفسه ينطبق على الزيارات التلقائية التى يقوم الزائرون بها إلى الأماكن المقدسة. والغريب فور وصوله إلى أرض الجزيرة العربية، أو بالأحرى عندما ينزل جدة، يصبح بحاجة إلى مرشد ليرعاه ويرشده منذ البداية، لكى يريه قبر حواء، ولكى يقوم بعد ذلك باستئجار إبل وسائقين للإبل فى رحلة الذهاب إلى مكة، والحاج إذا لم يكن من العرب فإن المرشد يكون له بمثابة المترجم، وكذلك فى مكة أيضًا يقوم المرشد باستئجار المنزل، والقيام بالمشتريات العادية، والحاج يمكن أن يعانى صعابًا كثيرة إذا ما حاول شق طريقه وحده دون عون من هؤلاء المرشدين الرسميين، هذا يعنى أن الحاج يعجز خلال الأسابيع الأولى من زيارته عن القيام بأى خطوة، أو الدخول فى أية علاقة مع الآخرين، أو الاتصال بالمسئولين إلا عن طريق وبمساعدة المطوف (التى تعنى حرفيًا



المنادى فى جدة

المرشد فى أثناء الطواف حول الكعبة، ولكن هذه الكلمة تستعمل فى اللغة الدارجة بمعنى مرشد الغرباء بشكل عام).

نقابة المطوفين أهم النقابات التى فى مكة، هناك بعض المطوفين الصغار الذين يقومون بأعمالهم بمساعدة عائلاتهم وخدمهم، حسب الظروف المتاحة، أو عن طريق بعض الأصدقاء الجوعى. هؤلاء المطوفون يتعاملون شخصيا مع الحالات شديدة الأهمية، ويدعون بصفة خاصة زبائنهم الأثرياء، ولكنهم يتركون العمل الحقيقى لجيش من الأبناء والأقارب من الشبان الصغار، وإلى العبيد، وإلى موظفين دائمين وموسميين. هناك أيضاً بعض المتصوفين والمتعلمين الذين يسجلون أسماءهم الشهيرة حتى يتسنى لأقاربهم العمل تحت هذه الأسماء والألقاب، نظير أن يعطوهم حصة من الأرباح.

كل مطوف من المطوفين يقدم خدماته لحجاج بلد من البلدان، بل حتى لمنطقة يجيد هو لغتها، ويعرف خصالها وسماتها، إذ بدون معرفة اللغة والخصال والعادات تصبح مسألة الإرشاد فى أثناء الحج عملية صعبة، وبالتالى تصعب عملية استغلالهم تحت أى مسمى من المسميات، وعن طريق هذه العلاقات المالية والأعمالية يستطيع المطوف الحصول على المعلومات عن السفن القادمة التى تحمل على ظهرها حجاجاً تابعين له، ومن باب الاهتمام يذهب المطوف بنفسه إلى جدة لاستقبال الضيوف المهمين، أو قد يرسل ولده للإشراف على الاستقبال الذى ينظمه وكيله (ومعروف أن كل مطوف من مطوفى مكة له وكيل فى جدة) أما الضيوف قليلو الأهمية فيترك المطوف مسألة استقبالهم للوكيل. وعند تفريغ القوارب الصغيرة (التى يسمونها سمبوك أو زيمة أو قطيرات) التى تنقل الحجاج من مرفأ رسو السفن إلى الشاطئ يكون المرشدون أو مساعدوهم بصحبة الحجاج، ويستأجرون الحمالين الذين ينقلون أمتعة الحج إلى المدينة، كما يقومون بدور مهم فى توزيع العطايا والهبات على موظفى الجمارك. هؤلاء المرشدون أو المساعدون قادرون على تلبية احتياجات الزبائن، وتوفير الإقامة والإعاشة المطلوبة ومدتها، والأشياء التى تهم هؤلاء الزبائن. وهؤلاء

المرشدون أو مساعدوهم يعرفون منذ البداية المسكن المناسب لكل زبون من هؤلاء من بين المساكن المعروضة.

بعد أن ينتهى الحاج من زيارة قبر أُمنا حواء الطويل، وبعد أن ينتهى أيضًا من استئجار الإبل اللازمة للرحلة، يرتدى ملابس الإحرام (التى تتكون عادة من شرشفين من شراشف الحمام يلف بهما جسده العارى)، ويصل ركب الحجاج بعد ذلك خلال يومين إلى مدينة مكة المكرمة. وعندها يقوم الحجاج بأداء العمرة التى لا يحدد لها وقت معين طوال العام، ثم يتحرر بعد ذلك من ملابس الإحرام، ويُخصَّص مرشد أو اثنان للقيام بإرشاد الحجاج إلى المناسك المطلوبة. هذان المرشدان هما بالمعنى الحرفى للكلمة مطوفان، والمطوفون عندما يعملون لحساب أناس آخرين يطلق عليهم اسم أدلاَّء، أما إذا كانوا شبانًا صغارًا فيطلق عليهم اسم صبية (بمعنى تلاميذ). هؤلاء الأولاد يوضحون للحجاج ذلك الذى يجب أن يفعلوه فى كل الظروف، وهم أيضًا الذين يوجهون مسار إحسان هؤلاء الحجاج، الذى يفيض ويتدفق فى مثل هذه المناسبات. هذا يعنى أن هؤلاء الأولاد يضعون الهبات والعطايا فى طريق رفاقهم فى المهنة، وهم أنفسهم يحصلون على نصيب من تلك الهبة إذا ما أعطيت هبات كبيرة بسبب تدخلهم.

وطبقًا للعرف العربى، فإن العادات والتقاليد تقضى أن الطرف الثالث الذى يحضر جزءًا من أى معاملة تجارية صغرت أو كبرت، ويكون قد شارك فيها حتى ولو بكلمات قليلة، يحصل على هدية صغيرة، ولماذا إذا كان الحال كذلك لا يحصل المطوف الذى أنفق مال زبونه فى أوجه الخير، لا يحصل على نسبة مئوية من وجوه الإنفاق تلك، أى من إيجار المنزل، ومن ثمن الطعام والسلع الأخرى، ومن المبالغ التى يحملها الحجاج معهم فى أثناء موسم الحج لمندوبى أقاربهم الموتى أو لممثليهم، ومن أجور الحمير التى يركبها الحاج إلى التنعيم(*) التى يرتدى عندها الحاج ملابس الإحرام،

(*) التنعيم : مسجد مقام على مقربة من مكة المكرمة ، ويعد ميقاتًا من المواقيت التى يبدأ منها الإحرام لأداء الحج أو العمرة لأهل مكة ومن فى حكمهم . (المراجع)

لأداء عمرة جديدة، أو إلى المقابر، أو من المكافأة التى تعطى للأدلاء (المزورين الذين يرشدون الزائرين) الذين يستأجرهم الحجاج عندما يكونون فى المقابر؟ هؤلاء المطوفون يحصلون على نصيبهم من هذه الأنشطة كلها.

ومن الناحية الشكلية نجد أن المطوفين ومساعديهم يلعبون أمام زبائنهم طوال الوقت دور المضيفين الطيبين على النحو الذى يروق لهؤلاء الزبائن، وهم يشيرون دومًا وبالاتفاق إلى الموروث الدينى الخاص بالأماكن المقدسة "من يمضى ليلة هنا فأجرها بألف فيما سواها، النية على قدر العمل باستثناء الأعمال السيئة، ماء زمزم يفى بكل الأغراض التى من أجلها شرب" ... إلى آخر كل هذه الموروثات الدينية. مسألة إيمان هؤلاء المطوفين بكل ذلك لا يشكك فيها سوى أولئك الأوروبيين الذين لم يفهموا الدين الإسلامى.

ومسألة عدم انغماس المطوف فى هذه الأمور بصورة دائمة لا تعد دليلاً على انعدام الإيمان، والسبب فى ذلك هو أن هم المطوف أولاً وأخيرًا يتمثل فى كسب المزيد من الأصدقاء. ومهمة المطوف هى إرشاد الدنيويين إلى المناطق الرئيسة للحياة الاجتماعية فى المدينة، إلى تلك الأماكن التى فى تل أبو قبيس، والتى يستطيع الزائر أن يلقى فيها نظرة على البلدة كلها. هؤلاء المرشدون هم ومساعدوهم إذا ما أهملوا خارج موسم الحج كل الأعمال التى يقومون بها، ويوصون بها للحجاج، فإن ذلك لا يشكل أى عيب فى العقيدة أو الإيمان، وإنما هو شكل من أشكال الكسل أو التكاسل ليس إلا. "سامحنى يا الله، ولكنى شبعت تمامًا من الحرام" لقد سمعت مرارًا من يقول إنه على الرغم من المكافأة السماوية الصغيرة، فإنه كان يؤدى صلاته فى البيت بدلاً من أدائها مع الجماعة فى المسجد.

تتباين ثقافة وظروف حياة المطوفين تباينا كبيرًا، البعض من هؤلاء المطوفين متعلمون تعليمًا عاليًا. بعض آخر، أولئك الذين يدينون بعملهم لأقاربهم من أصحاب العلاقات الطيبة بعلية القوم وأصحاب المناصب، غير متحضرين بالمرة، وقد وصلوا إلى ما هم فيه عن طريق اللياقة وحسن التصرف، ومن مجرد مساعدين إلى مطوفين مستقلين. السواد الأعظم من هؤلاء المساعدين من الجهلة، وقد تسببتُ فى إدهاش

اثنين منهم عندما قلت لهما إن المذاهب الأربعة لم تكن موجودة يوم أن كان النبى ﷺ على قيد الحياة، واقع الأمر أن هؤلاء المساعدين يعرفون الطقوس المحلية معرفة أدلاًء المتاحف لمحتويات المجموعة التى يلاحظونها أو ينظرون إليها.

المطوف هو الذى يتخذ الإجراءات والترتيبات الخاصة بالحج، فهو الذى يوفر الإبل والخيام والمؤن والوقود اللازم لرحلة الصعود إلى عرفات ثم النفرة، وهو أيضًا الذى يوفر المؤن والفدى التى يجرى شراؤها من وادى منى عن طريق المطوف. وفى كل شعيرة من شعائر الحج يقوم مساعد المطوف بتلقينها إلى الحجاج الذين يكونون تحت رعايته، ويتحدث معهم بلغتهم، ويتلو عليهم الصيغ الصحيحة التى ينبغى أن يقولوها. والحجاج يذهبون إلى المدينة [المنورة] قبل الحج وبعده لزيارة قبر النبى ﷺ. هذه الزيارة ليست إجبارية ولا واجبة، وهى فى أقصى الأحوال عبارة عن ملحق للحج، والمطوف يستأجر أيضًا إبلاً للقيام بهذه الرحلة إلى المدينة، ويحمل كل جمل فيها صندوقين بواقع صندوق على كل جانب (والناس هنا يطلقون على الصندوق من هذه الصناديق اسم الشقدوف) ومن فوق كل صندوق توجد مفارش أو حنابيل، وهى عبارة عن سجاجيد توضع فوق الصناديق لحماية الحجاج من الشمس، كما يحمل المطوفون معهم فى هذه الرحلة فُرُش أو إن شئت فقل أسرَّة ... إلخ.

***

يمكن لنا الآن تبين مدى أهمية نقابة المطوفين فى مكة إن قدر للحج أن يؤتى حصاده السنوى، ومن يرد النجاح فى هذا الاتجاه، أو بالأحرى فى هذه الحرفة يتعين عليه أن يطلب العون والمساعدة من أناس كثيرين، وأن يتخير الوقت المناسب لذلك، ومن حقق النجاح فى هذه المهنة يصبح تحت إمرته عدد كبير من الناس الذين لا يستطيعون الحصول على نصيبهم دون عون منه أو مساعدته لهم. وعن طريق الأهمية العددية لهذه النقابة، يمكن أن تكون لدينا فكرة عندما نتذكر أن إرشاد الجاوة (الملايو)، أو بالأحرى

حجاج جزيرة جاوة والملايو، يحتاج إلى ١٨٠ مرشداً علاوة على المتطفلين، وفوق كل هؤلاء يوجد ذلك الذى يسمى "شيخ المطوفين"، الذى يمثل المصالح العامة لهذه الهيئة، ويحمى الأعراف والتقاليد من الانتهاك من ناحية، ويتحتم عليه من الناحية الأخرى مساعدة الحكومة فى إدخال الإجراءات الجديدة.

ومع ذلك، فإن مطوفى كل جنسية من الجنسيات يشكلون فيما بينهم جماعة مغلقة عليهم، فالحجاج ليست لهم مجرد لغة خاصة بهم، وإنما لهم أيضًا عاداتهم الخاصة بهم، ولهم أيضًا أماكنهم المقدسة المفضلة. [٨] وكل ذلك يعطى بطبيعة الحال الفرصة لظهور بعض الأعمال المالية والأعمالية، وكذلك بعض المصالح الخاصة. هذا يعنى أن مطوفى الأتراك، ومطوفى المصريين، وكذلك مطوفى المغاربة، وأيضًا مطوفى الهنود، ومطوفى الجاوة، كل جماعة منهم تُكوِّن أو تشكل نقابة صغيرة، ولكل نقابة من هذه النقابات الصغيرة شيخ صغير أيضًا. فى الحياة العادية يطلق اسم الشيخ على كل مطوف من هؤلاء المطوفين، فهم يقولون مثلاً: "شيخ الأتراك"، و "شيخ المصريين" ... إلخ

ورئيس كل قسم من هذه الأقسام يسمونه"شيخ الشيوخ"، أو بالأحرى (شيخ المشايخ). [٩] بضع كلمات قليلة تكفى لتغيير المعنى تغييراً كبيراً بحكم إضافتها إلى الكلمة "شيخ" نفسها: فرئيس قرية من القرى أو أسرة من الأسر أو حتى مجموعة من الأسر هو شيخ أيضًا مثل شيخ أى حى من أحياء البلدة أو حتى شيخ أية مجموعة من الأعيان، والأخ الذى يكون منضمًا إلى جماعة متصوفة ويتحدث قائلاً "شيخنا" فهو يعنى بذلك رئيسه الروحى، أما الطالب إذا ما استخدم هذا التعبير نفسه فإنه يعنى به

(٨) الأتراك يفضلون سوق الليل، الذى يسمونه حمام النبى، واستناداً إلى موروث المكيين الدنيويين، فإن هذا الحمام كان حمامًا عامًا وإن صاحب ذلك الحمام كان يدعى عبد النبى، وبالتالى فإن كلمة حمام عبد النبى جرى اختصارها إلى حمام النبى ومن هنا جاءت الأسطورة أو الخرافة التى مفادها أن محمداً ﷺ استحم فى هذا المكان.

(٩) ولذلك فنحن نسمع أيضًا عن شيخ شيوخ الهنود، وشيخ شيوخ الجاوة .. إلخ.

مدرســـه أو أستاذه، وإذا ما أطلق على رجل من الرجال العلميين، فهو يدل على رئيس العلماء.

هذه الكلمة في استعمالها العام لها دلالات كثيرة، شأنها في ذلك شأن تعبيرات الخطاب التي يغلب عليها التقلص والانكماش بصورة متدرجة. وكما أن رئيس النقابة هو شيخ رجال هذه النقابة، فإن المطوف هو الآخر يكون شيخا للحجاج؛ ومن ثم فنحن من الآن فصاعدًا سوف نسميهم باسم الشيوخ الدارج الذي يطلقه الناس هنا عليهم.

نظرًا لأن النظام النقابي يقوم على التقاليد والموروث وحدهما. فإن أي شخص يصبح بوسعه من الناحية النظرية تقديم الخدمات سابقة الذكر إلى الحجاج لقاء أجر، لكن من حيث الممارسة العملية فإن القيام بعمل من هذا القبيل يواجه بكثير من المصاعب التي تجعل أصحاب المناصب يبتعدون عن تعريض سمعتهم وأسمائهم للخطر. هذا يعني أن أفراد هذه النقابة يمكن أن يهبوا ويقفوا في وجه مثل هذا الشخص وقفة رجل واحد، وهذا يعني أيضًا أن هؤلاء الأفراد يسقطون كل ما بينهم من خلافات ومن تحسبات، ويتناسون ما بينهم من غيرة وحسد، عندما يبدأون التعامل مع ذلك المتطفل، هذا المتطفل لن يواجه سوى العداء في السر وفي العلن، ويروحون ينصحون الحجاج بعدم الوثوق بذلك الدخيل أو المبتدئ.

كل النقابات فيها حالات شبيهة، ولكن بقية النقابات ليست فيها تلك القواعد التقليدية التي تقوم عليها نقابة المطوفين، نظرًا لأن هذه النقابة تتبع تلك القواعد وتلتزم بها التزامًا صارمًا، فضلاً عن كثرة أعداد أفراد هذه النقابة. صحيح هناك متطفلون في النقابات الأخرى، لكن هؤلاء المتطفلين ليسوا جديرين بالانضمام إلى تلك النقابات، إضافة إلى أن زبائن هؤلاء المتطفلين من الحجـــاج الفقـــراء أو من المغـــاربة الذيـــن يبلغـــون من الإمساك حدًا لا يستطيعون معه دفع الأجور المناسبة. هؤلاء المتطفلون يطلق عليهم اسم "الجرارين"، ويتحينون الفرص للانقضاض على فرائسهم عند مدخل المدينة أو حتى بالقرب من الحرم. عندما يصل الحجاج من بلاد لا يسافر أهلها إلى الجزيرة العربية إلا نادرًا، وليس لهم "شيوخ" مختصون بهم، فإن رئيس النقابة هو

الذى يحدد الشيخ الذى يذهبون إليه. الحجاج الذين من هذا النوع يمكنهم دومًا الشكوى إلى الحكومة عندما لا ترضيهم القرارات.

رئيس النقابة هو الذى يقرر انضمام الأعضاء الجدد، ومن ثم يمكن الوقوف على مسألة عدم زيادة أعضاء النقابة على نحو يفسد المنافسة، كما أن رئيس النقابة هو الذى يحدد إن كان العضو الجديد صاحب سلوك مشرف ومقدرة حقيقية. هناك اعتبارات أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار عند السماح لعضو جديد بالانضمام إلى النقابة. رئيس النقابة نفسه، بوصفه عضواً من الحكومة، لا يمكن أن يرفض انضمام عضو جديد يحمل توصية وتزكية من كبار المسئولين. بعض آخر من الأعضاء يزكون أنفسهم بحكم مناصبهم القوية، أو عن طريق الهدايا التى يقدمونها لشيخ النقابة بحسبان هذه الهدايا مقدمة أو عربونًا لانضمامهم إلى النقابة، يضاف إلى ذلك أن تعاطفات رئيس النقابة الشخصية لها أيضًا وزنها، على الرغم من إعلان الشيخ بصورة مستمرة أنه مثل الأب الطيب الذى يكون حبه للأعضاء جميعًا بدرجة واحدة، وأنه يقدر مصالحهم جميعًا بطريقة حيادية.

وعلى كل حال، فإن هذا الحب يبدو لبعض الأعضاء وكأنه مثار شيء من الشك، ولهذا السبب نجد أن الشيخ يكون مضطرا إلى تنفيذ أوامر الحكومة وهو كاره تحت تهديد خسارته لمنصبه. يزاد على ذلك أن "الابن" الذى لا يتأخر فى تقديم "البقشيش" يحظى بالتسهيلات والمحاباة، وهنا أيضًا نجد الأثرياء يسيطرون على الفقراء.

تتأكد الموافقة على انضمام عضو جديد إلى النقابة عن طريق إقامة وليمة صغيرة على حساب العضو الجديد، على أن يقوم بدعوة كل أعضاء النقابة. هذه الوليمة يطلق عليها اسم المعلِّمِيَّة (مِعلِّم : سيِّد أية حرفة من الحرف). فى أثناء الوليمة يقول المرشح الجديد للعضوية أمام الجميع: "أطلب إلى شيخنا أن يضمنى إلى المهنة التى يرضاها الله". وهنا يرد عليه أعضاء النقابة قائلين: "من هو شيخنا؟" وبعد أن يسمى المرشح الشيخ باسمه، يسأله رئيس النقابة إن كان سيطيعه ويكون أخًا طيبًا "لإخوانه"؟

وبعد أن يجيب المرشح عن ذلك بالإيجاب، يقرأ الحاضرون الفاتحة همسًا لا جهرًا، كما لو كانوا يصلون أو يدعون[١٠]، ويشارك في هذه الفاتحة الحاضرون كلهم، بما في ذلك الأعضاء الذين يكونون من خارج النقابة، وهنا تبرم القرارات كلها، وتختتم كل صيغ الدعاء التى تقال في الأماكن المقدسة. ثم يكون بعد ذلك الترحيب بالأخبار الطيبة. والتجار الذين لا يستطيعون التوصل إلى اتفاق بشأن ثمن سلعة من السلع يلجأون إلى قراءة الفاتحة أملاً فى الوصول إلى قرار، الشىء نفسه ينطبق على الشخص الذى انضم إلى النقابة منذ مدة قصيرة، والناس يقولون عن مثل هذا الشخص "لقد قرأ الفاتحة مع الشيخ"، أو قد يقولون "لقد شرب الرجل القهوة مع الشيخ". ولأن رئيس النقابة يعين من قبل الحكومة، ويتسلم "جبة"، (عباءة) بهذه المناسبة، فإن الناس يطلقون على ذلك التعيين اسم "لبس". وهذا يعنى أن الرجل قد لبس (العباءة التى حصل عليها من الحكومة). يقوم الشيوخ بعد ذلك بتناول وجبة مع الأخ الجديد أو شرب القهوة مع شيء من الحلوى، ويدعون له بالبركة، ثم يعود كل واحد منهم إلى بيته.

تمتد الطاعة التى يعد بها أعضاء النقابة إلى مجال المال والأعمال فقط، وحتى فى نطاق هذه الأعمال لا يكون أعضاء النقابة خارج حدود التشريع القانونى العام. وهم يعلمون جيداً أن الحكومة تتصل بالشيخ لاستيضاح حقيقة الأمور التى تقدم إليها بصورة مباشرة، وهنا نجد رئيس النقابة يستاء من كل المحاولات التى ترمى إلى تخطيه. ومن هنا يتعين على شيخ النقابة أن يعرف جيداً كيف يميز بين هؤلاء الذين يتعين عليه الاحتفاظ بهم وأولئك الذين لا يشكل مصيرهم شيئًا أمام كبار الشخصيات.

***

(١٠) يرفع القارئ كفيه أمام عينيه كما لو كان يقرأ من هذين الكفين، وبعد الانتهاء من الدعاء يمسح وجهه بيديه.

مع ما يلزم من التبديل والتعديل، نجد أن ما أوردناه آنفًا ينطبق على نقابات مكة كلها، كما ينطبق أيضاً على المؤسسات الأخرى التى تؤسس بالطريقة نفسها، أى على مؤسسات العلماء والسادة . ونحن لسنا بحاجة هنا إلى التطرق إلى النقابات الأخرى، وبخاصة أن السواد الأعظم من هذه النقابات يعمل فى مجال تأجير المساكن أو فى تجهيز السلع الغذائية أو الملابس أو الكماليات، ومن ثم تكون لها بعض الخصائص والسمات الغريبة بعض الشيء. وإلى جانب باعة السلع التى تُجهز بكميات كبيرة للحجاج طلبًا للتصدير، مثل المسابح والأمشاط، إلخ، لاحظنا أيضًا فى مكة أن الزمازمة هم والمخرجين (سماسرة الإبل) الذين سبقت الإشارة إليهم، لا يمكن لأهل المدينة فى غيابهم التوصل إلى اتفاق مع البدو فى مسألة النقل بالإبل. ونظراً لأن الرأس يحلق بعد الحج، ونظراً أيضًا لأن كل حاج يضحى بشاة أو أكثر بعد الحج أيضًا، فإن الحلاقين والقصابين يوجدون بأعداد كبيرة فى مكة (المكرمة).

خلاصة القول أن عمل شيخ الحجاج ينبغى أن يكون مقصوراً على كل ما هو ضرورى للحج. وكما سبق أن أوضحنا فإن شيوخ الحج يحاولون توسيع أنشطتهم لتكون أوسع مما هى عليه، وإحاطة الحجيج بدوحة وارفة الظلال يُمْكن أن تُفْتح لهم نظير مدفوعات معينة. لكن شيوخ الحج فى هذا المجال الواسع لا يستطيعون منع الآخرين من التنافس معهم. وإذا ما تناهى إلى أسماع شيوخ الحج أن حاجا معينًا لديه بالفعل المئات من الدولارات التى سينفقها، فسرعان ما نجد شيخ هذا الحاج يبادر بتحذيره من المتطفلين، كما يحاول شيخ الحج إبعاد الكثير من الزوار من الوصول إلى مثل هذا الحاج، ومع ذلك قد ينجح واحد أو آخر من المكيين فى الوصول إليه، لتحية "ضيف الرحمن" أو ليقول له بعض الكلمات الفارغة تمهيداً لحلب تلك البقرة التى أمسك بها مؤخراً. هؤلاء الزائرون يستطيعون بمهارة كبيرة وبطريقة غير مباشرة معرفة ظروف وأذواق أولئك الذين يركزون عليهم انتباههم.

هل يحتاج الحاج إلى نقود، بعد أن عرف أن مكة فيها كل أنواع المتع التى يود التمتع بها؟ هنا يظهر صديقه الجديد، الذى يكون قد تمكن من معرفة إن كان هذا الحاج ينتمى إلى أسرة ثرية أو لا، ويكون على استعداد لإقراضه النقود على الطريقة المكية؛ ويقدم له قرضًا حسنًا(١١)، هذا المصطلح يطلق هنا عندما يوقع المدين على إقرار بضعف قيمة المبلغ الحقيقى. هل الحاج يود الزواج؟ هذا الزائر يعرف عذراوات، ونساء متواضعات، ويعرف أيضًا أرامل لسن متبرجات، وبلا حموات أو أى أقارب آخرين، وأنهن يناسبن ويوافقن على الزواج من الغريب. وهل يود الحاج شراء أَمَة فتاة؟ لا أحد يعرف السماسرة أو الوسطاء فى هذا المجال أكثر من تلك المعرفة الجديدة. هذا الزائر الجديد أو المعرفة الجديدة يستطيع أن يوفر للحاج البدلاء الذين يحجون له نيابة عن أقاربه الميتين إذا ما كان من الشافعية، أو نيابة عن الأحياء إذا ما كان من الأحناف، وأن هؤلاء البدلاء سوف يرضون ويوافقون على القيام بذلك نظير قطع قليلة من الذهب. هذا الزائر الجديد يتراجع عن هذا العرض الأخير على وجه السرعة إذا ما علم أن شيخ الحج قد صادر أو وضع يده على المبلغ الذى أحضره الحاج لمثل هذه الأغراض، ويقول "هذا صحيح، إن هذا يدخل إلى حد ما فى نطاق عملى ولكن الوقت غير مناسب". هذا يعنى أن مثل هذا الزائر لا يمكن له أن يخرج الخبز من فم الشيخ، ولكن مسألة ترك الصديق (ألسنا أصدقاء؟) بلا نصيحة فى بلاد غريبة عليه أمر لا يصح.

ويستطيع القارئ تخيل التطورات التى تترتب على مثل هذه العلاقات. هناك أيضًا بعض الناس الذين ليسوا شيوخًا أو متطفلين أو معاونى شيوخ، يتكلمون فى هذه المسائل ولكن على النحو الآتى: "كنت من قبل بوابًا، (أو بائعًا جائلاً أو غرازًا حسب الظروف) ثم أتيحت لى الفرصة بعد ذلك لإقامة علاقة وثيقة مع الهنود (أو الأتراك أو الجاوة ... إلخ) ومن ثم فإن كل ما أجنيه الآن من مكاسب هو من حجاج ذلك البلد. هذه النقابة المجهولة الخارجة عن السيطرة واسعة الانتشار، ومن بين أعضائها، كما

(١١) هذا يعنى أن القرض بدون فوائد.

هى الحال بين الشيوخ، يلتقى المرء أناسًا من مختلف المراكز والثقافات. البعض من هؤلاء الناس يساعد على قيام الاتصال الجنسى المحرم بين الحجاج والنساء، هذا الحاضُ على الرذيلة يقدم زوجته فى معظم الأحيان أو امرأة أخرى صديقة. هذا العمل تقوم به عادة الكبيرات فى السن، اللاتى لا يخجلن - على لرغم من عادات الحريم - من شق طريقهن عنوة وبلا مقدمات إلى المنازل، ويطلبن رعاة لهن متذرعات بالوقوع فى الخطأ أو بأى عذر وهمى آخر. سمسار الزواج المحترم هنا يسمونه من باب التندر قوادًا، ولكن هذه الكنية لا تطلق عليه فى حضوره نظرًا لأنها تدخل فى عداد السباب السيئ المشين.

***

أخيرًا يمكننا التطرق إلى مصدر آخر من مصادر الدخل المهمة، والذى يعد مفتوحًا أمام كل أهل مكة فى موسم الحج، هذا المصدر يتمثل فى تأجير المساكن. صحيح أن مكة ليست فيها فنادق، ولكن من الناحية الأخرى، يتحول كل مكى فيها، خلال الأشهر الأخيرة من العام إلى صاحب فندق سواء أكان مالكًا لمنزل بأكمله أم طابق أم حتى نصف طابق. وهنا قد يكون من المناسب أن نورد شيئًا عن إعداد المنازل فى مكة.

المادة المستخدمة فى بناء السواد الأعظم من المنازل تتمثل فى الأحجار التى تُجلب من الجبال القريبة من المدينة. والمنازل الجيدة تُبنى من حجر الشميسى، الذى يجلبه الناس من جبل الشميسى القريب من منطقة حدود الحرم على الطريق المؤدى إلى جدة. يضع الناس فوق دعائم السقف، فى المنازل البسيطة، حصيرًا ينسجونه من سعف النخيل، ويُغطى هذا الحصير بالرمل. يستخدم المهندسون الأتراك والمهندسون السوريون - الذين يستخدمهم الأشراف والتجار الأثرياء - فى بناء المنازل مادة لاصقة، ويبنون الشرفات والأرضيات وكذلك السلالم بنوع من الأسمنت (يسمونه طبطاب)، وفى المنازل القديمة التى تُرمم فى الوقت الراهن فإن الأرضيات والشرفات،

على أقل تقدير تعالج بهذه الطريقة، كما تُستبدل أيضًا بالسلالم العالية المصنوعة من الأحجار غير المجوفة سلالم أخرى يسهل الصعود عليها بطريقة آمنة.

ليس هناك نظام موحد للبناء، ويصعب فى حقيقة الأمر أن نقول شيئًا يصدق على المنازل كلها بشكل عام. هذا يعنى أن المهندسين الجيدين يستجيبون لنزوات رعاتهم الكبار ومطالبهم، وهذا يعنى أيضًا أن الرجل العادى يتحتم عليه أن يأخذ بعين اعتباره مسألة ندرة المواد من ناحية، وعدم استواء سطح الأرض وشكل فراغات البناء من ناحية ثانية. ويجب أن تعذرونا إذا ما استلفتنا انتباهكم إلى بعض الغرف أو الشقق التى يندر أن يخلو منها أى منزل من المنازل المكية، مهما اختلفت وتباينت الترتيبات الأخرى فى هذه المنازل.

بعد الدخول من باب المنزل، يدخل الداخل إلى الصالة (الدهليز) التى تكون أرضيتها، كما سبق أن قلنا، مفروشة بالرمل أو مبنية من الأسمنت (طبطاب) . وفى المنازل الصغيرة نرى فى الصالة (الدهليز) مقعدين من الخشب مثل المقاعد التى نشاهدها فى كل مقهى من المقاهى(١٢). فى هذا المكان، يستقبل صاحب المنزل - سواء أكان مالكًا للدور الأرضى أم الطابق الأول - الزوار العابرين أو المفاجئين . قد يكون هناك بعيدًا عن الصالة وعلى جانب واحد أو الجانبين عدد صغير من الغرف، ومن باب التحسب للسيول تكون أرضية هذه الغرف أعلى من منسوب الصالة. والناس هنا يطلقون على الواحدة من هذه الغرف اسم المقعد (وجمعه مقاعد)، وهى تستخدم فى أغراض التجارة والمال والأعمال، أو قد تستخدم فى استقبال الأصدقاء الحميمين، أو للنوم بين الحين والآخر، أو قد تُستخدم جزءًا من الصالة نفسها، أو قد يستخدمونها مخازن يخزنون فيها البضاعة أو الأمتعة.

---

(١٢) المقاهى التى فى الشوارع المكشوفة تسقف بمظلات أو تندات. ومجموعة الأدوات التى يستخدمها عامل المقهى (وهم هنا يطلقون على عامل المقهى اسم "مجهوى") مكونة من غلاية القهوة وبعض الأكواب، وبعض الجرار المملوءة بالماء القراح، وبعض الأكواب المعدنية وبعض الشيش أو النرجيلات.

فى كثير من منازل الطبقة الأرقى تكون الصالة جذابة وتشرح الصدر تماماً. والجزء الخلفى من الصالة الذى يصل إليه المرء عن طريق سلم مفروش بالسجاد ومسنود على جدرانه بعض المراتب والحشيات والمخاد التى يجلس الناس أو يتكئون عليها. ومن ضمن العادات الجديدة أن الناس يضعون تلك المراتب والحشيات فوق مقاعد من الخشب يسمونها "كراويت"، يخفونها عن طريق التنجيد.

هذا الديوان يستخدمه الناس هنا فى الاستقبال بكل أشكاله، يضاف إلى ذلك أن الرجال يتناولون وجباتهم فى الديوان عندما يهل عليهم ضيوف أو أصدقاء مفاجئون ممن يقيمون فى المنزل. هذا الديوان، هو والغرف المجاورة له، يكفى لاستقبال كبار الضيوف، الذين لا يمكن أن يكونوا بحاجة إلى الصعود إلى الطوابق العليا من المنزل. الغرف المجاورة للصالة تُرتب للوفاء بكل الأغراض؛ فواحدة من هذه الغرف تستعمل مكتبة، أو بالأحرى غرفة للكتابة والأعمال الكتابية، وغرفة أخرى تتسع لمجموعة صغيرة من الأصدقاء الذين يودون تجاذب أطراف الحديث بلا إزعاج وفى هدوء، وبعيداً عن الضوضاء الخاصة بمعاملات المال والأعمال التى تدور فى الصالة. هذا الدور، شأنه شأن أى دور آخر فى البيوت المحترمة، له دورة مياهه الخاصة (والناس هنا يقولون لدورة المياه "بيت الماء أو قد يقولون لها باللغة الدارجة "طهارة")، ودورة المياه هذه مجهزة أيضا لتكون حماماً، وهى تحتوى أيضًا على إناء كبير من الفخار (يسمونه "الزير") يحتوى على الماء اللازم لاستعمال هذا الدور من المنزل.

وجود جدار صغير هو الذى يقلل عادة من ذلك الانطباع الذى تعافه النفس فى هذا المركب. وخلف هذا الجدار الصغير يوجد مرحاض مكون من مقعد يرتفع حوالى ديسمتر واحد(*) عن سطح الأرض ومقسوم من منتصفه بفتحة واسعة يجلس المرء فوقها القرفصاء عندما يريد قضاء الحاجة (التغوط). الداخل إلى هذا المرحاض يحمل

(*) الديسمتر يساوى ١٠ سنتيمترات. (المترجم)

معه إبريقًا فيه شىء من الماء ليستعمله فى الاستنجاء، أما الوضوء والاستحمام فيكونان فى مكان آخر غير المرحاض. والمعروف أن الاستحمام هو للطهارة من الحدث الأكبر، وعندما يريد المرء إنعاش نفسه.

فى الطهارة من الحدث الأكبر يسحب المرء الماء من إناء كبير مصنوع من الفخار، مستخدمًا لذلك مغرافًا يوضع على الغطاء الخشبى لذلك الإناء، والذى يستحم تطهرًا من الحدث الأكبر يصب الماء على جسده العارى. هذا المغراف نفسه يستخدم فى ملء الجرار الفخارية بماء الشرب ، وفى ملء طسوت الغسيل، وأوانى المطبخ، بل إن خدم المنزل أنفسهم قد يشربون من ذلك المغراف.

أرضية المرحاض تنخفض فى اتجاهات مختلفة حتى يتمكن الماء المتساقط من شق طريقه إلى الأنابيب التى تمر أسفل الجدار. ونحن هنا يتعين علينا ترك ذلك المكان الذى لا يجوز النطق فيه باسم الله ، والذى تسكنه، علاوة على الصراصير، كل أنواع الأرواح الشريرة، التى يتعوذ المتدين منها عندما يدخل ذلك المكان بقراءة آيات القرآن (٣٧ : ٧٩) ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾(*).

فى الدور الأرضى قد توجد فى بعض الأحيان غرف كبيرة تكون منعزلة كلية عن صالة (دهليز) المدخل وتحل محل الديوان. الأثرياء من الناس قد ينشئون مستودعًا من الحجر (بِركة) فى أرضية الغرف التى من هذا القبيل، ويصبون فى هذه البركة مئات القراب من الماء لتبريد هواء المنطقة المحيطة بها، ونحن لسنا بحاجة إلى الدخول فى التعديلات التى طرأت على هذه الترتيبات، وفى الأماكن التى لا يتصل الجدار الخلفى من المبنى بالمنازل الأخرى يوجد باب يفضى إلى فناء محاط من جميع جوانبه بمنازل صغيرة، ويتصل بالشارع الرئيسى عن طريق حارة ضيقة.

(*) هذه الآية موجودة فى سورة الصافات (٣٧)، ورقم الآية ٧٩ وليس ٧٧ كما ورد فى السياق ، ومن المعتاد أن يستعيذ المتدين من الشيطان الرجيم أو من الخبث والخبائث ... (المراجع)

فى الطابق الأرضى ينبغى علينا عدم المخاطرة بلقاء النساء بصورة مفاجئة. صحيح أن الأشكال المحجبة لا ينقطع مرورها بين الحين والآخر، ولكن ذلك لا يشكل مثاراً للقلق. الأمر غير ذلك على السلم وفى الطوابق العليا، والمنزل عندما تعيش فيه أكثر من أسرة لا يستطيع الإنسان الصعود دون إذن من البوّاب، وبمصاحبة أحد من أهل المنزل. فى هذه "المدينة الكبيرة" من مدن العرب يشغل القسم الأكبر من السكان طابقًا واحداً أو نصف طابق من المنازل المكونة من ثلاثة طوابق أو أربعة. فى هذه المنازل يمكن للمحترمين من الناس الدخول والصعود إلى الطوابق العليا لزيارة أصدقائهم ومعارفهم لكن مع شيء من التحوط والحذر. هذا يعنى أن الإنسان ينبغى أن يخطو خطواته بمنتهى الحذر، وينادى الخالق سبحانه وتعالى فى كل لحظة باسم من أسمائه قائلاً: "يا ستار (بمعنى يا ستار على خطايانا) وذلك حتى يتسنى للنساء اللاتى يمرقن من غرفة إلى أخرى تغطية أنفسهن أو الابتعاد عن الطريق. وعندما يقترب الزائر من الطابق الذى يود زيارته، يتعين عليه النداء باسم ساكن المكان، وإذا لم تصفق امرأة إشارة إلى عدم وجود الرجل يستمر الزائر، وسرعان ما يظهر الرجل على الفور.

على السلم، قد نمر فى بعض الأحيان ببعض الأبواب، التى توجد خلفها دواليب كبيرة أو غرف تستعمل مخازن، وتحصل على إضاءتها من الفناء أو من المطابخ الصغيرة، وهذه الغرف أو الأماكن تكون من ملحقات الطابق الذى يعلوها.

عدد الشقق السكنية وحجمها فى كل طابق، وكذلك عدد دورات المياه، يتباين تبايناً كبيراً. وفى كثير من المنازل الجيدة تتشابه الشقق السكنية، لكن إذا ما واصلنا الصعود نجد أن المساحة السطحية تتناقص على نحو يسمح بوجود الشرفات الضرورية، أو لأن المبنى لم يكتمل بسبب ضيق ذات اليد. فى الطابق الثانى على سبيل المثال قد يكون حوالى ربع مساحة الطابق على شكل شرفة أو شرفات، الأمر الذى

يؤدى إلى ضياع هذه المساحة من الطابق الثالث. هذه الشرفات[١٢] فى بعض الأحيان تشكل أكثر أجزاء المنزل خصوصية، لا من حيث إنها تجرى فيها كل أنواع الأعمال المنزلية التى تقوم بها النساء، التى منها تعليق الملابس لتجف، وإنما لأن رب البيت هو وأسرته يتمتعون بعد غروب الشمس بالبراد النسبى فى هذه الشرفات، كما يستخدم الناس تلك الشرفات غرفًا للنوم فى أثناء اشتداد درجة الحرارة فى فصل الصيف. من هنا فإن تلك الشرفات تكون لها جدرانها المستقلة الخاصة بها، وغالبًا ما تصنع تلك الجدران من الأحجار لتمنع الغرباء الوقحين من الحملقة داخل هذه الشرفات، على أن يترك فراغ بين الحجر والذى يليه من أجل مرور الهواء. من هنا يهتم الناس بأن يكون لكل زوجين هما وأولادهما شرفتهما الخاصة بهما وبأولادهما، أو فى الأماكن التى يتقاسم فيها المتزوجون مثل هذه الشرفات، والتى يتحتم فيها تقسيم مثل هذه الشرفة إلى أقسام عن طريق الستائر أو الحواجز. من هذا المنطلق تُبنى فى معظم الأحيان فى هذه الشرفات غرفة منخفضة (يطلقون عليها اسم المبيت) للتمتع بالسعادة الزوجية. والشبان الصغار هم والعبيد يجدون لأنفسهم مكانًا مريحًا ينامون فيه فى الشرفة، أو قد يتصرفون تصرف الفقراء من الناس وينامون على مقعد أمام الباب أو فى المقهى.

على الرغم من أن المكيين لا ينامون كلهم فى العراء فى أثناء فصل أو موسم البراد، فإن القليلين منهم هم الذين لهم غرف مخصصة للنوم، والسبب فى ذلك أن الغرف التى من هذا القبيل لا لزوم لها، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء المكيين يغتسلون فى المراحيض. يزاد على ذلك أن المكيين ينامون فى ملابسهم التى يرتدونها، ولكن بعد خلع الجبَّة والعنترى، أو بالأحرى الشاية (وهى رداء طويل يلبس فوق الملابس)

(١٢) الشرفة الواحدة قد تطلق عليها صيغة الجمع "سطوح" وقد يقولون لها سطح، ولكن الشرفات التى يوجد تحتها فراغ، والتى تستخدم فقط للجلوس فى الهواء الطلق، يطلق الناس عليها اسم "الخارجة".

نظراً لأن هذه الملابس لا تناسب الجلوس بها فى المنزل، ويعقب ذلك وضع الفراش فى أى مكان مناسب، ويجرى انتخاب الأماكن التى فيها تيار من الهواء، لهذا الغرض. الكثيرون من أهل مكة يرقدون على المراتب (التى يقولون لها طراحات) وعلى المساند أو المخدات التى يمكن العثور عليها فى أية غرفة من الغرف. والمكيون يمضون وقتًا طويلاً فى النوم فى أثناء حرارة النهار، حيث يميل الإنسان إلى النوم كلما غالبه النوم أو أحس بأن الفرصة مهيأة لذلك، فى حين تخصص الليالى عليلة الهواء كلها أو بعضها للاتصالات الاجتماعية السارة .

فى الواجهة المطلة على الشارع نرى "مجلسًا" (غرفة جلوس) لكل طابق من الطوابق، ولكل مجلس نوافذ عدة، ومن خلف هذه النوافذ توجد دائما بعض المقاعد المزودة بالمراتب والمخاد. والنوافذ الوسطى لها شرفات(١٤) بارزة تطل على الشارع. هذه الشرفات كلها مقفلة بشيش (شباك) من الخشب، فيه ثقوب صغيرة، لا يستطيع أحد أن يرى من خلالها الغرفة من الداخل. الألواح الخشبية الصغيرة المنفردة فى الشيش يمكن تحريكها إلى الأعلى وإلى الأسفل، كما أنها مثبتة بخطاطيف صغيرة، وإذا ما فتح الشباك بكامله ظهرت ستارة بهيجة الألوان مكونة من عيدان رفيعة صغيرة مضمومة بعضها إلى بعض على شكل حصير، وتتدلى من على المقاعد (الكراويت) المبنية بطول الجدار مؤثثة مثل مقاعد الديوان التى سبقت الإشارة إليها فى الطابق الأرضى. وفيما بين السجاد والأرض يوضع الحصير المصنوع من سعف النخيل مخافة التعجيل بتلف السجاد الثمين .

الداخل إلى المجلس (غرفة الجلوس) يتعين عليه المرور على غرفة أصغر من الصالون، ولكن لها عرض الصالون نفسه، هذه الغرفة الصغيرة يطلق الناس هنا عليها

---

(١٤) يطلق الناس فى مكة على البلكونة اسم "روشان" كما يطلق الناس هنا على الشباك الفردى الذى يفتح كالباب اسم "طاقة"، وجمعه "طياق" أو "طيقان" ، كلمة طاقة هذه تدل أيضًا على الرفوف المركبة على الجدار فى الغرفة، ويوضع دومًا فوقها أوانى الصينى، والزجاج، والفخار.

اسم "الصُّفَّة" . فى هذه الصُّفَّة يستقبلون الزوار الذين يصلون فجـأة، لو تصادف أن كانت غرفة الجلوس مشغولة بالنساء، فى هذه الصفة يكون مقام أولئك المباشرين الذين يقومون على خدمة الضيوف فى أثناء الولائم الكبيرة على سبيل المثال. وعلى جانبى غرفة الجلوس والصفة إذا ما توافر المكان، توجد إلى جانب الأرفف الجدارية، بعض الدواليب والخزائن ودواليب كبيرة للفضيات. والاسم الشائع الذى يطلق على هذه الملحقات هو "خزانة"، لكنها إذا ما استخدمت مطابخ[١٥]، فإن الناس يطلقون عليها هنا اسم "مطبخ" . والزوجة التى تكون جالسة مع زوجها تدخل المطبخ إذا ما أراد الزوج استقبال زائر أعلن عن وصوله. وإذا لم تكن هناك إضاءة فى الخزانة، تستطيع المرأة الخروج من باب على الجانب الآخر.

فى حال المؤسسات كبيرة الحجم قد توجد غرف جلوس عدة، ومن بين الغرف المختلفة المتبقية يمكن لنا أن نأتى على ذكر غرفة الجلوس الأصغر من المجلس، والتى تقع على جانب الفناء (الحوش) أو على الشارع الخلفى، والتى يطلقون عليها اسم "المأخَّر" .

***

عندما تتشارك عائلات عدة فى طابق واحد من طوابق المبنى، فإن العائلات نفسها هى التى تنهض بمسألة الفواصل باستعمال الستائر، والقطع الخشبية، وما إلى ذلك من المواد الأخرى. وعلى أى حال يتعين على الإنسان أن يثق من نواحى كثيرة بنزاهة وشرف المستأجرين أو الساكنين. وهنا يتعين علينا أن نضيف أنه طبقًا للأعراف السائدة، يتعين على الجيران مساعدة بعضهم بعضًا فى كل مناسبة من المناسبات،

---

(١٥) المطبخ فى حد ذاته عبارة عن فرن من الحجر وله فتحات عدة، ويكون موقعه فى شرفة السطح.

والتى منها على سبيل المثال إقراض الغرف أو إعارتها ، والأوعية والأواني، بل حتى الملابس. ومن هنا يمكن لنا الوقوف على مدى صدق المثل الذى يقول خاصة فى مكة: "الجـار قبل الدار" .

المستأجرون الذين يسيئون التصرف يعطون الساكن حق فسخ عقده مع المالك. لكن هناك مستأجرين دائمين لا يتركون الناس بلا مضايقات، هؤلاء السكان أو المستأجرون يتمثلون فى القطط والسحالى والنمل والحمائم (الحمائم ضيوف يومية)، وهناك زوار نادرون، يتمثلون فى الثعابين والسحالى . هذه السحالى لعنها محمد ﷺ وأوصى بقتلها(*) فى أضعف الأحوال. أما الأنواع الأخرى فهى تتكاثر فى ظل حماية القانون لها، وهذا القانون يطاع مع هذه المخلوقات أكثر من طاعته مع المخلوقات البشرية، والقانون (الشرع) يحرم قتل الكائنات الحية فى الأراضى المقدسة، فيما عدا حيوانات الذبح وبعض الحيوانات أو الهوام الضارة. حتى قبل الإسلام كانت الحمائم فى مكة موجودة بأعداد كبيرة. وفيما يتصل بالقطط يقال إن محمداً ﷺ كان يحابى القطط وذلك نقلاً عن الموروث.(**). هذان النوعان يوجدان فى الأراضى المقدسة بلا خوف من الإنسان؛ فالأبواب والنوافذ مفتوحة بصورة دائمة، يضاف إلى ذلك أن فتحات التهوية الموجودة أعلى النوافذ لا تغلق مطلقًا، ولنا هنا أن نتخيل مقدار القلق الذى تسببه تلك الحيوانات لربة المنزل.

كلما بعد الحى السكنى عن الشوارع الرئيسية تزايد عدد المنازل الفقيرة المكونة من طابق واحد، وهذه المنازل ذات الطابق الواحد تنتهى فى الضواحى إلى مجرد أكواخ (يطلق الناس عليها هنا اسم) "عشش" والشحاذون والمشردون يجدون فى هذه

(*) لم يرد عن النبى ﷺ لعن السحالى أو الأمر بقتلها ، وإنما ورد ذكر "الفواسق"، ومنها "الحية والعقرب والكلب العقور" . (التحرير)

(**) الذى ورد فى ذلك أن النبى ﷺ قال: "دخلت امرأة النار فى هرة، حبستها فلاهى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض" . (التحرير)

العشش مكانًا ينامون فيه، وذلك بدلاً من المساجد التى يمضى فيها بعض آخر من الناس الليل لأسباب تتعلق بالرؤى المنامية، أو لأنهم يشعرون بالضيق وعدم الرضا فى منازلهم. الحجاج الفقراء ومن فى حكمهم يختارون لنومهم أماكن فى العراء، لكن الغالبية من الحجاج يسكنون فى منازل ومعهم أمتعتهم.

أبسط المنافع التى يحصل عليها المواطن المكى من موسم الحج استرداد إيجار مسكنه، ضمن القيمة الإيجارية التى يحصل عليها من الحجاج نظير تأجير جزء من مسكنه لهم، وعليه فإن المساكن فى مكة يُحصَّل إيجارها عن عام سواء أبرم العقد فى بداية العام أو فى منتصفه، أو حتى قبل شهر واحد من بداية الحج. وصاحب المنزل لا تعنيه مسألة الحصول على الإيجار من المواطنين أو الغرباء، بل إنه يحصل من الغرباء على قيمة إيجارية أكبر. وإذا ما استمر صاحب المنزل فى انشراحه لتأجير منزله لمواطنى مكة المحترمين، فمرد ذلك إلى تخلص ذلك المالك من كثير من المتاعب والقلق إلى أن ينتهى العام.

وإذا ما كان رجل يعيش فى منزله، فإنه يحصل فى الشهور الثلاثة الأخيرة من العام، من إيجار غرفة واحدة، على مبلغ يعادل إيجار المنزل كله بدءًا من شهر المحرم (الشهر الأول من العام الهجرى). يضاف إلى ذلك، أن من يعيشون فى نصف طابق يعرفون كيف يدبرون أمورهم على نحو يمكنهم من استضافة عدد من الحجاج يعد على أصابع اليد الواحدة، وكلما قصرت إقامة الحجاج قبل الحج وبعده كان ذلك أفيد لصاحب المسكن. والسبب فى ذلك أن الحجاج يمضون القسم الأكبر من وقتهم فى المسجد، أو فى أماكن أخرى خارج المنزل. والمنزل ليس سوى ملجأ، لكن فى حال وجود الحجاج فى المسكن فإن المؤجر يرضى لنفسه ولأسرته بأركان بسيطة من المنزل.

وأصحاب المنازل لا يبالون بنوعية الحجاج الذين يقيمون معهم، كما أنهم لا يخافون أو يخشون التملص من الإيجار، لأن الأوغاد الذين من هذا القبيل لا يحضرون لأداء فريضة الحج. لكنهم يودون الحصول على قليل من النقود علاوة على

القيمة الإيجارية. وإذا ما استثنينا شيخ الحجاج، نجد أن صاحب السكن هو صاحب الفرصة الأفضل فى استغلال الحجاج. وصاحب السكن يسعد لتأجير مسكنه لأصدقاء أو لبلديات كانوا زبائن له من قبل، وله سابق معرفة وخبرة بكرمهم وسخائهم. يضاف إلى ذلك أن هذا المؤجر يفضل مستأجرى هذه الجنسية أو تلك، والمؤجرون يفضلون الأتراك لنظافتهم، ويفضلون الجاوة لعدم نفاقهم وتباهيهم.

وصاحب السكن، استهدافًا لمصالحه، يضرب سياجًا أو سورًا من حول الحاج، وذلك بخلاف السور الذى يقيمه من حوله شيخ الحجاج، وذلك منعًا للمستغلين من الطبقة الثالثة، أو بالأحرى أفراد النقابة المجهولة التى سبقت الإشارة إليها. ومع ذلك يظل هناك مجال مفتوح أمام أفراد هذه النقابة المجهولة. ناهيك عن الحجاج المستقلين الذين يشقون طريقهم بأنفسهم خلال هذين السورين، إذ إن هناك حجاجًا كثيرين يتجولون ويترددون على المنازل الخالية، فى غياب المراقبة التى سبقت الإشارة إليها . فى السكن المكون من غرفة واحدة تجد عشرين حاجًا من الجاويين يقيمون ويطبخون، ويأكلون وينامون فى هذه الغرفة! بعض آخر من السكان فى المنزل يندر أن يعترضوا خلال الشهر الأخير من العام على هذا الزحام الفظيع غير المريح، وفى غياب الاتفاق المتبادل يصعب تحقيق أية منفعة من المنافع. يضاف إلى ذلك أن الجماعات الصغيرة، وبخاصة تلك الجماعات التى تضم بعض النساء، يفضلون أن يكون تدبير أمورهم المنزلية بعيدًا عن صاحب المسكن، وفى مثل هذه الحال يتبادل صاحب المسكن والمستأجرون الدعوات والهدايا والمنافع الأخرى. يضاف إلى ذلك أن علاقات ضيوف الرحمن، بشيوخهم ومضيفيهم وقراصنتهم، تتخذ أشكالا مختلفة فى ظل السمات الشخصية الناتجة عن خبرة التعامل والاختلاط بالمكيين فى مواسم الحج السابقة وما بعدها .

هناك حيلة يحتال بها المضيفون المكيون على الغرباء الباحثين عن السكن، وهذه الحيلة عبارة عن غرفتين تبدوان للأعين غير الخبيرة كأنهما جيدتان تمامًا، لكنهما فى أوقات معينة من اليوم أو العام لا تصلحان للسكن، أو أنهما تحتاجان بأى وسيلة لإضافة شرفة إليهما لتمضية الليل فيهما. وهنا يجد الحاج الثمن مناسبًا تمامًا، ويبدأ فعلاً فى شغل الغرفتين، وعندما تبدأ عيوب الغرفتين فى الظهور، يقول المؤجر إنه فى

ضوء الضرورة على استعداد أن يعطى ضيفه غرفة أخرى أو حتى شرفة أخرى، ولكنه فى مثل هذا الحال سيضطر إلى مضاعفة القيمة الإيجارية أو الحصول على ثلاثة أضعاف القيمة الإيجارية.

والشيوخ بحكم تمكنهم من الغريب منذ لحظة الوصول، يقتادونه من أنفه، ويصبح لهم تأثير كبير فى اختياره لمسكنه، وهنا يبدو المكيون جميعًا وكأنهم يسعون إلى التقرب إلى الشيوخ، نظرًا لأن الشيوخ هم الذين يضعون قيودًا على الاتصالات الواسعة بين جماهير الحجاج.

***

إلى هنا نكون قد بينا كيف أن الحياة الاجتماعية كلها فى مكة تتركز بصورة رئيسية فى الحج، والتقويم الإسلامى بسنته القمرية هو صاحب المغزى الأكبر والدلالة الأعظم فى مكة، والناس هنا لا يتذكرون السنة الشمسية إلا من خلال التغيير الطفيف الذى يطرأ على درجة الحرارة، والناس هنا يتحدثون عن وقت نضوج الرطب والخوخ والكمثرى ... إلخ، ولكن الدوائر المثقفة تعرف فصول السنة من خلال علامات أو دلائل البروج، والفلكى الذى يعمل بمثل هذه المسائل هو فلكى الأراضى المقدسة، ويطلقون عليه اسم "الريس"، وهو الذى يعطى المعلومات لأصدقائه الذين يسألونه عنها. واستكمالاً لتبصراتنا فى العلاقات الاجتماعية وفى أنشطة المكيين، سوف نحاول التعمق بعض الشىء فى التقويم القمرى ونتريث النظر بعض الشىء فى النقاط التى تستحق التدقيق.

بدءًا من شهر المحرم، الشهر الأول من العام، نستطيع أن نمر مرَّ الكرام على هذا الموضوع. فقد بدأ ينحسر ذلك الاضطراب المحموم الذى كان يصيب كل شىء هنا فى الشهر الأخير من العام.

غادر حجاج كثر مدينة جدة فى البواخر، يضاف إلى ذلك أن شيوخ الحج يشحنون فى كل أسبوع بعضاً من هؤلاء الحجاج عن طريق نقلهم إلى الميناء. وها هم السماسرة والوسطاء يجمعون مالاً قليلاً من خلال أداء بعض الخدمات للتوكيلات والشركات الملاحية، أما الآخرون الذين يبقون فى مكة طلباً للدراسة أو للتمتع، فيبدأون فى استئجار مساكنهم الدائمة، ويبدأون استقرارهم طبقًا لنمط الحياة الجديدة وإيقاعها. وبذلك نجد أن عناصر المجتمع المكى التى تبعثرت وانتثرت قبل أسابيع عدة، قد بدأت تتجمع بصورة متدرجة لتعود سيرتها الأولى.

لا يمكن للمكيين أن يستسلموا جميعًا للراحة والترفيه، هناك بعض التجار الذين يقومون ببعض الرحلات التجارية والمالية والأعمالية، والشىء نفسه يفعله وكلاء الحجاج الذين يقومون برحلاتهم إلى الجزر البعيدة بتكليف من شيوخ الحج، لكى يبذلوا قصارى جهدهم من أجل تسجيل الحجاج فى الخارج استعداداً للموسم القادم.

آلاف من المكيين لا يسافرون طوال حيواتهم إلى أى مكان باستثناء الطائف والمدينة [المنورة]، بل إنهم لا يذهبون حتى إلى جدة إلا وهم مرغمون، والسبب فى ذلك أنهم منذ طفولتهم يتصورون أن اتصالهم بغير المؤمنين أمر مخيف لهم تمامًا. لقد تعلموا من أمهاتهم ومن النساء الأخريات أن الكفار وحوش كاسرة، وأن بشرتهم الشاحبة تعطى انطباع البرص، وهم لا يقوون على النظر إلى السماء، ويندر أن يسيروا منتصبى القامة، كما يتعين عليهم تظليل أعينهم بحواف قبعاتهم الكبيرة، والرجال والنساء منهم يجلس بعضهم مع بعض بلا خجل، كما يشربون النبيذ، وهم ليسوا أطهارا، لأنهم يدخلون الغرف بنعالهم القذرة، ولا يعرفون كيف يتطهرون كما يبدو، بعد المجىء من الغائط، وبالأحرى بعد التغوط، وبعد الجماع، وأن سلوكهم فظ وليس سلساً لأنهم يضحكون بصوت عال مثل الضباع، وهم يتكلمون جميعًا فى وقت واحد وبإشارات عنيفة، حتى عندما لا يكونون سكارى أو مخمورين. والكفار لا دين لهم ولذلك فهم يحصلون من الله على متع كثيرة وعظيمة فى هذه الحياة الدنيا، يموتون بلا ألم، والمنية توافيهم دومًا فى أيام السبت، حتى يلقوا عذابًا شديداً فى جهنم.

وبسبب كل هذه الأمور، والموروث الآخر الشبيه بذلك، والذى لا يجد صدى لاعتراض العلماء عليه، ترى الشباب المكى يعزفون عن لقاء الكفار كما لو كانوا يعزفون عن لقاء الأشباح والعفاريت، (أما شباب المدينة [المنورة] فهم أرقى درجة وأعلى منزلة) وصف لى عديد من هؤلاء الشباب الذين سافروا فى العام ١٨٨٤ إلى جدة كى يصلوا إلى المدينة [المنورة] بطريق البحر، وصفوا لى أحاسيسهم مثلما يفعل العاطفى الأوروبى عندما يرى مجنونًا أو مصابًا بالطاعون أول مرة. هذا يعنى أن ما يسمعونه من إخوانهم الذين يسافرون لا ينورهم، بل إنه يزيد من ارتباكهم وحيرتهم، والسبب فى ذلك أن هذا كله، أو فى معظمه عبارة عن طُرف أو قصص تظهر أساليب الأوروبيين الكافرة كما توضح أيضًا جهلهم بأمور الدين.

وعلى ذلك، فإن الكثيرين من أهل مكة يشكرون الله على حمايته لهم من رعب الأعين وتلوثها، أما هؤلاء الذين يتصلون بالأوروبيين فقد نمت لديهم إساءات جديدة مكان تلك التى زالت وانتهت. والذى لا شك فيه أن الأوروبيين هم الملامون على ذلك إلى حد ما، نظرًا لأنهم هم الذين يخترقون ويتدخلون فى أفكار وأساليب المسلمين، وأنهم فى ذات الوقت، ومع كل خطوة يخطونها، يمسون مشاعر هؤلاء الناس المتحفظين.

يكفى ما قلناه عن هذا الموضوع، ويجب أن نلاحظ هنا أن الكثيرين من المكيين يبقون فى مكة بعد الحج لكى يستهلكوا مباهج الحياة، وينفقوا ما كسبوه أيضًا بطريقة تقليدية. وطبيعة المكيين طبيعة بهيجة، وإذا ما صادف أن راح المكى يتكلم فى أثناء موسم الحج عن الموروث المقدس، فإن كلامه لا يكون نفاقًا ولا بحكم مواطنته ولا وبحكم منصبه. والمكى شأنه شأن الرجل ميسور الحال عندما يعرب عن تعاطفه مع إنسان طحنه سوء حظه، يسعى بحماس ساذج إلى إقامة وليمة لأخيه فى الدين يتحفه فيها، وإلى حد ما، بالأشياء المقدسة التى قد يكون هو متشبعًا بها بالفعل. والمكى بعد أن ينتهى من عمله السنوى يتطلع ويحن شوقًا فى هذا المناخ الاسترخائى، إلى الحصول

على المتعة المريحة. هذه المتعة يحصل عليها ذلك المكى، أول ما يحصل، من منزله الذى يتمتع فيه المسلم بصحبة أولاده، ويستنفد فيه قواه الجنسية بنهم متزايد، كما يتمتع أيضًا بمنازل أصدقائه التى تقام فيها كل المناسبات، بما فى ذلك الوفاة، وعزائم الغداء التى يتحتم عليه ألاَّ يتخلف عنها، وهناك أيضًا المناسبات الاجتماعية أو الرحلات الخلوية (التى يقولون لها "قيلة") فى المدن وفى الريف، والتى يرتبها المكى مع أصحابه ومعارفه، وهناك أيضًا الأيام التى تكون فيها مكة فى عيد، وهى أكثر الأيام حفاوة، نظرًا لأن المكيين يشاركون فى تلك الأيام فى ذلك العيد الإسلامى العالمى الكبير فى مدينتهم ، بصفتهم خدمًا أكثر من كونهم مضيفين .

كما كان كل تاريخ من التواريخ الإسلامية يدور دورة فصلية كاملة كل ثلاثة وثلاثين عامًا، فنحن لا نستطيع تحديد موضع محدد لتغير التقويم فى الحياة المكية، وذلك عندما ينزح الأثرياء من أهل مكة خلال الفترة التى تشتد فيها الحرارة عن المدينة إلى الطائف فى الشرق حيث الهواء عليل والحدائق المجاورة غناء، إلى الحد الذى يجعل الموروث المكى يقول: إن الله سبحانه وتعالى إرضاء لجيرانه قد نقل هذه البقعة من الأرض من سوريا إلى الجزيرة العربية. وإذا ما وقع موسم الحج فى ذلك الوقت من العام، ضاعت تلك المتعة على المكيين، وإذا ما بلغت الحرارة ذروتها، من الناحية الأخرى، خلال شهر رمضان، تهيأت للمكيين منفعة مزدوجة، نظرًا لأن العطش الذى يعد أشق مشاق الصائمين، لا يشكل مسألة خطيرة فى الطائف. ومن ليس لديه منزل فى الطائف يذهب إليها بصحبة صديق يمكن أن يؤدى إليه خدمات متبادلة فى مكة طول الوقت. هيا بنا نعود من جديد إلى موضوع التقويم.

فى شهر المحرم، وبعد حلم محموم طويل تعود مكة إلى وعيها من جديد. هذه العودة لا تظهر فقط بصورة واضحة فى الحياة العائلية وحدها، وإنما تتجلى أيضًا فى المساجد. وفى اليوم العاشر من شهر المحرم، وهو ما يسمى بيوم عاشوراء والذى يعرف الجميع أنه من أيام الصوم التطوعى، هذا اليوم له احتفالات وطقوس

خاصة عند الشيعة، لأنه اليوم الذى استشهد فيه [سيدنا] الحسين ﷺ ، كما تفتح الكعبة فى هذا اليوم أمام الجمهور(١٦)، فى ذلك اليوم تكون مكة مدينة خالصةً تمامًا للغرباء(١٧)، إذ لا يتخلف أحد من الحجاج الذين يستعدون لرحلة العودة إلى مواطنهم عن الظهور تحت السلم الذى يضعه الطواشيون أمام عتبة الكعبة، وحتى بعد ذلك وطوال أيام قلائل، تظل جماهير غفيرة من الرجال والنساء يملأون فراغًا كبيرًا حول البيت الحرام، حتى يصحبوا معهم إلى ديارهم ثواب الطواف الكثير حول الكعبة.

ويبدأ طواف الناس حول الكعبة يقل تدريجيا، وعلى نحو يتمكن معه مواطنو مكة من احتلال مواقع مريحة لهم فى فناء المسجد وحول الأروقة المحيطة بالكعبة، وتُستأنف من جديد المحاضرات فى الموروثات المقدسة، التى توقفت بسبب بداية موسم الحج. كما تبدأ أيضًا تلك التجمعات "الإخوانية" الصغيرة التابعة لهذه الرابطة أو تلك، وذلك بعد أداء صلاة معينة، يعودون بعدها إلى أماكنهم السابقة لاستئناف الإنشاد الجماعى. وفى شارع المسعى الذى لا يستطيع المرء المرور فيه على امتداد أسابيع عدة، بسبب جحافل الحجاج الذين يسعون جيئة وذهابًا بين الصفا والمروة(١٨)، توجد كتلة من

---

(١٦) دخول الكعبة التى ليس فيها سوى مصباحين متدليين ليس نسكًا من نسك الحج، ولا طقسًا من طقوس الإسلام. ويحرص الغرباء فى مكة على الصلاة داخل بيت الله الحرام، الذى لا يدخله كثير من المكيين سوى مرة واحدة فى حياتهم أو قد لا يدخلونه مطلقًا.

(١٧) فى مكة يمارس الفارسيون [الشيعة] طقوسهم المذهبية الخاصة بشهر المحرم، وتكون هذه الممارسة فى السر وليس فى العلن. وفى جدة، بدءًا من الحرب الروسية - التركية، سُمح بإقامة ذلك الاحتفال، والفرس يلتقون أو يجتمعون فى جدة من أجل ذلك الاحتفال، بدءًا من اليوم الأول من المحرم إلى اليوم العاشر، وهم يجتمعون فى أحد المنازل، ويمكن للغرباء دخول هذا المنزل أيضًا. وفى شهر أكتوبر من العام ١٨٨٤، حضرت احتفال أحزان الحسين بكل ترانيمه الجنائزية، ومواعظه الحزينة، وقد حضر المحافظ التركى هذا الاحتفال بدعوة من القنصل الفارسى، وكان ذلك فى اليوم العاشر من المحرم. حضر المحافظ هذه الاحتفالات البدعية، ولم يكتف بتناول الشربات وإنما بكى أيضًا.

(١٨) التلان اللذان يتعين على الحجاج المشى (السعى) بينهما بطريقة محددة.

البشر تتحرك طلبًا للشراء من كثير من الدكاكين الموجودة هنا، ومن الأسواق المجاورة فى كل من السويقة وسوق الليل .

خلال هذا الشهر أو فى الشهر التالى له يضطرب هذا الهدوء العام من جديد عندما تعود قافلة الحجاج الثانية(١٩) من المدينة [المنورة]. والحجاج الذين يتأخرون فى الوصول إلى مكة عن الوقت المحدد لقيام القافلة الأولى إلى المدينة قبل الحج، يقومون بزيارة قبر النبى ﷺ مع القافلة الثانية بصحبة الجنود الأتراك، وذلك عقب إعلان السلطات الحكومية أن الطريق أصبح آمنًا. مع عودة القافلة، ومع استمرار جعل الحجاج العائدين يواصلون رحلتهم، تصبح النقابات كلها مشغولة بشكل أو بآخر، فى حين يكون الحجاج مشغولين قبل عودتهم من مكة إلى ديارهم باستكمال المناسك المحددة والقيام بالمشتريات اللازمة.

وعقب الشهر الثانى مباشرة، أو بالأحرى فى شهر صفر، يبدأ المكيون استعدادهم للمشاركة فى واحد من أشهر الاحتفالات الشعبية المحلية، وهو احتفال "ستنا ميمونة" الذى يصادف اليوم الثانى عشر من شهر صفر. وستنا ميمونة هذه واحدة من الصالحات، وكانت زوجة للنبى ﷺ وما يمكن قوله عن قلة قليلة من الصالحين فى ذلك الوقت، هو أن قبر ستنا ميمونة(*)، حسب الموروث القديم، يقع فى المكان نفسه الذى يجرى الاحتفال فيه كل عام. هذا المكان يقع على الطريق المؤدى إلى المدينة [المنورة]، أى على بعد مسير حوالى نصف يوم فى الاتجاه الشمالى الغربى من مكة،

---

(١٩) القافلة، اسم يطلق على إحدى القافلتين اللتين تتكونان من إبل محملة بشقدوفات يشغلها النزلاء ومعهم أمتعتهم، وبصحبة الإبل بعض من الحمير. والقوافل المكونة من إبل الركوب يطلق عليها اسم ركب .

(*) كما كانت آخر أمهات المؤمنين ، وهى برة بنت الحارث، بنى بها النبى ﷺ فى الحديبية وسماها ميمونة تيمنا بدخوله وصحبه مكة بعد سبع سنوات من هجرته إلى المدينة المنورة ، وتوفيت عام ٥١ هـ. ودفنت فى سرف على مقربة من التنعيم . (المراجع)

والذى يطلق عليه الناس اسم "ستنا ميمونة". هذا المكان كان يطلق عليه أصلاً اسم السَّرِف، ولكنه أصبح يطلق عليه فيما بعد اسم "النوَّارِيَّة".

ذلك الذى يطلق عليه اسم يوم الوليَّة ولا يفهمه الناس تماماً، والناس هنا يسمون هذا الاحتفال بالحول، الذى هو بطبيعة الحال الذكرى السنوية للوفاة، لكن هناك أولياء لهم أحوال كثيرة على امتداد العام، يضاف إلى ذلك أن تاريخ وفاة السواد الأعظم من الأولياء تدور من حوله الشكوك، ومن طريقة الاحتفال أو إحياء ذكرى كثير من الأولياء يمكن لنا أن نستخلص ما مفاده أن الاحتفالات الشعبية الوثنية القديمة، بعد استئصالها والقضاء عليها، قد بدأت تزين نفسها من جديد ببعض أسماء الصالحين، وذلك من باب المحافظة على وجودها الذى يتهدده الخطر.

قبل موعد الذكرى السنوية "لستنا ميمونة" يجتمع الأصدقاء والمعارف ليكوِّنوا جماعات استعداداً لزيارة قبرها، والجماعة التى من هذا القبيل يطلق الناس عليها اسم باشكة . وكل باشكة من هذه الباشكات لها أمين صندوق، يزوده كل عضو من الأعضاء بمبلغ من الدولارات يعد على أصابع اليد الواحدة، ويوفر أمين الصندوق أو يستأجر كل ما يلزم لتلك الطلعة. أمين الصندوق هذا (يطلق الناس عليه اسم القَيِّم)، وهو يستأجر الخيام أو يقترضها، ويوفر الفُرُش والسجاجيد والإبل وأوانى الطهو وأوانى الأكل، أما بقية أعضاء الجماعة فيتعين عليهم شغل أنفسهم بالمسائل المتعلقة بالملابس والغلايين، وتجهيز بعض الأطباق التى يحضرونها جاهزة ومطبوخة معهم، نظراً لأن الناس لا تجد شيئاً بجوار قبر ميمونة سوى اللحم وبعض الفاكهة، والسبب فى ذلك أن هذه المنطقة خلو من الظواهر العمرانية المهمة.

قلة قليلة من النساء هن اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال، وبهذه المناسبة يرتدى الرجال ثياباً غير الثياب التى يلبسونها فى المدينة، وهم يستبدلون بالعمامة غطاء رأس بدوياً (يسميه الناس هنا "سمادة")، وهذه السمادة لها رباطان يشبهان الثعبان (العقال)، ومن فوق الجاكت الصغير (الذى يسمونه "سَلطة") يلبس العضو الرداء

الطويل المصنوع من وبر الإبل (وهم يسمون هذا الرداء "عباية" abayah)، وهذه العباءة يرتديها البدو ميسورو الحال، كما يرتديها أيضًا أفراد الطبقة المتوسطة من المكيين فى فصل الشتاء. وفى اليوم الحادى عشر يبدأ أعضاء الجماعة رحلتهم، وفى المساء وبعد أن ينصبوا خيامهم يزورون القبر، الذى يقع حسب الموروث فى المكان نفسه الذى أمضت فيه ليلة عرسها مع النبى ﷺ فى خيمة.

الجانب الدينى فى الزيارات التى من هذا القبيل غاية فى البساطة، والمرء عند قبر هذه الصالحة فى المعلاة يردد صيغة التحية المعتادة ("السلام عليكم يا أهل القبور" أو "السلام عليك يا ستنا ميمونة! إلخ)، ثـم يقرأ الزائـر أيضًا الفاتحة[٢٠]، ثم يقرأ بعد ذلك الدعوات التى قد تشير إلى تاريخ حياة هذه السيدة العزيزة عند الله سبحانه وتعالى، ولكن تلك الدعوات تفصح عن رغبات المتعبد الخاصة، هذا الدعاء ينظر إليه السواد الأعظم من الناس على أنه الأكثر فاعلية، نظرًا لأنهم يعتقدون أنهم عهدوا بمصالحهم إلى إنسان، أو بالأحرى مخلوق له أحاسيسهم نفسها، وهم يعتقدون أن هذا الإنسان سوف يلح على الله إلى أن يُنعم الله على صديق هذه السيدة الصالحة بما يريده ويبتغيه. أشخاص عدة من بين أولئك الذين يلاقون المتاعب، يمضون نصف الليل في تواصل خاص مع زوجة النبى ﷺ الراحلة، فى حين يعود السواد الأعظم من هؤلاء الأشخاص إلى خيامهم بعد أن ينتهوا من الدعاء عند القبر، ويروحون يسلون أنفسهم بطرق شتى داخل الخيام.

قلة قليلة فقط من الناس هنا هم الذين يمضون وقتهم فى ممارسات دينية فى هذا المزار، أى أنهم يقيمون الذِّكر فى أثناء الليل، أو يستمعون فى النهار أو الليل إلى

(٢٠) استنادًا إلى المفاهيم الأصولية فإن قراءة السورة الأولى من القرآن لها فوائدها الجمة الدائمة، التى لابد وأن تفيد زائر القبر، والسبب فى ذلك أن الزائر يعود عليه ثواب قراءته، فى حين تكون نيَّة الزائر بهذه القراءة الحصول على صداقة وعون هذه السيدة الصالحة. والشخص العادى ليست لديه هذه النظرة البعيدة، لأن كل ما يعرفه هو أن الإنسان يجب أن يقرأ الفاتحة عند قبر هذه السيدة الصالحة .

تلاوة الموالد (والمقصود بالموالد هنا هى سيرة النبى ﷺ شعراً أو نثراً مقفى) أو إلى القصص والسير التاريخية الدينية الأخرى. مواطنو هذه البلدة من الشبان يأتون إلى هذا المكان لأغراض مختلفة تماماً عما سبقت الإشارة إليه، إنهم يأتون إلى هنا لتقوية أعصابهم باستنشاق قدر كبير من هواء الصحراء العليل، ولكى يتنفسوا ويشبعوا انفعالاتهم التى كانت تبحث لنفسها عن متنفس منذ زمن طويل. هؤلاء الشبان بعد أن يتمتعوا بتناول أطباقهم المفضلة، التى منها على سبيل المثال "الكفتة" التى يطلقون عليها هنا اسم "المبشور"، وقطع اللحم المشوى مع الأرز والتوابل والبهارات التى يطلقون عليها هنا اسم "السلطة"، ويسعون بعد ذلك، عند قبر ستنا ميمونة، إلى المتع المحرمة فى الإسلام. ومسألة إلقاء الطرف الدنيوية والتغنى بالقصائد الدنيوية أيضاً، كما هى العادة مع هؤلاء الشباب، ليست عملية منتظمة تماماً، والأسوأ من ذلك هو جعل الموسيقى مصاحبة لتلك الأغنيات، وذلك باستخدام الآلات الموسيقية، وبخاصة آلة "القبوس"، التى هى آلة فيها أربعة أوتار مصنوعة من أمعاء الحيوان بدلاً من شعر أذيال الخيول، وهذه الآلة تشبه الكمان إلى حد بعيد، كما يستعمل هؤلاء الشباب أيضاً آلة القانون الشهيرة. يمكن تبرير ذلك بحسبانه شيئاً وقوراً لو أن الحاضرين ردَّدوا تحت ستار التصفيق بالأيدى تلك الطقاطيق، أو إن شئت فقل الأغنيات الجنسية القصيرة فى معظمها، على أنغام الموسيقى، لكن زهوة الشباب تحتاج أيضاً إلى غلمان غير ملتحين يلبسون ثياباً شبه نسائية لكى يستثيروا عن طريق الغناء والرقص تلك الانفعالات التى تسمى فى اللغة العربية باسم نبى اللّه لوط. وفى أحيان كثيرة من هذه المناسبات يتشاجر اللوطيون شجاراً عنيفاً على مراميهم الأثيرة لديهم، وهو ما يؤدى إلى وفاة البعض منهم فى هذا المكان، من هنا يوفد إلى هذه الأماكن، فى تلك المناسبات بعض رجال الشرطة الأقوياء والأشداء لحفظ النظام عند قبور الأولياء.

وليس من العجب فى شىء أن نجد العلماء، رغم حماسهم لتقديس الصالحين، لا يحبذون تلك التجمعات بأى حال من الأحوال، وهم لا يسمحون للشبان الصغار

بالمشاركة فى تلك التجمعات إلا من خلال "بشكة" (جماعة للتنزه) تضم أشخاصاً لا يرقى الشك إلى تدينهم وتقواهم. وعلى أى حال، فإن هذه الذكرى السنوية لا تعد عند المتدينين مناسبة للحزن، رغم إقامتها بجوار قبر من القبور، وهذا يعنى أن التفكير فى الموت يكون بعيداً تماماً عن "الزائرين" فى مثل هذه المناسبات، قبر الولى عند هؤلاء الناس يشبه منزله تماماً الذى تنعقد فيه الاجتماعات بين الحين والآخر.

على الطريق المؤدى من مكة إلى ستنا ميمونة، وعلى بعد مسافة تقدر بمسير يتردد بين الساعة والساعة ونصف الساعة من مدينة مكة تقع منطقة الشهداء والتنعيم، والتي يطلق الناس عليها هنا اسم "العمرة"، وسبب هذه التسمية أن المكيين وضيوفهم يذهبون إلى هذه المنطقة للبس ملابس الإحرام لأداء العمرة . وقد أصبح المكان يعرف باسم الشهداء نظراً للانتفاضة التى قام بها أتباع (سيدنا) على فى العام ٧٨٦ الميلادى، فى هذا المكان عند سفح جبل الفخخ . الولى الشيعى الحسين بن على، الذى جاء من ينبع، مدفون هنا مع رفاقه. يبدو أنه قبل استشهاد هؤلاء الأبطال كان فى هذه المنطقة قبر لشخص من صحابة محمد ﷺ المكرمين، وأهل مكة الحاليون لا يزالون يذكرون عبد الله، ولد الخليفة عمر بن الخطاب، على أنه الولى المدفون فى منطقة الشهداء. ويوم عبد الله بن عمر، أو بالأحرى حوله ثابت ومحدد، شأنه شأن أيام الأولياء الآخرين، وهو يصادف اليوم الرابع عشر من شهر صفر؛ ومن هنا يعود القادمون من ستنا ميمونة لزيارة منطقة الشهداء فى الوقت المناسب.

يبنى كثير من المكيين منازلهم الصيفية فى هذا المكان. هواء المكان وماؤه صحيان تماما إلى حد أن الطبقة الراقية من أهل مكة يجلبون ماء الشرب يوميا من منطقة الشهداء، وفى مساء يوم الذكرى السنوية (أو فى مساء اليوم السابق له على حد علمنا)، وفى هذا المكان، مثل سائر الأماكن الأخرى فى مثل هذه المناسبات، يتلو حارس القبر أو قارئ من القراء المهرة سيرة الولى. وحياة الأولياء (سيرهم) تُكتب

بأسلوب جزل، ويتكون القسم الأكبر من هذه السيرة من الأعمال الطيبة والمناقب الخاصة بذلك الولى . والهدف الرئيسى للسواد الأعظم من الزوار هو التسلية واللهو، مثلما يحدث فى الذكرى السنوية لستنا ميمونة، ويستمر السمر فى منطقة الشهداء مدة أسبوع كامل.

فى يوم الأربعاء الأخير من شهر صفر ينبغى أن يكون المؤمنون فى حالة ندم. أما سبب ذلك ففيه خلاف كبير فى الرأى، وهناك فكرة ذائعة مفادها أن شهر صفر ذاخر بكل أنواع الكوارث والأحداث السيئة والمصائب التى يقع أسوؤها فى الأربعاء الأخير من الشهر(٢١). والذين يمر عليهم هذا الأربعاء الأخير بلا نحس أو سوء طالع يلقون بقية العام وكلهم أمل. وهذا وحده يكفى الأتقياء من الناس الذين يقضون القسم الأكبر من الليل والنهار فى الدعاء، ويحتمل أن يكون ذلك العمل مطوياً على شىء من الأعمال الوثنية. وعلى أى حال، فإن الناس ليست لديهم معرفة حقيقية بتلك المفاهيم والأفكار الحزينة التى لدى المتعلمين، وعلى العكس من ذلك نجد الرجال والنساء يقضون الأربعاء الأخير من شهر صفر فى ركوب الخيل والرحلات الخلوية وجماعات السمر الأخرى . وعلى الرغم من أن أولئك الذين يقومون بالاحتفالات والمناسبات سابقة الذكر من المكيين، فإن الحياة فى المدينة تسير سيرتها العادية فى تلكم الأيام.

الاحتفال الكبير على العكس من ذلك، يجرى فى الشهر الثالث من العام الهجرى، وعلى وجه التحديد فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول. استناداً إلى الموروث فإن النبى ﷺ توفى فى ذلك اليوم، وإن تاريخ مولده نُقل بطريقة عرفية إلى هذا التاريخ. العديد من الأساتذة، يقدمون تاريخ الميلاد قبل ذلك التاريخ ببضعة أيام، الأمر الذى جعلهم يقدمون احتفال المولد، وذلك اعتماداً على القراءة فى سيرة محمد ﷺ بدلاً من الاستمرار على نهج محاضراتهم المعتادة. فى عصر اليوم الحادى عشر

---

(٢١) هذه الفكرة عند مسلمى الهند تتعلق بالمرض الأخير الذى ألم بمحمد ﷺ والذى بدأ فى ذلك الشهر. (عن كتاب هيركلوتس Herklots المعنون "عادات المسلمين فى الهند"، ط٢، صـ ١٤٩ وما بعدها)

من شهر ربيع الأول يُعلن عن دخول مساء يوم الاحتفال بالمولد، وذلك عن طريق إطلاق دانات المدافع، ويتجمع المؤمنون لصلاة مغرب اليوم الثانى عشر بأعداد كبيرة . وترتدى النساء المكيات ثياب الاحتفال، فى حين نجد ثلاثة أرباع النساء الأخريات اللاتى يصلين فى الحرم ينتمين إلى مستوطنات أو جاليات أجنبية. ملابس الأطفال فى هذه المناسبة تسترعى الأعين أكثر من زينات الحجاب الغالية التى ترتديها النساء، كثير من ملابس هؤلاء الأطفال متعددة الألوان وتتلألأ مما فيها من ذهب وفضة. هؤلاء الأطفال يأتون إلى الحرم مع أمهاتهم، وفى سائر أنحاء صحن المسجد، وبخاصة فى المنطقة المجاورة للمكان المخصص للنساء، تسمع الصبية والبنات وهم يحدثون صوتاً وضوضاء دنيوية بفعل السلاسل الصغيرة المعلقة فوقهم، والتى تحمل كل سلسلة منها تعاويذ وتمائم صغيرة. يتضايق كثير من الأتقياء من تلك الأصوات وبخاصة فى أثناء الصلاة. والسائر فى الطريق المؤدى إلى الحرم يرى أسواق الشوارع عامرة بمظاهر الاحتفاء وزيناته، وبخاصة محلات الألعاب المصنوعة من السكر، التى تعج بدءاً من وقت الظهيرة بالبضائع والسلع ذات العلاقة بالاحتفال بصفة خاصة. وبذلك يدخل شباب مكة الحرم المقدس ومعهم المأكولات اللذيذة.

بعد انتهاء الصلاة المزدوجة (ففى هذه المناسبة، وكما سيحدث دوماً، يؤم صلاة العشاء فى البداية إمام من الأحناف، ثم يؤم الصلاة الثانية إمام من الشافعية، ولا يسمح الوقت بتقدم أئمة المذاهب الأخرى) توقد مصابيح المسجد الزيتية بأعداد كبيرة على غير العادة، ويبقى الجمهور الغفير فى حركة دائمة مدة نصف ساعة حتى يتمكن الناس من تحية أصدقائهم واستعراض ملابسهم وثيابهم. ولا يرى من هذا الجمع الكبير، ذلك الذى يحدث فى القسم الشمالى الغربى من صالة الأعمدة بالقرب من باب الدريبة سوى عدد صغير جدا من الناس. هذا إمام من أئمة الحرم يجلس فوق مقعد من الخشب، ومهمته تتمثل فى إنشاد "المولد" (سيرة النبى ﷺ) . هذا الإمام يعطى ظهره للكعبة حتى يتمكن المستمعون الواقفون أو الجالسون فى مواجهته،

من الاتجاه بأبصارهم صوب الكعبة (المشرفة) وفى أماكن الشرف يجلس كل من الشريف الكبير والمحافظ التركى (الوالى) ومعهما حاشيتهما، إذا لم تحل ظروفهما السياسية بينهما وبين حضور تلك المناسبة الودية. هؤلاء هم خدم المسجد جميعهم يتحلقون حول هذا الإمام، وتُقدم لهم القهوة والسكريات. والقصص الدينى الذى يقال فى مثل هذه المناسبة يسميه عامة الناس "خطبة" بطريق الخطأ(٢٢) نظراً لأن الخطب لا تلقى إلا فى أيام الجمعة وفى العيدين، وبعض المناسبات القليلة الأخرى الخاصة. هؤلاء العامة لا يراعون سوى الشكل الخارجى فقط، والسبب فى ذلك أن هذا النوع من الخطب يندر أن يستمع أو ينصت إليه مثل هؤلاء الناس أو حتى يفهمونه، كما أنهم يحددون يومى الثانى عشر من ربيع الأول والسابع والعشرين من شهر رجب على أنهما من أيام الأعياد الرسمية.

بعد انتهاء التلاوة، أو بالأحرى الإنشاد، تحدث حركة كبيرة فى سائر أنحاء المكان المقدس، فالكل يتدافع لمشاهدة الشريف ورجال الحكم، ومشاهدة خدم الحرم وهم يمشون على شكل موكب فى الشوارع تحت أضواء الشعلات، ويمرون فى شوارع القشاشية وسوق الليل إلى المبنى ذى القبة الموجود فى الشارع الضيق المنحدر (الشعب) الذى رأى فيه النبى ﷺ النور لأول مرة. ونحن نقرأ فى سجلات المدينة الحولية، كيف كان يُحتفل بهذه المناسبة نفسها قبل ثلاثمائة عام، وكيف كان بعض المتعصبين يعارضون ذلك، نظراً لأن هذا الموكب - هو والاختلاط غير المنظم والخالى من الإشراف، والذى يشارك فيه عدد كبير من النساء - يكون مدعاة لإثارة البذاءة وقلة الحياء بدلاً من أفكار التقوى والورع. ولذلك نجد أن الأفكار قد تغيرت على أى حال من الأحوال.

---

(٢٢) هناك خطأ مماثل، إذ يقول الناس لبعض الصيغ التى تلقى فى عرفات "وعظ". وهذا الخطأ وقع فيه بوركهارت عندما قال : "الخطبة" جزء أساسى من مناسك الحج . وهذا ليس بصحيح فى التنظير أو التطبيق.



على الريس ، أحد أفراد عائلة المؤذنين

يسير في مقدمة الموكب الريس (أى كبير المؤذنين في الحرم والمسئول عن الأمور الفلكية) وهو يغنى بصوت عال أغنية في مدح النبى ﷺ ، وعندما يصل إلى مكان أو محل الميلاد يدخل الجميع، وفي الداخل يجرى إنشاد جديد عن المولد تتبعه صلاة عامة. وينتهي كل شيء على وجه السرعة، إذ بعد صلاة المغرب بساعتين يتعين على كل هذا الجمع العودة مرة ثانية إلى الحرم لأداء صلاة أخرى، هي بالتحديد صلاة العشاء المعتادة. وتستمر طوال الليل تلك التجمعات الاجتماعية التى يشارك فيها الرجال والنساء (كل على حدة)، وتحقق المقاهى تجارة رائجة من هذه العملية، ولكن العلماء والأتقياء يجدون لهم ملاذاً في دوائر الأصدقاء التى يجرى فيها الإنشاد بالتناوب لكل من قصيدة البردة وقصيدة الهمزية وبعض الأغانى التى تتغنى بمدح الرسول ﷺ ، كما تتميز تلك الدوائر أيضًا بصيحات الإخوان المتصوفين بأغانيهم (أذكارهم) وأناشيدهم الساحرة للألباب التى يرددونها مدحًا لرسول الله وثناء عليه ﷺ .

***

في هذا الشهر وفي الشهرين التاليين له (ربيع الآخر وجمادى الأولى) تزداد الحياة الأسرية في مكة حيوية على حيويتها، في هذا الربع من العام على وجه الخصوص، والذى يوصى فيه بالزواج لأسباب دينية، يصلح تمامًا لهذه المناسبة في مكة بصفة خاصة، والسبب في ذلك أن مشاغل ومهن ما قبل الحج تتوقف تمامًا في هذه الفترة. وبحماس لا يقل عن حماس الناس لاستغلال الحجاج في الجزء الأخير من العام، يروح "جيران الله" يجهزون ويعدون كثيراً من حفلات وعزائم الزواج المبهرة والرائعة. ربما كان الدافع وراء تلك الحفلات هو إنفاق النقود التى كسبوها، وربما لأن المحتاجين والمعوزين لهم نصيب من هذه النقود، وهؤلاء وأولئك يمتعون أنفسهم. وسوف نتناول هذه الأمور بالمزيد من التفصيل في القسم الثانى.

الشهر السادس، أو بالأحرى جمادى الآخرة، تنظر إليه كل من بنات المكيين وزوجاتهم باشتياق. الأزواج يتذكرون بشيء من عدم الارتياح أنه فى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر تحل الذكرى السنوية لولى الله الشيخ محمود؛ فقد وُلد ولى الله إبراهيم العظم، الذى تحتفى به الأدبيات الدينية فى شرقى الهند. قبر هذا الولى، أو بالأحرى المبنى ذو القبة المُهْدى له، يقع فى المنطقة التى يلتقى عندها القادمون أو المسافرون إلى مكة من الأحياء العليا والأحياء الدنيا. عند هذه المنطقة التى تبعد عن وسط مكة مسير نصف ساعة فقط، يصحب الأصدقاء المسافرين ليكونوا فى وداعهم. وكل من يصل إلى هذا المكان يتوقف، ويقرأ الفاتحة مرة واحدة على الأقل ترحمًا على ذلك الشيخ. هذه العادة يراعيها الناس فى أماكن أخرى كثيرة، وبالأخص المكان الذى يوجد فبه قبر الشيخ محمود، وفى أماكن بعينها مخصصة لأولياء محددين. قد يكون القبر جزءًا معروفًا من المدينة، وتقع بينه وبين المدينة مجموعة صغيرة من المنازل والأكواخ التى يعيش فيها البدو (والناس هنا يطلقون على ذلك المكان الذى فيه هذه الأكواخ اسم "الجِرْوَل" الذى يعنى المنطقة التى يسكنها سماسرة الإبل).

عند هذا الحد، وكما احتكر الرجال منطقة ستنا ميمونة ومنطقة الشهداء لهم، فقد قضت الموروثات القوية بأن يكون ولى الحدود الغربية من المدينة مقصورًا على النساء وحدهن. صحيح أن المتدينين من الرجال يزورون قبر الشيخ محمود فى المساء، أو بالأحرى فى المساء السابق لذكراه السنوية، ليستمعوا إلى الأناشيد التى تعدد مناقبه، وليضعوا أمامه متاعبهم. ولكن فى يوم الذكرى تستعد النساء للزيارة (زيارة القبر) ويمكثن فى المنطقة المحيطة بالقبر طيلة ثلاثة أيام.

الزوجات لا يمكن لهن الانخراط فى هذه المتعة إلا بموافقة من الأزواج، ولكن الواحد من هؤلاء الأزواج يعلم تمامًا مدى النكد الذى يمكن أن يصيب حياته لفترات طويلة إذا منع أو عارض زوجته، إذ إنه بفعله هذا إنما يعرضها لسخرية أو إشفاق

النساء الأخريات. والزوجة تعرف أيضًا كيف توضح لزوجها أن زينتها يجب أن تتحسن قبل يوم الاحتفال، وتعرف أيضًا كيف توضح له أن مصروفها لن يكفيها فى تلك الأيام الثلاثة التى ستكون بمثابة رحلة خلوية (لأن هذا هو بيت القصيد من زيارة ذلك القبر). وهنا يستسلم أبناء آدم، وهنا تنظر المكيات إلى ذلك بوصفه حقًا تقليديا، يحق لهن فيه أن يمتعن أنفسهن فترة من الوقت بطريقتهن الخاصة، وذلك من باب تكريم الشيخ محمود.

يحقق خلال هذه المناسبة النسائية، البدو المجاورون لمنطقة الجِرْوَل بعض المنافع الخاصة بهم، شأنهم فى ذلك شأن المكيين فى موسم الحج. وهم يعدون بعضًا من أكواخهم لتكون تحت تصرف السيدات إن أردن استئجار هذه الأكواخ، وذلك نظير مبلغ من المال أو تقديم بعض الهدايا الصغيرة. والأثرياء من أهل مكة عادة ما تكون لهم علاقات مالية وأعمالية مع هؤلاء البدو، سماسرة الإبل. من هنا فإن نساء هؤلاء الأثرياء يدعوهن سماسرة الإبل هؤلاء لتمضية الأيام الأول هن وصديقاتهن فى منازلهم. وفى البيت الواحد، أو فى الكوخ الواحد من هذه الأكواخ، تستطيع أكثر من أربع وعشرين سيدة أن يسمرن ويمتعن أنفسهن. فى اليوم الأول من أيام احتفال (مولد) الشيخ محمود تقوم ربة البيت بعمل ضيافة (دعوة)، هذا يعنى أن تدعو هذه السيدة ضيوفها جميعًا المعروفين لها وغير المعروفين إلى تناول وجبة، وفى مقابل هذه الدعوة تقوم المدعوات بتقديم، أو بالأحرى بإهداء التُّمباك (نوع من التبغ) المطلوب للشيشة، كما يقدمن أيضًا البن اللازم للقهوة ... إلخ. وفى اليوم التالى يجرى الاحتفال بربة البيت هى ومن معها من قبل الضيوف الذين يجلبون معهم - إلى جانب الفرش والسجاد - أوعية الأكل وأدوات التدخين وأطباقًا منتقاة يعددنها فى بيوتهن استعدادا لهذه المناسبة، وإذا ما احتجن شيئًا آخر، يصبح من السهل أن يحضره من المدينة الخدم الذين يرافقون السيدات فى تلك المناسبة، والمعروف أن المسافة من قبر

الشيخ محمود إلى المدينة تعد مسافة قصيرة نسبيا. والنساء جميعهن يقمن بإخراج كل ما تحتوى عليه أوانيهن وغلاياتهن ليكون مشاعًا بين الحاضرات كلهن.

القسم الآخر من النساء، فى هذه المناسبة، يسلين أنفسهن بترديد أغنيات المغنيات المحترفات، اللاتى تجلبهن ربات البيوت معهن لهذه المناسبة. هذه الأغنيات تكون بمصاحبة "الطبلة" التى تصنع من الفخار مثل أوانى المياه المكية، وأيضًا بمصاحبة "الطار" (الدُّف). المادة التى تتألف منها تلك الأغنيات غالبًا ما تدعو إلى الإثارة، لكن هذه الأغنيات شُوِّهت بفعل الموروث المعيب، الأمر الذى يتعذر معه فهم أى معنى من المعانى سوى عن طريق إقحام كلمات لا وجود لها فى النص. وسوف نتناول هذه المسألة بالمزيد من التفصيل عندما نتناول حفل الزواج.

والنساء ينسجمن بصفة خاصة عندما تستبدل المغنيات بين الحين والآخر ببعض التدفقات الهيامية التقليدية الأشعار الشعبية حامية الوطيس. فى هذه الأغنيات يصعب القول بالتزام القافية، فى حين يُتخلى عن العروض كلية ويستبدل به نثر مقفى مبتذل. والذى لا يعرف الجنس الأدبى الذى تنتمى إليه هذه "الطقاطيق" يصعب عليه الخروج بأى شىء منها، وحتى فى ظل هذه المعرفة البسيطة، يستطيع الإنسان - وهذا أمر حقيقى - أن يقف على بعض الإشارات الفكاهية إلى الأحداث القريبة وإلى المواقف التى تستثير الضحك، ويندر أن يكون المعنى غير غامض. وعليه يصبح بوسع كل مؤدٍّ جديد إضافة شىء من الأشياء أو تغييره، حتى يمكن لتلك الأغنيات أن تثير أفكارا فكاهية جديدة لدى السامعين، ويبدو أن بعض هذه الأغنيات قد وضعت لكى تعطى برعشات فى الصوت عديمة المعنى تعبيراتٍ تجسيداً لانفعالات بعينها.

عندما زار الوالى (المحافظ التركى) هو وحاشيته مدينة جدة فى العام ١٨٨٥ الميلادى جاءت الأغنية التى ألفها صاحبها عنه على النحو التالى: "أحب بلاميطة، آه أعطنى بلاميطة" (لم أجد مطلقًا أحدًا يدلنى على معنى كلمة بلاميطة) الوالى له قليطة (القليطة مرض يصيب الخصيتين)، اطردوه. وعلى هذه النغمة نفسها نجد

المرأة التى على وشك المشاركة فى عرس الزواج تقول: "الحنة (الحنة هى الخضاب الذى يوضع على كفَّىْ العروس وعلى قدميها) فى الدولاب، والعريس واقف على الباب، زغرتوا يا بنات، يا أمه بحب الناموسية بحب أنام فى الناموسية، ونقبلك يا موسية كل ليلة مرة".

فى شهر أغسطس من العام ١٨٨٥ الميلادى، أصيب أهل جدة، ومن بعدهم أهل مكة، بحمى غريبة انقضت دون أن تخلف نتائج خطيرة، لكنها كانت مصحوبة بآلام فى الظهر والأذرع وفى القدمين غى بعض الأحيان، ومن الطبيعى أن تكون هناك بعض الأغنيات المخصصة لذلك المرض الذى أقعد المواطنين الأبرياء الواحد بعد الآخر بضعة أيام . هذا العدو سرعان ما أصبح يعرف باسم محمد البغدادى، ثم بعد ذلك باسم محمد غندور أى "المتأنق" وبذلك يروح الناس يتغنون قائلين: "محمد البغدادى يمسك الظهر والأيادى" أو "محمد الغندور لا يجيب عداوة ولا شرور". فى بعض الأغنيات القصيرة الأخرى نجد أن هذا الضيف غير المرغوب فيه يذكر عند الحجاج المغاربة الذين بدأوا ينهالون على المدينة المقدسة (مكة) بأعداد كبيرة.

"محمد الغندور جاء فى صندوق من الزجاج من إسطنبول، لقد جاء من حى النورية (حى من أحياء جدة)، جاءت لملاقاته امرأة بربرية ورافقته فى الموكب مثل دراويش القادرية، هذا هو عام الحج المغربى، حج يرضى الله ويرضى الناجحين".
يتكلم الغندور قائلاً : "لعل ذلك الذى لم أصل إليه يظن أنى نسيته، أنا جالس فوق جرة الماء، وفى دورة المياه إلى أن يحين موعد مجيئى إليه، هذا الذى لا يرضى عنى دعه يرسل فى طلب أختى هنية، وستصنع له كفناً وتحضر له لوفة وصابونة لتغسيله".

وهذه مقطوعة أخرى منشورة توضح لنا طريقة التعامل مع هذا الشعر العامى المبتذل: "محمد الغندور، جاء أول ما جاء من سوق الفخار. ومع ذلك جرى اصطياده

إلى حى النُورية. التقى امرأة بربرية. قال: استدعى لى امرأة من المغرب لتجهز لى موكبًا قادريًا. قالت: اذهب إلى سوريا إلى أصحاب القلوب المرحة، هذا الذى لا يحب محمد الغندور، عليه الذهاب إلى أخته نور، فهى التى تقطع كفن الكتان وهى التى تحفر القبور".

البنات المغنيات، اللاتى تركن إليهن سيدات مكة، هن اللائى يضعن مثل هذه الأغانى، وينشرنها فى الخارج، كما تستمع النساء من البنات المغنيات إلى تلك الأغنيات التى تنتقل إلى الشوارع عن طريق الأطفال، خلال هذا السمر الموسيقى تتمتع النساء بالمنعشات والمقبلات بكل أنواعها، ويشربن الشاى الأخضر والشاى الأسود، ويدخنَّ الشيشة وينغمسن فى الحديث والقيل والقال حول معارفهن الغائبات. وكما هى الحال بين الرجال يوجد من بين هذه النساء كثيرات تسلمن أنفسهن لمثل الرذيلة المسماة باسم لوط، وعدد كبير من النساء المتزوجات اللاتى نشأن تنشئة سيئة، أو هؤلاء اللاتى أهملهن أزواجهن، تتحولن إلى مدمنات"للسحاق"، ولذلك فهن يأخذن معهن كريماتهن (هذا هو الاسم الذى يطلقنه على المفعول فيهن) إلى مختلف التجمعات الاجتماعية، هؤلاء الكريمات غالبًا ما يكن من بنات المدينة الصغيرات، وفى أحيان قليلة بنات إماء، يضاف إلى ذلك - على حد قول الخبثاء - أن هناك بعض النسوة اللاتى يسئن استعمال الحرية الممنوحة لهن فى هذه المناسبة ويرحن يلتقين عشاقهن من الذكور.

***

خلال موالد النساء هناك حول (مولد) صغير آخر للرجال، هو حول (مولد) الشيخ (الولى) المهدالى وهو يصادف اليوم السابع عشر من شهر جمادى الآخرة، وهذا المولد يقام على مسافة قصيرة من مدخل وادى منى. وعن أصل هذا الاحتفال تقول القصص المتوارثة :

منذ سنوات ماضية، وبالتحديد فى اليوم الثالث عشر من شهر الحج، كان الحجاج كعادتهم دائما يمضون ثلاثة أيام مجتمعة فى وادى منى، وكانوا على وشك أن يبدأوا رحلة العودة إلى مكة، وعندما شرعت القافلة فى المسير لم يستطع أى إنسان أو حيوان التحرك فى اتجاه الغرب بعد الوصول إلى نقطة محددة تقع أسفل منى بمسافة صغيرة، وبعد كثير من التقصى والتحرى دون طائل أمر الشريف العظيم بتفتيش المنطقة المجاورة لذلك المكان، وعلى مسافة من الطريق المقابل لتلك النقطة المسحورة عثر الناس على جثة غير مدفونة.

كانت تلك جثة الشيخ الولى المهدالى، وبعد تغسيل الجثة، وبعد صلاة الجنازة، وبعد الدفن، تمكنت القافلة من مواصلة سيرها بلا عقبات، وبأوامر عليا بُنى ضريح فوق ذلك القبر، وبذلك أدى هذا الأساس التقى إلى توزيع الطعام بكميات كبيرة فى يوم مولد هذا الشيخ، وأول من يتذوق ذلك الطعام الشهى هم أولئك الذين يحضرون للإنشاد لتعديد مناقب هذا الشيخ، ولذلك يقيم الناس مطبخًا فى المنطقة المجاورة للضريح.

ترى ما سبب نقل تاريخ المولد (الاحتفال) إلى شهر جمادى الآخرة؟ القصص المتوارثة لا تقول شيئًا عن هذا الموضوع، والمكيون أيضًا لا يتعبون أدمغتهم بالمصاعب التى من هذا القبيل.

فى هذه الجماعات الاحتفائية "البشكات" التى تتشكل مثلما يحدث فى الذكرى السنوية لستنا ميمونة، نجد الكثيرين من المكيين يمضون يومين أو ثلاثة أيام فى خيام ينصبونها فى المنطقة المجاورة للوادى المقدس. الاهتمام الكبير بذلك الاحتفال من جانب "أبناء الحى" يقوم على أساس أن هؤلاء الأبناء يودون قضاء بعض الوقت فى مشاجراتهم الداخلية مرات ومرات دونما تدخل من الجنود أو الشرطة فى تلك البقعة البعيدة عن المدينة. هذه المشاجرات التى لا تحدث إلا فى أثناء "انقسام القمر" ولا يستعر أوارها إلا بجوار قبر الغريب، أو إن شئت فقل: مثوى الولى المهدالى.

وعلى كل حال، وفى أثناء مقامى فى مكـة، لـم يكـن الوقـت مواتيا لمحبى هذه المشاهد الدموية، نظرًا لأن الشرطة كانت تتخذ إجراءات حاسمة ضد هؤلاء الشبان.

***

قلنا إن الموالد (الاحـتـفـالات) فى مكة تتـمـثل فى مـولد ستنا مـيـمونة، ومنطقـة الشهداء، ومولد الشيخ محمود، وكذلك احتفال الذكرى السنوية للشيخ المهدالى. قائمة الأحوال [الموالد] هذه لا تنتهى بأى حال من الأحوال، إذ إن هناك أحوالاً [موالد] أخرى تهم دوائر بعينها من الناس، ولا تنتمى إلى حياة مدينة مكة. فى احتفال الولى "جوهر" (وهو ولىٌّ من أصل هندى)، تذهب بعض الجاليات ومن مكة إلى قبر ذلك الولى بالقرب من قلعة "الجبل الهندى"، ويتلُون بعض آيات من سور القرآن، كما يتغنون أيضًا بمناقب هذا الولى بدءًا من مساء اليوم إلى منتصف الليل، وهم يتمتعون بشرب القهوة وأكل السُّكَّريَّات. تحدث أيضًا اجتماعات أخرى من هذا القبيل عند قبر الولىِّ المجنون (الذى يطلقون عليه هنا اسم "المحجوب") فى منطقة باب العمرة، وعند مقابر أخرى كثيرة، كانت فى القرون الماضية ملتقيات لوجهاء مكة، نجد أن تكريم أصحاب هذه القبور يقتصر فى الوقت الراهن على تقديم المصابيح والشموع. هناك كثير من الآثار المخربة التى يلاحظها الجائل فى هذه الأماكن، وأهل العلم هنا لا يعرفون شيئًا إلا ما ندر من قبيل التحذير، عن الأولياء الذين دفنوا فى هذه القبور. أولو العلم فى هذه الأماكن يجعلون من ذلك ميزة خاصة بهم، بأن يظهروا أنهم لا ينحنون أمام روح الأزمان، وعلى الرغم من الحال التى آل إليها قبر هذا الولى، فإن ذلك لا يمنع من قراءة الفاتحة على روحه .

وهنا يتعين علينا أن نستثنى من بين هذه الموالد احتفالين يُحتفل بهما كل شهر. ففى اليوم الحادى عشر من كل شهر تعقد ستنا خديجة، زوجة النبى الأثيرة، اجتماعًا

شعبيا فى ضريحها فى جبانة المعلاة، وفى اليوم الثانى عشر من الشهر نفسه تفعل ستنا آمنة أم سيدنا محمد ﷺ الشىء نفسه.

وهذان القبران أقيما منذ زمن قريب نسبيا، وبالتالى فإن الاهتمام الدينى بهاتين السيدتين لم يبدأ إلا منذ ثلاثة قرون على أكثر تقدير. وقد عوضت ستنا خديجة كل الزمن الضائع، فهى تعد ملجأ وملاذا لأصحاب الحاجة من المكيين فى الأوقات كلها. وقل أن يمر يوم دون أن ترى بعض الرجال وبعض النساء يستحلفونها قضاء أمر ما، كشفاء مريض أو تحقيق رغبة من الرغبات، أو قد يذهب البعض بالشموع أو البخور إلى قصرها(*) فى المدفن الكبير، برًا بنذر من النذور، ومقابل هذا القبر يوجد ضريح آمنة الذى يتلألأ بفعل هالة الشمس.

فى كل أسبوع هناك يوم يعرف باسم يوم الأرواح كلها، ففى هذا اليوم لا يزور المعلاة أولئك الذين لهم أعزاء مدفونون هناك فحسب، وإنما يزورها أيضًا كل أولئك الذين يودون الدعاء لأعزائهم من الموتى. فى السابق كانت تلك الاجتماعات تفيد فى تحديد مواعيد غير شرعية بين الجنسين بانتظام، ولذلك بادرت السلطات المعنية إلى السماح بدخول النساء وحدهن إلى هذه المنطقة بدءًا من بعد ظهر أيام الخميس حتى قبيل غروب الشمس، وعند هذا الموعد تطرد الشرطة النساء من المكان، لتبدأ بعد ذلك زيارة الرجال. وعلى الرغم من ذلك يستطيع بعض الشباب الشهوانى تحقيق بغيته. وعلى الطريق إلى المعلاة وبالقرب من الجبَّانة توجد بعض المقاهى فى المناطق هفهافة الهواء، وفى تلك المقاهى يجلس، بل يحتل، المعجبون بالنساء أماكنهم، ويدخنون التمباك، ويشربون القهوة فى أثناء مرور السيدات عليهم. وصاحبات الجمال معروفات، والريح تقلِّب الحجاب وتجعله يهفهف، الأمر الذى يسمح بانكشاف جزء كبير من المحيًا وذلك بناء على إشارات من بعيد.

(*) المقصود ضريحها . (المراجع)

المسلمون لا يذهبون إلى المقابر للبكاء؛ ذلك أن الحداد والحزن لسنوات طويلة أمر لا يقره الإسلام نظريا ولا عمليا. الأصح أن المرغوب من ذلك هو تزويد الموتى بذلك الذى يحتاجونه. فإلى جانب المقابر النظيفة المزينة بالزهور من باب التذكار والتأبين، فإن الموتى يحتاجون إلى أعمال دينية حتى يتمكنوا من الوقوف بلا خوف أمام الله. هذه الأعمال الدينية ترسل فى إثر هؤلاء الموتى، وبالتالى فإن العطايا المعتادة فى مثل هذا الظرف تتمثل فى توزيع الطعام على الفقراء عند القبر وتلاوة بعض آيات من القرآن. هذان النوعان من الأعمال الدينية جزاؤهما كبير عند الله، وفى مقابل هذه المكافآت يطلب الناس من الله أن يعفو عن أقاربهم أو أصدقائهم الميتين.

فى المعلاة نلتقى دوما قرَّاء القرآن الذين يقدمون فى هذه الدنيا نظير مكافأة صغيرة مكافأتهم فى الآخرة ، ويهبون ثواب ما قرأوا للمتوفى الذى يذكر لهم اسمه. ونجد فى المعلاة أيضا بائعى الخبز، وهناك أيضا الشحاذون الذين يجعلون ممارسة الإحسان أمرا ممكنا. لكن هؤلاء الذين يودون أن يعهدوا بدعواتهم أو يعبروا عن حبهم لولىٍّ أو أكثر من الأولياء يجدون دوما كثيرا من الفقهاء (من الرجال المتدينين المتعلمين) مستعدين لمصاحبتهم وتوجيههم فى دعائهم. والناس عندما يأتون أعمالا طيبة عند مقابر الأولياء، فإنهم يفعلون ذلك من منطلق أنانىٍّ يرمى إلى كسب الولى ليكون صديقا، ويكون وسيطا، نظرا لأن "أصدقاء أو أحباب الله "هؤلاء قد ضمنوا الجنة لأنفسهم فى الماضى.

النساء أقل انشغالاً بهذه الأمور من البائعين الجائلين الذين يعرضون عليهن مختلف أنواع السُّكَّريَّات والفواكه من ناحية، وبصديقاتهن من الناحية الأخرى؛ نظرا لأن السبب الرئيسى وراء مجيئهن إلى هنا هو أن يفتحن قلوبهن بعضهن لبعض، عندما يتحدثن عما جرى لهن فى الأسبوع الماضى، وهن يتمتعن بأطايب وأشهى المأكولات. وعندما تبدأ الشمس فى الغروب يسرن ببطء وتردد ثم يعدن إلى بيوتهن.

قد يعطى بعض الرجال أنفسَهم على الفور حق الدخول إلى "مدينة الموتى"، هؤلاء هم الذين يحتفلون فى ذلك اليوم باكتمال حول (عام) على وفاة راحل عزيز عليهم، والسبب فى ذلك، أنه قد جرت العادة أن يوزع الناس بدافع من العادات والتقاليد الدينية هبات وعطايا غير عادية ترحما على روح ذلك الراحل. فى المناسبات التى من هذا القبيل توجه الدعوى إلى الأصدقاء، ويحيون الليل بالأذكار الدينية. بعض آخر من الناس يقومون بهذه الزيارة الأسبوعية فى الصباح الباكر بعد أداء صلاة الفجر فى جماعة فى المسجد، ومن لا يستطيع فعل ذلك يأتى فى فترة العصر، التى هى مخصصة لزيارة الأصدقاء.

المكيون كلهم ينظرون إلى زيارة المعلاة بوصفها نزهة خلوية فى يوم الجمعة، وعندما يذهبون إلى هناك لا يحملون معهم أحزانهم، وإنما يفرحون لأن خديجة لا تزال بخير، ويتفكرون فى الموروث المحلى الذى يقول بأن سبعين ألفًا من الرءوس المعممة سوف يبعثون من هذه القبور فى يوم القيامة.

فى اليوم الحادى عشر من كل شهر، تذهب جماعات كبيرة من الرجال إلى قبر خديجة ومعهم أوان كبيرة مليئة بالأرز واللحم، والأطعمة الأخرى. يجلس الرجال داخل مبنى المقبرة وأمام بابها ليستمعوا من "السيد" راعى القبر، إلى سيرة النبى ﷺ. والمعروف أن هؤلاء السادة(*) يتوارثون رعاية القبور، ويحصل ذلك السيد على مكافأة مالية عندما يختم قراءته بالدعاء الذى يُؤمِّن عليه جميع الحاضرين، ثم يبدأ الحاضرون بعد ذلك فى تناول الطعام.

يستمر وصول ووفود جماعات جديدة إلى منتصف الليل تقريبا، بعد ذلك يتحلق الأفراد حول غطاء القبر المصنوع من الخشب، ويجلسون على سجاجيد صغيرة تحت القبة، ويتعلقون فى كل لحظة أثناء الدعاء بذلك السجاد الثقيل الذى يغطى ذلك الضريح، والذى لا يمكن الوصول إليه بالأيدى من خلال القفص الحديدى إلا بصعوبة بالغة.

(*) السادة هم الأشراف الذين ينتمون إلى السلالة النبوية الشريفة . (المراجع)

يصل التموين إلى أطفال العالم أيضاً، فالطعام والشراب هنا يمكن الحصول عليهما فى سائر الأنحاء، بالقرب من مدخل المقبرة تجد نصَّاباً واقفا يعرض ألاعيبه على الناس ويحتال عليهم. المحترمون من أهل مكة يمنعون أطفالهم من مشاهدة هذه الأشياء والألاعيب، نظراً لأن عشاق الصغار يتحينون الفرص عندما تتهيأ لهم.

احتفال آمنة فى اليوم الثانى عشر من الشهر مجرد محاكاة كالحة لحول جيرانها الموقرين.

***

إلى هنا نكون قد رافقنا المكى، حسب التقويم الإسلامى، إلى الشهر السابع من العام، هذا الشهر كان مقدساً حتى فى فترة ما قبل الإسلام، ولا يزال إلى يومنا هذا يحتفظ بأهميته بالنسبة لمكة [المكرمة]. بادئ ذى بدء هناك يومان من أيام شهر رجب (الشهر السابع من العام) يستحقان منا الاهتمام بهما.

فى اليوم الثانى عشر من شهر رجب، وهذا معلوم لمكة كلها، يحدث تجمع مهيب فى المكان المشيد على منحدر تل أبو قبيس. هذا المكان كان منذ عقود قليلة، مجهولا تماما مثل مبنى الزاوية(٢٣) نفسه. هذا التجمُّع يضم أتباع الطريقة السنوسية، تلك الإخوانية التى حققت فى كل من إفريقيا والجزيرة العربية أعلى مد سياسى ودينى لها، وهذه الإخوانية تحتفل فى هذا اليوم بذكرى وفاة مؤسسها(*) . هذه الطريقة بقيت إلى

---

(٢٣) زاوية، Zâwiyah معناها الحرفى ركن، والمقصود به هنا المكان الذى ينزوى الإنسان فيه عن العالم، وهو يعنى هنا مركز رئاسة إخوانية دينية.

(*) مؤسس الطريقة السنوسية هو السيد بن على السنوسى ، وعرف بالسنوسى الكبير ، أنشأ زاوية البيضاء فى برقة فى عام ١٨٤٢ ثم انتقل منها إلى واحة جغبوب . والدعوة السنوسية ، شأنها فى ذلك شأن الدعوات الإسلامية الإصلاحية ، كانت تستهدف العودة بالإسلام إلى أصوله الأولى . (المراجع)

يومنا هذا فى مدن المنطقة الغربية من الجزيرة العربية، وتحظى بتشريف وتكريم، فضلاً عن تفوقها على الطرائق الشقيقة الأخرى.

مسألة أن أحياء أو مناطق الحجاز يسكنها كل من الحَرَب (أى أفراد قبيلة حَرْب) وبعض البدو الآخرين، هى التى تجعل للحجاز أهمية بالغة. والسبب فى ذلك أن الحجاز استطاع أن يضع تحت زعامته كل أبناء الصحراء تقريبا الذين يتمردون على السلطات كلها ويبتعدون كلية عن طريق الإسلام الصحيح. هنا فى منطقة الحجاز نجد أن الطريقة السنوسية لابد أن تكون قد توصلت إلى بعض الحلول الوسط مع بعض مبادئها القاسية، نظرا لأن البدو لم يتخلوا عن السرقات التى كانوا يقومون بها، أو لجهلهم بالأمور الخاصة بالطقوس والأشياء الجامدة. هؤلاء السنوسيون ليس لديهم من الأسباب ما يمنعهم من التوافق فى ذات الوقت مع الممكن. هذه النظرة التى أضفاها السنوسيون على أفراد قبيلة حرب، وبخاصة أن حماية السنوسية لهم فى العالم الآخر يبث فيهم المزيد من الأمل على الرغم من خطاياهم، وأن مثل هذه الحماية يمكن الحصول عليها بإطاعة ممثل شيخ الطريقة. مسألة اختراق الحرب من قبل هذه الأفكار فى حكم المؤكدة، يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من المناطق المحلية فى الحجاز فيها أماكن صغيرة لاجتماعات أتباع هذه الطريقة، وإذا كان طريق الحج تتزايد أخطاره بصورة دائمة، فإن قافلة "رَكْب" الإخوان تستطيع المرور كل عام من مكة إلى المدينة [المنورة] دون اتخاذ أية احتياطات خاصة.

فيما يتصل بالدور الذى يمكن أن تلعبه هذه الإخوانية (الطريقة) فى تاريخ الإسلام مستقبلا، فإن تجاربى وخبراتى المكية لا تعيننى على حدس أو تخمين من هذا القبيل. يكفى القول هنا إن الاحتفال يجرى فى أثناء الليل، وأن الذى يقيم هذا الاحتفال هم أتباع هذه الطريقة، وأنهم يحيون ذلك الاحتفال الذى يقيمونه فى ليل اليوم الثانى عشر من شهر رجب، ويتغنون فيه بمناقب حياة الشيخ من ناحية وعن طريق الذكر الجماعى من ناحية أخرى. وفى الصباح الباكر يُذبح الكثير من الأغنام، وتُطهى أكوام

من الأرز، ويضع الناس هذا الطعام كله أمام الحاضرين كلهم. ولنا أن نتخيل أن هؤلاء الأتباع يحصلون بتلك القرابين على بركات الدنيا وبركات الآخرة أيضًا.

اليوم السابع والعشرون من شهر رجب كان موسما احتفاليا منذ قديم الأزل، حيث كانت تجرى فيه العمرة. وحسب التقويم الإسلامى بدأ ذلك اليوم يكتسب دلالات جديدة، أولا من منطلق أن الكعبة وسَّعها عبد الله بن الزبير، واحتفل بهذه التوسعة فى ذلك التاريخ، ثانيا أن الموروث الإسلامي يقول إن محمداً ﷺ أسرى به الله ليلا من الجزيرة العربية إلى بيت المقدس، ومن بيت المقدس إلى السموات العلا، وأن ذلك حدث أيضًا في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب. وعندما دمَّر الأمويون تلك التوسعة الجديدة، فإن المعراج الذى يزدان دوما بكثير من الأساطير الجديدة، يظل هو السبب الرئيسى لذلك الاحتفال عند المسلمين. هذا الاحتفال (الموسم) بكل تفاصيله تقريبا، والذى يبدأ الإعلان عنه بإطلاق المدافع بعد عصر اليوم السادس والعشرين من شهر رجب، يشبه الاحتفال بمولد النبى ﷺ. اللهم إلا باستثناء أن القراءة والتراتيل التى تستمر أياما عدة، لا تكون من سيرة الرسول ﷺ وإنما عن المعراج الذى تناوله كثير من المؤلفات. وكما هو معروف تمامًا، فإن الحوارات التى دارت بين محمد ﷺ وسيدنا جبريل والأنبياء ومع الله، يجرى تمثلها تمثلا جيدا لاحتوائها على الكثير من التعاليم المفيدة فى الإسلام من ناحية، وعن الآخرة من ناحية ثانية.

***

ومن قبيل مرورنا مر الكرام، يجدر بنا هنا أن نأتى على ذكر عادة غريبة من عادات أهل المدينة [المنورة] عندما يحتفلون بليلة السابع والعشرين من رجب، أى يوم المعراج بعد انتهاء القراءة، التى يسميها العامة من أهل المدينة [المنورة] الخطبة، والتى تكون فى المسجد مثلما يحدث فى مكة، وعندما تخرج من فم المكلف بتلك القراءة كلمة

"آمين"، يهجم الناس من الطبقة الدنيا ومن البدو أيضًا - والذين توجد منهم أعداد كبيرة - على ذلك القارئ ويمزقون رداءه الخارجى كما لو كانت سعادتهم وهناؤهم يعتمدان على الحصول على قطعة من ذلك الرداء (الجُبَّة) . أهل المدينة يفسرون هذا العمل تفسيرًا سخيفًا، مفاده أنه منذ سنوات مضت كان هناك خادم من خدم المسجد، وأن ذلك الخادم من باب الغيرة والحقد على زميله الحظيظ الذى كان يعهد إليه دوما بهذه القراءة الإضافية عن المعراج، أدخل فى أذهان البدو أن البركة فى هذا الاحتفال لن تصيب إلا أولئك الذين يعودون إلى ديارهم ومعهم قطعة من رداء ذلك القارئ (الخطيب) وبذلك استطاع أن يوقع زميله فى هذا الموقف غير السار، وأنه بدءًا من ذلك التاريخ أصبحت مسألة تمزيق رداء القارئ تقليدا ساريا. ورغم عجزى عن تقديم بديل عن هذا التفسير التاريخى، أجدنى أشير هنا إلى تفسير شبيه بذلك ورد عند السيد كويدنفدت Quedenfeidt عن بربر الريف الذين يمزقون برنس السلطان(*) تعبيرا عن تقديرهم له واحترامهم أياه، وليأخذوا معهم تلك القطع لتكون طيلسانات لهم. (عن مجلة برلين الإثنية فى العام ١٨٨٨ ص ١١٢). القصة الآتية تصب فى مجال دلالة التفسيرات السابقة. هناك على مقربة من الأراضى المقدسة، وعلى الطريق الذى يربط جدة بمكة [المكرمة]، شجرة تكرمها القبائل المجاورة ويعلقون عليها خرقا ملونة من مختلف الألوان. معروف أن تقديس تلك الشجرة يعد تراثا عربيا موغلا فى القدم، ونحن عندما نسأل عن معنى تلك الخرق نجد من يقول إن هناك وليا مدفونا تحت هذه الشجرة وهو الذى أدى إلى تكريمها. ونجد آخر يقول إن محمداً ﷺ تسلم فى العام ٦٢٨ عهد الإخلاص والولاء من أتباعه الذين اصطحبهم معه إلى مكة(**)، ونجد ثالثا

(*) هو سلطان مراكش . (المراجع)

(**) يعرف هذا العهد أو البيعة باسم بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة بالحديبية ، وفيها بايع الرسول ﷺ عدد كبير من الصحابة على محاربة كفار قريش الذين رفضوا دخولهم مكة ، غير أن الأمر انتهى بصلح الحديبية. وحول هذه البيعة نزلت الآية الكريمة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح : ١٨) . (المراجع)

يقدم تفسيرا مفاده أن قطعة من عمامة النبى ﷺ تمزقت وبقيت معلقة على تلك الشجرة عندما نهض واقفا، وأنه تأبينا لتلك الواقعة تُعلق الخرق عليها.

المدينة [المنورة] تستعرض هى الأخرى فى بعض الأمور الأخرى، طابعا أكثر قدما من طابع البلدة الشقيقة. فى المدينة [المنورة] استيقظ سكانها منذ سنوات مضت على موضوع بالغ الإثارة، لأن امرأة متهمة بالقتل حبستها الحكومة التركية حبسًا مؤقتا ولم تسلمها إلى "السلطات"(*) على الفور. أخيرا ولعدم كفاية قوات الحماية، اضطر الباشا إلى الرضوخ لجماهير الدهماء التى تجمعت أمام منزله، كما اضطر أيضًا إلى التصرف على نحو كما لو كانت القوانين الحديثة لم تصدر من أجل المدينة [المنورة]. هناك أيضًا فى المدينة المنورة معارضة كبيرة أيضًا للتلغراف والمخترعات الحديثة. الكثيرون من أهل المدينة [المنورة] يشعرون بالغثيان فى مكة لأنهم يصادفون فى كل مكان أشياء مستفزة وعادات مستفزة أيضًا. من ذلك مثلا أن مواليد المدينة [المنورة] يصيبهم الرعب والفزع عندما يجدون أهل مكة لا يخجلون من ممارسة الاتصال الجنسى مع الكفار فى جدة. يقول المكيون أنفسهم وبحق إن رجال المدينة [المنورة] يعيشون للدين وحده (بمعنى أن الدين يسمو فوق المظهريات الخارجية، وكراهية الثقافة الحديثة)، وأن الناس فى جدة يعيشون للأشياء الدنيوية فقط، فى حين نجد أهل مكة يقسمون الحياة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. وعلى الرغم من أن "جيران الله" (المكيين) يقرون وسيلة عادلة فى سلوكهم، فإنهم - فى تقديرهم النسبى لجيران محمد ﷺ (أهل المدينة) - يقرون بميزة هى فى صالح أهل المدينة [المنورة]. واقع الأمر أن الغيرة بين المدينتين، والتى استثارت فى بداية القرن التاسع (بعد المسيح) صراعات أدبية، لم يعد لها وجود. وبدءًا بانفصال مقاطعة الحجاز عن الخلافة، نجد أن المدينة [المنورة] العاصمة السابقة للخلافة تزايد اعتمادها بشكل كبير على مكة، وبالتالى لم يكن هناك مبرر للغيرة أو الحسد من جانب مكة. وعلى الرغم من أن مكة لها

(*) Justalionis هم الرجل المفوضون بالعدالة. (المراجع)

مرتبة أعلى من مرتبة المدينة فى الأراضى المقدسة، فإن المكيين أنفسهم يفضلون أيضًا المدينة [المنورة]. هذا يعنى أن أهل مكة، يتكلمون دون إساءة إلى قداسة مدينتهم التى يكسبون منها عيشهم عن المدينة المنورة، بأنها هى منتهى رحلة الحج.

هذا الإحساس يمكن تفسيره فى ضوء توقير واحترام أهل "المدينة الكبيرة" لأهل المدينة [المنورة] القدماء الذين كانوا أقل تعاطفا أو نزوعا إلى روح ذلك العصر. المدينة [المنورة] الصغيرة هذه مدينة بخصوصيتها إلى بعدها عن البحر الذى يقدر بضعف بعد مكة عنه، المدينة [المنورة] تقف من حيث الثقافة فى منتصف الطريق بين مكة والجزء الداخلى من الجزيرة العربية. هذا يعنى أن حب المكيين للمدينة [المنورة] ينصب على المدينة نفسها أكثر من سكانها، أو بالأحرى هم يحبون المدينة لساكنها العظيم ﷺ الذى يرقد هناك منذ أكثر من ١٣٠٠ عام، إنه نبى الله العظيم. الآن نرى أهل مكة الحاليين لا يكفون عن التعبير عن حبهم لمدينة محمد ﷺ ، وذلك بدلاً من التناحر السابق مع أهل المدينة [المنورة] حول من منهما التى حظيت بكثير من الذكر والتقدير فى الموروث المقدس، هذا الحب برهان ودليل على تطور الإسلام وتقدمه. مسألة تقديس الأفراد التى ناصبها محمد ﷺ العداء إلى حد أنه لعن اليهود والنصارى لأنهم أقاموا "قبور أنبيائهم فى أماكن الصلاة"، هذه المسألة سادت وانتشرت فى دين محمد ﷺ إلى حد أن قبره أصبح الآن محطا للصلوات والدعوات المتقدة والجيّاشة من قبل المسلمين. إذا ما استثنينا الأماكن الواقعة تحت التأثير والنفوذ الوهابى نجد أن الحاجة إلى الوساطة البشرية باعدت بين إله الإسلام God of Islam وبين عُبَّاده، وأن مسألة تقديس الأولياء المنتشرة فى الكون قد وصلت إلى ذروتها فى التوفير والتقديس الذى يلقاه النبى ﷺ الراحل.

المكيون عندما "يدردشون" بعضهم مع بعض، ويتطرق حديثهم إلى المدينة [المنورة] سرعان ما ترى المشاركين فى الحديث وغير المشاركين يأتون على ذكر البركات والنعم التى تنعم بها المدينة بفضل وجود رسول الله ﷺ فيها: اللحم مذاقه فى المدينة

[المنورة] أشهى وألذ من الأماكن الأخرى، والحليب والزبد فيها وفيران أكثر من الأماكن الأخرى، والمدينة [المنورة] فيها "الأصناف الأربعون من التمور" التى تأتيها من المنطقة المحيطة بها. سلوكيات الناس فى المدينة [المنورة] أبسط وأسلس من الأماكن الأخرى، وكرمها أكثر سحرا وجاذبية من كرم مكة. ويروى السامرون أيضا كثيرا من المعجزات. والمكى الذى يقضى كل عام بضعه أسابيع فى المدينة [المنورة]، يرى كيف أنه فى مساء كل يوم من أيام الجمع، عندما تشرف الشمس على الغروب، يأتى سرب من اليمام ويحط فوق قبة القبر (أى ذلك القبر الذى يقع داخل المسجد)، وبعد أن يحيى ذلك اليمام أنبل خلق الله ﷺ يطير فى الهواء ويختفى من جديد. وإذا ما حدث الاحتفال بالمولد (مولد النبى ﷺ) فى بيت من بيوت مكة، فإن جمهور الجالسين حول المباخر يقاطع المنشد قائلاً وهو يتأوه عجبا: "آه، يا رسول الله! آه، يا مدينـــة !" وإذا ما تصادف وجود منشد جيد للشعر ضمن تجمع من التجمعات الاجتماعية، فإن الناس يمنعونه من الانصراف إلا بعد أن ينشد قصيدة جميلة يمدح فيها محمداً ﷺ وعامرة بالشوق والحنين إلى قبره. أشعار من قبيل: "قلبى تولَّع بك يا رسول الله! لكن، وا أسفاه، ظهرى مُحمَّل بالخطايا الثقيلة" ! هـذه الأشعار تجعل أعين المستمعين تغرورق بالدموع.

النساء المكيات يشكرن أزواجهن على السماح لهن بالحج، وهن ينظرن إلى الحج على أنه، فى المقام الأول، فرصة للتجمعات الاجتماعية، التى من قبيل التجمعات التى تلتئم عند قبر الشيخ محمود. هذا الشكر والامتنـان علـى السـماح لهن بزيارة المدينة (المنورة) من ناحية أخرى، يرجع أصلا إلى البركات الروحية المترتبة على تلك الزيارة، وعلى السلام والأمان مع الله من خلال شفاعة الرسول ﷺ.

زد على ذلك أن الشريف العظيم الحالى عزا، وبدرجة كبيرة، النجاح الذى أصابه ضد جماعة المحافظ عثمان باشا، إلى الدعوات التى دعا بها أمام القبر المقدس.

إذا كانت القوافل (بطيئة السير) تنقل الحجاج الأجانب والنساء المكيات هن وأطفالهن إلى المدينة [المنورة]، فإن أبناء مكة فى شهر رجب (وهذا هو ما سبق أن أوضحناه وفسرناه) يُسيِّرون رُكُبَهم، أو بالأحرى قوافل الركاب المسرعين، إلى القبر المقدس.

فى هذه القوافل نجد أن المكيين يقسمون أنفسهم إلى جماعات عدة طبقا للأحياء التى يعيشون فيها، وكل جماعة من هذه الجماعات لها قائد أو زعيم يطلقون عليه اسم شيخ الرَّكْب. يبدأ التحضير لهذه الرُّكُب قبل ذلك بمدة طويلة. هؤلاء الذين ليست لديهم نياق أو إبل يستأجرونها، أو قد يرضون لأنفسهم بحمار سريع. ويتمرن الراكب والمركوب طوال أيام عدة على ذلك الرُكوب المتعب، والسبب فى ذلك أن كل رَكْب من هذه الرُّكُب يحاول جاهدًا تخطى الرُكب الأخرى فى الرحلة إلى المدينة ومنها، ويكون الكسالى محطا للشتم والسب من رفاقهم المسافرين الأشداء.

وإذا ما كانت العلاقة متوترة بين الحكومة والقبائل الموجودة على الطريق، فإن ذلك يؤدى إلى تأجيل تلك الزيارة المرتقبة إلى حين، أما فى ظل الظروف المعتادة فإن هذه الرُّكُب تتنقل مسافرة فى ظل الأمن والسلام. فى مثل هذه الظروف يزداد عدد هذه الرُّكُب، وتتألف من رجال أشداء يتحملون مشاق ذلك السباق الذى يبدأونه، ولا يأخذون معهم سوى ما هو ضرورى فقط لهذه الرحلة ، كما يكونون مسلحين أيضا تسليحا جيداً. وليست هناك جدوى من محاولة الإغارة على أى من هذه الرُّكُب. وفى غضون أربعة أيام أو خمسة، تقطع هذه الرُّكُب تلك المسافة التى تستغرق عشرة أيام أو اثنى عشر يوما من القوافل العادية.

فى المدينة [المنورة] يخرج أصدقاء تلك الرُّكُب لملاقاتها فرحين مسرورين. تبقى هذه الرُّكُب فى المدينة [المنورة] فترة تقوم خلالها بزيارة النبى ﷺ والأولياء

الصالحين، وعند العودة، التى يحددها الرائد تُستقبل فى مكة بالسرور والحبور. وسوف نتناول بالوصف فى القسم الآتى كيف تُستقبل هذه الرُكُب وتلك القوافل فى مكة .

***

فى أواخر شهر رجب تبدأ جماعات منفردة فى الوصول لأداء فريضة الحج، وفى شعبان (الشهر الثامن من العام الهجرى) يزداد تدفق الحجاج زيادة كبيرة. هؤلاء السباقون يودون صيام رمضان فى مكة (المكرمة)، وإذا ما تيسر لهم يسافرون مع القافلة الكبيرة إلى المدينة المنورة. وفى اليوم الخامس عشر من شهر شعبان، وبخاصة ليلة ذلك اليوم، هو فى العالم الإسلامى كله بمثابة التاريخ الذى يحدد الله فيه مصير سكان الأرض فى العام المقبل. والاقتناع بأن كل شىء منذ قديم الأزل هو بتقدير من الله لا يمنع المؤمنين من التعلق تماما بتلك التواريخ، ويدعون طلبا لرحمة الله وتخفيفا للقضاء واللطف فيه. وفيما يتعلق بالنساء والأطفال فإن اليوم الخامس عشر من شهر شعبان عندهم يعد بمثابة عيد صغير.

الأتقياء من الناس يمضون معظم الليل فى تلاوة القرآن الكريم، وفى ممارسات دينية أخرى، ويبقون فى المساجد إلى ما بعد صلاة العشاء، ليكوِّنوا بعد ذلك دائرة صغيرة، يقف فى وسطها شيخ ليقود دعاءً شعبانيا(*) يستمع إليه الباقون بإيماءاتهم العبادية، ويقاطعون الشيخ بالتأمين على كلامه ودعواته. فى هذه الدائرة نرى جميع الحجاج الذين وصلوا إلى مكة، كلهم وبلا استثناء. ويقدم مساعدو شيوخ هؤلاء الحجاج خدماتهم للحجاج مرشدين لهم فى أثناء هذا الدعاء، ويحصلون على عطية أو هدية مقابل ذلك. وقد شاهدت بنفسى كيف أن واحداً من هؤلاء المساعدين – والذى كان

(*) يطلق عليه فى الأوساط الدينية والشعبية : دعاء ليلة النصف من شعبان . (التحرير)

جديداً على هذا العمل، والذى كان يطمح إلى أن يكون شيخا أو مرشداً - راح يبذل قصارى جهده طيلة أيام فى حفظ دعاء النصف من شعبان عن ظهر قلب.

وأورد هنا جزءا من دعاء هذه الأدعية. "يا الله، اللهم إن كنت كتبتنى عندك تعيسا أو محتاجا، فأبعد عنى بفضل رحمتك هذا الشقاء وهذا الاحتياج ... إلخ". وفى الليل تضاء أنوار المسجد كلها على غير المعتاد (كما أن القمر يكون بدرًا)، وتُفتح الكعبة اليوم التالى أمام عامة الناس.

فى النصف الثانى من شعبان يدور الحديث عن اقتراب شهر رمضان، شهر صوم شاق فى "بيت الله" فى فصل الصيف شديد الحرارة. وهناك طرفة سنوية تتردد كل عام، وبالذات فى اليوم العشرين من شهر شعبان مفادها أن الناس يقولون للأطفال: لقد بدأ الشيخ رمضان رحلته اليوم مع القافلة القادمة من المدينة (ومن ثم ينبغى أن يصل إلى مكة فى غضون عشرة أيام)(*). وفى اليوم التالى تُحدَّد المرحلة التى قطعها الشيخ رمضان، وفى النهاية يظل الأمر معلقا بين وصوله خلال يوم أو يومين، والسبب فى ذلك أن بداية الشهر تعتمد على رؤية الهلال مساء يوم التاسع والعشرين من شعبان.

يستعد الناس للصوم "بتطهير" أمعائهم. إذ يذهب كل واحد منهم إلى الطبيب ويطلب منه "شربة" . هذه الكلمة تدل هنا، إذا ما استعملها الناس، على قرص من الأقراص الملينة. هذه الشربة يعدها ويحضرها الأطباء، كل حسب وصفته الخاصة، وهذه الوصفة تعد سرا من الأسرار، شأنها شأن الوصفات كلها. وعلى الرغم من أن الأدوية الأخرى يتداولها الناس بيعًا وشراءً، فإن الشربة تظل دائما شيئا مجانيا يقدمه الطبيب لكل من يطلبه.

(*) معروف فى ذلك الوقت أن القافلة تستغرق فى الوصول إلى مكة مدة تتراوح بين ١٠ أيام و ١٢ يومًا، وهذا مجازًا يعنى أن رمضان أوشك على الدخول. (المترجم)

ينتظر الناس بشوق انطلاق المدفع مؤذنا ببداية الشهر التاسع من العام الهجرى. عقب سماع صوت المدفع تزداد الشوارع التجارية حركة على حركتها، وفى كل الأنحاء تجد بائعى المأكولات ينادون بصوت عال وهم يعرضون أشهى السلع الرمضانية حتى يبتاع المؤمنون وجبة كاملة للسحور، يتناولونها قبل طلوع الفجر ليقووا أنفسهم على صيام اليوم الأول، وتحمل العطش.

رمضان بكل المعانى هو شهر الدين، وحتى أولئك الذين يضعف حماسهم الدينى فى بعض الأوقات يحاولون فى فترة التفكير هذه أن يبذلوا قصارى جهدهم لكسب رضا الله ، فى حين ينغمس الأتقياء إلى حد المبالغة فى أحكام الإسلام وفى ممارستهم لشعائر الإسلام أيضًا. وبوسعنا الحصول على فكرة واضحة عن حياة المكيين فى "الشيخ رمضان" إذا ما تناولنا بالوصف الطقوس التى تجرى خلال أربع وعشرين ساعة، مع ملاحظة ذلك الذى أضيف وذلك الذى تعدّل فى شهر الصوم. ويحسن بنا أن نبدأ قبل غروب الشمس بوقت قصير لأن ذلك هو الحد الفاصل بين يومين.

***

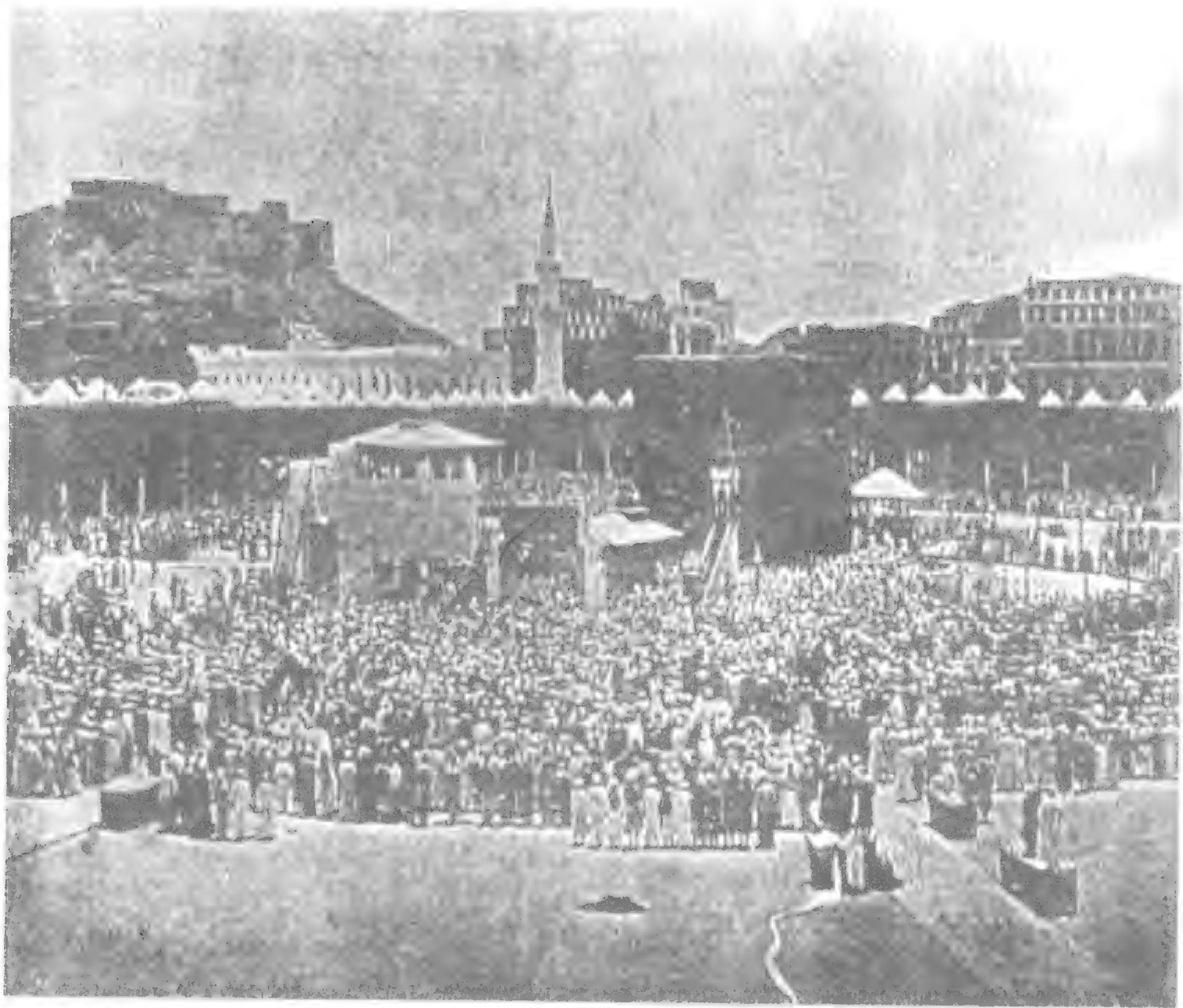
هذا مجرد ركن صغير من المسجد الذى لا يزال مضاء بفعل الشمس، بقية الأماكن كلها محفوفة بالظلال، لكن ألواح الرخام فى الممرات التى بين الأعمدة والمؤدية إلى صحن المسجد لا تزال حارة إلى الحد الذى يضطر الواقف عليها إلى تبديل قدميه فى كل لحظة بحثا عن مكان أقل حرارة. تحت هذه الأعمدة وأيضًا فى صحن المسجد وفى فنائه يجلس المتفقهون فى الدين وسط السامعين، ويروحون يتلون عليهم محاضرات خاصة بشهر رمضان، وهذا يعنى توقف المحاضرات المعتادة، نظراً لأن المسجد سوف يعج بالمصلين والمتعبدين، ونظراً أيضًا لأن المدرسين العلماء لن يستطيعوا فى غياب غذاء الجسم استيعاب أو تمثل الكثير من الغذاء الروحى. وعلى

شفتي ولسان أحد الأساتذة المجدين زبد أبيض يوضح مدى مشقة ساعات العصر على هؤلاء العلماء والأساتذة. وهذه الوجوه التى بدا عليها الإعياء توضح أن هذه البنى الضعيفة لا يمكن أن تتجاوز أو تمضى هذا الشهر دون حدوث بعض الاضطرابات الهضمية، يضاف إلى ذلك أن الغرباء كلهم تقريبا المقيمين فى المدينة منذ فترة قصيرة بدأوا يتحركون وينتقلون خلال الأماكن الخالية من الحرم.

سرعان ما يبدأ الزمازمة فى تجهيز أنفسهم، تراهم يخرجون من خلواتهم (الغرف المظلمة المنخفضة التى تحيط بأعمدة المسجد فى الطابق الأرضى) وهم يجرُّون معهم حصيرهم وسجادهم لكى يفرشوها على الأماكن المعتادة لزبائنهم فوق حصى فناء الحرم أو فوق رخام الأعمدة. وهم يضعون أمام هذه القطع الكبيرة من السجاد جراراً فخارية (دوارق) من ماء زمزم المبرد، بواقع دورق واحد لكل خمسة أفراد، وأمام كبار الزبائن يضعون إناء أو إناءين من ماء الشرب العذب، ماء المطر، أو ماء يأتون به من قناة مائية اصطناعية حسب مذاق عملائهم. وتنهال الجماهير والجموع من خلال الأبواب التسعة عشر(*) على الحرم، وكل واحد يحمل معه حقيبته الصغيرة أو سلته الصغيرة المليئة بالخبز والتمر أو الزيتون أو التين فى يده. أما الأثرياء من الناس فيمشى وراءهم العبيد الذين يحملون على رءوسهم أطباقًا وصوانى معدنية محمَّلة بالطعام.

ها هم الناس كلهم، كل واحد منهم جالس فى مكانه، ينتظر اللحظة التى يلوح فيها الريِّس براية من الطابق العلوى فى قلعة زمزم، فتنطلق دانة المدفع من القلعة. ومع هذا الصوت الناتج عن انطلاق المدفع تسرى الهمهمة بشكر الله خلال صفوف الحاضرين، وبعدها يمسك الناس بالمشروبات بصفة خاصة، ثم بعد ذلك بالمأكولات.

(*) مع توسعة الحرم المكى أصبح الموجود فى الوقت الحاضر تسعة وأربعين بابًا . (المراجع)



دعاء فى الحرم المكى

بعد ذلك بدقائق قليلة ينطلق الأذان معلنا إقامة الصلاة، هذا الأذان ينطلق من المآذن السبع، لتبدأ بعده صلاة المغرب.

قد نظن أن المؤمنين سوف يتبعون إمامهم (لمذهبهم) فقط، ومع ذلك فإن الشرع يسمح للناس باتباع إمام غير إمامهم ومن أى مذهب آخر، ليس هذا فقط، وإنما يمنع الناس فى مثل هذه الحال، ما لم يكن هناك مانع شرعى، من تأجيل قيامهم بواجبهم. يضاف إلى ذلك أن وجود أئمة المذاهب الأربعة فى الحرم المكى، والنص الدينى على أن العديدين منهم يتعين عليهم إمامة الصلاة، لا علاقة له بمتطلبات الأحناف أو الشافعية أو المالكية أو الحنابلة الذين يعيشون سويا فى مكة، لأنه لا فائدة لهم فى ذلك. ولما كانت مكة (المكرمة) هى مدينة الإسلام المقدسة، وليست ملكا أو قصرا على جيران الرحمن وحدهم أو على أية أسرة من الأسر المالكة، فذلك يجعل استبعاد مذهب من المذاهب عملا مستحيلا، لأن الإسلام يسوى بين كل هذه المذاهب، ولكن مسألة تمتع المذهبين الحنفى والشافعى ببعض المزايا ترجع إلى الأهمية السياسية لهذين المذهبين(*) .

يتقدم على الفور الحنفى والشافعى لإمامة صلاة المغرب، ويصطف خلف الإمام أولئك الذين تأخروا فى الوصول إلى المسجد الحرام، أولئك الذين تأخروا لأمور تتعلق بعدم الطهارة، أو الأسباب الأخرى الشبيهة بذلك، وبالتالى لم يتمكنوا من اللحاق بالركعة الأولى. وكلما زاد عدد صفوف المصلين زاد أيضًا عدد المكبرين الذين يقفون على رءوس الصفوف ليبلغوا التكبير (الله أكبر) بعد الإمام، إيذانا بالانتقال إلى أجزاء الصلاة، والسبب فى ذلك أن السواد الأعظم من المصلين لا يسمعون الإمام ولا يرونه.

(*) الأهمية السياسية للمذهب الحنفى ترجع إلى كونه المذهب الرسمى للدولة العثمانية ، والأهمية السياسية للمذهب الشافعى ترجع إلى كونه المذهب الغالب فى معظم ولايات الدولة العثمانية . (المراجع)

بعد أن ينتهى الإمام الشافعى من الصلاة، يقوم شيخ المؤذنين (والمؤذنون لهم أيضًا نقابة) من الطابق العلوى، أو بالأحرى من المكان المخصص للأحناف، ولمدة ربع ساعة بترديد بعض الرواتب (من المديح والثناء). وهذه الرواتب تحل بعد صلاة المغرب محل التواشيح التى تتغنى بها المذاهب الأخرى بعد الأذان.

غروب الشمس منسوبا إلى اليوم يشبه دخول رمضان منسوبا إلى العام، هذا يعنى أن المسلم الذى يهمل الصلاة فى بعض الأحيان يتحتم عليه أداء هذه الصلاة، أى صلاة المغرب، ونرى أيضًا أولئك الذين يقتصرون على الصلاة المفروضة، يقبلون أيضا على صلوات السنن، بل يؤدون أيضًا صلوات إضافية أخرى. ومع ذلك نجد المصلين يسارعون إلى العودة إلى المنزل، لأن زوجاتهم وأطفالهم يكونون فى انتظارهم بوجبة شهية، والمعروف أن ذلك القليل الذى يأخذه الناس إلى المسجد إنما هو مجرد (فطور). ويجرى تجهيز لحوم طرية لذلك الإفطار، وبخاصة تلك اللحوم الفاتحة للشهية، التى تأخرت كثيرا بسبب الصوم. وطبقا للذوق المكى فإن ذلك المذاق الشهى يتمثل فى اللحوم المختلطة بالدهون والسوائل الحمضية (مثل عصير الليمون والخل).

الكسالى فقط من بين الناس هم الذين ينامون بعد الإفطار. كل الذين لا يرتبطون بعمل أو تجارة بعد الإفطار يذهبون جميعا إلى المسجد لأداء صلاة العشاء (بعد غروب الشمس بحوالى ساعتين) فى شهر رمضان، حتى وإن كانوا من أولئك الذين تعودوا على أداء الصلاة فى منازلهم. ويضاء المسجد والمآذن إضاءة مبهرة. هذا يعنى أنه بالإضافة إلى كل تلك الأنوار توضع أيضًا فوانيس فى أجزاء مختلفة من المسجد، وتعلق هذه الفوانيس على حوامل ارتفاع الواحد منها حوالى متر ونصف المتر.

بعد انتهاء الصلاة تتفرق الصفوف، ويتجمع المؤمنون على شكل جماعات يتراوح عدد الواحدة منها بين ١٠ أفراد و١٠٠ فرد و ١٥٠ فرداً، وتروح كل مجموعة من هذه المجموعات تتحلق حول فانوسها الخاص بها بوصفه نقطة اللقاء المخصصة لتلك الجماعة. يشكل أفراد الجماعة الواحدة خلف الضوء الذى أُشعل بالفعل صفوفا عدة، يقف أمامها واحد منهم إماما يؤمهم فى صلاة التراويح. والتراويح هى صلاة الليل

فى رمضان وتتكون من عشرين ركعة(*). كل إمام من هؤلاء الأئمة له مُبَلِّغ يقف خلفه ليكرر تكبيرات الإمام بصوت عال، وهذا المُبلِّغ هو أيضًا الذى ينادى قائلا "صلاة القيام، أثابكم الله" وهو أيضًا الذى يدعو بدعاء خاص بعد كل أربع ركعات .

يتكون السواد الأعظم من هذه المجموعات من بعض الأصدقاء الطيبين الذين جاءوا سويا وبمحض إرادتهم، ومن بعض الإخوان المنتمين إلى الجماعة الصوفية نفسها، أو قد يتكون من أناس جاءوا بناء على دعوة الزمزمى لهم لأداء صلاة التراويح تحت إشرافه وتوجيهه . هناك أيضًا بعض الجماعات التقليدية الأخرى التى يكون أعضاؤها من بين رجال منزل الشريف العظيم، كما أن هناك أيضًا أئمة تقليديين للتراويح يحتلون مكانهم المحدد لهم، يقينا منهم بأن الناس سيصطفون خلفهم لأداء صلاة التراويح. وبوسع أى مصلٍّ من المصلين الانضمام إلى أية جماعة من تلك الجماعات حسب رغبته، سواء كان ذلك بصورة منتظمة أو لأمسيات قليلة فقط. وقد جرت العادة على أن يواصل المصلى صلاة التراويح مع جماعة واحدة طوال الشهر الفضيل.

وعلى الرغم من أن أتقياء مكة لا يعدون رمضان كاملا دون التراويح، فإن هذه الصلاة لا تعد من الفرائض، ولكنها من السُّنة حسب الشريعة . والمصلون أصلا لا يعدون التراويح فرضا، كما أن أئمة صلاة التراويح مجرد أئمة لهذه المناسبة فقط. هذا يعنى أن أئمة المسجد الحرام المعتادين عندما يؤمون صلاة التراويح فإنهم يقبلون اى هذه الإمامة بلا رسميات.

يتباين طول صلاة التراويح تباينا كبيرا. فى أحد الأماكن تجد جماعة من أولئك لذين يعملون فى أثناء الليل، وعلى رأسها الإمام. هذا الإمام يقصر التلاوة إلى أقل حد ممكن، الأمر الذى يجعله ينهى صلاة التراويح (أى الركعات العشرين)، خلال فترة تتراوح بين عشر دقائق وعشرين دقيقة. فى مكان آخر، نجد صبيًا سنه يتراوح بين

(*) صلاة التراويح سنة عن النبى ﷺ ثمان ركعات، زادها عمر بن الخطاب إلى عشرين . (التحرير)

الثانية عشرة والخامسة عشرة يقوم بدور الإمام، لأنه تخرج فى مدرسة القرآن، وحقق فيها نجاحا ملحوظا، ولذلك فهو الآن يقوم بعمل بطولى رائع عندما يقرأ القرآن كله فى مدة تتردد بين عشرين وثلاثين صلاة من صلوات التراويح(٢٤) . فى مكان آخر نجد قارئا متمكنًا عذب الصوت، ينهى القرآن فى ذلك العدد نفسه من الليالى، لكنه يستغرق وقتا طويلا فى كل ليلة من الليالى، والسبب فى ذلك أن سكينة الفنان وهدوءه وثقته بنفسه تحل محل التسرع العصبى الذى يؤدى به الصبى عمله.

يزاد على ذلك أن جماعات تبدأ فى الحضور إلى الحرم ويستمر ذلك إلى منتصف الليل، هذه الجماعات تتألف من أولئك الذين اضطروا بعد صلاة العشاء إلى الذهاب إلى أعمالهم التى يتعذر عليهم مباشرتها فى أثناء النهار. من هنا يبدو الحرم فى هذه الليالى بمنظر جميل وأخاذ إلى حد بعيد، يتمتع به السواد الأعظم من أولئك الذين انتهوا من الصلاة والعبادة، ويروحون يتمشون فى سائر أنحاء هذا المكان المقدس. ومن بين المؤمنين العامة والمتعلمين منهم، وعلى الرغم من تمتعهم بسنة قصيرة من النوم فى أثناء النهار، نجد البعض منهم بعد انتهاء صلاة التراويح، ولأطول فترة ممكنة، يروحون يتمرنون على تلاوة القرآن والإنشاد (الذِّكر) والأعمال التطوعية الأخرى. هذا يعنى أن جهود هؤلاء الأبطال المتدينين، تلك الجهود التى لا يمكن أن تتحقق إلا بالنظام الصارم والممارسة الدقيقة، لا تقل إبهارا عن ذلك المجهود العضلى المدرب الذى يتمثل فى حمَّالى جدة الذين يستطيع الواحد منهم حمل ثقل مقداره مئات الأكيال على ظهره لمسافة تستغرق خمس عشرة دقيقة، ومن يلتزم بالمبدأ السائد فى مكة ينام نصف

---

(٢٤) معروف فى الصلاة أنه بعد قراءة الفاتحة يقرأ الإمام آيات حسبما يريد من القرآن. هناك بعض التفضيلات الشرعية التى لا تكون ملزمة بحال من الأحوال، ولذلك يكون من حق الإمام تقصير مدة الصلاة أو إطالتها حسبما يريد. يحكى أن رجلا كان يقوم بدور الإمام فى صلاة التراويح فى العام ١٨٨٥، وأنه فعل العجائب فى السرعة فى هذه الصلاة، إلى حد أن الناس كانوا يتهكمون عليه ويصفون إياه بأنه "بابور" . بعد أن ينتهى إمام التراويح من ختم القرآن، فإن جمهور المصلين ينهون الصلاة بدعاء موحد، ويشارك الجميع فى تناول الحلوى. وفى المناسبات التى من هذا القبيل يُكسى الإمام "جبة" جديدة على حساب جمهور المصلين، وفى الأماكن التى لا يُختم فيها القرآن، فإن ذلك كله يجرى فى الليلة الأخيرة من الشهر.

النهار ليكتسب قوة تعينه على التمتع بحياته الاجتماعية بعد أداء صلاة التراويح. وهو اليوم يستقبل الضيوف، وفى الغد يذهب بنفسه لرد الزيارة، وفى اليوم التالى يلتقى أصدقاءه فى المقهى القريب من المروة، والمقاهى بصفة خاصة تظل مضاءة طول الليل وتغص بالزبائن. كثير من أهل مكة يحرمون من النوم فى أثناء النهار بسبب أعمالهم، وبذلك يتحول ليل مكة إلى نهار على قدر عدد المكيين الذين يتمتعون بالنوم فى أثناء النهار.

أتقياء مكة بصفة خاصة، هم وكثير من أعضاء المستوطنات (الجاليات) الأجنبية ومعهم الحجاج الذين وصلوا مؤخرا، يستفيدون من تلك الليالى فى الحصول على مكافأة وثواب سماوى كبير، وهنا نرى أن التقليد القديم الذى يتمثل فى أداء الناس للعمرة فى شهر رجب مرات عدة على غير المعتاد يدخل إلى عالم النسيان. على الجانب الآخر نجد أن أهل مكة اعتادوا صيام يوم أو أكثر من يوم فى شهر رجب، إما تطوعا أو لقضاء أيام اضطرتهم الضرورة فيها إلى الإفطار فى رمضان . يضاف إلى ذلك أن الموروث النبوى يعد بثواب وفير تماما لمن يقوم بعمرة فى شهر رمضان. قلة قليلة من الناس هم الذين يتشجعون على الذهاب إلى التنعيم (للعمرة عند العامة) سيرا على الأقدام، وهناك يرتدون ملابس الإحرام، ليقوموا بعد عودتهم بالمناسك الشاقة. ولذلك تراهم يستأجرون الحمير لهذا الغرض. وإذا لم يكونوا من العارفين بمكة، فإنهم يأخذون مرشدين من قبل الشيوخ لكى يدلوهم ويرشدوهم ويثقفوهم فى مناسك الحج.

المتأقلمون مع المكان ويعرفونه تماما يؤدون العمرة فى الصباح. البعض من الناس يؤدون العمرة فى العصر، ولكنهم بذلك يحرمون أنفسهم من ميزة الإفطار فى الحرم، لكن الغالبية العظمى من الناس يعتمرون فى أثناء الليل. ما أشق لقمة العيش التى يحصل عليها المرشدون الذين يرافقون جماعتين أو ثلاثًا على الطرق الرملية والحجرية المؤدية إلى التنعيم، هذا يعنى أيضًا أن الحمير هى الأخرى تعانى أشق المصاعب. المواطنون البرجوازيون الصغار أصحاب المشروعات يشترون الحمير لأنفسهم فى شهر

رمضان، لكى يحققوا منها ربحا عندما يؤجرونها للناس ليركبوها فى ذلك الشهر الفضيل. وقد جرت العادة على أن يقبل هؤلاء البرجوازيين الصغار وعن طيب خاطر ذلك الذى يعطيه الناس لهم نظير ركوب هذه الحيوانات. وعلى الرغم من أن أولئك الذين يتربحون من وراء هذه العملية يشجعون الغرباء على بذل أعظم الجهود، فإنه تتبقى هناك فئة من هؤلاء الغرباء يستطيعون أداء العمرة يوميا(٢٥). واقع الأمر أن الكثيرين من الناس يتوقفون عن هذه المحاولة بعد أن يصيبهم النصب والإرهاق جراء المحاولة الأولى.

بعد نصف ساعة من منتصف الليل، وعلى امتداد العام كله، يصعد المؤذنون المآذن السبعة فى الحرم ويروحون يتغنون بأصوات عذبة ولمدة ساعتين بابتهالات يسمونها التذكير أو التغفير، وبعض هذه الابتهالات يكون شعرًا وبعضها الآخر يكون نثرا مقفى. يبتهل هؤلاء المؤذنون إلى الله طلبا لرحمته وعفوه عن الناس، أو بالأحرى عن أمة محمد ﷺ، ولكنهم يلومون المؤمنين فى الوقت نفسه، وبخاصة أن الليل أوشك أن ينتهى، وأنهم يتعين عليهم قيام جزء منه يذكرون الله فيه، أو بالأحرى القيام بالمزيد من الشعائر الدينية. وإذا ما نحينا جانبا هؤلاء المتقين، نجد أن المكيين، عندما يستيقظون على صوت التذكير، يروحون يهمهمون وهم يرددون بعض الأدعية المعتادة، ثم ينامون على الجنب الآخر.

على كل حال، نجد أن التذكير فى شهر رمضان له أيضًا دلالة أو معنى التسحير بمعنى المناداة على المؤمنين للاستعداد وتناول الوجبة الأخيرة (السحور) قبل طلوع شمس نهار الصوم(*). مع بداية التذكير، يصبح الوقت المتبقى حوالى ثلاث ساعات،

---

(٢٥) أفضل العمرات هى تلك التى تتم فى الأيام الحادى والعشرين، والثالث والعشرين، والخامس والعشرين، والسابع والعشرين ثم التاسع والعشرين من شهر رمضان، والتى تقع ليلة القدر (السورة رقم ٩٧ من القرآن) فى واحدة منها، والتى نزل الوحى فيها على محمد ﷺ لأول مرة، ذلك الوحى الذى يعد أساسا لتقديس ذلك الشهر.

(*) الصوم يبدأ ببزوغ الفجر، قبل طلوع الشمس بنحو ساعة ونصف أو ساعتين . (التحرير)

نظراً لأن يوم الصيام يبدأ قبل أذان الفجر بهنيهات قصار . مع ذلك فإن مسألة تذكير المؤمنين بتلك الوجبة الأخيرة (السحور) قد دخلت ضمن فترة الابتهالات. هذه الوجبة الأخيرة ليست مجرد شيء مسموح به وضروري لصحة الصائمين، وإنما هي موصى بها أيضاً في الشرع.

"اصح يا نائم، اذكر المولى الدائم الذي يصرِّف الرياح، لقد رحل جيش الليل وجاءت قوات نور الصباح مشرقة، اشرب وعجِّل لأن الصبح أوشك أن يطلع". يستمر المؤذنون على هذه الوتيرة، حوالي ساعتين، تنتهيان بما يسميه الناس هنا الأذان الأول، الذي أطلق عليه هذا الاسم من منطلق أن أولئك الذين يودون أداء الصلاة في المسجد في أبكر الأوقات واللحظات يكونون لاتزال أمامهم ساعة من الزمن يرتدون خلالها ملابسهم، ويتمتعون بإفطار بسيط (هذا إذا لم يكن الوقت رمضان)، ثم يتجهون بعد ذلك إلى الحرم. بعد حوالي نصف ساعة من هذا النداء (الأذان)، ينطلق الإنذار الأخير من المآذن حتى لا يداهم نور الفجر (في رمضان) الناس وهم يأكلون أو يشربون. والاسم الشائع هنا الذي يطلقونه على هذا الإنذار هو التَّطفِيَّة قبل إعلان هذه التَّطفِيَّة بساعة كاملة، ينطلق المحذرون وهم يقرعون طبولهم أمام كل بيت من البيوت الكبيرة، ويروحون كعادتهم يذكرون أرباب هذه المنازل بالصحيان والاستيقاظ حتى لا يغالبهم النوم . وفي يوم العيد، الذي يجيء في نهاية رمضان، يركب هؤلاء الرجال حُمُراً ويجيئون إلى منازل رعاتهم لتقبل الهدايا التي تنتظرهم. وهم يحصلون من بعض الناس على شيء من النقود، ومن بعض آخر يحصلون على الحبوب، والكثيرون من الناس يعطونهم عطية أو هبة الإفطار، أو بالأحرى زكاة الفطر التي يسميها العامة هنا الفطرة، والتي تكون في شكل كمية محددة من القمح.

بعد حوالي نصف ساعة من التطفية، تبدأ عشر دقائق من الترحيم يتلوها أذان الفجر صادرا من المآذن. هذا الترحيم (الابتهال) يستمر طوال العام، الترحيم

شأنه شأن التذكير والأذان الأول كلها علامات ميقاتية. في الترحيم نجد أن اسم الله هو الوسيلة إلى الرحمة، والمبتهل يطلب الرحمة : (١) من عظمة الله (٢) وبجلال محمد ﷺ (٣) وبعظمة أو بجاه أبي بكر رضي الله عنه (٤) وبجاه عمر رضي الله عنه (٥) وبجاه علي رضي الله عنه (٦) وبجاه عثمان رضي الله عنه. وينهي المبتهل ابتهاله ببعض آيات من القرآن، وبذلك يصبح هذا الابتهال رمزا من رموز الأصولية، لأنه يلتزم التسلسل الصحيح في هؤلاء الخلفاء العظام بوصفهم أفضل الرجال المحيطين بمحمد ﷺ.

في هذا الوقت نفسه يمر بعض الناس خلال الشوارع الرئيسية في مكة دون أن يكلفوا بذلك أو حتى يحصلوا على قرش واحد نظير هذا العمل، ويتوقفون عند بداية كل شارع من الشوارع الفرعية، ويروحون يستعجلون النائمين وينادون عليهم قائلين: "الصلاة! يا عباد الله"، يقولونها بصوت عال، وهناك بعض آخر من الناس يستعجلون بالصيغة الطويلة. هناك الكثيرون في هذه المدينة الكبيرة يسمعون ذلك النداء لكنهم يفشلون في الاستيقاظ مبكراً، وليس هذا نقصا في العقيدة. والجميل بحق أن المذاهب الأربعة يمثلها أئمة في هذه المناسبات. هذا يعني أن هؤلاء الأئمة يمكن أن يتمتعوا بمزايا إمامة الصلاة (ما لم يتنازلوا هم مثلما يحدث في معظم الأحيان)، والسبب في ذلك أن من يريد الصلاة خلف إمام الأحناف يتعين عليه التأخر طويلا لكي يصلي وراء الإمام الحنفي الذي يكون هو آخر الأئمة.

الأتقياء من الرجال، هم وأولئك الذين تفرض عليهم مناصبهم احترام المظاهر، يحرصون على ألا تفوتهم صلاة الفجر، طبقا للمذهب الشافعي، ولما كانت هناك جماعة أخرى من رجال المال والأعمال الذين يشعرون بالسعادة الغامرة إلى الحد الذي يجعلهم لا يتناسون واجباتهم الدينية الباكرة، فإن صلاة الفجر، التي يؤدونها على أضواء اصطناعية، يقبل عليها عدد كبير من الناس.

هذا الترحيم يليه، على امتداد ساعة ونصف الساعة قبل شروق الشمس، الأذان الحقيقى، أى الأذان الشرعى الذى يتردد صادراً من المآذن كلها على ألسنة المؤذنين وبصوت عال. بعض الناس يؤكدون - وهذا ليس بصحيح - أن هذا الأذان يجرى تلحينه بطريقة محددة. الأمر على العكس من ذلك، نظرا لأن كل مؤذن من المؤذنين بوسعه أن يؤذن فى كل أذان بالطريقة التى يجيدها، لكن بشرط عدم المساس بنطق الكلمات نطقا صحيحا. ونحن فى مكة نستمع إلى ألحان أذانية مختلفة ومتباينة تنطلق كلها فى آن، والسبب فى ذلك أن كل مؤذن من المؤذنين لا يعير انتباهه لما يقوله المؤذنون الآخرون. هناك عرف تقليدى سائد فى مكة، مفاده أنه إذا ما تصادف (فى أثناء النهار) أن تلبدت السماء بالغيوم فوق الحرم، فإن الأذان ينطلق من المآذن إلى أن تطلع الشمس من جديد. والأذان فى مكة، شأنه شأن تلاوة القرآن يعد فنا على درجة عالية من التقدم والتثقف[٢٦] .

فى أثناء الأذان أو عقبه مباشرة، يصلى المتقون سنن الفجر، وهذه الصلاة يؤديها المصلى منفرداً. وعندما ينطلق أذان الإقامة من طابق الأحناف العلوى يكون كثير من الناس ما يزالون يؤدون صلاة السنة. والمقصود بالإقامة هو الاستعداد النهائى لأداء الصلاة المفروضة (الفرض). وهنا يتقدم إمام من الشافعية ليأخذ مكانه عند مقام إبراهيم .

فى أواخر العام وعندما يُغَطِّى الفناء الداخلى من الحرم بأعداد كبيرة من الحجاج، قد يحاول الإمامان الحنفى والشافعى إفساح المزيد من الأماكن بالاقتراب ما أمكن من الكعبة. كل هذه المناسبات تجرى فى وقار وهدوء، وإذا ما كان اليوم مصادفا ليوم الجمعة فإن الإمام يختار للتلاوة فى الصلاة آيات من القرآن لها صلة بالركوع

(٢٦) قد نفهم من كتاب إدوارد لين المعنون "الأخلاق والعادات" أن المؤذنين فى كل الأماكن يكونون من العميان. وهذا على أى حال ينطبق على مصر وحدها، نظرا لأن نصف سكان مصر يعانون من أمراض العيون الخطيرة.

والسجود. ويتعزز هذا الوقار المهيب بانحناء المصلين مدة لحظة(*)، من وضع الرفع الذى كانوا عليه فى أثناء التلاوة.

بعد صلاة الشافعية يسارع أصحاب الأعمال إلى الذهاب إلى الأسواق. وفى رمضان يبادر الناس إلى شراء احتياجاتهم من اللحم والحليب والخضراوات والخبز وما إلى ذلك، فى ساعة مبكرة من الصباح. ولا يقبل الناس على شراء هذه الأشياء بعد العصر.

الشحاذون، يتوقفون عن جولاتهم الصباحية فى رمضان، أما فى المساء فهم ينجحون تماما فى استجداء الناس، نظرا لأن المسكين أيضا يقدمون بعض الأشياء "لإفطار الصائمين". وفوق المقاعد المبنية من الحجر، والمظللة بأشرعة من الخيش والتى تُستخدم حوانيت ، يجلس التجار وهم ينادون كعادتهم، على المارة لشراء بضاعتهم واحتياجاتهم. ويبدو أن أصواتهم مبحوحة بسبب الإرهاق البدنى، وبسبب الهدوء الرهيب الذى يخيم على المناطق المحيطة بهم. فى المقاهى الخالية قد تصادف بين الحين والآخر عاطلا نائما فى الداخل، ويغيب عن السوق هنا تلك الطيور الفضولية ، التى تشكل قسما مهما من جمهور السوق. كل من يأتى إلى هذا السوق يعرف جيدا ذلك الذى يود شراءه، وعليه فإن صياح البائعين ونكاتهم، التى تعد أمراً عاديا فى بعض الأحيان، لا جدوى منها ولا طائل من ورائها. وعليه فإن تلك النكات والطرف تتحول إلى امتداح لرمضان، كما لو كان الله قد كلف هؤلاء التجار بتزكية هذه التجارة السماوية والثناء عليها. "مبارك لك أيها الصائم! جازاك الله خيرا وعظَّم أجرك !" هذا هو فحوى غنائهم. بعض آخر من التجار يخلط هذه الأغنية ببعض القفشات الفكاهية التى تلتمس إلى رمضان إسراع الخطى وأن يهيئ الفرصة لتجارة أكثر رواجا. "يا رمضان! هرول! بفضل الله" ! (المقصود بالهرولة هنا هو الجرى الذى يمارسه الحجاج فى السعى بين الصفا والمروة).

(*) لعله يقصد آيات السجدة التى يلزم معها أداء سجود التلاوة، وفق السنة المعروفة فى ذلك . (التحرير)

فى الحرم يؤم الصلاة الإمام الحنبلى ومن بعده الإمام المالكى، والاثنان يجيئان بعد الشافعى بوقت قصير، وأخيرا يأتى الإمام الحنفى ومن خلفه عدد من المصلين أكبر بكثير من ذلك العدد الذى يصلى وراء الإمام الشافعى والإمام المالكى، ولكن فى صلاة الفجر يكون عدد المصلين وراء الإمام الحنفى أقل بكثير من عدد المصلين وراء الإمام الشافعى. وقبيل شروق الشمس يطوف أولئك الذين انتهوا من الصلاة حول الكعبة ويقبلون الحجر الأسود(٢٧) . بعدئذ يتقابل المعارف ويتكلمون عن الأخبار اليومية فى أثناء مسيرهم فى المسجد بعد الانتهاء من الطواف. بعد ساعة واحدة فقط يعود كل هؤلاء الذين لهم علاقة بالحرم إلى أماكن أعمالهم، وترى منهم العلماء والطلاب، والحجاج ومرشدى الحجاج الذين يرافقون الحجاج خلال الطواف، ويضايقونهم بإلحاحهم ولجاجتهم، شأنهم فى ذلك شأن الطواشى والزمازمة. ينصرف بقية المصلين إلى حال سبيلهم، أو لزيارة بعضهم بعضاً. والمعروف أن الزيارة فى مكة تكون فى أى وقت من أوقات النهار (أما التجار فيتزاورون قبل غروب الشمس فقط، وتكون هذه الزيارات فى الدكاكين أو محلات العمل)، لكن هذه الزيارات لا تجرى فى رمضان فى أثناء النهار اللهم إلا إذا كان ذلك الأمر مهما وعاجلاً.

دكاكين الأوانى المنزلية وأدوات الزينة وكذلك الدكاكين الخاصة بمستلزمات وكُلَف الملابس تُفتح فى الأحياء المجاورة للحرم، والسبب فى ذلك أن الغرباء لهم فى الأحياء التى يعيشون فيها كثير من الاحتياجات غير المرئية، إضافة إلى أن المكيين أنفسهم ربما يكونون قد نسوا شيئا أو آخر عندما كانوا يتسوقون قبل رمضان. يضاف إلى ذلك أن الأعمال التجارية والمالية كلها تبدو وكأنها فى حالة ثبات.

---

(٢٧) يجب ألا يغيب عنا هنا أن الطواف ركن أساسى فى العمرة وفى الحج . والغرباء الذين يأتون إلى مكة لأداء الحج يقومون بالطواف كثيرا وذلك من باب التطوع، فى حين يقوم المكى التقى بالطواف مرتين إلى خمس مرات ، فى حين يكتفى المكى العادى بطواف واحد قبل صلاة الجمعة.

تبدأ الأحوال فى الحركة فى أواخر شهر رمضان، نظرا لأن الجميع يجب أن يشتروا حبوب الفطرة fitrah (زكاة رمضان)، ولا يستثنى أحد من هذه الفطرة من كل الموجودين فى مكة، كما يشترى الجميع ثيابا جديدة للعيد. صحيح أن كثيرا من المكيين القدامى لديهم ملابس دائمة للعطلات ولا يلبسونها إلا فى مناسبات الأعياد الكبيرة، لكنهم يشترون قبل العيد ملابس جديدة يلبسونها طول العام.

زد على ذلك أن أصحاب الحرف يكادون يكونون بلا عمل طوال هذا الشهر. وهناك أيضًا المكيون، الذين ولدوا فى مكة، تراهم أصحاء ويحيون حياة عادية تماما، ومتعودون الصيام منذ شبابهم، الأمر الذى يحصنهم ويقويهم على صيام رمضان، ولذا تراهم يعملون بطريقتهم المعتادة تماما.

كل أثرياء مكة يحملون ساعات، وإثباتا لذلك يتعين على المرء أن يذهب إلى الحرم قبيل غروب الشمس، ليرى مع انطلاق أذان المغرب المئات من البشر يخرجون ساعاتهم من جيوبهم أو من أحزمتهم ليضبطوها على الساعة الثانية عشرة(*). القسم الأكبر من هؤلاء البشر ليس لديهم أى فكرة عن التوقيتات النهارية مثل الساعة الثانية والثالثة والرابعة إلخ. المغزى الحقيقى هنا ينصب على تقسيم الوقت طبقا للتأذين للصلوات الخمس، أى أنهم يقسمون الزمن إلى خمسة أقسام، كما يقسمون الليل مثلما سبق توضيحه إلى التذكير والترحيم هناك أيضًا مزيد من التقسيم الفرعى للوقت يتمثل فى التشريفتين اللتين تجريان يوميا أمام قصر الشريف الكبير، مضافا إليهما وضع الشمس، يزاد على ذلك أن الناس هنا لا يعرفون أى شىء مطلقا عن الدقائق.

عند الظهر وبعد ذلك بحوالى ثلاث ساعات، ينطلق صوت المؤذنين معلنا وقت صلاة الظهر ووقت صلاة العصر. وبعد الأذانين يروح المؤذنون يتغنون بشكر الله،

(*) من المرجح أن يكون هذا التوقيت محليا وخاصا بسكان مكة وشبه الجزيرة العربية، ويعرف بالتوقيت العربى أو الغروبى. (المراجع)

والثناء [والصلاة] على نبى الله، ذكر الخلفاء الأربعة، ثم يتقدم أئمة المذاهب الأربعة حسب ترتيبهم، وعادة ما يكون الإمام الحنفى فى البداية، ومن بعده الشافعى، لكن هذه المسألة قد تتغير فى كثير من الأحيان، والسبب فى ذلك أن إرادة السلطات المحلية تعمل عملها فى نطاق حدود معينة.

عدم وجود عدد كبير من الحجاج يؤدى إلى عدم وجود الزحام فى تلك الساعات شديدة الحرارة. بعض المكيين الأصليين، الذين لا يعيشون أو يجيئون طلبا للدرس والعلم، لا يخشون أو يخجلون من البقاء فى منازلهم حتى عندما لا يكون لديهم أى مانع من الموانع. وعندما يدخل موعد الأذان فقط فإن النائم فى الشارع أو من يريد أن يتجاوز أو يمر على الحرم، يجد من يلتقيه من الأتقياء الذين لا ينسون واجبهم تجاه إخوانهم فى العقيدة (٢٨) ، ويروح ينادى على ذلك النائم أو المار قائلا: "ألا تسمع يا شيخ"، "الصلاة! يا! أنت!". من هنا نجد أن المرهقين من الرجال يحرصون على البقاء فى منازلهم إلى أن يقترب موعد التجهيز للإفطار.

***

إلى هنا نكون قد وصلنا مبتدأ وصفنا لشهر الصوم. وبرغبة أشد وأدفأ منها فى بداية شهر رمضان، يروح المكيون يتطلعون إلى ظهور الهلال، الذى يمثل ظهوره نهاية شهر الصوم. يشعر الجمهور المجتمع داخل الحرم برغبة شديدة فى انتهاء الصوم بنهاية اليوم التاسع والعشرين من رمضان. وفى كل لحظة تتوافد المئات من البشر على ركن من أركان صحن المسجد تطلعا إلى تصيد أخبار ذلك

---

(٢٨) مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مفروضة على المسلمين بوصفها مهمة أساسية للمسلم، هذه المهمة ضرورية لأن الإسلام ليس فيه "إكليروس" يقوم على أمر الطقوس الكنسية ذات الطابع الروحى، أو الطقوس الأخرى المتصلة بعلاج الروح وشفائها. "القساوسة" أصحاب هذا الاسم الزائف فى الكتب الأوروبية يقومون – نظير أجر صغير – بواجباتٍ ومهامٍ، كلُّ مسلم من المسلمين المتعلمين مؤهل للقيام بها. يضاف إلى ذلك أن الاعتراف بالسلطات (الصوفية) الأخرى يرجع إلى إرادة الفرد نفسه.

الرسول السماوى(*) الذى يترتب على ظهوره أن الغد هو العيد الذى يصادف اليوم الأول من شوال، أو أنه سيكون اليوم المتمم لشهر الصوم. وإذا ما ثبتت رؤية الهلال ينتشر الخبر فى كل أنحاء المدينة مثل انتشار النار فى الهشيم، وعليه يبدو أن الضوضاء التى بقيت محبوسة طيلة شهر كامل، قد ادخرت نفسها لهذه الليلة الواحدة. وفى كل الجوانب والأنحاء ترى العبيد ينزلون من المنازل إلى الشوارع لتنظيف السجاد بضربه بالعصى، أو قد تراهم وهم يضيفون لمسات التنظيف الأخيرة . وفى كثير من الأماكن نرى ستائر المناور والشبابيك تستبدل بها أخرى جديدة. ويمتلئ السوق بالبشر الذين يتحركون هنا وهناك، وفى هذه الليلة الأخيرة تُبتاع تلك المشتروات، ويقوم رب الأسرة بملء دولاب ملابس الأسرة والخدم، كما يشترى أيضا السكريات والعطور المطلوبة لزواره، ويغير الأوانى المنزلية، ويزور الحلاق ليحلق رأسه، الأمر الذى يجعله ينتظر دوره فى دكان الحلاق بسبب الزحام. وأمام دكاكين الحلاقين نشاهد الكثيرين جالسين فى العراء فى الشارع على مقاعد، وعلى ظهر كل واحد منهم كأسين من كئوس الحجامة، والسبب فى ذلك أن أى مكى، مهما كانت صحته، يتوقع الوفاة إذا لم يؤخذ منه شىء من الدم ولو لمرة واحدة كل عام، يضاف إلى ذلك أن الناس فى يوم العيد يودون الحصول على الارتياح الذى ينجم عن هذه العملية.

فى هذا الوقت نفسه تنشغل المنازل بالطهو والغلى والخبز، وتُزيَّن غرفة الاستقبال بالزينات، وتُجهَّز غرفة كبيرة أخرى للوليمة التى ستقام بعد ساعات قليلة من أداء صلاة العيد.

لأداء صلاة العيد يتوجه المؤمنون إلى الحرم الشريف قبيل شروق الشمس كى يحصلوا لأنفسهم على مكان مريح. واقع الأمر أن أناساً كثيرين يبقون فى الحرم بعد صلاة الفجر ويتمتعون برؤية المؤمنين وهم يتوافدون على الحرم مرتدين ثيابهم الجديدة،

(*) Heavenly Messenger هذا المصطلح الذى أورده المؤلف يبدو غريبًا . ولعل المقصود به على الأرجح الشخص الذى يقوم باستطلاع ورؤية هلال شهر شوال، ولعله هلال شوال نفسه . (المراجع)

نظرا لأن هؤلاء الناس، وبخاصة الطبقات المتوسطة، يلبسون فى يوم العيد ملابس مختلفة عما يلبسونه طوال العام أو فى الأيام الأخرى. بعد حوالى نصف ساعة من شروق الشمس يؤذن المؤذن لإقامة الصلاة(*)، وتؤدى بعد ذلك صلاة العيد المكونة من ركعتين، ويعقبها مباشرة خطبة العيد.

وبعد دقائق معدودات من انتهاء الخطبة يستطيع الإنسان أن يتبين أسباب مجىء خطبة الجمعة قبل أداء الصلاة، وذلك من أجل أن يبقى الناس فى أماكنهم للاستماع إلى الخطبة. وعلى الرغم من أن حجم مسجد مثل الحرم الشريف يتسع لعدد هائل من المصلين فإن واحدا من مائة فقط من هؤلاء المصلين هم الذين يفهمون ولو مثقال ذرة من خطبة الجمعة، ومع ذلك فإن "الصمت الوقور" هو سمة المكان فى أثناء هذه الصلاة، أما هؤلاء الذين يجلسون على مسافة كبيرة من الخطيب فيروحون يتمتمون بصوت خفيض بالدعاء فيما بينهم وبين أنفسهم. ومع ذلك، وعقب انتهاء صلاة العيد مباشرة، يبدأ الحراك بين أفراد الصفوف البعيدة أو الخارجية، ويتزايد ذلك الحراك بصورة مستمرة إلى أن تتبقى نخبة صغيرة من المؤمنين مع الخطيب. لقد تجمع الناس بعضهم إلى بعض طلبا للسعادة والبهجة والسرور. هم يريدون مقارنة هذا المشهد (أى جمهور المصلين فى ذلك اليوم) بمشاهد الأعوام السابقة، ويتبينون أيضًا كيف أن هذا أو ذاك من الناس يلبس ملابس غالية بهذه المناسبة.

موازنة الماضى بالحاضر تجعل أبناء مكة يتوصلون إلى حكم ليس فى صالح الحاضر. سيقول أبناء مكة: "يبدو أن الدنيا كلها تعانى من كساد الممتلكات، وأننا نحن الذين يتعين علينا العيش على ما زاد على المسلمين، نجد أن هذا الأمر شاق علينا. أين منا أولئك الهنود الأثرياء الذين اعتادوا توزيع قطع الذهب؟ أين منا الجاوة الذين ينفقون ببذخ والذين يشترون ليوزِّعوا ما يشترونه على شكل هدايا؟ أين منا هؤلاء الأتراك الذين اعتادوا أن يشتروا أحمالاً من أحمال الإبل، على شكل هدايا لأقاربهم؟ الحجاج

(*) المعروف أن صلاة العيد تؤدى دون أذان أو إقامة. (التحرير)

فى هذه الأيام يغنون أو يرددون لازمة مفادها «ليس لدينا مال زائد عن حاجاتنا كى ننفقه، أنت ترى نتائج الفاقة على مكة». هؤلاء الأوغاد قبل خمسة وعشرين عاما مضت كانوا لا يتركون رجلاً طيبا يمر عليهم فى عيد مثل هذا العيد، دون أن يعطوه حفنة من النقود المعدنية من فئة الخمسات، وإلا أصمَّت الضوضاء آذانهم. لكن ذلك يكلفهم فى الوقت الحالى مالا كثيرا، كما أن الإخوان (أبناء مكة)، يعلمون أن الحجاج لم يحضروا معهم القطع المعدنية من فئة خمسة فارذنج(*)، يضاف إلى ذلك أن عيدا دون عراك فى شبابنا كان أمرا لا يطاق، والآن وفى ظل عدم جمع المال تتضاءل روح العراك".

والتجار الذين يبيعون خيوط الذهب وصفائح الذهب والفضة التى تزين بها ثياب النساء يعربون عن هذا التشاؤم ويعبرون عنه بقولهم: فى الماضى كان الناس يبتاعون هذه الأشياء بالأكوام، أما الآن وبعد هذا الكساد الكبير فإن ما يشتريه الناس لا يتعدى بضع دولارات قليلة ومن أرخص الأنواع.

هؤلاء الذين يتغنون بالماضى من أهل مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة] أصبحوا قلة قليلة، هذا يعنى أن الذكريات التى أتينا على ذكرها ليست بلا أساس. هذا لن يعوق الناس أيضا عن الاحتفال بالعيد احتفالا عامراً بكل ما يمكن الوصول إليه من البهجة والفرح، وذلك على الرغم من الملابس بسيطة الحال، ودون خيلاء لا مبرر لها، كما أنهم مازالوا يأكلون ويشربون مثلما كانوا يفعلون من قبل.

قد نلاحظ عندما نقارن هذا العيد "العيد الكبير" الذى يجىء فى اليوم العاشر من ذى الحجة بعيد رمضان، أن الناس يطلقون على عيد رمضان اسم "العيد الصغير"، لكن هذا العيد الصغير له أهمية أكبر من العيد الكبير فى بعض البلدان. لا عجب فى ذلك! نظرا لأن الناس يفرحون حاليا بانتهاء شهر التكفير والمغفرة، فى حين أن اليوم

(*) اللفظة الإنجليزية المستخدمة هى farthing، وهى تساوى $\frac{1}{4}$ بنس تقريبا، والقطعة تساوى خمسة أجزاء أى ما يعادل حوالى $1\frac{1}{4}$ بنس وهذه العملة بطل استخدامها حاليا. (المترجم)

العاشر من الشهر الثاني عشر (ذي الحجة) هو يوم غوثٍ وراحةٍ للحجاج المجهدين في وادي منى، لكن هذا اليوم لا يشكل حافزا عند المؤمنين الآخرين، كي يدفعهم إلى تبادل التهاني. معروف وموصى به أيضا في ذلك اليوم، يوم العاشر من ذي الحجة، أن يصلي الناس سويا، وأن يستمعوا إلى خطبة العيد، وأن يتقاسموا سويا أضحية عبارة عن خروف، لكن شبه العيد هذا الذي يجري في وادي منى فقط، ليست له جاذبية كبيرة.

وهنا يجب أن نقول إن طقوس العيد الكبير يجب عدم الاحتفال بها بأكثر من ذلك الذي يجري في الوادي الواقع في شرقي مكة. الأمر ليس على هذه الشاكلة، الجهلة من أهل مكة لا يعرفون أن الشريعة نصت على طقوس دينية لعيد العاشر من ذي الحجة مثل تلك الطقوس التي نصت عليها لعيد المشهد الذي يصادف اليوم الأول من شهر شوال (أي ذلك الشهر الذي يجيء بعد رمضان). في ساعة متأخرة من الليل أو في الصباح الباكر ينزل الحجاج ومعهم مقتنياتهم من جبل عرفات إلى وادي منى. هنا، في منى، يقف الحجاج في حال يرثى لها، ويتعين على شيوخ مكة ومساعديهم أن يُنزلوا الأحمال عن الجمال، وينصبوا الخيام، ويعدوا الطعام، أي أنهم يلبُّون احتياجات زبائنهم، وهم لا ينتهون من هذه الأعمال قبل انتهاء هذا الطقس الديني. يزاد على ذلك أن شيوخ مكة يتعين عليهم شراء الأضحيات للحجاج، وأن يدلوا الحجاج على الحلاق لكي يتحلل الحاج من إحرامه عن طريق حلق شعر الرأس. ويتعين أيضا على شيوخ مكة إحضار الحمير التي يركبها الحجاج لكي يصلوا إلى مكة على وجه السرعة لكي يطوفوا طواف الإفاضة (الدوران حول الكعبة)، وبعد ذلك بثلاثة أيام يعودون إلى منى. بعض المكيين جاءوا أيضا ومعهم بضاعتهم[٢٩] لكي يبيعوا هذه البضاعة، أو يعملوا

(٢٩) جرت العادة في مكة أن يقوم الحاكم (مفتش السوق) بتثبيت أسعار السلع الحياتية الأساسية مثل الخبز واللحم والزبد وما إلى ذلك بطريقة جبرية، لكن التقاليد تقول إنه في موسم الحج وفي محطات الحج أيضا تُعطل هذه التسعيرة ويترك الأمر للعرض والطلب أن يعملا عملهما، والذي لا شك فيه أن مسألة التسعيرة هذه، التي يظن الناس أنها من أجل الصالح العام، هي التي تسبب قدراً كبيرا من المتاعب، لأن هذه التسعيرة هي التي تحقق أرباحا للرسميين والمسئولين.

حلاقين أو قصابين، ولا يمكن لهم أن يغادروا مواقعهم ولو للحظة واحدة. هذا يعنى تعليق القوانين الخاصة بتسعير البضائع فى هذه المناسبة.

قد يذهب كثير من الحجاج إلى المسجد فى منى لأداء الصلاة الأخيرة، اللهم إلا إذا لم يترتب على ذلك خطر ضياع بعض الحجاج فى المخيم الكبير، عندما يعجزون عن الوصول إلى المحل الذى يقيمون فيه، ومسألة مرافقة أى أحد لمثل هؤلاء الحجاج أمر بالغ الصعوبة، لأن الناس جميعا مشغولون ولا وقت عندهم.

فى مسجد منى لا يتجمع سوى كبار المكيين والأشخاص المسئولين، دون أن يعرف السواد الأعظم من الحجاج شيئا عن هذا الأمر. الأتقياء من الحجاج يؤدون الصلاة بالقرب من خيامهم على شكل جماعات صغيرة، ويندر أن يشارك المكيون فى هذه الجماعات الصغيرة. مدينة مكة نفسها تكون مهجورة فى ذلك الوقت، وبالتالى لا يكون هناك دلائل على وجود مشهد (عيد) فى المدينة. والعيد الصغير فى مكة لا يقل بهجة عنه فى الأماكن الأخرى، فى حين نجد العيد الكبير يجر على المكيين المزيد من الفرح لكنه يسبب لهم المزيد من المتاعب، وبالتالى يتناسى المكيون فى العيد الصغير الطقوس الخاصة بالعيد الكبير.

***

لا يتبقى بعد المشهد شىء سوى التزاور مع الناس. جرى العرف على أن يقوم صغار السن بزيارة أقاربهم الكبار، ثم يزورون الجيران بعد ذلك والأصدقاء وكذلك المدرسين، هذا يعنى توسيع الدائرة بعد ذلك إلى أبعد حد ممكن. هذا يعنى أيضا أن أى رجل من الرجال يمكن أن يذهب مع أصدقائه لزيارة أصدقاء آخرين غير معروفين له، كما يقوم أهل المكانة المتواضعة بزيارة أعمامهم ورعاتهم وينتظرون منهم العيدية، ويمكن القول إن هذه العيدية شبيهة بهدية عيد رأس السنة، وذلك على الرغم من أن هذا

اليوم يمثل اليوم الأول من الشهر العاشر فى العام الهجرى. كل شىء فى هذا اليوم يشهد على أن التقويم غير المدون هنا يدل على أن هذا اليوم هو يوم عام جديد، ونحن نسمع من كل من هم حولنا تحية تقول "من العايدين" (بمعنى من يعود عليهم العيد)، ونسمع الناس يقولون "كل عام وأنت طيب، ومتمتع بالصحة والسلامة". ونسمع الرد عليها يقول "نعم، إن شاء الله! نحن وأنتم بمشيئة الله، وأمة محمد جمعاء". وتُقدم القهوة للزوار طوال اليوم. وتُقدم ثلاثة فناجيل من القهوة على صينية أنيقة، عليها أيضا صحن فيه شىء من اللوز والجوز، وتشكيلة من الحلويات، ليأخذ منها الضيف ما يطيب له، ثم يقوم المباشر (الشخص المنوط به تقديم التحية) بتغطية الصينية من جديد بمفرش جميل مطرز من أطرافه. وإذا ما تجمع أهل البيت لتناول غداء العيد فإنهم يتمسكون بالزائر الموجود ويصرون على أن يتناول معهم شيئا من غداء العيد، وإذا ما تصادف وجود بعض الأصدقاء الحميمين مع بعضهم يُجهز الشاى على وجه السرعة. هذه الزيارات تكون سريعة الإيقاع فيما يتعلق بغير المقربين. وعندما يهم الزائر بالانصراف، أو يؤشر أو يوحى برغبته فى الانصراف تُقدم المبخرة أو المرش (رشاشة ماء الورد). وبدلا عن المرش، قد يقدم المُضيف طبقًا صغيرًا على صينية فيه حشو من القطن أو اللباد مبلل أو منقوع فى زيت طيب الرائحة، ليغمس الضيف فيه سبابته ثم يحكها أسفل أنفه، وبذلك يمكن تحاشى اتساخ الملابس الحريرية بسبب ماء الورد. ويشكر الزائر رب البيت على الطِّيب ثم ينهض واقفا، وهنا يشكر المُضيف الضَّيف على تجشمه الصعاب ومجيئه للزيارة.

فى الشوارع الواسعة تجد الأطفال يسلحون أنفسهم "بالمقاليع الروسية" وهم يطلقون على ذلك المقلاع اسم مدراة، وبالقرب من محل ميلاد (سيدنا) على - رضى الله عنه - نجد أبناء حام السود يرفعون أصواتهم الجهنمية . والنساء لا يخرجن كثيرا من منازلهن، لأنهن يتعين عليهن مباشرة توفير كل ما يمكن تقديمه للضيوف.

حسب الشريعة، يُفضل صوم ستة أيام بعد العيد الصغير. وهذا لا يحدث إلا فى مكة(*) من قبل قلة من الرجال شديدى التقوى وبعض النساء شديدات التدين، اللاتى يقضين بصوم هذه الأيام بعض الأيام التى أفطرنها فى رمضان بسبب الدورة الشهرية، لكن من بين هذه النساء من يؤجلن أيام القضاء إلى شهر رجب. وعند المكيين الأصليين نجد اليومين الثانى والثالث استمرارًا للعيد عند الرجال الذين يقومون فى هذين اليومين بالمزيد من الزيارات وإقامة تجمعات الأنس والمرح. والأيام بدءًا من اليوم الرابع إلى اليوم السابع تمثل دَوْر النساء. هذا لا يعنى أن الرجال قد أخذوا كفايتهم، إنهم على العكس من ذلك يواصلون احتفالاتهم إلى منتصف الشهر تقريبًا، لكن النساء خلال هذه الأيام الثلاثة يكون لهن حق استعمال أجمل الغرف فى المنزل، ولا تقتصر زيارات النساء على بضع دقائق، ولكنهن يجلسن فترات طويلة ليشربن القهوة والشاى والشربات، وينخرطن فى القيام بالرحلات الخلوية (التى يطلقن عليها اسم القِيلة).

خلال شهر شوال، وإذا ما كانت العلاقات مع البدو على ما يرام، فإن ذلك يمكن القافلة من السفر إلى المدينة [المنورة]. ويسافر ضمن هذه القافلة أيضًا أولئك الحجاج الذين بكروا بالحضور إلى مكة هم ومرشدوهم، وكذلك المكيون الضعاف وزوجاتهم وأطفالهم الذين يستعملون هذه القافلة . خلاصة القول أن هذه القافلة تضم كل أولئك الذين لا يقوون على السفر مع القافلة السريعة (الرَّكْب)، وفى مدة تزيد قليلا على الشهر يعودون مرة ثانية إلى أهليهم وأقاربهم بالبركة، ومعهم أيضا هدايا أكثر من الهدايا التى تجلب فى شهر رجب، والسبب فى ذلك أن هذه القافلة لا تمانع حمل المزيد من الأمتعة. وهم يعودون ومعهم التمور والدُّقَّة (مسحوق يغمس الناس فيه قطع الخبز)، ومعهم المراوح المصنوعة من سعف النخيل، والتى يشترونها من نساء البدو على طول

(*) صوم ستة أيام سنة لها فضلها، وتسمى فى الأوساط الشعبية والدينية "الستة البيض"، وهذه السنة يؤديها المسلمون فى مكة وفى غير مكة . (التحرير)

الطريق. هذه هى أكثر الهدايا شيوعا. زوار قبر الرسول ﷺ يعودون أيضا ومعهم مكيال للقمح يصنع من الصفيح أو من الخشب، وصورة طبق الأصل من المُدِّ الذى كان النبى يستعمله فى معايرة عطاياه (زكاته) عند نهاية شهر رمضان، وبذلك انتقل ذلك المكيال بلا تغيير إلى يومنا الحالى. ويكتب على هذا المكيال نسب صاحبه على ورقة حمراء يجرى تسليمها للمالك. وسعة هذا المكيال $\frac{٣}{٤}$ لتر. القوافل التى من هذا النوع يرافقها الناس فى هدوء عند عودتها، كما يلتحق بهذه القوافل أيضًا المكيون الذين يقومون خلال مقامهم القصير فى المدينة [المنورة] ببعض الأعمال التجارية، ويزورون قبر رسول الله ﷺ طلبا للبركة والنعمة.

فى هذا الشهر العاشر، وبصفة خاصة فى الشهر الحادى عشر (ذى القعدة) تستعر حمى الكسب من جديد، وبخاصة مع بدء وصول الفوج الثانى من جيش الحجاج بصورة متدرجة إلى المدينة المقدسة. وهنا نجد أن المنافسة المتزايدة تحث الشيوخ على التوسل إلى الله أن يرسل عليهم المزيد من الحجاج الأثرياء، هؤلاء الشيوخ يتآمر بعضهم على بعض بمختلف الطرق. هذا التنافس على لقمة العيش هو الذى يسهل على السلطات الحكومية تخريب النقابة بالكامل، نظرا لأن هذه السلطات تستطيع استعداء نقابة على نقابة أخرى عن طريق إصدار قواعد وتعليمات متعارضة.

عن طريق التقصير فى جباية الضرائب بصورة منتظمة يستطيع كل من الأمير (أى الشريف العظيم) هو والممثل المقيم (الوالى التركى) أن يحصلا لنفسيهما على قسم من ذلك الذى يكسبه المكيون والشيوخ. وهما يفعلان ذلك بطلب "مساهمات مجانية" من الحجاج[٣٠] فى جدة لاستعمالها، على سبيل المثال، فى صيانة مجرى المياه

(٣٠) الحجاج الذين ليسوا من الرعايا الأتراك، يتعين عليهم دفع مبلغ للحكومة التركية نظير رحلة المرور من جدة إلى مكة، وهذا التصريح لا نفع له عند هؤلاء الحجاج، والمبلغ الذى يدفع نظير هذا التصريح عبارة عن ضريبة مقنعة على الحجاج.

(المكى) وفى إنشاء مجرى مائى فى جدة. والشيوخ الذين يتساهلون فى مرور عدد كبير من الحجاج لأنهم غير قادرين على التبرع أو الإسهام، يُستبدل بهم شيوخ آخرون أكثر حنكة ومهارة. ومن هنا تصبح مسألة منح التراخيص (أو التقارير) هى الأخرى، وسيلة من وسائل "نحل وبر" الشيوخ أنفسهم.

منذ القدم ، يعرف رؤساء النقابات أن دخولهم إلى النقابة يتطلب موافقة أعضاء النقابة حتمًا، كما يتطلب أيضا موافقة السلطات المحلية. الانضمام إلى نقابة من النقابات، شأنه شأن الاعتراف، أمر مهم فى حياة رئيس النقابة مادام لم يسئ إلى مكانته أو موقعه بسبب سوء سلوكه أو تصرفاته. هذا الاستثناء بحد ذاته يجعل من حق الشريف العظيم تهديد رئيس النقابة بسحب الترخيص منه، اللهم إلا إذا أمن نفسه عن طريق الهدايا. وإلى وقت قصير مضى، وباستثناء الإجراءات التى اتخذت ضد بعض الأفراد، فإن التصريح عندما يمنح أو يُحصل عليه لا يمكن إلغاؤه مادام يُسدد ويُدفع المطلوب بصورة منتظمة. وعندما يتوفى شيخ من شيوخ هذه النقابات فإن من سيخلفه يتعين عليه أن يدفع من جديد، كما يتعين على المؤسسات تقديم الهدايا لحاكم المدينة فى أيام محددة من أيام العيد، أو عندما تعقد اجتماعا من الاجتماعات. وفى السنوات الأخيرة راح كل من الشريف والممثل المقيم(*) يطبق أسلوبا من أساليب الاستنزاف العام على النقابات كلها على حد سواء.

عندما يتبين للأمير والوالى التركى أن هؤلاء الشيوخ الذين يستغلون طبقة معينة من الحجاج قد بدأوا يجمعون مالا أكثر بكثير مما هو مطلوب، فذلك يعنى أن الأمير والوالى التركى يتفقان مع كبير الشيوخ على إصدار مرسوم يقضى بتجديد التراخيص الممنوحة لهؤلاء الشيوخ (ومن الطبيعى ألا يعترض كبير الشيوخ على مثل هذا المرسوم). معروف أن تجديد الترخيص يكلف كل شيخ من هؤلاء الشيوخ مئات

(*) المقصود به ممثل الدولة العثمانية . (المراجع)

الدولارات، وبالتالى يتعين على هؤلاء الناس خصم مكاسبهم منذ البداية . وهنا تتهيأ الفرصة لكبير الشيوخ أن يمنح أصدقاءه بعض المزايا التى تجعلهم يتفوقون على منافسيهم، وذلك بأن يمارس هؤلاء الأصدقاء بعض الأعمال التجارية والمالية على حساب كبير الشيوخ، لكن الرجل سرعان ما يبادر إلى إجراء بعض الخصومات والأرباح إذا ما علم أن السلطات الأعلى أصبحت على علم بما يدور.

وهنا يجب القول إنه طوال السنوات القليلة الماضية، على سبيل المثال، جُدِّدت التصاريح الممنوحة لشيوخ الطوافة الخاصة بالجاوة (الحجاج الذين يجيئون من شبه جزيرة الملايو) مرتين. فى المرة الأولى جُدِّدت تلك التراخيص بأخرى تحدد نوعية الجاوة التابعين للطوافة (هل هم من البونتياناك أو من لامبونج، إلخ). وفى العام التالى اكتشفت السلطات أن هذا الإجراء لم يمنع الشيوخ من الصيد فى مناطق الشيوخ الآخرين، من ذلك على سبيل المثال، أن واحدا من بين الشيوخ المرخص لهم بحجاج منطقة بعينها، قد يسيطر بالمكر والخداع والاحتيال على الحجاج كلهم. وبناء على ذلك حدث تقسيم فرعى آخر لسكان أرخبيل جزر الهند الشرقية، أو على حد قول أهل الملايو المقيمين فى مكة: إن بلاد الملايو جرت المزايدة العلنية عليها من جديد. وقد استُثنى بعض الشيوخ أصحاب النفوذ من هذه العملية؛ وهنا يصح لنا القول إن من يدفع أكثر فإنه يحصل على حجاج منطقة بكاملها لكى يستغلهم بطريقته الخاصة.

واقع الأمر أن أقلية صغيرة هى التى كانت تنشد الإصلاح، وأن تلك الأقلية تتكون من أولئك الذين لديهم خطة مدروسة لزيادة دخلهم على الرغم من ارتفاع أسعار التراخيص من ناحية والابتزاز من ناحية أخرى . أما باقى الشيوخ فكانوا يشكون مر الشكوى، بل إن البعض منهم كان يود الثورة والتمرد على تلك الأوضاع. وعلى الرغم من التخطيط لذلك الأمر فى السر، فإن المشتركين فيه قد ألقى القبض عليهم جميعا، وخلال حبس أولئك المتمردين نُفِّذ المرسوم بسهولة ويسر، بعد أن خانت الآخرين



كبير مطوفى الحجاج الجاويين

شجاعتهم. يضاف إلى ذلك، أنه منعا للساخطين من رفع الأمر إلى إسطمبول، وذلك بناء على تحريض من أعداء الحاكم، أرغم كل أفراد النقابات على توقيع خطاب للسلطان يشكرونه فيه على تعيين الحاكم، الذى استطاع بمرسومه الجديد تلبية رغباتهم، ثم طلب رئيس النقابة، فى نهاية المطاف، من "أبنائه" أن يقدموا له هدية جزاء له على ما تجشمه من صعاب من أجلهم ومن أجل مصالحهم. وعليه بيعت فى ذلك الشهر جلود أضحيات الحجاج قبل مجىء الحجاج، إذ من السهل إجبارهم على دفع الأتعاب.

هذا المثال يوضح لنا مدى انتشار حمى الكسب بصورة متدرجة فى المجتمع المكى بعد انتهاء شهر رمضان. كلما زاد عدد الحجاج ضاق المكان على المكيين. وبدءا من الشهر العربى الحادى عشر إلى الشهر الأول من العام الذى يليه، يمكن للغريب الاختلاط مع أولئك المتلهفين على السلب، معرضا بذلك ثروته التى جمعها خلال العام للخطر، دون أن يأخذ فى حسبانه ولو للحظة واحدة أنه بعد رحيله سوف يجرى بين المكيين شجار مستعر على النقود. والحاج لا يمكن أن يصبح على دراية بهذا النوع من الحياة الاجتماعية، أو على دراية بدور المسجد بوصفه جامعة، إلا إذا هدأ واستقر ودرس هذين الأمرين دراسة مستفيضة.

ولهذا السبب نفسه، ولأن المعلومات التى تصل إلى أوروبا عن مكة تتعلق بطريق مباشر أو غير مباشر بالحجاج، وجدنا أنفسنا ندخل فى إيراد المزيد من التفاصيل عن حياة المكيين الواقعية، من واقع ملاحظة تفاصيل هذه الحياة فى الشوارع وعلى الملأ وفصلنا الأخير (الذى خصصناه للجاوة) سيتيح لنا الفرصة لتناول هذا الموضوع جديد، من منطلق استغلال الحجاج، وسوف نحاول فى الفصلين التاليين رسم صورة لحياة الأسرة المكية ورسم صورة أيضًا للنشاط العلمى والتعليمى الذى يتخذ من الحرم مقرًا له.

القسم الثانى

الحياة الأسرية فى مكة

من يود تقديم الأسرة المسلمة للقراء الأوروبيين يتعين عليه، فى بداية الأمر، مواجهة بعض الأخطاء المتأصلة. ونحن نتخيل الجزء الخلفى من منزل أى مسلم من المسلمين، مثل سجن يطلق عليه اسم الحريم ، هذا الجزء الخلفى من المنزل تعيش فيه أربع زوجات، وعدد من الإماء لا يعلمه إلا الله، وكلهن فى خدمة نزوات وأهواء سيدهن، وهؤلاء الحريم لا يخرجن إلا بين الحين والآخر منقبات من هذا المنزل. مثل هذه المفاهيم الخاطئة لا تتأكد لدى الأوروبيين إلا عندما يقرأون السواد الأعظم من كتب الرحلات، والسبب فى ذلك أن هذا الجزء من حياة المسلم يظل محجوبا عن الرحالة. وما يسمعه هؤلاء الرحالة عن هذا الجزء من منزل المسلم (وهم لا يحصلون على معلوماتهم من مصادر مؤكدة الدقة) يولد لديهم انطباعاً غريبا، وهذا الذى لا يسمعونه هو الذى يجعلهم يظنون أن المسلمين يحافظون على إبقاء تلك الأمور فى قمة السرية، أما ذلك الذى يراه هؤلاء الرحالة فيتمثل فى تلك الأشكال المنتقبة، وسبب ذلك أنه رغم أن النقاب - ويمكن إثبات ذلك - لا يعد علامة من العلامات الشرعية الإسلامية، فإنه يدخل ضمن العادات والتقاليد الدارجة التى يشبعها شىء من الدقة السمحة فى أراضى الثقافة الإسلامية العريقة.

الحريم فى مكة لسن جزءاً من المسكن، وإنما هن النساء أنفسهن ، والرجل عندما يتحدث عن الحريم يقصد بهن زوجاته وإماءه، أو النساء الأخريات اللاتى يعشن فى المنزل. ويتضح لنا من وصف المنازل المكية الذى أوردناه من قبل أن الحريم لا يحدد لهن جزء معين من المنزل، وإنما فى حال وجود النساء فى أى مكان، فإنه يتعين على الزائر ألاَّ يدخل عليهن، كما هى الحال فى غرف نومنا نحن فى منازل معارفنا

وأصدقائنا، وعليه يتعين على الإنسان عندما يكون فى بيت غريب أن يصحب معه دليلا أو مرشدا من أهل البيت. ومع ذلك يتعين ألاَّ يسلم الإنسان أن القيود على الاتصال بين الجنسين صعبة ومحكمة.

واقع الأمر أن كثيرا من أصدقاء الزوج فى مجال المال والتجارة والأعمال لا يلاحظون هذه العلاقات المنزلية فى كثير من الأحيان، فيمكن أن يزور هؤلاء الأصدقاء هذا الزوج فى كثير من الأحيان خلال الأسبوع، دون أن يعرفوا إن كان متزوجا أو له محظية، أو حتى إن كانت هناك نساء أخريات يعشن فى منزله، يضاف إلى ذلك أنه كلما اتسمت علاقات رب البيت الحياتية بالبساطة سهل اتصال أصدقاء المنزل بالحريم. فى بيوت التجار شديدى الثراء وفى بيوت كبار المسئولين، تستطيع نساء الأسرتين الصديقتين أن يتقابلن ويزور بعضهن بعضًا مثل الرجال تمامًا. هذا يعنى أن الجنسين يظلان منفصلين. هناك أيضًا بعض الحالات التى يباعد فيها الصديقان بين نساءيهما حتى لا تؤدى ثرثرة الحريم أو كلام النساء إلى الإضرار بعلاقتهما الطيبة. هؤلاء التجار وكبار المسئولين يكون لهم بالإضافة إلى منازلهم الكثيرة التى يمارسون فيها أعمالهم التجارية والمالية والأعمال الرسمية - إن كانوا من المسئولين - مساكن أخرى أصغر من هذه المنازل الكبيرة لإقامة النساء، ومن ثم يمكن إبعاد الأصدقاء الزائرين عن الاتصال بالنساء وحياة الحريم.

عندما تزداد حميمية هؤلاء الأصدقاء، تصبح علاقاتهم الحريمية (التى تخضع لكثير من التغيرات) موضوعًا للحوار فى كثير من الأحيان. وإذا ما تطرق الحديث إلى مثل هذه الأمور، فإنها تُناقش دون تحفظ، إلا إذا كانت هناك أسباب تمنع من ذلك أو تؤدى إلى مثل هذا التحفظ. تبادل مثل هذه الأفكار لا يتطلب قدرًا كبيرًا من الحميمية، نظرًا لأن مثل هذا الموضوع يُتناول من وجهة نظر مماثلة مثلما يحدث عندنا، نحن الأوروبيين، عندما نتكلم عن مذاق النبيذ أو التبغ.

الأمر غير ذلك فى الطبقات المتوسطة، والرجل عندما يجلس معه صديق طيب فى غرفة الجلوس "المجلس" فإن الزوجة قد تكون جالسة فى الغرفة المجاورة، ولا يغلق الباب الذى يفصل بين الغرفتين تماما. يزاد على ذلك فى مكة، أن الباب تكون بينه وبين إطاره فتحات يصل اتساعها لحجم قبضة اليد، نظراً لأن الحرارة تؤدى إلى انكماشات الخشب. وإذا ما علم الزوج أن صديقه رجل خجول وأمين، بمعنى أنه رجل "عينه ملآنة" فيما يتعلق بالنساء، وأنه ينظر إلى حظوظ الآخرين الطيبة بلا اشتهاء، فإن الزوج يُشرك زوجته فى الكلام، وبناء على ذلك يستطيع الاثنان بعد ذلك الكلام سويا بطريقة مباشرة، المهم أن يكون هناك ما يفصل بينهما مثل النقاب، أو ستارة أو شيء من هذا القبيل. لكن الظروف المختلفة قد تهيئ للزوج إزالة هذا القيد الأخير.

فى حال الأقارب الذين لا يجوز الزواج منهن (المحارم)، وفى حال الإماء أيضًا، لا تُفرض هذه القواعد ولا يكون لها وجود، والاستثناء فى مكة يُفسر تفسيراً فضفاضا إلى حد إدخال القرابات البعيدة والخدم الأحرار، إذا ما كانوا من الثقات أو من الذين لا ضرر منهم. يزاد على ذلك أن الأصدقاء الذين يود الزوج أن تكون له اتصالات حرة تماما معهم يدخلون، فى بعض الأحيان، فى علاقة وثيقة مع الزوجة، ويقدمهم على أنهم آباء أو أبناء أو أشقاء.

واقع الأمر أن الزوج يقدم على ذلك عن قناعة كاملة مفادها أنه لا يمكن أن يحدث الزواج بينهما مطلقا، وفيما عدا ذلك فإن إزالة القيود ربما تكون السبب الأول لحميمية شكلية، تنتهزها الزوجة فى تكدير حياة الزوج على نحو يجعله يعجل بطلاقها. انسيابية رباط الزواج فى الإسلام تعد سببًا رئيسيا من أسباب هذه القيود. ولولا إمكانية إحلال الصديق – الذى يسمح له بالدخول إلى مجتمع الزوجة – محل الزوج بلا أية غضاضة أو إساءة أدب لما كانت هناك قيود أو حواجز. وإذا ما رأى الزوج أن مثل هذا الحظر لا يعد أمرًا ممكنًا، فإنه تُزال مثل هذه القيود والحواجز، مادامت الألسنة الحاسدة ستبقى عليها.

وعلى الرغم من أن الشرع لا يمنع هذه العلاقات المنتحلة بأى حال من الأحوال، فإن الزواج بين الأشخاص الذين من هذا القبيل يعد عملا غير أخلاقى إذا ما ذاع صيته بين عامة الناس، بل إن الناس قد يطلقون عليه اسم الحرام.

هذه التقاليد نفسها تسود أيضًا بين الطبقات الدنيا، باستثناء المكان المحدود الذى لا تزال التعديلات التى سبقت الإشارة إليها سارية فيه، كما يسهل الحوار بين الجنسين بطرق أخرى مختلفة، وذلك تأسيسًا على بعض الأسباب.

"إذا كان أبناء مكة يستقصون المسائل الخاصة بالنساء عن طريق الغريبات أو المراسيل، فإن هذه الطريقة لها مخاطرها على الغريب. والغريب يتعين عليه اللجوء إلى وسطاء الزواج فى هذه الأمور، أو أن يقوم ذلك الوسيط نفسه بتلبية رغبات هذا الغريب. والمرأة الأيِّم سواء كانت عذراء أو عَزَبة (أى أرملة أو مطلقة) تعد عبئا على أقرب أقاربها، اللهم إلا إذا كانوا من الأثرياء. مثل هذه المرأة تسعى إلى أن تكون رفيقة حياة مؤقت لرجل من الرجال(*)، لأنها تحصل مقابل ذلك - علاوة على المهر الذى يدفع لها مقدمًا - على المسكن المجانى والمأكل والملبس، وإذا ما استطاع الرجل ذلك فإنه يستأجر لها عبدا أو أمة تكون تحت تصرف هذه الزوجة. يزاد على ذلك أن الأيِّمات الثريات يرغبن، ولمصلحتهن فى أغلب الأحيان، فى عقد مثل هذا الزواج لكى يخلصن أنفسهن من تأثير الأقارب المستغلين. هذا الصنف من النساء يتنازل عن كل المطالب الشرعية[1]، ويدعمن الزوج الذى سيحمى حريتهن، ويصبح بوسعهن الانفصال إذا ما رغبن فى ذلك.

(*) قد يكون ذلك عند بعض الفرق، والشرع فى أغلب المذاهب لا يقر زواج المتعة "المؤقت". (التحرير)

(١) يُعلن عن ذلك شفاهة، والسبب فى ذلك أن عقد الزواج لا ينص فيه على أى شىء يلغى حقا شرعيا من حقوق الطرفين. وعليه فإن أفقر الرجال يتعين عليه من الناحية الشرعية كفالة زوجته التى ترفل فى الثراء، فى حين أنه ليس له أى حق فى مليم واحد من ثروتها.

وبغض النظر عن دوافع المرأة إلى الزواج، وبغض النظر أيضًا عن رغبة أقاربها فى التخلص منها، فإن مثل هؤلاء النساء يحتجن لتحقيق أهدافهن إلى مساعدات المراسيل، ولما كانت غالبية النساء هنا يتزوجن فى حياتهن عشر مرات أو عشرين مرة(*)، فإن الوضع الاجتماعى لمثل هؤلاء النساء يدخلهن فى اتصالات حيوية مع كل صنوف الرجال الذين يتقدمون بين الحين والآخر للعب دور المراسيل.

مسألة تجوال الشحاذات العجائز وكذلك تجوال المجنونات بلا نقاب لا تهم كثيراً، وعلى الجانب الآخر نجد أن الاتصال الحر بين البنين والبنات حتى سن الثامنة أو العاشرة يعد أمرا مهما فى الحياة المكية. والزيجات التى تتأسس على الحب يكون التحضير لها منذ مرحلة لعب الطفولة. وبعد أن يضع النقاب طابعه على جنس الفتاة، تظل الفرصة مهيأة للفتى كى يبتكر الوسيلة التى تمكنه من الإعراب للفتاة عن استمرار ميله ناحيتها، وفيما بعد ينقل الأشخاص الثقاة تدفقات الفتى الشعرية والنثرية إلى الفتاة، كى يعرب عن حبه لها، وإذا لم يكن الرد سلبًا أو رفضًا، فإن الشاب الصغير يسعى لطلب موافقة الوالدين من الجانبين، ثم يحدث الزواج بعد ذلك.

بعد أن اطلعنا على أحوال الحريم، اسمحو لنا أن نلقى نظرة على تعدد الزوجات. فيما يتعلق بتعدد الزوجات فى مكة، نرى أنها شبيهة تقريباً بما هو سائد فى البلاد الإسلامية الأخرى. والأثرياء من الناس وحدهم، وهم قلة قليلة، يستطيعون الاستفادة من الشرع فى أن يكون لهم أربع زوجات فى آن، وبشكل عام يمكن لنا الوقوف فى الدوائر العالية على أولئك الذين لهم أكثر من زوجة واحدة. وإلى جانب مختلف الصعوبات الأخرى التى تواجه تعدد الزوجات عند أفراد الطبقة المتوسطة والطبقات الأدنى من ذلك، نجد أن تكاليف هذا النوع من الترف والأبهة أكبر بكثير من طاقة هؤلاء الأفراد، ومن هنا يصبح الزواج من واحدة هو القاعدة، والذى يترك بصمة

(*) المبالغة واضحة هنا . (التحرير)

كبيرة على الأسرة المسلمة لا يتمثل كثيراً فى التعدد بقدر تمثله فى انسيابية رابطة الزواج نفسها، وبخاصة فى مدينة مثل مدينة مكة المليئة بالأجانب، نجد أن هذه المسألة مهمة تماما. والرجل بلا أى سبب من الأسباب بوسعه تسريح زوجته ، والذى يمنعه من ذلك ويجعله يحتاط له هو سمعة أسرة زوجته، أو التكاليف الباهظة التى سيتكبدها إذا ما أقبل على الزواج من جديد، وعلى عملية الانفصال نفسها، أو بسبب العطف والإشفاق على الزوجة نفسها، ولكن ذلك يكون فى أحيان جد نادرة تماماً. وإذا لم تتوافر هذه الدوافع، فإنه يقبل على عملية الطلاق بمطالب أقل مما يواجهه الاوروبى عندما يقرر قطع أواصر العلاقة بينه وبين زوجته، والأوروبى يرى فى هذه العلاقات كثيرا من التشابه مع الزواج غير القابل للانفصام، فى الوقت الذى يظل فيه الارتباط فى الأفكار بين الزواج أو الحب، وكذلك الخلود، خارج ذهن المسلم.

فى الدوائر المكية الراقية، نجد فى بعض الأحيان أن الوالدين يزوجان فتى وفتاة فى سن مبكرة جدا، والسبب فى ذلك هو أن مصالح هاتين الأسرتين هى التى تفرض مثل هذا الارتباط وقد يكون ميل الزوج إلى الزوجة فى مثل هذه الحالة، من قبيل المصادفة البحتة. ومع ذلك، وعلى حد فهمنا، فإن الزيجات التى من هذا القبيل هى الأكثر دواماً. ومن الشائع أيضاً أن الزوج يمكن أن يكسب لنفسه أيضاً موضوعات أخرى تحظى بحبه واهتمامه، وفى مثل هذه الحال تظل الزوجة الأكبر سنا بمثابة "العمة" أو بنت العم، أو بالأحرى الزوجة الحقيقية. هذه العمة يمكن أن يقع عليها يمين الطلاق فى حال سوء السلوك الفاحش، أو بناء على طلبها هى. هذه الأنواع من الزيجات التى تسود بين علية القوم، يليها من حيث الدوام والاستمرار ذلك الزواج الذى يقع بين الفقراء من الناس، هذا الزواج يدوم نظراً لأن الانفصال أو الطلاق سوف يزيد أحوال هذين الشخصين سوءا، وفيما بين هذا وذاك، أى فيما بين الزواج بين علية القوم والزواج بين الفقراء المدقعين، تقع بقية أحوال الزواج، أو بالأحرى الغالبية

العظمى فيها التى يمكن أن نقول عنها : إن الرجال، حتى فى حال عدم التعدد، يتزوجون مرات عدة الواحدة بعد الأخرى، فى حين نجد بعض الحالات النادرة جدا التى تتزوج المرأة فيها أكثر من رجل طوال حياتها.

المرأة لديها بعض من الوسائل الشرعية، وكثير من الوسائل غير الشرعية، التى تستطيع بها الحصول على الطلاق والانفصال. والمرأة تستطيع أمام القاضى أن تطالب بحريتها من منطلق سوء معاملة زوجها لها، أو عجز الزوج عن توفير المنزل المطلوب لها، أو عجزه عن توفير الملبس أو وسائل الإعاشة، أو عجزه الجنسى أو الجنون ، يزاد على ذلك أن المرأة الثرية يمكن لها أن تشترى حريتها من الزوج الأفقر منها. وهناك طريقة أسهل من هذا بكثير أمام مثل هذه الزوجة، وهى أن تعقد الأمور فى وجه زوجها إلى الحد الذى يضطره، بعد فشل كل المحاولات لتأكيد سلطته، إلى فك ذلك الارتباط.

لاحظنا بالفعل أن الاتفاقات الشفاهية، التى تعد عرفا ملزما، هى التى تسرى فى معظم الأحيان فى مسألة انفصال الزوج عن الزوجة أو الزوجة عن الزوج، وما يترتب على ذلك من التزامات كل منهما قبل الآخر. وعليه تتنازل الزوجة عن حقها فى الإعالة، وعن حقها فى أن يكون لها دور مستقل بها فى المنزل، وتوافق على إقامة أقارب الزوج الإناث معها، أو قد تقر باستعدادها للقيام بالإشراف على الشئون المنزلية (التى ليست مسئولة عنها بأى حال من الأحوال). وعلى الرغم من أن هذه الاشتراطات ليس لها سند قانونى، فإن الجمهور يُدين ويستهجن أولئك الذين يحيدون عنها ولا ينفذونها، ويروح الجمهور بعد ذلك يساند الطرف الآخر فى القصاص من الطرف الأول الذى رفض تنفيذ تلك الاشتراطات. يضاف إلى ذلك أن النساء يعرفن النصوص الشرعية الخاصة بالزواج، وذلك فيما يتصل منها بمصلحتهن الشخصية، ويثرن مئات الشكاوى التى يحصلن فيها على الدعم والمساندة طبقًا للتقاليد الموروثة. زوجها رجل ثرى، وليس هناك ما يمنع من ذهابها معه لأداء فريضة الحج ، فما الذى يمنعه من أن يأذن لها

بالحج ويعطيها المال المطلوب لذلك؟ وبالتالى سوف ينظر الناس إليه مستهجنين إذا لم يسمح لها كل عام بزيارة قبر الشيخ محمود، والذهاب إلى المدينة [المنورة] فى بعض الأحيان، وأن تقبل بين الحين والآخر الدعوات التى تقدم لها من صديقاتها لحضور جلسات السمر، على أن تقوم هى نفسها بتقديم الدعوات لهن لمثل هذه الجلسات. وعلى الرغم من أن الشريعة تعد ذلك كله نوعا من الترف والبذخ، فإن ابنة مكة تطالب بذلك، باعتباره حقا من حقوقها، وإذا ما غضب الزوج وراح يسىء معاملتها بسبب هذا النشاط، فإنها هنا تواجهه متهكمة منه بترديد آية القرآن التى تقول: "فعاملوهن بمعروف أو سرحوهن بإحسان"(*) (٢ :٢٢٩)، التى هى وسورة الفاتحة الشىء الوحيد الذى تعرفه المرأة المكية من القرآن الكريم.

من بين الحقوق التقليدية المعترف بها للمرأة المكية والتى تتعارض مع الشرع، ذلك الحق الذى مفاده أن هذه المرأة يتعين عليها البقاء فى مكة، على الرغم من قيام زوجها برحلات طويلة إلى البلدان الأخرى. هذا ينطبق على المرأة المكية المولد بصفة خاصة لأنها يمكن أن تشكو لرب السماء إذا ما اقتضى الأمر إجبارها على مرافقة زوجها، أو الحذو حذوه. هذا الزعم يقوم فى بعض الأحيان على قداسة الوادى غير ذى الزرع، وأحيانا أخرى على الثناء أو المدح الذى يكيله الموروث (الحديث الشريف) إلى سكان هذا الوادى . أولو العلم ينظرون إلى ذلك بوصفه عادة حمقاء، والسبب الرئيسى لذلك هو أن النساء المكيات لهن فى محل ميلادهن وضع مستقل غريب، لا يمكن أن يكون لهن فى أى مكان آخر.

كان لابد من إدراج النساء ضمن نقابات استغلال الحجاج التى سبق أن عددناها فى القسم الأول، هؤلاء النسوة لا يخدمن أزواجهن بإخلاص فحسب فى تجارتهم

(*) النص القرآنى للآية ٢٢٩ من سورة البقرة يقول: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، وبعدها الآية ٢٣١ : ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾. (المراجع)

وأعمالهم، وإنما يعملن أيضًا لحسابهن الخاص. والحجاج الذين يقضون فى الحج أشهر معلومات، وأولئك الذين يسبقون ويستقرون فى البلد سنوات قلائل، جرت العادة أن يكونوا راغبين فى الزواج ، ونظرًا لأن هذه النوعية من الحجاج يأتون إلى المدينة المقدسة ومعهم حافظات مليئة، وقد رأينا بالفعل كيف أن المرأة المكية بوسعها التحلل من قيود الزواج التى لا ترضى عنها، فلعل هذا يفسر لنا الآن فرح هؤلاء النسوة بالتغيير المستمر للزواج. هذا يعنى أن بضاعة هؤلاء النسوة فى سوق الحج تتمثل فى حُسْنهن، وهذا يعنى أنه كلما كانت محاسن المرأة ومفاتنها موضوعا لعقود الزواج الجديدة، كان هناك تحسن أيضًا فى مجال المال والأعمال، مما يعنى أيضًا أن العلاقة بين العرض والطلب فى المجتمع المكى تتأثر تأثرًا كبيرًا بوصول الغرباء إلى مكة. هذا يفيد أيضًا أن الرجل المكى لا يمكن أن يسمح لنفسه بأن تضلله بنات مكة مثلما يفعلن مع الغرباء، لكن الطلب من جانب الغرباء هو الذى يسهل للمرأة المكية الإصرار على بعض المزايا الخاصة بها.

الأجنبى الذى يؤثر أن يصبح مواطنا مكيا يرى نفسه محاصرا من جميع الجوانب بعروض الزواج. وأيا كانت نزَوِيَّة ذوق مثل هذا الأجنبى، فإن المراسيل على استعداد دائم لتلبية ما يطلبه هذا الأجنبى. وإذا ما أصر ذلك الأجنبى على دفع صداق صغير، فسوف يعثر على أرملة، أو امرأة متواضعة لا تعوِّل كثيرا على الصداق، وإذا ما كان ذلك الأجنبى رافضا للكلفة الكبيرة فبوسعه الاكتفاء بوليمة صغيرة لا تكلفة سوى مبلغ صغير من المال. واقع الأمر أن الأجنبى بوسعه العثور على نساء مستعدات، بعد الانتهاء من عقد القرآن، للانتقال إلى بيت الزوج بلا أية مراسيم أو احتفالات. النساء الماكرات المخادعات يحسبن أن خبرتهن ومهارتهن فى الاتصال بأنواع مختلفة من الرجال سوف تمكنهن خلال أيام قلائل من تضليل الزوج وخداعه. هذا يعنى أن النساء يسعين إلى اكتشاف نقاط ضعف الرجال من ناحية والاستفادة من خبرتهن من الناحية الأخرى، وإذا ما سار كل شىء على ما يرام فإن الرجل سينفق طوال نصف

عام على نزوات الزوجة أو على كسوتها أو على إعالة أقاربها الفقراء، من المال الذى كان مقدرا له أن يعيش عليه عامين من الزمان. وعندما تفرغ حافظة النقود تبدأ المرأة الكشف عن الجانب الكريه فى طبيعتها، إلى أن يصل بالزوج ، فى نهاية المطاف وبلا وعى منه، إلى أن يرمى عليها يمين الطلاق تحقيقا لرغبتها. وهنا يتعين على الزوج أن يعطيها نفقة تكفى ثلاثة أشهر، وبذلك يصبح أمامها متسع من الوقت للبحث عن وضع زواجى جديد عن طريق صديقاتها، هذا إذا لم تفضل مثل هذه الزوجة فترة من الزمن أن تكون متفرغة تماما لمتعتها الشخصية. صحيح أن مثل هذه الزوجة لا تكون حظيظة فى كل الأحيان، السبب فى ذلك أن مسألة المتاجرة بالزواج هذه محفوفة بإحباطات كثيرة وإفلاسات أيضًا. ونستطيع أن نتبين مما سبق الأهداف التى ترمى إليها هذه النوعية من النساء.

هذه الشروط تؤدى إلى إفساد نساء مكة مثلما قلنا من قبل، هذا يعنى أنه باستثناء الزواج بين الطبقات العالية والطبقات الفقيرة وبعض حالات الزواج السعيد النادرة نجد، وذلك من وجهة نظرنا الشخصية، أن الزوج والزوجة تربطهما فى مكة علاقة سرارية سائبة وغير محكمة. الشريعة الإسلامية تصف عقد الزواج على النحو الآتى : الإنسان يكون من حقه الاتصال الجنسى بالمرأة إلى أجل غير مسمى نظير الوفاء لها بواجبات مادية محدودة (الصداق والمأكل والملبس والمسكن وما إلى ذلك). ولا شك فى أن ذلك تترتب عليه فكرة سامية ونبيلة عن العلاقة الزواجية. مع ذلك فإن العلاقة الزواجية فى مكة تتفق تماما مع ذلك التعريف التشريعى الجاف[٢]، ويندر أن ترتفع هذه العلاقة إلى ما هو أسمى من ذلك. والرجل يناضل فى صباه من أجل زيادة تلك المتع بصورة مستمرة، وفى الوقت الذى نجد فيه أن هذه البداية الباكرة تزيد على ما يبدو من قوة هذه المتعة، نجد أن الرجل يواصل سعيه، وبرغبة متزايدة إلى البحث

(٢) هذه الحقيقة لا تتعارض مثلما سبق أن أوضحنا، مع إمكانية تعديل نصوص العقد طبقًا للأعراف المتفق عليها على اختلاف أنواعها.

عن المقويات، أو بالأحرى العقاقير المحفزة للجنس[٣]، وبذلك يفنى الرجل صحته وبنيته. وإذا ما اضطرته الظروف إلى فعل ما هو عكس ذلك فإنه يطلب من زوجته عملا قليلا قدر المستطاع، كما يجعلها تمثله فى أثناء غيابه فى الإشراف على عمل العبيد والإماء. والزوجة فى ذات الوقت لا تغيب عن عينيها ولو للحظة واحدة مسألة الأساس المالى لعقد الزواج، بل إنها لا تخجل من ابتزاز زوجها "كما لو كانت واحدة من نساء الهوى" والحصول منه على هدايا فى أثناء عملية الجماع.

***

مصالح الزوجين ليست هى المصالح نفسها من حيث الشرع ومن حيث الأخلاق، هذا يعنى أن الطرفين لا يثقان بعضهما ببعض فى هذا الصدد. كل مقتنيات البيت ملك الزوجة، فى الزواج الأول يُشترى القسم الأكبر من هذه المقتنيات من الصداق المدفوع (وهذا الصداق من حقها هى)، والزوجة تحضر معها إلى منزل الزوج الجديد بعض الأشياء التى أصلحت وأشياء أخرى من مقتنيات الزيجة الأولى، وبالتالى لا يُعول كثيرا على مسألة الصداق. المنزل ملك للزوج، والزوجة تخطئ خطأ كبيرًا عندما تصر على المطالبة بمنزل أفضل على حساب الزوج.

فى الصباح يذهب المكى بنفسه إلى السوق ويشترى المأكولات المطلوبة لليوم، بالإضافة إلى بعض أشياء أخرى يُحتفظ بها لأكثر من يوم، مثل الأرز والزبد إلخ. وإذا كان لدى المكى خدم بدرجة كافية فإنه ينظم ويوزع كل تفصيلة من تفاصيل إعداد الطعام . كثير من الرجال ممن ينتمون إلى الطبقة العالية يتركون كثيرا من الأمور للأمة أو الجارية التى تعمل فى المنزل؛ إذ تكون هى المسئولة عن المطبخ، أما الرجال من أصحاب المكانة المتواضعة فهم يطهون طعامهم بأنفسهم نظرا لأنهم لا يثقون تمامًا

(٣) استعمال بعض هذه العقاقير المحفزة للجنس مباحة من بعض السلطات الشرعية.

بزوجاتهم . والرجل غير الماهر الذى ينتمى إلى الطبقة الدنيا أو المتوسطة ولا يعرف كيف يطهو الطعام ، ترى هل يسلم بأن زوجته يمكن أن تفعل ذلك بصورة دائمة ؟ يندر أن تنعم ربة المنزل بالطعام، وهى تشتكى دائمًا دون أن تأخذ فى اعتبارها مشاعر الزوج وأحاسيسه، وبخاصة أن الزوج يتناول طعامه فى كثير من الأحيان خارج المنزل، أو أنه حتى عندما يتناول الطعام فى المنزل قد يكون ذلك بصحبة أصدقائه وليس بصحبة زوجته.

يضاف إلى ذلك أن متطلبات دولاب الملابس تكون محل نزاع كبير بين الزوجة والزوج. معروف أن الأزياء تتغير فى مكة مثلما تتغير أيضًا فى البلدان الأخرى، وإذا ما عرفنا أن النساء لا يقتنعن إلا إذا امتلكن عينات عدة من أفخر الملابس، حتى لا يظهرن أمام صديقاتهن بلباسهن السابق نفسه، وإذا ما عرفنا أيضًا أن صفائح الذهب والفضة، والخيوط الفضية، والدانتيلا الذهبية لابد أن تظهر على أطراف البنطال وعلى الجاكت (السترة)، وعلى غطاء الرأس (الذى يقولون له "المدورة") باهظة التكاليف، نجد أن موضوع الملبس واللباس يتحول إلى مصدر من المصادر التى تجلب على الزوج الرعب والخوف، وإذا ما احتج الزوج على إسراف زوجته فإنها سرعان ما تصفه بالبخل، أو تظن أنه يغدق أفضاله على امرأة أخرى ربما يكون قد تزوجها دون إبلاغها بذلك. هذا يعنى أن غيرة الزوجة من تلك المرأة الأخرى تنصرف دومًا إلى الهدايا والمزايا المادية الأخرى التى لا تحصل عليها هى نفسها، ولعل هذا هو السبب الرئيسى وراء الاحتفاظ بذلك الزواج الثانى، فى إطار من السرية إلى أطول فترة ممكنة.

ولا يمكن فى مكة حدوث شجار بين زوجتين نظراً لأنهما يستحيل أن يعيشا سويا فى بيت واحد، والشرع يعطى كل زوجة الحق فى أن يكون لها مسكنها الخاص بها، والنساء يستشهدن بذلك الحق عندما يشعرن بالملل من العلاقات النسائية لأزواجهن، تلك العلاقات التى يتحملنها فى بداية الأمر. هذا يعنى أن الزوج يستحيل أن يخطر بباله أن يقترح على زوجته العيش مع زوجة أخرى، وهنا يتعين علينا تصحيح مفهوم أوروبى خاطئ عن موضوع "الحريم".

وإذا ما أراد الزوج من ناحيتـه أن يحجب عن زوجته أية معلومات عن موارده، فهى من ناحيتها تكون متحفظة للغاية فى مثل هذه المسألة، وهى تخشى ازدياد جشعه إذا علم أن لديها شيئا من المال، وأن هذا المال الذى يخصها لا يعنيه ولا يخصه، نظراً لأن عقد الزواج يعطى الزوجة حق تملك النقود والمال. ويحدث فى كثير من الأحيان أن تلغى الزوجات - اللاتى شهدن أياما حلوة مع أزواجهن - حقوقهن ويتنازلن عنها ويتقاسمن معهم مدخراتهن عندما يصيبهم الفقر، وبذلك يستطيع الزوج من هذا الطريق أن يجنى ثمار طرفى العقد، وذلك بالتظاهر بأنه ليس عنده أى شىء من الموارد، الأمر الذى يجعله يحصل على حقوقه الزوجية وعلى الطعام أيضًا. من هنا نجد المكيات يدفن نقودهن تحت الأرض أو يعهدن بها إلى أصدقاء أمناء بدلاً من إحضارها إلى بيت الزوجية.

الزوج المكى العادى يضع شروطًا قاسية وقواعد أقسى للزيارات التى تفد على الزوجة من قريباتها ومن صديقاتها، هؤلاء الصديقات يتصرفن تصرفا غير لائق فى كل مرة يوافق فيها الزوج على الزيارة، ويتحول الهدف من زيارتهن إلى الاستغلال بشكل أو بآخر، وعليه نجد أن السواد الأعظم من الأزواج والزوجات المكيين لا يتقاسمون سويا الأفراح أو الأتراح أو اليسر أو العسر، خارج غرفة النوم.

الفتاة الصغيرة تُنشّأ بين النساء، والدرس الأخلاقى الذى تتعلمه من الكلام الذى تسمعه منذ شبابها ممن هن أكبر منها يتمثل فيما يأتى : رأسمالنا هو متعه الزواج ، ومن تهتم بهذا الأمر يكون ذلك الاهتمام فى صالحها ومصلحتها. هن ناضجات قبل الأوان، ويستعملن مواهبهن الذهنية الكثيرة فى سن الأسلحة التى يتعين عليهن استخدامها فى صراعهن مع الرجال من أجل الحياة. يزاد على ذلك أن تلك القلة القليلة من النساء اللاتى أضفى تعليمهن على حياتهن اتجاها مختلفا، وأيضًا العداء السافر الذى تكشف عنه النساء الأخريات تجاه أولئك المتعلمات اللاتى لا يرتبطن بهن فى المال أو الأعمال، يعدَّان دليلين على كنوز من الهبات الجميلة والنبيلة التى تُبدَّد.

النساء هنا مازلن يعتقدن - بل ومقتنعات تماما - أن تلك الاستثناءات إنما هى من قبيل المعجزات، وأن النساء (حسبما هو وارد فى التراث وفى الكتب الشرعية كلها)(*) فيما عدا مفاتنهن الجسدية، لا ينطوين إلا على صفات شيطانية، وأن مسألة إنفاق المال والجهد فى تعليمهن سيكون شبيها بوضع حبات اللؤلؤ أمام البجع.

ليس هناك ما يدعو إلى العجب، إذا ما وضعت المرأة المتزوجة فى ظل هذه الظروف - وبخاصة عندما يهملها زوجها أو يعاملها كما لو كانت قطعة من الأثاث - رأسمالها مقابل ربح خارج نطاق عقد الزواج، وبهذه الطريقة تتمكن مثل هذه الزوجة من تحقيق مكاسب كبيرة . هذا يعنى أن ما لا تستطيع الحصول عليه من زوجها خلال عام كامل، يعطيها العاشق إياه خلال شهر واحد، ويشكرها على كل معروف فعلته له. يضاف إلى ذلك أن الثمرة المحرمة تكون لذيذة الطعم، كما أن وعى الخطيئة الخطيرة وإدراكها يكون بعيداً تماماً عن المرأة نظراً لأنها لم تتأثر بالمبادئ الأخلاقية أو بمبادئ الشريعة السليمة. واقع الأمر أنها تعرف أن ذلك حرام، لكنى "أدعو الله أن يغفر لى"! هناك أشياء كثيرة حرام لا يزال يفعلها كثير من الرجال المحتشمين! فأنا مجرد امرأة. يكفى هذا.

مسألة الأخلاق العملية فى المجتمع المكى، فيما يتصل بخروقات عقد الزواج من قبل النساء المفرطات فى التسامح، شأنها شأن مسألة النساء الأوروبيات اللاتى يتسامحن مع الرجال الفجرة، والفارق أن خطايا الرجال فى مكة يُحكم عليها حكما قاسيا.

من هنا نجد الرجل سعيداً باستمرارية تغيير الزوجة إلى شىء أفضل، فى حين نجد الزوجة تعرف كيف تجعل نفسها مرتاحة فى معظم المواقف. ويجدر بنا هنا أن

(*) فى هذا التعميم مبالغة واضحة . (التحرير)



طبیب مکی

نقول علانية إن هذا الأمـر ينطوى على كثير من الحالات والأمثلة الناجحة، ومع ذلك تظل الصفة المميزة للزواج المكى المعتاد، متمثلة فى استقلالية طرفى الزواج كل على شاكلته.

يستطيع الرجل الذى لديه قدر من الفطنة الحصول من زوجته على كثير عن الخبرات الحياتية وعن طبائع الرجال، والسبب فى ذلك أن كثيراً من بنات مكة لديهن من هذه المكتسبات ما هو أكبر كثيراً مما لدى أبناء مكة أنفسهم، يضاف إلى ذلك أن بنات مكة على استعداد لنقل هذه المكتسبات إلى الآخرين، ولذلك نجد أن بنات مكة يلعبن دور طبيبات الأسرة اللاتى يُلجأ إليهن فى بداية الأمر فى الحالات المرضية كلها. وقد جرت العادة أن يكون لبنات مكة عقاقيرهن المنزلية القليلة، كما أن لديهن أيضًا معرفة بالخواص العلاجية التى لبعض الأعشاب وبعض التوابل التى يمكن الحصول عليها من أى عطار من العطارين. الشفاء والسحر والشعوذة وطرد الأرواح عن طريق العزائم، كلها أمور يتصل بعضها ببعض، شأنها فى ذلك شأن الأمراض، والأرواح الشريرة، وعين الحسود، إلخ. النساء لديهن معرفة بالأمراض الأكثر شيوعا والعلاج المتوقع لمثل هذه الأمراض، والنساء يجهزن للأمراض العامة (الشائعة) علاجًا ثلاثى العناصر (يطلقون عليه اسم المثَلَّث) مكون من جذور بعض النباتات (يطلقون عليه اسم "البنفسج") ، والخميرة وعنصر ثالث لا أعرفه. وهم يعالجون كل أنواع الحمى بمخلوط من الكسبرة (التى يطلقون عليها اسم عنَّاب البخارى) ، والسكر المصرى بنى اللون (الذى يطلقون عليه اسم المروَّق) الذى يقولون عنه إنه ينظم الدورة الدموية. وهن يستخدمن لعلاج البرد وصفة من النعناع أو زهور الضرم أو زهور الدوش ، ويعالجن الأعين المتورمة بدعكها بمحلول من مادة غليظة القوام لونها بنى داكن (يقولون لها "الصَّبِر" ويصح فيه أيضًا "الصَّبر") مخلوط بماء الليمون، كما يستخدمن أيضًا محلولا مشابها من "الشب النوبى" مضافًا إليه بعض الملح والرمل،

يتعاطاه المريض عن طريق الشرب. وصفات النساء هى وصفات الأطباء، باستثناء أن الأطباء لديهم خيار كبير من المكونات، بالإضافة إلى بعض الشعوذة والدجل، والتوصية باتباع نظام فى تناول الطعام، أو إن شئت فقل حمية .

***

الطب لا يزال يُعلَّم دوما مثل أية مهنة من المهن الأخرى، هذا يعنى أن الابن أو ابن الأخ، أو حتى الصبى الذى لا تربطه أية قرابة بالطبيب، يستطيع ممارسة المهنة التى كان الأب أو العم أو الأستاذ يمارسها. أما الحلاقون الذين يمارسون التشليخ لإسالة الدم، أو الحجامة، وما إلى ذلك من العمليات الصغيرة، فيأخذون على عاتقهم كثيراً من الممارسات الطبية، وهذا هو ما يطلق عليه اسم التطفل، وذلك على الرغم من أن الناس يرون أن هذه الدراسة لا تتطلب ممن يقبل عليها جهداً كبيراً، والسبب فى ذلك أنى أعرف طبيبًا عالى القدر، تعرفت عليه فى مكة، كان على معرفة بصناعة الساعات، وإصلاح البنادق، وتقطير الزيوت العطرية، وتركيب صفائح الذهب والفضة على الصناديق، وصهر خام الذهب والفضة. وهو بكل ذلك يتفوق على معظم منافسيه.

الطبيب المكى شأنه شأن زملائه يجس النبض، ويناظر الألسنة والأعين، ويستمع إلى صوت الأيدى (طبقًا للمعتقد الشعبى)، ويكشف عن مهارته بهذه الطريقة، وهو لا يحاول اكتشاف أحاسيس مرضاه بطرح الأسئلة، ولكنه يقول واثقًا "أنت مصاب فى الجزء الفلانى من جسدك". الناس يعرفون الطبيب الحقيقى من هذه الأحكام. المرضى أصحاب العقول الساذجة لا يلاحظون أنهم توصلوا إلى ذلك الاكتشاف بحوارهم مع المرضى الآخرين الذين ينتظرون حلول الدور عليهم، صديقنا هذا شأنه شأن زملائه يقول "أنت عندك نوازل" والنوازل هذه مصطلح عام يستعمله الطبيب لكل أنواع الأمراض الناتجة عن البرد، أو قد يقول "أرياح"، وهو مصطلح يشمل كل أنواع

الأمراض المتصلة بالدم، والتى تكشف عن نفسها عن طريق الطفح والاحتقان والأورام إلخ. أو قد يقول "عندك إمساك"، أو قد يقول "عندك ضعف، بمعنى سل رئوى"، أو قد يستخدم كلمات أقل ذيوعا، تُستخدم فى الوقت المناسب عندما يفشل الطبيب فى فهم الحالة فهمًا جيداً. وهنا قد يأمر الطبيب بالتزام الحمية، وقد يأمر بتحاشى تناول الطعام الحار، أو الطعام "البارد" أو "الرطب"، أو يأمر بتحاشى تناول الخبز المخمر أو حتى الخبز غير المخمر، وقد يصف فى نهاية المطاف شربة، أو يصف دواء مغليا يمكن الحصول على العناصر المطلوبة له من العطارين، أو يقوم هو نفسه بإعطاء مريض ثرى دواء من عيادته أو من صنعه هو، ويضفى عليه نوعًا من السرية، ويحدد له ثمنًا كبيراً.

وقد يقوم الطبيب بالكى بين الحين والآخر، والمعروف أن الكى له آثار شفائية فى حالات الاحتقان (وبخاصة الصدغين) والأورام والجروح الملوثة. هذا الكى، فى ظل غياب المعرفة التشريحية، يستخدم فى علاج الأطراف المكسورة عند استعدالها . هذا كله رغم الموروث الدينى الذى يسجل مرارا استياء النبى ﷺ من عملية الكى. هذا الحكيم نفسه يمكن أن يستعمل العلق (الديدان الماصة للدم) لكنه يترك عملية استنزاف الدم الأخرى للحلاقين، رغم أن استخدام الحقنة الشرجية لا يبدو له أمرا محرجًا على الإطلاق.

صديقنا هذا له بالإضافة إلى هذه الأنشطة، بعض المناطق الخاصة التى أرسى فيها أصول شهرته. فهو يعالج العيون أيضًا، بمعنى أنه يعالج المياه البيضاء، ويعالج جراحة الأورام التى تصيب جفون العينين، وغالبا ما تسفر تلك الأورام عن العمى إذا لم تُعالج على الفور وفى الوقت المناسب. والناس يروون حكايات عجيبة عن تلك العلاجات التى يقوم بها هذا الطبيب(٤)، وكيف أنه استطاع عن طريق الحقنة الشرجية،

(٤) هناك آلة كهربية صغيرة يستعملها فى كل أنواع الأمراض، وبخاصة فى تقوية بعض الوظائف، هذه الآلة أسهمت كثيرا فى ذيوع صيت هذا الرجل.

ثم بعد ذلك عن طريق حمية مبنية على الحليب وحده على مدى أربعين يوماً، إعادة القوة والحيوية لمرضاه، وكيف أن هذا الطبيب نفسه استطاع شفاء كل أوجاع المعدة بذلك الشراب الذى يقوم هو نفسه بتقطيره من النانيخة . ترى ماذا يعنى عدم معرفة هذا الرجل الشهير لوظائف الجسم عند المكيين ؟ أو ماذا تعنى لهم تأثيرات الأدوية التى يعطيها هذا الطبيب للناس ؟ إن مجرد نتيجة محظوظة واحدة من بين مائة محاولة تكفى لعدم زعزعة ثقتهم فى مثل هذا الرجل ، أما الحالات التسعة والتسعون المتبقية فهم يحيلونها إلى الله .

يشيع هنا أن الأطباء العسكريين الأتراك أكثر دقة ويمكن الاعتماد عليهم أكثر من الأطباء الآخرين، وهنا تعترض مكة كلها على أن هؤلاء الأطباء الأتراك ليسوا متدينين، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع المكيين، وأيا كان تعليم هؤلاء الأطباء الأتراك فهم لا يعرفون شيئا عن متطلبات المناخ المحلى، وإلا فلماذا يعترضون على استنزاف الدم؟ أو على الحجامة؟ بل إنهم يمنعون جنودهم من اللجوء إلى هذه العمليات الصحية. إنهم حقيقة من الفرنجة، ربنا يمسخهم !

وعلى الرغم من أن طبيبنا المحلى من مصلحته الشخصية توليد الكراهية ضد الأطباء الأتراك المحدثين، فإنه لا يمانع فى تعلم بعض الأشياء منهم. والواقع أن الفارق بين هذا الطبيب وبينهم يتمثل فى الدرجة وليس فى المبدأ أو النظرية. والناس عندما يحكون لهذا الطبيب عن قوة الجن والأرواح الشريرة الأخرى، وعندما يقدمون له أناسا مرضى يعانون من الحسد أو من الزار، فإنه لا ينكر ذلك على الملأ، ولكنه يصف لهم طرقًا لتصحيح الاضطرابات الطبيعية العضوية. من هنا نجد أن هذا الطبيب يقف ممثلا الموروث فى مواجهة المعرفة الإنسانية الجريئة، لكنه فى الدائرة التى يعيش فيها يمثل رجلا على درجة عالية من الفهم والإلمام بالعلوم الطبيعية، من هنا نجد أن السواد الأعظم من الناس لا يرغبون فى زيارة هذا الطبيب على الفور عقب فشل الطب النسائى وهم قد نشأوا منذ طفولتهم على التداوى بواسطة النساء، يضاف إلى ذلك

أن النساء يعززن الخرافات ويتسلمنها بعضهن من بعضٍ بقناعة أعمق بكثير من تسليمهن بالعلم.

***

إنه الإسلام، ذلك الدين الرسمى، الذى يربط بين هذه العناصر المتضاربة، فى المجتمع المكى المتقلب بصورة دائمة. على الجانب الآخر، نجد أن هذا المجتمع المكى هو الذى يكتسح تلك التحاملات والخرافات المستقاة من كل أنحاء الدنيا، مكونا منها كلا فوضويا واحداً. والقسم الأكبر من هذه الفوضى كلها يقع على عاتق النساء، والسبب فى ذلك أن خيالهن الخصب هو الذى يشدهن إلى هذا الكل الفوضوى، كما أن هذا الميل يندر أن يقابله تعرف دقيق على الموروث المقدس. يزاد على ذلك، أن قدراً كبيراً من تلك الخرافات أصبح قاسمًا مشتركًا فى العالم الإسلامى عن طريق التمثل والاستيعاب.

المكيون، ينظرون إلى الغرب المسلم (تونس والجزائر والمغرب) باعتباره مصدرا لكبريات الخرافات التى انتشرت على المستوى المحلى، وبخاصة أن مسألة جر الأمراض والضرر والسوء بكل أنواعه على الأعداء تعد أمرا متأصلا فى شمال غرب إفريقيا. سكان جزر أرخبيل الهند الشرقية يشتهرون أيضًا بأدوات السحر، والأدوات الخاصة بالعزيمة، أو بالأحرى الأدوات المضادة للأرواح الشريرة. وسبب ذيوع هذه المهارة فى جاوة يكمن فى أن أرض جاوة تعج بجحافل هذه المخلوقات الخرافية التى تدمر الإنسان؛ الأمر الذى حدا بالسكان إلى انتهاز فرصة تعلم ألاعيب الجن الشريرة، كما اضطرهم ذلك أيضًا إلى تسليح أنفسهم لمواجهة تلك الأرواح الشريرة. زد على ذلك أن الإماء الإفريقيات، هن والهنديات، ينظر المكيون المتعلمون إليهن بوصفهن مسئولات بصفة خاصة عن أن المدينة المقدسة (مكة) أصبحت مرتعا للخرافات . ومع ذلك، فقد أتيحت لنا بالفعل فرصة الإشارة إلى كثير من بقايا الوثنية

القديمة، وقد شاهدنا قدراً كبير من تلك الخرافات فى مسألة تأليه الأولياء والقديسين وفى عبادة الأحجار المقنعة.

عادة رمى الحجارة احتفظت بنفسها خارج وادى منى، فى منطقة أحل الإسلام الرمى فيها على ثلاثة أكوام من الحجارة . ولا يزال قبر أبى لهب يرجم إلى يومنا هذا ، وعلى الطريق الواصل بين جدة ومكة، وبخاصة فى المنطقة ما بين جدة وبحرة، هناك كومتان من الحجارة يرميهما المار عليهما من أهل المنطقة بحجر، وبخاصة الطبقة الدنيا. تقول الأسطورة إن طباخًا من طباخى الحلويات والفطائر فى مكة أكد أن بوسعه أن يحمل طبقا من الفطائر المخبوزة حديثا (الزلابية) ويصل به حارا إلى جدة، عن طريق الجرى السريع، ولكنه نسى أن يقدم "المشيئة الإلهية". وعليه، عندما وصل هذا الرجل إلى المكان الذى سبقت الإشارة إليه سقط ميتا عقابا له على عدم تقديم المشيئة. الكومة الثانية تفسرها أسطورة أخرى عن حلوانى آخر كان يجرى من جدة فى اتجاه مكة وهو يحمل طبقًا من الكنافة . ومن هنا أصبحت الكومتان تسميان بالزلبانى والكنفانى .

المتعلمون من أهل مكة يعترفون، بلا أى تحفظ ، أنه لم تُستورد الخرافات كلها عن طريق غير العرب فى مكة. هؤلاء المتعلمون يعرفون أن الحضرمى(٥)، الذى نشأ فى ظل ظروف متشددة، لديه تأليه من نوع معين للمكان الذى تخبأ فيه أمواله بعيدا عن الأعين. المكيون الذين ليست لديهم خزائن حديدية يحفظون أموالهم فى مكة، فى حفر يحفرونها فى الأرض، أو فى حفرة خاصة يجهزونها خصيصا لهذا الغرض فى جدار من الجدران. هذا الحضرمى المقتصد يحسب أنه يتعين عليه، من باب الحفاظ على حظه السعيد، أن يظل غير عالم بمقدار العملات المعدنية التى جمعها، ويعتقد أيضاً أنه

(٥) حضرموت، بلد فى جنوب الجزيرة العربية، على المحيط الهندى، ورد ذكرها فى الإنجيل.

يتعين عليه عدم أخذ أى شيء من المبلغ المقتصد إلى أن يأخذ المبلغ كله ليوظفه فى عمل من أعمال المال والتجارة. وفى حالات العسر الشديد يؤثر الحضرمى الاقتراض من أصدقائه على أن يمد يده إلى المكان المخبأة فيه أمواله. على كل حال، إذا ما كانت هناك ضرورة ملحة، فإنه يقترب من الجدار ومعه شيء من البخور المشتعل وشيء من ماء الورد، ويأخذ المبلغ المطلوب وعلى وجهه تعبير النشال، وهو يقول : "يا رب لا تجعله فى غير موضعه ، إنها مجرد أيام قلائل ليس إلا، ... إلخ". وفى الوقت المحدد يعيد ذلك الحضرمى المبلغ الذى اقترضته وهو يقول : "حق القهوة".

غضب أحد العلماء الهنود من الطبيب سالف الذكر لرفضه النظرية التى تقول إن الجن هو الذى كان يرمى فرقة الشريف العظيم بالحجارة كل مساء. ولا غرو أن الجماهير الأمية غير المتعلمة فى كل حادث من الأحداث غير الشائعة، وبخاصة الأمراض، كانوا ينسبونها إلى عالم الأرواح. والتفسير الذى يلجأ إليه الجهلة فى مثل هذه الحالات هو السحر الذى يقر الإسلام حقيقته، رغم تحريمه ممارسة السحر. والرجل التقى المتعلم يزور شيوخًا صوفيين أو حتى عندما يزور ورثتهم، فإن هؤلاء الشيوخ المتصوفين وورثتهم يدخلون فى عداد الرجال الذين يمتلكون خلطات معتمدة وتمائم وتعاويذ، أو قد تكون لديهم موضوعات شفائية أخرى انتقلت إليهم من أجدادهم.

والمكى عندما يكشف عن قميصه الداخلى، وهذا غالبًا ما يحدث بسبب شدة الحرارة، يستطيع الرائى أن يتبين من خلال القماش الشفاف، شيئا معلقا بخيط ويتدلى من كتفه نحو الأسفل، على ظهره العارى على شكل مجموعة من اللفائف الصغيرة الملونة (والناس يطلقون هنا على هذه الأشياء اسم عزائم أو أحجبة). وهذه الأحجبة عبارة عن تحويطات سحرية مضادة لكل أنواع الشرور، أعدت من قبل الأولياء والصالحين ووصلت إلى الناس عن طريق الموروث. الأطفال يلبسون أحجبة او عزائم مشابهة أيضا، يعلقها أهلوهم على ملابسهم داخل صناديق فضية صغيرة،

كما يعلقون على الأطفال أيضًا عقدا من العملات المعدنية عندما يتعرون، منعا للحسد والشرور، يضاف إلى ذلك أن الأمهات يرسمن ثلاثة شلوخ على كل خد من خدود أطفالهن وذلك من أجل حمايتهم من الحسد.

والمكى عندما يضع خاتما معدنيا أبيض اللون على بنصره، فإن مثل هذا الخاتم يمكن أن يكون على سبيل العلاج أو الوقاية من عملية استنزاف الدم واسعة الانتشار. وإذا ما تصادف أن مرض الطفل رغم اتخاذ هذه الاحتياطات كلها، وعجزت الأم عن إيجاد العلاج، فإنها تنشد ذلك العلاج عن طريق تخويف قوى الظلام وطردها بتبخير الغرفة بالمستكة أو باستعمال أية مادة معطرة أخرى، ولا يفشلن فى ذات الوقت فى إشراك محمد ﷺ وخديجة ﵂ فى هذا التبخير، وذلك بالتوسل بهما. وإذا لم يُجدِ ذلك كله يكون اللجوء إلى الشيوخ الأتقياء، الذين يكتبون بعد التشخيص بعض الأحرف أو الكلمات على قصاصة من الورق ويأمرونهن بإحراقها، وبعد تجهيز المريض بالصياح الدينى المفاجئ، يتعين عليه ابتلاع الرماد الناتج عن الورقة التى أحرقت، على أن يُذاب فى شىء من الماء، وبعدها يشفى المريض "بإذن الله".

هناك بطبيعة الحال مجموعة من الخلطات المجربات، المتوارثة عن شيوخ سابقين، لكن الخلف الذين يجيئون بعد هؤلاء الشيوخ يدعون دوما أن هذه الخلطات، أو بالأحرى الوصفات، والورق وما إلى ذلك، لا تفيد إلا إذا كانت من يد طيبة، بعد أن يكون واهب هذه الخلطات والوصفات قد قرأ عليها الدعاء المناسب. والمكى العادى لا يذهب إلى الطبيب إلا بعد استنفاد الطرق والأساليب التى تكون من هذا القبيل.

الأطفال أيضًا يُبخرون مرارا إلى أن يبلغوا الحلم، ولعل هذا يفسر نسبة الوفيات الكبيرة فى عالم الأطفال الصغار. والأم تضع تحت مخدة طفلها سبعة أرغفة (التى يقولون لها "أقراص" وهى جمع "قُرص") وبعد أن ينام الطفل على هذه الأقراص ليلة واحدة تُرمى للكلاب، وعقبها يفشل العلاج، علمًا بأن الأم تدرك هذا الفشل وتعيه تمامًا.

بعد خيبة الأمل هذه وغيرها من الخيبات الأخرى يعتقد الناس أن الطفل أصابته عين الحسد؛ الأمر الذى لا يجعل للعزائم والتمائم أية فائدة، عين الحسود هذه لها مضاد يتمثل فى تبخير المريض بمادة غليظة القوام سيئة الرائحة يطلقون عليها اسم الفَسُوخ التى تُحرق مع شىء من الملح فى مبخرة. هذا المريض المحسود يتعين عليه تبخير يديه ثلاث مرات بهذا الفَسُوخ، وكذلك وجهه وقدميه، ويجب أن يتخطى المحسود المبخرة سبع مرات، كيما يتخلله الدخان تماما، ثم يترك الباقى على الله .

المكيون يخسرون الكثير من متع الحياة نتيجة خوفهم من الحسد والعين الحاسدة. البضاعة المخزونة تُحصَّن ضد الحسد والعين الحاسدة بوضع نعلة قديمة على مدخل المخزن أو المكان المخزنة فيه البضاعة. ونظرا لأن الحسود نفسه لا يعرف أنه يحسِد، فلذلك يتحتم على الناس ألا يمسكوا بطفل الغير، أو أى شىء جميل مملوك للغير، أو حتى الانضمام إلى تجمع اجتماعى دون أن يقولوا : ما شاء الله، تبارك الله .

ترتبط العين الحاسدة فى كثير من الأحيان بالحسد المقصود، كما أن الحاسد يلجأ إلى السحر إذا لم تكن عينه الحاسدة كافية لإحداث المطلوب. فلان على سبيل المثال يدفن عملا من أعمال السحر تحت منزل علان، الذى كان يود شراءه، مستهدفا بذلك حرق المنزل، فلان هذا يمكن أيضًا أن ينحت أو ينقش بعض العلامات الصوفية على جدار البيت الذى يعيش فيه ترتان زوج تلك المرأة التى يحبها هذا الفلان، مستهدفا بتلك النقوش إحداث نوع من العداء بين الزوجين، ولذلك ينصح الناس هنا الإنسان إذا ما اشترى أمة جميلة، أن يغير على الفور اسمها، نظرا لأن هذه الأعمال السحرية توجه إلى اسم الشخص، وأن الاسم إذا ما تغير فإن ذلك يفقد العمل السحرى مفعوله . ومن يود شراء منزل جديد يتعين عليه تخير الوقت المناسب لذلك الشراء، وهذا يصدق على المعاملات كلها، ولكن اختيار الوقت وحده لا يكفى، إذ يتعين على هذه المشترى ألا ينتقل إلى ذلك البيت الجديد إلا بعد أن يبخره تبخيرًا تامًا، وبعد

أن يستقدم القراء لقراءة القرآن كله فى المنزل الجديد، لأن هذا هو الطريق الوحيد لطرد الأرواح الشريرة من المنزل.

ونحن عندما نحكى الاستعمالات الخرافية المسموح بها وغير المسموح بها عند المكيين نكون قد ساعدنا فى إعداد قائمة تضم مجرد "نتف" صغيرة من الخرافات السائدة فى البلاد الإسلامية كلها، هذه النتف فقدت الكثير من الخصائص المميزة لها من خلال التوفيق بينها وبين الدين. ولما كانت النساء اللاتى بدأنا بهن، هن اللاتى يلعبن الدور الأكبر فى الإعداد لاستعمال المواد المستوردة، وخلط هذه المواد ، أو المستوردات إن صح التعبير، مع ما هو موجود بالفعل، فإن اتصال هؤلاء النساء بعالم الروح يستحق منا التركيز عليه بشكل أو بآخر.

***

من الشائع أنه فى حال وجود الأرواح الشريرة، فإنها توجه حقدها فى المقام الأول إلى مباهج الأمومة. والأرواح فى مكة تهدف فى المقام الأول أيضًا إلى وقف الإنجاب. من هنا نجد أن النساء اللاتى يرغبن فى هذه النعمة يحصلن على حزام مكتوب عليه ومقروء عليه من شيخ معروف، كما يحصلن أيضًا على قواعد محددة يتبعنها، كما يحصلن أيضًا على المواعيد المناسبة للاتصال الجنسى بالأزواج، وذلك حتى يمكن لعملية الإنجاب أن تكون مثمرة بمساعدة ذلك الحزام الذى تلفه المرأة حول جسمها. وعندما يولد ذلك الطفل المنتظر، الذى خاضت أمه من أجله صراعًا طويلاً فى أثناء الحمل مع الأرواح، والذى جرت تحيته بدجل كثير وتبخير كثير أيضًا عندئذ تبدأ خرافات جديدة.

عدد كبير من هذه المواليد الجديدة يقع فريسة لكثير من أمراض الطفولة ، وبخاصة أولئك الذين يرون النور فى موسم البرد، كما أن مقتبل الصيف يكون محفوفًا بالمخاطر، وبالتالى يقل الأمل فى المحافظة على حيواتهم، عما لو كانوا قد ولدوا فى ظل

تاثير برج السنبلة (برج العذراء). أما أطفال الأمهات الأجنبيات فيلاقون وقتا عصيبا، وأنا أعرف كثيرا من الإماء الحبشيات اللاتى ولدن ما بين خمسة أطفال وعشرة لكى يدفنّهم فقط، وأعرف قلة قليلة من تلكم الأمهات الحبشيات اللاتى ربين عددا قليلا جدا من الأطفال الذين كبروا وشبوا عن الطوق. وفى أغلب الأحيان يجف حليب الأمهات أو قد لا يكون مغذيا بما فيه الكفاية.

ترى من الذى يتسبب فى هذا الشر كله ؟ إنها "أم الصبيان" (وكلمة "أم" هنا كنية عن "العدو")، أو قد تكون "القرينة" . هذه الماردة التى تحمل هذه الاسم لا تسمح مطلقا للأم ببهجة الأمومة، وقد تهاجم الطفل مباشرة فى بعض الأحيان، وقد تنزع من الأم فى بعض الأحيان القدرة على تغذية الطفل. مع مثل هذه الحال يغلب على الناس اللجوء إلى السحر والشعوذة، نظرا لأن فن الطبابة أصبح بلا طائل. والوسيلة المعتادة التى يلجا إليها الطبيب أو يوصى بها لوقف بكاء الأطفال الرضع بسبب الجوع، عبارة عن خليط العنصر الرئيسى فيه هو بذر الخَشْخَاش (أبو النوم). والناس يطلقون على هذه الحبة اسم "حبة النوم" أو بذر الخَشْخَاش، والأم يتعين عليها أخذ هذا الخليط، ويهدأ الطفل بعد ذلك إلى حد ما إلى أن توافيه المنية.

هناك نوع آخر من الأرواح هو الزار الذى يسبب متاعب للنساء كلهن على وجه التقريب. وتمثل مكافحة الزار أشد الجوانب رمادية وحزنا فى حيوات النساء المكيات. والزار فى لغتنا الدنيوية عبارة عن صنفين من الأشكال، الصنف الأول عبارة عن أشكال معروفة أو محددة من الجنون، والصنف الثانى عبارة عن هجمات هستيرية. والتى تصاب حاليا بالزار، كان يقال لها قديمًا فى الجزيرة العربية "مجنونة" (أى تملَّكها الجن). وكلمة "مجنون" حاليًا تعنى "مصاب بالجنون" دون أن تنطوى دلالة الكلمة على أى شىء من الأرواح أو عملها. وبدءاً من فترة الشباب فما فوقها تسمع النساء كثيرا من الحكايات التى تروى عن الزار، إلى حد أنهن عندما تهاجمهن الأمراض سالفة الذكر، فإن هذه الأمراض تأخذ، فى رأيهن، شكل سيطرة ذلك الزار

وهيمنته على إرادة الفرد. وفى بعض الأحوال تكشف تلك الهيمنة والسيطرة عن نفسها فى شكل ارتماء المرأة فى أوقات محددة على الأرض ساعات طوال مع التشنج، وفى أحيان قد تعانى من بعض الأمراض المعروفة، التى قد تنقضى بين الحين والآخر بصورة مفاجئة مخلفة وراءها مجرد لون شاحب وعينين مفتوحتين ومتوترتين، وفى أحيان أخرى قد يبدو المريض خلال تلك النوبات كما لو كان شرسًا وغاضبًا.

المتعلمون والأطباء، بل والسواد الأعظم من الناس بصفة عامة، ميالون دائمًا إلى استخدام الدواء أو الشعوذة الدينية المتشددة الخاصة بالقوى الشيطانية، وهنا نجد الصديقات والقريبات من الناحية الأخرى ينصحن، بلا أية تحفظات، باستدعاء امرأة عجوز فقيهة فى التعامل مع الزار (٦)، والناس يطلقون هنا على هذه المرأة اسم "شيخة الزار" ، وبذلك يستطعن فى النهاية التغلب على المقاومات كلها.

يحدث "الزار" بين مختلف الجنسيات التى تعيش فى مكة، والسبب فى ذلك أنه على الرغم من أن الزار قد يكون له اسم آخر غير الاسم الموجود فى مكة، فإن الناس ما إن يتعرفوه حتى يبدأوا فى ممارسته طبقًا لاسمه المحلى المشتق من اللغة الحبشية، مما يؤكد أن هذه الخرافة جاءت على أيدى العبيد الأحباش. ومع ذلك لا يزال الناس يحافظون على الفروق المحلية لهذه الخرافة، وأن هذه الفروق المحلية المميزة يتعين مراعاتها عند ممارسة الزار. هناك على سبيل المثال "الفارق المغربى" (شمال غرب إفريقيا)، وهناك أيضًا "الفارق السودانى"، و"الفارق الحبشى"، و"الفارق التركى"، أو بالأحرى الطريقة التركية لطرد الزار. وكل فارق من هذه الفوارق، أو بالأحرى كل طريقة من هذه الطرق تستعمل فى حالات محددة، لكن يجب ألا ننكر أننا عندما ندخل فى مسألة اختيار جنسية الزار ونوعيته، نجد أن الشيخة التى

---

(٦) كلمة "زار" Zar ليس لها "جمع" أى أنها لا تجمع.

تُستدعى توصلنا إلى النتيجة التى مفادها أن طريقتها هى الطريقة الصحيحة. والشيخة لا توجه أسئلة إلى المرأة نفسها، وإنما توجه أسئلتها إلى الزار نفسه الذى يسكن أو يتلبس جسم هذه المرأة المريضة(٧)، فى بعض الأحيان قد يدور هذا الحوار باللغة الشائعة ولذلك يفهمه الحاضرون، لكن الزار قد يستخدم فى أغلب الأحيان لغته الخاصة به، التى لا يمكن لأحد أن يفهمها دون أن تقوم الشيخة نفسها بالترجمة أو الشرح.

واقع الأمر أن هناك فارقا صغيراً تجب مراعاته فى نتائج مثل هذه الحوارات. وبناء على تكرار طلب الشيخة للزار، يعلن الأخير استعداده للرحيل فى يوم بعينه بعد القيام ببعض الطقوس الاحتفالية، ولكنه يشترط شروطًا معينة. قد يطلب ثوبا جديدا جميلا، أو بعض أشياء الزينة المصنوعة من الذهب أو الفضة، أو ما شابه ذلك. ونظرا لأن الزار نفسه يهرب من الإدراك الإنسانى، فإنه يمكن تخفيف مطالبه بوضع الأدوات سالفة الذكر على الجسم المريض الذى يتلبسه الزار. ومن الأهمية بمكان هنا أن يتبين كيف أن الأرواح الشريرة تأخذ فى الحسبان عمر أو ذوق أو احتياجات البشر الذين تتلبسهم هذه الأرواح الشريرة. وفى اليوم المحدد لخروج تلك الأرواح الشريرة تأتى صديقات تلك المرأة المريضة لزيارتها بعد عصر أو فى مساء ذلك اليوم، وتقدم القهوة والشاى والغلايين، وأحيانا تقدم لهن الطعام. وتقوم الشيخة هى وإماؤها - إذ يتحتم حضورهن للمشاركة فى هذه المسليات - بدق الطبول والدفوف والتغنى بأغنية معينة.

من السهولة بمكان الوقوف على أن هذا العمل يندر أن يطرد الزار الحقيقى. المعروف أن النساء المكيات يفضلن الملابس الفاخرة والحفلات الباهرة على أى شىء آخر، يضاف إلى ذلك أن النساء المكيات بلغن من الحصافة حداً يتمكنٌ معه من تمثيل دور الزار من ناحية ودور النساء اللاتى تلبسهن الجن من الناحية الأخرى، هذه

(٧) نحن لا نعرف الجنس الذى ينتمى إليه الزار.

الكوميديا المرضية أصبحت مرضا من الأمراض المتوطنة فى النساء. وقد وصل الأمر إلى حد ضرورة عزل المرأة عن النساء الأخريات أو الاتصال بهن، وذلك من باب المحافظة على المرأة ، وقد وصل الأمر إلى أن المرأة مثلما تقول "يتعين علىَّ الذهاب لحضور زفاف فلانة" فإنها تقول أيضًا فى مناسبة أخرى أو فى يوم آخر "أنا ذاهبة لفلانة لأنها عندها زار فى مساء اليوم"(الكلمة مستعملة هنا للدلالة على الصحبة أو الرفقة التى تلازم هذا النوع من الشعوذة، وللدلالة أيضًا على الروح الشريرة نفسها). ولم لا، فإن البعض من هذه النساء يضحين بهذا العرض ويقلن لأزواجهن "لقد آن الأوان أن أقيم الزار، لأنى حضرت الكثير من هذه المناسبات عند صديقاتى". وما جدوى اعتراضات الزوج، وكيف باستعمال حقه الشرعى فى منع زوجته من مغادرة المنزل، فى الوقت الذى يعلم فيه أنها إذا ما رُفِض طلبها فسوف تتصرف كما لو كانت مجنونة، إلى أن يستسلم أمامها أو يطلقها ؟ وما جدوى الطلاق عندما لا يكون أمامه خيار سوى الزواج من امرأة أخرى، والتى ستبدأ هى الأخرى، بعد وقت قصير، ممارسة الزار الخاص بها ؟

واقع الأمر أن الزار أصبح ضرورة من ضرورات الحياة عند السواد الأعظم من النساء المكيات، شأنه فى ذلك شأن التبغ أو الذهب أو السراويل المزينة بالخيوط الذهبية.

هذا الطبيب سالف الذكر لابد وأن يكون قد اكتشف شيئا ما محددا ضد الزار. وعندما بدأت زوجته الشابة بعد الزواج بفترة قصيرة تتصرف تصرفات غريبة، وتستقبل شيخة الزار، راح ذلك الزوج يتخذ من الترتيبات ما يكفل له لقاء شيخة الزار على سلم منزله، ويضطرها أن تعلن عن نفسها، مخالفا بذلك قوانين الحريم، وهددها بالقتل إذا ما جاءت إلى بيته مرة أخرى. ثم عاد الزوج بعد ذلك إلى زوجته، التى أصابتها وعكة صغيرة منذ فترة وجيزة، وأخبرها بصورة محددة أنها تعانى من الزار، وأنه قرر طرد ذلك الزار من جسمها مرة أخرى وإلى الأبد. كانت لدى الزوج مياسم، فقام بإحضارها وأشعل الرجل نارا حامية، وراح يحمى المكواة فيها إلى حد

الاحمرار، وراح يتمتم فيما بينه وبين نفسه أن الشياطين خلقوا من نار، ومن ثم فهم لا يقاومون إلا بالنار ، وأن المشكلة تتمثل فى العثور على ذلك المكان من الجلد الذى يعيش تحته ذلك الزار (الجن)، والى أن يتم اكتشاف ذلك المكان لابد من المرور بالمكواة مرا خفيفا على سائر أجزاء الجسم كلها. كانت المرأة قد أفاقت بالفعل قبل العلاج، وطلبت من زوجها العفو والسماح، ورأت أن تؤكد له أن الزار تركها[٨] إلى غير رجعة.

هذه حالة من الحالات الاستثنائية بطبيعة الحال. وقلة قليلة من الرجال هم الذين يقدمون على خطوات جريئة من هذا القبيل، نظرا لأن السواد الأعظم من النساء يهربن أو يستعملن كل الوسائل لتدمير سمعة أزواجهن.

مسألة طرد الزار لا تقل بأى حال من الأحوال عن ملهاة تلبسه للبشر. من هنا، وعن طريق التلفيق، أصبحت الشعوذة والسحر فى مكة خليطا من أناشيد وطقوس مختلفة مضافا إليها المزيد من الزوائد الكمالية العرفية. والمرأة التى تلبَّسها الزار لا ترتدى سوى الملابس التى يمليها عليها الزار، وتقوم الإماء التابعات لشيخة الزار بقرع نغمات وإيقاعات غريبة على الطبول، أو بالأحرى ذلك الذى يطلقون عليه اسم لحن الساحرات، وفى أثناء هذا القرع والطبل تقوم شيخة الزار بالرَّبت على جسم المرأة

(٨) طبيبنا هذا مازال يعرف كيف يفيد من الخرافات، وعندما يُسرق أى شىء من الأشياء، ويتعذر اكتشاف اللص، فإن الضحايا يذهبون إلى ذلك الطبيب يطلبون منه، نظير هدية، استخدام قوى السحر، أو بالأحرى العزيمة. هذه العزيمة تتمثل فى مفتاح يُثبت فى قطعة من القماش الحرير ملفوف بها مصحف قديم. ويُرفع لكى يلف المصحف لفا حرا فى الهواء ثم يضع بعد ذلك قطعًا من الورق (تحمل كل واحدة منها اسم اللص المشكوك فيه) الواحدة بعد الأخرى فى المصحف. ويتلو مع كل ورقة صيغة غريبة. وعند تحرك المفتاح تصبح قطعة الورقة المتبقية فى المصحف هى الدالة على اللص. ونظرا لأن الضحايا سبق أن حكوا للطبيب، وأملوا عليه أسماء المشكوك فيهم، فإنه (الطبيب) يشكل نظرية الاحتمالات لما حدث، وبالتالى يكيف المفتاح نفسه مع هذه النظرية. وفى معظم الأحيان التى تنطلى فيها هذه الحيلة على أفهام أولئك الذين يؤمنون بها، نجد أنهم أصيبوا بخيبة الأمل بعد ذلك بأيام قلائل عندما استهزأت الحكومة بذلك الذى توصلوا إليه ورفضت التسليم به. وهنا يقر الطبيب بالواقع ويقول إن هذه مسائل شخصية رسمية. وقد اعترف ابن أخى ذلك الطبيب، وهو مؤذن، بأنه ورث مسألة الزار هذه عن والدته، هذا الطبيب نفسه يمارس المغناطيسية والتنويم المغناطيسى بنجاح مدهش.

التى تلبسها الجن. ويلى ذلك أنواع غريبة من الأداء، هى التى تزيد من كراهية الأتقياء من الناس لذلك الطقس الوثنى. من هذه الطقوس الغريبة على سبيل المثال، مسألة ذبح شاة وتلطيخ جبهة المرأة وأجزاء أخرى من جسمها بدم هذه الشاة. وتتحدد بطريقة مسبقة دلائل نجاح الشعوذة، وذلك فى ضوء الطريقة المتبعة فى العلاج. ويتعين على المرأة التى تلبسها الزار(الجن) أن ترقص، بأن تروح تترنح أو تهتز إلى الأمام وإلى الخلف، أو تروح فى غيبوبة، وهنا تحين اللحظة التى تتمتم فيها الشيخة قائلة "لقد ترك الزار جسمها". وفى بعض الأحيان قد لا تتحدد هذه الإشارة إلا بعد الليلة الثانية أو الثالثة، الأمر الذى يزيد من فرح ومدح النساء المدعوات. وفى بعض الأحيان الأخرى قد تملك حمى الرقص المجموعة كلها، وتلك ظاهرة تسرى فيها العدوى إلى بقية النساء الموجودات، ويتحول الأمر إلى مهزلة. وقد قالت لى شابة تكره هذه الأشياء كراهية شديدة إنها فى معظم الأحيان، هى وقلة قليلة أخرى من النساء، كنّ يبقين بعيدا عن تلك العدوى التى كانت تسرى بين بقية النساء، فى حين نجد النساء الأخريات يقلن بطريقة تهكمية " ما هذا ألم تصابى بعد بالزار ؟"

وتغلب هنا التضحية بكل الرفاهية ووسائل الدعم الأخرى فى الأسرة التى تنتمى إلى الطبقة المتوسطة من أجل الزار. هناك أيضًا اعتقاد كبير بين الناس، يجىء فى المرتبة الثانية بعد الزار، وهو أن هناك بيوتا كثيرة يسكنها الزار (الجن) ، (والناس هنا يطلقون على البيت الذى من هذا القبيل اسم "مسكون")(٩)، هذا بدوره يعنى أن الناس هنا يخافون من كل أنواع المخلوقات الخفية والخرافات الشبيهة بها.

---

(٩) الناس هناك يطلقون على الروح فى هذه الحال اسم "ساكن" . وهنا تجدر بنا الإشارة إلى معتقد واسع الانتشار، مفاده أن المصلى إذا لم يطو سجادة الصلاة عقب الصلاة مباشرة فإن الشيطان سيحل محله ويؤدى طقوسه فى ذلك المكان. ومن بين الوسائل التى تلجأ إليها النساء لمعرفة المستقبل أو المجهول الطريقة التالية: فهن يبحثن فى عظام الشياه عن قطعة صغيرة تشبه الإبهام، وينظفن هذه العظمة، وتُلف فى قطعة من (القماش) ويحتفظن بها إلى ليلة السبت، ثم تردد النساء صيغة تبدأ " ياسبت ياسبُوتة " ثم يضعن العظمة تحت المخدة ثم يرحن فى النوم انتظارا لحلم بيّن تماما:

على كل حال، نجد أن النساء فى قسم العلاج العملى يتميزن باستعداد طبيعى، هو الذى يجعل الرجال يميلون إلى النظر إلى صندوق الأدوية العائلى نظرة يتمثلون من خلالها فقر هذا الصندوق العلاجى، كما يتحققون أيضاً من الأضرار التى تعود عليهم بسبب الخرافات التى تنتشر بينهم. أنا أشير هنا إلى التكبيس، أو بالأحرى المساج . هذا الأسلوب العلاجى الذى ارتفع مؤخرا إلى أعلى عليين فى أوروبا، كان الناس يمارسونه فى الجزيرة العربية من قديم الزمان، صحيح أنهم كانوا يمارسونه بلا أساس علمى، لكنهم كانوا يصيبون فيه نجاحا كبيرا ومدهشا فى معظم الأحيان، ففى المساء كان المدلكون المحترفون الذين من أصل هندى يجوبون الشوارع، ويدعون الناس الجالسين فى المقاهى أو فى صالات المنازل بندائهم "كابوس" إلى تمكينهم من القيام لهم بهذه الخدمات. وهنا يسلم الناس مرهقو الأجسام أو الأذهان أنفسهم لهذه الخدمات، التى تكون غير سارة فى بداية الأمر، ولكنهم يستلطفونها فيما بعد، الأمر الذى يجلب لهم إحساساً كبيراً بالارتياح فى نهاية المطاف. لكن إلى جانب هؤلاء المدلكين نجد أن كل امرأة من النساء، سواء كانت حرة أو أَمَة، تعرف هذا الفن وتجيده، إضافة إلى أن عدداً كبيرا من الرجال اعتادوا على التدليك، إلى حد أنهم لا يمكن أن يناموا إلا بعد تدليك أجسامهم. وفى كثير من المنازل تدلك الإماء سيداتهن، فى حين تدلك السيدات أزواجهن، وتدلك بعض الإماء الشابات هن والسيدات الصغيرات بعضاً . وإذا تصادف أن كان هناك رجل على علاقة حميمة بواحدة من النساء، ويود إغواءها لعمل أشياء غير شرعية(١٠) فطلب مثل هذا الرجل المبدئى يكون على شكل عبارة شائعة يعرفها الجميع هى : "بالله ، أنا لست على ما يرام، فهل لك أن تدلكينى"؟

(١٠) لغة الإشارات أكثر استخداماً بين النساء والرجال فى المنازل المتجاورة. هذا يعنى أن المرأة المحترمة لا يحق لها الشكوى من المقدمات التمهيدية التى تتعرض لها، إذ بوسع الرجل أن ينكر ما قال، ويعرب عن اندهاشه عندما تحمل المرأة دلالة سيئة لما يقوله الرجل، وبخاصة عندما يستخدم يديه فى الإشارة إلى أشياء بعينها.

هذا التدليك، أو بالأحرى المساج، لا يقتصر فى مكة على مجرد طلب الاسترخاء، الذى هو مطلب عام فى المناخ المكى، وإنما يمتد أيضاً إلى الآلام العضوية أيضاً، وهذا يعنى أن التدليك يستخدم مخففا مؤقتا للآلام. لقد رأيت أناسا يشفون لساعات قلائل من آلام الأسنان التى أدت إلى تورم وجوههم.

أخيراً، تسعى السيدات دومًا إلى إيجاد الوسائل التى تزيد من حسنهن، ووسائلهن التى من هذا القبيل تنقسم إلى قسمين[١١] :

١) الوسائل التى تجعل الشكل الخارجى جذابا وفى حدود إمكانيات "خبيرات التجميل" المحترفات.

٢) الوسائل التى تستثير المتعة الجنسية بصفة خاصة.

فيما يختص بالنوع الثانى من الوسائل فهو من اختصاص القابلات (الدايات) اللاتى يُستخدمن فى أغراض أخرى غير أغراض التوليد. ونظرا لأن ما لا يقل عن نصف الارتباطات هنا عبارة عن زواج متعة يتوقع له أن ينفك فى أى وقت من الأوقات، فإن طرفى هذا الزواج يتجنبان النتائج التى يمكن أن تترتب على المعاشرة الجنسية فى مثل هذا النوع من الارتباط. يحدث فى أحيان كثيرة، فى هذا النوع من الارتباط، وكذلك مع الإماء اللاتى يعملن فى المنازل الكبيرة، أن تحمل هذه المرأة أو تلك بصورة مفاجئة. مسألة الإجهاض الاصطناعى تنظر إليه السلطات الشرعية نظرات مختلفة مادام يتم قبل نهاية الشهر الرابع[*]. أما إذا ما حدث ذلك الإجهاض فى وقت بعد هذا الموعد فإنه يصبح مدانا

(١١) موضوع مستحضرات التجميل هذا تناوله إدوارد لين تناولا مفصلا فى كتابه "أخلاق وعادات المصريين المحدثين".

(*) وهى الفترة التى يتحول فيها الجنين إلى كائن حى، وذلك طبقًا للاعتقاد السائد . (المراجع)

من السلطات كلها. والمعروف أن الداية (القابلة) لا تمانع فى مسألة اقتلاع ثمرة[١٢] الرحم فى أى وقت من الأوقات.

الزنجيات القويات تصلن إلى مسألة الإجهاض بإلقاء أنفسهن على الأرض مرات عدة، وهناك بعض الحالات التى تعالجها الدايات بعقاقير يوضع السواد الأعظم منها فى الرحم. ومن باب ارتباطهن الخرافى بنص الشرع فهن لا يستعملن هذه الوسائل مطلقا فى مساء الجمعة نظرا لأن الذنب هنا سيكون مضاعفاً. وعندما تعمل العقاقير عملها تذهب المرأة إلى المسجد وتوزع بعضا من الخبز على الشحاذين[١٣] وذلك من باب التكفير عن الذنب.

يجب أن نعلم أن الطلب على موانع الخصوبة أكثر من الطلب على تشجيعها. بعض هذه الموانع يبيعها الأطباء ويستعملها الرجال[١٤]، والقسم الأكبر من هذه الموانع تقدمه الدايات (القابلات) فى المنطقة نفسها على أنها وسائل للإجهاض. وتصل ثقة الدايات بنجاح علاجهن إلى الحد الذى يجعلهن يبرمن اتفاقات وعقوداً ويتعهدن فيها برد النقود إذا لم يحقق العلاج الغرض المطلوب. كل داية من تلكم الدايات لها عناصرها الخاصة التى يعد تركيبها سرا لا يعرفه أحد سوى الداية نفسها، وهى لا تفشى ذلك السر إلا لإمائها، وبطريقة واحدة من تلك الطرق الخاصة يمنع

---

(١٢) هذه الثمرة يطلق عليها بصورة عامة اسم "البزرة"، "والبزرة" يمكن أن تعنى أيضًا "طفلة صغيرة" والجمع "بزورة" أو بزور ، وتعنى "أطفال"، وبخاصة فى المرحلة السنية التى يكونون فيها متيمين باللعب.

(١٣) الشحاذون وكذلك الجرارون يوجدون فى الحرم بصورة دائمة لتلقى الإحسان من الحجاج، أو لينالوا نصيبا من توزيع الخبز الذى علق عليه الأتقياء آمالا أو وعوداً. وما إن يدخل خادم يحمل طبقا مليئا بالأرغفة إلى صحن المسجد حتى يجد نفسه محاطا من كل جانب بالشحاذين الذين يتصارعون على نيل نصيب من تلك الغنيمة.

(١٤) Sunt Pillulae in oblonagam formam redactae quas ante coitum in glandem penis introducunt.

الحمل، أو بالأحرى مكافحة الخصوبة، يمكن منع الحمل لفترة (تتردد بين سنة وثلاث سنوات) [١٥]، وبإحدى الطرق الأخرى يصبح الحمل عملية مستحيلة. فى مثل هذه الحالة الأخيرة تعرب المرأة عن رغبتها فى أن تكون بغلة، أى أنثى البغل[*].

الموضوعات التى أتينا على ذكرها تشكل نصف حديث المكيين اليومى، وبخاصة أولئك الذين على معرفة وثيقة بعضهم ببعض، إلى الحد الذى يجعل الواحد منهم يبدأ الكلام بحرية عن خبراته وتجاربه الخاصة. هذا يعنى أن الأوروبيين كانوا مخطئين عندما أكدوا فى كثير من الأحيان أن المسلمين يحولون كل ما يتعلق بالحريم إلى سر من الأسرار. المسائل المتعلقة بالجنس، على العكس من ذلك، يدور الحديث عنها دون تحفظ بين الأصدقاء، أو حتى من الآباء أمام أبنائهم، وهذا الأمر عندنا لا يتناوله الإنسان إلا مع طبيبه الخاص، أو من باب الاحترام، عندما ينفرد بالطبيب. والمسلم يحرص على تجنب الكلام الذى يمكن أن يسفر عن علاقات غير مرغوب فيها بين زوجته وأشخاص آخرين، وهو فى هذا الصدد يكون أكثر حرصا وقلقا من الأوروبيين. ومع ذلك فإن الفارق بين المسموح وغير المسموح به من الكلام يتحدد على نحو مختلف عما لدينا فى هذا الصدد، يضاف إلى ذلك أن ذلك المدى عند المسلمين أوسع مما عندنا. الانطباعات غير الحقيقية التى وردت عند الرحالة الأوروبيين ترجع بالتأكيد إلى اختلاف الحدود، والمسلم يعرف جيداً أن الأوروبى له آراء مختلفة تماما فيما يمكن أن نطلق عليه اسم الأدب والأخلاقيات فيما يتعلق بالزواج بشكل خاص، ولذلك يتحاشى المسلم الكلام مع الأوروبى حول هذه الأمور أو هذه الآراء، وهذا هو ما يحدث عندما يتوقف الحوار بيننا عندما يتطرق الحديث بين أناس من أديان مختلفة عن الأمور الخرافية.

---

(١٥) هذه المعوقات محدودة الأجل يطلقون عليها اسم "تصبيرة".

(*) المقصود بهذه العبارة أن تصبح المرأة عقيماً. (المراجع)

ونحن إذا كنا ننظر إلى الزواج المكى فى كثير من الأحوال على أنه مساو لنظام المحظيات، فالناس فى مكة ينظرون إلى كثير من العلاقات التى تقترب من أسلوب الزواج الأوروبى على أنها علاقات سرِّية (بمعنى أنها شبيهة بعلاقات المحظيات). والرجل المكى عندما يعبر عن نفسه بطريقة علنية وصريحة، فإنه سوف يعترف أن قلبه لا يمكن أن يميل إلى أية امرأة مكية، وإنما يمكن أن تمتلكه أَمَة من الإماء. وقد أعرب رجل حصيف ذات مرة عن نفسه أمامى، عن حماسه البالغ لهذا الأمر، فى الوقت الذى كانت زوجته تقطع فيه الغرفة المجاورة جيئة وذهابا، وعندما راحت تلك الزوجة تسعل سعالا عصبيا غير الزوج من كلامه، وقال إن كل شىء أمر نسبى، وأنه ليس هناك ما هو أفضل من بنت الناس (ومصطلح بنت الناس هذا يعنى عند المكيين الأنثى الحرة، أى التى ليست أمة، أما مصطلح ولد الناس فهو يعنى الذكر الحر، الذى ليس عبداً). كل ذلك كان من قبيل التهيؤات فقط، وكان مفهوما ما لدى الناس كلهم بمن فيهم الزوجة بطبيعة الحال.

الناس هنا يعترفون بالمزايا البدنية التى تتمتع بها الإماء، والمعروف أنه كلما زادت سمرة المرأة زادت أيضاً جاذبيتها الجنسية. لقد تعرفت على رجل شديد الثراء، كان يستطيع الحصول على كل ما كان يرغب فيه من الحريم، هذا الرجل انهمرت دموعه لأن امرأة زنجية حالكة السواد اشتراها منذ زمن قصير كانت على استعداد لتلبية رغباته كلها، فيما عدا شىء واحد. هذا المبدأ له وقعه الطيب هنا بين الناس المحترمين المؤدبين، هذا يعنى أن "كل شىء يمكن الحصول عليه بالخناق، فيما عدا شىء واحد هو الذى يكون بالاتفاق". هذا الابن الأسود سواد الزفت الذى أنجبه ذلك التاجر الهندى كان ثمرة لذلك الميل الشديد من جانب ذلك الثرى ناحية طباخته السوداء.

خلاصة القول، وفيما يتصل بالمسألة الجنسية، نجد أن المكيين كلهم يثنون على بنات "حام". كل ما هنالك هو أن الثقافة المتدينة وبعض سمات الشخصية الزنجية الغريبة هى التى تفرض أو تضع حداً لذلك الميل بعد مرور فترة من الزمن. والزنجية

التى تستثير عواطف سيدها، تستفيد من تلك الإثارة طوال حياتها، والسبب فى ذلك أن كل حمل تحمله هذه المرأة الزنجية يجعلها قريبة جدا من سيدها وعلى نحو يجعله لا يطيق فراقها، كما أنها تصبح حرة بعد وفاة سيدها، لكن هذا النوع من الاتصال بالمحظيات ليس بينه وبين الزواج أى شبه من الأشباه.

على الرغم من هيام الرجل المكى فى بعض الأحيان بامرأة مكية وملاحقته لها، قد يزيد هيامه بأمة زنجية، ومن ثم يكون حماسه الحقيقى وهيامه الشديد بالنساء الحبشيات (والناس هنا يطلقون على النساء الحبشيات اسم "الحبوش") [(١٦)]. والرجل المكى المعتاد إذا ما سار فى ركاب ميوله وهواه فإنه يفضل الارتباط بالحبشيات، ومع ذلك فإن "الأعراف" السائدة هنا تقضى بأن يتزوج الرجل ولو مرة واحدة فى حياته كلها من امرأة حرة، أى ليست من الإماء، يضاف إلى ذلك أن الناس من أصحاب الموارد المحدودة، يمكن أن يدفعوا بضعة دولارات على سبيل المهر للزوجة، وليس مائة دولار أو مائتين لأمة من الإماء، وعليه فإن الرجل إما أن يربى أمة طفلة إلى أن تصل إلى سن الشباب أو أن يتزوج واحدة من منزل طيب.

السيدات الكبيرات فى السن، وبخاصة تلكم النساء كريمات المحتد اللاتى يكن ربات بيوت فى منازلهن، (والناس هنا يقولون للسيدة التى من هذا القبيل "بنت العم") ولا يكن مالكات لقلوب أزواجهن، هؤلاء السيدات المتقدمات فى السن يفرحن بشراء عدد كبير من البنات الصغيرات كى يشغلن أنفسهن بتربية وتعليم هؤلاء البنات الصغيرات. وهن يلحقن هؤلاء البنات بالمدارس، ويعلمنهن الغزل والتطريز إلخ، ويعاملنهن كما لو كن بناتهن. والبنات اللاتى من هذا القبيل إذا ما نشأن هذه

(١٦) تشيع بين تلكم الإماء قصة لعنة حام بوصفها أصل العبودية، وهذه القصة تروى بأشكال كثيرة، وتشيع من بين هذه الروايات تلك الرواية الساذجة التى مفادها أن آدم وحواء كانا يعيشان عاريين فى الجنة، وأن البنات الحبشيات هن وبعض الزنجيات الأخريات هن فقط اللاتى ضحكن منهما، ومن ثم تحولت البنات الحبشيات هن وبعض الزنجيات الأخريات إلى جنس من العبيد.

التنشئة وعلى هذا النحو من المساواة، سرعان ما تنشأ بينهن الخلافات وتتفاقم، وهنا تدرك "عمتهن" أن الوقت قد حان لاتخاذ موقف من هذه الفتاة أو تلك. والموقف الجيد الذى تقفه هذه "العمة" مع الفتاة الحبشية هى أن تجعل منها محظية لسيد من الأسياد الطيبين.

هؤلاء البنات يفضلن الدخول إلى الأسر الكبيرة الثرية، لأنهن يجدن فى مثل هذه الأسر كثيرا من الرفاق، كما يحيون فيها حياة طيبة عامرة بالتنوع، لكن مصيرهن على المدى الطويل يكون أبهى وأسعد إذا ما عثرت الواحدة منهن على سيد تكون زوجته كبيرة السن، ومعها بعض العبيد والإماء الوضيعات. والرجل متواضع الحال إلى حد ما، وإذا كان لديه ما يكفى شراء امرأة حبشية وإعالتها، فإن مثل هذه المرأة الحبشية يجب أن تحل محل الزوجة والأمة العاملة، وهذه مسألة غاية فى الصعوبة فى هذا المناخ . وإذا ما أحضرت هذه المرأة إلى منزل زوج لا يزال يتظاهر بالكذب والادعاء، فإن ذلك يترتب عليه أن تلتقى "هاجر" فى أغلب الأحيان "بسارة" شديدة القسوة، ويتعين عليها أن تخشى سوء المعاملة بين الحين والآخر، وبخاصة فى الأوقات التى يغيب فيها سيدها عن المنزل؛ وهنا يقوم مثل هذا السيد باستئجار منزل صغير مستقل للمحظية حتى لا تعرف الزوجة الشرعية (بنت العم) أى شىء عن هذه الأَمَة. فى العائلات الكبيرة فقط يتعين على الزوجة أن تتسامح فى مثل هذا الأمر، فى هذه العائلات توزع البنات العمل بينهن، كما أن شروط المكان هى التى تخرج عشيقات السيد من كل أنواع السيطرة التى تمارسها الزوجة على الإماء الباقيات. ومسألة علاقة الزوج بأية واحدة من هؤلاء الجوارى (الواحدة "جارية") لا تقدم أو تؤخر عند الزوجة، لكن هذا السيد يمكن أن يلومه ويدينه الرأى العام إذا ما قام بتسريح مثل هذه الأمة بعد أن يقضى منها وطرا.

الأمة الشابة التى لم تنشأ فى بيت سيدها منذ طفولتها لا يمكن شراؤها على أنها عذراء بأى حال من الأحوال، حتى وإن لم تكن قد مرت بموقف مشابه لذلك من قبل.

وسيد مثل هذه الأَمَة أو قريب من أقرباء سيدتها "عمتها" يفض بكارتها عندما تبلغ من العمر ١٢ إلى ١٤ عامًا، والمشترى نفسه يمكن أن يرتاب فى مثل هذه الفتاة إذا لم يحدث فض البكارة هذا.

وغير مسموح لرجل بالعيش مع أَمَة لا تكون ملكا له، والتعديات على هذا القانون تعد من قبيل الجنح الخطيرة، من هنا نجد هناك تمييزا واضحا بين إماء الزوجة وإماء الزوج، وفى العائلات العادية تحاول الزوجة أن تكون إماؤها دميمات الخلقة. ويستثنى من ذلك الإماء اللاتى تشتريهن [للإهداء] وإلا ذاعت الرواية التى مفادها أن هذه السيدة أهدت الفتاة لولدها، أو ابن عمها، أو ابن أخيها ... إلخ، ثم ذهبت وأخذتها فى اليوم التالى.

فى بعض الأمور الأخرى يحدث التعدى على قانون المحظيات المقدس. من هنا فإن من يشترى أمة محظية ينبغى له الانتظار فترة من الوقت، وهذا معروف للجميع، قبل مضاجعتها، حتى لا تثور الشبهات حول نسب الأطفال. هذه القاعدة باعتراف الجميع صعبة جدا على المكيين، والمعروف أن مسألة الانتظار عند المكيين ليومين أو ثلاثة أيام أمر صعب جدا، ومع ذلك تحظى الفترة المسموح بها للمرأة بين الزيجة والتى قبلها، باحترام كبير من الجميع. يضاف إلى ذلك أن الوئام بين السيد والمحظية أمر لا يدوم، أما فى حال وجود الحمل فتلك العلاقة لا يمكن فضها. فى مثل هذه الحال ينبغى على السيد أن يحرر المحظية حتى يمكن لها بعد ذلك تحرير عقد زواج، الأوغاد من المكيين هم الذين ينكرون بنوة أطفالهم حتى يمكن لهم أن يبيعوا الأَمَة مرة ثانية. مسألة الإنكار هذه ليست نادرة الحدوث، نظرا لأن هذا الإنكار يتم بناء على طلب من البنت نفسها، والسبب فى ذلك أن البنت عندما تتزوج تكون معرضة يوميا لخطر الطلاق، وربما تقع فى مشكلات أخرى خطيرة. من هنا تفضل البنت أن تكون أَمَة إلى أن تعثر على سيد حنون يقوم هو وهى على إنجاب أطفال وتربيتهم. من هنا نجد أن المحظيات يمكن فى معظم الأحيان أن يلجأن إلى استعمال الموانع المؤقتة المضادة للخصوبة والحمل، ولكنهن لا يستعملن الموانع الدائمة.

أقصى ما تتمناه الأَمَة الزنجية السوداء العمل فى منزل طيب مادامت قوتها تساعدها على ذلك، لأنها فى مثل هذا المنزل تضمن العناية والرعاية إذا ما تقدم بها العمر، وهى تتطلع أيضًا إلى جذب انتباه سيدها، وهو ما يؤدى - إذا ما حدث حمل - إلى تأمين حياة سعيدة لهذه الأَمَة، أو قد يهبها سيدها لتكون زوجة لواحد من العبيد المحررين، الأمر الذى يوفر لمثل هذه المرأة وضعًا مستقلا، أو قد تُزوج من رجل حر أخر، وهذا أمر شائع تماما على العكس مما يظنه الناس.

المرأة الحبشية تبتغى أن تكون لها علاقة دائمة مع أحد المكيين حتى تكون رفيقة له مدى الحياة إذا ما أهلتها مواهبها الفكرية والأخلاقية لذلك. هذا يعنى أن مثل هذه المرأة، شأنها شأن الزوجة، ليست لها مصالح تتعارض مع مصالح الزوج، إضافة إلى أن أفكارها ليست لها! شبهة الاستغلال. غاية ما تتمناه المرأة الحبشية هو شد الرجل إليها وأن تعد له بيتًا سعيداً. يضاف إلى ذلك أن النساء الحبشيات المربيات تربية حسنة يكن ربات بيوت ممتازات، كما أنهن متواضعات وصادقات، ولسن من محبات التظاهر، كما أنهن يكرسن كل طاقاتهن لخدمة أسيادهن. والمنزلة الطيبة التى يضع المكيون فيها الحبشيات يمكن الوقوف عليها من عدد المرات التى تحمل فيها تلك المرأة الحبشية لتنجب من الرجل ما يتردد بين خمسة أطفال واثنى عشر طفلاً، وهؤلاء الأطفال يعدون خير دليل على استمرار سعادة والديهم. هذه المرأة عندما تصبح أما لواحد أو أكثر من المكيين تدخل فى إطار المجتمع المكى بوصفها عضواً حرا، وذلك على الرغم من بقائها أمة من الناحية الاسمية. والمرأة الحبشية عندما يحررها سيدها، يحق لها الزواج شريطة أن يكون وضعها مساويًا لوضع المرأة المكية المولد. هذا الوضع يتيح للمرأة مكية المولد أن تقصد أقاربها فى وقت الحاجة، وهنا نجد أن المرأة الحبشية تجد ملاذا لها عند أبنائها.

من الناحية النظرية، نجد أن أطفال المرأة الحبشية، أو بالأحرى أبناءها يكونون على قدم المساواة فى كل شىء مع الأطفال أو الأبناء المولودين من أمهات أحرار، ومن

الناحية العملية نجد أن أبناء الحبشيات يكونون مفضلين عن أبناء الأمهات الأحرار. يمكن لنا القول بشكل عام إن الأسر الميسورة كلها فيها النوعان من الأمهات، أى الأم الحرة والأم الأمة، والغريب لا يمكن أن يلاحظ أية فروق لا فى المظهر ولا فى السلوك المتبادل.

إلى هنا يكون القارئ قد كون صورة تقريبية عن التباينات المختلفة فى الأسرة، وبخاصة تلك التباينات التى تحدث فى الأسر المكية، وهنا قد يصعب علينا إيراد المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، إلا إذا كان ذلك حول المساكن نفسها. وهنا أجد لزاما علىَّ أن أنتقل إلى بعض النقاط الزمنية المهمة فى حياة الأسرة المكية، نظرا لأن هذه النقاط الزمنية تحظى بالمزيد من الاهتمام والتقدير. وبعد كل ما قلناه عن تكوين وتركيبة السكان، يتعين علينا ملاحظة أن الحدود الخارجية للمجتمع المكى، والتى لم يجر امتصاصها أو تمثلها ضمن الأجزاء الداخلية من هذا المجتمع، إنما تعج بكل أنواع الخروج على تفاصيل الحكم السارى فى البلاد.

***

أول وأهم يوم فى حياة أى إنسان هو يوم "التسمية"، هذا اليوم يوافق اليوم السابع بعد الولادة مباشرة. الشرع يحبذ فى ذلك اليوم قص شعر الرأس وذبح كبش أو كبشين، وهذه الأضحية يطلق عليها اسم العقيقة . هذه العقيقة، إن صح التعبير، يمكن الوفاء بها فى مرحلة متأخرة من حياة الفرد، أو حتى بعد وفاة الشخص الذى تخصه تلك العقيقة. واقع الأمر أنه رغم أن المكيين يذبحون فى العادة خروفا بمناسبة التسمية، فإنهم لا يربطون هذا الخروف بفكرة العقيقة.

مع اقتراب اليوم السابع، يرسل الأب أو ولى أمر الطفل رسائل إلى أصدقائه يطلب إليهم فيها الحضور إلى منزله لتناول فنجال من القهوة فى عصر اليوم المحدد.

وإذا لم يضف الأب أو ولى الأمر شيئا على ذلك، فذلك من قبيل الأدب الجم، نظراً لأن الضيف ينبغى ألا يعرف سبب مثل هذه الدعوة، أو بالأحرى فإن الضيف فى حل من معرفة سبب هذه الدعوة إلى هذه العزيمة، وبالتالى يكون الضيف قد حل من الالتزامات التى تنطوى عليها مثل هذه الدعوات أو هذه المعرفة. لكن من الشائع أن يضاف إلى الدعوة عبارة تقول "بمناسبة اليوم السابع للطفل". إذا ما حدثت هذه الإضافة، تعين على المدعو أن يتساءل: هل هذه تسمية ؟ وإذا ما جاءت الإجابة بنعم فإن ذلك يحتم على الضيف الذهاب فى المساء السابق لليوم السابع إلى والد الطفل، نظرا لأن الاحتفال بالتسمية يبدأ اعتبارا من ذلك الموعد. ويقرع الناس الطبول (والناس هنا يطلقون على هذه الطبول اسم زير) بعد عصر اليوم نفسه أمام المنزل لإشهار التسمية، ويتجمع الضيوف بعد صلاة المغرب.

فى البداية تقدم القهوة وحدها مع تبادل المجاملات الكلامية، يصعد بعد ذلك رجل صغير السن من أفراد الأسرة إلى السيدات اللاتى يكن مستعدات بالطفل، يرقد الطفل ملفوفا بقطعة من القماش تتلألأ بفعل الذهب والمجوهرات المرصع على مرتبة من قماش الحرير اللامع (الساتان). هذه المرتبة منثور عليها نجوم من الفضة فى مهدٍ أو فوق صينية صغيرة جميلة. وتطلق السيدات وهن يسلمن الطفل إلى الشاب الزغاريد (وأهل مكة يطلقون على الزغاريد اسم "غطرفة"، وذلك على العكس من الأماكن الأخرى التى تطلق على هذه الزغاريد اسم "زغاريت")، التى تصاحب المناسبات البهيجة فى كل بلاد اللغة العربية. مسألة التسمية هذه يعهد بها إلى صديق متعلم(١٧) أو قريب، يُسلم الطفل بعد ذلك له. بعد البسملة الأولية، يردد ذلك القريب أو الصديق الأذان فى أذن الطفل اليُمنى، ويردد الإقامة فى أذن الطفل اليسرى(١٨)، ثم يلقى خطبة دينية قصيرة، تدور

---

(١٧) يروى مفتى المذهب الشافعى أحمد بن زينى الدحلان المتوفى عام ١٨٨٦، فى كتابه عن تاريخ مكة، يروى بشىء من الفخـر أنه أوكلت إليه تسمية ابن من أبناء الشريف العظيم.

(١٨) هذه الصيغ تناسب هذه المناسبة، والسبب فى ذلك أن النطق بالشهادة يتكرر فيها مرات عدة.

حول دلالة الأسماء التى يميز الله بها مخلوقاته بعضها عن بعض، ثم يعلن اسم الطفل فى نهاية المطاف. وإذا ما أوكل الوالد اختيار اسم الطفل لذلك المتعلم (الفقية) قام الرجل بأداء صلاة الاستخارة ويحدد الاسم فى ضوئها، أو قد يختار للطفل اسما شهيراً يمكن أن يكون حامله مثلا يحتذيه الطفل. لكن والدى الطفل هما اللذان يختاران الاسم فى معظم الأحيان. وفى كل الأحوال يكون الاسم ذا علاقة بالدين، أو المقدسات التى تتصل بتلك الصيغة التى يرددها ذلك الفقيه فى نهاية خطبته، والتى يقول فيها : "أسميك بالاسم الذى سماك به الله"(١٩) ثم يضع ذلك الفقيه بعد ذلك هدية نقدية أسفل المرتبة التى ينام عليها الطفل، وتكون تلك الهدية ملفوفة فى الورق، وتتراوح قيمة هذه الهدية بين نصف دولار وخمسة دولارات. المكيون يؤكدون أن مبالغ كبيرة كانت تدفع فى الزمن السابق، بل إن صكوك ملكية المنازل كانت تمنح أيضًا فى تلك المناسبات.

يقترب الضيوف الآخرون بعد ذلك من الطفل، ويضعون هم أيضًا لفائف صغيرة تحت المرتبة(٢٠). يقوم الخدم بعد ذلك بوضع طبق من الحلوى أمام كل ضيف من الضيوف، ليلفَّ الضيف الطبق فى قطعة من القماش ويأخذه معه إلى منزله. ومن

---

(١٩) الأسماء التى تعطى للأطفال المولودين أحرارا فى مكة، هى الأسماء نفسها التى يستعملها الناس فى سائر أنحاء العالم الإسلامى. أما الأسماء المعتادة التى تطلق أو تعطى للعبيد فمنها على سبيل المثال : أمان، فريج، يسر، جوه، ألماس، مرجان، فيروز، عبد المولى، عبد الخير، خير الله، سعد الله ، مرزوق، بخيت، أما أسماء الإماء فهى : فضة، طرنجة، علطير، غزلان، بخيته، بركة، مبروكة، سعيدة، سيدة، وسيلة، سلمة، دام الحسنة، جاد الكريم، خدم الله، بحر الزين ، خيزران ، إلخ.

(٢٠) هذه ليست عادة من العادات المستديمة، وإنما هى تحدث بين الحين والآخر عندما يقدم الطفل للضيوف كلهم حسب الدور، لكى يشارك الجميع فى قص شعر الطفل، ولذلك يوضع مقص كبير على الصينية التى يرقد عليها الطفل، ويقوم كل ضيف من الضيوف الحاضرين بقص شعرتين من شعر الطفل.

الأشياء الأصيلة فى حفل التسمية هذا ذلك النوع من الفطائر الأسطوانية الشكل والتى يتراوح وزنها بين نصف رطل إلى رطل ويصل طولها إلى حوالى ديسمترين [٢٠ سنتيمتراً]، والتى يطلق الناس عليها اسم "أبنوتة" وجمعها "أبانيت" .

فى هذا الوقت نفسه يقف أفراد الأسرة عند مدخل المنزل على شكل صف، تراعى فيه الأقدميات والأولويات طبقًا للسن ودرجة القرابة. ويبارك كل ضيف من الضيوف لأهل الطفل قائلاً : مبارك إن شاء الله . ويجىء الرد على النحو التالى : ربنا يبارك فيكم، شكر الله مسعاكم . فى العائلات الكبيرة جدا تقيم النساء فى أثناء الليل احتفالات كبيرة تشمل فقرات ليست من الدين فى شىء تؤدى البنات فيها الأغنيات التى يرددنها فى الأعراس والزواج.

يبدأ الطهو قبل ظهيرة اليوم التالى، فى هذه الحفلات الكبيرة يجلبون طباخًا يحضر معه قدراً كبيرة ويشعل ناره فى الممر القريب من المنزل. ومكونات الوجبة الرئيسية عبارة عن الأرز ولحم الضأن. وتتنوع التوابل تنوعًا كبيراً قدر المستطاع، والزرابيان طبق من الأطباق التى تظهر على موائد العرس، وهو يتكون من الأرز ولحم الضأن المطهو فى قدور كبيرة مع خليط كبير من الزبد واللبن الحامض، وقدر كبير من التوابل التى من قبيل الزعفران ... إلخ.

هنا نلاحظ أن الدعوة إلى تناول القهوة فى مكة لها معنى شامل، مثل الدعوة إلى تناول الشاى فى ألمانيا. ويجرى على الفور تقديم القهوة للضيوف عقب دخولهم وقبل أن تبدأ "العزيمة". ثم يؤتى بعد ذلك بالأطباق المعدنية، وعلى كل طبق منها طعام يكفى خمسة أشخاص أو ستة. قبل ذلك، يُمد سماط طويل من القماش الأبيض أمام الضيوف الجالسين على امتداد الجدار، وبذلك يكون السماط على شكل هندسى ذى أربعة أضلاع. وبعد أن يوضع الطبق أمام الشخص الخامس، ينادى مباشرو الوليمة قائلين : اتفضلوا، وعندها يبدأ الجميع تناول الطعام بعد أن يتجمع كل

أربعة أشخاص أو خمسة حول طبق من الأطباق. وفيما بين الساعة الواحدة والثالثة يتواصل مجيء الضيوف، نظراً لغموض الموعد المحدد فى الدعوة ، وعليه تمتلئ بعض غرف الاستقبال وبعض الغرف الجانبية بالزائرين. وبعد تناول الطعام يعود الضيوف على الفور إلى منازلهم، ولا يبقى منهم سوى قلة قليلة تنتظر شرب الشاى.

***

يتحدد زمن تطهر المرأة بعد الولادة طبقًا للشرع بحوالى أربعين يومًا. فى اليوم الأربعين تقام "عزيمة" صغيرة، تدعو المرأة إليها كل أصدقائها، فى حين تقام للرجال حفلة صغيرة للأصدقاء المقربين والحميمين وحدهم. فى العصر تأكل السيدات ويشربن وحدهن. وقبيل غروب الشمس يذهبن بصحبة الأم الشابة إلى المسجد، ويأخذن معهن الطفل ملفوفا فى أغلى ملابسه وموضوعًا فوق مرتبة من الحرير اللامع ومزركشة بالذهب والفضة. تقوم النساء بتسليم الطفل إلى خصى (أغا) المسجد الحرام، الذى يفهم على الفور أن ذلك هو اليوم الأربعين منذ مولد الطفل، ثم يضع الطفل على عتبة الكعبة التى ترتفع إلى مسافة خمسة أقدام.

"يا الله وقفت على بابك أدعوك" هذا هو ما يقوله البائع فى أثناء تجواله فى الشوارع، وكما أن هذا البائع يطلب البركة من الله مع مطلع كل يوم، ويدعو الله أن تروج أعماله وتجارته، فإن الطفل المكى الصغير فى بدء حياته يوضع فى رعاية الله وحمايته، أمام باب الله. يبقى الطفل على عتبة الكعبة مدة عشر دقائق، ثم يقوم الخصى بإعادته إلى أمه، ويتلقى هدية لقاء ما قام به. وهنا تؤدى النساء صلاة المغرب مع الجماعة، ويعدن بعد ذلك إلى منزل الوليد الجديد، ويجلسن جلسة اجتماعية إلى ما بعد العشاء بفترة قصيرة (موعد العشاء يكون بعد ساعتين من أذان المغرب).

هؤلاء الحضارمة الذين ليسوا من المكيين هم الذين اعتادوا على ختان أطفالهم فى اليوم الأربعين. فى وسط الجزيرة العربية، هناك بعض القبائل التى تجرى عملية الختان عندهم فى سن كبيرة وبطريقة مؤلمة، وربما كانت خطيرة أيضاً إلى حد ما. عند هذه القبائل تقف خطيبة الرجل الذى يجب ختانه أمامها، لتقف على مدى شجاعته، ويصل الأمر إلى حد إلغاء الخطوبة إذا ما تأوه الرجل أو عبر عن ألمه، وهذا هو ما سمعته عن هذا الموضوع[٢١].

المكى لا يجرى ختاناً لطفله إلا فى الفترة ما بين سن الثالثة والسابعة من عمره. والفقراء من الناس يتحينون فرصة قيام أحد الميسورين بعمل حفل ختان لولده ويسمح لهم بالمشاركة فيها على حساب ذلك الميسور. ختان البنات يجرى فى خصوصية تامة، واللاتى يحتفلن هن النساء، أما الرجال فيستقبلون أقاربهم وأصدقاءهم المقربين فقط.

فى اليوم السابق للختان (وهم هنا يقولون للختان "طهار" أو " تطهير") يتجولون بالصبى فى موكب مهيب فى شوارع البلدة. ويحضر الضيوف المدعوون حفل غذاء يقام بعد الظهر مباشرة. بعد العصر (أى عند الساعة الثالثة بعد الظهر) يقرع بعض الرجال بالقرب من باب المنزل الطبل الكبير إيذانا ببدء موكب الاحتفال، بعد ذلك يطبل

(٢١) أتى كثير من الرحالة الأوروبيين على ذكر هذه العادات البربرية غير المتحضرة فى عملية الختان، وبخاصة فى غرب الجزيرة العربية وفى جنوبها. وقد حكى الناس لى فى مكة هذا الشيء نفسه، وقد نسبوا عملية الختان هذه إلى قبائل عسير وبعض القبائل الموجودة فى شرقىّ الطائف وفى جنوبيها، ونحن نقرأ عن وجود هذا الأسلوب فى الختان عند القبائل الموجودة فى جنوبىّ الطائف(*)، وبخاصة فى كتاب "موكب الحج" الذى ألفه صادق بك الضابط المهندس المصرى، وهذا الكتاب فيه الكثير عن جغرافية الجزيرة العربية والأجناس المختلفة التى تعيش فيها. ومع ذلك أجدنى أتشكك فى قصة الختان هذه وأقول إنها ربما كانت من قبيل الأساطير التى وردت عند لندبرج.

(*) هذا الأسلوب الجائر فى عملية ختان الرجال حكى لى عنه فى العام ١٩٨٨، زميل من متعلمى الجنوب وأكد صحة ذلك. (المترجم)

بعض الطبالين على طبول صغيرة، وعلى الدفوف (والناس هنا يقولون للدف "طار") ويحتل المشاركون أماكنهم فى الموكب، وتكون كل هذه الضوضاء مصحوبة بأذكار دينية ينشدها الرجال فى أثناء سيرهم على الطريق. فى مثل هذه المناسبة يردد المحتفلون ابتهالات الطريقة الرفاعية بصفة خاصة. يتقدم الرجال المنشدون الموكب ومن خلفهم الطفل ملفوفا في أثقل الملابس المرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، إلى حد أن وجهه هو الذى يكاد يُرى من خلال تلك اللفائف، ويدفع الطفل ليوضع فوق ظهر حصان من الخيول. ونظــرا لأن هــذا الطفل لا يستطيع ركوب الخيل فإن العديد من الرجال يسندونه من الجنبين، ويرفعونه إلى الأعلى ويحفظونه من الأسفل، ومن تحت أنفه قطعة من القماش منقوعة فى العطر. بعد ذلك تتقدم أَمَة عجوز سوداء من إماء والده، وعادة ما تكون تلك الجارية هى التى تشرف على القسم الأكبر من تنشئته، هذا يعنى أن هذه الجارية ستكون "دادته" . تتقدم هذه الأَمَة وهى تحمل فوق رأسها "منقلاً" مشتعلاً، وتواصل وضع الفَسُوخ فوق النار المشتعلة فى المنقل، وتضيف إلى ذلك الفَسُوخ شيئا من الملح. ويؤدى احتراق الفسوخ والملح إلى حدوث بعض الفرقعات العنيفة وانتشار رائحة كريهة جدا، والناس هنا يسلمون بأن هذه الرائحة الكريهة تسكت العين الشريرة التى يخشاها الناس فى مثل هذه المناسبات. ومن خلف الصبى الذى يلتئم الموكب أمام منزله يأتى رفاقه الفقراء، محمولين أيضاً على ظهور الخيل، لكنهم يرتدون ملابس أقل فخامة وروعة. ويتجول الموكب إلى غروب الشمس، خلال الشوارع الرئيسة فى مكة، ثم يعود فى النهاية إلى المنزل الذى بدأ منه. ومع استمرار الطبل والذكر، يُحمل الطفل لإيصاله إلى النساء، وهنا يتفرق الرجال المشاركون فى الحفل.

بعد صلاة العشاء (التى يدخل وقتها بعد ساعة ونصف الساعة إلى ساعتين من أذان المغرب) وإلى ما قبل منتصف الليل تقوم نساء العائلة بتحية صديقاتهن، ويتمتعن بالاستماع إلى بعض المغنيات اللاتى يغنين أغانى شبيهةً بأغانى الزواج فى حفلات

الختان. وفى صباح اليوم التالى، وبالتحديد عند شروق الشمس، يأتى الحلاق "المزيِّن" ومعه عدته (عبارة عن ملقط صغير للإمساك بتلك القطعة من الجلد الأمامى، والتى سيقطعها، وموسى)، ويسمى الحلاق بالله ويجرى العملية والطفل نائم على ظهره وأمه تحاول تشتيت انتباهه بالحلوى . ويوقف النزيف باستعمال الرماد الناتج عن حرق قطعة من القطن، والناس هنا يطلقون على البلاستر (الشريط المعقم) اسم "المرتاك" ولا يستعملونه إلا بعد وضع الرماد، ويلتئم الجرح خلال أسبوع. بعد العملية يتناول أقارب الزوج إفطارا من الحلوى الفاخرة يطلقون عليه اسم "زلابية"، وبذلك تنتهى المناسبة.

***

أولى نقاط التعليم الجيد فى الإسلام هى أن الطفل ينبغى أن يتعلم "دندنة" (أو تجويد) القرآن طبقًا للقواعد المعقدة المفروضة فى هذا الصدد. سوف نُعَرِّج فى الفصل الثالث على مغزى هذا التجويد فى الحياة الدينية والتعليمية. ويتعين علينا هنا أن نأتى على ذكر ما مفاده أن الوقت كله فى مدرسة الأطفال (التى يطلقون عليها هنا اسم "الكتاب") ينفقه المعلم أو الفقى (ويصح فيه أيضًا "الفقيه") فى التعليم بذلك الأسلوب المحفوظاتى العجيب. والأطفال الذين لا يقدرون على دفع التكلفة الصغيرة لهذه الطريقة من التعليم يتعلمون القرآن بالسماع من شخص متعلم، يقوم على تلقينهم أجزاء قصيرة من القرآن الكريم، هم بحاجة إليها فى تعاملاتهم الدينية. فى المدرسة يكتب الأطفال تحت إشراف الأستاذ واجباتهم القرآنية بالحبر على لوح من الخشب، الذى يُغسل بعد كل كتابة لتنظيفه. ويتعين على الأطفال كلهم أن يحفظوا عن ظهر قلب سورا قصيرة من القرآن، والهدف الأمثل أمام كل طفل هو حفظ القرآن عن ظهر قلب، أى أن يصل إلى ما يسمونه "الحافظ" (للقرآن).

والآباء الذين لا يودون لأطفالهم الاختلاط الزائد عن الحد بالأطفال الآخرين، يستأجرون فقيها، يأتى إلى منزلهم كل يوم، أو قد يتفق مع بعض العائلات على أن يتلقى أطفالهم تعليمهم الخاص مع أطفال آخرين. والبنات الصغيرات يذهبن مع الصبيان إلى المدرسة، لكنهن بعد سن الثامنة يبقين فى بيوتهن أو يرسلن إلى معلمة (فقيهة)، وفيما يتعلق بالإماء أو النساء الأخريات الكبيرات فى السن واللاتى يردن تحسين تعليمهن القرآنى يتعين عليهن أن يتلقين ذلك التعليم على أيدى مدرسات.

والأب عندما يصحب ولده أول مرة إلى المدرسة يعطى الفقيه هدية أو عطية معتبرة (الناس هنا يطلقون على هذه العطية اسم "استفتاح") تتراوح قيمتها ما بين ربع دولار ودولارين، وبدءاً من ذلك الوقت فصاعداً يحصل الفقيه كل يوم خميس على ما قيمته نصف بنس إلى ثلاثة أنصاف. وفى كل أيام الأعياد والمواسم، وكذلك فى الأعياد الرسمية، وفى المولد النبوى، وفى نصف شعبان، وفى المعراج ، يقدم الطفل نفسه أو عن طريق والده، هدايا للمعلم، حسب استطاعته وموارده.

فى المدرسة (الكتاب) يجلس الأطفال على الأرض على شكل دائرة حول المعلم مشكلين بذلك ضوضاء صاخبة بسبب واجباتهم الموحدة، ويراقب كل واحد من هؤلاء الأطفال صوت الفقيه القلق هو وعصاه، هذا الفقيه لديه القدرة على تمييز من يُلْحن من هذه المجموعة ثم يقوم بعد ذلك بمعاقبة مرتكب هذا الخطأ.

طفل المدرسة يخاطبه الناس دوماً فى بداية الحوار بالسؤال الآتى : ما سورتك ؟ هذا السؤال طرحه السلطان الشركسى(*) (فى العام ١٥١٢) على أبو نُمَىٍّ

(*) السلطان الشركسى كان آنذاك هو السلطان قنصوه الغورى الذى هزمه السلطان سليم الأول فى معركة مرج دابق عام ١٥١٦ ، وأعقب ذلك دخول القاهرة بعد انتصاره على طومانباى آخر سلاطين المماليك فى معركة الريدانية عام ١٥١٧ ، وانتهت بذلك دولة المماليك الجراكسة . (المراجع)

البالغ من العمر ثماني سنوات في ذلك الوقت، وأبو نُمىٍّ هذا كان وارثا للشريف، وكان قد جاء إليه نيابة عن والده، وجاء دور الطفل على النحو الآتي : "الفتح" (أي السورة رقم ٤٨) التي جاءت كلماتها بمثابة عرافة أو كهانة خادعة للسلطان الشركسي توحي بانتصاره على الأتراك.

وعندما يصل التلميذ إلى النصف أو ما يقرب من الثلثين (أي إلى السورة رقم ٣٦(*) من القرآن) يبلغ الفقيه ذلك لوالد التلميذ. وهنا يحدد الوالد يوم العزيمة، التي يدعى إليها كل التلاميذ إلى جانب الفقيه. في مثل هذا اليوم يرتدى تلاميذ المدرسة أبهى ملابسهم المطرزة بالذهب، ويأتون ومعهم ألواح الكتابة وقد حملوها على رءوسهم، ويذهبون إلى منزل صديقهم المحظوظ، الذي يحمل هو الآخر لوحه ملفوفًا في قطعة من القماش مطرزة أطرافها بالذهب. ويوضع هذا التلميذ في المنتصف، ويرتب التلاميذ أنفسهم على شكل صفوف ويمشون خلال البلدة، في حين يلقى تلميذ من التلاميذ الكبار قصيدة أو اقتباسًا من بعض آيات القرآن، ويكون موضوع القصيدة امتداح القرآن والنبي ﷺ ، كما يتلون جميعًا بعض الآيات (كما هي الحال في الآية ١٠٧ من السورة رقم ٢١ من القرآن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ .

وعندما يعود التلاميذ إلى المنزل يجدون أقاربهم الرجال جالسين مع الفقيه ويشاركون في تناول الغداء، ويحصل الفقيه على هدية تتراوح بين دولار وثلاثة دولارات. هذا الاحتفال يطلق الناس عليه اسم "الصرافة" .

هناك احتفال أيضًا يطلقون عليه اسم "الإقلابة"، يجرى عندما ينهى الطالب حفظ القرآن كله، ويجرى بهذه المناسبة توزيع عدد كبير من الدعوات لحضور هذا الاحتفال

(*) السورة رقم ٣٦ هي سورة يس ويطلق عليها "قلب القرآن"، وليست منتصف القرآن، ويُحتفل عادة بوصول الحفظ إلى "يس"، باعتبار أن المعتاد البدء من قصارى السور، من سورة "الناس" فما قبلها . (التحرير)

الذى يجىء بمثابة ختم لسنوات الدراسة ، كما تقيم سيدات المنزل حفلاً أيضًا بهذه المناسبة. وتكون الوليمة فى هذه المناسبة أكثر فخامة من حفل الصرافة، كما تصبح المكافأة التى يحصل عليها الفقيه أكثر كرمًا وسخاءً . وأصحاب المناصب الطيبة يرسلون للفقيه ثلاثين دولارا وحُلَّة (بدلة) كاملة، أو جُبَّة فى أضعف الأحوال. وفى هذه المناسبة أيضًا يتغنون ببعض الأناشيد الدينية، بعد حضور التلاميذ من جولتهم فى البلدة وقبل تناول الطعام.

الشريعة تحبذ احتفال المؤمنين بالمناسبات المفرحة كلها بتقديم الولائم، على ألا تقتصر الدعوة على الأصدقاء أو الجيران وحدهم، وإنما يجب أن توجه للفقراء أيضًا، والاحتفال الذى من هذا القبيل يطلقون عليه اسم وليمة، كما تنص الشريعة أيضًا على أن الزواج لا يتم إلا بوليمة(*). ولعلنا نلاحظ هنا أن الشرع يُتَّبع فى مكة بمعناه الواسع، كما أن بعض المناسبات العائلية التى سنأتى على ذكرها تسمح بإقامة عزيمة شبيهة بالوليمة إلى حد ما، ولكن الفقهاء وحدهم هم الذين يطلقون هذا الاسم. الاحتفالات الأسرية الأخرى كلها خارج نطاق الشرع، وهذه الاحتفالات تختلف باختلاف المناسبة نفسها، وتمثل كثيرا من الخصائص المحلية التى تتمثل فيها العرقية أكثر من الدين العالمى. والشريعة تقف موقفا لا مباليا من بعض هذه العادات، وتحرم بعضها الآخر ، كما أن الإسلام لم ينجح فى استيعاب كثير من هذه العادات أو استئصالها والقضاء عليها .

صحيح أن الوليمة بحد ذاتها تعد عملا دينيا، إذا لم تكن محفوفة بأشياء غير شرعية، لكن بعض الناس يؤثرون، على الرغم من ذلك، إقامة الوليمة مصحوبة ببعض الاحتفالات التطوعية، التى لا تزال تأخذ طابعًا مقدسًا. هذا يعنى أن مقيم الوليمة

(*) وليمة العرس ليست واجبة، بل هى من السنن المستحبة، عملا بقوله ﷺ لمن أعرس : "أو لم ولو بشاة"، أو كما جاء فى الأثر . (التحرير)

يدعو فقيها أو أكثر من أولئك الذين يتمثل دورهم فى تلاوة القرآن كله، وبعض الموالد أو السيرة المحمدية الشعرية أو التى من النثر المقفَّى، وبعض الابتهالات (أو الذكر) . مسألة تلاوة القرآن كله يشارك فيها الفقهاء، بل الضيوف أيضًا فى بعض المناسبات، والتى تتم بأن يقرأ كل واحد من الحاضرين جزءًا من القرآن، هى بمثابة الهدف الرئيسى من الاجتماعات المهيبة التى تحدث عندما يتوفى أحد من الناس.

بعض العائلات تلغى هذه القراءة، أو قد تسمح على أكثر تقدير بقراءة قسم يسير من القرآن. على الجانب الآخر، نجد أن مولد محمد ﷺ يشكل الجزء الرئيسى من الاحتفالات، إلى حد أن الناس عندما يقولون، "عندهم مولد اليوم"، فإنهم يعنون بذلك أن هناك عزيمة مقامة بمناسبة حادث سعيد. وليس مفروضًا أن يعرف الضيوف كلهم إن كان ذلك الحادث السعيد طهارة، أو زواجًا، أو عودًا حميدًا من رحلة من الرحلات، أو أى سبب آخر من أسباب تلك الدعوة، "هناك مولد" هذه العبارة تكفى.

قد يشكل بعض الأصدقاء جمعية يلتقون من خلالها كل أسبوع لقراءة القرآن أو الاستماع إليه، ويختم الحاضرون ذلك الاجتماع بإقامة مولد. خلاصة القول أن كلمة مولد يصح إطلاقها على جميع الاحتفالات، وهذا يتفق تمامًا مع التقدير والتوقير المفرط سابق الذكر لشخص النبى محمد ﷺ .

تجرى طباعة الموالد الأكثر شيوعًا. وهذه الموالد الشائعة لا تحتوى على سيرة واضحة، ولكنها عبارة عن نتف صغيرة فى أسلوب مقتضب يروى الأحداث فى سيرة النبى محمد ﷺ . وقد جرت العادة على المزاوجة بين الشعر والنثر المقفَّى فى الموالد، كما تروى أيضًا بعض المعجزات التى تعقبها الصلاة على محمد ﷺ ، كأن يقول الحاضرون "اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد". ومقدمة لمثل هذا الكلام يتلو الناس أو يرددون الآيات القرآنية (٣٣ : ٥٦) التى تقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ .

وفى الأجزاء النثرية يروح الفقيه يدندن بها دندنة مملة. ويتغنى ببعض أبيات القصيدة. وفى وسط الغرفة توجد مبخرة يرتفع منها دخان البخور أو العود الذى يتواصل وضعه على النار الموجودة فى المبخرة. يتغنى المنشد ببيت أو بيتين من بعض القصائد، وبين الحين والآخر نجد الجماعة كلها تشارك فى الإنشاد ببيتين آخرين يشكلان القرار :

"صلى الله على محمد صلى الله عليه وسلم"



بعد هذا القرار يقف كل الحاضرين، ثم يغنى كل الواقفين قصيدة بسيطة عن أسماء النبى ﷺ وصفاته. أو قد تكون قصيدة من تلك القصائد التى يكرر فيها المغنى الترحيب بالنبى ﷺ . والقصائد التى من هذا النوع تشمل كل ثلاثة أبيات منها على لقبين جديدين من ألقاب النبى محمد ﷺ :

"مرحبا يا نور العين ، مرحبا جد الحسين

مرحبا مرحبا ، مرحبا يا مرحبا"



تلى ذلك الأناشيد التى تعظم الله سبحانه وتعالى، ويرددها الجميع بعد الفقيه. فى هذه الأغنيات نجد أن مدح النبى ﷺ عنصر مهم أيضًا، وفى هذه الأناشيد يتوسل الناس إلى الله بأسمائه الحسنى التى يجرى التغنى بها على نحو إيقاعى، يعرفه كل المتعلمين.

لترديد أسماء الله الحسنى يستعمل المكيون مسبحة مكونة من مائة حبة يحملها كثير من المكيين فى أيديهم. هذه المسابح الجميلة، فى واقع الأمر تحل محل العصى التى يستعملها الشباب المكى فى النصب والغش والخداع بدلا من استعمالهم لها فى ذكر أسماء الله الحسنى فى وقت فراغهم. يزاد على ذلك أن هذه الأنشودة تكرر مئات المرات التوحيد، الذى تعد العبارة التى تقول "لا إله إلا الله ..." الشطر الأول منه :



وعندما ينشغل الضيوف بترديد تلك الأنشودة، تُمدُّ الأسمطة البيضاء المصنوعة من القماش أمام الضيوف، وفى النهاية يعطى المباشر إشارة إلى قائد الجوقة بإنهاء الأنشودة ثم الدعاء بعد ذلك. فى هذا الوقت نفسه يجرى إحضار الأطباق الكبيرة بواقع طبق لكل خمسة أفراد، وهنا يظهر الكثيرون من الحاضرين وكأن نظراتهم توحى بأن أفكارهم مقسمة بين الأشياء الدنيوية والأشياء الأخروية، وهنا نجد المكيين يحتفظون بالوسطية .

وكما سبق أن قلنا، فإن كثيراً من العادات، التى تتميز بها الاحتفالات الأسرية فى مكة عن الموالد الرسمية بما فيها من الجماعات وأطباق الأرز المزينة بزينات

مختلفة، كل ذلك يسير على العكس من الشرع بصورة أو بأخرى. فيما يتعلق بالنساء، نجد أن هذا الحكم ينطبق أيضًا على كثير من عادات النساء. من ذلك على سبيل المثال أن النساء فى الإقلابة يرحن يسلين أنفسهن فى أثناء الليل بالمغنيات والأغانى الخفيفة التى من قبيل الأغانى التى تغنى فى الأعراس والأفراح.

عندما ينهى الصبى أيامه الدراسية، تكون رغبات والده فى حياة ولده العملية المستقبلية قد بدأت تتبلور. والرجل المتعلم الذى يحب العلم والأدب يرى أن دخول ولده فى وضع غير وضع أبيه يعد إنقاصا من شأن الولد، ولا يوافق عليه إلا إذا اضطرته الظروف لذلك.

التجار الأثرياء وكرماء المحتد من الرجال يشعرون بسعادة بالغة عندما يشق أحد أبنائهم لنفسه طريقا فى العلم والتعلم، ويدرب التاجر أحد أبنائه فى أضعف الأحوال كى يخلفه فى إدارة ماله وأعماله. زرت فى مرة واحداً من معارفى من التجار، وقلت له إن صوت ولده البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا قد اخشوشن، فوافق الرجل على كلامى، وقال ربما كان السبب هو زواج ذلك الشاب قبل أيام قلائل. قال التاجر : لقد رتبت هذا الأمر أنا بنفسى، حتى يمكن لى أن أحتفظ به فى بيتى وفى مالى وأعمالى ومع امرأة أنا أعرفها . وبغير هذا الطريق يمكن لذلك الشاب تكوين علاقات خارجية وينصرف إلى سبل أخرى، هذا الرجل كان شديد الثراء. الناس الأقل ثراء من التجار يتمثل أملهم الأكبر فى تنشئة أولادهم على تجارتهم وعملياتهم المالية والأعمالية، وإذا ما كان لديهم أبناء عدة، فهم يفضلون فى أغلب الأحيان أن يقدموهم صبية أو مساعدين لصديق من الأصدقاء. وإذا أبدى أحد أبناء الطبقة الوسطى رغبة خاصة فى الاتجاه إلى التعليم الدينى، فإن الأب يصعب عليه رفض الموافقة على مثل هذه الرغبة والانصياع لها. والكثيرون من الأثرياء يرضخون لمثل هذه الرغبة، ولكنهم يخفون عدم رضاهم عن ذلك.

هذا النوع من التعليم مكلف تماماً، وأحسن نتائجه تتمثل فى إضفاء المزيد من التشريف والتكريم على صاحبه، وهذا أمر لا جدال فيه، لكنه لا يعود على صاحبه بأى دخل ، من هنا يتعين على الأسرة إعالة مثل هذا الابن لفترة طويلة من الزمن. هذا التعليم يجعل صاحبه غير حاذق، أو رقيق القلب جدا، أو متشككاً إلى أبعد الحدود فى تولى أى منصب من المناصب التى يكسب الناس منها عيشهم فى مكة.

قلة قليلة من هذه النوعية من الأبناء هم الذين يسببون هذه المتاعب لآبائهم. يقاوم الآباء فى أحيان كثيرة اشتياق أحد أبنائهم إلى أن يكون شيخاً (مطوفاً) أى مرشداً للحجاج. فى ريعان شبابهم يُرى أبناء المطوفين (الشيوخ) وهم يلعبون أدوار الرجال كريمى المحتد، ويوزعون أفضالهم على المكيين الآخرين. هؤلاء الشيوخ يأمرون فى كل مكان، وليس أمام الآخرين سوى الطاعة والامتثال. هؤلاء الشيوخ يرون مساعديهم الصغار الذين تحول بعض منهم إلى شيوخ مبتدئين، خلال الشهر الأخير من العام، وهم يقتادون يوما بعد يوم صفوفاً كثيفة من الحجاج، الذين يعلمونهم كيفية أداء مناسك الحج، ويتباهى أولئك الشيوخ الصغار كما لو كانوا يتولون قيادة سرايا من الجنود، فى حين تروح أيديهم اليمنى تتحسس الأرض من أمامهم بواسطة عُصى سميكة.

هذه المشاهد لا تروق فقط لأعين أبناء الشيوخ وترضى غرورهم، وإنما تجعلهم يظنون أيضاً أن جيوب هؤلاء الشيوخ الصغار ومساعديهم إنما تكون عامرة دوماً بالمال والنقود، وغالباً ما يسمع الإنسان المكيين وهم يعبرون عن رغبتهم فى الحصول على نصف بنس من كل حاج من الحجاج الذين يقفون على عرفات، هذا يعنى أنه لن يكون بين هؤلاء الشيوخ فقير، وسوف يتحولون جميعاً إلى أثرياء. ومن الطبيعى أيضاً أن نجد أفكاراً مماثلة لتلك الأفكار، لكنها أقل سذاجة، وهى تدور بخلد السواد الأعظم من المكيين طوال صيد الحجيج. يقول ولد الشيخ : الآن، هيا بنا نحصل على شىء من طريق إرشاد الحجاج، شىء من الربح دون بذل أى مجهود ودون أية متاعب. ما المهنة

أو الحرفة الأخرى التى تستطيع أن تكسب منها خلال أسابيع قلائل ذلك الذى يكفيك عاماً كاملاً؟ المطلوب منك فى مثل هذه المهنة ليس سوى أداء المناسك والصيغ بصورة أدق إلى حد ما مما يعرفه بالفعل كل مكى من أبناء مكة .

وهنا تصبح مهمة الأب أكثر مشقة عندما يحاول إقناع ولده بالتخلى عن تلك الخيالات "مطلوب منك أن تسأل السواد الأعظم من مساعدى المطوفين كيف يلاقون الأمرين فى اكتساب كسرة من الخبز، اسألهم عن الوقت الذى يمضونه مع الحجاج نظير مكافأة عبارة عن بعض العطايا التى ليست لها قيمة تذكر". أنا بنفسى شاهدت حالة من هذا القبيل لصبى (خادم) من صبية المطوف الذى حصل - نظير خدمته التى كانت تستمر من الصباح إلى المساء على امتداد بضعة أسابيع - على هدية عبارة عن صينية عليها قطعة من قماش الكتان، تصلح أن تكون قميصاً، وأربعة حبات من البطاطس، وقطعة صغيرة من النقود المعدنية. هؤلاء المقترون كانوا غالباً من الهنود. "إن مجرد معرفة المناسك لا تعود على صاحبها بشىء يذكر، الأمر يتطلب القدرة على التخاطب، والقدرة على التحمل، إضافة إلى كل أنواع الدراسات الخاصة، فضلاً عن المزيد من الحظ السعيد، والسبب فى ذلك أن من لا يدخل هذه المهنة عن طريق والده أو عمه أو عن طريق صديق خاص يجد نفسه فى موقف المساعد الذى يتساوى مع موقف الشحاذ، اللهم إلا باستثناء الاستمرار فى الشحاذة دون الحصول على شىء. يضاف إلى ذلك أنه ليس كل الشيوخ مؤهلين للثراء من وراء هذه المهنة، الكثيرون يبدأون العمل فى هذه المهنة مع بداية كل عام على الرغم من الزيادة فى عجزهم المالى". وليس شرطاً أن ينجح الآباء فى هذه المجادلات، الدافع عند الشباب له بريق الحياة العسكرية فى المدن التى لنا فيها بعض الحاميات، جاذبية المقامرة فى جهنم بحثاً عن الحظ والثروة.

***

الأبهى من الصرافة والإقلابة هو ذلك الذى يعرف باسم "عيد الفرح"، السواد الأعظم من المكيين يتمتعون بذلك العيد فى أيام شبابهم، ولكن البعض منهم يتمتعون بذلك العيد في مرحلة لاحقة أو متأخرة من حياتهم. والناس هنا يطلقون على عيد الفرح هذا اسم "السِّرارة"، عندما يعود أحد المكيين من زيارة قبر الرسول ﷺ فى المدينة المنورة يأتى إليه أصدقاؤه ويهنئونه بسلامة الوصول، وهو بدوره يقيم لهم وليمة أو بالأحرى عزيمة، وإذا ما جاء هؤلاء الأصدقاء خلال الأيام الأولى من عودة الرجل فإنه يقدم لهم إلى جوار العزيمة القهوة والسُّكَّريات، كما يقدم لهم أيضًا بعض الهدايا التقليدية التى أتى بها من المدينة المنورة. وهو يرسل مثل هذه الهدايا إلى بيوت أصدقائه. ومع ذلك، فإن السِّرارة لا تقام إلا مرة واحدة للعائد من زيارة المدينة (المنورة) إلى منزله، سواء كان ذكرًا أو أنثى. والسِّرارة التى تقام للكبار شأنها شأن زيارات التهنئة الأخرى، تُقدم الدعوة لحضورها قبل ثمانية أيام من عودة ذلك الشخص. أما فى حال عودة الأطفال أو النساء فإن هذه المناسبة يطلق الناس عليها اسم "عيد الفرح".

هؤلاء العائدون لا يدخلون مكة وعليهم تراب الرحلة وغبارها، ولكنهم يخيمون على جانب منطقة التنعيم (العمرة)، وينتظرون عندها وصول عائلاتهم. وسرعان ما يصل أقرب الأقارب حاملاً معه أبهى ثياب العطلات، وهو الذى يسميه الناس هنا زاير (بمعنى زائر القبر الشريف فى المدينة المنورة) كما يحمل أقرب الأقارب معه أيضًا كمية من الزينات الذهبية والفضية. والناس هنا يحضرون للصبية جملاً أو حصانًا مزينًا، ويحضرون للنساء أو البنات تختًا، محملاً على أعمدة بواسطة بغلين، أحدهما فى الأمام والثانى فى الخلف. بعد ارتداء الملابس يركب الزوار (أولئك العائدون من زيارة قبر النبى ﷺ) دوابهم وهم واعون تمامًا لأهميتهم الكبيرة. لقد سمع هؤلاء الزوار منذ طفولتهم الباكرة أن الرجل (أو حتى الطفل) العائد من زيارة قبر الرسول تنساب أو يجلب معه كل البركات والنعم.

وتُقبِّل أيادى مثل هؤلاء الأطفال، ويتبرك بملابسهم(٢٢) ويلمسهم الناس ويطلبون وساطتهم ، يفعل الناس ذلك كله طلبًا للبركة . ومن عيون هؤلاء الأطفال ينساب نور غريب يُذكِّر المتصوفين بما يسمى "نور محمد" ، ذلك النور الذى خلق قبل خلق العالم. يقول المهنئون للعائد "وجهك منور".

قبيل الظهر تصل الجماعة وفى منتصفها الزائر إلى مدينة مكة، من الناحية الشكلية قد يأخذ المشاهد الموكب على أنه موكب من مواكب الطهارة، لكن عند مدخل المدينة يجرى انتظار الطفل العائد لا من قبل الطبالين وحدهم الذين يحضرون حفلات الختان، وإنما من قبل أناس آخرين يحملون بيرقًا ثقيلاً من الحرير الهندى (الذى يقولون له "رزِه") وموشى بالذهب. وبذلك ينضم الأصدقاء والأقارب إلى الموكب، ويروحون يطوفون بالزائر فى أرجاء المدينة، وينتهى ذلك الموكب أمام منزل هذا الطفل أو الصبى. هنا، وفى الفضاء الواسع أمام باب المنزل، تعزف الطبول لحنها الأخير، فى حين ينزل الولد (أو المرأة حسب الأحوال) من فوق الدابة ويتبعه الأقارب على شكل صف إلى داخل المنزل، حيث تنتظره وجبة طيبة. وعلى الفور يتناول الجميع الطعام، وبعد أن يشبع الجميع يشكرون الله ويعودون إلى منازلهم.

وبالنسبة للنساء يبدأ الاحتفال بالسِّرارة بعد صلاة العشاء (أى بعد أقل من ساعتين من غروب الشمس)، ويستمر ذلك الاحتفال إلى ساعة متأخرة من الليل، يتمتعون خلالها بأكواب لا تحصى ولا تعد من الشاى، وأكواب الشربات، وتدخين الشيشة، فضلاً أيضًا عن الأغانى المثيرة للجنس التى سبقت الإشارة إليها مرارًا. وفى الصباح الباكر تتناول العائلة الزلابية مرة ثانية (والزلابية هذه نوع من الحلوى) فى الإفطار، وبعد طلوع الشمس يأتى الجيران والأقارب غير المباشرين لتقديم التهانى.

---

(٢٢) الطفل ليس عليه تكليفات أو التزامات إلى أن يبلغ الحلم، وبالتالى فهو خال من الخطايا، ولذلك يمكن تزيينه بالذهب والفضة، ويحرم على الرجال التزين بالذهب فى مثل هذه المناسبات، يضاف إلى ذلك أن الاحتفالات التى فى حياة الصبية تشبه تلك التى فى حياة البنات.

وكما هى الحال فى نهاية رمضان، تُقدم القهوة والحلوى والعطور لهؤلاء الزوار. ويبدأ هذا الجمع فى التناقص بعد صلاة الظهر، وهنا يجهِّز الخدم على وجه السرعة الغرف الطويلة لحفل الغداء، نظرا لأن هذه الوليمة التى قُدِّمت دعواتها قبل ثمانية أيام سوف تقام بعد صلاة العصر ، ويسبق حفل الغداء إقامة المولد، وإذا ما كثر عدد الضيوف إلى ما يزيد على ملء غرفتين - وهذا غالبا ما يحدث - فإنه يجرى توزيع هذه الزيارة على مختلف المنازل، وبعد ذلك يقام المولد فى غرفة واحدة أو غرفتين من غرف الاستقبال.

القسم الأول من هذه الإجراءات، وبالتحديد دخول مكة، يتعارض مع الشريعة الغراء، لأنه لا يتفق مع توقير واحترام بيت الله الحرام والمناطق المقدسة المحيطة به. والعرف يقضى بأن يكون كل من يدخل مكة حافى القدمين ولابسا ملابس الإحرام، وبدلا من ذلك يرتدى الوضعاء من الناس لباسا يشبه لباس أطفال الأمراء، ويدخلون المدينة راكبين مع ضربات الطبول، كما لو كانت مكة ملكا لهم. لا تزال قبضة العادات قوية إلى الحد الذى يجعل كبار المتدينين [العلماء] ينظرون باستياء ويهزون أكتافهم وهم يتعجبون من روح العصر: "هاهى الدنيا تتأخر وترجع إلى الوراء، فى عهد الخلفاء الراشدين كانت هذه العظمة والأبهة أمراً مستحيلاً، إضافة إلى أن احترام الناس للكعبة جعلهم لا يبنون منازلهم أعلى منها. أما الآن فإن المنازل الجيدة أعلى من الكعبة، كما أن الناس أصبح لا يراودهم الشك فى دخول مكة دون أن يرتدوا ملابس الإحرام، وذلك على الرغم من نزول الناس عن دوابهم أمام منزل الشريف الكبير". واقع الأمر أن مثل هذا العالِم يبدو سعيداً، لأن روحى العصرين جرى التوفيق بينهما فى مكة.

***

هناك أيضًا عدد كبير من الاحتفالات العائلية التى يمكن أن نضيفها إلى تلك الاحتفالات التى سبق تناولها، لكنها ليست بحاجة إلى الوصف فى هذه العجالة

السريعة، لأنها كلها تتمثل فى المولد والغذاء. على رأس هذه الاحتفالات كلها يجىء احتفال الزواج أو العرس.

يجب أن نلاحظ منذ البداية أن وصف الزواج الذى نأتى عليه هنا إنما ينصب على زواج الشاب من عذراء (والناس هنا يقولون العذراء "بنت البيت") . والرجل الذى يشغل منصبًا فى المجتمع يندر أن يخضع لتلك المعاملات التى يتعين أن يخضع لها الطفل الكبير، وفيما يتعلق بالنساء قد يكون من باب السخرية والاستهزاء أن تلعب المرأة دور العروس مرتين أو ثلاث مرات. وعندما تكون العروس مطلقة أو أرملة والعريس شابا صغيراً فإن الاحتفال يعتمد على الظروف. فى مثل هذه الحال يدعو العريس بعضا من الأصدقاء الطيبين والأقارب من الذكور من الجانبين لتناول العشاء، الذى يقدم بعد إتمام الزواج ببضعة أيام، فى حين تحضر العروس قبل الذهاب إلى بيت عريسها، حفلاً مكونًا من السيدات والبنات المغنيات، وقد يمتد ذلك الحفل إلى أمسية واحدة أو أكثر من أمسية. وإذا كانت العروس من اللاتى يغيرن أزواجهن بين الحين والآخر، فإنها سرعان ما تبدأ النظر إلى هذه التكاليف بوصفها أمرا مكروها وليس محببا إلى النفوس، وتميل فى مثل هذه الظروف إلى الاقتصاد قدر المستطاع. ومسألة الزواج دون احتفالات باتفاق الطرفين على ذلك أمر نادر الحدوث إن لم يكن مستحيلاً.

وفى يوم إبرام العقد (المـلْكة) تُنقل متعلقات العروس إلى بيت العريس، ثم تأتى هى فى فترة متأخرة من المساء نفسه. هذا الإجراء يتبع دوما فى حال إبرام عقد الزواج لفترة محددة. والشرع كما هو معروف يدين هذا النوع من زواج المتعة، وذلك على الرغم من تباين الآراء حول هذا الموضوع فى المجتمعات الضاربة فى القدم. الشيعة يقرون هذا النوع من الزواج، ويستفيدون منه فى الجمع بين أكثر من أربع زوجات فى آن .

أهل السنة يختلفون حول مغزى الشرع الذى مفاده أنه إذا كانت المواعيد المحددة فى العقد تبطل عقد الزواج، فإن الوعود والاتفاقات الشفاهية بكل أنواعها والتى تتم

خارج العقد تكون ملزمة من الناحية الأخلاقية. هذا يعنى أن الرجل يمكن أن ينفصل عن زوجته فى أى وقت من الأوقات، وإذا ما تقدم غريب، من أهل المدينة (المنورة) على سبيل المثال، للزواج من امرأة مكية، فإن الأسئلة التى تدور فى ذهن مثل هذه المرأة، مع مثل هذا العرض هى : ما المدة التى ستمكثها هنا فى مكة؟ وما الذى ستفعله معى عندما تود مغادرة مكة ؟ وإذا ما رد الرجل عليها بأنه يود البقاء مدة ثلاثة أشهر، ويود الحصول على زوجة لفترة من الوقت، هنا تقوم المرأة بعمل حسبة معينة، عشرة دولارات للمهر، واثنى عشر دولارًا للإعاشة كل شهر، ثم ثلاثة أشهر بعد الانفصال، هذه الأشهر الثلاثة الأخيرة هى ما يسميه الناس هنا العِدَّة . وتشترط المرأة دفع هذا المبلغ بكامله مقدمًا. ويجرى بعد ذلك إتمام الزواج ، وبذلك نرى أن المتعة التى يحرمها ويستنكرها أهل السنة، هى التى قاموا بتهريبها إلى مكة.

هذه العلاقات لا تنطوى على أى ظل من ظلال الشرع، هذا يحدث عندما يتزوج شاب من أسرة مكية من عذراء، وعندها يمكن أن تحدث مثل هذه اللمسة السحرية، حتى إن كانت من الناحية الشكلية فقط. يتراوح سن العروس هنا ما بين ١٢ و ٢٠ عامًا، أما سن الشاب فيتردد ما بين ١٤ و ٢٥ عامًا. وعلى الرغم من صغر سنهما فإنهما قد بلغا ووصلا النضج الجنسى منذ فترة طويلة. وإذا كان الشاب من أسرة ميسورة، فإن والده أو ولى أمره يبادر بإعطائه جارية لتكون محظية له، عندما يتبين الأب أو ولى الأمر ميول ولده فى هذا الاتجاه. وقد سبق أن رأينا أن الزواج الأول لا يتأسس على الحب، أو حتى على رغبة العريس. قد يحدث أن يقف الشاب موقفا سلبيا إلى حد ما من والده ومن الترتيبات التى يتخذها ذلك الوالد من أجل تزويج ولده، دون ممارسة أى نوع من الضغوط. يضاف إلى ذلك أن الفتاة يندر أن تجبر على الزواج، ومع ذلك فالناس يتوقعون من مثل هذه الفتاة التصرف كما لو كانت تلتزم بما خططه والدها، وذلك من باب الطاعة ليس إلا.

الخِطبة، بمعنى العرض المبدئى للزواج، يتقدم بها أقارب العريس من النساء وذلك بزيارة أم العروس، كما تعد هذه الزيارة من الناحية الشكلية زيارة استطلاعية. فى هذه الزيارة تقوم قريبة العريس برؤية الفتاة ومعاينتها، وتتقصى أخلاقها وسلوكها وشخصيتها، وإذا ما جاءت النتائج مواتية للآمال المعلقة على تلك الزيارة، يتحول الحوار بالتدريج نحو استيضاح إمكانيات النجاح فى التقدم لخطبة الفتاة. وإذا ما كانت العائلتان على وفاق تهيأت الفرصة على نحو أفضل، للحصول - عن طريق الحوار الغامض والمعلومات الواضحة - على إمكانية الارتباط بين العائلتين، ومع ذلك تظل زيارة قريبة العريس للعروس أمرًا مطلوبًا، الأمر الذى يجعل من هذه الزيارة مدعاة للتفكه والضحك . القاعدة تنص على أن الفتاة نفسها، موضوع الزيارة، يجب ألا تكون فى غرفة الاستقبال. وهنا يتعين على الزائرة أن تفصح عن رغبتها فى رؤية الفتاة. وإذا ما بدر الشك بأى شكل من الأشكال، فسرعان ما تفهم الزائرة، من استقبال الطرف الآخر للطلب، إن كان يتعين أو لا يتعين عليها الاستمرار فيما جاءت من أجله.

فى النهاية تقول الزائرة للفتاة: "إن شاء الله سنصبح أقرباء"، وهنا تقوم أكبر السيدات سنا بالإعراب عن الموافقة، فى حين تروح الفتاة تكشف عن حيائها وكسوفها. وبعد أن تقدم المبعوثة تقريرها، يذهب أحد أقارب العريس من الرجال إلى بيت العروس ليدعم موافقة النساء بموافقة الرجال، ويختار لهذه المهمة أحسن المتكلمين وأفضلهم لغة وتعبيرًا، وأكثرهم فهمًا فى دنيا المال والأعمال. ويُستقبل هذا المبعوث بحفاوة مثلما حدث مع المبعوثة التى سبقته، كما يقدمون له القهوة وما إلى ذلك. وهنا يحدد الكبار يوم المُلْكة[٢٣] (أى يوم عقد القران).

---

(٢٣) فى حال زواج الأطفال، وفى بعض حالات الزواج الذى نتناوله هنا بالوصف، نجد أن المُلْكة تسبق إجراءات الزواج الأخرى بشهور أو حتى بسنين.

وبرقة مصطنعة يروحون أيضاً يناقشون مسألة المهر بدقة وحرص التجار. فيما يتصل بقيمة المهر ليس لدينا كثير نقوله فى هذا الصدد، فى حالة الأسر الميسورة يطلب الأهل مهوراً لتباهى الجانبين، وهنا نجد والد العريس يزيد على المهر الذى طلبه أهل العروس. والأب الذى من الطبقة المتوسطة يطلب مهراً لابنته يقدر بمئات الدولارات، لا حبا فى النقود ذاتها، وإنما ليعرب عن اهتمامه بابنته. بعض آخر من الآباء يقول إن الزوج الصالح مرحب به حتى وإن لم يدفع سوى بنسات قليلة من الناحية الشكلية. وفى الطبقة الفقيرة نجد الآباء يغالون فى المهور ويصرون عليها بسبب بسيط، هو أن تكاليف العرس كلها ستدفع من هذا المهر، كما تحتفظ العروس بشىء من هذا المهر تحسبا للانفصال مستقبلاً. أما الفقيرات إلى حد الإملاق فيجب أن يكنَّ على استعداد للتغاضى عن كل شىء، ويرضين ببضعة دولارات قليلة، اللهم إلا إذا استثار جمالهن الأغنياء. مناعم المرأة وجمالها هنا هما الأوفر حظا، وفى الإسلام لا يسمح لرجل بالدخول فى زواج غير متكافئ، فى حين يلزم الشرع المرأة بالزواج من رجل مساوٍ لها فى المنزلة أو أعلى منها. خلاصة القول أن هدية الزواج هنا تتباين تباينا كبيراً.

تأكيدا للاتفاقات التى توصلوا إليها يقرأ الرجال الفاتحة. ومن هنا نجد التعبير الشائع فى لغة الناس هنا، "قرأوا فاتحتها"، بمعنى أنها أوشكت أن تتزوج. قبل أيام قلائل من المُلْكة يرسل والد العريس أو العريس نفسه بعض أقاربه الرجال إلى والد العروس ليسلموا له مهر العروس، أو على الأقل ذلك الجزء الذى يدفع من المهر قبل الزواج. يحمل أحد هؤلاء الأقارب صينية مفروشًا عليها مفرش مساحته حوالى خمسة ياردات من الموسلين (الشاش) أحمر اللون. ومن فوق هذا المفرش قطع الذهب وبعضاً من قطع السكر النبات، وبعض حبوب الهيل (الحبهان)، وبعضًا من الياسمين العربى المتفتح (الفل)، والمنظمة فى أشكال جميلة. ويكون كل ذلك مغطى بمفرش من قماش التل، أطرافه مطرزة بأشكال وزينات من

خيوط الذهب. وفى منزل العروس يقدم كل من الرجال والنساء فى الأماكن المخصصة لهم القهوة والشربات للضيوف، وعندما يظهر الضيوف تنطلق الغطرفة[٢٤] (الزغاريد) مدوية من محل النساء. وهنا يقوم الرجال لاستقبال الضيوف ويعبرون عن إعجابهم بهدية الصباح (أى المهر).

وكما سبق أن أوضحنا، فإن هذه الهدية من الناحية الشرعية تعد حقا للعروس، وفى حالات الزواج التى تلى ذلك يُسلم المهر مباشرة إلى العروس بعد خصم أتعاب المراسيل، لكنها الآن وهى فى شبابها، وفى ظل عدم خبرتها، يتولى الأب أو ولى الأمر شئونها المالية، فهو الذى يشترى مستلزمات البيت، ومن هنا ينظر الوالد أو ولى الأمر إلى المهر وكأنه من المصروفات قبل أن يتسلمه. وإذا كان الأب ميسور الحال، فإنه يزيد المهر المدفوع، أما إذا كان فقير الحال فهو يأخذ من المهر جزءا لنفسه يفك به ضائقته. وقبل أن ينصرف ممثلو العريس يطلبون من أقارب العروس مزيدا من إشهار استلام المهر "نحن جميعًا أصدقاء ولكنكم تعلمون أن الرجل يعطيها كذا ..."، وهنا يقاطع أقارب العروس بالإشهار المطلوب.

قواعد المُلْكة (التى يطلقون عليها رسميا اسم عقد النكاح)، أو بالأحرى إبرام العقد، تعد غاية فى البساطة. والعرض الرسمى الواضح من جانب ممثلى العروس يتلوه مباشرة قبول رسمى من جانب العريس، ويجب أن يشهد على ذلك شاهدان فى أضعف الأحوال، وبذلك يتم إبرام الزواج. ومن بين الأشياء الاختيارية فى الشرع أن يزيد عدد الشهود الذين يحضرون إبرام العقد، وإلقاء خطبة أو أكثر من الطرفين عن

(٢٤) انتاج صوت ترددى، أطلقه بعض الرحالين، مثل وُلْوُل wulwul . هذا الصوت ليس دقيقًا فى مكة، لأن الغطرفة فى مكة تشبه شقشقة الطيور، فى حين أن الولولة تسمع من أفواه النساء، وهذه (الولولة) قد تكون تعبيراً عن خيبة الأمل أو عن التعاطف. والغطرفة عبارة عن ضحك هستيرى وانشراح هستيرى، أما الولولة فهى توحى بالبكاء.

أهمية الزواج بوصفه أمراً شرعيا. وهذان الشرطان يتوفران فى مكة فى زواج العذراوات، وإلى حد ما فى الزيجات الأخرى.

هذا الأمر يتشابه مع عقد القران فى المنزل (عادة ما يكون منزل العروس) أو فى المسجد. ففى الحالين تجرى دعوة المعارف من أقارب الطرفين الذكور، ويجلسون على شكل صفوف مستقبلين الكعبة، كما لو كانوا سيؤدون الصلاة جماعة، فى حين يجلس الشيخ مواجها لتلك الصفوف وعند منتصف الصف الأول. ويندر أن يكون هذا الشخص وليا (أبا أو ولى أمر) للعروس، وإنما يكون شخصًا مفوضًا من قبل الولى أو نائبًا عنه. هذه المهمة لا تنطوى على جهد كبير، لكن يتعين أن يكون المُمَلِّك، أو بالأحرى عاقد، النكاح (وهذا هو الاسم الذى يطلقونه على من يقوم بهذه المهمة) على علم بشكليات هذا الموضوع وبرسمياته أيضًا، ولابد من أن يكون حافظًا عن ظهر قلب خطبة بعينها. وليست هناك خطبة أقوى من خطبة الولىِّ، ونظرًا لعجزه عن هذه المهمة، فقد جرت العادة على أن يندب رجلا كفؤا للقيام بهذه المهمة[٢٥] الزواجية.

فى القرى لا نجد سوى عاقد نكاح واحد أو اثنين على أكثر تقدير، لكن فى المدن الكبرى توجد أعداد أكثر من عاقدى النكاح، والسبب فى ذلك أن الأسر الكبيرة يتوافر فيها شخص لديه هذه المتطلبات، هذا بالإضافة إلى أن الفقهاء (قراء القرآن المحترفين) هم ومعظم خطباء المساجد يعملون أيضًا عمل المُمَلِّكين. ولما كان القاضى هو المسئول عن البت فى شرعية وقانونية الزواج، ولما كانت الثقة بالمُمَلِّك أمرًا يخص القاضى أيضًا، فإن ذلك يتيح للقاضى شيئًا من السيطرة والتحكم فى هؤلاء المملكين. فى بعض البلدان قد يعين القاضى عددًا

(٢٥) الولى هو العريس والعريس يحق لهما أن يوكلا من ينوب عنهما. فى مكة يلجأ كل من الولى والعريس إلى توكيل من ينوب عنهما.

محدداً من هؤلاء المملكين، الذين يتعين على الناس الاتجاه إليهم فى مثل هذه الأحوال.

وكل مواطن متعلم فى مكة يمكنه الحصول على ترخيص [مُملِّك] من القاضى، حتى إن عددهم وصل إلى بضع مئات . والرجال المتعلمون الذين تعرفهم السلطات القانونية العليا ليسوا فى حاجة للحصول على تلك التراخيص . وقد حاولت السلطات التركية تطبيق سيطرتها عن طريق تعيين قلة قليلة من المُمَلِّكين لكل حى من أحياء المدينة، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام معارضة المواطنين وعدم رضاهم عنها، وبخاصة أولئك الذين يحتمكون إلى الشرع فى مثل هذه الأمور.

فى مكة قد يتقدم، فى بعض الأحيان عضو متعلم من أعضاء الأسرة، أو إمام المسجد، ليقوم بدور عاقد النكاح أو المُمَلِّك، وقد يقوم قارئ القرآن بهذه المهمة أيضاً.

بعد أن يجلس الجميع، يدخل العريس، بصحبة بعض الأصدقاء، ويتخذ مكانه فى مقدمة الصفوف إلى جوار المُمَلِّك، ويبدأ المُمَلِّك إلقاء خطبته بعد أن يحمد الله ويشكره ويصلى على نبيه. ويتخلل الخطبة بعض الإشارات المقتبسة من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف عن الزواج وعن طبيعته. وبعد أن يصل المُمَلِّك إلى أن "المخلوقات البشرية لا يمكن أن تتجمع أو تتفرق إلا بإذن الله ومشيئته" يختم كلامه بما يأتى : "زوجتك المرأة التى اخترتها (حماها الله من كل شر) فلانة بنت فلان، نظير الصداق الذى قدمته والذى اتفقتما عليه". وهنا يرد العريس على الفور قائلاً : "قبلت زواجها على الشروط المحددة بيننا". وعقب ذلك يقوم الحاضرون كلهم - وهم يفردون أيديهم أمام وجوههم كما سبق أن أوضحنا - بقراءة الفاتحة. وبهذه الطريقة يكون عقد المُلْكَة قد أبرم فى مكة. وتجرى الاحتفالات التى تصاحب عقد القران طبقًا للعادات والأعراف والشرع سواء من الناحية الشكلية أو من ناحية المضمون.

من "المألوف" تماما هنا أن تعقد الملكة فى المنزل بعد طلوع الشمس بسويعات، أما مسألة إبرام الملكة بعد غروب الشمس فى رحاب المسجد الحرام فأمر لا يتفق مع التقاليد السائدة أو المعمول بها. وفيما يلى أورد مظاهر استقبال الضيوف:

يُقدم فى بداية الأمر نوعان من الطعام للضيوف أثناء جلوسهم فى غرفة الاستقبال، أحد هذين النوعين حلو المذاق، والثانى "حادق" (مالح)، كما تُقدم أيضاً السُكَّريات واللحم المسوِّى، وربما كان مع ذلك شىء من "السقموط"، أو بالأحرى "البقسماط" . وقبل انصراف الضيوف يحصل كل واحد منهم على ما يعادل نصف رطل تقريبًا من الحلاوة (البنبون) السكرية، أو على نوع من الحلوى موضوع فى طبق مصنوع من السكر المخبوز وله غطاء من مادة الطبق نفسها (والناس هنا يطلقون على ذلك الطبق اسم "صحن بمكبته") . ويقف أقرب أقارب العروس والعريس على شكل صف عن يمين الباب أو المخرج لكى يردوا السلام والتحية على المغادرين ويشكروهم على حضورهم.

الأكثر شيوعًا هنا هو عقد وإبرام الملكة فى المساء بعد صلاة العشاء (أى عند الساعة التاسعة مساء) فى الحرم الشريف.

وعن طريق الاتفاق مع خدم الحرم يقع الاختيار على المكان المخصص لذلك فى الشمال الغربى من الكعبة، والذى هو على شكل هلال ويسمى بحجر إسماعيل، أو فى الطابق العلوى من مبنى زمزم، فى المكان الذى يؤدى فيه المحافظ وكبار المسئولين صلاة الظهر وصلاة العصر بسبب اشتداد حرارة الشمس فى ذلك الوقت فى صحن المسجد، كما يسمح لهم ذلك الطابق العلوى بأداء الصلاة بالقرب من الكعبة، لكن فى منطقة ظليلة. هذا المكان المخصص للمُلْكَة مفروش بالسجاد الفاخر ومضاء إضاءة جيدة بفوانيس تعمل بالشموع وبتنورات[٢٦] .

(٢٦) التنور عبارة عن وعاء من الزجاج معلق على حامل منخفض، مثل الفانوس، ويضاء بشمعة أو بواسطة إشعال مادة دهنية. أما الفانوس فهو الأكثر شيوعًا ويعلق فى المنازل أو يحمل فى الشوارع وفى المساجد. والضوء ينحصر داخل الفانوس فى مساحة محاطة بستة ألواح من الزجاج، ومثبت بالفانوس يد وحلقة لحمله أو تعليقه منها. ويوضع مكان الشمعة أو المادة الدهنية مصباح يعمل بالزيت، ولكن هذا المصباح الزيتى لا يمكن أخذه إلى داخل المسجد. تحريم دخول الفوانيس المضاءة بمصابيح زيتية لا يرجع إلى سبب شرعى، وإنما حرّمه الأتراك لسببين رئيسين، أولهما تحاشى حدوث حريق، والثانى تحاشى الرائحة الكريهة الناتجة عن حريق البترول.

توزيع السُّكَّريات بعد قراءة الفاتحة يتم بثلاث طرق. أحسن الطرق هي أن يحصل كل ضيف على ما وزنه حوالى نصف رطل من الحلوى ملفوفًا فى كيس صغير من الحرير الموسلينى الأحمر (والناس هنا يطلقون على هذا النوع من القماش اسم "شاش") . الطريقة الأخرى، وهى أقل من الطريقة الأولى، يأخذ كل ضيف بمقتضاها بعضا من أعواد السُّكَّريات الطويلة الرفيعة التى يطلقون عليها اسم أبنوتة، على أن تلف هذه الأعواد فى قماش خاص . والذى يريد تمضية هذه المناسبة على قدر سعته يكتفى بتقديم الشربات للضيوف عند الرحيل.

هناك طريقتان للشربات، الطريقة المكية والطريقة المدنية. الطريقة المكية تقضى بتمرير كأس مملوءة بالشربات على الضيوف، على أن يرشف كل ضيف منها رشفات قليلة. وطبقًا للطريقة المدنية فإن كل ضيف من الضيوف تقدم له كأس مملوءة بالشربات، ويتعين على الضيف أن يشربها كلها(٢٧)، وكبار الضيوف هم الذين يعدون القدوة التى تحتذى فى هذه المناسبة. طريقة الاستئذان لا تختلف عن الطريقة المتبعة فى البيوت الخاصة، اللهم إلا باستثناء أن يقف أقارب العروس والعريس لكى يودعوا الضيوف عند البوابة المؤدية إلى حجر إسماعيل، أو قد يقفون عند باب مبنى زمزم.

فى بعض الأحيان قد تتم المُلْكَة بعد غروب الشمس أو بعد العشاء فى المنزل، وفى مثل هذه الحال تكون المفردات الأخرى مثل المفردات التى تتبع فى الحرم. ولإعلان الجيران بالملكة يُدق الطبل الكبير (الذى يقولون له "الزير") أمام الباب، ويُضاء مدخل الشارع باستعمال بمصابيح زيتية يسمونها قناديل (القنديل عبارة عن مصباح زيتى على شكل طبق من الزجاج)، أو عن طريق البُرمات (البورمة مصباح زيتى كبير أسطوانى الشكل). فى المنزل لا يجرى تقديم الطعام،

(٢٧) هناك أيضًا نعلة مكية وأخرى مدنية، كما أن هناك طريقة مكية للف العمامة وأخرى مدنية.

لكن تقدم القهوة فقط، والمعروف أن القهوة تقدم للزوار طوال اليوم وفى أى وقت من الأوقات.

طبقًا للشرع يصبح بوسع العروس والعريس التمتع بالزواج بعد الملكة مباشرة، لكن طبقًا للعادات المتشددة يتعين عليهما في البداية المرور بسلسلة من الاحتفالات المرهقة، كما أن أصدقاءهما (وبخاصة الصديقات) يساعدون فى تلك الاحتفالات أو حتى يقومون بدور المتفرجين.

قبل الملكة بيوم واحد يوطد أصدقاء وصديقات العريس والعروس أنفسهم على المشاركة فى تلك الاحتفالات، وتقديم المزيد من الخدمات لعائلة العروس، فى تجميع المتطلبات العديدة التى تكلف الكثير منها مبالغ كبيرة، والخاصة بالزواج، ثم نقل هذه المتطلبات إلى منزل العروس والعريس. وسوف نوضح أن كلفة الطعام والشراب والإضاءة وأجر الموسيقيين إلخ، عالية جدا، الأمر الذى يجعل الأثرياء جدا هم الذين يقدرون على تحمل تكلفة تأثيث غرف العروس والغرف الأخرى. الأثرياء الملاك لهذه الأشياء الضرورية يعيرونها عن طيب خاطر، وحتى للغرباء عنهم، إذا ما أوحى لهم أصدقاؤهم بذلك، أما الأشياء الأخرى التى من قبيل المصابيح والدِّكاك والمقاعد، فيمكن تأجيرها. يضاف إلى ذلك أن التجار الأثرياء يضعون أسسا دينية للزينات المطلوبة للزواج، بحيث يتمكن كل إنسان فى ظل شروط معينة، من الحصول على حق استعمال هذه الزينات والاستفادة منها. ومن ثم تستطيع الفتاة الفقيرة التى من أسرة محترمة أن تصبح ملكة ولو لمرة واحدة فى حياتها.

***

تقول صديقات العروس الحميمات "أمس كان يوم مُلْكَة صديقتنا الشابة، وسوف نذهب إليها هذا المساء بمناسبة الحناء، وغداً سيفعلون لها الريكة، أما بعد غد فسيكون

يوم الغُمـرة . وهن يحتفلن فى السر بليلة الدخلة التى تجيء بعد الغُمرة. وهنا سوف نحاول الغوص فى هذه الأشياء الغامضة.

فى بعض الأحيان قد يأتى يوم الحناء بعد يوم الريكة، وذلك من باب اختصار عدد الاحتفالات بحذف احتفال واحد منها، وفى مثل هذه المناسبة يبدأ احتفال السيدات مع غروب شمس يوم الريكة. فى بعض الحالات الأخرى تأتى القريبات والصديقات المقربات إلى بيت العروس فى فترة العصر من يوم الحناء ويتناولن وجبة طيبة. احتفال الحناء يقوم على أساس مفاده أن يزين العروسَ عندئذ صديقاتها، بأن يتركن صبغ الحِنَّاء hinna (ويصح فيه أيضًا الحنَّاء henna) فترة طويلة على قدمى العروس ويديها، هذه العملية كلها هى ما يطلق عليها ذلك الاسم.

واقع الأمر أن بَلاَنة محترفة هى التى تقوم بهذه العملية، والناس هنا يطلقون على هذه البَلاَنة اسم المقيِّنة، وأن الباقيات يكن مجرد مشاهدات أو ملاحظات لما تقوم به هذه البَلاَنة. وما إن تجف الحناء حتى تقوم المقيِّنة بتصفيف شعر العروس، بأن تقص الشعر من فوق الجبهة وتقوم بتقصير الحواجب بعض الشيء. ثم تجدل البلانة شعر الرأس على شكل ثمانية جدائل، تدعمها فى بعض الأحيان ببعض خصلات الشعر المستعار المأخوذة من صوف الغنم والحرير. (والناس هنا يطلقون على الشعر المستعار اسم "عُقُوص"). وفى كل جديلة من جدائل الشعر تجدل البَلاَنة خيطا من الحرير، تثبت فيه عن طريق بعض الثقوب بعضا من قطع العملات الذهبية القديمة. وتستخدم لهذا الغرض نوعين فقط من العملات الذهبية. إحداهما تنتمى إلى عصر السلطان محمود(*) وتحمل تاريخ ١٢٢٣ (المصادف للعام الميلادى ١٨٠٨ – ١٨٠٩).

(*) السلطان محمود الثانى ، تولى عرش السلطنة العثمانية فى عام ١٨٠٨ وتوفى فى عام ١٨٣٩ ، ويعد عصره عصر الإصلاحات الكبرى فى الدولة العثمانية . (المراجع)

هاتان العملتان يطلق على إحداهما اسم "غوازى" (الواحدة "غازية") وقيمة كل واحدة منها تساوى دولارًا واحدًا تقريبًا، والعملة الثانية يطلق عليها اسم "المحمودية"، وهى تساوى حوالى أربعة دولارات. هناك عملة ذهبية أخرى تمتدحها النساء بوصفها تميمة من التمائم من ناحية، وزينة من زينات الشعر من ناحية ثانية. والنساء هنا فى مكة يطلقون على هذه العملة اسم "مِشخاص"، و"المشخاص" يعنى قطعة العملة التى طبع عليها شكل إنسانى أو وجه إنسانى. ويحتمل أن تكون هذه هى العملة المعدنية الوحيدة المختومة التى كان يجرى تداولها فى مكة فى الأزمنة الأولى . ولكننا الآن نجد فى مكة عملات معدنية محيرة، نظرا لأن السواد الأعظم من هذه العملة المدنية يحمل نقشًا يصعب حل شفرته. هذه العملات الذهبية يجرى شراؤها من الصاغة ومن الصيارفة لاستعمال النساء فقط، ويبدو أن القسم الأكبر من هذه العملات عبارة عن عملات ذهبية قديمة من مدينة البندقية [فينيسيا] . (وأنا لدى قطعة من هذه العملات الذهبية من عصر كبير القضاة موسينجو الأول ١٥٧٠ - ١٥٧٧). على وجه من وجهى هذه العملة توجد صورة المسيح، وعلى الوجه الآخر صورة كبير القضاة وهو راكع أمام القديس مارك. من هنا نجد أن تهكم التاريخ، لا يقتنع فقط بالتقليل من شأن قبر محمد ﷺ بوصفه موضوعا للحج، محمد ﷺ الذى لعن المحبين أو العابدين للأنبياء وإنما تسبب فى جعل زوجات المسلمين اللاتى يكرهن صور المخلوقات الحية كلها ويعتبرن تقديس المسيح نوعًا من الكفر، جعلهن يكشفن بطبيعة الحال ودون وعى منهن عن توقيرهن الخرافى لصور المسيح (عليه السلام) وصور واحد من كتاب الإنجيل الأربعة(*).

(*) أسلوب التهكم واضح هنا، وقد أبقينا ترجمة عبارة المؤلف الرحالة عملا بأمانة النشر، دون أن يعنى ذلك الموافقة على ما تتضمنه من إساءة . (التحرير)

فى الوقت الذى يتم فيه تزيين العروس (فيما عدا فستان الزفاف) نجد السيدات يسلين أنفسهن بالغناء والموسيقى، ولا تشترك فى هذه المناسبة المغنيات المحترفات، لكن النساء يصاحبن أغانيهن دومًا بالدفوف أو بالأيدى. وتبقى البنات الشابات إلى منتصف الليل، ويرحن يدخن الغلايين ويشربن الشاى، أما المتزوجات فيعدن إلى بيوتهن فى ساعة مبكرة.

فى صباح اليوم التالى تأتى صديقات أسرة العروس إلى بيتها لإقامة الريكة كما يسمونها.[٢٨]، الريكة عبارة عن نوع من العرش المغطى، أو إن شئت فقل مقعد يشبه من الخارج الجزء العلوى من المنبر. والريكة تصنع من الخشب للعرائس العذراوات، وتكون مغطاة تمامًا بقماش الموالد. أما حوافى الريكة فهى مغطاة بقطع عديدة من الحرير والساتان، لها حواف مزينة بنجوم من الذهب والفضة، وتوجد على هذه الأغطية كل أنواع الزينات والمجوهرات، وبخاصة المشابك التى على شكل نجمة أو على شكل وردة، وهذه المشابك تعلق على الصدر، أما عندما تستخدم فى تزيين الريكة فإنها تكون على الجزء الأمامى من مقعد العروس.

وغرفة الريكة (الكوشة) تكون فى الطابق العلوى من المنزل، ويجرى فرشها بالسجاد الفاخر، وتُعلق نجمة كبيرة من الفضة مرصعة بالماس فوق الباب، ومعها فوانيس عدة، ويوضع المقعد الكبير فى منتصف الجزء الخلفى من الغرفة. والريكة نفسها يعلق عليها كثير من المصابيح والفوانيس (وهم يطلقون على هذه المصابيح والفوانيس اسم "قناديل" و "نجف" و"بُرمات")، تستعمل فيها الشموع الدهنية حفاظًا على القماش الفاخر من التلف. والعبارة التى تقول "نصب الريكة" تشمل فى حقيقة الأمر نصب أشياء أخرى كثيرة تعد ضرورية للزواج.

---

(٢٨) الريكة هى ما ورد ذكرها فى القرآن على أنها "أريكة" (سورة الكهف الآية ٣١)، أى مقاعد أهل الجنة(*).

(*) ويقصد بها هنا "كوشة العروسة". (المترجم)

وفى البرَاحة، أو بالأحرى الحارة المجاورة للمنزل، تُقام بعض الأعمدة، وتُربط قمم هذه الأعمدة بعضها إلى بعض بواسطة دعامات عرضية يعلق عليها أكبر عدد ممكن من الفوانيس، وتوضع المقاعد الخشبية على شكل صفوف وتغطى بالسجاد. وتُسوى الأرض وتُرش بالماء. خلاصة القول أن يوم الريكة (الكوشة) يكون عامرًا بالنشاط والحركة والعمل الذى يحاول كل واحد فيه أن يبز جيرانه. يحظى كل هؤلاء بوجبة طيبة نظير الجهود التى بذلوها، ويقوم الطاهى المحترف بإعداد هذه الوجبة فى قدر كبير، من الأرز ولحم الضأن مع التوابل، وتقدم على أطباق كبيرة يكفى الواحد منها خمسة أشخاص، وترسل أسرة العروس أجزاء من هذه الوجبة إلى العريس وأقاربه، وتكون هذه الأجزاء مغطاة بنوع من الحصير مصنوع من السعف المجدول، ويطلقون عليها اسم "مِكَبَّة" (والجزء من الطعام الذى يرسل إلى العريس وأقاربه يسميه الناس هنا "المَعْشَرَة" وجمعها "معاشير").

وينصرف الرجال إلى بيوتهم بعد صلاة العصر، وتأتى السيدات بعد ذلك بأعداد كبيرة أكبر من اليوم السابق، ويقضين الليلة مثل سابقتها. هذه الليلة (إلا إذا كانت مثلما سبق أن أوضحنا هى ليلة من ليالى الحناء) تسمى باسم اليوم التالى لها، أى ليلة الغُمْرة .

كل هذه الضوضاء التى تغلب على يوم الغُمْرة فى منزل كل من العروس والعريس، هى من قبيل الاستعداد لذلك الذى سيجرى فى مساء وليل ذلك اليوم الذى يطلقون عليه اسم الدُّخلة، أو بالأحرى ذروة احتفالات الزواج. وتدق الطبول طوال اليوم أمام منزل العروس والعريس، كما أن المغنيات من البنات، اللاتى يحملن على عاتقهن المهمة التى تنتظرهن فى أثناء الليل، يُسلين سيدات العائلتين وضيوفهن طوال النهار. ويجرى تقديم الوجبات فى معظم الأحيان – رغم أن ذلك لا يعد عملاً ضروريا أو ملزمًا – للضيوف فى يوم الغُمْرة. وتقدم الدعوات الخاصة بهذه المناسبة على أوسع نطاق ممكن، وهنا

يستحيل استقبال الضيوف جميعهم مرة واحدة، وذلك على الرغم من تجهُّز غرف الجيران لاستقبال هذه الأعداد الغفيرة من الضيوف.

***

كنا قد تطرقنا، ونحن نتحدث عن حفلات السيدات، إلى الحديث عن البنات المغنيات وعن الأغاني الشهوانية. وهذه الأغاني يطلق عليها أهل مكة اسم أغاني "الدانا دانا"، والسبب في ذلك أن هذه الأغنيات تبدأ بتنويعات على هذه الكلمات. ويبدو أن هذه الدانات شبيهة بنغمة "الترا لا لا" tra la la التي لا معنى لها، والناس هنا يؤكدون أن "الترالالا" وثيقة الصلة "بالدانا"، وأن قرب المحبوبة أو رغبة المحب في الاقتراب منها يجري تعظيمها(٢٩).

جرى العرف على أن تكون المغنية واحدة فقط، وأن الأخريات، أي جواريها، يصاحبنها بدق الدفوف أو بالمشاركة في "القرار" أو الكلمات الأخيرة من الأشعار.

فيما يتصل بمحتوى الأغنيات فهي تعد تعبيرات عن الرغبات الحسية، وأجزاء هذه الأغنيات غير مترابطة أو قد تكون شبه مترابطة. وفي كثير من الأحيان يتعذر فهم معاني الأجزاء المختلفة من جانب أولئك الذين يمارسون هذا الفن الذي يحرمه الشرع، والذي لا يسمح به إلا للنساء فقط، لأن السواد الأعظم منهن لسن سوى وقود لجهنم. وسأورد المعنى بدلاً من ترجمة محتوى هذه الأغنيات الحسية، مستخدماً في ذلك كلامي وتعبيراتي الخاصة. في الأغنية الأولى تشكو المغنية أو المغني إلى الله من مرض حبه

---

(٢٩) يقول الدكتور فيتزستاين Wetzatein إن تقديم "يانا دانا داني" yana da'na dani قد تعني "ها أنا قد جئت إلى هنا"، لكنه يظن أن هذه الدانة قد تعني أيضاً "ندانا" nadana بمعنى "فرحي!" نظرا لأن كلمة "ندى" nada قد تعني كل ما يمكن أن يفرح القلب.

للغزال صاحب العيون السود. لقد جرحته ليلى الجميلة جرحًا مميتًا، ولذلك فهو يرجو المحبوبة أن تعطيه حبها مقابل الجرح، لأن ذلك هو واجبها الدينى، وهو على يقين من أنه سيموت إذا لم يحصل على هذا الحب. وهو يستحثها لتقديم الدواء، نظرا لأن الأطباء لا يمكنهم شفاءه من الجرح الذى أصابه. ثم يصف بعد ذلك عنقها الذى يشبه عنق الغزال، وصدرها الذى يشبه ثمرتى السفرجل. ويشبهها بالأعشاب العطرية وبالورد وبالبندق وباللوز وبالفستق السورى. عطرها يفوق عطر النبيذ، وهى منعشة مثل النوم بعد النهار الطويل. ويتمنى لو كان طيراً حتى يتمكن من الوصول إليها فجأة فى أثناء نومها. "لعل الله يزورك بألم حب مماثل نيابه عنى، مثلما زارنى، ثم يغفر لك بعد ذلك خطيئتك".

فى الأغنية الثانية نجد مغنياً آخر يشكو لليلاه، أميرة السيدات البيضاوات اللاتى يتمنى لهن الحسن والسعادة. لقد ولَّت عنه راحة البال، وسوف يموت إذا لم يفشِ سرَّ مرضه، ليلى هذه تجمع فى ذاتها خصائص العطور كلها. ويصيح الشاعر ثلاث مرات متأوِّهًا "آه"، ويسأل أولئك الذين يعرفون الحب عن المكان الذين يمكن أن يجد فيه الراحة والهدوء؛ فقد أصابت الشقراء قلبه بالجراح، تلك الشقراء التى تساوى البدر فى شهر شعبان" آه، يا من تعرفون الحب، من ذا الذى يعرف علاجًا لجراحى الخطيرة."

هذه هى نوعية الأغنيات التى تتغنى بها المغنيات بمصاحبة "الدقاقين" (أى ضاربى الدفوف) و "الردادين" (أى أولئك الذين يرددون الكلمات الأخيرة من أبيات الشعر)، أما المستمعات فهن يصفقن بأيديهن الصغيرة حتى تنطلق خشخشة الأساور، ويصحن قائلات : "يا الله، يا ربى" ويحسبن أنفسهن يلعبن دور الغزال.

****

على كل حال، تسنح الفرصة فى يوم الغُمْرة بالتمتع بشىء من الموسيقى. وتكون أفكار الناس مشغولة باقتراب الدُّخلة، يوم التوحد الذى يفسح المجال واسعا لاستعراض جمال المرأة وسحر جاذبيتها. هذا الاستعراض لا يكون منصبا على الأناقة وحسن المظهر، وإنما ينقلب إلى أحمال زائدة مخيفة، فالنساء فى هذه المناسبة يحولن أجسادهن إلى طاولات لاستعراض الذهب والمجوهرات التى يخرجنها من دواليبهن أو يستأجرنها أو يستعرنها من الآخرين. هؤلاء النساء اللاتى يشاهدن احتفال الدُّخلة فى الكوشة، ينقسمن بعد منتصف الليل إلى طائفتين، الطائفة الأولى هى طائفة غير المدعوات (والناس هنا يقولون لهن "متفرجات") ، اللاتى لا يفتح لهن الباب إلا عندما يبدأ الحفل بالفعل، واللاتى يحضر منهن عدد كبير هذا الاحتفال دون أن يرتدين ملابس غالية الثمن. أما الطائفة الثانية فهى طائفة المدعوات أو كما يطلق الناس عليهن الحاضرات أو المحضرات أو المتحضرات، وهن القريبات أو الصديقات الحميمات للعريس أو العروس، واللاتى تحمل الكثيرات منهن أشياء تساوى آلاف الدولارات. وكل سيدة من تلكم السيدات تستعرض فى ثيابها ثراءها أو الحظوة التى تتمتع بها عند زوجها، ومع ذلك هناك بعض المميزات التى تبين القرابة الوثيقة أو الصداقة الحميمة مع العروس.

الأقارب والصديقات يصففن شعورهن على شكل ثمانية جدائل، تتخللها "الكشايت"، أى الزينات المكونة من العملات الذهبية القديمة(٣٠). والشعر فى هذه المناسبة لا يجرى لفه بالمنديل المعتاد الذى يطلقون عليه اسم "المحرمة"، أو بالمنديل العلوى الذى يطلقون عليه اسم "المدورة"، وإنما يُلف الشعر بمنديل من الشاش يسمونه "يَشْمَك" ، ويكون مرصعا ترصيعًا كثيفا بصفائح الذهب التى تكون ملفوفة على شكل عاكس ومعكوس من حول الرأس. يضاف إلى ذلك أن النساء يلبسن فى تلك

(٣٠) هذه الكشايت، هى العملات المعدنية التى سبق أن أطلقنا عليها اسم المحمودية .

المناسبة صديريا وبنطالاً (سروالاً) من الريزة ("الريزة" ذلك القماش الحريرى الثقيل المطرزة حوافه بخيوط الذهب والمرصع بصفائح الذهب، والذى سبق أن وصفناه). ومن فوق هذا الصديرى والبنطال (السروال) ترتدى الحاضرات عاليات القدر والمكانة عباءة بنغالية (وهم هنا يقولون لهذه العباءة البنغالية "توب بنغالة") . مصنوعة من مادة شديدة الشفافية (يطلقون عليها اسم "درابزون" أو "بومبزار"). هذا التوب (الثوب)، الذى يطلق عليه أيضًا اسم "البنغال" لابد من أن يكون متلألئا بفعل الذهب الذى فى الملابس الداخلية التى يكاد لا يستر منها شيئا.

وفيما يأتى نورد بعض الفوارق الخاصة بغلاء الثمن. السيدة التى ليست قريبة قرابة مباشرة للعريس أو العروس ترتدى عباءة بنغالية، من قماش شبيه مطرز بالذهب عند حواف التوب السفلى وعلى حواف أكمام التوب، وهذا النوع من الثياب يسميه الناس هنا "السيف المسلول"، والسيدات ذوات القرابات البعيدة يكتفين بالعباءة الخفيفة التى لها أزرار من الفضة، وبوسعهن أن يرتدين الملابس الداخلية التى يخترنها. والأجزاء الضرورية من هذا الزى، أو إن شئت فقل الرداء، هى الخلخال الجميل والأساور العريضة العجيبة التى تشبه السلسلة والمزينة بفصوص الماس (وهم يطلقون على هذه الأساور اسم "متراك الألماس")، وأخير مجموعة من رائعة من زينات العنق.

العقود على اختلاف أنواعها يطلقون عليها اسم "المُوريَّة" أو "الَّلبَّة" (وتكون مرصعة باللؤلؤ والياقوت والماس)، والعقد اللُّولِى . هذه القلادات والعقود تلبسها النساء فى هذه المناسبة. أما الأمبر شاه(٣١) فهو على شكل قلب، ويتدلى على صدر

---

(٣١) الأمبرشاه كلمة فارسية، تعنى "بئر العنبر"، لكنها فى مكة تدل على قلب من الحديد أو النحاس الأحمر، فى وسطه وردة لها أوراق، كل واحدة منها عبارة عن خمسة فصوص من الماس موضوعة داخل إطار من الذهب، والغطاء الخارجى لهذا القلب مرصع بسلسلة من اللؤلؤ، ومزين من الجزء العلوى بعقود من اللؤلؤ، كل منها عبارة عن أربعة فصوص أو خمسة تتدلى فوق القلب.

العروس معلقًا بواسطة شريطين من الحرير، عرض كل منهما نحو ثلاثة سنتيمترات، ومزينين بفصوص الماس المركبة في شنابر من الذهب، ومثبت فيها أيضًا فصوص اللؤلؤ.

إذا كان كبر زينات العنق أو صغرها هو الذي يوضح درجة القرابة ووثاقة الصلة بالعروسين، فإن القريبات اللاتي من هذا القبيل يمكن تمييزهن على الفور بزينة غريبة يطلقون عليها اسم "القلادة" . وهذه القلادة تكون على شكل "مسبحة" ضخمة مكونة من مائة حبة من التفاح الحقيقي، تتدلى من العنق إلى ما فوق الركبتين. ونظرا لكثرة التفاح في الطائف، تكون القلادة في بعض الأحيان ببضعة دولارات قليلة، لكن شهر ربيع الثاني، وهو الشهر المفضل في الزواج، يتخلل الفصول كلها، الأمر الذي يجعل من يطلب هذه القلادة، يدفع ٢٠ دولارًا أو ٤٠ ثمنا لها، وربما تكون قد استخدمت من قبل في زيجتين أو ثلاث زيجات. هذا التقليد يبلغ من القوة حدا يجعل الزوجة تهدد زوجها بالعار والشنار إذا ما عرّضها للانتقاد السري من جانب معارفها لأنها ليست لها قلادة. يضاف إلى ذلك أن قريبات الدم يمكن أن يضحين بالحفل إذا لم تتوافر لهن القلادات.

والحاضرات يقمن بتعطير أنفسهن على غير العادة بزيت الورد أو بزيت عطري آخر يقولون له "زيت الكادي" مع خليط من زيت العود والماء المحلى بالسكر (والناس هنا يطلقون على زيت العود اسم "العودة المقطوعة") والحبهان وزهر القرنفل وبذور الليمون وماء الورد. وفي مساء الليلة الثالثة لليلة الغُمْرة تجلس النساء من أسرة العروس في غرفة كبيرة (يطلقون عليها اسم "مجلس الستات") تكون مواجهة لغرفة الكوشة أو فوقها. وتوضع أواني القهوة في الوسط ومعها أطباق مليئة بالمواد العطرية، كما توجد في الوسط أيضًا لوازم الشاي هي والسُّكَّريات، ويعهد بكل هذه الأشياء إلى واحدة من النساء اللاتي يقمن بصب القهوة (والناس هنا يقولون لهؤلاء النساء مِجَهْوِيَّات).

الهدايا المالية الملفوفة فى مناديل مطرزة بالذهب، تقدمها السيدات الوصيفات والمغنيات. عند الساعة العاشرة يكون السواد الأعظم من قريبات العروس قد تجمع فى غرفة جلوس الستات، لكن أقارب العريس يبقون فى منزله، ويروحون يسلون أنفسهم إلى حدٍّ ما بالعرض الذى يقدمه المغنون، فى الوقت الذى ينتظر الجميع فيه وصول العريس بصحبة أصدقائه.

فى هذا الوقت نفسه تنتظر العروس فى غرفة صغيرة قريبة من غرفة الستات، ومعها البلانات وبعض من رفيقاتها ومن ترتدين زيًا مماثلا لتخليصها من آلامها، والسبب فى ذلك أن رداء الأميرة هذا ثقيل الوزن على العروس رغم أنها لن تلبسه سوى مرة واحدة فى حياتها. ورداء العروس الخارجى على العكس من ملابس النساء الأخريات يكون مصنوعًا من نوع من الحرير الثقيل شأنه شأن ملابسها الداخلية، وفوق رأس العروس يثبتون رداء خارجيا يشبه فترينة الصائغ، لأنه ملىء بدبابيس الزينة. وتعلق قطع من الحرير المرصع بزينات لا تحصى ولا تعد من المعادن الكريمة والأحجار الكريمة على ثوب العروس من الأمام وأحيانا من الخلف. وحتى أفقر العرائس تتعذر عليها الحركة دون مساعدة لها من الجانبين، يضاف إلى ذلك أن معاناة العروس من شدة الحرارة تكون كبيرة جدا. وهذا هو الثمن الذى تدفعه العروس نظير أن تكون هى بطلة تلك الليلة.

ابتداءً من الساعة العاشرة يتجمع أصدقاء العريس حول منزله، نظرا لأن المكان داخل المنزل لا يتسع لهذا العدد الكبير من الناس، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الأصدقاء لا يأتون وحدهم، نظرًا لأن كل واحد منهم يأتى ومعه حملة الفوانيس، لكى يصاحبوا العريس أثناء جولته خلال البلدة. وهنا نجد الشبان الصغار وبخاصة أولئك الذين سوف يتزوجون قريبًا يحصلون من آبائهم على ما يقرب من مائة فانوس، نظرًا لأن هذا الدين سيرد بالطريقة نفسها وبالمجاملة ذاتها، ويكون لقاء المدعوين بالترحاب. فى حين تروح السيدات فى الطابق العلوى يتغنين بأغنية "الدانة دانة" ، وفى بعض الأحيان،

وبخاصة عندما يقبل على المنزل عدد كبير من الفوانيس، تنطلق "الغطرفة" (الزغاريد) من خلف الشرف. بعد أن ينتهى الأصدقاء من شرب القهوة والشاى وتدخين الغليون والسجائر يذهب العريس إلى غرفة النساء لتصحبه بعد ذلك إلى الطابق الأرضى زفة رهيبة من النساء، ثم يسلم بعد ذلك على أصدقائه. ثم تتغنى المغنية هى والجوقة (الكورس)، أو بالأحرى الردادين ببعض الأغنيات التى تناسب ذلك المقام، لكنها تتناقض تماماً مع مظهر الخجل المتواضع للبطل، وتعزى الصفات الحلوة كلها لذلك العريس، لكن الأخطار المحدقة بمشروعه لا يركز عليها، إذ يتعين عليه تسلق الجبال العالية، ويتعين عليه أيضاً أن يخوض بحاراً واسعة. ولابد من أن يواجه البرق ويسمع الرعد قبل أن يصل إلى مخدع أميرة البتولات الجميلات كلهن. ترى ما الذى يجب أن يساعده ؟ إنه رضا الوالدين عن ذلك التوحد المرتقب هو الذى سيوفر لذلك العريس تلك الحماية الصوفية من الأخطار على اختلاف أنواعها. بعد أن يحصل العريس على هذا التحصين، يعود إلى أصدقائه بعد أن يستأذن من السيدات، وبينما تنطلق "الغطرفة" (الزغاريد) يبدأ تشكيل الموكب تحت قيادة بعض العارفين بتلك الطقوس والاحتفالات.

يجىء حملة الفوانيس الذين يقدر عددهم بالمئات فى مقدمة الموكب قبل الطبالين. بعد الطبالين وأمام العريس يجىء رجلان يحمل كل منهما شمعة عملاقة[٣٢] سميكة سمك ورك من أوراك الرجال، وهنا ينضم المزيد من الأضواء إلى الموكب، بعض منها عبارة عن شمعدانات كبيرة من البللور يحمل الواحد منها رجلان، ويقف منشد الشعر (وهم هنا يطلقون على هذا الرجل اسم "المقصِّد" أو "المنشد") أمام العريس ومعه أربعة

(٣٢) تستأجر الشموع فى مثل هذه المناسبات ، وفى مسألة المبلغ المدفوع فى هذه الشموع مع كمية الشمع المحترق، فيها أخذ ورد فى الشريعة الإسلامية. والناس هنا لا يعدون مسألة الشموع هذه بيعاً، نظراً لعدم تحديد كل من البضاعة والسعر، ولا يمكن أن تكون استئجارا نظراً لأن جزءاً من هذه البضاعة يُستهلك ولا يعاد استعماله .



امرأة مكية ترتدي زي الزفاف

من مساعديه (وهم هنا يطلقون على هذا الرجل اسم "مساعد" أو "رداد") الذين يشاركون فى الإنشاد بين الحين والآخر. وعلى جانبى العريس يقف أصدقاؤه، وهم شباب بلا لحى، ويمشون معه مع تحرك الموكب، ومن خلف العريس يمشى بقية الأصدقاء. وقبل أن يتحرك العريس من المنزل يتجه "المقصِّد" (المنشد) نحوه وينادى بقراءة الفاتحة، ثم ينشد بعد ذلك بعض الأشعار التى تتناول فضل الزواج.

مكان مسكن العريس والعروس أمر لا يهم كثيرًا، نظرًا لأن الموكب يسير بخطى بطيئة خلال الشوارع الرئيسة فى مكة، ويروح المنشد طوال سير الموكب ينشد أشعارا فى فضل النبى محمد ﷺ. وبعد حوالى عشرين خطوة إلى ثلاثين يتوقف الموكب، كما يتوقف أيضًا أمام منازل كبار المسئولين برهة من الوقت، وذلك عندما يتجه المنشد ومساعدوه إلى العريس ويروحون ينشدون عشرة أبيات محددة. قبل الموكب بأيام قلائل يُبلَّغ مشايخ الحارات بالشوارع التى سيمر الموكب خلالها، كما تقدم المكافآت والعطايا لمشايخ الحارات. يحتفظ هؤلاء المشايخ لأنفسهم بجزء من هذه العطايا ويوزعون الجزء الباقى على أبناء الحارة أو بالأحرى الحى، الذين يحفظون بدورهم النظام ويُخلون الشارع أمام الموكب. وإذا لم يحصل أبناء الحارة على تلك الهدايا أو العطايا تحولوا إلى مصدر للقلق والإزعاج.

أقرب أهداف الموكب هو "باب السلام" أى البوابة الرئيسة للحرم المكى، التى يدخل الحجاج منها إلى الحرم الشريف، وتترك جميع اللمبات التى تشتعل بالزيت خارج الحرم أما بقية الأنوار الأخرى فتصاحب العريس إلى داخل الحرم. وهنا تقام صلاة العشاء جماعة مع العريس، وهذه الصلاة تؤخر عمداً فى مثل هذه المناسبة الزواجية. الكثيرون يكونون قد صلوا العشاء بالفعل، أو قد يصلون على انفراد. والعريس يتميز عن بقية رفاقه الذين يلبسون ملابس العرس بهذه المناسبة، فى أنه يضع على كتفيه سجادة صلاة من الصوف الكشميرى الذى يطلقون عليه اسم

السليمى . وإذا كان والد العريس من أهل العلم الدينى أو كان هو نفسه واحداً من هؤلاء، أو حتى طالبا من طلبة العلم الدينى، فإنه يلبس عمامته بالطريقة التى يرتدى بها العلماء عماماتهم، هذا يعنى أن الشال المصنوع من الحرير الموسلينى الفاخر يُلف على لفافة أو رباط طويل عريض ما بين سبع لفات واثنتى عشرة لفة حول غطاء الرأس (وهم يقولون لغطاء الرأس هنا "كوفية") بحيث يكون للعمامة ذيل طويل يتدلى على ظهر لابس العمامة.

فى أيام العطلات، قد يبدو مثل هذا اللباس تباهيًا وادعاءً إذا ما لبسه شاب صغير، إلا إذا كان إمامًا فى أحد المساجد. بعد انتهاء الصلاة، التى يؤمها أحد الحاضرين، يتجمع الموكب من جديد عند مدخل الحرم القريب من منزل العروس، ويسير فى اتجاهه . وأمام مجلس العروس يكون المكان مضاءً بالأنوار والفوانيس، وتكون أرض المكان قد رُشت بالماء، ووُضع السجاد فوق المقاعد. وعندما يقترب موكب العريس تدق طبول العروس متنافسة مع طبول العريس. وهنا تبذل البنات اللاتى يغنين قصارى جهودهن لجعل أصواتهن مسموعة، وتتوقف السيدات عن "الرغى" أو حتى الهمس حتى تنطلق زغاريدهن. وهنا يستقبل مباشرو العرس (المسئولون عن طقوس الاحتفال) العريس ويوجهونه إلى مقعد خاص موضوع وسط المقاعد الأخرى. ويُوضع الشمعدانان الكبيران أمام العريس. وبعد أن ينتهى الناس من شرب القهوة والشربات، يقوم مباشرو العرس ويدعون كل ضيف من الضيوف إلى الحضور بعد ظهر اليوم التالى لشرب فنجال قهوة (بمعنى "تناول الغداء") فى منزل العريس.

هذه الدعوة تعد إيذانا بقرب انتهاء الحفل، والسبب فى ذلك أن الأقارب أو الأصدقاء الحميمين هم الذين يبقون مع العريس إلى الصباح، وهنا تكون الساعة قد تجاوزت الواحدة (ليلاً) .

***



عريس مكي

فى هذا الوقت نفسه تكون السيدات، أو بالأحرى السواد الأعظم منهن، قد وصلن إلى منزل العروس، مستخدمات فى ذلك أقصر الطرق وأسرع الخطى، ويكون قد جرى الترحيب بهن فى غرفة جلوس السيدات. وفى الوقت الذى يجرى فيه إبلاغ العروس أن وقت اصطحابها إلى"الريكة" يوشك أن يقترب، تنطلق أغنية "الخاريت" (أى أغنية تنظيف الرأس)، وهذه الأغنية تحكى عن طريقة تصفيف شعر العروس إلى جدائل، وتزيين تلك الجدائل، رغم معرفة الجميع أن العروس تتأوه منذ الصباح تحت وطأة هذه الزينة بعد اكتمالها. هذا يعد مجرد إشارة إلى أن الموكب سيمر من غرف السيدات إلى الكوشة.

وبينما تغنى المغنيات أغانىَ تثنى على العروس، تقوم الأخيرة بصحبة المدعوات بالسير بخطى بطيئة، وتتوقف مرات عدة إلى أن تصل إلى غرفة الكوشة. جمهور النساء غير المدعوات يتجمعن فى الخارج أمام غرفة الكوشة، وبين الحين والآخر تشاهد بعض الحاسدات وهن يقرصن أو يَخِزْن غيرهن من النساء أملاً فى إحداث نوع من الاضطرابات فى تلك الطقوس، بل إنهن يحاولن فى كثير من الأحيان الإمساك بتلك الزينات. وتجلس العروس فى نهاية المطاف داخل الكوشة، التى يصعب عليها الجلوس فيها رغم دعمها من الخلف بمخدات من الحرير، تجلس وهى رافعة يديها وممددة رجليها. وبذلك تبدو العروس كما لو كانت كتلة بلا شكل، ولا يستطيع أحد تمييز وجهها أو شكلها إلا بصعوبة بالغة، والعروس فى مثل هذه الحال لا تعدو أن تكون معرضا متحركا من المجوهرات والأشياء الثمينة.

وتتغنى المغنية بمناقب العروس هى وأسرتها. وهنا يسمح لغير المدعوات بالتجمع بالقرب من باب غرفة الكوشة، وعلى شمال ويمين الكوشة "الريكة" تجلس المدعوات على شكل صفوف تمتد من الكوشة إلى الباب، ومن حول الباب تكوِّن غير المدعوات دوائر كبيرة. وأمام الكوشة يوجد مقعد للعريس، وهذا المقعد فى الوقت الراهن من النوع الأوروبى المنجد بقماش فاخر.

تنزل بعض قريبات العريس مع المغنيات إلى الدور الأرضى لإحضار العريس إلى كوشة العروس فى الدور العلوى وهن يمسكنه من يده، وذلك بمصاحبة الأغانى والدفوف. وهنا يمكن أن نتخيل مدى إحساس العريس بالهدوء عندما يكون فى غرفة الكوشة المضاءة بين وجوه النساء الباسمات. ولا يوجد بالقرب من العريس سوى قلة قليلة من أقارب العروس كبار السن، حتى لا تحس النساء بالخجل وهن كاشفات من ناحية، والتندر بحرج العريس من الناحية الأخرى، الذى يعتاد بدءًا من ذلك الحين رؤية قريباته من النساء أو الإماء، ثم يرى على الفور عشرات من النساء اللاتى ترتدين ملابس فاخرة، كما يرى أيضاً عروسه أمامه، التى يصعب عليه التعرف عليها بسبب ما ترتديه من أشياء وزينات. ويطلب أقاربه منه الجلوس. وهنا تتقدم البَلاَّنة التى تقف بجوار العروس، إلى العريس وتقول له "دير بالك جيداً على عروسك، عاملها بتقدير واحترام، انهض وضع يدك اليمنى على جبهتها، اقرأ الفاتحة". يفعل العريس ذلك الذى تأمره به البَلاَّنة. ثم يتسلم من البَلاَّنة بعد ذلك سبعة "غوازى" **ghawazi**، أى العملات الذهبية الرقيقة المزينة . يقال إنه فى الأزمان السابقة، كان العريس يذهب ويحضر معه تلك العملات الذهبية ليعطيها للعروس بعد الاحتفال، أما الآن فإن البلانة هى التى تقوم بإحضار العملات الذهبية، ثم تأخذ من العريس بعد ذلك قطعة عملة فضية نظير كل قطعة من القطع الذهبية.

"ضع غازية على جبهة عروسك الآن، ثم ضع واحدة على كل جانب من جانبى رأسها، ثم ضع واحدة على كل من خديها ، ثم ضع واحدة على مقدمة أنفها، وواحدة على ذقنها"، وتواصل المرأة العجوز كلامها. هذه البلانة سبق أن حددت المواضع التى سيضع العريس عليها هذه العملات، وهى تستعمل لتحديد هذه المواضع شريطًا لاصقًا أبيض اللون، وهذا يقلل من جمال وسحر العروس. ثم تأمر البلانة العريس بعد ذلك برفع تلك العملات الذهبية حسب ترتيبها السابق، ثم يواصل عملية وضع ورفع هذه العملات مرتين. وهذا الطقس يسمونه "النصَّة" ولابد من أن هذه النصَّة بقية من بقايا عادات أو تخيلات منسية.

"النصَّة" تعنى فى الأصل رفع العروس إلى سرير العرس (وهم يقولون لسرير العرس "منصة") الذى يمثله فى الوقت الراهن سرير العروس الشامى، هذا يعنى "الريكة" أو الكوشة التى سبق أن أتينا على ذكرها، أما الاحتفال بكامله فهو الدُّخلة، وقد تحول ذلك الاحتفال إلى مسرحية .

وبعد أن ينفق العريس ربع ساعة مخيفة مع الأميرة التى سيحظى بها، يحق له أن ينسحب وينزل ليكون بين أصدقائه وأقاربه. وهنا يجرى تقديم العشاء لهؤلاء الشباب وللنساء اللاتى فى الدور العلوى. (وهم هنا يطلقون على هذا العشاء اسم "تعتيمة"). عند هذا الحد يكون الجميع بحاجة إلى النوم أكثر منهم إلى الطعام، والطعام الذى يُقدم حسب التقاليد لا يكون فاتحا للشهية، هذا الطعام يكون على شكل خبز يشبه "البسكويت" بأشكال مختلفة يطلقون عليه اسم "شرِيك" أو قد يقولون له "سُخَّانة"، ويكون مزينًا بزهور أبى النوم (الخشخاش) وبعض البذور الأخرى طيبة الرائحة والفواكه السكرية، أو قد يكون مزينا بالجبن والزيتون. وبعد أن يأكل الضيوف قليلا من هذا الطعام وبعد أن يشربوا شيئًا من الماء، ينصرف الرجال وتنصرف النساء. وهنا يقوم العريس بالذهاب إلى بيته وينصرف رفاقه إلى بيوتهم على الفور.

بعد أن تتحرر العروس بارتداء ملابس أخف يحضر أمامها "تخت" مغطى بنوع من السجاد الفاخر، ومُحملً على بغلين، يقفان أمام بيتها . هذا التخت يستأجره العريس لهذه المناسبة، ويدخل فى التخت مع العروس بعض أفراد أسرتها، ثم يسير التخت بعد ذلك بخطى بطيئة سالكًا المسار نفسه الذى سلكه موكب العريس فى الليلة السابقة، لكن دون ضوضاء.

ويلتقى العريس عروسه عند منزله، ويقودها إلى غرفة أعدً فيها طعام الإفطار لشخصين. هذا الإفطار يتكون فى الأساس من الفطائر المحلاة بالسكر (وهم يطلقون على هذه الفطائر اسم "زلابية") وتكون أيضًا مغطاة بالسكر المطحون أو موضوعة

فى محلول سكرى (والناس هنا يطلقون على هذا المحلول السكرى اسم "الشيرة") . وجبة الإفطار هذه لا علاقة لها بالألفة التى تربط العريس بالعروس. هذا اليوم الذى نتحدث عنه هنا هو يوم الدُّخلة . عند هذا الحد يستطيع كل من العريس والعروس كل على حدة، أن يدخل فى سنة من النوم لكى يفيقا إلى حد ما من متاعب الليل، ولكن طلوع الصبح يجلب المزيد من المتاعب والحركة داخل بيت العريس.

فى فترة ما قبل الظهر يجرى تجهيز الكثير من الغرف فى بيت العريس وفى البيوت المجاورة، وذلك من باب الاستعداد لمجىء الضيوف الكثيرين الذين تمت دعوتهم فى اليوم السابق لتناول فنجال من القهوة. فى الشارع يرى الماشى بعض النيران المشتعلة فى الحطب، ومن فوقها "الزاروبيان". والزاروبيان هو الخليط من اللحم والأرز الذى أتينا على ذكره من قبل، والذى يُطبخ مع أنواع من التوابل فى قدر كبير. والحلو فى مثل هذه المناسبة يتكون من كل أنواع الفاكهة مضافًا إليها المشبَّك[٣٣]، والسمبُوسَك[٣٤] والفالودة، والفنَّى . والفالودة تُصنع من النشا وماء الورد والحبهان، لكن ذلك يكون بإضافة الحليب المحلى بالسكر.

بعد صلاة الظهر يبدأ توافد الضيوف ويُوزعون على الغرف المختلفة. وفى واحدة أو اثنتين من هذه الغرف تُقام الموالد (بمعنى مقتطفات من سيرة النبى ﷺ). ومن هنا يطلق الناس على احتفالات يوم الدُّخلة اسم "المولد"، الذى يوصل بالدين، وذلك على العكس من الاحتفالات الأخرى التى سبق أن تناولناها بالوصف. فى حال زواج شاب من عذراء تستمر هذه الموالد (احتفالات) على امتداد ثلاثة أيام أو أربعة، لكن طبقًا للعرف العربى، ونظرًا لأن المولد يحتم وجود صاحبه، فإن العريس

---

(٣٣) نوع من الفطائر المكونة من حبات المكرونة، والمملوءة بعسل النحل، والمخبوزة فى الزبد.

(٣٤) نوع من الفطائر الصغيرة المحشوة باللحم.

يحضر إلى باب المنزل بين الحين والآخر ليكون فى وداع الضيوف عندما يغادرون المكان. ويُعطر الضيوف عند رحيلهم بماء الورد، كما يُبخرون أيضًا بالطيب ذكى الرائحة، يضاف إلى ذلك أن العريس هو وأقاربه يقفون لرد التحية عندما يهم الضيوف بالانصراف.

فى مساء يوم الدُّخلة يُجمع بعض الحمالين (ويكون العدد كبيرًا قدر المستطاع طلبًا لإحداث تأثير كبير) الذين يحملون العفش المنزلى الذى يمثل مهر العروس، ويروحون يتجولون فى عظمة وأبهة خلال الشوارع تحت إشراف عشرة رجال أو خمسة عشر رجلاً (والناس هنا يطلقون على هؤلاء الرجال اسم "الأمناء"). يحمل الحمالون الأوانى المصنوعة من الفخار، والأدوات المصنوعة من الخشب والحديد، والسجاد والشيش أو النارجيلات، والأوانى الخزفية، كما يحملون معهم أيضًا ذلك الذى يسمونه "قصَّابات" (القصَّابة عبارة عن حامل ثلاثى مزين يُعلق على الجدران لغرض ما، لم يشرحه أو يوضحه لى أحد من الناس)، خلاصة القول أن الحمالين يحملون هذه الأشياء المنزلية أو التى تستعمل فى تزيين المنزل، من بيت العروس إلى بيت العريس. وهنا تُقدم القهوة لهؤلاء الأمناء كما يأخذون معهم أيضًا شيئًا من الحلوى إلى عائلاتهم وأسرهم، كما يتم تعطير هؤلاء الأمناء ويُبخرون بالطيب.

يلى غروب شمس ذلك اليوم ليلة الصَّبْحة . فى هذه الليلة يجتمع العريس والعروس مرة ثانية، لكنهما يجتمعان هذه المرة فى غرفة من غرف منزله. والعروس شأنها شأن النساء المدعوات فى اليوم السابق، واللاتى يكن حاضرات فى يوم الصَّبْحة، تلبس فى هذا اليوم ملابس بسيطة، القصد منها إبراز مفاتنها ومحاسنها إلى أبعد حد ممكن، وترفع المدعوات العروس لإجلاسها فى كوشة عرس بسيطة وغير مزينة. فى يوم الصبحة تحضر أيضًا النساء غير المدعوات، لكن الاحتفال

بكل مراسمه ينتهى قبل غروب الشمس بفترة طويلة، وذلك حتى يتمكن العريس وعروسه من نيل قسط من الراحة، ولا يبقيا ساهرين مثلما حدث فى الليلة السابقة. وتضع العروس على رأسها إكليلا جميلا (وهم يطلقون على هذا الإكليل اسم "تعميرة الرأس") من زهور الياسمين بدلاً من غطاء الرأس الثقيل الذى كانت ترتديه فى الليلة السابقة، ويجلس العريس مقابلا للعروس على مقعد صغير. ويقضى مدة خمس عشرة دقيقة أقل حرجًا من الليلة السابقة، ويروح يقرأ الفاتحة، ويلمس جبهتها بيديه فقط وبدون وضع عملات. وهنا يذهب العريس والعروس إلى سكنهما حيث يرتدى كل منهما ملابسه الخفيفة جدا ويذهبان إلى غرفة النوم. فى هذا الوقت نفسه تروح البنات المغنيات ينشدن الدانات بأغانيها المختلفة. وفوق السرير وتحت اللحاف توجد قطعة صغيرة مطوية من القماش الخشن تضعها أم العروس، ولون هذه القطعة من القماش هو الدليل على عذرية العروس، ويقال هنا، إن هذا الدليل يكون اصطناعيا فى بعض الأحيان.

يصبح من حق العريس وعروسه قضاء الليل بلا إزعاج. وعندما يذهب العريس والعروس للاستحمام، تسارع أم العروس بالدخول إلى فراش الزوجية، لتحضر قطعة القماش المخضبة ببقع الدم، وتعرضها على السيدات اللاتى قضين الليل فى بيت العريس، وهنا تنطلق الزغاريد تحية لراية الطهارة والعفة.

وفى ترتيب جميل يجلس العروسان سويا لتناول الإفطار. وبعد أن يشبعا، يسلم الرجل زوجته الشابة "الصَّبْحة" أو "التصبِيحة" [وهو ما نُسميه فى مصر الصباحية](*). فى بعض الأحيان قد تكون "الصَّبْحة" حزمة من الأشياء الفاخرة، أو خاتمًا مرصعًا بأحجار الماس. والزوجة تعلق أملاً كبيرا على الصَّبْحة وعلى ثمنها، إذ فى ضوء هذه

(*) الكلام الذى بين المعقوفين من إضافة المترجم.

الصَّبْحة تقدر صديقات العروس حب زوجها لها. وتنتشر فى كل أنحاء البلدة، العبارة التى تقول "لقد أعطى عروسه صبحة كيت وكيت".

***

الشرع يقضى أن يمضى العريس ثلاثة أيام(*) متتالية مع عروسه، أما إذا كانت عذراء فينبغى عليه قضاء سبعة أيام متتالية معها. ومن هنا تجد السيدات سندا لهن فى جعل اليوم السابع مناسبة من المناسبات [وهو ما نسميه فى مصر "السبوع"](**) وابتداءً من الساعة التاسعة من صباح اليوم السابع تستقبل العروس الزيارات من السيدات المدعوات اللاتى حضرن حفل الزواج، ولكنهن فى هذه المرة يكن مرتديات أبهى ملابس الزيارة. فى مثل هذه المناسبة لا يحدث استعراض أمام الجمهور. فى هذا اليوم لا تحضر السيدات غير المدعوات. وتُقدم التحية والشاى والقهوة والغلايين، وفى بعض الأحيان قد تقدم أغنية من أغانى الدانات بواسطة الهاويات، نظراً لعدم وجود مغنيات محترفات فى ذلك اليوم.

هذا الذى أوردناه لا يعدو أن يكون مجرد فكرة عامة عن الزواج المعتاد، لكن الأثرياء ينفقون الكثير فى بعض الاتجاهات الأخرى، الأمر الذى يُسَهِّل علينا معرفة الأسباب التى تؤدى إلى إفلاس هؤلاء الأثرياء فيما بعد. والمكى، مهما كانت مديونيته، تراه يبرم عقدا بقروض جديدة، بدلاً من التخلى عن جزء من أجزاء احتفالات الزواج. والمكى إذا ما أراد أن يسلك الطريق الصحيح فى هذا الأمر ترى أهله يمنعونه من المضى قدما وبخاصة نساؤه.

أوضحنا بالفعل كيف أن تقديم الزوجين بهذه العظمة والأبهة إلى الحياة الزوجية، ليس له مغزى كبير فى ذلك التوحد الذى يستمر مدى الحياة. ما جدوى أغانى المديح

(*) فى حالة من سبق له الزواج وما زالت السابقة فى عصمته. (التحرير).

(**) ما بين المعقوفين إضافة عن المترجم.

والثناء التى تستمع إليها الفتاة مرة واحدة، وبخاصة أنها ستدخل بعد ذلك إلى مجتمع يحتقرها هى وبنات جنسها. الأدبيات الإسلامية فيها بعض الأشياء المتفرقة التى تقدر المرأة وتعزها، لكن وجهة النظر التى سادت بعد ذلك، تجد لنفسها تعبيراً فى الحديث الشريف الذى يمثل جهنم على أنها مليئة بالنساء، وينكر على المرأة - اللهم إلا فى بعض الحالات - الفهم أو الدين، وفى القصائد التى تعزو شر العالم كله إلى النساء، وهناك أيضًا بعض الأمثال الشعبية التى ترى أن تعليم البنات يعد نوعًا من الإسـراف الذى لا لزوم له. أى أن المرأة مهمتها تتمثل فى إشباع احتياجات الرجل الجنسية الشرعية، وإنجاب الأطفال.

الشاب الذى يتربى فى هذه الأجواء والآراء ينظر إلى علاقته بالمرأة على أنها مجرد شىء من الترف، كما أن ذوق هذا الشاب الذى لم يكتمل عند الزواج، سرعان ما يتحول - إذا ما كانت الاعتبارات العائلية تحول دون فك ارتباط الزواج - إلى الرذيلة غير الطبيعية، بأن يتخذ لنفسه محظية جارية من الجوارى، فى حين تصبح الزوجة الحرة محظوظة إذا ما وجدت فى أبنائها عزاء أو سلوى لها.

نعود الآن إلى التقاليد المكية فى الوفاة، إذ يحضر المغسل عقب الوفاة مباشرة، ويكون المغسل هذا رجلاً أو امرأة طبقا لجنس المتوفى. ويتم تغسيل الجثة طبقًا لقواعد محددة ليس هنا مجال ذكرها على وجه التحديد.

فى الوقت نفسه يكون إعلام الجيران ودائرة المعارف بالوفاة بالصراخ المستمر بصوت عال. (والناس هنا يقولون لذلك الصراخ "صياح") . والنساء هن اللاتى يصرخن بذلك الصياح داخل المنزل. ومكة ليس فيها ندابات يعملن بالأجر، ونساء العائلة هن اللاتى ينوعن صياحهن وبكاءهن مستخدمات فى ذلك تعبيرات تعدد مناقب المتوفى: "ياولدى (أو يا روحى، أو يا أخى) يا من جعلتنى أؤدى فريضة الحج، يا من جعلتنى أزور القبر المقدس فى المدينة [المنورة] (والناس هنا يطلقون اسم الزيارة على الذهاب إلى قبر الرسول ﷺ) يا من كسوتنى أغلى الثياب، يا روحى! يا عينى!

يا جملى (بمعنى يا حامل أعبائى)". يسأل أحد الجيران جاره : "أين هذا الصياح". ويرد "إنه فى بيت فلان أو علان!" فيقول إذن لابد من أن يكون أخوه أو زوجته المريضة قد توفى أو توفيت". وسرعان ما يذيع الخبر، وهنا يعلم الأصدقاء أنهم خلال ساعات قليلة يتعين عليهم المشاركة فى الجنازة. وينتظر الأصدقاء والمعارف خارج المنزل إلى أن يتم إخراج الجثمان، أو قد يذهبون مباشرة إلى المسجد، حيث يتشكل الموكب الرئيسى. بعض آخر من الناس ينضمون إلى موكب الجنازة على الطريق. ويمكن أداء طقوس الوفاة فى المنزل مثل المسجد. وطقوس الوفاة فى مكة تؤدى فى المسجد بعد وضع الجثمان بالقرب من الكعبة[٣٥]. من هنا فإن أهل مكة عندما يسمعون عن وفاة قريب يبادرون إلى إجراء طقوس الوفاة فى المنزل أو المسجد، وإذا ما أرادوا إقامتها فى المسجد الحرام تعين عليهم تقديم هدية للإمام لكى يؤم المصلين فى الحرم. صلاة الغائب هذه يمكن أداؤها فى أى وقت من الأوقات، بعد دفن الجثة فى أى مكان، ويمكن أن تقام فى الحرم، ويمكن تكرارها مرات عدة.

بعد أداء صلاة الجنازة مباشرة يتجمع السواد الأعظم من الذين أدوها على شكل موكب جنازة. فى بداية الموكب يأتى النعش الذى يحمله ما بين عشرة رجال وستة عشر رجلاً، ومن بعد النعش يجىء أقارب المتوفى واحداً بعد الآخر، ثم يجىء الأصدقاء بعد ذلك على شكل صفوف عريضة غير منظمة، ويردد الجميع بلا انقطاع صيغه دينية يرددها الناس جميعاً "لا إله إلا الله" وعندما تمر الجنازة ببعض التجار فى متاجرهم، أو بالجالسين على المقاهى أو أمام مساكنهم، فإنهم يقفون ويسترعون انتباه

(٣٥) نقلا عن الأزرقى، كان من عادة الناس إحضار الجثمان إلى المسجد، لكن ذلك لم يكن يحدث فى زمنه. القاضى قطب الدين، ذلك القاضى الحنفى الشهير، الذى كتب سجل أحداث مكة فى أواخر القرن العاشر الهجرى، يحكى أن تلك العادة كانت سائدة فى زمنه، ويقول أيضاً إن الشافعية رأوها عادة حميدة، أما الأحناف فقد رأوها محرمة، ويفخر ذلك القاضى بعثوره على نص ينسب ذلك الامتياز العظيم للأحناف أيضاً. هذا النص الذى عثر عليه ذلك القاضى يزيل كل اللبس الذى يتعلق بمسألة تلويث المسجد الحرام.

الجيران بصيحة تقول "وحدوا الله"، ويرد عليها المشاركون فى الجنازة قائلين "لا إله إلا الله". وكل من يلتقى موكب الجنازة يضع كتفه تحت النعش مسافة عشرين خطوة تقريبًا وهم يرددون العبارة نفسها. ثم يتحولون بعد ذلك إلى تقبيل أقارب الميت من الكتف الأيمن ويرددون كلمات العزاء التقليدية.

حسب الشريعة الإسلامية فإن الشرور التى تصيب المؤمن فى دنياه، تتبدل إلى حسنات فى الآخرة إذا ما تحملها وصبر عليها. والمسلم عندما يزور مريضًا يواسيه بعبارة تقول "لا بأس عليك"، مؤكداً على الأمر الذى سيحصل عليه نتيجة معاناته وآلامه. من هنا تجيء الصيغة الشرعية للعزاء التى تقول "عظم الله أجرك". ويكون الرد على هذه العبارة "جازاك الله خيراً".

عندما يصل موكب الجنازة إلى مقابر المعلاة يتم إنزل الجثمان إلى القبر بلا أية طقوس، ويقوم أحد أقارب الميت بتوزيع سلة من أرغفة الخبز على المحتاجين من الفقهاء (أى قراء القرآن) وعلى الفقراء الآخرين فى المقبرة، وهنا يقرأ هؤلاء الفقهاء ما تيسر من القرآن. وبعد أن يغادر الناس المقبرة، يبقى ذلك الرجل المكلف بالتلقين عندما يسأل الملكان الميت عن دينه.

عند مدخل المقبرة يقف أقارب الميت حسب الترتيب السنى لتقبل العزاء. ويصافح كل من شارك فى تشييع الجنازة مستقبلى العزاء ويقبل الكتف الأيمن لكل واحد منهم، مع تبادل عبارة العزاء "عظم الله أجرك" ويرد الآخر عليها "جازاك الله خيراً". أما هؤلاء الذين لم يتمكنوا من اللحاق بالجنازة فيتعين عليم الانتظار بالقرب من منزل الميت لتقديم العزاء إلى متقبليه عندما يعودون من المقبرة.

وتستمر طوال بضعة أيام من الوفاة الطقوس التى يستبعد طابعها الدينى أى شكل من أشكال الضوضاء الدنيوية. هذه الطقوس لا علاقة لها بالحزن، لأن الهدف

الرئيسى منها هو إرسال عمل طيب فى أثر الراحل العزيز ليخفف عنه حساب القبر ومجىء الآخرة.

سبق أن أشرنا إلى أن قراءة القرآن بصفة خاصة تزيد من رصيد الأقارب المتوفين فى الآخرة، ولهذا السبب يأتى الأصدقاء إلى منزل الميت بعد المغرب بلا دعوة، وتقدم لهم القهوة، أما الوجبة التى كانت تقدم لهم قبل ذلك، فقد توقف تقديمها من قبل الأسر الطيبة، وذلك بناء على فتوى صدرت عن أحمد الدحلان مفتى الشافعية. هذه الفتوى التى نشرها سيد بكرى فى كتابه المعنون "إعانات الطالبين"، توضح أن النبى ﷺ ، فضلاً عن ابتعاده عن المشاركة فى مثل هذه الوجبة، أوصى بأن يقدم الجيران الطعام لأهل (الميت) وذلك من باب تخفيف هموم الحياة اليومية عن أهل البيت. وينادى أحمد الدحلان مطالبًا السلطان بمنع تقديم هذه الوجبة ومنع هذه العادة السيئة.

بعد تناول القهوة يأخذ كل واحد من الحاضرين جزءًا واحداً من القرآن على شكل كتيب صغير، جرت العادة أن يكون عدد الحاضرين أكثر من ثلاثين، لكن الكثيرين منهم لا يجيدون القراءة، أو ليسوا متمرسين على التلاوة، لكنهم يدللون بحضورهم على نيتهم الحسنة.

تستمر القراءة بصوت عال مدة ساعتين تقريبًا، وبصدور إشارة معينة تطوى الكتب، ويدعو واحد من أهل البيت بدعاء التختيم، وهو عبارة عن صيغة مثل الصيغ الخاصة بختم القرآن. والكل يشاركون فى أجزاء معينة من هذا الدعاء، قراءة الفاتحة على سبيل المثال، وكذلك "لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد". ويتصل بهذا الدعاء التماس العفو عن الخطأ الذى ربما يكون قد حدث فى التلاوة، وتوسل إلى الله أن يضع ثواب هذه القراءة فى ميزان حسنات الميت. فى الليلتين الثانية والثالثة أيضًا يُتلى القرآن إضافة إلى تقديم بعض من الكعكات المدورة (وهم يطلقون على هذا النوع

من الكعك اسم "الفيلاسى"). هذه القراءة قد تستمر، رغم أن ذلك ليس إلزاما، على امتداد الأمسيات الثلاث التى تلى ذلك، لكن يتحتم فى الليلة السابعة تلاوة القرآن وعمل مولد (أى جزء من سيرة الرسول)، ويكون ذلك بواسطة بعض الفقهاء المتعلمين الذين يتم استئجارهم للقيام بهذا العمل. فى مساء اليوم السابع تكون القراءة من الضيوف العاديين. وهنا يغادر القسم الأكبر من الضيوف. بعد ذلك وأمام المعارف الحميمين يبدأ المحترفون تلاوتهم، بحيث يتلو كل واحد منهم جزءا من القرآن، ويبدأ من حيث توقف القارئ السابق. تستمر هذه التلاوة ساعات قلائل. وبعد منتصف الليل وعندما يردد الجميع دعاء الختم، يقوم أحد الفقهاء بقراءة المولد (والمقصود بالمولد هنا هو سيرة الرسول ﷺ).

فى يوم بين العشرين والأربعين وفى بعض الأحيان اليوم المائة من تاريخ الوفاة تكرر الطقوس نفسها. ثم ينتظر الناس بعد ذلك حلول تمام السنة (أى الحول). فى الحول أو إتمام السنة تحدث بعض الموالد المنتظمة، وبعض التلاوات القرآنية (والناس هنا يقولون لتلك التلاوات "قرايات")، وتجرى مثل الموالد، بعد تناول وجبة من الطعام. وتستمر تلك الحال إلى أن ينسى الجيل الجديد الحول والميت نفسه أيضًا.

وإذا ما علم أحد من أهل مكة بوفاة قريب له فى مكان آخر، فإنه يبدأ على الفور تنفيذ هذه الطقوس والقراية بكل متعلقاتها، على أن يتم ذلك داخل منزله فى حضور جمع كبير من الناس، بغض النظر عن عدد الأيام التى تكون قد انقضت على الوفاة. ونحن نندهش لتلك الروح المادية التى يستعد الناس بها لمثل هذه المناسبات. هذه المظاهر المادية كلها لا علاقة لها بالحزن، والابن الذى يسمع لأول مرة عن وفاة والده يتشاور مع أصدقائه حول المكان الذى يمكن أن يشترى منه الأرز والكعك اللازم للمولد. وهو ليس أمامه متسع من الوقت ويود الحصول على بعض الفقهاء الذين ينهون

تلاوة القرآن بأسرع ما يمكن . وهنا تكون تزكية أربعة من المتخصصين لذلك الابن . صحيح أنهم ليسوا فنانين وأصواتهم ليست على ما يرام، لكنهم دقيقون جدا وسريعون أيضًا. وبهذه الطريقة يجرى التعامل بأسلوب تجارى طيب ع حافظ القرآن.

***

حتى الآن لم نقل شيئًا عن النساء، سوى ما يتصل بصراخهن (الصياح) ونحيبهن ، لأنهن لا يشاركن فى الطقوس التى تناولناها بالوصف من قبل، والنساء لهن فى الشرع دور فى الحزن غير دور الرجال، والى جانب هذا الدور فهن يقمن بأشياء وعادات تبتعد عن الشرع تمامًا.

شريعة الحداد تأخذ فى الاعتبار الطابع الرقيق للمرأة، وتسمح لها بالتعبير بحيوية أكثر من حيوية الرجال عن مشاعر حزنها. والأرملة يتحدد حدادها بأربعة أشهر وعشرة أيام، لا يجوز لها خلالها الزواج، ولا تسمح لنفسها بالزينة أو التزين خلال فترة الحداد هذه، ويجوز لها فى ظل الضرورة ترك منزل المتوفى، ولا يجوز لها المشاركة فى الترف. وهذا هو ما يقولون له "العِدَّة" . هذا الاسم نفسه يطلق على زمن حداد النسوة على أقاربهن الموتى وصديقاتهن المتوفيات لكن هذه العِدَّة يجب ألا تزيد على ثلاثة أيام.

فى مكة تلبس المرأة ملابس الحداد على أقارب الدم أو الزوج فترة أطول من الفترة المحددة. وحسب درجة القرابة، تحتم "العادات" أن تتردد الفترة التى يسمونها هنا "العِدَّة" بين شهرين وأربعة أشهر. وفى فترة الحداد هذه تكون الملابس البيضاء اللون هى أفضل ما يمكن ارتداؤه، وقد تستعمل النساء أيضًا اللون الأخضر واللون الأسود، ولكن الملابس حمراء اللون أو التى يميل لونها إلى الأحمر يجب تحاشيها

مطلقًا، دون التخلى عن زينتهن تماماً، فهن ينظرن إلى أنواع معينة من الزينة على أنها لا تليق ولا تصلح لفترة الحداد، ولكن ذلك كله من باب الأعراف السطحية وليست له أية علاقة بالمعانى الحقيقية للحداد. أما بقية النساء فهن يبذلن قصارى جهودهن فى إحداث أكبر قدر من الصياح والصراخ، ليس فقط فى يوم الوفاة وإنما لعدة أيام بعدها.

طول زمن الصراخ والصياح يعتمد على طول مدة الحداد (العدة)، ولكنه لا يطول بأية حال من الأحوال عن عشرين يوماً. طوال هذه المدة تتوقع النساء فى أية ساعة من ساعات النهار وصول زائرات لهن، يساعدنهن على ذلك الصياح والصراخ. هذا الصياح والصراخ لا يقتصر على تقديم القهوة والشاى والمنعشات الأخرى. يضاف إلى ذلك أن الضعف الإنسانى والطبيعة الأنثوية هما اللذان يساعدان على تكرار الصراخ والصياح اللذين تتخللهما الثرثرة النسائية المعتادة. لكن عندما تفد على منزل الميت زائرة جديدة يبدأ الصراخ والصياح على الفور، ثم يبدأ الصياح والصراخ من جديد بعد تناول التحية. والماهرات من النساء هن اللاتى يقلن أعظم الأشياء فى مدح الميت والثناء عليه، فى حين تشارك النساء الباقيات "بالولولة" و"التوجع" وهن يبكين وينتحبن. عندما تكون المتوفاة امرأة فإن المحترفة من صديقاتها هى التى تقوم بدور "المعددة". أما إذا كان المتوفى رجلاً فإن الأمر يترك لأرملته ولقريباته.

كل الصراخ الذى يعقب الوفاة مباشرة، والذى يتلو أيضًا خروج الجثة من المنزل، يطلق عليه هنا "صياح" ، والتجمعات خلال الأيام الأولى من العدة يطلقون عليها اسم "التعديد" . وعلى الرغم من أن الحزن الحقيقى يتم التعبير عنه بالشكل التقليدى، نجد أن التعديد فى مناسبة الموت قد أصبح أمرا تقليديا مثل إطلاق الزغاريد (الغطرفة) فى المناسبات السعيدة سواء بسواء. وفى الدوائر النسائية نجد واحدة منهن يزكيها الجميع

على أنها فنانة فى الغطـــرفة (الزغردة)، ونجد أخرى فنانة فى "التعديد". وفى هاتين المهارتين نجد الرئتين والحلق واللسان تُستعمل دون إحساس حقيقى.

فى كثير من المناسبات الأخرى نجد النساء يتصرفن فى أثناء الوفاة بطريقة مكروهة وممقوتة عندهم، وتضايق علماء المسلمين. عندما يُغسَّل جثمان سيد من السادة الكبار أو شريف من الأشراف أو عالم من علماء الدين أو متصوف من المتصوفة، فإن النساء يضغطن ويتقدمن نحو مكان التغسيل ويأخذن شيئًا من الماء المتساقط نتيجة غسل الجثمان ليبللن به أيديهن ووجوههن، بل حتى يشربن ذلك الماء، وتأسيساً على ذلك فإن الكثير من العلماء حتى بعد وفاتهم، سيقولون للنساء ذلك الذى سبق أن قالوه لهن فى الحياة الدنيا "يا معشر النساء! أنتن صاحبات طبيعة فاسدة ".

القسم الثالث

التعليم فى مكة

أعطى محمد ﷺ للعرب مع الدين بدايات التعلم. صحيح أن الشعراء قبل محمد ﷺ كانوا يسمون أهل المعرفة، (وهذه دلالة من دلالات كلمة شاعر)، وبالإضافة إلى المهارات المطلوبة لحرف بعينها، كانت هناك بعض الأفرع المعرفية المحددة التي كانت تنتقل باعتبارها من الموروثات في دوائر بشرية صغيرة، والتي منها على سبيل المثال السحر والعرافة، أو إن شئت فقل الكهانة أو الرجم بالغيب. ومنها أيضًا الشفاء من الأمراض، وتحديد بنوة أو أبوة الوليد الجديد، وما إلى ذلك من تلك الفروع. ويرى المؤمنون أن النبي ﷺ وضع حدا لزمن الجاهلية، كما وصف معرفة أولئك الوثنيين بأنها رجز من عمل الشيطان. الوحي وحده كان بمثابة الحكمة السماوية، التي أصبحت في متناول الناس بصورة أو بأخرى، وأخيرا اللغة العربية، التي أنزل بها الله سبحانه وتعالى قرآنه على رسوله محمد ﷺ، الذي كان يفخر ويتباهى بأميته. بدءًا من ذلك الحين أصبحت كلمة الله عند المؤمنين بمحمد ﷺ هي مصدر المعرفة الحقيقية، والتي تتحقق في كثير من الأحيان من خلال تعاليم النبي ﷺ.

الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ لم يضفيا على أي مجال من مجالات المعرفة أية منظومة تعليمية محددة. يضاف إلى ذلك أن ثقافة محمد ﷺ وشخصيته لم تكونا مناسبتين لأية منظومة من تلك المنظومات. يزاد على ذلك أن محمداً ﷺ لم يستهدف الكمال، لأن مهمته كانت تقتصر على تبليغ شعبه أو إعلامه بذلك الذي سبق أن تبعته الأقوام الأخرى بوصفه معيار الحياة ومقياسها. وطوال تحدث النبي ﷺ إلى الكافرين، أي إلى ما قبل الهجرة، نجد أن هاتف الوحي عند محمد ﷺ ينطوي

على التهديد والوعيد، وصور يوم القيامة، والقصص المأخوذة من الكتاب المقدس(*). هذا يعنى أن المجتمع الصغير لم يكن بحاجة إلى قواعد تفصيلية للحياة. بعد الهجرة يبرز محمد ﷺ على أنه وسيط الله سبحانه وتعالى بين أتباعه الذين يعودون إليه فى كل مشكلة أو مُلمَّة؛ فهو القائد، وهو المشرِّع، ولكنه لا يقوم بدور المشرع إلا فى أحيان قليلة جدا، لأنه يتبين تمامًا أخطار إلزام نفسه بإرساء قواعد الأحكام السماوية، أو إثارة الشكوك حول كلمة السماء بسبب التغييرات الكثيرة. والمعروف أن القسم الأكبر من الأجزاء التشريعية فى القرآن قد صدرت واضحة ومحددة بعد تحرٍّ طويل، وبوصفها الوسيلة الوحيدة لإنهاء المشاجرات فى المجتمع أو الاعتراض على سلطة النبى ﷺ . هذه الأجزاء التشريعية تكاد تخلو من التنظير أو المبادئ العامة. لم يكن ذلك راجعًا إلى المصادفة فقط من جانب محمد ﷺ . يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من مؤيديه المؤمنين لم يكونوا من المنظرين، وأن حياة هؤلاء المؤيدين – رغم الثورة الهائلة التى حدثت فى الإسلام – ظلت متجذرة بدرجة كبيرة فى التربة العربية، إلى حد أنهم لم يُخْضِعُوا الأحكام والأعراف الإسلامية التقليدية على النحو الذى يتفق مع المبادئ الإسلامية الخالصة. على كل حال، ربما كان المسلمون يعتبرون كل مسألة من المسائل التى تواجههم مسألة إسلامية، وأن الذى يبت فى هذه المسألة أو المعضلة هو كلام الله سبحانه وتعالى المُفَسَّر من قبل محمد ﷺ لحالة بعينها .

كان الجيل الذى جاء بعد محمد ﷺ أكثر انتقاداً وأشد للوثنية من محمد ﷺ نفسه، ومن ثم بدأت تنشأ بصورة مستمرة تساؤلات جديدة عملية الطابع ونظرية الطابع أيضًا. وكانت المدينة (المنورة) طوال السنوات الثلاثين الأولى بمثابة المنتدى الذى طرحت عليه تلك التساؤلات، من منطلق أن المدينة (المنورة) فى ذلك الوقت كانت

(*) الكتاب المقدس عند المسيحيين يشمل العهد القديم والعهد الجديد. (المترجم)

مقراً للحكومة الإسلامية. لم تكن تلك التساؤلات تقل أهمية للحياة أو العقيدة عن تلك التساؤلات التى بتّ فيها محمد ﷺ بنفسه. هذه التساؤلات شأنها شأن المسائل التى بت النبى ﷺ فيها بنفسه كانت بحاجة أيضاً إلى تعزيز من سلطة مقدسة، وهنا نجد أن الوحى الذى كان الله سبحانه وتعالى يتكلم من خلاله مع خلقه قد أغلق إلى الأبد، الأمر الذى ترتب عليه عدم وجود وسيلة لطلب القرارات والأحكام السماوية . يضاف إلى ذلك أن الرمز الصغير الذى تبقى بعد وفاة محمد ﷺ ، والذى كان يحتوى على كلام الله، لم يكن كافياً، وذلك بغض النظر عن تكبيره وتفسيره. ومن هنا جرى الرجوع إلى الأحاديث النبوية الصحيحة، وبذلك أصبح كل حديث صحيح من هذه الأحاديث يعادل آية من آيات القرآن الكريم. وبذلك أمكن الاستشهاد بكلام النبى ﷺ فى تأييد وإسناد كل شرع من الشرائع المستحسنة فى أية دائرة من الدوائر. ومن لا يستطيع تبين هذه القنوات فى مجموعات الموروثات لابد وأن يكون مجرداً من الحس التاريخى بالكامل، أو أنه لم يوازن قط بين الموروثات المختلفة فيما يتصل بموضوع بعينه. ولما كانت كل نحلة من النِّحل المسيحية تزعم أنها وحدها هى التفسير السليم والصحيح للإنجيل، فنحن نجد أيضا أن كل حزب(*) إسلامى يزعم لنفسه أنه هو الوحيد الذى يحذو حذو محمد ﷺ ويتأسى به. فى العقيدة الإسلامية نجد الجميع يستندون للنبى المتوفى ﷺ نصا وروحًا ، أما مسألة الانقسامات التى نتجت عن الخلاف فى الرأى على امتداد قرون عدة، فقد كانت يجرى جبرها دومًا فى حينه أو فى فترات لاحقة عن طريق سماحة الإسلام، الأمر الذى مكَّن من وضع هذه الانقسامات كلها فى منتصف الطريق.

***

(*) كلمة "حزب" الواردة فى السياق تعنى "مذهب" . (المراجع)

طوال السنوات الثلاثين الأولى، وعندما كانت المدينة (المنورة) لا تزال مقر السلطة التنفيذية والتشريعية، نجد أن القرارات الصادرة فى تلك الموروثات كانت لها أهمية كبيرة من الناحية العملية. هذه القرارات فى هذه الفترة، كانت تنطوى على بدايات صغيرة من الحوار اللاهوتى التجريدى، لكن القدر الأكبر من الاهتمام كان منصبًّا على المسائل العملية، وهنا نرى أن انتقال الخلافة من أيدى صحابة النبى ﷺ إلى أيدى الأمويين الدنيويين الأقل تدينًا، يعد إشارة إلى الفصل بشكل أو بآخر بين الدولة والدين. انفصال الدولة بدأ يتخذ من دمشق مركزًا له، أما انقسام الدين فقد اتخذ من المدينة (المنورة) مركزًا له، ومن هذين المركزين راح كل من هذين الانقسامين ينتشر عبر العالم الإسلامى كله، على شكل عداء مستتر فيما بينهما، أو على شكل عداء سافر ومكشوف فى بعض الأحيان، أو على شكل تحالف مؤقت فى بعض الأحيان الأخرى، بل وصل الأمر فى بعض الأحيان أن راح كل من هذين القسمين يشق طريقه الخاص به متباعدًا، وإذا كان الخلفاء قد حافظوا على رفع شعار ادعاء التبعية للقيادة والصحابة فى الأراضى الإسلامية المقدسة فإنهم لم يتخلوا عن خلافاتهم - تحت أى ظرف من الظروف - بشأن عدم موافقتهم من الناحية النظرية على إضفاء الطابع الدنيوى على الإسلام.

توصل الزعماء فى المدينة (المنورة)، فى غضون فترة قصيرة، إلى الحقيقة التى مفادها أنهم يتعين عليهم الاقتصار على مجال التنظير، وأنهم يتعين عليهم الخضوع للسيادة السياسية الفعلية فى دمشق. ومن هنا نشأت أقدم "مدارس" الإسلام، وقد سُحب بعد ذلك التعليم من مجال الاعتبارات العملية الذى كان سائدًا فى ذلك الوقت، وذلك على الرغم من أن بعض المتطلبات الاجتماعية والسياسية كان يتحتم مراعاتها إلى حد ما، لكن نظرًا لأن السواد الأعظم من الأمور المهمة كان يجرى ترتيبها دون الرجوع إلى آراء الفقهاء والمتخصصين، لم يكن هناك مبرر وسبب يجعل هؤلاء المتخصصين والفقهاء يخفون عدم موافقتهم على الإدارة بشكل عام. يضاف إلى ذلك

أن قيام هذه المدرسة كانت له نتائجه على أنشغالها بالمسائل النظرية فقط. وقد زاد هذا الانشغال بواسطة اليهود والمسيحيين الذين دخلوا فى الإسلام. كان محمد ﷺ قد أبلغ أن "أهل الكتاب" يعرفون أشياء كثيرة من الأشياء التى أشار إليها هو إشارة عابرة. صحيح أن محمداً ﷺ اتهمهم بعد ذلك بتزوير وتزييف الكتاب المقدس (الإنجيل)، لكن خطر التزييف الجزئى توقف عندما دخلوا فى الدين الجديد. من هنا أصبح بوسع أتباع محمد ﷺ ، الذين كانوا يتطلعون إلى المعرفة، ملء الفراغات التى تركها محمد ﷺ ، وذلك بمساعدة أهل الكتاب لهم فى هذا الصدد.

من هنا نجد أن الموروثات النبوية المقدسة كانت، خلال القرون الأولى من الإسلام، بمثابة المصدر الرئيسى للمعرفة فيما يتصل بالموضوعات التى شغلت انتباه الفقهاء والمتخصصين فى ذلك الحين، والسبب فى ذلك أن النتائج المهمة التى كان يسفر عنها الحوار والنقاش، كانت تعزى إلى النبى ﷺ . ويجب أن لا يغيب عنا هنا أنه كانت هناك، خارج هذا المبدأ، موروثات أخرى كثيرة لا تزال الأدبيات تحتفظ ببعض منها.

المسائل التى تتصل بالدين بالمعنى الضيق تجد لنفسها حلا فى الموروث، وبالتالى لا تقسم هذه المسائل إلى مسائل أصلية (أصول) أو تاريخ مقدس أو أخلاقيات، والسبب في ذلك أن محمداً ﷺ هو أصل الحقيقة فى كل فرع من هذه الأفرع. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الفقه والتشريع، أو بالأحرى عن القوانين المنظمة للحياة والفكر واللباس ونظافة المؤمنين الشخصية، نظرا لأن ذلك لا يقل أهمية عن اختيار الخلفاء من ناحية وقوانين الضرائب من ناحية أخرى. هذه السلطات نفسها هى التى تبث بالثقة نفسها، أى عن طريق الإحالة إلى النبى ﷺ فى المسائل الطبية، كما تبث أيضًا فى مسائل الصيغ الدينية التى يتحتم أن تحل محل الشفاء والعلاج السحرى العربى القديم، وهى أيضًا التى تبث الثقة فى مسائل العلاجات والطعام، فى حين تبقى مسألة انتشار الأمراض بالوراثة أو العدوى أمرًا متروكًا للنقاش والحوار.

خلاصة القول أن المسائل المهمة كلها، والتى يعجز الفهم البشرى عن إيجاد حلول لها، كان يجرى التعامل معها بالطريقة نفسها فى مدارس الموروث باسم الله سبحانه وتعالى وأدواته، وعلى الرغم من الانحرافات الخطيرة أمكن تحقيق الوحدة فى كل المسائل شديدة الأهمية، هذا يعنى أن التسامح بلغ من القوة حداً جعل الإجماع يتحقق بين المؤمنين باعتباره سلطة حاكمة تسير جنبًا إلى جنب كتاب الله سبحانه وتعالى وموروث محمد ﷺ. وعلى الرغم من عنف الحوار والمناقشات، فإن اختلاف الآراء لم تعلق عليه أهمية كبيرة فى الدوائر الحاكمة، بل إنه كان يعد رحمة من رحمات الله سبحانه وتعالى بالمجتمع.

***

استغرق تشكيل هذا الموروث حوالى مائتى عام. وفى الأجزاء اللاحقة من الموروث نجد كثيراً من البراهين الواضحة، والتى مفادها أن التطوير العربى للمعرفة لم يكن كافيًا عن كل المسلمين، والسبب فى ذلك أننا نجد عندهم بعض الآراء التى تُرْفَضُ شكليا باسم محمد ﷺ، وأن هذه الأفكار نشأت من تربة أجنبية فى غرب آسيا الإسلامى، وفى شمال شرقىٍّ إفريقيا نجد أن الهيلينية(*) قد دخلت فى أشكال البحث كلها. ومن الناحية الرسمية، نجد أن التعليم الكهنوتى قد تأثر بهذه الهيلينية، لكن خارج الإطار الدينى فى هذه البلدان. طريقة التفكير بكاملها فى الدوائر الأعلى قد أثبتت مدى تأثير التطعيم بالجذور أو البادرات اليونانية على السيقان الشرقية. هذه الدرجة العالية من الثقافة لم تكن قادرة على حماية مناطق الاضطراب السياسى من غزو العرب الذين وحَّد الإسلام بينهم، ومن الانتصارات الإسلامية المعجزة التى أعقبها دخول الناس أفواجًا فى الإسلام، ومع ذلك لم يكن الفكر مقصوراً فقط على

(*) الهيلينية Hellenism تعبير إغريقى يفيد محاكاة الإغريق أو تقليدهم. (المترجم)

ذلك الإطار التعليمى الساذج الذى سبقت الإشارة إليه. وفى مجال الفكر أثبت المنهزمون كفايتهم وتفوقهم بعد أن اكتسبوا معرفة اللغة العربية.

هذا المدخل التعليمي، أو إن شئت فقل التعليم المبدئى، جاء على حساب عمل كبير من جانب غير العرب، لكن الطريق الذى أسسوا عليه علم اللغة العربية سرعان ما أثبت وجود خلاف أو فارق بين البحث المنظم والتجميع والتفسير الفوضوى غير المنتظم للأقوال النبوية. وهنا نجد أنه إذا كانت هذه الطريقة المنظمة فى البحث قد مست أول ما مست موضوعات الدراسة التى من قبيل قواعد اللغة العربية والبلاغة والمنطق والفن الشعرى، كما مست أيضًا كلا من مجموعات القصائد العربية، وتأليف المعاجم والقواميس، فذلك يعنى أن دارسى الموروث ربما لم يكونوا معترضين على ذلك، رغم أن ذلك ربما يكون قد أغضبهم بسبب توجيه المزيد من الاهتمام إلى منتجات وثنية ما قبل الإسلام، بدلا من تركيز الاهتمام على المدخل الضرورى إلى التعليم المقدس.

واقع الأمر أن هذه المسالة ذهبت، على الرغم من كل شىء، إلى شأوٍ بعيد، أصبحت معه الموضوعات التى يعدها الفقهاء والمتخصصون مجرد أدوات، أهدافًا فى حد ذاتها فى دوائر أصحاب التعليم الدنيوى. كان الأمر لا يزال يزداد سوءا على سوئه عندما كانت المناهج الأجنبية الحديثة الخاصة بالمنطق تُطبق فى كل من سوريا وبابل على المعرفة الدينية نفسها. وارتفعت صيحة فى الحرمين، أو بالأحرى فى المدينتين المقدستين، مكة [المكرمة] والمدينة [المنورة]، لكن هاتين المدينتين لم تعد لهما سلطتهما القديمة على الإسلام. ولم يستطع استياء فقهاء وعلماء كل من مكة والمدينة إلغاء الحقيقة التى مفادها أن فقهاء كل من سوريا وبابل كانوا يمثلون جزءا مهما من المجتمع .. ونظرا لأن الإسلام لا يعترف بأى فارق بين المسلمين القدامى والمسلمين المحدثين، ونظرا أيضًا لأن الإسلام يقيم سلطة العلماء والفقهاء على معصومية

المجتمع الذى يمثلونه من الخطأ، فقد أدى ذلك إلى إجبار المقدسات على قبول التحدى.

فى مجال تفسير الشريعة كانت الغلبة لهؤلاء الفقهاء والعلماء، نظرا لأن الشريعة كانت قد صاغها بالكامل العرب فى الجزيرة العربية. وفى البلاد المتحضرة نجد أن أولى الأمر فيها اتبعوا تلك القرارات مادامت تناسب الظروف المحلية فى هذه البلدان ، بل إنهم كانوا يفسرون هذه القرارات تفسيراً متعسفًا فى بعض الأحيان، هذا بالإضافة إلى قيامهم أيضًا بحل المعضلات الجديدة على وجه السرعة. ومن وجهة نظر الأزمان الحديثة فقد أدى ذلك إلى عدم نشوء خلافات بشأن المبادئ. هذا يعنى أن كل جيل من الأجيال التى جاءت بعد ذلك كان يواجه صعوبة متزايدة فى السيطرة على النصوص القرآنية والأحاديث التى جرى استخلاص تلك القواعد منها، كما كان يجد صعوبة متزايدة أيضًا فى معرفة النتائج التى ترتبت على عمل الأجيال السابقة. من هنا نجد أن علماء الحديث يتوقفون عن معارضتهم لفصل الفقه (معرفة الشرع) عن معرفة مصادر هذا الفقه. فقد كان الفقهاء، أو بالأحرى السواد الأعظم من هؤلاء الفقهاء، يكتفون بذلك الذى تقول المصادر فى بلادهم إنه مستخلص استخلاصًا حقيقيا من مصادر الشريعة. بعد عملية الفصل هذه أصبحت دراسة هذه المصادر تدخل ضمن مستوى دراسىٍ وبحثىٍ أعلى، أى أن دراسة هذه المصادر أصبحت تعد نوعًا من الترف.

***

من هنا جرى تدريس القواعد الفقهية الشرعية بعد تقسيمها إلى فصول عدة اعتماداً على سلطة الشخصيات القيادية، ومن هنا أصبح تفسير القرآن وتأويله، وكذلك تفسير الأحاديث، وكذلك نظرية الاستخلاص أو بالأحرى (أصول الفقه)، كل ذلك أصبح موضوعات خاصة يدرسها أولئك الذين بعد أن أكملوا الدراسات التمهيدية والفقه كان لديهم المزيد من القدرة والمتسع من الوقت.

لم يكن للمنطق مكان كبير فى نشر الشريعة. وفى ظل تأثير العلم غير العربى استطاعت بعض المناهج شبه المنطقية اختراق تطوير الشريعة، لكن العلم "الحديث" الذى كان يعنى بالمادة غير المنطقية اضطر إلى الاعتراف بحتمية تراجع المنطق أمام أدلة الموروث التى لا تقبل الإنكار.

بذلك يكون المسلم قد أخذ يبتعد بصورة مستمرة، وعلى مر القرون، عن الفهم المباشر لكلام الله سبحانه وتعالى وكلام محمد ﷺ. وهنا نجد أن اختلاف الآراء (ولم يحدث أن نسى الناس تلك الخلافات نسيانًا تاما) أصبح يتمثل فى عدد محدد أخذ يتناقص بصورة متدرجة إلى أن وصل إلى أربعة "طقوس"، أو إن شئت فقل مذاهب، أو أربعة مدارس، كل واحدة منها تعترف وتقر بالمبررات التى تقوم عليها المدارس الأخرى. وإذا ما نحينا جانبًا المذهب الشيعى، وبعض المذاهب الأخرى قليلة الأهمية، نجد أن كل مسلم من المسلمين يتعين عليه الآن اعتناق مذهب من تلك المذاهب الأربعة، وأن يقبل تفسير هذا المذهب للشريعة وتأويله لها، وأنه إذا ما تطلع إلى دراسة الأصول والمصادر فمن حقه أن يتبين كل شىء من خلال الأعين التى توافرت له على امتداد أجيال من العلماء. وبذلك نجد أن دراسة القرآن والحديث فقدت أهميتها العملية من ناحية، لكننا نجد على الناحية الأخرى القرآن يستعمل استعمالا مفعما بالحيوية فى الأغراض الطقوسية، وبذلك يشغل القرآن حيزًا كبيرًا من اهتمام ووقت الدارسين. وذلك الذى حفظه الطالب من القرآن فى المدرسة أصبح بحاجة إلى التنقيح من ذلك الإنسان الذى يود الاستمرار فى دراسة القرآن، والذى يتعين عليه الوصول إلى مرحلة فائقة من ذلك الفن الصعب الذى يطلقون عليه اسم التجويد (والتجويد يشمل كلا من الترنيم والنطق والقراءات المختلفة للقرآن).

لم تصل المعرفة الحديثة والمعرفة القديمة إلى هذا القدر السهل من التوافق فى المجال الدينى الصرف مثلما وصلتا إليه فى مجال الشريعة. فى الإسلام نجد أن الهرطقة والكفر ساعدا على ميلاد لاهوت متعنت ومتشدد، هذه المهارة التى تجلت فى

الجدل الذى أثاره المعتزلة فى مناظراتهم ونقاشهم أجبرت أصحاب المذهب الإسلامى القويم على الوقوف فى وجه المعتزلة فى كل نقطة من النقاط، وذلك على الرغم من أن أتباع المذهب القويم تمكنوا من مواجهة هذه الاعتراضات كلها عن طريق تكرار النصوص القديمة فقط.

وإذا كانت دراسة الشريعة قد يعين عليها تقديم بعض التنازلات للمعرفة الجديدة عند المنتسبين فقط، فى مسألة الخلاف حول بعض الأحكام، فقد أدى ذلك إلى نشأة مدرسة جديدة جرى فيها وزن النصوص وإحداث تناغم بينها، والدفاع عنها ضد الهرطقة والكفر، وذلك باستخدام أسلحة الجدل الحديثة. ولم يُتوصل إلى منظومة منطقية محددة، نظراً لأن الفراغ المسموح به لكل أمر من الأمور لم يكن يعتمد، من ناحية، على أهمية هذا الأمر للمنظومة، وإنما على أهميته الذاتية أو ضعف العنف المترتب على الصراع القائم حول هذا الأمر. من ناحية ثانية تحمل المتشددون فى النهاية المنطق الرسمى، وبعضاً من المصطلحات الفلسفية الفنية باعتبار أن هذا المنطق الرسمى هو وتلك المصطلحات الفلسفية أسلحة مضادة للهرطقة، ولكنهم استاءوا استياءً كبيراً من أن كثيراً من المسلمين من خلال معرفتهم للتفلسف الهيلينى وقعوا أو ساروا فى بعض المسارات التى ظنوا أنها مخطئة. يقول اللاهوتيون: المنطق والفلسفة يجب أن يبقيا أداتين فقط شأنهما فى ذلك شأن اللغة العربية والأدب العربى.

الإسلام على هذا النحو، شأنه شأن المنظومات المتشددة كلها، لم يكن يشعر بالود تجاه العلوم الطبيعية والرياضيات. والذهن المتدين فى الرجل العادى لا يستبعد بالضرورة دراسة الفيزياء، رغم أن هذه الدراسة لا تشجع حالته الذهنية التدينية، لكن ممثلى العلم المقدس يضطرون إلى إدانة الدراسات التى تقوم على تحرى قوانين الخلق. هذا يعنى أنه لا يمكن أن تكون هناك قوانين طبيعية، وإنما هو "عادة من عادات الخالق" الذى يستطيع فى أى وقت من الأوقات أن يجعل الشمس تشرق من الغرب.

هذه العلوم أخذت ترتفع وتعلو فى الإسلام، ولولا تدمير الثقافة الإسلامية، لما كانت قد تخوفت أو انزعجت من العلماء . لكن العلوم التجريبية الصرفة لم يحدث أن انتسبت مطلقًا إلى معرفة الإسلام بأى حال من الأحوال، شأنها فى ذلك شأن انتماء علم الفلك عندنا إلى معرفة المسيحية.

كان علم الحساب مطلوبًا لتطبيق شريعة المواريث من ناحية، وفى بعض الجوانب القليلة التطبيقية الخاصة بالتقويم وتحديد مواقيت الصلوات اليومية، وكذلك تحديد القبلة فى اتجاه مكة من الناحية الأخرى، لكن هذه الموضوعات وغيرها من الموضوعات الأخرى ينبغى ألاَّ تكون من خلال مدارس مستقلة ولها بحوثها المستقلة أيضًا.

***

فى أعلى مراحل تطور الإسلام أخضعت الأعمال البشرية والأفكار البشرية لقواعد قابضة، أما الإحساس الدينى فقد أهمل تمامًا. وهنا يمكن القول إن الملاحظة بالغة الدقة للقواعد التى لا تحصى ولا تعد لم تشبع احتياجات الناس الروحية إلى الآمال والتطلعات الصوفية، يضاف إلى ذلك أن هذه الملاحظة لم تعط الناس التواصل المباشر المطلوب مع الله سبحانه وتعالى .

وهنا نجد أن القرآن والحديث الشريف كانا يحتويان على عناصر الموقف الصوفى، أو الباطنى إن صح التعبير، وأن هذه النويَّات تطورت بفضل التأثيرين المسيحى والفارسى وبفضل التأثير الهندى أيضًا، كى تدخل الأرواح المتدينة إلى مجال الاتصال الأوثق بالله سبحانه وتعالى . هؤلاء المتدينون كانوا يرون فى الشريعة والقواعد المتشددة مجرد أدوات تمهد للوصول إلى مرحلة المحبة . فى الهند، على سبيل المثال، عثر الإسلام على منظومات صوفية دقيقة ومحددة، تحتَّم عليه تمثلها واستيعابها، لأن هذه المنظومات كان من الصعب قمعها. استشعر ممثلو الإسلام الرسميون تلك التيارات الفكرية على أنها ظاهرات خطرة.

قد لا يرضى العلماء، بوصفهم متدينين ومقيمي الصلاة التي تسعى "الأخوة" فيها إلى الخلاص الحقيقي، وإلى الأسرار الروحية الحقيقية، عن المناهج التي تذهب إلى ما وراء الشريعة والعقيدة المتشددة. كيف يمكن أن تكون الحال، عندما يقوم كثير من المتصوفين من حيث المبدأ، بازدراء وسائل الخلاص المعتادة، ويستخلصون عن طريق التفسيرات الرمزية الجريئة مناهجهم الغريبة وممارساتهم المسرفة من متون النصوص المقدسة؟

ومثلما وقف الفقهاء والعلماء التقليديون في وجه الباحثين المتشددين بوصفهم مجددين، نجد أن هذين الطرفين يعارضان الحركة التصوفية أو الباطنية إن صح التعبير. على المدى الطويل، نجد أن طابع التسامح في الإسلام منع السلطات من حرمان المفكرين المستنيرين من الرحمة، ولم يمنع السواد الأعظم من عامة الناس من توقير هؤلاء العلماء واحترامهم. وبذلك يكون التصوف قد احتل مكانة في التعليم المقدس، ثم بدأ بعد ذلك يتبوأ مكان الشرف.

***

معروف أن الكتاب العظيم "إحياء علوم الدين" (لمؤلفه الغزالي المتوفى عام ١١١١ هجرية) اعترف به في زماننا بوصفه الموسوعة المثلى للنظرية المقدسة. يقول الغزالي إن الفروع الفعالة أو الأساسية تنبغي دراستها دراسة جادة، ولكن على نحو يمكن من استعمال القواعد العربية، والشاعرية العربية والبلاغة، وكذلك الحساب والمنطق والفلسفة، في فهم الأدب المقدس. والغزالي يضيف إلى ثنائه على تلاوة القرآن، بما يتفق مع ميله الصوفي، توصية التفكير في المعنى أثناء الانشغال به، إذ بهذه الطريقة وحدها، يمكن للتدريب – الذي يسبق بحقٍّ الدراسات الأخرى كلها – أن يكون مفيداً للحياة الروحية. والغزالي يضع العبء الأكبر على الفقه، أو إن شئت فقل علم القانون (الشرع). في علم القانون هذا وبخاصة الجزء الديني منه لا يستطيع الإنسان التعمق

أكثر من اللازم . هذا يعنى أن دراسة الوصفات الأخرى الخاصة بهذا العلم لها قيمة خاصة فيما يتعلق باستعمال هذا العلم فى الحياة، أو فى الممارسات التشريعية أو القضائية، وبذلك نجد الغزالى يكافح الإفراط فى الميل إلى السفسطة. ومن يشغل نفسه بتأويلات القرآن والحديث الشريف يتعين عليه فعل ذلك، أما فى حالة استعمالها باعتبارها مصادر للشريعة فإن استعمال النصوص ينبغى أن يكون من قبل علماء الدين المدربين، وأن يكون ذلك الاستعمال مقرونًا بأصول الفقه. والغالبية العظمى من المتعلمين وأهل العلم تصبح فى مأمن إذا ما اقتصروا على استيعاب النتائج التى توصلوا إليها فى مذهبهم عن طريق تحرى المصادر والبحث فيها .

وكما أن الفقه بعلومه الفرعية هو مادة حياة المؤمنين، فإن علم التوحيد، أو بالأحرى علم الأصول أو علم الكلام، هو دواء مرضى الروح. ونظرًا لانتشار الكفر والهرطقة فى كل مكان، فإن المجتمع الإسلامى كله يجب اعتباره مريضًا بشكل أو بآخر، وهذا يعنى أن كل إنسان فى الوقت الحاضر بحاجة إلى شىء من الدواء، الدواء الذى لم يكن معروفًا، لعدم الحاجة إليه فى زمن الإيمان، زمن الإسلام الأول السعيد. والحرفى، على سبيل المثال، ليس معرضا لمرض الكفر أو الهرطقة مثل رجل العلم، يكفى الحرفى أن يعرف الأصول الأساسية، عن طريق تحديد ذلك الذى يعده كفرًا أو هرطقة. أما هؤلاء الذين يتحركون داخل دوائر أكثر خطورة فيتعين عليهم التسلح بأدوات الدفاع عن الرأى، وأن مصلحة الجماعة تحتم وجود رابطة من العلماء الذين يتخذون من الجدل والفلسفة حرفة لهم، حتى يمكن أن تتوافر لديهم ترسانات قوية للدفاع عن الرأى، وحتى يتمكنوا أيضًا من استعمال هذه الترسانات فى وجه كل هجمة من الهجمات. ونجد أيضًا أن الغذاء الروحى اللازم للخلاص شحيح وغير كاف مثل الدواء، هذا الغذاء الروحى وكذلك الدواء هما القادران على إنقاذ الناس من ذلك الفساد الروحى الذى بدأ يظهر فى حياة الناس الدنيوية. والإيمان الحقيقى والمعرفة الحقيقية يمكن الوصول إليهما عن طريق التصوف، وذلك على الرغم من أن معرفة

الشريعة والانصياع لها، وكذلك الإيمان الراسخ، تعد شروطًا لا يمكن الاستغناء عنها. وأية نظرية من نظريات التصوف، التى تقول بإلغاء الشريعة فى حالات بعينها، أو التى تُعَلِّم أصولا جديدة، إنما هى من عمل الشيطان. التصوف الحقيقى يقود هؤلاء الذين أُعِدوا عن طريق دراسة الشريعة، بصورة متدرجة إلى طاعة الله الكاملة ومعرفة الله الكاملة، بل وإلى الله الموجود نفسه.

هذا الهدف يخدمه تدريب روحى طويل مكون من تدريبات دينية غير عادية، وأذكار وصوم ومراقبة، وتركيز الذهن بصورة مستمرة على جوهر الله سبحانه وتعالى. والطريق الذى ينبغى سلوكه أو اتباعه يختلف باختلاف شخصية الفرد ومواهبه، والقاعدة العامة التى تصلح للأحوال كلها لا يمكن تحديدها، وأعلى المقاصد يمكن الوصول إليها عن طريق المرشد، الذى هو شخص وصل إلى مرحلة عالية من التصوف. والغزالى عندما وضع أساس ذلك كان يدور فى ذهنه كثير من أنظمة التصوف الدعيَّة الحاقدة التى كانت شائعة فى زمن الرجل. وعلى الرغم من أن الغزالى كان غاضبًا ومستاءً من الاضطرابات التى أصابت السواد الأعظم من الإخوانيات المتصوفة، فإن الرجل لم يخاطر بالتنويه إلى اكتمال التدريب الفردى، ومن هنا يمكن حسبان الغزالى مسئولا إلى حد ما عن الإهانات التى لحقت بالإخوانيات الصوفية فى الوقت الراهن. والغزالى يحذر المرشدين إلى الله سبحانه وتعالى من المرشدين مهتزى العقيدة. هذا يعنى أن الكتاب العظيم الذى وضعه الغزالى حدد معيارًا للتصوف، ووضع هذا المعيار أمام ممثلى المعرفة دون الدخول فى منظومة من منظومات التصوف.

***

كان بوسعنا أن نأتى على ذكر منظومات أخرى كثيرة، على الرغم من عدم اتصالها بالإسلام، قام المسلمون بزرعها فى مكة بصفة خاصة، كما كان بوسعنا أيضًا

أن نأتى على ذكر بعض الدراسات التى منها أفرع الاستقصاء التاريخى بشتى أنواعها، والتى أدخل الإسلام إليها بعض المناهج الغريبة تمامًا. ومع ذلك، رأينا أن نقتصر على ما أوردناه سابقًا، نظراً لأن التحلل الكامل للثقافة الإسلامية أدى بدوره إلى تحلل العلوم الدنيوية تحللاً كاملاً، فى حين نجد أن الناس فى مجال المعرفة المقدسة لم يعرفوا طوال القرون الماضية هدفا أسمى من المحافظة على النتائج الحاسمة التى أسفر عنها النشاط الماضى، والتى وصل فيها برنامج الغزالى إلى مرحلة المثل الأعلى.

***

قبل الدخول إلى صالة المحاضرات الضخمة فى مكة، أو بالأحرى المسجد العظيم، أو إن شئت فقل المسجد الحرام، لكى نستمع إلى أساتذة علم التوحيد، أو إن شئت فقل علم الأصول أو علم الكلام، اسمحوا لنا أن نضرب بعض الأمثلة على البحوث التى تجرى خارج هذه الدائرة. الطب كما سبق أن أوضحنا، هو مجرد حرفة وليس دراسة، اللهم إلا باستثناء أن بعض الأفراد الهواة يمكن أن يتسودوا نوعًا من أنواع الطب العربى، وأن يستعملوا بعض المقطوعات من هذا الطب العربى حسب الحاجة. والريِّس (كبير مؤذنى المسجد الحرام وفلكى المسجد نفسه أيضًا) وبعض من محبى المعرفة، هم الذين يعرفون أسرار التقويم من ناحية وتفسير بعض الظواهر السماوية من الناحية الأخرى.

والكيمياء هى موضوع الدراسة الباطلة لدى بعض المكيين فى بعض الأحيان. لقد عرفت أن بعض الأشراف يأتون فى بعض الأحيان ببعض النتائج المُصَفَّرَة الناتجة عن محاولاتهم الكيميائية إلى الطبيب سالف الذكر، لكى يثبت لهم عن طريق الاختبار أن كل ما يلمع لا يتحتم أن يكون ذهبًا. وقد عرفت واحداً من أهل الأدب أنفق كل ما لديه على الكيمياء، وبعد أن خسر بضاعته الدنيوية ومعها اهتمامه بالدنيا نفسها، بدأ ينقطع

تماماً للمعرفة الدينية. يزاد على ذلك أن شيخ السادات كان هو الآخر من الباحثين عن الذهب. ولا غرو أن يتواصل ذلك العلم الذى كان يعمل عمله فى الظلام، أليس الربح هو الهدف الرئيسى لكل الأنشطة الروحية والمادية عند هؤلاء المسلمين؟ مسألة الربح هذه تحظى بردٍ مرضٍ من الكيمياء مادام هذا العلم ليس من العلوم الإيمانية. زد على ذلك أن المتدينين من الناس، والذين لا يستطيعون الحصول على الذهب عن طريق السحر المحرم، يعرفون أن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يخرج عما هو معتاد ويحول عنصراً إلى عنصر آخر، مثلما حول عصا موسى إلى حية، وهذا وارد فى القرآن، قال تعالى ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩-٢٠]. لكن المكى ينكر استعمال منتجات العلم الحديث مثل البخار والتلغراف، والتى يقول إنها فى حقيقة الأمر ليست اكتشافات جديدة، وإنها نجم عنها المزيد من الشر الأكثر من الخير، كما ينكر الطب الحديث أيضاً، الذى لم يفلح فى شىء ضد الموت.

الجغرافيا لها أهميتها من نواحٍ كثيرة، المكيون يتساءلون دوماً عن البلدان التى يأتى منها الحجاج وعن التجارة . على الجانب الآخر نجد المكى لا يهتم كثيراً بالموقف فى كل من باريس أو لندن. سمعت ذات مرة عن واحد من أصحاب العلم، وأن ذلك الرجل سبق له أن قرأ عن إسبانيا (الأندلس) فى كتب التاريخ، وأن هذا الرجل بدأ يهتم بأرض الموسكوف (روسيا) بسبب الحرب (الروسية التركية)(*) التى جرت مؤخراً. وسمعت أيضاً أن هذا الرجل نفسه كان يتساءل عن وجود مواصلات بين هذين البلدين، كم من الوقت تستغرق الرحلة البرية بين هذين البلدين . وتساءل أيضاً عن

(*) وقعت هذه الحرب عام ١٨٧٧ بسبب تأليب روسيا للشعوب السلافية فى شبه جزيرة البلقان ضد الدولة العثمانية، التى أقدمت من جانبها على قمع تلك الثورات فيما عرف بمذابح البلغار، وانتهت هذه الحرب بمعاهدة سان ستيفانو التى عدلت بمعاهدة برلين عام ١٨٧٨ . (المراجع)

المدة التي يمكن أن تستغرقها قافلة من الإبل المحمَّلة في قطع المسافة بين هذين البلدين. هذه الأمور لا يمكن أن يعرفها سوى رجل كثير الأسفار والترحال مثل هذا الرجل الرحَّال كثير الأسفار . منذ قديم الأزل، أفادت أسفاره "بوصفها تحذيرات لأولئك الذين يتعين تحذيرهم ونصحهم".

المؤرخون شجعوا أيضًا من منطلق دوافع أخرى أيضًا. هذا يعني أن المؤرخين بدأوا يتعاملون مع تاريخ وطنهم من منطلق جلب المتعة لإخوانهم المواطنين، كما راح المؤرخون أيضًا يتناولون تاريخ الأسر المالكة طلبًا للفائدة والمكافأة من الأمراء الذين في سدة الحكم. في مكة على سبيل المثال، وبدءًا من القرن الثالث بعد الهجرة، نجد أن الكعبة والأماكن المحيطة بها كانت بمثابة بؤرة الاهتمام الأولى عند المؤرخين من أهل المدينة نفسها، ونجد أيضًا أن بيت الأشراف الحاكم، وبدءًا من القرن السادس الهجري، أصبح بؤرة الاهتمام الثانية عند المؤرخين. وإلى يومنا هذا نجد أن هناك كثيرًا من البشر الذين أنفقوا وقت فراغهم في الأحداث المهمة التي دارت في المدينة المقدسة. وهنا يمكن لنا القول بشكل عام إن إجماع مؤرخي كل جانب من هذه الجوانب أثر تأثيرًا كبيرًا على هؤلاء المؤرخين. كما أثر على المحامين ورجال القانون أيضًا. وقد حتم ذلك على دراسة كل العصور والعهود أن تنظر إلى أحداث التاريخ، أو بالأحرى أحداث الماضي، بعيون العصر نفسه. هذا يعني أن حوارات الماضي التي ألفت بطريقة توحُّدية تقوم على التسامح، كان يتعين عدم تسجيلها أو تدوينها. من هنا نجد أن معاوية، وعليًّا ﷺ وكذلك عبد الله بن الزبير في مكة، كانوا يحملون لقب "سيدنا"، أو بالأحرى "مولانا"، وأنهم إلى حد ما كانوا يوقَّرون ويقدرون بوصفهم آباء للعقيدة. ونجد عند أحمد زيني الدحلان مفتي المذهب الشافعي في مكة (نحو ١٨٨٦)، في كتابه الذي كتبه عن سيرة النبي ﷺ ، يتكلم عن أسلاف محمد ﷺ الوثنيين، بوصفهم مسلمين مؤمنين ومعتنقين لدين إبراهيم وممارسين له. يجدر بنا هنا القول إن مؤرخي

مكة - سواء كان هناك طلب معاصر على كتاباتهم أو لم يكن - لم يقصِّرُوا فى تدوين أهم الأحداث التى وقعت فى مدينة مكة. ومع أن قلة قليلة من المتعلمين هم الذين اهتموا بهذه الأحداث فإن الإعلان عن هذه التسجيلات والتدوينات، التى تنتقد شئون الدولة من ناحية وكبار الشخصيات من الناحية الأخرى، ينطوى على كثير من المصاعب والأخطار. وأنا عندما كنت فى مكة وجدت أن التاريخ الذى كتبه الدحلان، المفتى الشافعى فى مكة، عن الأشراف كان مقصوراً على شكل ستة نسخ فقط من الكتاب، يضاف إلى ذلك أن كتاب ابن الأثير الشهير عن تاريخ العالم يمكن العثور عليه فى مكتبات بعض المتعلمين، زد على ذلك أن معجم السِّيَر لابن خلِّكان القديم وبعض مؤلفات السير الأخرى، والتى يتناول كل واحد منها حيوات المشهورين من الرجال فى عصر بعينه، وصولا إلى العصر الذى نعيش فيه، كل هذه الكتب تُقرأ على نطاق واسع، ويستخدمها الناس فى استعراض سعة العلم فى مناسبات بعينها.

يكثر الطلب على المؤلفات التاريخية وعلى كتب السيرة التى لها علاقة بالشريعة المقدسة، وبخاصة الكتب المتعلقة بحيوات محمد ﷺ وصحابته، ومؤسسى الطرق الصوفية والمذاهب المعترف بها، وكتب الصالحين والقديسين بشكل عام. والكتب التى من هذا القبيل تُقرأ فى التجمعات الإخوانية، لكن يجرى البحث عن الحض على الفضيلة فى هذه الكتب. وأبرز مثل على ذلك سيرة النبى ﷺ التى ألفها أحمد الدحلان، والذى يقول فى مقدمتها إن هناك عدداً كبيراً جدا من هذا النوع من الكتب، لكن هذه الكتب احتوت على معطيات تنتقد المصادر، وعلى تقديرات مقارنة للنسخ المختلفة أكثر مما يحتاج إليه الدارسون والباحثون فى أيامنا هذه، ومن هنا نجد أن هذه الكتب والمؤلفات لم تضف سوى الحقائق فقط على معرفته، وبخاصة تلك النقاط التى يمكن أن تستحوذ على اهتمام الناس فى زماننا، يضاف إلى ذلك أن الاستقبال

الحافل الذى لقيه ذلك الكتاب الأسطورى يوضح مدى فهم ذلك المفتى العليم لروح عصره. هذه النغمة نفسها نجدها أيضًا فى الكتاب المعنون "تاريخ الفتوحات الإسلامية"[1] الذى طبع أثناء مقامى فى مكة، فى مطبعة الحكومة، التى افتتحت مؤخرًا فى مكة.

قبل افتتاح تلك المطبعة الحكومية، كان يجرى إمداد جمهور القراء فى مكة بالكتب عن طريق القاهرة . فى القاهرة أيضًا كانت تجرى طباعة مؤلفات المؤلفين المكيين، وكان القسم الأكبر من تلك المؤلفات دينى الطابع. من هذه الكتب على سبيل المثال كتاب للشيخ حقى المكى المعنون "الخطابات الستة"، والذى طبع فى القاهرة فى العام ١٨٨٢، وهذا الكتاب يتناول موضوعات شتى، لكنه تغلب عليه نغمة التحذير من الإغارات السائدة التى تتمثل فى الثقافة الكافرة والأعمال والعادات الحديثة غير الشرعية. خاتمة الكتاب تكشف وتوضح صلب هذا الكتاب "من بين الأشياء التى تقود إلى جهنم ذلك الشىء الذى وضعته الشياطين فى أزماننا هذه فى رءوس المسيحيين وأولئك الذين تخلوا عن ربهم بأن راحوا يضعون على البضائع التى يستعملونها كثيرًا من صور المخلوقات الحية، إلى حد أنه لم يعد هناك بيت واحد أو دكان أو سوق أو حمام أو قلعة أو حتى سفينة، يخلو من تلك الصور" (ربما كانت الإشارة هنا إلى الصور غير المهذبة التى على علب الثقاب النمساوية)، "هذا فى الوقت الذى لم يتركوا فيه مكانًا لملائكة الرحمة دون أن يعلقوا فيه صورًا، لكى يحلوا بهذا المكان وينزلوا عليه، ولا يستثنى من ذلك المساجد وقلة قليلة من الأماكن الأخرى المخصصة لعبادة الله. حتى فى مساجدنا نحن نجد أن الصور تخطر ببال غالبية الناس عندما يدخلون فى

(١) يحتوى هذا الكتاب على تاريخ شامل من وجهة النظر الإسلامية، وذلك بدءًا من عصر محمد ﷺ إلى العام ١٨٨٥ .

الصلاة وهم يحملون معهم علب السجائر وعلب التبغ التى تحمل رسومًا مختلفة، من هنا فأنا أحذركم أيها الإخوة".[٢] هذا الكتاب نفسه يحتوى على طريقة محددة لقراءة السورة السادسة والخمسين من القرآن(*)، وأن قراءة هذه السورة بهذه الطريقة تعد واقيًا من الفقر، ويقال أيضًا إن المرأة متواضعة الحال إذا ما لفت هذه السورة وعلقتها فى عنقها فإنها تحقق لحاملتها عملية الإجهاض المطلوب.

وتشيع هنا أيضًا مختارات قصيرة من النكات والطرف، ومقتطفات من "ألف ليلة وليلة" ومن "سيرة عنترة" وهذه المقتطفات تُقرأ فى ليالى المقاهى نظير أجر زهيد. وأهل الثقافة يكرهون ويحتقرون الترفيه الذى من هذا القبيل، وأبناء مصر المتميزون يندهشون تمامًا من تذوق الأوروبيين الذين يجدون متعة فى ألف ليلة وليلة. والرجل المثقف يسمح لزوجته فى أغلب الأحيان أن تقص عليه حكايات الزوجات العجوزات عندما يحس ذلك الزوج بالأرق وعدم القدرة على النوم. والنساء هن خير من ينقلن تلك القصص القديمة، التى يتغير شكلها على ألسنتهن ولكن جوهرها يظل ثابتًا.

***

(٢) مسألة الأحاديث المحرّمة لصور الكائنات الحية واسعة الانتشار، صناع مثل هذه الصور سوف يعاقبون عليها عقابًا شديدًا يوم القيامة، كما أن ملائكة الرحمة لا يدخلون البيت الذى تعلق فيه الصور. رأيت واحدًا من الأشراف المتيمين بالأسفار وهو يرد على توبيخ أخيه المتدين له، فى وجودى، على الصور وأحرف الطباعة التى جلبها معه من جزر الهند الشرقية، وكان أخوه اللائم هذا لم يغادر مكة مطلقًا، جاء الرد بما يفيد أنه هو نفسه لم يصنع هذه الصور، وأن الملائكة بوسعهم أن يفعلوا ما يريدون عند عتبة المنزل. وكان هذا الشريف، مثل الأشراف الآخرين، قد جمع مالاً كثيرًا من أمراء جزر الهند الشرقية المتدينين. وبغير هذا الرد كان يمكن لأقارب هذا الشريف أن يطردوه من المنزل بسبب ذلك الكلام الطائش.

(*) سورة الواقعة . (المراجع)

هناك بعض المولعين بجمع مجموعات من الكتب القيمة النادرة. تعرفت على واحد من هؤلاء المولعين بجمع الكتب النادرة الذى تكرم علىّ نظير معروف فعلته له، فأرانى جزءًا من كنزه المكون من بعض الترجمات المطبوعة فى مصر لكتيبات أوروبية، تعد أشياء فريدة بسبب محتوياتها الغريبة، كما أرانى الرجل أيضًا مخطوطًا قديمًا فيه تفسيرات قيمة للقرآن (الكريم)، (وعنوان هذا المخطوط هو كتاب "الفوائد والعوائد والزوائد")، هذا الكتاب عبارة عن عمل أدبى رائع يمكن قراءته بدلالات مختلفة من اليسار إلى اليمين، ومن اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل. لم تتح لى الفرصة كى أقف على القيمة الحقيقية لما لدى هذا الرجل من أشياء.

على صفحات الأغلفة فى كتب هذا الرجل كانت هناك بعض القصائد التى تمتدح محتويات تلك الكتب وتثنى عليها، وتقول هذه القصائد إن كل كتاب من هذه الكتب يساوى وزنه ذهبًا، وإن مالك هذا الكتاب إذا أقرضه لغيره من الناس كان أحمق. هذا الرجل الذى كان شديد الثراء، وكان يتفاخر بأنه بزّ صديقًا له كان ينافسه فى جمع الكتب. هذا الصديق المنافس وافق بعد سنوات من الرجاء والتفاهم على إعارته مخطوطًا نادرًا مدة ليلة واحدة، ولما كان يستحيل عليه نسخه فى تلك الفترة القصيرة فإن الرجل جزأ المخطوط إلى أجزاء عدة، وأعطى كل جزء منه لناسخ من النساخ، وبذلك أمكنه الحصول فى اليوم التالى على نسخة كاملة من المخطوط، ويقوم بعد ذلك بإعادة المخطوط إلى صاحبه مجلدًا تجليدًا فاخرًا بالشكل الذى كان عليه من قبل، ولو لم يكن ذلك الرجل صديقًا لهرب المستعير بالكنز إلى أن ينتهى من نسخه ثم يعيده إلى صاحبه من جديد. كان ذلك الرجل الثرى يبحث فى ذلك الوقت عن نسخة من تعليق الغزالى الذى يقع فى أربعين جزءًا، والمعنون "ضياء"، والذى لم يبق منه سوى قلة قليلة من النسخ التى عثر عليها فى المغرب.

مختارات الشعر العربى والتعليق عليها، وكذلك الكتب الخاصة بالأدب التى من قبيل "العقد"(*) وكذلك مقامات الحريرى التى تُحفظ فى أغلب الأحيان كليا أو جزئيا عن ظهر قلب، ينكبُّ المتعلمون على دراستها. هذه الدراسات يعلق الناس عليها أهمية كبيرة من منطلق أنها مفيدة بصورة غير مباشرة للشريعة، يضاف إلى ذلك أن هذه الدراسات تعد إشارة إلى ثقافة راقية يتمتع بها أولئك الشبان الذين يتلون هذه المقامات أو يلقون تلك القصائد فى الرحلات الخلوية . هذه الدراسات لا ترتبط بسن محددة، وهى تعتمد على سعة علم رب العائلة. الشىء نفسه يمكن قوله عن فن الخط، أو إن شئت فقل فن الكتابة الجميلة. ومعروف أن دروس الكتابة التى يلقيها راعى مدرسة القرآن تكفى للوفاء بالأغراض العادية، ولكن أولئك الذين يودون لأولادهم تعليمًا أكثر من ذلك يعهدون بهم ساعات عدة كل يوم إلى خطاط ماهر، وبوسع أى صبى تعلم الخط بعد أن ينهى مرحلة تعليم الأطفال، فى حين يقوم صبى آخر بتأجيل تعلم الخط إلى سنوات عدة فيما بعد. وبعد أن يحصل الدارس على ما يكفيه من الدراسة، يقوم بكتابة لوحة اختبار جميلة، مستعملا فى ذلك نوعًا معينًا من الخطوط. هذه اللوحة تُوضع بعد ذلك فى إطار جميل ومزين، وقد جرى العرف أن تتكون مثل هذه اللوحة الجميلة من بعض الأحاديث النبوية أو الأقوال أو الحكم الدينية. وعلى حواف الإطار يقرأ الناس فى معظم الأحيان لفظ الجلالة، واسم رسوله ﷺ ، والخلفاء الأربعة.

بعد أن ينهى المسلم دراسته فى مدرسة القرآن (الكريم)، يجد صعوبة أقل من الصعوبة التى يلاقيها فى علم الخط، فى تعلم تلاوة القرآن بصوت عال (الناس هنا يطلقون على هذا النوع من التلاوة اسم "القراية")، يزاد على ذلك أن العرب يجدون صعوبة فى اكتساب النطق التقليدى السليم للأصوات الساكنة، عندما يتمرنون على

(*) العقد الفريد لابن عبد ربه. (المراجع)

قراءة العبارات والأوراد، يضاف إلى ذلك أن العرب لا يتسودون الأصوات الأنفية وبعض الوقفات الأخرى المحددة فى تلاوة القرآن. والعالم الأوروبى، المؤهل تأهيلاً بدنيا سليمًا يستطيع خلال أسبوع واحد، إذا ما كانت الظروف مواتية، تعلم تلاوة السورة الأولى من القرآن، المكونة من سبع آيات قرآنية فقط .

وأنا لا يمكن أن أنسى مطلقًا أول ليلة من ليالى الجمعة التى حضرت فيها التلاوة الأسبوعية التى يتلوها كبار القراء فى منزل مفتى المذهب الشافعى. كنت قد استمعت مرات عدة لذلك الفن من التلاوة، وبدرجات مهارية مختلفة، الأمر الذى جعل مسألة "القراية" أمرًا مألوفًا لدىَّ تمامًا . هذه التلاوات تسمح بنغمات مختلفة، والقارئ العادى يقتصر على قراءة واحدة من تلك القراءات التى استقر عليها منذ طفولته. ومع ذلك فإن هؤلاء المتخصصين الذين من قبيل أولئك الذين استمعت إليهم ليلة الجمعة، يجمعون بين أصعب القراءات وأكثر النغمات دقة، ومع ذلك نجد أن النغمة الكلية لهؤلاء المختصين تتباين طبقًا لمحتويات النص. فى الأجزاء القصصية تكون النغمة أهدأ ما تكون، لكن فى نداء الله سبحانه وتعالى على الكفار، يحدث نوع من الهدير والبكاء الذى ينتقل إلى المستمعين، وهناك أيضًا استهزاء مريع يصطبغ بصبغة الجحيم فى الجزء الذى ينتهى بآية ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران الآية ٢٤]. مسألة الحكم على هذه القراءات تتطلب خبرة ومرانا طويلاً، والمراقب غير الخبير يحيره تمايل جسم القارئ، وتحيره أيضًا النغمات العالية جدا، والقارئ يتعين عليه فى بعض الأحيان غلق أذنيه حتى لا يسمع صراخه فى الوقت الذى تتورم فيه عروقه إلى ما يشبه الانفجار، والقارئ قد يغلق أذنيه فى بعض الأحيان حتى لا يسمع ذلك التوقف غير الجمالى الذى ينجم عن نوبة من السعال المخيف. وكما أن الأوروبى يتعين عليه العثور على ملابس العرب وعلى ألوانهم حتى لا يشعر إزاءهم بالغرابة، إذا ما أراد الحصول على انطباع عن شخصية هؤلاء الشرقيين، فإنه يتعين عليه أيضًا نسيان غرائب ذلك الشكل الموسيقى غير المعروف له، قبل أن يبدأ الاستماع إلى هذه الموسيقى بصورة متدرجة. وأنا مقتنع أن الأوروبى الذى يقدر له حضور تلاوة مثل تلك التلاوات التى أتيت على ذكرها من قبل، سوف يعود إلى وطنه بانطباع من الضجيج المتعصب المريع. القراء لا يعرفون

التعصب أو التشدد، ويتعين النظر إليهم بوصفهم فنانين مثل أولئك المغنين الذين يقفون فى دور الأوبرا فى بلادنا ، والذين يستثيرون فينا عواطف وانفعالات هم أنفسهم لا يحسونها.

هؤلاء الفنانون مغرورون وغيورون ومتباينون، شأنهم فى ذلك شأن الفنانين الأوروبيين. هؤلاء القراء إذا لم يكونوا راضين عن أجورهم، أو عندما يسىء أحد إلى كبريائهم، فإن قراءاتهم تتسم بالتراخى والإهمال، ويتمثل سرورهم البالغ فى إعلانهم على الملأ أن زميلا من كبار زملائهم يخطئ فى عملية القراءة. والجمهور هنا لا يعزى تأثير القراءة الإعجازى على القلوب البشرية إلى مهارة القراءة، وإنما إلى "كلام الله"، الذى هو القرآن (الكريم) أعظم معجزات الإسلام، والذى يؤمن الجميع هنا، بل إن البدو الذين يستمعون إلى القرآن للمرة الأولى يظنونه، بل يقرون بأنه صوت من السماء . هذا القرآن عندما يتلوه قراء ماهرون، يحرِّك القلوب المتحجرة ويجعلها تبكى وتتنهد وتقول عند كل وقفة من الوقفات "يا ربى" و"الله أكبر"، وما إلى ذلك من هذه العبارات. التأوهات التى من هذا القبيل تصاحب القراءات كلها على اختلاف أنواعها، بما فى ذلك القراءات والتلاوات الدنيوية، وهذه التأوهات تعد من اللوازم التى لا غنى للقراءة عنها، وهى شبيهة بالتصفيق بالأيدى عندنا.

بعض الناس لديهم من المواهب البدنية والذاكرة الكُفُؤة ما يجعل الناس يقدرونهم تقديراً كبيراً بوصفهم قراء للقرآن، هذا يعنى أن مثل هؤلاء الناس يستطيعون أن يدندنوا بجزء أو أجزاء من القرآن الكريم، علماً بأنهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة[٣].

(٣) أن الآن أوان تخلينا عن الترجمات الخاطئة للقرآن على أنه "القراءة"، وأن نتخلى عن دلالة الفعل "قرأ" بمعنى to read ، فقد كان محمد والقسم الأكبر من الصحابة أميين. ومع ذلك فإنهم جميعاً حفظوا القرآن. وفى القرآن نفسه نجد أن العبارة المقدسة نفسها فى بعض الأحيان تسمى القرآن، وأنها مأخوذة من التغنى والتلاوة . قرآن النصوص المقدسة التى تشكل الجزء الرئيسى من العقيدة.

مسألة التلاوة هذه أمر ضروري لطلبة الدراسات الإسلامية والدينية، كما أن حفظ القرآن عن ظهر قلب يعد هدفًا من أهداف هؤلاء الطلاب والدارسين.

تعلم التلاوة "التجويد" يجرى على انفراد فى منازل المدرسين، أو إن شئت فقل: الفقهاء، ويقوم الطلاب بالتدرب عليها من تلقاء أنفسهم فى الفترات الصباحية بصفة خاصة، فى الأماكن الخالية داخل المسجد الحرام. فى المسجد الحرام أيضًا يقوم هؤلاء الطلاب بالتدريب فى بعض الأحيان تحت إشراف مدرس من المدرسين. لكن حتى مع مثل هذه الأحوال فإن مسألة التدريب هذه لا تدخل ضمن النطاق الرسمى للمقررات الدراسية التى تدرس فى المسجد الحرام تحت إشراف شيخ العلماء، على الرغم من قيام أحد المشايخ الرسميين بإلقاء محاضرة عن نظرية التجويد . هذا يعنى أن يقرأ مثل هذا الشيخ نصا معتمدًا عن مخارج الأصوات فى الفم البشرى، وعن التجويد وعن المد وعن إخراج الصوت من الأنف فى القرآن، فضلاً عن تعليق الشيخ نفسه على مثل هذا النص. وقد جرت العادة أن تلقى الدروس التى من هذا القبيل فى المنازل الخاصة.

***

كانت أدوات الطالب المسلم تتمثل منذ زمن بعيد فى القلم والحبر والقرطاس، يضاف إلى ذلك أن المكتبة العامة كانت ميزة، لكنها لم تكن ضرورة، والذى يقوله الأستاذ أو المدرس يكون من تأليفه هو، أو من كتاب معروف يضيف إليه هو شروحاته التى تتسم بالكفاية فى معظم الأحيان، وفى بعض الأحيان يجرى شراء الكتاب أو استعارته. والرجل الذى ينتهج حياة البحث والدراسة قد يجد نفسه مضطرا إلى إعالة نفسه عن طريق ممارسة شكل من أشكال التجارة العامة أو نشاط من الأنشطة. لم يكن ذلك أمرًا صعبًا، لأن احتياجات مثل هذا الرجل لا تتطلب نفقات كبيرة، يضاف إلى ذلك أن مثل هذا الرجل ينحو ذلك المنحى بفضل الميراث، أو عن

طريق الهدايا والعطايا التى تصله من أقاربه الذين لهم مستقبل علمى مربح، أو التى تصله من الأصدقاء الذين يحسون أن من واجبهم بل يشرفهم تكريم التعليم الدينى ودعمه، يضاف إلى ذلك أن كثيراً من هؤلاء الدارسين والباحثين يكشفون عن مهارات محددة عندما يربطون دراساتهم بممارسة حرفة من الحرف أو عملٍ من أعمال المال والأعمال.

والإسلام يعلى دومًا من شأن أولئك الذين يداومون على إحياء التعليم، وبخاصة دراسة الشريعة، نظرًا لأن الشريعة من وجهة النظر الدينية هى مادة الحياة والمجتمع، ومن يكرِّس نفسه لهذه الدراسة يعفى من المشاركة فى الجهاد، كما أنه إذا مات فى أثناء تأدية عمله يكون شبيهًا بالشهداء. الرجل الذى يكون من هذا القبيل يفترض أن يكون فوق شبهات الترزق من هذا العمل الجليل، من هنا يقال إن خادم العلم فى الإسلام يكون واثقًا من مكافأة سماوية سخية، ومن مكانة عالية فى الدنيا.

لا يخلو عصر من العصور من رجال العلم المخلصين، وخلال فترة القرون الأربعة أو الخمسة الأولى طوَّر التعليم الدينى نفسه إلى أن وصل إلى أعلى قمم الجدل والحوار. لم يكن الجدل والحوار كله الذى دار بين مختلف المدارس والمذاهب منصبا على مغزى الحياة الواقعية، وبالتالى يصبح من الخطأ تماما التسليم بأن ما يسمى بالشريعة الإسلامية هيمنت على الثقافة أو بقيت على اتصال وثيق باحتياجات المجتمع. وبعد انفصال المدرسة (الدين) عن الدولة تطور جزء كبير من الشريعة وأصبح له قيمة أو مغزى ظاهر فقط. ومع ذلك، شارك جمهور كبير فى كل مكان فى ذلك الحوار الدينى (اللاهوتى)؛ الأمر الذى أدى إلى التأثير على كبار الفقهاء وتقويتهم. وهنا بدأ المتعلمون يتطلعون إلى تولى مناصب كبيرة فى إدارة الشريعة، ومع ذلك بقى الممثلون الحقيقيون لهذه الطبقة بعيداً، أو إن شئت فقل عازفين عن خدمة الدولة تخوفًا من أن يولوا رغبات الحكومة اهتماماً أكبر من اهتمامهم بشريعة الله سبحانه وتعالى. واقع الأمر أن هذه

المناصب اعتباراً من القرن الرابع، وإن ظل الوصول إليها فى بعض الأحيان من قبل المتعلمين ، قد أصبحت تعطى لمن يدفعون أكثر فى كثير من الأحيان، بغض النظر عن جهلهم. وهنا نجد أن المناصب التى ترضى طموحات العاملين فى مجالات العلوم البحتة بدأت فى فقدان أهميتها عندما توقفت الحوارات الحية، وعندما أصبح عمل المتعلمين مقصوراً على المحافظة على المعرفة المكتسبة من ناحية وتداولها من ناحية أخرى.

وهنا أصبحت روح التسامح فى الإسلام لا تقدر بثمن، لأن هذه الروح هى التى أدت إلى الوفاق حول نقاط الاختلاف. وليس من قبيل المصادفة أن يصادف توحد المذاهب الأربعة واتفاقها على عقيدة واحدة النقطة التى بدأ عندها التحلل السياسى للإسلام، مما أدى إلى وقف التساؤلات والاستفسارات كلها.

من هنا نجد أن عدداً كبيراً من الدول الصغيرة سيئة الحكم، هى وقلة قليلة من الإمبراطوريات المستبدة، لن تفسح المجال أمام الصراعات الفكرية التى كانت تدور بين المذاهب المختلفة. كان لكل حركة من هذه الحركات مغزى سياسى، ومن ثم تعين إخماد هذه الحركات فى مهدها، ووجد الفقهاء أنفسهم مضطرين إلى العمل بطريقة محافظة، يضاف إلى ذلك أن الاضطراب العام هو الذى جعل سلوكهم هذا يروق لهم كثيراً. وقد حظى نشاط الفقهاء الدينيين بمكافآت سخية من وجهة النظر الدينية فقط. هذا يعنى أن القضاة والمفتين كان يستحيل عليهم إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله. والمتعلم الذى لا يختار "التسامى" بضميره يندر أن يصل إلى منصب من المناصب العالية، ويتعين عليه أن يرضى بمجال هادئ ومتواضع من النشاط. قلة قليلة من أصحاب الأرواح النبيلة هم الذين تخلوا عن الدنيا وعظمتها؛ الأمر الذى كان يمكن أن يؤدى إلى قتل روح البحث، ما لم يجرِ الحفاظ على تلك الروح وإذكاء جذوتها.

***

لم يكن أيضًا من قبيل المصادفة البحتة أن يكون لأسباب التحلل سابقة الذكر، تأثيرها على المعرفة عند تأسيس المدارس الأولى فى الإسلام. ونحن نقرأ فى كتاب قطب الدين المعنون "تاريخ مكة" أن أول مدرسة فى العالم وهى مدرسة نظام الملك(*)، تأسست فى بغداد فى العام ٤٥٧ الهجرى (الموافق للعام ١٠٦٥ الميلادى). وعندما سمع علماء "ترانس أو كزانيا"(**) بخبر تأسيس هذه المدرسة أعلنوا ذلك اليوم يوم حداد وأحزان على المعرفة، وأعربوا عن حزنهم على التحلل الذى ألم بكل من الشرف والعلم، وعندما سئلوا عن السبب قالوا "المعرفة ملكة نبيلة وممتازة لا يخطب ودها سوى الأبناء النبلاء الممتازين طلبًا لنبالتها الوطنية من ناحية، وبسبب الصلة الروحية الطبيعية التى بين المعرفة وبين هؤلاء النبلاء من ناحية أخرى. أما الآن فقد جرى تحديد مكافأة، وراح العامة يبحثون عن المعرفة واستغلالها فى تحقيق المكاسب والمغانم. من هنا سوف تنحط المعرفة بفعل سوقية هؤلاء الناس دون أن يرتفعوا إلى مستوى نبلها. ولنأخذ الطب على سبيل المثال، الطب ذلك الفن النبيل الذى أصابته عدوى سوقية اليهود، فى الوقت الذى لم يكتسبوا هم فيه نبل المعرفة بأى حال من الأحوال".

يردف قطب الدين أن مخاوف هؤلاء العلماء كان لها ما يبررها، واقع الأمر أن أسباب التحلل لم تكن من بين أسباب هذه المخاوف، ومع ذلك كانت تلك المؤسسات إشارات وعلامات على تلك المخاوف.

وعلى الرغم من أن كل مدرسة جيدة من تلك المدارس كانت تحتوى على قاعات عدة للمحاضرات ومكتبة، فإن الهدف الرئيسى من تلك المؤسسات لم يكن زيادة وسائل

(*) الوزير نظام الملك من أشهر وزراء السلاجقة، وهو مؤسس المدرسة النظامية التى قيل إنها أول ما بنى من المدارس فى الإسلام، وله كتاب "سياست نامه" فى فن إدارة أمور الدولة. وهاجم فى كتابه هذا الشيعة بوجه عام والإسماعيلية بوجه خاص، وبسبب هذا الهجوم اغتاله الإسماعيليون وهو فى رحلة من أصفهان إلى بغداد. (المراجع)

(**) ترانس أوكزانيا Trans oxania إقليم يقع فيما وراء نهر أوكسُس oxus فى وسط آسيا. (المراجع)

التعليم أو تكثيفها، وإنما تشجيع البشر على طلب العلم، وذلك عن طريق توفير المسكن والإعاشة لهؤلاء البشر. وبذلك أصبحت دراسة الشريعة والقانون مطلباً جماعيا، كلف الله سبحانه وتعالى به المجتمع، وأوجب على الحكام توسيع رقعة هذه الدراسات بالوسائل غير العادية إذا ما فشلت العروض الاختيارية أو التطوعية، كما فرض على الأثرياء المتدينين أن يعطوا الناس من ثرواتهم. الثرى الذى يكون من هذا القبيل يقوم بتزويد المنازل التى من هذا القبيل بعدد كبير من الغرف الصغيرة لإقامة الطلاب والمدرسين، كما يزودها أيضًا ببعض قاعات المحاضرات؛ كما كان يقوم أيضًا بمساعدة بعض أصدقائه المتعلمين، بتحديد عدد المدرسين وعدد الطلاب، كما يحدد أيضًا المواد لتى ستدرس، ويحدد أيضًا ساعات الدرس، ويحدد الشروط التى ينبغى أن يرضخ لها الأئمة، كما يحدد أيضًا ذلك الذى يمكن أن يتولى إدارة الوقف، الذى إن أُحسنت إدارته أصبح كافيًا للوفاء باحتياجات المدرسة وصيانتها ودفع أجور المدرسين وإعانات الطلاب.

مسألة قاعات المحاضرات ليست ماسة في مكة مثلما هى فى الأماكن الأخرى، والسبب فى ذلك أن ساحات المسجد الحرام تقوم مقام هذه القاعات فى أيام اعتدال درجة الحرارة، كما أن منطقة الأروقة يمكن استعمالها أيضًا عندما تشتد درجة الحرارة أثناء النهار، يضاف إلى ذلك أن المحاضرات يندر أن تتوقف بسبب الأمطار. ويبدو أن بركة المسجد الحرام تكمن فى أنه أقدس بيت على وجه الأرض. يزاد على ذلك أن كل مدرسة من هذه المدارس لها قاعات درسها الخاصة بها، إما من باب العرف والتقاليد أو لتسهيل إدارة هذه المدارس.

ونحن نقرأ فى كتاب قطب الدين عن مدرسة لها مكتبة كبيرة بنيت فى العام ١٢٣٣ الميلادى بالقرب من باب السلام، وقد بنى تلك المدرسة واحد من خدم الخليفة المستنصر. ونقرأ أيضًا عن مدرسة أخرى بنيت فى العام ١٤٧٧ الميلادى على حساب المملوك السلطان قايتباى بالقرب من المدرسة سالفة الذكر، وأن تلك المدرسة كان فيها

قاعة محاضرات جميلة، كما كانت المدرسة تحتوى أيضًا على ٧٢ خلوة (أى غرفة صغيرة للمعيشة)، كما كانت للمدرسة أيضًا مكتبة للمذاهب الأربعة. ونقرأ عن مدرسة ثالثة، هى مدرسة السلطان العثمانى سليمان، الذى بنى هذه المدرسة فى المنطقة الجنوبية المجاورة للمسجد، وقد بدأت الدراسة فى تلك المدرسة فى العام ١٥٦٥ الميلادى. وقطب الدين الذى يورد رواية هذه المدرسة عمل مدرسًا فيها. وإلى جانب هذه المؤسسات الكبيرة كانت هناك أيضًا مؤسسات أخرى أصغر منها، لكنها من شاكلة هذه المدارس الكبيرة نفسها، وقد بنى الأمراء المصريون والأمراء الهنود أو الأثرياء من الحجاج تلك المدارس.

كان المؤسسون من أهل الخير ينهضون بأعباء تحفيظ القرآن وأعباء رعاية الطلاب والمدرسين طمعًا فى زيادة أجرهم وثوابهم عند الله سبحانه وتعالى، وكانت عمليات تحفيظ القرآن تجرى فى أوقات محددة لحساب هؤلاء الناس الخيرين. وقد جارت الإدارة السيئة والمفاسد والاضمحلال على هذه المؤسسات كلها، وقد بدأ ذلك الاضمحلال بعد سنوات قلائل من إنشاء هذه المدارس، وقد أسفر سوء إدارة هذه المؤسسات عن تناقص دخول تلك المؤسسات والمنشآت، إلى الحد الذى تعذر عنده دفع المرتبات من ناحية، وعجز السكن المجانى عن جذب كل من المدرسين والطلاب من ناحية أخرى، كما أدى افتقار تلك المؤسسات إلى المال إلى إهمال صيانة المبانى ورعايتها. بعد ذلك بدأ مسئولو الحكومة التعامل مع تلك المؤسسات كما لو كانت ممتلكات مهملة. وفى بعض الأحيان كان هؤلاء المسئولون يجعلون من أنفسهم مستأجرين لتلك البنايات. وفى أحيان أخرى كان هؤلاء المسئولون يؤجرون تلك المساكن الجميلة بحكم قربها من المسجد الحرام إلى الأثرياء من الحجاج أو إلى أهل مكة.

وخلاصة القول، على حد كلام قطب الدين "استولى المبددون على تلك المؤسسات والمنشآت". ولم يبق من تلك المؤسسات سوى بعض الغرف الحقيرة التى يعيش فيها المدرسون الفقراء والطلاب الفقراء، ويستثنى من ذلك أن الساكن الثرى الذى يشغل

أفضل الغرف يقوم هنا وهناك بالتجهيز أو الإعداد لإلقاء محاضرة تلقى كل أسبوع فى صالة (دهليز) أو قاعة من قاعات المؤسسة، وذلك من باب الاحترام والتقدير لمؤسس المبنى. واقع الأمر أن كلمة "مدرسة" فى مكة أصبحت تدل على منزل لطيف قريب من المسجد الحرام، وأن أغلبية السكان ضاع منهم الدلالة والمغزى الرئيسى لتلك المؤسسات.

***

الآن ومثلما كانت الحال فى الأزمان السابقة، نجد أن المسجد المكى هو مبنى الجامعة الوحيدة فى مكة، المدرسون فى هذه الجامعة مدعومون من مصادر عدة. ونجد أن المفتين - باستثناء مفتى الأحناف الذى يعد المفسر الرسمى للشريعة فى الحكومة التركية وشديد الانشغال بعمله - يقومون بإلقاء الدروس، أى أنهم جميعهم يعملون بالتدريس، وعلى الرغم من أنه مفروض ألا يتقاضوا أجراً عن الإفتاء، فإنهم يحصلون على الكثير نظير الإفتاء عما فى القيام بالتدريس. بعض آخر من المدرسين يمارسون مهناً أخرى، تتيح لهم الاستقلال والاعتماد على أنفسهم. بعض ثالث يحصلون على عطايا قيمة نظير ورعهم وتقواهم، وتصلهم هذه العطايا والهدايا الكبيرة من الطلاب الأثرياء ومن المعجبين الأثرياء. ومع ذلك، وباستثناء قلة قليلة من المدرسين المستقلين تماماً، من أمثال "رحمة الله" المهاجم للمسيحية[٤] والذى يحظى بتوقير كبير، والمنفى من الهند البريطانية، والذى يخدم قضية المعرفة بوصفها قضية ربَّانية، نجد أن هؤلاء المدرسين يستقبلون تلاميذهم فى منازلهم، ومعروف أيضًا أن المدرسين الدائمين يحصلون على شىء من دخول المؤسسات الدينية.

---

(٤) رحمة الله هو مؤلف كتاب إظهار الحق ، الذى هو مؤلف جدلى ضد اللاهوت المسيحى المتمثل فى الباحثين الإنجليز. هذا الكتاب متوافر فى طبعات عدة، كما أن له ترجمة فرنسية ترجمها منصور كارليتى Mansur Carletti .



كاتب (سكرتير) من كتبة الشريف الكبير

جيران الله هؤلاء يرون أن من حقهم العيش على حساب بقية العالم الإسلامى، وهذا المطلب التزمت به مصر بصفة خاصة، فمن مصر بالذات يحصل الأشراف وأتباعهم كل عام على هدايا وعطايا نقدية، وعطايا من القمح، وقد حذا السلاطين الأتراك حذو حكام مصر فى هذا الصدد. كانت السلطنة التركية تقلل من نفوذها فى سائر أنحاء العالم الإسلامى عندما تُوقِف تلك الأنحاء الهدايا والعطايا السنوية إلى مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة)، وعلى الرغم من الضيق المالى لم تكن تلك العطايا ثقيلة الوقع، نظراً لأن المال والحبوب كان يجرى تقديمها من قبِل مصر. كانت كل أسرة من الأسر المقيمة فى مكة - اللهم إلا باستثناء التجار الأغنياء - هم والطبقة شديدة الفاقة من سكان المدينة تحصل على إردب أو أكثر من إردب(*) من القمح المصرى، ولم تكن تلك الأرادب كاملة نظراً لأن من يقومون على أمر توزيعها كانوا يحتجزون منها شيئاً لأنفسهم.

يضاف إلى ذلك أن المكيين الذين يشغلون الوظائف على اختلاف أنواعها بدءاً من المفتى وانتهاءً بكناس المسجد الحرام يحصلون كل عام على حوالات مالية من خزانة الدولة. صحيح أن صرف هذه الحوالات المالية كان أمراً صعباً فى السنوات العجاف الأخيرة، وقد أدى ذلك إلى قيام حاملى تلك الحوالات ببيعها فى معظم الأحيان للسماسرة بمبالغ تقل عن قيمتها الاسمية، نظراً لعدم توافر الأموال اللازمة فى الخزانة عندما كان حاملوها يتقدمون بها لصرفها. كان المدرسون جميعهم، يحصلون على هذه البدلات من القمح ومن النقود بصفات أخرى غير التدريس، أى بصفتهم مفتين أو أئمة أو كتبة . كان الحجاج الأثرياء وبخاصة الهنود منهم، يقدمون عطايا وهدايا نقدية كبيرة للعلماء من المدرسين، أو للحرم بصفة عامة. هذه الموارد تكفى على هذا النحو إنشاء هيئة من المدرسين يترأسها مدير وموزع لتلك المبالغ النقدية. لكن وجود

(*) الإردب مكيال مصرى يزن حوالى ٢٠٢ رطلٍ إنجليزى. (المترجم)

نقابة العلماء (المدرسين) فى ظل عدم وجود قواعد نقابيـة ورئيـس لهذه النقـابة أمر لا يطاق.

من الناحيـة النظرية كل مؤمن من المؤمنين له نصيب معلوم فى فضاء المسجد الحرام. بعد انتهاء صلاة الجماعة يحـق للأفـراد أن يصـلوا صلواتهم الخاصـة، أو يستريحوا، أو قد يقرأ الصبية هنا وهناك القرآن، وهم يأتون بحركات إيقاعية بأجسامهم، أو قد تقوم مجموعة من الإخوان التابعين لطريقة من الطرق الصوفية بالترنم بترانيمهم الخاصة بهم، وقد تكون هناك حلقات عدة من الطلاب الذين يستمعون إلى المدرسين وهم يلقون الدروس. وهنا يحق لنا القول إن من يستطيع جعل الناس يصغون إليه يمكنه إلقاء المحاضرات فى صحن المسجد أو فى قاعاته، ولكن الأمر ليس على هذه الشاكلة فى واقع الحال.

وبطبيعة الحال، مثل هذا المحاضر لا يمكن أن يكون بلا كفالة وإلا عرَّض نفسه للسخرية والاستهزاء. وهنا نجد أيضًا أن ظروف المكان هى التى تمنع المدرسين من إلقاء المحاضرات فى الحرم. وهذا واحد يرى أنه ما زال صغيرا على مثل هذا العمل، وذاك يعد نفسه غير مشهور تمامًا، أما الجاوى فهو يرى أنه من جنس أو من عرق متدنٍّ كثيرًا عن العرق العربى النبيل. من هنا نجد أن هناك مفارقة بين مدرسى الحرم وزملائهم الذين يحاضرون فى أماكن أخرى غير الحرم. هذه المفـارقة تتحدد فى بعض الأحيان بفعل التقاليد والعادات، وقد تتحدد فى أحيان أخرى بأمر محدد ودقيق يصدر عن شيخ العلماء. شيخ العلماء هذا تعيِّنه الحكومة، شأنه فى ذلك شأن رؤساء النقابات الأخرى. وشيخ العلماء هذا هو الذى يوزع العطايا والهبات على هيئة المدرسين، وهو أيضًا الذى يحدد هؤلاء المدرسين طبقًا لما يراه ويرتضيه. وشيخ العلماء هذا غالبًا ما يكون مفتيًا، ويفضل أن يكون مفتيًا من الشافعية.

يسمح شيخ العلماء للمدرس بعد امتحانه (ولا يرسب أحد فى ذلك الامتحان) أن يقوم بالتدريس فى الحرم المكى، على الرغم من أن ذلك الترخيص لا يجيز للمدرس فى

بداية الأمر الحصول على أجر أو تعويض، وبعد شيء من التأخير، طبقًا للترخيص الممنوح، يحصل المدرس على مجرد نصيب من العطايا، أو قد يحصل على هذه العطايا إضافة أيضًا إلى المرتب السنوى.

المعروف أن نفوذ الحكومة يكون من خلال الشيخ فى هذا الأمر. وأنا أعرف عالمًا تكروريا(*) أسود بائسًا، استطاع عن طريق السيد الدحلان الحصول على إذن بالتدريس فى المسجد الحرام، فى الوقت الذى فشل فيه مدرسون آخرون جياع، مثل التكرورى وأكثر منه جدارة واستحقاقًا، فى الحصول على مثل هذا الترخيص أو الإجازة. هذا الامتحان الذى يجرى للانضمام إلى الجامعة يتساوى مع المعلِّمية فى النقابة. هذا يعنى أن الشيخ (شيخ العلماء) هو الذى يحدد موعد حضور المتقدمين للتدريس. ويجرى الامتحان على الملأ بالقرب من باب من أبواب الحرم (باب الزجادة az-Zijadah)، وغالبًا ما يجرى الامتحان قبل الظهر أو بعد العصر. والممتحن هو شيخ العلماء نفسه أو نائبه، بمساعدة بعض المدرسين الذين يتحلقون حوله، فى حين يجلس الأصدقاء والفضوليون فى الخلف. يقوم أربعة أو خمسة من المدرسين بدور الشهود على ذلك الامتحان، الذى يقتصر على البسملة، التى تجيء فى مقدمة كل نص من النصوص(٥). بعد ذلك، وبعد أن يدعو له الحاضرون كلهم بالحظ السعيد والتوفيق، يقوم المتقدم بتقديم القهوة للحاضرين، أما إن كان ميسورا فقد يقدم لزملائه وليمة فى منزله فى وقت لاحق.

(*) أى من بلاد التكرور فى غرب إفريقيا . (المراجع)

(٥) كتب الباحثون المسلمون عن هذه البسملة تعليقات لا تحصى ولا تعد، ولا يمكن الاستفادة من تلك التعليقات إلا بعد معرفة النحو والقواعد والمنطق وعلم اللاهوت والشريعة. ومع حسن النية يمكن إدخال نصف العلوم الدينية بعد امتحان صعب. لكن كما سبق أن أوضحنا، فإن هذا الامتحان له مغزى شكلى ورسمى فى المقام الأول، وهذا الامتحان يكون مقصوراً على الملاحظات الواردة فى السواد الأعظم من التعليقات الحديثة المتعلقة بعملية البسملة فى القرآن، وهنا نجد المتقدم للامتحان يرد على مجموعة قليلة من الأسئلة بلا تردد، وتتمثل النتيجة الحقيقية فى تدشين هذه الطاقة الجديدة فى المتقدم بفضل الله سبحانه وتعالى .

شيخ العلماء يقوم أيضًا، إلى جانب الأعمال سالفة الذكر، باستقبال الأعضاء الجدد وتوزيع الدخول العامة وتنظيم شئون الهيئة، كما يمثل هذه الهيئة فى التعامل مع العالم الخارجى، ومع الحكومة بصفة خاصة. وفى الأحوال العادية ترجع الحكومة، قبل إصدارها لأوامر تتعلق بإدخال قواعد جديدة، إلى مفتى الأحناف، وذلك من جانب تجنب مخالفة الشريعة، لكن فى الأحوال التى تود الحكومة أن تتثبت من خلالها اتفاق المذاهب كلها مع ما تريده هى، فإن الرجوع فى مثل هذه الحال يكون لشيخ العلماء، الذى يصوغ فى البداية المسألة صياغة مناسبة، ثم تصدر بعد ذلك فتوى مؤيدة بنصوص عدة، ثم تقدم بعد ذلك للتوقيع عليها من كبار زملاء شيخ العلماء. والأهداف التى ترمى إليها هذه الفتاوى تتمثل فى إدخال بعض الإجراءات غير المعروفة للناس، أو رفع بعض المظالم، أو زيادة دخول الحكومة، أو استلهام العون من الفتوى عندما تقام دعاوى قضائية، بسبب التآمر الشخصى، على شخص من أصحاب المقامات العالية فى عالم التعليم الدينى.

***

حدث أن أحد المتعلمين، يدعى حسب الله، وهو ولد لواحد من المرتدين الأقباط، أذا ع بين أتباعه ومريديه مخطوطة بحث يعارض تدخين التبغ بوصفه عملاً غير شرعى. وهنا نجد أن شيخ العلماء الذى كان ناقما على حسب الله، يغتنم الفرصة ويصدر بيانا مضاداً مفاده أنه إذا كان تدخين التبغ غير شرعى، فإن المدخنين أى أهل مكة كلهم على وجه التقريب بحكم عدم شرعيتهم، أصبحوا لا يصلحون للشهادة على الزواج، وبالتالى يصبح السواد الأعظم من حالات الزواج المكية غير سليم، وهذه النتيجة جاءت سخيفة ومنافية للعقل والدين، والسبب فى ذلك أن النظرية التى اشتقت منها تلك النتيجة كانت سخيفة ومنافية للعقل أيضاً.

العقوبة الجزئية ليست من مهام هذه الشخصيات الدينية الموقرة، لأنها من مسئوليات الدولة وسلطاتها. في هذه المسالة بالذات فشل شيخ العلماء في إقناع سلطات الدولة بإنزال العقوبة بالمدعو حسب الله، والسبب في ذلك أن الشيخ الكبير من أسرة شيبة (بوابي الكعبة المشرفة) وقف إلى جانب حسب الله. وذهب شيخ العلماء إلى أبعد من ذلك، فقد قُدِّم اقتراح ببناء قبة جديدة فوق ضريح أبي طالب عم النبي، والمعروف أن أبا طالب مات كافراً، وراح حسب الله يعارض ذلك الاقتراح في كتيب نشره الرجل بهذه المناسبة، واتهم شيخ العلماء بالإهمال عندما سمح بذلك. ورداً على ذلك زعم شيخ العلماء بعد ذلك وجهة النظر الأسطورية، والتي لا تزال تحظى بالقبول، وتقول إن أسلاف النبي ﷺ بمن فيهم عمه الفاضل كانوا مؤمنين، مما أوقع حسب الله في بعض المتاعب، وترتب على إثر فتوى صدرت ضده أن طرد من بلاد العرب مدة ستة أشهر. ومع ذلك، عاد حسب الله مرة ثانية إلى بلاد العرب، وكان قائمًا بالتدريس عندما كنت أنا في مكة، كما كان يحظى باحترام كبير رغم التزامه الهدوء.

وفي مناسبة أخرى دخل سليمان أفندي، وهو شيخ كبير من مشايخ الطرق الصوفية، أو بالأحرى شيخ الطريقة النقشبندية، دخل في جدل مع خليل باشا الذي كان يحمل اللقب نفسه، كان خليل باشا يتمتع بنفوذ كبير لدى الدوائر الرسمية الكبيرة نظرا لأنه سبق له أن شغل منصبًا حكوميًا. وراح كل من الشيخين يحاول زيادة عدد أتباعه ومريديه، وبخاصة من الأتراك ومن أهل جزيرة الملايو، ولكن علاقات خليل باشا العالية لم تحل دون ذيوع شهرة سليمان وتوسيع شعبيته. ومبادئ الإخوانيات التي من هذا القبيل لا تسمح بوجود شيخين من درجة واحدة في الطريقة في بلد واحد، وظهور شيخ ثان ينطوي على إثارة الشكوك حول مطالب الشيخ الأول ومزاعمه. هذا التنافس عادة ما يجعل كل منافس من المتنافسين يطلق إعلانات صريحة وواضحة تنم عن الاحتقار والعداء، ولذلك راح كل من سليمان وخليل باشا يدَّعى أن الطريقة الصوفية

عند الآخر ليست مستمدة من الطريقة النقشبندية الشريفة، وأن طريقة أداء الأذكار بلغت من السوء حداً يفند زعمه بأنه الممثل الحقيقى للطريقة.

فى الأزمان القديمة، أو بالأحرى قبل التوحيد الذى أُسند إلى الغزالى، كان التعليم الدينى المقدس يدين الطرفين، نظراً لأن هذا العلم الدينى يتناقض مع الغرائب والمبالغات الصوفية كلها، وكان من الصعوبة بمكان جعل المتنافسين يقبلان حكم الأجهزة الرسمية الخاصة بالتعليم. وفى زماننا، هناك أيضاً فى المدن الكبرى شيوخ (مثل شيخ الطرق أو شيخ الأذكار) تعينهم الحكومة، ويكونون شبه مسئولين مسئولية كاملة عن شئون الحياة الصوفية كلها، ولكن إشراف أمثال هؤلاء الشيوخ يكون مقصوراً على الاحتفالات الشعبية لبعض الطرق التى تحصل على السواد الأعظم من مريديها من بين الطبقات الدنيا. وعندما يبدأ الصراع بين شيخين مهمين فى طريقة واحدة، أو بالأحرى عندما تتصارع طريقتان من الطرق الصوفية تضيع سلطة شيخ الطرق وتصبح عديمة القيمة أو الجدوى. ومستشارو الحكومة للشئون الدينية، من أمثال المفتين والعلماء، ليس لديهم معايير أو أحكام يمكن تطبيقها على هذه الممارسات الدينية الغريبة التى تحدث فى الطرق الصوفية، وليس بوسعهم سوى تطبيق ذلك الذى جاء به الغزالى بشأن أولئك المؤمنين الذين يبحثون لأنفسهم عن مرشد وهم على طريق التصوف. هذا يعنى أن هذه السلطات تستطيع محاكمة كل إخوانية من هذه الإخوانيات من واقع نظرياتها وممارستها. وإذا كانت تلك النظريات والممارسات من النوع المتشدد تركوا الطريقة لحال سبيلها أو أثنوا عليها. هل هذه النظرية وهذه الممارسات تقوم على الكفر والهرطقة؟ إذا كانت الإجابة بنعم يحاول العلماء حل هذه الطريقة، أو يهاجمون الشيخ المزيف الذى يتستر على خطيئة بانتحال اسم الطريقة النبيل؛ وعليه إذا ما أراد شيخ من مشايخ هذه الطرق التخلص من منافس أو غريم له، تعين عليه جره إلى صراع مع استقامة الرأى أو المعتقد القديم.

لم يكن بين خليل وسليمان أية مسألة من المسائل التى يمكن عرضها على الشرع. ونظرًا لأن خليل باشا كان صديقًا للحاكم عثمان باشا وصديقًا أيضًا للسيد الدحلان، فلم تكن مسالة العثور على المقطوعات التى تثير الجدل والاعتراض أمرًا صعبًا فى الكتيبات العديدة التى ألفها سليمان لأتباعه ومريديه، وتسفِّهُ أو تفند مبدأً أو تعليمًا لا يقره المجتمع الإسلامى ويعده مهرطقًا، ومن يتكلم فى حق الفقهاء أو المدرسين الذين يدرسون الفقه أو التصوف يعد مشوها لسمعة هؤلاء الناس.

كان سليمان قد وصف خليل باشا هو ووالده يحيى بك فى واحد من كتيباته، بأنهما رجلان مغروران، وأن معلوماتهم الصوفية كانت معيبة على نحو اضطر سليمان معه إلى تحذير أتباعه ومريديه منهما فى جزر الهند الشرقية. وفى رأى سليمان أن اعترافهما بالرقص، هو وحركات الجسم العنيفة، وكذلك الأعمال الشاذة، بوصفها وسائل للوصول إلى مرتبة أعلى فى سلم التصوف، تثبت عدم صدق دعاواهم، وأنها لا أساس لها. وعليه أصبح لدى خصوم سليمان وتحت تصرفهم وثائق ومستندات تسىء إلى المتصوفين المتدينين وتدين بعض الممارسات التى تقوم بها السلطات الكبيرة. وأقل ما يمكن قوله هنا أن خليل استطاع إقناع الوالى بتبنى وجهة نظره، وأن يطلب من شيخ العلماء إصدار فتوى تتعلق بالبيانات والأقوال الكافرة الصادرة عن سليمان. وهنا قام أحمد الدحلان بصوغ المسألة المطلوب لها فتوى باسم الوالى، كما صدرت أيضًا فتوى واضحة تضمنت كثيرًا من الاستشهادات المهمة، وخلصت إلى أن العبارات والأقوال التجريمية الصادرة عن سليمان إنما هى عبارات وأقوال مزيفة وخطيرة، وأن الشرع يقضى بإعدام الكتاب ومعاقبة مؤلفه. ووقع على هذه الفتوى ثمانية عشر من مدرسى الحرم المكى، كان من بينهم مفتى الحنابلة ومفتى المالكية، ووضع الجميع أختامهم على هذه الفتوى. وبذلك تمكن عثمان باشا وبلا أدنى شك من إرضاء صديقه خليل، وأودع سليمان السجن، ولكن خروجه من السجن أجبره على

الخضوع والتواضع أمام منافسه، كما اضطره أيضًا إلى كتابة رسالة إلى خبرائه ومحبيه فى جزر الهند الشرقية، أشار فيها إلى ذلك الكتيب اللعين، وأعلن أنه منذ ذلك الحين فصاعدًا ستكون علاقته بخليل باشا علاقة أُخوَّة. وأرسل أربعة ممثلين "خلفاء" لخليل باشا خطابات مماثلة إلى كل من حاكم ديلى وحاكم لنجات فى شرقى جزيرة سومطرة، يطلبان منهما إذاعة محتويات الرسالتين على رعاياهما.

كان ذلك بمثابة تمهيد لمنافسة خليل فى شرقى سومطرة، والتى كانت تفتقر إلى النجاح فى ذلك الوقت. كان المغزى الشخصى من وراء هجمات خليل على سليمان يتمثل فى رغبة الرجل أن يجعل انتصاره على سليمان معروفًا فى كل أنحاء الدنيا. جمعت هذه الوثائق كلها فى منشور واحد طبع فى العام ١٨٨٣، الذى افتتحت فيه المطبعة الحكومية الجديدة فى مكة، وقد نشرت هذه الوثائق تحت عنوان "مقال يدحض مقال سليمان أفندى، بقلم شيخ العلماء ومفتى الشافعية والسيد أحمد الدحلان بموافقة من المفتين وفقهاء مكة الموقرين".

وقد أرفق بتلك الفتوى التى جاءت فى ست صفحات، الخطابات سالفة الذكر. وقد تصدر كل هذه الأشياء الإعلان التالى على لسان عثمان باشا: "بلغنا من بعض المناطق أن الشيخ سليمان أفندى نشر كتيبًا يسىء إلى سمعة الطرق الصوفية وإلى مشايخها، وأن ذلك الكتاب وردت فيه بعض السخافات واللغو، وأنه نشر هذا الكتيب على نطاق واسع. وعليه وضعنا ذلك الكتيب بين يدى شيخ العلماء فى المدينة المقدسة، ولذلك أبلغنا نحن والسيد أحمد زينى الدحلان شيخ العلماء أن يفحص الكتيب هو وأهل الفطنة. قرأ شيخ العلماء الكتيب، وتوصل إلى أن محتويات الكتيب عبارة عن لغو وهراء، وتتعارض مع الشرع؛ الأمر الذى يحتم إعدام الكتيب ومحو كل أثر من آثاره. وعليه قام السيد سالف الذكر بإعداد فتوى مفصلة بشأن هذا الموضوع، وأعلن كل علماء مكة المكرمة أنهم جميعًا موافقون على كل ما جاء فى الفتوى، وتمت مصادرة نسخ الكتيب المذكور، التى كانت لا تزال بحوزة مؤلفه، كما سحبت أيضًا كل النسخ المباعة، وجرى

إحراق كل هذه النسخ وإعدامها تمامًا. ونظرًا لأن الفتوى تنص أيضًا على معاقبة المؤلف الشيخ سليمان أفندى، فقد أودعناه السجن. وجرى إعلان ذلك حتى يعلم الجميع حقيقة الأمر".

***

لا يجرؤ شيخ العلماء على نشر بيان ضد قواعد أو قوانين حكومية، هذا الحال يندر أن يحدث ما لم تكن السلطة مقسمة بين يدين فى مكة (المكرمة).

فى العام ١٨٨١ الميلادى استطاع أتباع المذهب الحنفى المتحمسون استمالة القاضى المعين من قبل الحكومة التركية، وجعلوه يصدر أمرًا بتأخير صلاة العصر إلى وقت غير الوقت المحدد لهذه الصلاة، وتشكك معظم العلماء وكثير من عامة الناس فى ذلك الأمر الذى أصدره ذلك القاضى. ولم تكن المذاهب الثلاثة الأخرى وحدها هى الموافقة على موعد الصلاة المعتاد، وإنما كان هناك أيضًا بعض سلطات الأحناف الذين كانوا موافقين أيضًا على ذلك الموعد نفسه. يضاف إلى ذلك أن بعض الأماكن الأخرى، وبخاصة إستانبول التى تعد مركز الحكومة الحنفية، كانت موافقة أيضًا على الموعد المعتاد للصلاة، أو بالأحرى كانت موافقة على أن يبدأ أداء صلاة العصر فى توقيت مبكر وليس متأخرًا. وفى مواجهة هذا الجدل يبدو أن غلاة الأحناف طرحوا المبدأ الذى مفاده أن الخلاف فى الرأى ينتهى عندما يدلى القاضى برأيه. فى مثل هذه الأحوال كان أحمد الدحلان يبرى قلمه المصنوع من البوص (الغاب) ويروح يعارض القاضى قائلاً إن القاضى الذى يتعين لحكمه القضاء على خلاف من الخلافات، يجب أن تتوافر فيه بعض الشروط، وأن هذه الشروط تتحقق فى الخلاف الذى نحن بصدده هنا، لكن حكم القاضى فى كل الأحوال يمكن أن ينهى عملية من العمليات أو إجراء من الإجراءات، ولكن مثل هذا الحكم لا يمكن أن يكون ردا حاسمًا على مسألة لم يجرِ تقديمها له بشكل رسمى. يضاف إلى ذلك أن السيد أحمد زينى الدحلان غلب القاضى

على أمره عندما قدم له بعض الحجج المضادة لرأيه، وترتب على ذلك سحب تلك البدعة خلال أسابيع قلائل. وفي العام ١٨٨٣ نشرت هذه الفتوى في القاهرة بوصفها دفاعًا ضد الهرطقة الوهابية.

ويمكن أن نضيف أمثلة كثيرة أخرى إلى النشاط الذى كان يقوم به شيخ العلماء بوصفه بطلاً من أبطال الدفاع عن المعرفة المقدسة، ضد الهجمات التى توجه إليها من الخارج، وعمله المعتاد بوصفه مفتيًا للشافعية -- وهو المنصب الذى يشغله بصورة دائمة - يسهل القيام به، نظرًا لأن مساعديه (أمين الفتوى) يجهزون له المسائل اليومية، ولا يسألونه إلا فى المسائل المهمة فقط. ولما كان عدد كبير من أهل مكة يتبعون المذهب الشافعى، فإنه لا يمر يوم واحد دون الرجوع إلى شيخ العلماء فى المسائل العائلية، وفى المسائل المتعلقة ببعض العقود ... إلخ. وهناك عدد كبير من التساؤلات تصل إلى شيخ العلماء من بعض المناطق الشافعية فى الهند، أو أرخبيل جزر الهند الشرقية، أو من داغستان . والمسائل التى من قبيل التطعيم، أو استعمال المصابيح البترولية فى المساجد، أو طهارة أو عدم طهارة الورنيش الصينى، أو طريقة أخرى لتحاشى الربا، أو طراز جديد من الملابس، كلها مسائل يتعين وضعها أمام المفتى ليبت فيها خلال أيام قلائل.

***

إذا كان شيخ العلماء هو الذى يحدد ويختار المحاضرين والمدرسين الجدد، وإذا كان هو أيضًا الذى يدير مسألة الدخل، ومسألة تمثيل العلماء فى الخارج، فإن له مهمة أخرى تتمثل فى توجيه وإدارة أسلوب التعليم فى الحرم المكى، كما لو كان الرجل مديرًا لجامعة من الجامعات. هذا يعنى وجود شكل من أشكال النظام والانتظام فى الأمور المكية، نظرًا لأن ذلك الرجل يستمد سلطته من التقاليد والأعراف السائدة أو المكتسبة. هذا يعنى أيضًا أن الجميع يقبلون التقاليد والأعراف عن طيب خاطر، لأن

كل واحد منهم يستطيع فهم هذه التقاليد والأعراف بطريقته الخاصة. وحتى بين الأشراف أنفسهم يصعب على الأول أو المقدَّم من بينهم جعل الآخرين يقرون بسلطته. هذا يعنى أيضًا أن رؤساء النقابات ومشايخ الأحياء فى المدن يمارسون سلطاتهم بمساعدة من الحكومة. إذا كانت الحال كذلك، فكيف يمكن لطبقة من هذا القبيل أن تخضع لرئيسها؟

بعد أداء الصلوات الخمس يتحلق الأتباع والمريدون حول المدرسين (الشيوخ) المعروفين، ويجرى إبعاد المتطفلين بأمر من شيخ العلماء، وذلك بواسطة الطواشى الذين يخدمون الحرم المكى، أو عن طريق الشرطة . هذه القيود الصارمة لا تخف إلا بعد صلاة العشاء، وسبب ذلك هو قلة عدد المدرسين الذين يحاضرون فى ذلك الوقت.

ومن يود إلقاء نظرة عامة على سير التعليم فى الحرم المكى يتعين عليه التجوال فى الحرم بواقع خمس مرات يوميا على امتداد الأشهر السبعة الأولى من التقويم العربى (السنة الهجرية)، والسبب فى ذلك أن تغيرات كبيرة تحدث فى شهر شعبان. مثل هذا التجوال ينبغى ألا يحدث فى أيام الثلاثاء ولا أيام الجمع، لأن المحاضرات تتوقف فى هذين اليومين. فى يوم الجمعة تتوقف المحاضرات بسبب متطلبات صلاة الجمعة. أما فيما يتعلق بيوم الثلاثاء فيقال إن أبا حنيفة (رحمه الله) توفى يوم الثلاثاء. ومع ذلك هناك بعض العلماء (المدرسين) الذين يحاضرون أيضًا فى هذين اليومين، لكنهم يحاضرون فى أمور لا تتصل بالمحاضرات المنتظمة أو الدورية.

المدرسون الذين يبدأون محاضراتهم عقب صلاة الفجر بوسعهم الجلوس فى صحن المسجد الحرام، لكن بعد ساعة أو ساعتين تبدأ الشمس فى إلقاء أشعتها على قباب السقف الشرقى. وهنا يكون إلقاء المحاضرات فى رواق من الأروقة؛ وعليه ففى هاتين الجولتين يمكن أن نرى طلابا فى الحالين.

وقبل دقائق قليلة من بداية الدرس يقوم أحد الخدم أو واحد من تلاميذ المدرس بوضع حشية على المكان المعتاد، كى يغطى بها حصى صحن المسجد أو أرضية الرواق المصنوعة من الرخام. توضع الحشية على نحو يكون المدرس فيه مستقبلا الكعبة. وعادة ما يكون عدد الطلاب قليلاً على نحو لا يؤدى إلى مضايقات أو منغصات عند اختيار أماكن المدرسين. هذا يعنى أن كل مدرس يستطيع أن يختار لنفسه مكانًا فى المنطقة التى يفضلها، ولكنه يحافظ على ذلك المكان طوال العام، بل قد يظل يدرس فيه طوال حياته، وإذا ما حدث خلاف على توزيع الأماكن يحال الأمر إلى شيخ العلماء. والطلاب يجلسون على شكل حلقة من حول المدرس، وعندما يستمر التلاميذ هم أنفسهم فإن كل واحد منهم يحتفظ بمكانه المحدد له، ولكن هذه مسألة ليست ثابتة أو صارمة، يضاف إلى ذلك أن وضعية مكة الخالية من الأحقاد تتيح لأصحابها بدائل كثيرة.

كل تلميذ يحضر ومعه سجادة الصلاة، ويفرش سجادته بحيث تكون متجهة صوب مركز الدائرة. ويكون التلاميذ الجالسون خلف المدرس أقرب إليه من أولئك الذين يجلسون أمامه، وذلك حيث يمكن لهم الاستماع جيداً إلى ما يقول، وحتى لا يدير المدرس ظهره مرات كثيرة قدر المستطاع، ويُترك خلف المدرس مكانان شاغران يسمحان له بحرية الحركة. ويجلس التلاميذ أرضًا على أطراف سجاجيد الصلاة، ويضع كل واحد منهم أمامه محبرته المصنوعة من النحاس الأحمر "الدواية"، وعلى جانب من جوانب هذه الدواية توجد الأقلام المصنوعة من البوص وبجانبها مبراة يستعملها التلميذ فى برى تلك الأقلام، كما تحتوى محفظة كل طالب على بضعة أوراق للنص الذى تناوله فى الدرس، كما توجد فى الحافظة أيضا بعض الأوراق البيضاء.

فى بعض الأحيان، وطبقًا للأعراف والتقاليد القديمة، يجعل المدرس واحداً من التلاميذ يطلقون عليه اسم المُقرِّى، وهو يجلس فى مواجهة المدرس مباشرة، ويقوم بترديد خاتمة الدرس السابق لتكون مقدمة للدرس الجديد. وفى أحيان أخرى،



حاجان من زنزبار

وعلى الرغم من أن ذلك لا يحدث دومًا، يبدأ المدرس درسه بجمل مسجوعة يثنى بها على الموضوع، وفى مثل هذه الحال يقوم المُقرى بإعادة هذه الجمل، وبذلك يتمكن التلاميذ من سماع مثل هذه الجمل مرتين.

هذه الحلقات القليلة من التلاميذ، والتى تنعقد بعد صلاة الفجر، وتتكون الواحدة منها من عدد بين ١٠ تلاميذ و ٦٠ تلميذًا، تكاد تكون كلها مقصورة على دراسة الشريعة، وبالتالى لابد من تصنيفها حسب المدارس أو المذاهب التى تنتمى إليها. وفيما يتصل بدراسة مصادر الشريعة يجوز الاستماع لأى مدرس من المدرسين، بغض النظر عن مذهبه، لكن فى دراسة الفقه ينبغى اختيار مدرس من المذهب نفسه الذى ينتمى إليه التلاميذ.

يجوز لنا القول إن الحنابلة يجرى البحث عنهم باستعمال أضواء المصابيح، هذا يعنى أن أصحاب ذلك المذهب يكادون يكونون منعدمين. وهم لا يتعدون مدرسًا أو مدرسين يقومان بإلقاء الدروس على تلاميذهم القليلين. وهم يدرسون نص مرعى.(*) وهم جميعًا من وسط الجزيرة العربية (شرقى، وجمعه شروق)(٦)، وهم فى أسلوب تفكيرهم يشبهون الوهابيين إلى حد بعيد، وواقع الأمر أن كثيرًا من المتشددين الذين يطلق عليهم اسم الوهابيين يدعون أنفسهم حنابلة. أما الحلقات المالكية فهى كثيرة عددًا ونفرًا، والموطن الحقيقى لهذا المذهب هو شمال إفريقيا الغربى، كما يشمل هذا المذهب أيضًا كل مسلمى إفريقيا فيما عدا الوجه البحرى من مصر. يضاف إلى ذلك

(*) ربما كان المقصود مرعى بن يوسف الكرمى المقدسى الحنبلى. (التحرير)

(٦) يسود المذهب الحنبلى أيضًا المناطق الداخلية من عُمان، وفى المنطقة الساحلية فى كل من عمان وزنزبار ينتمى المسلمون إلى الملة الإباضية ويصح فيها أيضًا الأباضى، وأهل مكة يعتبرونهم مهرطقين لا حول لهم ولا طول، ولا يزنون أى أحد من الناس، وهم يجلبون إلى مكة مبالغ مالية كبيرة. وينظر أهل مكة أيضًا إلى الوهابيين باعتبارهم حنابلة متطرفين.

السودانيون، والزنوج التكروريون، وكذلك المسلمون الأحباش، وأيضًا جميع الزنوج الذين دخلوا فى الإسلام، ومعهم أيضًا مسلمو المبشرين السنوسيين، كل أولئك يتبعون المذهب المالكى. وفى الجزيرة العربية وسوريا هناك بعض من المالكية، وكلهم من أقصى الغرب فى الجزيرة العربية.

أما المذهب الحنفى، وباعتباره المذهب التركى الرسمى، فينتشر على نطاق واسع. التنازل الذى أقدمت عليه الحكومة التركية فى زمن الانتصارات التركية، وفى المناطق التى فتحوها، وأسفرت عن موافقتهم على تعيين قاضٍ ممثل للمذهب المحلى، إلى جانب المذهب الحنفى التركى، لم يعد أمرًا مطلوبًا أو ضروريا فى هذه الأيام.

وفى مكة تتمثل أهمية المذهب الشافعى القصوى، لكن فى ضوء الطابع العالمى الذى تتسم به المدينة لم يسمح بأن يكون المذهب الشافعى هو المذهب الوحيد أو المسيطر، فقد كانت الحكومة التركية تعين أربعة قضاة، بحيث يمثل كل واحد منهم مذهبًا من المذاهب الأربعة، لكن عندما أدرك الأتراك فيما بعد أن إدارة الشريعة من مسئولياتهم، وليست من مسئوليات رعاياهم، قامت الحكومة التركية بقمع المذاهب الثلاثة الأخرى، ولم تبق إلا على المذهب الحنفى، الذى أصبح قاضيه هو القاضى الوحيد فى الحياة الدينية والحياة الأسرية، أما بقية الأمور الأخرى فيجرى البت فيها طبقًا للقانون (الذى يطلقون عليه اسم القانون المنيف) الذى حل محل الشرع الشريف والقاضى لا يستطيع تطبيق ذلك القانون الجديد، الذى كان يجرى تفسيره طبقًا لرغبة أو إرادة المدير العرفية. صحيح أن المذاهب الأخرى لم تقمع لكن هناك مفتيًا خاصا بكل مذهب من هذه المذاهب، ويمكن مواجهة القاضى الحنفى بالفتاوى التى تصدر عن المذاهب الأخرى وبخاصة ما يتعلق منها بمسائل الزواج، لكن يجب ألا يغيب عنا أن الحكومة العثمانية يغلب عليها التغاضى عن المذاهب الأخرى غير الحنفية، أو أنها تجعل لتلك المذاهب أهمية طقوسية ليس إلا، فى معظم الأحوال.

من الطبيعى جدا أن يحصل المدرسون الأحناف على النصيب الأكبر من المرتبات فى مكة. طبقا للتاريخ العربى، أى عام ١٣٠٣ الهجرى (الموافق لعام ١٨٨٥ - ١٨٨٦ الميلادى) كانت هناك قائمة بأسماء المدرسين وبمخصصاتهم. هذه المعطيات الرسمية لا يمكن الاعتماد عليها تماماً، نظرا لأن الكثيرين ممن وردت أسماؤهم ضمن هذه القائمة كانوا ممن أطلق عليهم لفظ مدرسين لأن الحاكم أراد أن يحابيهم براتب من الرصيد المخصص لتقدم العلوم. وإذا ما نحينا جانبا أولئك المدرسين المخلصين، نجد أن العدد الإجمالى يقدر بما يتراوح بين ٥٠ مدرساً و ٦٠ ، وثلث هذا العدد من الأحناف، من بينهم مدرسون هنود ومدرسون من آسيا الروسية، علاوة على بعض المكيين وبعض الرعايا الأتراك الآخرين. هؤلاء النازحون من البلدان الأجنبية يجدون فى سيد إستانبول الكبير ملجأ وملاذا لهم، ويجدون منه ترحيبا كبيرا بهم. وكانت تسند إليهم المناصب كلما تيسر ذلك، وكان الناس يسمونهم المهاجرين (أى أناس تركوا بلادهم الأصلية خدمة للدين). والمالكية هنا شأنهم شأن الأحناف، يشرحون نصوص وتعاليم المذهب المالكى ويفسرونها، أو قد يجمعون النصوص الشفاهية من بين هذه النصوص.

على الرغم من أن المذهب الشافعى مقصور، بفعل النفوذ التركى، على مجال الحياة الأسرية فى المناطق التى كان سائدا فيها من قبل، فإن هذا المذهب ما زال له وجود فى قاعات الدرس، وما زال يتمتع بقوة روحية. ويرجع انتشار المذهب الشافعى على نطاق واسع فى القرون السابقة إلى حماية الخلفاء العباسيين له. فى ذلك الوقت كان المذهب الشيعى هو المنافس الأكبر للمذهب الشافعى فى مكة، وهذا المذهب الشيعى له كثير من الأتباع فى غرب الجزيرة العربية وفى جنوبها.

كان أشراف مكة انتهازيين فيما يتعلق بالمسائل المتعلقة بالمذهب، و كانوا يستبدلون بمذهبهم الزيدى (وهو مذهب شيعى) المذهب (الشافعى)، الذى كان مذهب السواد الأعظم من رعاياهم. وبدءاً من ذلك التاريخ بقى السواد الأعظم من سكان

غربى الجزيرة العربية على مذهبهم الشافعى، هذا يعنى أنهم لم يتبعوا حكامهم فى مسألة اتباع المذهب الحنفى. وفى بعض المناطق المحيطة بمكة لا تزال هناك بقايا قوية من ذلك المذهب الشيعى الذى ساعد ذات يوم فى غزو غرب الجزيرة العربية بواسطة الأشراف، و ترتب على ذلك أن أصبح ذلك المذهب يحظى باحتقار وازدراء هؤلاء الأشراف له[٧]. هناك أيضًا فى المناطق المحيطة بمكة بعض قبائل حرب التى تعتنق الوهابية. وكل من الشيعة والوهابيين ليسوا سوى مجرد بقايا لا أهمية لها، إذا ما قارناهم بالمذهب الشافعى المهيمن. يضاف إلى ذلك أن مناطق الجزيرة العربية التى يأتى منها القسم الأكبر من الشافعية إلى مكة هى مناطق شافعية فى الأساس. فى اليمن على سبيل المثال، وبعد سحق المركز السياسى لأئمة الزيدية (وهم من الشيعة) بدأ الزيود يفسحون الطريق أمام الشافعية، وداخل مناطق النفوذ التركى نجد أن المحاكم الحنفية لا نفوذ لها فى مجال التعليم والحياة الأسرية. وحضرموت عن بكرة أبيها، هى وجزء من البحرين، يتبعون المذهب الشافعى. وفى الوجه البحرى فى مصر نجد أن الشافعية صمدت أمام العواصف، ومن السواحل الشافعية فى الهند (مالابار وكوروماندل) ، ومن أرخبيل جزر الهند الشرقية، ومن داغتسان نجد أن كثيرا من الحجاج (وكلهم من الشافعية) يفدون إلى مكة بغرض الدراسة فيها بضع سنوات، وهذا على العكس من الحجاج الذين يفدون من بلاد تسود فيها مذاهب أخرى غير المذهب الشافعى.

وليس من قبيل المصادفة أن يتولى مفتى الشافعية أو أى فقيه آخر منهم منصب شيخ العلماء، وليس من قبيل المصادفة أيضا أن يصل عدد المدرسين الشافعيين إلى ٢٠ مدرسا أو ٣٠ من بين إجمالى عدد المدرسين الذى يتراوح بين ٥٠ مدرسا و ٦٠ .

---

(٧) أكثر طوائف الشيعة ازدراء هم أولئك الذين ينتمون إلى النحلة التى ينتحلها أولئك الذين يعيشون داخل المدينة المنورة وحولها، إنهم النخاولة الذين انحطوا إلى الدرك الأسفل، والذين يتعين عليهم أن يمتهنوا حرفا وضيعة مثل الجزارة، وهناك فى جدة أيضا بعض النخاولة الذين يمتهنون الجزارة.

يضاف إلى ذلك أن حلقات هؤلاء المدرسين تشكل أهم الأمثلة على الحياة الأكاديمية فى مكة. زد على ذلك أن عدداً كبيراً من المدرسين الشافعية من مواليد مكة، وشيخ العلماء أحمد الدحلان (فى العام ١٨٨٦ تقريبا)(*) ولد فى مكة وتربى فيها، وكذلك أيضًا السيد عبد الله الزواوى، ذلك الزاهد الذى له ملامح الساميين، والذى هو من أبناء محمد صالح، شهير ومحترم بأستاذيته، وهو من المتصوفة وأصحاب السمعة الطيبة.

هذا الوالد محمد صالح ربى ولده فى المنزل فى البداية، لكى يبعده قدر المستطاع عن الإغواءات الدنيوية، وفى سن العشرين كان أحمد الدحلان قد قطع شوطًا كبيرًا فى العلوم الدينية؛ الأمر الذى أقنع والده بأن يطلب من شيخ العلماء إدراج اسمه ضمن المدرسين، وهو الأمر الذى أثار كثيرا من الغيرة والحقد والحسد والاستياء، وراح المدرسون يتصايحون اعتراضا على ذلك الإدراج، الذى جاء على العكس من العرف المتبع فى مثل هذه الحال، وبخاصة أن ذلك الإدراج كان لواحد من أولئك الذين تعلموا تعليما خاصا. كان يجرى إلقاء الأحجار على المدرس الشاب من فوق أسطح المسجد، ومع ذلك تمكن ذلك المدرس الشاب من التغلب بعلمه وقيمته على هذه الاعتراضات كلها، مستخدما فى ذلك طبعه الحلو ودماثة خلقه. استطاع الأب والابن أن يتعاونا على الجمع بين العلم والتقوى وأن يضيفا إلى العلم تجارة رابحة، وكان من الطبيعى ألا يكون لهما نشاط أدبى.

وهناك رجل فى منتصف العمر يدعى سيد البكرى، حسبما كان الناس يسمونه فى مكة، ويبدو أن اسم هذا الرجل بالكامل هو سيد أبو بكر شتا، والد هذا الرجل كان قد نزح من دمياط إلى مكة. كانت لسيد البكرى هذا حلقة كبيرة من التلاميذ، ويبدو أنه حل محل الشيخ محمد صالح، لأنه كان مؤلفا موسوعيا.

(*) العام المشار إليه هو العام الذى توفى فيه أحمد الزينى دحلان . (المراجع)

يتمتع بعض أولئك الذين أتموا تعلمهم فى "أثينة" المذهب الشافعى، أو بالأحرى فى الجامع الأزهر فى القاهرة(*)، من أمثال محمد البسيونى، وعمر الشامى ومصطفى عفيفى ومحمد المنشاوى، بشهرة ذائعة، و قد قام محمد المنشاوى بتعليم الكثيرين من أبناء الجاوة تلاوة القرآن. قبل ذلك كان المصريون يتضايقون من أجواء التفوق فى مكة، أما الآن، واعتبارا من أَوْرَبة إسماعيل باشا للوجه البحرى فى مصر، وبدءًا أيضًا من الاحتلال الإنجليزى، فقد أخذ المصريون ينظرون من جديد إلى مكة باعتبارها الملاذ الحقيقى أو الموطن الحقيقى للإسلام.

فى مصر نجد أن الكفار لهم علاقة بتعيين المفتين والمدرسين، وهناك أيضا بعض الفتاوى التى صدرت فى بعض الأحيان على العكس من ضمير المفتى. صحيح أيضا أن الأمر قد يحتم بين الحين والآخر التعامل مع السلطات الدنيوية، لكن هناك أيضا قدراً من الاستقلال المتفق عليه، يخول للمندوب الشرعى ونحن (الإخْوة فى الدين) أن نرى أن ذلك من بركات الله سبحانه وتعالى . والتركى الذى هو من عامة الناس، يفهم أفضل من أى واحد من الإنجليز ما هى واجبات المسلم.

ذات مرة عندما صب أحد المثقفين والمتعلمين المصريين جام شكواه على خلاعة الجنود الإنجليز وبذاءاتهم من ناحية وعلى غرور بعض الإنجليز وتباهيهم من الناحية الأخرى، استشهدت له وأنا أرد عليه بدعوى الخدمة الكبيرة التى أسدتها الحكومة الإنجليزية لمصر، واستشهدت أيضا ببعض الصفات والسمات الخاصة ببعض الإنجليز الشهيرين، لكنه رد على بالمثل الذى يقول "هذا كلب أبيض وذاك كلب أسود وكلهم كلاب

(*) استعمل المؤلف كلمة "أثينة" Athens هنا ، وهى تعنى إلهة الحكمة والفنون والصنائع النسوية عند الإغريق، وهو يستعمل هذه الكلمة للدلالة على أن الأزهر هو الأساس فى تعليم المذهب الشافعى . (المترجم)

أولاد كلاب". والكفار غير مسموح لهم بدخول مكة، فى حين تدنس الجامع الأزهر بأقدام الإنجليز والإنجليزيات. فى مكة هناك سوق للعبيد، أما فى مصر فإن العبيد يباعون ويشترون فى السر، كما لو كانت المسألة خطيئة. ما زال هناك فى مكة مجتمع إسلامى خال من الكفار، لكن ذلك أمر مستحيل فى مصر. القاهريون الموجودون فى مكة هذه الأيام يعترفون ويقرون بتدنى مدينتهم.

حضرموت هى الأخرى تزود مكة بالمدرسين، ويبرز من بين هؤلاء المدرسين محمد سعيد بابسيل، صاحب القامة القصيرة مثل الأقزام. ومحمد سعيد بابسيل هذا هو الذى يتولى منصب أمين الفتوى مع شيخ العلماء، باعتبار أن شيخ العلماء هو مفتى الشافعية. ونجد محمد سعيد هذا يقوم بدور المُقرئ فى بعض المحاضرات التى يلقيها شيخ العلماء . والحضارمة شأنهم شأن سكان وسط الجزيرة العربية، نشأوا فى منطقة فقيرة الثقافة، ولذلك فهم ينظرون إلى مكة بوصفها بابل حديثة. ومع ذلك، فإن حياة العلم والتعليم فى مكة فيها كثير من السحر والجاذبية لأولئك المتيمين بالعلم من بين هؤلاء الحضارمة. هؤلاء الحضارمة عندما يدرسون فى مكة، وعندما يتمتعون بمساعدات مادية أكثر سخاء من بلادهم، وعندما يستشعرون حرية تبادل الأفكار والآراء، فإنهم يستقون من قداسة وادى مكة بركات لا يمكن لهم أن يجدوها فى حضرموت. وعامة الناس الذين ينزحون من حضرموت إلى مكة طلبا لكسب العيش سرعان ما يكيفون أنفسهم مع العادات والتقاليد والأعراف المكية، ومن ثم فهم ينظرون إلى هذا التغيير بوصفه تقدما. والحضارمة عندما يتكلمون فى جزر الهند الشرقية عن المكيين بشىء من الاحتقار و الازدراء، يكون ذلك من باب تعبير هؤلاء الحضارمة عن غيرتهم التجارية، والسبب فى ذلك أن كلا من الحضارمة والمكيين يحاولون استغلال الجاوة، وغالبا ما تتعارض أساليب الحضارمة مع أساليب المكيين. ونجد المكيين يعاملون الحضارمة مستخدمين العملة نفسها، ويجب ألا تخيل تلك الأساليب على الأوروبيين أو تضللهم.

هناك بعض المدرسين الداغستانيين الذين يحظون باحترام وتقدير كبيرين فى مكة. وعبد الحميد الداغستانى واحد من هؤلاء الناس، والكثيرون من زملاء عبد الحميد الداغستانى يعدونه أكثر علما وأوسع من السيد الدحلان، وقد توفى عبد الحميد الداغستانى بعد فترة وجيزة من وصولى إلى مكة. وقد كرَّم محمد بن الداغستانى أباه، ومحمد هذا كان يعد واحداً من أهم ستة مقرئين للقرآن فى مدينة مكة.

هنا أيضا فى مكة بعض المدرسين المَلَبار، والناس هنا يطلقون على هؤلاء المدرسين اسم المنبار، ولكن عددهم الحالى تناقص عن ذى قبل، ويندر حاليا العثور على مدرس من الجاوة فى الحرم المكى.

وعندما كنا نسأل خلال جولتنا الصباحية فى صحن الحرم المكى عن ندرة المدرسين الجاويين، كنا نجد المكى الذى نطرح عليه هذا السؤال يشير بإصبعه إلى المدرس زين الدين الذى هو من جزيرة سُمباوا، ثم يردف قائلا إنه لا يوجد غير هذا الوديع المتواضع لهذا العرق من البشر. ونحن نرى ذلك أمراً طبيعيا، وهو ما سوف نتناوله بالتفصيل عندما نتحدث عن الجاوة.

***

نحن عندما نلقى نظرة على التلاميذ الشافعية (وهم أهم التلاميذ باعتبار أن مدرسيهم هم أيضا أهم المدرسين) نندهش للوهلة الأولى من الفارق الكبير بين أعمار هؤلاء التلاميذ، ففى الحلقة الواحدة يشاهد الرائى أصحاب اللحى الرمادية جنبا إلى جنب الصبية الصغار الذين لا لحى لهم، كما نشاهد أيضا غلمانا مراهقين ورجالا كبارا بالغين. والتلاميذ كبار السن يجرى تقسيمهم إلى فئتين تشتركان فى أنهما يحضران المحاضرات طلبا للبركة . الفئة الأولى تتكون من أولئك الذين يعرفون بالفعل ذلك الذى يستمعون إليه من المدرس، لكنهم يجلسون عند قدمى المدرس، لأنه كان من

قبل أستاذا لهم، أو لأنهم يحترمون ذلك الأستاذ باعتباره زميلا تقدم فى السن. بعض آخر من هذه الفئة لم يحصلوا على قدر من التعليم فى أيام شبابهم، وهم يحاولون الآن تعويض ذلك الذى يفتقرون إليه. ومعروف أن الجهود التى تبذلها هذه المجموعة لا تأتى بالثمار المطلوبة، لكنهم يرضون ويقنعون بالبركة التى تصيبهم جراء الحضور، حتى وإن عجزوا عن فهم ما يدور.

ونحن نجد أيضا تلاميذ عمر الواحد منهم ستة عشر عاما وتلاميذ عمر الواحد منهم أربعون عاما، يحضرون جميعا محاضرة واحدة. مذاق حياة العلم هنا، حسبما رأينا، يكاد يكون نادرا بين أهل مكة، لكن هذا المذاق يكشف عن نفسه بين أبناء العلماء وهم فى سن مبكرة، أى عندما يكونون فى مطلع شبابهم، وفى الحالات الأخرى لا يجد ذلك المذاق متنفسا له، ولا يستطيع أن يتغلب على المصاعب العائلية إلا فى فترة متأخرة من الحياة. ويأتى السواد الأعظم من التلاميذ والطلاب من الخارج، وعندما لا تكون العربية لغتهم الأصلية يتعين عليهم حضور دورة لغة قبل أن ينخرطوا فى سلك التعليم فى الحرم المكى. قلة قليلة من البشر الجاويين أو الملاويين أو من أهل مَلَبار أو من مواطن أخرى استطاعت تعلم قدر كبير من اللغة العربية، مكنهم من مواصلة تلقى التعليم فى الحرم، وعدد كبير من تلك الجنسيات يأتون إلى الحرم وهم أطفال صغار أو غير مستعدين لهذا العمل.

هؤلاء الصغار، بعد أن يحرزوا شيئا من التقدم فى تلاوة القرآن فى بلادهم، يسافرون بضع سنوات طلبا للعلم عند واحد من مواطنيهم الذين يدرِّسون فى مكة، ويقوم هذا المدرس بشرح الدروس الصعبة لهم، مستخدما فى ذلك لغتهم الوطنية. وبعد أن يتغلب هؤلاء الصغار بهذه الطريقة على مصاعبهم الأولية، يحتمل أن يواصلوا تعليمهم لسنوات عدة بهذه الطريقة، و على أيدى مدرسين من هذا القبيل . ومع ذلك نرى من بين هؤلاء العلماء أناسا لا يقلون شأنا أو مستوى عن زملائهم العرب. وتتمثل رغبة الطلاب الجامحة فى الدراسة فى الحرم الملكى، كما أن مواطنيهم

أو أبناء جلدتهم لا يخالفون فى ذلك، نظرا لأنهم هم أنفسهم لديهم الكثير والكثير الذى يودون إنجازه.

المحاضرات علنية وحرة، وبوسع المرء حضورها من باب إشباع الفضول، وفى مثل هذه الحال، ومن يريد أن يكون تلميذا أو طالبا منتظما يجلس ضمن الحلقة بين طالبَين يكون قد سبق له التعرف عليهما أو عند انضمامه إلى الحلقة. وبعد فترة من الوقت يلاحظه المدرس ويوجه إليه بعض الكلمات عند ختام الدرس، أو قد يقوم الطالب بنفسه بزيارة المدرس، على الرغم من عدم حتمية تلك الزيارة، فضلا عن أنه ليس هناك تسجيل للغياب والحضور.

***

تحولت محاضرات الشريعة إلى مسألة نمطية إلى حد بعيد. فى الفترة ما بين القرن الخامس والقرن السابع الهجرى، أو بالأحرى فى الفترة التى أعقب الالتزام الصارم خلالها اطراد ذلك الصراع الشديد فى تعليم العالم الإسلامى، قام بعض كبار الشافعية (من أمثال أبى شجاع والرُّفيعى وكذلك النواوى) بتناول الشريعة كلها فى مؤلفاتهم الكبيرة، وتلقت الأجيال التى جاءت بعدهم تلك المؤلفات بتوقير شديد، مثل تقديرهم لمؤلفات الشافعى نفسه هو وأتباعه وتلاميذه. وهذه المؤلفات عبارة عن مقتطفات بنى المؤلفون عليها تعاليمهم الشفاهية. ويحفظ أولئك الباحثون تلك الكتب عن ظهر قلب، حتى يتسنى لهم الحصول على الأسس الآمنة التى تمكنهم من تتبع ما يجرى فى المحاضرات.

بعد ذلك قام بعض العلماء من أمثال ابن حجر والشربينى والرملى بوضع أو بتحديد شكل أدبى للتعليقات التى وردت على تلك المؤلفات والنصوص، وأضافوا إليها تعليقاتهم؛ الأمر الذى جعل من هذه الأعمال فى أيامنا هذه، أساسا

للمحـــاضرات الشافعية كلها المتعلقة بالشريعة. أما العلمـاء الذين جـاءوا بعــد ذلك، والذين كان مجالهــم أضيق من مجال من سبقــوهم، فلم يكن أمامهم ســوى تفسـير لغة وأقـــوال من سبــقوهــم، أو الاختيار من بين رأيين فى أضعف الأحوال. ويستطيع العالم إضفاء المزيد من التوضيح على حكم من الأحكام، ويأتى بعبارة أو قول جديد، من هنا يتعين على العالم فى أيامنا هذه أن يختار منهجا من المناهج الآتية:

١- أن يتلو على تلاميذه واحدا من التعليقات آنفة الذكر، مضافا إليها تفسير للمفردات بواسطة عالم سابق، وبذلك تصبح الميزة الوحيدة للتعليم الشفهى متمثلة فى النطق الصحيح والقراءة الصحيحة وإزالة بعض المصاعب الصغيرة بين الحين والآخر.

٢- جعل قراءة التعليقات تؤتى ثمارها عن طريق الشرح الشفهى الذى يستقيه المدرس من قوائم عدة للمفردات والمصطلحات.

٣ - أن يقوم المدرس بنشر مؤلَّف جديد مستخدما فيه شرح مثل هذه المصطلحات والمفردات.

المنهج الأول من هذه المناهج الثلاثة هو الأسهل والأكثر اتباعًا، ويبدو أنه يضفى المزيد من التواضع على العالم أو المدرس. أما عبد الله الزواوى فكان يفضل المنهج الثانى، وقد قام الرجل بإلقاء محاضرة عن كتاب الإقناع الذى ألفه الشربينى، وأدخل على الكتاب بعض الشروح الشفهية، التى استعد لها بدراسة بعض قوائم شرح المفردات والمصطلحات العسيرة. السير على هذا المنهج يتطلب من صاحبه تسود اللغة العربية، وبخاصة إذا كان الطلاب من تلك النوعية التى سمح لها السيد بمقاطعته عن طريق توجيه الأسئلة إليه. كان الارتجال فى الكلام السليم نحويا يشكل صعوبة أمام هؤلاء العلماء، وفى أحوال جد نادرة كان العالم الصغير يترك الحلقة قبل انتهاء موعدها بوقت قصير، ويعتذر عن ذلك مبتسما «نتوقف هنا لأنى لست متوضئًا وأود أن أكون جاهزًا للصلاة» قاصدا بذلك أنا لست مستعدا لمواصلة المحاضرة .

كان السيد البكرى واحدا من القلائل الذين اعتادوا نشر مؤلفاتهم على شكل محاضرات تنشر بعد ذلك فى كتاب ، وقد نشر الرجل أربعة مجلدات فى القاهرة فى العام ١٨٨٣ تحت عنوان "إعانات الطالبين"، وهذه المجلدات عبارة عن تجميع لقوائم شرح المفردات العسيرة وتحشيات على تعليق زين الدين المَلَبارى على كتابه المعنون "قرة العين"، والذى هو من تأليف زين الدين نفسه. هذا المؤلف لا نجد فيه حتى ولو واحداً من الألف من عنديات السيد البكرى، ولكن هذا أفضل لسمعة الرجل وأفضل أيضا لرأيه القويم، لأن الإتيان بالجديد هو من عمل الكفرة المهرطقين.

ويتباهى السيد البكرى فى تصدير الكتاب بأنه لا يهدف إلى شىء سوى الإعادة الأمينة لكلام أغلبية الفقهاء الشافعية. وإذا ما تساءلنا عن ذلك الذى حدا بذلك العالم فى مثل هذه الظروف إلى إضافة مجموعة جديدة من الشروح إلى تلك التى كانت موجودة من قبل، نجد أن الإجابة سوف تتمثل فى أن الهدف هو الوصول بتلك المواد التقليدية إلى إفهام المعاصرين لهم، عن طريق دراسة احتياجاتهم التعليمية. لكن واقع الأمر أن هؤلاء العلماء كانوا يريدون أيضا تخليد أسمائهم بوصفهم مؤلفين. وهذه الكتب تختلف من مؤلف إلى آخر من حيث التفاصيل، ومن حيث قدر صغير جدا من الأشياء الخارجية، وهذا أمر لا يسترعى انتباهنا.

***

ما علاقة ذلك القانون بالحياة الواقعية؟ الواقع أن هذا القانون هو الذى يحكم كلا من ممارسة الدين بالمعنى الضيق لهذه الكلمة والعلاقات العائلية أيضا. وكل ما عدا ذلك يخضع للشرع الذى يقتصر على المذهب فقط. كل مناحى الحياة التى يتعين السيطرة عليها منذ البداية كان التحكم فيها وإدارتها عن طريق العرف والتقاليد، أو عن طريق رغبات الحكام. ومعروف أن الجانب السياسى من الشريعة عبارة عن نقد وانتقاد للأوضاع الحقيقية فى الدول الإسلامية. قانون الحرب يعد وصفا دقيقا، بل

ومثاليا للغزوات والفتوح التى قام الإسلام بها، ويضفى مثالية على العقد الذى أبرمه (سيدنا) عمر ﷺ مع السوريين، ولو قدر لقانون الإسلام التجارى أن يطبق لأصبحت الأعمال التجارية الكبيرة أمرا مستحيلا. يضاف إلى ذلك أن القانون الجنائى ببنيته المستحيلة وتطبيقه الرائع والدقيق للعقوبات الخاصة بحقوق الله سبحانه وتعالى يؤمن مخرجا لكل المذنبين والمجرمين، ولذلك نجد في كل فصل من فصول كتب القانون (الشريعة) الفقهاء ينادون "هذا هو ما ينبغي أن يكون، أعاننا الله". واقع الأمر أن هناك بعض المتدينين الذين يطلبون فتوى فى ظل ظروف معينة، ويتصرفون طبقا لهذه الفتوى قدر المستطاع. هناك أيضا بعض الحكام المتدينين الذين يحاولون التقرب إلى العلماء وذلك عن طريق التطبيق المؤقت للشريعة على بعض العلاقات، ومع ذلك يصدق القول إن القسم الرئيسى من الشريعة لم يجرِ تطبيقه.

والعلماء هم آخر من يعترض على ذلك، وهم بدلا من الاعتراض يؤكدون على الحقيقة التى مفادها أن القوانين التي يشرحونها ويؤيدونها هى الأفضل للمجتمع، وأن هذه القوانين أفضل من قوانين معاصريهم. ونقلا عن هؤلاء العلماء، فإن ذلك تحقق ذات مرة، وكان ذلك طوال حكم الخلفاء الأربعة الذى دام ثلاثين عاما، وأن ذلك سوف يتحقق مرة أخرى عندما يجيء المهدى إلى مملكته . ويستحيل التعرف على الطابع المثالى للشريعة الشريفة تعرفا صريحا وواضحا أكثر من تعرف الحكومة التركية.

لقد تعرفت الحكومة التركية الطابع المثالى لتلك الشريعة الغراء عن طريق إنشاء أو وضع قوانين بشرية تنظم علاقات الحياة كلها، التى تقع خارج العلاقة مع الله سبحانه وتعالى، وخارج الحياة الأسرية والعائلية، والتخلص من الشرع، عن طريق قاعدة أو مبدأ أجوف يقول "المسلمون أحرار دوما فى التجائهم إلى الشرع" .

على الرغم من ذلك نجد أن الشرع يحظى بأهمية كبيرة فى الحياة الإسلامية. هذه الآمال والتطلعات الزائدة عن الحد عند العلماء تؤثر على الدوائر الدنيوية، بل

إنها سرت بين عامة الناس واخترقت صفوفهم. وعامة الناس هم العلماء نراهم عندما ينفرط العقد يلجأون إلى الشرع، ونراهم أيضا فى كل ثورة من الثورات السياسية يرتعشون ويهتزون لتوقع مجىء المهدى الذى سيعيد للشرع حقه.

***

يجب ألا يغيب عنا أننا ما زلنا فى الحرم المكى حيث ما زال العلماء فيه يفسرون الشرع ويشرحونه بصوت عال، وهم يبدأون كل محاضرة ، بل كل عمل يقومون به، بالبسملة قائلين "بسم الله الرحمن الرحيم" . الكثيرون من هؤلاء العلماء يبدأون بالتعوذ بأن يقولوا "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، ثم يلى ذلك حمد الله والصلاة (والسلام) على خاتم رسله، ثم يبدأ السواد الأعظم من العلماء الكلام بلا أية مقدمات أخرى: ويقول "مؤلف الكتاب الذى شرحناه"... ثم يبدأ بعد ذلك قراءة الجزء التالى لذلك الجزء الذى سبق التوقف عنده فى المحاضرة السابقة، ويشرح الكلام مستخدما منهجا من المناهج التى سبقت الإشارة إليها. وكما سبق أن أوضحنا، يقوم بعض العلماء بالكلام والثناء على الدراسة قيد البحث قبل أن يبدأ التعامل مع النص.

أكثر العلماء وأوفرهم جهدا وجدا هم الذين يستطيعون مواصلة الدرس مدة لا تزيد عن ساعتين. وبعد انتهاء الوقت المحدد يغلق المدرس الكتاب، ويهمس بالدعاء المعتاد، وذلك بأن يرفع عينيه إلى السماء ويديه إلى الأعلى أمام عينيه، كما لو كان يقرأ شيئا فى راحتى يديه، بعد ذلك، من باب الإشارة إلى الانتهاء من الدرس، يروح يحك يده على وجهه. وهنا ينهض التلاميذ ويتجهون صوب المكان الذى يجلس فيه، ويركعون عن يمينه ويروحون يقبلون يده اليمنى قبل أن يذهب كل واحد منهم لحال سبيله. وينهض المدرس واقفا ويتقبل قبلات التلاميذ كبار السن، إذ إن تقبل تحيتهم وهو جالس سيكون من باب الكبر والغطرسة، بل إنه قد يسحب يده من بعض التلاميذ،

وبخاصة المفضلين منهم، ويروح يقبل جباههم. وهو يبارك التلاميذ الجدد بأن يقول "بارك الله فيك" ، ويرد التلميذ على ذلك بصيغ تنم عن التأدب والتوقير والاحترام.

بدءًا من انتهاء محاضرات الصباح إلى ما بعد صلاة الظهر تتوقف طقوس الجامعة إلى حد ما، هذا يعني أن هذه الفترة قد تشهد قيام مدرس من المدرسين العاديين، دون تعريض نفسه إلى سخرية الآخرين، بإعطاء بعض الدروس لتلاميذه فى الحرم المكى، وقد يقوم الشباب بلا وقاحة أو جرأة بإعطاء شيء من معلوماتهم الكثيرة إلى رفاقهم الذين يقلون عنهم علما. بعض العلماء قد يحاضرون خلال هذه الفترة عن موضوعات لا تحظى بكثير من الدرس، فلا تخصص لها ساعات دورية أو منتظمة ، والتى منها تفسير الحديث على سبيل المثال ، ومنهج تطور الشرع، أو أن شئت فقل أصول الفقه، وفيما يتصل بأصول الفقه يجلس التلاميذ والطلاب حسب مذاهبهم، وذلك على الرغم من أن هذا الترتيب لا يجرى دون اتباعه اتباعا حرفيا، كما هى الحال فى دراسة الفقه نفسه، ولهذا السبب بصفة خاصة، نجد أن الكتب اللاحقة لا تنطوى على اختلافات كبيرة ، وإنما هناك تباين فى الآراء.

هذان الموضوعان السابقان لهما عند الناس أهمية نظرية أو تاريخية، والسبب فى ذلك أن أحدا لا يستطيع الآن تطبيق أى منهج من المناهج، وعلى مسئوليته الخاصة، ويصل إلى استنتاجات أو استخلاصات جديدة من الأحاديث. كل ما فى الأمر أن الناس يمكن أن ينظروا من بعيد ويتدبروا كيف استطاع الأجداد استخلاص ذلك الشرع الذى هو ثابت الآن فى المجتمع وبإجماع راسخ لا يتغير. المحاضرات من هذا القبيل يجرى الإعداد لها بصورة مسبقة. هذا يعنى أن المدرس يتعين عليه أن يكون قد وجه الدعوى إلى الطلبة، أو قد يكون الطلبة هم الذين وجهوا الدعوة للمدرس للحضور فى موعد محدد، وهنا يتعين المحافظة على الموعد المحدد. يجرى فى المحاضرات المنهجية استعمال بعض المؤلفات المطبوعة حديثا، والتى تكون متوافرة فى الأسواق.

الدارسون المجيدون للحديث يتعين عليهم قراءة تعليق القسطلانى الضخم على صحيح البخارى، أو تعليق النواوى على صحيح مسلم. الكثيرون ليس لديهم متسع من الوقت لقراءة هذه الدراسات الكبيرة، ويقتصرون على قراءة الكتب الصغيرة التى تحتوى على الأحاديث الأكثر فائدة وتثقيفا. أثناء مقامى فى مكة كان هناك معلم من الأحناف يدعى الشيخ عباس، كان مساعدا لمفتى الأحناف، وكان ينهى مقررا عن القسطلانى بدأه منذ أكثر من ثلاث سنوات. وكان ولد الشيخ عباس يحفظ صحيح البخارى عن ظهر قلب.

الطلاب جميعهم فى الوقت الراهن يحضرون المحاضرة ومعهم نسخ مطبوعة من التى يجرى تناولها، وقد أدى ذلك الظرف إلى تغيير أسلوب التدريس تغييراً كاملا. قبل ذلك كان المدرس يملى النص على الطلبة، وبعد ذلك يقوم الطلبة بتدوين الدرس فى هوامش النص. الأمر حاليا أصبح على العكس من ذلك، إذ يقوم الطلاب بتدوين بعض تقارير المدرس الشفهية القليلة بل إنهم قد لا يكتبون أو يدونون شيئا فى معظم الأحيان.

***

بعد صلاة الظهر يستحيل على أى إنسان الجلوس فى صحن الحرم دون أن يتعرض للشواء، عقب الانتهاء من صلاة الظهر تبدأ الحلقات أو أنصاف الحلقات فى المناطق التى يجلس المدرسون فيها أمام الجدران فى التشكيل داخل الأروقة، لدراسة ما يسمى بالعلوم الجزئية، أو إن شئت فقل علم التوحيد. والطالب قبل أن يحضر محاضرات الشرع يجب أن يكون ضليعا إلى حد ما فى الصرف وفى النحو، والمحاضرات التى تلقى فى هذين العلمين أى الصرف والنحو، لا يحضرها سوى المبتدئين.

فى مثل هذه المحاضرات نرى شبابًا من مكة ومن حضرموت ومن اليمن ... إلخ، وأيضا طلابا من أولئك الذين يعرفون اللغة العربية. والمدرسون العرب على حق فى ملاحظتهم، التى مفادها أن الطلاب العرب عندما ينهون الأجرومية يكونون هم الأفضل من الناحية النحوية من طلاب الملايو ومن طلاب الداغستان الذين درسوا الكثير من كتب النحو. ودراسة الصرف تتم عن طريق استخدام جداول تسجل فيها الصيغ الصرفية التى يجرى شرحها وتفسيرها، والأجرومية وألفية ابن مالك هما كتابا النحو المعتمدين، والطلاب الأجواد كلهم يحفظون ألفية ابن مالك عن ظهر قلب.

معرفة العلوم الجزئية الأخرى التى من قبيل الأسلوب والشعر، يمكن اكتسابها جنبا إلى جنب معرفة الشرع، ذلك على الرغم من اعتبارها من العلوم التمهيدية. وهناك علم جزئى آخر هو المنطق، كان يجرى تدريسه لبعض الطلبة المتفوقين، أيام أن كنت فى مكة، كان يدرِّسه شيخ العلماء فى فترة العصر، وقلة قليلة من هؤلاء الطلبة المتفوقين هم الذين كانوا يفهمون ما يسمعون، ولعل حرارة الجو كانت سببا فى الخمول والكسل اللذين كانا يبدوان على هؤلاء الطلبة.

فى تطبيقات علم التوحيد، واستنادا إلى موسوعة الغزالى سالفة الذكر، لا يحضر تلك التطبيقات سوى أولئك الطلاب الذين استوعبوا قدرا كافيا من الشرع الذى يعد خبز الحياة . أول مبادئ التوحيد (الذى يسمى الكلام أو أصول الدين أو التوحيد) تطبع فى أذهان الشباب قبل أن ينتهوا من دراسة الشرع. وهذا لا ينطوى على أى شىء من التناقض، والسبب فى ذلك أن فهم التوحيد لا يفترض بأى حال من الأحوال أية معرفة سابقة بالشرع. وكما هى الحال فى العلوم الجزئية (الفرعية) فإن الطلاب من مختلف المذاهب يدرسون التوحيد على يد مدرس واحد. فيما يتصل بالعقيدة فالطلبة كلهم أشاعرة، والأشعرى (المتوفى فى العام ٩٤٥ الميلادى تقريبا)(*) هو الذى أعطى

(*) أبو الحسن الأشعرى مؤسس المذهب الكلامى الإسلامى الذى ينسب إليه ويعرف باسمه، وقد انتشر هذا المذهب انتشارًا واسعًا فى العالم الإسلامى، وأصبح بمضى الوقت المذهب السائد فى مدارس أهل السنة . ويسلك الأشاعرة مسلكًا وسطًا بين أصحاب المذاهب العقلية كالمعتزلة وأصحاب المذاهب النقلية كالحنابلة . (المراجع)

العقيدة شكلها النهائى. وفقهاء كثيرون ينسبون فضل دراستهم للعقيدة إلى الأشعرى، بمعنى أنهم من الأشاعرة. وعليه يمكن للمرء أن يكون شافعى المذهب وأشعرى العقيدة، وقادريا من الناحية الصوفية.

والطلاب المتفوقون يرجعون إلى كتب العقيدة الشهيرة التى ظهرت فى القرون السابقة، حتى يتمكنوا من معرفة ذلك الذى ورد فى تلك الكتب. ولكن التدريس يقتصر بشكل عام على كُتَيِّب أو دليل واحد من الكتب المنشورة، كما هى واردة فى قائمة إصدارات باعة الكتب القاهريين، ويمكن فى هذه الإصدارات الوقوف على كثير من خلاصات العقائد الدينية عند بعض المؤلفين المعاصرين. فى مثل هذه الكتب لا توجد معالجة منظمة أو توزيع منظم للمواد، بل إن كتب العقيدة الرئيسية تفتقر إلى الوحدة، والسبب فى ذلك أن العقيدة جرى إدخالها لمعالجة أو تناول موضوع جديد عن طريق الضغط من الخارج.

وفى ضوء تعبير الغزالى البارز تصبح العقيدة دواء الروح، والآن، ونظراً لأن الأرواح لا تمرض بفعل النظام أو المنظومة، فإن العقائد الكافرة لا يجرى اختلاقها طلبا لتطوير الحقيقة تطويرا منتظما، وبناء عليه فإن العقيدة لا تفعل أكثر من مجرد صد هجوم واحد بعد الآخر من هجمات العدو. وإذا كان كل فصل من فصول كتب الفقه بمثابة عضو حىٍّ أو متن كلىٍّ من القواعد التى توجه وترشد كل خطوة يخطوها الإنسان، فإن التوحيد هو السلاح الذى يدمر الأخطاء كلها. وفى أغلب الأحيان نجد أن الملل والنحل على اختلافها بدأت تستسلم للنزعة التوحيدية من ناحية وإلى التَّفسُّخ الروحى والذهنى للإسلام من ناحية ثانية.

هذه الملل والنحل قامت بواجبها بوصفها قابلات للعقيدة، وأجبرت عقيدة الإسلام على التعبير عن نفسها بصورة أكثر وضوحا وخالية من الغموض، فيما يتصل ببعض المسائل المهمة، أكثر مما فعلت فى حركتها الخاصة بها. وعلى الرغم من أن المسلم يمكن أن يولى دراسة الملل والنحل كثيرا من اهتمامه، وهذا نادرا ما يحدث،

فإنه سوف يخرج من مثل هذه الدراسة بفكرة زائفة عن طبيعة تلك الملل والنحل، وبذلك يتساوى مع راعى الأبرشية عندما يقوم فى أيامنا هذه بدراسة الحركة التى سادت فى أيام الكنيسة المسيحية القديمة. وبذلك يكون الغزالى قد وقف على الحدود فى زمن كانت البدع لا تزال فيه خطيرة وقادرة على شن هجوم ناجح، لولا مجابهتها بمقاومة صحيحة بالمعنى الحقيقى لكلمة المقاومة. ولو قدر للغزالى أن يعيش إلى يومنا هذا لتعامل بكل تأكيد مع القسم الأكبر من الفصول التى جسدها فى منظومة العقيدة باعتبارها قليلة الأهمية من ناحية، وكان يمكن له أيضا أن يوجه جهوده من ناحية ثانية ضد الخرافات الشعبية والشعوذة الصوفية.

***

ترى قلة قليلة من الناس أن أى معنى من المعانى التى يحملها وجود الله سبحانه وتعالى يكون منفصلا عن صفاته، وأن مهرطقى المعتزلة وقعوا فى خطأ إنكار الوجود الذاتى، بل وصل بهم الأمر إلى حد إنكار هذه الصفات. والطالب الجاد يعرف أن المعتزلة كانوا عنيدين أغبياء عندما اعتبروا أن العقل البشرى معيار الحقيقة ، وتلك خرافة مريعة. ولقد شاهدت بنفسى ابتسامة سخرية ودهشة على وجوه الطلاب عندما قال لهم المدرس إن الوثنيين الجهال الذين عارضوا محمداً ﷺ كانوا يؤمنون مثل الفلاسفة بالعقل البشرى، وابتسم المدرس نفسه وهو يهز كتفيه. والطلبة يطبعون فى أذهانهم صفات الله سبحانه وتعالى العشرين، طبقًا للنظام الذى يرجع شيوعه إلى السنوسى، لكن الطلاب بعد قراءة التعليقات الواردة عن السنوسى، وبعد استماعهم إلى تلك التعليقات، يقتنعون بأنهم لم يمسوا سوى سطح ذلك البحر من الطقوس والأسرار الدينية. ترى من ذا الذى يفكر فى اختراق ذلك السطح إلى أعماق أكبر؟

الأكثر إثارة هو ذلك الانطباع الناجم عن دراسة الطلاب عقيدة القدرية، أو إن شئت فقل مسألة القضاء والقدر. هذه العقيدة تتصل اتصالاً وثيقًا بحياة الجماهير غير المتعلمة، أو بالأحرى الجماهير الأمية، وفى المدارس تحظى تلك العقيدة بدعمها علميا فى ضمائر الطلاب.

فى المقال الخاص بالرسل ووحيهم نجد أن مسلم زماننا مهتم فقط بتلك القضية القديمة التى تتعلق بما إن كان للأنبياء نصيب من هنات أو نقاط ضعف الطبيعة البشرية، وإذا لم يكن لهم نصيب من تلك الهنات، فما حدود عصمتهم؟ والطالب عندما ينشأ منذ مرحلة شبابه على الصلاة على محمد ﷺ واعتباره مخلوقًا مختارًا خاليا من الخطأ، يأخذ فى تركيز اهتمامه فقط على البراهين الدالة على تلك العظمة الفريدة لخاتم النبيين، ومن هنا يصبح طبيعيا عند مثل هذا الطالب أن يكتشف أو يتوصل إلى أن الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد ﷺ لابد وأن يكون فيهم شيء من عظمته ﷺ .

مسألة سحر البدعة وجاذبيتها تتناولها العقيدة التى مفادها أن المسيحيين واليهود يدينون بأديان يعترف بها الإسلام على أنها أديان سماوية، وأنها ألغيت بعد ذلك، وأنها لم تنقل صافية بدون خلط أو تزوير. والمفاهيم الشعبية التى لدى عامة الناس عن هذه الأديان مفاهيم غير طيبة، حتى من منظور العقيدة الإسلامية. الناس ينظرون إلى المسيحيين واليهود باعتبارهم أنواعًا من مملكة كاملة كافرة، لا تختلف عن كفر الجزيرة العربية القديم إلا من الناحية الشكلية فقط. كنت حاضرا ذات مرة، عندما كان مفتى الشافعية يتحدث إلى جمع كبير من أصحاب العلم المحدود، والذين لم يكونوا متفقهين تمامًا فى العقيدة، وعندما تطرق الحديث إلى النبيذ والنتائج المترتبة على تعاطيه قال للطلاب إن ذلك المشروب لم يكن محرما من قبل الله سبحانه وتعالى، وإن العقيدة المسيحية قبل تحريفها كان المتقون فيها يشربون النبيذ بلا إثم. ترى هل كان الدين المسيحى حقيقيا آنئذ؟ أليس النبيذ بحد ذاته من عمل الشيطان؟ طرح الطلاب

هذين السؤالين على المدرس، وشرح الشيخ الأمر لهم وهو يبتسم، وأردف قائلا إن العلماء يعرفون ذلك كله حق المعرفة(*)، لكن يكفى هؤلاء الطلاب أن يعرفوا أن الإسلام حق وغير الإسلام ليس بحق.

لم يحدث أن استرعت الكتب المقدسة التى جاءت قبل القرآن انتباها أو اهتمامًا كبيرًا فى زمن انتصار الثقافة الإسلامية، وهذه الكتب فى أيامنا هذه يقل أيضًا الاهتمام بها أو الالتفات إليها. والهجوم العنيف الذى يشنه العلاَّمة الهندى "رحمة الله" على المسيحية الإنجليزية هنا وهناك يسترعى اهتمام أصحاب الفضول فى مكة (المكرمة)، التى يعيش فيها حاليًا ذلك الرجل المسن، لكن هؤلاء الناس سرعان ما يشبعون فضولهم عندما يتبينون مدى سهولة مهمة ذلك الشيخ، عندما راح يتهم علماء اللاهوت الإنجليز بارتكاب أخطاء مريعة والوقوع فى تناقضات مخيفة.

فيما يتعلق بالعالم الآخر، نجد أن دراسة العقيدة ترفع الفضول إلى ما وراء التوقعات المألوفة فقط، وبذلك يمكن ترتيب هذه التوقعات ترتيبًا أفضل، والربط بينها على نحو أفضل أيضًا، ونجد تحرى الموعد الدقيق لنهاية الدنيا أيضًا، وهذا التحرى كان مرفوضًا فى الموروثات القديمة، وذلك التحرى من باب إشباع فضول الناس عن أحداث بعينها باعتبارها علامات ودلائل على الكارثة أو المصيبة القادمة. كل هذه الأمور لا يجرى تعلمها بأى حال من الأحوال، والسبب فى ذلك أن المدرسين أنفسهم هم الذين يحذون هذا الحذو. كان الطلاب كلهم تقريبًا فى العامين ١٨٨٤-١٨٨٥ يتابعون باهتمام كبير الأحداث التى كانت تجرى فى السودان(**)، وكانوا ينتظرون بفرح غامر مجىء

(*) رويت أحاديث صحيحة عن "الأنبذة" بمعناها اللغوى، وهى ما انتُبذ أو طُرح فيه نوع أو أكثر من الثمار أو الحبوب ليحلو به ويُشرب حلوًا، وقد يسمى "الخشاف، وقد اختلفت المذاهب الفقهية فى حله وتحريمه ومتى يكون ذلك . (التحرير)

(**) ترتبط هذه الأحداث بسقوط الخرطوم فى أيدى قوات المهدى وقتل جوردون وقيام الحركة المهدية . (المراجع)

طليعة المهدى بعد اكتمال هزيمة الإنجليز، وأن المهدى سيعبر البحر الأحمر إلى المدينة المقدسة (مكة).

وعن حكم المهدى، والإطاحة بذلك الحكم بواسطة المسيح الدجَّال، والمجىء الثانى للمسيح، وتراكم الظاهرات غير العادية فى الطبيعة والمجتمع الإنسانى، والتى تعلن اقتراب يوم البعث، وعن محاسبة الموتى فى القبر، وعن الموت الكونى والبعث، والقيامة التى تستغرق مشاهد الرعب فيها آلاف السنين، نجد أن أعظم مشاعل أو أضواء العلم تُدَرِّس عن ذلك، مع بعض الإضافات وروابط الوصل، تلك المادة الغريبة التى جمَّعها الخيال الإسلامى من موروثات مسيحية وموروثات يهودية وموروثات فارسية أيضًا. ونحن لا نجد مبررًا للاندهاش عندما نرى رجلاً مثل الغزالى، الذى كان يشكل عبقرية موسوعية بالمعايير الإسلامية، يحكى فى كتابه المعنون "الجوهرة الثمينة" عن الحياة الآخرة، أو بالأحرى حياة ما بعد الموت. وهو يحكى عن تفاصيل مجازية، هى فى رأيه تنتمى إلى الواقع، والغزالى عندما يحكى لنا عن التوازن المقدس والأشياء التى من هذا القبيل، يحذرنا من التجسيم، أو إن شئت فقل التشبيهية(*). هذا يعنى أنه ما زال يعارض بنفس القوة كل المحاولات المبذولة لتفسير هذه الأشياء تفسيرًا رمزيا. هذا النوع من التثقيف هو الذى يملأ استشراف الإسلام للعالم بكثير من الصور الخيالية الفجة غير الجمالية، أو بالأحرى يرسخ الاعتقاد فى تلك الصور الخيالية. صحيح أن بعض هذه الصور لها معنى أو دلالة أخلاقية، لكن هذا المعنى مخبأ على عمق كبير تحت هذا الهراء واللغو! ومن الصعوبة بمكان تحديد ما إذا كان الطالب يجنى شيئًا عندما يجعل هذه الخرافات العقدية تحل محل الرؤية الخيالية للعالم، تلك الرؤية التى جلبها معه منذ أيام حضانته.

(*) المقصود بالتشبيهية أو التجسيم هنا anthropomorphism خلع صفات الإنسان على الذات الإلهية. (المترجم)

ومن المعتقدات المهمة أيضًا ذلك المعتقد الشهير الذى يقبله العالم الإسلامى بلا جدل أو نقاش، وهو أن المسلم بغض النظر عن خطاياه، لابد من أن يدخل الجنة بفضل إيمانه، فى حين تظل بساتين النعيم (جنات عدن) موصدة دون غير المسلمين. الآراء المختلفة التى سادت القرون الأولى من الإسلام حول هذا الموضوع يندر الحديث عنها أو الإتيان على ذكرها. سمعت ذات مرة مدرسًا فى الحرم المكى، وذلك من باب التسلية أكثر منه تعليمًا لطلابه، وهو يدرس بدقة ويرفض إحدى المحاولات التى قام بها بعض المتصوفة القدامى فى أزمان قديمة، لتأمين دخول المتدينين غير المسلمين الجنة، استنادًا إلى القرآن، بعد التطهر. قال المدرس إن هؤلاء المتصوفة ركزوا اهتمامهم على بعض الآيات التى تحدد جهنم مقامًا للمخطئين من المسلمين وأنهم "سيخلدون فيها". إذا كانت هذه الإضافة، عند تطبيقها على المسلمين، لا تعنى أبدية الألم، فإنها ينبغى أخذها أيضًا فى حالة الكفار على أنها تعنى أن آلام الكفار سوف تنتهى بفضل رحمة الله سبحانه وتعالى. وعندما جرى الرد على هؤلاء المتصوفة بالحجة التى مفادها أن هذا الكلام وارد فى القرآن ومضاف إليه "إلى الأبد" مع الكفار وحدهم، فذلك يعنى عدم وجود أى مخرج آخر غير احتمال أن رحمة الله سبحانه وتعالى هى التى ستطفئ نار جهنم فى النهاية وتجعل الحياة محتملة هناك. ولكن المدرس يصل إلى قول "لكن نحن لن نضيع وقتنا فى الاستماع أو الإصغاء إلى المدافعين عن الكفر".

***

يقل عمل المدرسين إلى أبعد حد ممكن خلال الساعات الحارة فى فترة ما بعد صلاة الظهر. وحسب المعتاد يتعين على المدرس إلقاء ولو محاضرة واحدة كل يوم فى أضعف الأحوال، لكن هذه القاعدة لا يجرى اتباعها اتباعًا صارمًا، وقد يتغاضى المدرس عن هذه القاعدة أو يهملها إذا ما تطلب الأمر منه القيام ببعض الأعمال

الأخرى، هذا التغاضى قد يجر على المدرس لوم الرأى العام، وشيخ العلماء لا يحاط علماً بذلك إلا فى الأحوال شديدة السوء. قد يمرض المدرس شهوراً عدة، أو قد يسافر مدة عام، وقد تتوقف محاضراته لسبب أو لآخر مدة طويلة دون أن يدرى شيخ العلماء عن ذلك شيئًا.

فى حوالى الساعة الرابعة مساءً، أى بعد أداء صلاة العصر بوقت قصير، تبدأ المحاضرات ويدب النشاط فى الحرم المكي. والأعداد التى تحضر محاضرات العقيدة تكون أقل من تلك التى تحضر مثل هذه المحاضرات فى الفترة الصباحية، أما الشريعة فيقبل الطلاب على حضور محاضراتها فى فترة المساء. والمدرسون الشبان يحضرون محاضرات الشريعة فى الصباح وفى المساء عندما يقوم أحد من كبار المشايخ بإلقائها . هؤلاء المدرسون الشبان يستغلون ساعة ما بعد العصر هذه فى تلقين صغار الطلاب الفصول الخمسة الأولى من الشريعة، وهى الفصول التى تتناول واجبات الإنسان تجاه ربه. يقوم فى الوقت نفسه عدد من المدرسين المتمكنين بتدريس الآلات، أو إن شئت فقل العلوم الكبرى التى منها تفسير القرآن على سبيل المثال. ومؤلفات البيضاوى والجلالين والشروح التى عليها تعد المرشد الرئيسى فى هذا الاتجاه. وأنا بنفسى سمعت فى العام ١٨٨٥ شرح البيضاوى عندما كان يقوم به السيد الدحلان "رئيس الجامعة" الذى سبقت الإشارة إليه. كان السيد الدحلان يحمل معه دوماً كتاب البيضاوى، ويروح يفسر الكتاب مستخدمًا فى ذلك بعض الحواشى المنتقاة . وكان الرجل لا يضيف أى شىء من عندياته إلا نادراً، على الرغم من أن الرجل لم يجد أى حرج فى تفسير كلمة من الكلمات بردها إلى الكلام المكى الدارج. وغير مسموح لأى أحد لا يكون قد انتهى من تلاوة القرآن كاملاً وأتقن قواعد التجويد بحضور دروس التفسير، يضاف إلى ذلك أن من يحضرون محاضرات التفسير يكون السواد الأعظم منهم حافظًا القرآن عن ظهر قلب. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ هنا مسألة تلقى هؤلاء الطلاب لمعانى الكلام المبهم الذى يتلونه.

الناس فى مكة يستعملون بعض كلام القرآن مضربًا للأمثال من ذلك مثلاً ﴿ كُلُّ نفسٍ ذائقةُ الموْتِ ﴾ [آل عمران الآية ١٨٥] ، وهناك أيضًا آيات بعينها يُستشهد بها فى حماية الله سبحانه وتعالى لحقوق الناس، والتى تقول ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمعْرُوفٍ أَوْ سرِّحُوهُنَّ بِمعْرُوفٍ ﴾ [البقرة الآية ٢٣١] . والنساء يستشهدن بهذه الآية فى مواجهة أزواجهن المتهورين الطائشين. لكن "حفظة القرآن" عن ظهر قلب، يظل القرآن الكريم مستغلقا عليهم بسبعة أختام، إلى أن يدرسوا علم التفسير الراقى أو إلى أن يقوم واحد من أصدقائهم المتعلمين بشرح بعض المقتطفات.

والقرآن فى المجتمع الإسلامى يكاد يكون شأنه شأن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعتمدة عند الكنيسة الكاثوليكية عند الروم الكاثوليك، عندما كان يتعين على عامة الناس تلاوة جزء منه تلاوة صحيحة طبقًا للقواعد المحددة. وهذا يصدق أيضًا على العرب، الذين تبدو لهم عربية القرآن غريبة عليهم مثل غرابة اللغة اللاتينية على الإيطاليين. وقد أدت التلاوة الجيدة للقرآن، من بين ما أدت إليه، إلى المحافظة على إحساس طيب باللغة، كما ساعدت تلك التلاوة أيضا على الإبقاء على بقايا اللغة العربية القديمة فى الكلام العامى الحديث. ونحن الأوروبيين نجد القرآن (الكريم) عونًا لنا على فهم اللغة العامية، والعكس صحيح، إلى حد أننا لا نفهم أسباب حدوث ذلك. ونحن يغيب عنا، عندما نقرأ القرآن طلبًا لمعناه، أن المسلم منذ طفولته معتاد على أخذ كلام الله سبحانه وتعالى على أن له طبيعة مختلفة تمامًا عن طبيعة كلام البشر، وذلك على الرغم من التشابه بين الطبيعتين. والطفل يلاحظ كيف أن الناس عندما يبدأون فى تلاوة كلام الله سبحانه وتعالى تتغير قسماتهم وأصواتهم، وينطقون الأصوات ويقفون وقفات لا يمكن أن تحدث مطلقًا بغير هذا الطريق، وأن الطفل عندما يلتحق بالمدرسة سرعان ما يبدأ فى محاكاة هذه الطريقة وتقليدها.

تقول المصادر الشرعية إننا عندما نحتفى بالذكر يتعين علينا دومًا فهم معنى الصيغ التى نستعملها، فى حين إن مجرد تلاوة القرآن يجزى الله سبحانه

وتعالى من يقوم بها، وهذا الجزاء لا علاقة له بالفهم. وقد أورد "سبرنجر" مثلاً يوضح به عن المرأة الإنجليزية المحتشمة، التى تستمع إلى مقتطفات من الإنجيل دون أن تعرف معناها، وما يجره ذلك عليها من ذنب عظيم. الفارق الوحيد يتمثل فى أن العامية العربية تبتعد كثيرا عن لغة القرآن أكثر من ابتعاد اللغة الإنجليزية العامية عن لغة الإنجيل؛ الأمر الذى يفرض القرآن على المسلم باعتباره أصلا لا يمكن فهمه إلا عن طريق دراسات لا يتطلبها الشرع أو العقيدة. القرآن المتلو ليس سوى موسيقى تمجد الله سبحانه وتعالى، ولها تأثير غامض وسحرى وغريب على القلب. ومسألة مناداة الغزالى وحثه الناس على التقليل من التلاوة والإكثار من الفهم عفَّى عليها الزمن. والمتعلمون وعامة الناس يرون أن دراسة التفسير وتلاوة القرآن فرعان مختلفان وغير مترابطين، وما يمكن تعلمه من التفسير للاستفادة به فى العقيدة والحياة يمكن تعلمه أيضا وبطريقة أسهل من الشريعة ومن التوحيد.

***

فى ضوء خبرة أحد كبار علماء المغرب، والذى حضر إلى مكة، نجد أن مسألة تفسير القرآن تفسيراً حرفيا تعد أمرا خطيرا. كان الرجل يتيه بنفسه تماما، وراح يغضب المكيين بولعه الشديد بتصحيح الأخطاء اللغوية التى يرتكبها المكيون. ومع ذلك، فقد أتيحت للمكيين فرصة عندما أحيا الرجل تفسيراً غير لائق، لم يسمع عنه أحد فى مكة منذ زمن بعيد، وبخاصة الآية (٢: ٢٢٣) ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة الآية ٢٢٣]. وطردوا ذلك المغربى إلى المدينة (المنورة) التى عاش فيها آمنا فترة من الزمن، لكنه عندما كان يراقب، مراقبة رجل متعلم من أحد أسطح المدينة، مبارزةً كانت تدور بين البدو من ناحية والجنود الأتراك من ناحية أخرى، أغضب الرجل أحد المشاركين فى تلك المبارزة، عندما خطَّأه فى تلاوته لآية كان يطبقها على المشهد الذى أمامهم. ورد عليه ذلك المشارك الغاضب قائلا "نعم، قراءتك صحيحة طبقا لمدرسة

قوم لوط" وهنا أعاد ذلك الحادث إلى ذاكرة الرجل ذكريات الحادث الأليم الذى وقع له فى مكة ؛ مما حتم عليه مغادرة الحجاز.

***

من بعد غروب الشمس إلى صلاة العشاء لا يسمح الوقت المتاح سوى بمحاضرة واحدة يجرى إلقاؤها على أضواء الفوانيس التى يحضرها الطلاب معهم، فى حين يتم وضع فانوس كبير بالقرب من الحشية التى يجلس عليها المدرس، والذى يقوم بوضع هذا الفانوس الكبير واحد من سدنة الحرم المكى، نظرا لعدم كفاية الضوء الصادر عن الفوانيس المعلقة فى المسجد.

هذه المحاضرات شأنها شأن المحاضرات الصباحية تكون عن الشريعة، كما أن هناك بضع محاضرات قليلة أيضا عن أصول الفقه. فى هذه المحاضرات يرى الناظر كثيرا من الوجوه البدوية التى يجلس أصحابها بين الطلاب. هؤلاء البدو من سماسرة بيع الإبل من قبيلة حرب (وأهل مكة يطلقون على هؤلاء السماسرة اسم "المخَرِّجين") ومعهم أبناؤهم من الأحياء الجنوبية الغربية النائية فى مكة. وهؤلاء السماسرة يجيئون إلى مكة لأداء صلاة المغرب، ويبقون فيها طلبا لاكتساب شىء من المعرفة التى تدعم المعرفة الأولية التى يكتسبونها من مساجدهم الصغيرة. كل حى من أحياء مكة فيه مسجد صغير، ولكن الأتقياء الورعين من بين هؤلاء البدو يذهبون إلى الحرم المكى لأداء صلاة المغرب، وهم يتميزون بالذكاء والفطنة والسلوك الحسن، ويسعدون عندما يتعلمون شيئا جديداً حتى ولو جاء من صبية صغار. وعيب هؤلاء البدو الوحيد أنهم يصيحون كما لو كانوا ينادون شخصا من مسافة بعيدة.

يدخل وقت صلاة العشاء بعد ساعة ونصف الساعة من غروب الشمس، وبعد أداء الصلاة تطفأ أنوار الفوانيس وتنفض حلقات الطلاب. بعد صلاة العشاء تبدأ

المحاضرات مرة ثانية فى أفنية الحرم وأجزائه المختلفة، لكن هذه المحاضرات لا تكون عن الشريعة وإنما عن الموضوعات التى يجرى معالجتها فى فترة العصر، وبالتحديد عن الآلات(*) والعقيدة.

وفى مثل هذه المحاضرات يظهر بعض المدرسين غير المرتبطين بالحرم، ويروحون ينقلون ما عندهم من حكمة، مستخدمين فى ذلك إشارات وإيماءات كما لو كانوا قد تعلموا هذه الحكمة بالأمس فقط. بعد انتهاء هذه المحاضرات يجرى إفراغ أفنية الحرم من الناس بصورة متدرجة، ونرى هنا أو هناك شخصا نائما على سجادة الصلاة أو فوق سجاد الحرم. قلة قليلة من الورعين الأتقياء هم الذين يصلون النوافل والقيام، أو يتأكدون من عدم خلو المطاف حول الكعبة من البشر، على الرغم من أنه طبقا للحديث الشريف والموروث فإن الملائكة والجن لا يفشلون [لا يفتُرون] مطلقا فى الطواف حول الكعبة رغم نسيان البشر لها.

فى يومى الثلاثاء والجمعة، لا يجرى الالتزام بالقواعد السائبة التى تحكم حياة تلك الجامعة فى الأيام الأخرى، وفى صباح الجمعة طوال العام ١٨٨٤-١٨٨٥ كان الشيخ سعيد بابسيل، ذلك القزم الحضرمى، يخصص نفسه لأفراد الجنس اللطيف اللاتى يرغبن فى التعليم. أما بنات ونساء الطبقات الراقية فلا يجرى تلقينهن منه أية معرفة فى أى فرع من الفروع، لأنهن كن يحصلن على هذه المعلومات والمعارف من مصادر مختلفة (الشريعة والتوحيد والحديث، ومن الأدب أيضا). فى أيام أخر كان الشيخ نفسه يلقى دروسا على النساء بعد صلاة العصر، وكانت تلك الدروس على شكل مواعظ. وعلى العكس من ذلك، لم تكن هناك قراءة فى صباح الجمعة، لأن الشرع يدعو المؤمنين كلهم إلى الذهاب إلى المسجد، وأن يبكروا بالذهاب لكى يحتلوا أماكنهم استعدادا لأداء صلاة الجمعة، وإلى أن يحين موعد إقامة الصلاة يشغل المؤمنون

(*) العلوم الدينية والفقهية والتى من بينها تفسير القرآن الكريم على سبيل المثال. (المراجع)

أنفسهم بقراءة القرآن أو صلاة النوافل أو تلاوة الذكر. بعد أداء صلاة الجمعة تلقى بعض المحاضرات فى الحرم، وفى يوم الثلاثاء تلقى بعض المحاضرات فى الصباح. ومحاضرات الثلاثاء والجمعة، على العكس من الأيام الأخرى، لا علاقة لها بأية محاضرة من المحاضرات التى سبق إلقاؤها، ويقل عدد الطلبة الذين يحضرون مثل هذه المحاضرات، كما أن الموضوعات التى تدور حولها هذه المحاضرات ليست من الموضوعات المحددة لها ساعات بعينها فى أيام أخر. المحاضرات التى من هذا القبيل تكون محاضرات آلاتية (عن النحو والأوزان الشعرية والمنطق والبلاغة ... إلخ)، وقد تكون هذه المحاضرات خاصة فى بعض الأحيان بالحساب، ومن بعده تفسير القرآن والحديث الشريف، وأخيرا يجىء ذلك الموضوع الذى لم نتطرق إليه حتى الآن وهو التصوف .

***

غريب حقا أن يكون موضوع التصوف الذى يتعامل مع العلاقات المباشرة بين الإنسان والله فى خلفية الصورة، وليس فى بؤرتها. لكن واقع الأمر أن موضوعات الغزالى الكبيرة (الشريعة والعقيدة والتصوف) لا يمكن فصلها بعضها عن البعض. معروف أن المؤلفات الشرعية الكبيرة كلها تحتوى على مقطوعات ومقتطفات من العقيدة، وأن هذه المقطوعات والمقتطفات تفسر نصوصا بعينها، أو توجد صلة أو علامة بين هذه النصوص ونصوص سابقة. يضاف إلى ذلك أن مدرسى الشريعة المحدثين ينتهزون الفرص التى يحثُّون من خلالها على أن مراعاة واتباع مبادئهم لا ميزة لها أمام قاضى السماء ، اللهم إلا إذا كانت العلاقة بين التقى وبين الله يجرى التعبير عنها من خلال هذا الاتباع. يزاد عن ذلك أن كتب العقيدة يجرى مزجها أو توشيحها بشىء من التصوف. والمعروف أن معرفة الشريعة والعقيدة أمر ضرورى فى المؤلفات الصوفية.

هذا المزج لم يتحقق دون تنازلات أو امتيازات. وكتب الشريعة تُدين من منطلق أسْحَقَ وأعْلَى، واستناداً إلى الفتاوى الشرعية، ذلك الذى سمحت به وأقرته. يزاد على ذلك أن كثيرا من المتصوفين، من ناحية أخرى، لا يراودهم الشك فى تزكية هذه الحيلة أو تلك التى يأتى بها العلماء. وبهذه الطريقة أصبحت مسألة تناول أو معالجة التصوف منفصلا أمرًا غير ضرورى عند السواد الأعظم من البشر، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الموروثات القديمة الواردة فى المختارات الشرعية تعرب عن الاستياء من إفراط الصوفيين، وفى ضوء هذه الموروثات القديمة يصبح التصوف نوعًا من الهرطقة، إلا إذا كان التصوف مسبوقا بتعلم الشريعة.

من هنا جرى، إلى حد ما، لفت انتباه الإخوانيات الصوفية. هناك أيضا حديث آخر يحظى باحترام شرعي كبير مفاده أن دراسة الشريعة دون تصوف لا جدوى لها ولا نفع منها. الطلاب مازالوا يرون فى تلك الأحاديث القديمة التى سبقت الإشارة إليها نذيرا مضادا للدخول غير المدروس فى الأسرار الدينية، والذى يمكن أن يضلل الشخص غير الخبير أو المتمرس.

وبناء على ما سبق فإن المحاضرات التى تلقى عن التصوف فى أيام الجمع وأيام الثلاثاء بصفة خاصة، بل أيضا فى الأيام الأُخر التى تلقى فيها محاضرات عن التصوف، لا تكون الشريعة هى الموضوع الوحيد فى البرنامج، كما يحضر هذه المحاضرات أيضا كبار السن والطلاب المتقدمون فى العلم. والكتب التى يجرى تدريسها فى مثل هذه المحاضرات غالبا ما تكون مقتطفات أو مختارات من مؤلفات الغزالى، ومن يقرأ كتاب الغزالى "إحياء علوم الدين" يندر أن يرى كلمة جديدة واحدة فى المحاضرات التى يلقيها المدرسون هنا فى الحرم المكى. كتاب "إحياء علوم الدين" هذا رفضه رئيس الجامعة الذى سبقت الإشارة إليه فى عام ١٨٨٤-١٨٨٥ بعد صلاة الجمعة، وراح يحضر معه فى الأيام الأُخر مختارات أخرى من عنده أمر بطبعها. والحقيقة بالغة الأهمية فى إسلام هذه الأيام أن كلام الغزالى الذى يسرى –

على العكس من كلام الآخرين - فى قلوب المتقين فى الحرم المكى، أصبح يعد كلاما شديد الغموض. على العموم، إذا كان هناك شىء يتعذر على الفهم فى مؤلف الغزالى العظيم، فإن ذلك الشىء يتمثل فى عبارات المتصوفين الشائعة التى حمّلها المؤلف معنى أخلاقيا قدر المستطاع. من هنا يمكن القول إن التعليم الأخلاقى الراقى الذى يتعلمه الإنسان، والذى يتعين عليه أن يستخدم فيه مختلف العلوم وسيلة للوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، حتى يمكن لتحقيق الشريعة أن تكون نتيجة طبيعية للحب، هذا التعليم الأخلاقى الراقى نفسه انحط إلى مجرد فرع يتراوغ الناس فيه كما يتراوغون فى قضايا الإفتاء أو العقيدة .

يبدو أن هناك شكلية مميتة أو قاتلة، يكون التمسك بها فى الإسلام تمسكا بتلك الطبيعة التى يجرى طردها هباء من الباب الأمامى، لتنسل وتجىء ثانية وعلى الفور من الباب الخلفى. من هنا فإن الغزالى لم يعرف أن الفكرة متناهية الصغر، أو بالأحرى الأشكال الفاصلة، تصبح عديمة الأهمية بعيدا عن المادة. هذا يعنى أن الغزالى حاول عن طريق بعض الأفكار الأخلاقية بث الحياة فى القوانين السياسية والاجتماعية والطقوسية السارية فى الأزمان كلها، كما حاول أيضا بث الحياة فى الصيغ العقدية والسياقات السرية الغامضة للتصوف، وبذلك يكون الغزالى قد فتح وبلا أدنى شك الطريق أمام أرواح المواهب الأخلاقية لتنشد الخلاص فى الإسلام القويم؛ على العموم فإن الإسلام تمثل فيما بعد فى تلك المبادئ الأخلاقية بوصفها صيغا جديدة.

بصرف النظر عن الكنوز التى اختزنها الغزالى للأذهان الفريدة المحلقة، فإن الميل إلى الاتجاه الأخلاقى فى تصوف الغزالى اقتضى مزايا مؤكدة للإسلام. وفى زمن الغزالى كان التصوف قد أصبحت له قوة كبيرة منذ زمن بعيد. يضاف إلى ذلك أن فكرة أن الإنسان بوسعه أن يحيا حياة ترضى الله سبحانه وتعالى، حتى فى غياب التصوف، لم يعد لها ما يؤيدها أو يمثلها فى الدوائر الحاكمة. وفى الأفكار التى جاءت

بعد ذلك، نجد أن محمداً ﷺ هو وأفضـل صحابته، أو بالأحرى الخلفاء الأربعة الأول، وكذلك الزعماء المتقون فى العصور كلها، كانوا جميعهم متصوفين.

كانت المسألة المتبقية تدور حول ما إذا كان يمكن تحقيق أو عدم تحقيق الاتصال الشخصى الحميم بالله سبحانه وتعالى بطريق آخر غير الطرق التى تسلكها تلك الإخوانيات، وأن هذه الطرق التى يمهدها المرشدون لا يمكن للناس السير فيها دون أن يكون هناك ورثة لهم. لو حظيت هذه المسألة برد سلبى لأصبح لرؤساء الإخوانيات نفوذ على المجتمع الإسلامى بكامله؛ الأمر الذى كان يمكن أن ينزل الخطر بممثلى المعرفة المقدسة. هؤلاء الممثلون لا يمكن أن يرفعوا أى زعم أكثر من أنهم ليسوا سوى مفسرين للكتب الشرعية، التى سمح لهم أن يضيفوا إليها، فى حين كان الإرشاد الشخصى من قبل المرشد الروحى هو "الكل فى الكل" فى الإخوانيات، كما أصبحت الكلمة المكتوبة لحقيقة التصوف هذه تسرى فى الإخوانيات كما لو كانت غطاء أو ثوبا يقبل التعديل، وليس من العجب فى شىء أن يتخذ فقهاء الشريعة وفقهاء العقيدة فى زمن الغزالى موقفا حاسدا معاديا من مشايخ الإخوانيات الصوفية.

تحاشى الغزالى تقديم إجابة محددة وغير غامضة عن هذا السؤال، وأقر بقيمة الإخوانيات واعترف بها، لكنه فى الوقت نفسه اتفق مع أهل العلم على أن هناك كثيراً من العُصَافة فى حبوب التصوف. ويوجه الغزالى أشد إنذاراته توكيدا إلى الإخوانيات الزائفة أو المنحطة. وتمشيا مع روح العصر، ومن سوء الطالع، أن أعطى الغزالى تنازل المرشد الشخصى على طريق التصوف بوصفه أمرا ضروريا، لكن الرجل لم يفصح أو يقل فى أى موضع من المواضع إن خدمات شيخ من الشيوخ أو إخوانية من الإخوانيات يتعين الحصول عليها. ونجد الغزالى يصر على أهمية الاختيار الواعى والحريص قبل أن يعهد الإنسان بأغلى كنوزه إلى المرشد.

الرشد أو القوامة، أو بالأحرى الاتباع الدقيق للشرع ومعه الصفات الأخلاقية، بمثابة المعايير، ولا غنى لفقهاء العقيدة ومفسرى الشريعة عن هذه المعايير. الغزالى

يوافق ويقر الطرق الإخوانية المعتادة، ويوافق على الابتهالات بالحركات العنيفة، ويوافق أيضًا على ممارسة الأذكار بالغناء والرقص، وبالتدريبات المنومة والتدريبات التى تثير الحذر، مادامت هذه الأمور يجرى استعمالها فقط فى زرع وتأصيل انفعالات أخلاقية دينية، على ألا ينظر إلى هذه الأمور بحد ذاتها بوصفها عباءة لستر البذاءة وقلة الأخلاق.

وبذلك يكون الغزالى قد مهد الطريق أمام تطهير وتنقية الانفعالات والعواطف الدينية، وفصلها عن الخلط البربرى الهمجى. معروف أن التصوف الأخلاقى الهادئ الخالى من الصراخ ومن تلوى الجسم - على الرغم من أنه هو الذى أدى إلى الأصولية - يعزى إلى الغزالى، ذلك الأستاذ الكبير. هناك بعض المؤلفين الصوفيين الآخرين الشهيرين، الذين يؤثرون البقاء فى الظلام ويشغلون أنفسهم باختراق أشياء مخبأة عن الدنيا كلها، ويجدون متعة فى اللغة التى لا تفهمها المخلوقات الدنيوية، المؤلفون الذين من هذا القبيل مثل ابن عربى والشعرانى، موجودون فى الحرم المكى ولهم قيمتهم أيضا، لكنهم أقل قبولا من صاحب كتاب "إحياء علوم الدين".

***

لم يكن بوسع الغزالى أو من جاءوا بعده وقف تلك الإخوانيات، حتى وإن فكروا فى ذلك، وسبب ذلك أن تلك الإخوانيات كانت متعمقة الجذور فى حياة الناس الدينية، يزاد على ذلك أن مسألة السيطرة الفاعلة على تلك الإخوانيات كانت تعترضها مصاعب كثيرة. وإذا ما استثنينا حال الشيخ النقشبندى الذى سبقت الإشارة إليه، والذى تحكم حركة الشيخ فيه اعتبارات شخصية أو الإخوان أنفسهم، فى مسألة الرجوع إلى ممثلى الشريعة، نجد أنه لم تكن هناك وسائل لمراقبة الحياة الداخلية فى الإخوانية بصورة منتظمة، مع ذلك نجد أن المتصوفين الشعبيين إذا ما أخطأوا بأى شكل من الأشكال فى حق الاستقامة الدينية، فإن من يهاجمون أولئك المتصوفين يعولون كثيرًا على

المقاومة المتشددة من جانب الطبقات الدنيا. يضاف إلى ذلك، أن أهل العلم المهمين أعربوا فى أحيان كثيرة عن أن هناك بعض الكلام وأيضا بعض الأعمال التى تدينها العامة، كان لها معنى أعلى عند الصوفيين المتنورين، ويجب عدم إدانتها حتى ولو بأقل القليل. إذن كيف يمكن، فى ظل مثل هذه الظروف، تمييز هذا من ذاك بدون تدخل من قبل سلطة الحكومة العرفية!؟

كان كبار رجال العلم قد أعربوا مرارا فى مؤلفاتهم عن عدم موافقتهم على الإخوانيات الدينية المألوفة بشكلها المضحك فى مسألة صنع المعجزات، ومواكبها التى تغص بالضوضاء والجلبة، وبدراويشها الشحاذين فى وسط آسيا، ومشايخها الذين يعملون لا لشيء سوى تجميع عدد من الأتباع والمريدين حولهم. ومع ذلك، يندر أن يغامر أحد بالاعتراض على أى أحد من هؤلاء الزعماء العميان الذين يقودون عميانا أيضا، عندما يكون أولئك المريدون متجمعين حوله. يضاف إلى ذلك أن حال الإسلام السيئ حاليا فى كل مكان، والذى يستسلم لعملية التقسيم إلى مقاطعات، يجعل العلماء يميلون إلى تفضيل هؤلاء الذين يستطيعون - على الرغم من جهلهم - بث حماس الغضب والاستياء غيرة منهم على القضية المقدسة.

هناك نظرية لا تزال سائدة مفادها أن دراسة التصوف يمكن أن تصبح مثمرة بعد قدر كاف من دراسة الشريعة والعقيدة. ومع ذلك، ليس هناك مانع من إقامة الذكر فى أى مكان شكرًا لله وتكريما لمحمد ﷺ . حلقات الذكر هذه تقام فى التجمعات الاجتماعية، وبخاصة فى الأماكن التى تسمح فيها موارد الأسرة بإقامة وليمة غداء، يضاف إلى ذلك أن القرآن يثنى على الذكر فى كثير من المواضع، وكلمة ذكر تعنى "تذكر اسم الله سبحانه وتعالى". وإذا كانت تجربة الصوفيين تثبت أن جماهير عدة من أولئك الذين لم يتلقوا تعليما كافيا، يجرى رفعهم إلى الحياة الأعلى عن طريق التدريبات التى تقدمها الإخوانيات الصوفية، ألايصبح لكل مؤمن حقيقى أن يفرح ويبتهج لهذه الأفكار؟

ومشيخه الإخوانية الصوفية عندما تلاحظ بوضوح مسألة استغلال الجماهير المؤمنة بالخرافات، فإن المرشدين الزائفين يجرى انتقادهم انتقاداً لاذعًا من قبل المرشدين المتعلمين، وهؤلاء المرشدون المتعلمون يحرصون أيضا على ملاحظة ما إذا كان المريدون حريصين على أداء واجباتهم الدينية قبل انضمامهم إلى الإخوانية، وبخاصة إذا كان هؤلاء المريدون قد أهملوا تلك الواجبات فى حيواتهم السابقة. الواقع أن الإخوانيات المهمة كلها تحاول الوفاء بهذا المطلب. والبركة العجيبة التى تصيب المريدين الجدد، والتى تنتقل إليهم من خلال شيوخ الإخوانيات قادمة من المؤسسين الأصليين، وهى بمثابة الطعم من تلك الجاذبية، والمريدون لا يمكنهم الحصول على هذه البركة إلا إذا انتظمت حيواتهم إلى حد ما مع الشريعة المقدسة.

وبعد التحول المبدئى إلى الطريقة يبدأ المريدون التدريبات الخاصة بها، ويتعلم هؤلاء المريدون من فم المعلم بعض الصيغ البسيطة التى يتعين عليهم النطق بها فى مواقف بعينها بعد أداء صلاة أو أكثر من الصلوات المفروضة. هؤلاء المريدون يؤدون أذكارا خاصة تحت قيادة شيخ الطريقة أو أحد مساعديه فى حلقة الإخوان، مع تحريك الجسم تحريكا شديد الانتظام. ويجرى كل أسبوع استقبال الشيخ على انفراد فى خلوته، ويتسلمون منه مهمة أو تكليفا خاصا صوفى الطابع. بعض المريدين لا يتعدون هذه الأمور الخارجية أو السطحية، لكنهم عندما يعودون إلى منازلهم بعد بضعة أشهر من هذا النوع من التثقيف يكونون قد تحولوا إلى أتقياء مسلمين، والسبب فى ذلك أنهم يرتبطون باستمرارية أداء الأذكار، ومن ثم الارتباط بأداء الصلوات المطلوبة، التى دونها يستحيل أن تأتى بحركة الأذكار. يتعين أيضا على هؤلاء المريدين، حيثما ذهبوا، الانضمام إلى الإخوان الذين يقومون بأعمال التقوى والصلاح، ويطيعون خلفاء شيوخهم، ويساعدون بعضهم بعضاً إذا ما تطلب الأمر ذلك.

المريدون الأعلى ثقافة، هم وأولئك الذين يعيشون فترة طويلة من الزمن تحت الإشراف المباشر لشيخ الطريقة أو خليفة من خلفائه، يغوصون إلى أعماق أكبر فى

أسرار الإخوانية. هذه الفئة من المريدين تكون علاقاتهم أوثق بشيخ الطريقة، ثم يدخلون فى العهد فى نهاية المطاف. واعتبارا من حصولهم على العهد لا يستطيعون القيام بأى أمر من الأمور المهمة دون إذن أو موافقة من شيخ الطريقة، وفى كل مرة يفترقون فيها عن الشيخ يعطيهم قواعد محددة للحياة، أو يحيلهم إلى خلفائه فى المكان الذى سيذهبون إليه. ولكن حتى أولئك الذين يقفون فى الأحواش الخارجية للتصوف، يتعين عليهم فى كثير من الإخوانيات أن يأخذوا عهود الطاعة على أن يكونوا "فى يد الشيوخ مثل الجثمان فى يد المُغسِّل". السواد الأعظم من الجمعيات أو الإخوانيات تهيئ الفرصة لتعلم الذكر المعتاد الخاص بالإخوانية، هو والاحتفالات المصاحبة له، حتى يتمكن المريدون، دون فرض المزيد من الالتزامات، من أن يكونوا أعضاء فى إخوانيات عدة. وبناء عليه، فإن الإخوان يقولون فى أغلب الأحيان إن مسألة من أين يبدأ الإنسان "الطريق" لا تهم، إذ إن المهم هو البركة، فى حين إن مسألة اتخاذ القرار بالدخول فى الرباط مع الشيخ هى التى تحدد مصير الإنسان إلى الأبد، كما أن مسألة خرق هذا الوعد، أو النكوث فى العهد، تجر على صاحبها لعنة الله، ولعنة الشيوخ كلهم، ولعنة الأنبياء والملائكة.

من الناحية الشكلية يستطيع أى إنسان تبين الأهمية الكبيرة للطرق الصوفية فى الحياة الدينية فى مكة، وفى الأراضى الإسلامية كلها التى تستمد غذاءها الروحى من المدينة المقدسة. وعلى منحدر جبل أبو قبيس لا تقع زاوية السنوسيين وحدهم، وإنما هناك أيضا مؤسسة أو منشأة كبيرة من منشآت الطريقة النقشبندية، والذى أقام هذه المنشأة هو الشيخ سليمان، وهو يقيم فى هذه المنشأة ومعه كثير من الإخوة، وقد تحمل الإخوان الذين دخلوا فى الطريقة بفضل الشيخ سليمان تكاليف تلك المنشأة كاملة. يزاد على ذلك أن إسهامات أولئك الإخوان؛ هى التى تمكن الشيخ سليمان من تقديم المأكل والملبس للمحتاجين من الإخوان الأمر الذى يقوى من نفوذ الشيخ سليمان ويزيد من تقدير الإخوان له واحترامهم إياه. وفى أيام احتفالات الطريقة، وكذلك فى المناسبات

الأخرى، يستقبل الشيخ سليمان فى هذه المنشأة الإخوان كلهم الذين يتصادف وجودهم فى مكة ويضيفهم ضيافة سخية. والزوايا الصغيرة التى تستخدم هنا فى لقاء إخوان الطريقة واجتماعاتهم كثيرة العدد، أما الشيوخ الآخرون من الطريقة النقشبندية والطريقة القادرية والطريقة الشاذلية ... إلخ، فيشغلون أو يسكنون منازل فسيحة فيها غرف عدة، كل واحدة منها مملوءة لآخرها بالهدايا والعطايا التى تصلهم من المريدين. وخلفاء أو مساعدو هؤلاء الشيوخ يعيشون فى أجزاء من بيوت هؤلاء الشيوخ، أو قد تكون لهم منازل مستقلة بهم يكون الإنفاق عليها من صندوق الطريقة.

طوابق الذكر، والوجبات الأسبوعية، والتصدق المالى على الفقراء من الإخوان، وكذلك الولائم التى تقام بعد انقضاء حَوْل على مؤسس الطريقة، وكذلك الولائم التى تقام بعد انقضاء أربعين يوما على الوفاة، هذه المناسبات كلها تكون هنا فى منزل شيخ الطريقة. وفى هذا المنزل أيضا تعقد اجتماعات الإخوانيات التى ليس لها مقرات، وتنعقد هذه الاجتماعات فى الأغلب الأعم بعد أداء الصلاة فى المسجد. وفى معظم الأحيان يسمع أحد من الناس أخا من الإخوان وهو يطرح على أخيه فى الطريقة السؤال التالى: "لماذا لم تكن موجوداً صباح اليوم ضمن حلقة الإخوان؟".

وإذا ما نحينا جانبا مسارات الشيوخ التى تستهدف أمورا عملية لا أكثر ولا أقل، نجد أن دراسة مؤلفات الطرق الصوفية تكاد تكون مقصورة على نطاق صغير جدا، أما فيما يتصل بالمعارف الأخرى فإن كثيرا من الشيوخ لا يجد حرجا عندما يقول إنه لا يعرف منها سوى ما هو مطلوب منه فى اتباع الطريقة. لكنهم فى ذات الوقت يلفتون انتباه الناس إلى أن الصلة عندهم بين الحياة والمعرفة وثيقة جدا، بل أكثر جدية من الصلة التى بين المعرفة والحياة عند المتعلمين وأصحاب العلم، نظرا لأن هؤلاء المتعلمين لا يمارسون ما يقولون، فى حين إن الموروث الشريف (الحديث) يقول لنا ويعلمنا أن المعرفة بلا عمل شيء ضار تماماً.

على الجانب الآخر نجد أن المؤلفين الأوروبيين يخطئون خطأ جسيما عندما يؤكدون أن هيئة العلماء تعادى الطرق الصوفية بشكل عام. هذا يعنى أن هؤلاء المؤلفين الأوروبيين – وهذا صحيح – يبعدون كثيرا عندما يظنون أن الإخوانيات فى أيامنا هذه تبتعد كثيرا عن تحقيق الأهداف التى وضعها لها مؤسسوها. لكن هؤلاء المؤلفين يعرفون من الخبرة، ومن الكلام الحكيم الصادر عن النبى ﷺ، أن هذه الدنيا يتعين عليها إلى يوم القيامة أن تقع فى أخطاء دينية، ومن ثم فإنهم لا يمكن لهم أن يلوموا الشيوخ أو الإخوان بسبب الفارق بين الأنموذج والواقع فى مجال التصوف، وذلك عندما يرون أن الأحوال ليست على ما يرام فى حلقاتهم. ومن هنا نرى أن النجاح الخارق الذى حققته الطرق الصوفية يمسك على هؤلاء المؤلفين الأوروبيين ألبابهم، ويحظى بامتنانهم وإعجابهم.

والذى لا شك فيه أن النفوذ الساحق أو الكاسح لبعض مشايخ الطرق الصوفية يستثير من حين لآخر حقد بعض العلماء وحسدهم، لكن الحالات التى من هذا القبيل تكاد تكون نادرة وليس لها تأثير على قيمة الإخوانيات أو قدرها. الأهم من ذلك هو تلك الحقيقة التى مفادها أن قسما كبيراً من العلماء الذين يقدرون تقديرا عاليا فى مكة، هم فى الوقت نفسه خلفاء الطرق الصوفية، وعلى سبيل المثال نجد الشيخ عبد الحميد الداغستانى، ومريديه حبيب الله ومحمد صالح، ومحمد صالح هذا هو والد عبد الله الزواوى. واقع الأمر أن هؤلاء العلماء الصوفيين يتوقعون المزيد من المعرفة من المريدين والأتباع، ومن الطبيعى أن تكون هذه المعرفة أكثر من معرفة الشيوخ أنفسهم، والذين يكونون متفقهين بقدر معلوم فى كل من العقيدة والشريعة، ولكن المريدين والأتباع لا يلومون الشيوخ على تركيزهم على الأخلاقيات أكثر من العلم. المهمة التى من ذلك القبيل هى التى يؤديها السنوسيون بين بدو قبيلة حرب، لا تزال بغيضة إلى نفوس هؤلاء الناس على الرغم من النجاح الظاهرى الذى تحققه هذه المهمة بين هؤلاء البدو.

واقع الأمر أن العلماء يستاءون عندما يسمح تلاميذهم ومريدوهم لأنفسهم، وهم صغار وقبل أن يكتسبوا قدراً معلوما من المعرفة، بالدخول فى أسرار طريقة من الطرق، نظرا لأن ذلك الدخول يمكن أن يؤثر على دراساتهم. والعلماء يقولون فى هذا الصدد "الطرق الصوفية مفتوحة أمامك بطبيعة الحال، لكنك ينبغى أن تكون قد قطعت طريق التعلم الطويل. وما يمكن أن تصل إليه الآن موجود أمامك، أو بالأحرى موجود أمامك فى المسجد، والمسجد هو المكان الذى يستهل الغزالى به التصوف، وينصح به الباحثين عن الخلاص، كما يمكنك أن تختار لنفسك معالجا شخصيا للأرواح وكاهن اعتراف خاليًا من الأخطار". ومع ذلك فإن القسم الأكبر من الطرق الصوفية يقوم بمهمته المفيدة فى بعض الحلقات الأخرى التى سَحبت منها رحمةُ الله سبحانه وتعالى فرصةَ الثقافة.

وقفنا بما فيه الكفاية على مدى تأثير تأصيل ثالوث المعرفة المقدسة (الشريعة والعقيدة والتصوف) على المساهمة فى المحافظة على الأنموذج الدينى السياسى للإسلام، ووقفنا أيضا على مدى تقوية البيئة المكية للآراء والآمال الإسلامية التى تمخضت عنها هذه الدراسة. يزيد على ذلك أن حقيقة وجود طلاب من مشارب دينية مختلفة يعيشون سويا تزكى الوعى بالانتشار الواسع لدين هؤلاء الطلاب، وتبعد عن هؤلاء الطلاب الفكرة الوافدة عن طريق كثير من الشباب الذين يأتون من أراضٍ يحكمها الفرنجة، والتى مفادها أن المسلمين محكوم عليهم بالاستعباد إلى أجل غير مسمى. زد على ذلك أن ممثلى الدول الكبرى فى جدة لا يستطيعون الدخول إلى مكة، زيادة على أن حياة هؤلاء الممثلين فى المدينة الساحلية (الميناء) تجعل الناس ينظرون إليهم من بعد على أنهم سكان من عرق أدنى جرى التسامح معهم والصفح عنهم. صحيح أنهم قصفوا جدة ذات مرة بالقنابل، لكنهم إذا ما حاولوا الهجوم على مكة فإن السلطان – لا بل الله سبحانه وتعالى – سوف يصليهم ببرقه من السماء. ومع ذلك فإن الدول الكبرى لا تعرف شيئا عن ذلك، بل إن نذر المهدى على الجانب الآخر من البحر الأحمر سوف تريهم ماذا يفعلون.

نحن جميعا هنا فى مكة رعايا لسلطان الإسلام، ولا تجرؤ الحملة الصليبية الكريهة على الرق أن تعلن هنا عن نفسها، ولنا أن نتخيل كيف يقرأ الناس هنا فصول الحرب المقدسة، وفصول العهد مع الكفار، وإلغاء الوحى اليهودى والوحى المسيحى، ومدى تأثير هذه القراءة على أذهان الناس هنا فى مكة وفى بعض مساجد الهند. صحيح أن مكة هى مركز العالم، وصحيح أيضا أن انتصارات المهدى المنتظر تبدأ من مكة، ومعروف أيضا أن السواد الأعظم من الطلاب، وكذلك السواد الأعظم من الطلاب المجدين، هم من الغرباء الذين يقيمون فى مكة سنوات عدة، ثم ينتشرون بعد ذلك إلى بلادهم لينشروا المعرفة والآراء التى تعلموها فى المسجد الحرام.

التغذية التى تتمثلها الطبقات الأدنى العريضة أكثر فعالية وتأثيرا من التغذية التى تأتى من فوق إلى الطبقات الإنسانية الروحية الأعلى، والطرق الصوفية هى التى تشق طريقها فى تلك الطبقات الدنيا العريضة. هذه الطرق الصوفية عندما تصر على الحد الأدنى من الواجبات الشرعية والعقائد تثير لدى مريديها الوعى بالتضامن مع المجتمع العالمى. هذه الطرق الصوفية تفسح المجال أمام العواطف والانفعالات البشرية، عن طريق مجموعة متباينة من الأساليب المخدرة والمسكرة، كما تتحكم هذه الطرق الصوفية تحكما كبيرا فى تلك العواطف والانفعالات.

التنظيم العريق لتلك الطرق الصوفية هو الذى يمكن بعض القادة من الاستفادة من الحركات المناسبة فى تحريك الجماهير. هذه الطرق الصوفية لا تفشل فى العمل أيضا على المستويات الأعلى، لأن لها إخوانًا ومعجبين بها فى عالم الرسميات وبين المثقفين من البشر. ويتعين احترام وتقدير خصوصيات هؤلاء المريدين، ولكن هذا النوع من التقدير والاحترام له مراحل كثيرة مختلفة التنظيم، يضاف إلى ذلك أن كبار كهنة الاعتراف لديهم، فى نطاق الحدود الواسعة، ملكات تقدير الميول الطبيعية للأفراد. زيادة على أن كبار السياسيين يتحرقون شوقا إلى بركة الشيوخ الذين يكون تحت تصرفهم تلك الأعداد الهائلة من المريدين.

التصوف شأنه شأن الجامعة فى مكة، يحصل على مريديه من الخارج، والقسم الأكبر من هؤلاء المريدين يأتون من أهل الملايو ومن الأتراك والهنود. هذه المستعمرات والمستوطنات البشرية يجرى العمل عليها من أعلى ومن أسفل خلال معنى إسلامى عالمى. يضاف إلى ذلك أن الحجاج الذين يمضون أشهراً قلائل فى مكة يجرى تجنيدهم بأعداد كبيرة للطرق الصوفية، على أمل تقويم تثقيفهم الصوفى المعيب فى مرحلة لاحقة، لأنهم بعد انضمامهم إلى الطرق الصوفية يكونون واقعين فى مجال التأثيرات السليمة.

***

من هنا يمكن أن نتطرق إلى الإساءات التى يمكن أن تلحق بالطرق الصوفية المحترمة. كل من يشغل منصبا من المناصب فى إخوانية (طريقة) من الإخوانيات، يحصل فى المناسبات على عطايا أو هبات لنفسه أو للإخوانية، ويكون حراً فى التصرف فى تلك العطايا والهدايا. من هنا يجرى إغراء أولئك المريدين بأن يعيروا المسائل المادية اهتماما بالغا، وأن يستغلوا نفوذهم الكبير لتحقيق أهداف أخرى غير قيادة المريدين على طريق معرفة الشريعة والإبقاء على جذوة المثل الإسلامية فى قلوبهم.

معروف أن السلسلة، أو بالأحرى المحتد الروحى الكريم لشيخ الطريقة، هو الذى يثبت ويوضح انتقال العقيدة العجيبة الفريدة من مؤسس الطريقة عن طريق المشافهة، أو بالأحرى من فم إلى آخر. وكما أن السلالة النسبية الدنيوية لنبيل من النبلاء هى التى تثبت أن دم السلف النبيل ينساب فى عروقه، فإن السلسلة هى التى تثبت أن حاملها الحق يحمل فى داخله روحانية المؤسس الشريف، وبذلك يتحول أو يصبح الشيخ بمثابة البوق الذى تخرج من خلاله السعادة المقيمة للإخوانية. روحانية

هذا الأخير تسرى أيضا من خلال سلسلة من واحد من صحابة النبى ﷺ ، وبالتالى يمكن اقتفاء أثر تلك الروحانية من خلال تدخل محمد ﷺ إلى أن تصل إلى الله سبحانه وتعالى.

مسألة أن الإنسان عندما يذكر الله آلاف المرات بلا انقطاع تجعله يستحضر الله فى قلبه، هى واحدة من الأفكار المنومة التى تصاحب الأفكار التى تقوم بها بعض الإخوانيات، ولما كانت تلك المفاهيم العالية بعيدة المنال على المبتدئ فإن الأمر هنا يحتم التوسط أو الوساطة، هذا يعنى أن ذلك المبتدئ يتعين تركه فى البداية لكى يتمثل فى نفسه ذلك الشكل الذى يكون عليه شيخه داخل قلبه، ويستطيع هذا المبتدئ عن طريق تكرار التدريبات رفع نفسه فى اتجاه الله عن طريق روحانية الشيخ. وهنا يظهر من جديد ذلك الشيخ الحتمى، الذى يتعين فى الحقيقة وصفه بأنه خليفة الله سبحانه وتعالى للإخوان الذين يترأسهم.

***

ختاما لكلامنا، سوف نتطرق بملاحظاتنا عن الحياة العلمية فى مكة إلى الانحرافات التى تحدث بين الحين والآخر، ويبتعد بها أصحابها عن الطريق التعليمى المعتاد فى الحرم المكى. ونحن إذا ما نحينا جانبا بعض المخالفات الناشئة عن رغبات وأهواء الطلاب والمدرسين أو عن العلاقات المتبادلة بينهم، نجد أن النظام الذى تناولناه بالوصف هو النظام السارى بلا مصاعب أو معوقات طوال الأشهر السبعة الأولى من العام الهجرى. وبعد انتصاف الشهر السابع (أى شهر رجب) يحدد المدرسون ساعة من ساعات اليوم، ولتكن الساعة التالية لغروب الشمس، للكلام خلالها عن التاريخ التنويرى لمعراج محمد ﷺ ، الذى تصادف ذكراه السنوية اليوم السابع والعشرين من شهر رجب. وعلى الشاكلة نفسها، ولكن على مستوى أقل يجرى التعامل مع الأيام

الأولى من الشهر الثالث (أى شهر ربيع الأول) المصادف لمولد محمد ﷺ . فى مثل هذه المناسبة لا تتوقف المحاضرات الدورية نظرا لوجود موالد عدة فى مكة كل يوم.

وفى الشهر الثامن (أى شهر شعبان) تنتقل المحاضرات إلى الوراء خلف المصلين طلبا لرضا الله سبحانه وتعالى . يضاف إلى ذلك أن المدرسين جميعهم يبدأون فى الأيام الأولى من شهر شعبان فى تلاوة سورة الصيام(*) وذلك من باب استعدادهم أنفسهم وتلاميذهم لتنفيذ الأحكام الشرعية تنفيذا دقيقا مع دخول رمضان، شهر الصوم. وتبدأ المحاضرات الخاصة بالصوم بدلا من المحاضرات المعتادة الأخرى، ومع ذلك يجرى تخصيص الساعات التالية لصلاة الفجر للموضوع نفسه الذى بدأ تناوله اعتباراً من أول العام، ألا وهو موضوع الشريعة. ويستمر الحال على هذا المنوال إلى ما قبل ظهور هلال الشهر الجديد، وعندها تتوقف تلاوة سورة الصوم(*). وفى السواد الأعظم من برامج المحاضرات الأخرى يتوقف المدرسون عند النقاط التى يكونون قد وصلوا إليها، نظرا لعدم تحديد مهام معينة من ناحية، ولأن كل موضوع من الموضوعات يمكن تناوله بسهولة ويسر من ناحية ثانية.

بدخول"الشيخ رمضان" ينتهى الفصل الدراسى الجامعى تماما، وهذا يعنى أن كل عام ليس فيه سوى فصل دراسى واحد. ومع ذلك، وعلى الرغم من الراحة الرسمية، نجد العلماء (المدرسين) مثلما ينشرون المعرفة فى يومى الثلاثاء والجمعة، يقومون أيضًا بالتعليم فى أشهر العطلة حسب مقتضيات الظروف.

فى شهر الصوم يمكن للعلماء (المدرسين) إلقاء المحاضرات بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العصر، والسبب فى ذلك أن الجميع ينامون بعد صلاة الظهر، أما فترة المغرب فتكون مخصصة للطعام والأكل، أما فى أثناء الليل فيكون المسجد كله مشغولا

(*) ليست هناك سورة فى القرآن باسم سورة الصيام أو الصوم، ولعل المقصود بعض الآيات القرآنية المتعلقة بصوم رمضان . (المراجع)

بصلاة رمضان (أى صلاة التراويح). فى الساعتين الوحيدتين المتبقيتين يلقى المدرسون المجتهدون محاضراتهم، وبخاصة المحاضرات الخاصة بالعقيدة والتوحيد. وإذا ما طلب الطلاب إلقاء محاضرات عن النحو والقواعد فإن المحاضرات التى تكون من هذا القبيل يجرى إلقاؤها بعد صلاة العصر. وفى العام ١٨٨٥ الميلادى واصل مفتى الشافعية محاضراته التى كان يلقيها عن تفسير القرآن، كما واصل الشيخ عباس قراءته لصحيح البخارى. وفى الحلقات أو الأروقة التى تضم عددا صغيرا من الطلاب قد يقوم بعض الشيوخ بمد الوقت إلى ما قبيل موعد الإفطار.

بعد انتهاء أيام العيد الأولى من شهر شوال تبدأ أذهان المكيين فى الانشغال تدريجيا بعيد الحج الذى سيحل عليهم بعد شهرين. يضاف إلى ذلك أن تلك القلة القليلة من المدرسين الذين ينجحون خلال ساعة واحدة من النهار فى العثور على مكان لهم يلقون فيه محاضراتهم على حلقاتهم، يكونون هم أنفسهم مشغولين بإعداد تلاميذهم لأداء حج سليم عن طريق فصل عن الحج من أحد الكتب الدينية، أو من واحد من كتيبات "مناسك الحج" الكثيرة، على الشاكلة نفسها التى كانت تحدث فى شهر شعبان استعدادا للصوم. بعض هذه القراءات الخاصة بالحج تستمر إلى الشهر الحادى عشر (أى شهر ذى القعدة) لكن فى ذلك الوقت تتزايد الأعمال الخاصة بالحج؛ الأمر الذى يؤدى إلى إيقاف النشاط الأكاديمى وتأجيل استئناف المحاضرات إلى أن ينتصف الشهر الأول من العام التالى.

***

أتينا بالفعل على ذكر المحاضرات التى يلقيها محاضرون أجانب مستخدمين فى ذلك لغاتهم الأم، وفى منازلهم الخاصة من أجل نقل المعرفة إلى إخوانهم المواطنين. محاضرات هؤلاء المدرسين تسير فى خط موازٍ لمحاضرات الحرم المكى، فيما يتصل

بالتقسيم الزمنى وتقسيم الموضوعات. وهذه ليست مسألة عشوائية، نظرا لأن الذى يحدد ساعات الدرس مواعيد الصلاة. يضاف إلى ذلك أن تسلسل الموضوعات مرتبط بأهمية تلك الموضوعات من وجهة نظر الإسلام فى الوقت الراهن، وعلى سبيل المثال، فإن الاستعداد للصوم والحج أمر مطلوب للطلاب داخل الحرم وخارجه، وهذا الاستعداد يتوقف فى شهر رجب للانشغال بذكرى الإسراء والمعراج الأسطورية(*) .

ومن واقع سجلات مكة التاريخية(**) التى لا تلقى بالاً لتاريخ الثقافة، يمكن أن نخلص فى شيء من اليقين إلى أن حياة العلم والتعلم التى تكون من قبيل تلك الحياة التى تناولناها بالوصف كانت فى حركة دائمة فى المدينة منذ قرون مضت. وإذا كان مراقب ممتاز مثل بوركهارت لا يقول شيئا عن ذلك(٨)، ويحاول إبراز افتقار المكيين إلى الثقافة والمعرفة بشكل صارخ(٩)، فإن ما قدمناه هنا يعد برهانا جديدا وحديثا على أن مكة تظهر للحاج وللمقيم فى أضواء مختلفة تماما(١٠). وسوف أضيف هنا تعليقا واحداً على عادة من العادات التى تناولها بوركهارت بالوصف.

(*) هذا هو رأى المؤلف عن الإسراء والمعراج . (المراجع)

(**) "حوليات مكة التاريخية" للقاضى قطب الدين الحنفى . (المراجع)

(٨) راجع كتاب بوركهارت المعنون "ترحال فى الجزيرة العربية" الجزء الأول ص٢٧ وما بعدها وص ٣٣٠ .

(٩) المرجع السابق، الجزء الأول ص ٣٦٩ . وحتى فى زمن بوركهارت كانت وجهة النظر هذه خاطئة أيضا، وهذا هو ما أثبتته حوليات مكة التاريخية الحديثة، وقد أنكر بوركهارت وجود مثل هذه الحوليات.

(١٠) فى موضع آخر (الجزء الأول ص ٤٠) يقول بوركهارت "أنا لا يمكننى وصف حفلات الزواج فى مكة، لأنى لم أحضر أيا من تلك الاحتفالات". يضاف إلى ذلك أن المعطيات القليلة التى يوردها بعد ذلك عن الولائم المحلية، التى يأتى على ذكرها بعد هذه الكلمات، ليست صحيحة من نواحٍ كثيرة. كان بوسعى أن أقدم فى كتابى كثيرا من الأخطاء التى وقع فيها بوركهارت، لكنى آمل أن يصدقنى القارئ عندما أقول: إنى قرأت كتاب بوركهارت قراءة دقيقة، إلى حد أنى لم أستطع وضع كتابى إلا بعد أن انتهيت من قراءة كتاب بوركهارت، وإنه لشرف كبير لى أن أكتشف خطأ فى كتاب سلف عظيم وممتاز.

يقول الرجل: فى يوم الجمعة، وبعد أداء صلاة الجمعة، اعتاد بعض المدرسين الأتراك أن يتجمعوا فى المسجد الحرام، ومن حول كل واحد منهم حلقة من إخوانه المواطنين، ليلقوا على هؤلاء المواطنين محاضرات بلغتهم الأم (أى اللغة التركية). وأثناء تلقى تقبيل التفرق قام أولئك المريدون بتقديم هدية نقدية لهؤلاء المدرسين.

هذه الرواية تصدق إلى يومنا هذا، لكن ينبغى أن أضيف ما يلى: أثناء عطلة الجامعة، أى عندما يمتلئ المسجد الحرام بالحجاج الأتراك، يقوم الأتراك المقيمون باستنزاف مواطنيهم بهذه الطريقة. هؤلاء المدرسون من أحط الطبقات، نظرا لأن المدرسين الآخرين يحرصون على أن لا يعملوا فى الحرم أثناء الموسم التعليمى. وعندما بدأ فى شهر شوال من العام ١٣٠٢ الهجرى (الموافق للعام ١٨٨٥ الميلادى) الظهور الأسبوعى لهؤلاء المدرسين للمرة الأولى، قال لى أحد المكيين وهو يشير إلى هؤلاء المدرسين بإصبعه السبابة "ها هى الضفادع قادمة"، وعندما فسر ذلك المكى هذه المقولة بقوله "إن نقيق الضفادع لا يحدث إلا بعد سقوط الأمطار (أى مجيء الحجاج) وأن هذا المطر يكون لمصلحتهم بطبيعة الحال". هؤلاء الناس ينظر البشر إليهم على أنهم دخلاء ومتطفلون على سوق المعرفة.

على امتداد كل قرن من قرون الإسلام كانت مكة تأوى بين سكانها علماء، أو بالأحرى مدرسين مهمين، كما أن العلوم الدينية تلاقى أحسن "ورشها" منذ قرون طويلة. لكن فى الوقت الراهن، ولأول مرة، هناك مجموعة من الأسباب المتضافرة هى التى جعلت من مكة شيئا فريدا، بل مركزًا فريدا للتعليم فى العالم الإسلامى كله.

القسم الرابع

الجاوة

نشر ضابط مهندس مصرى، من الذين كانوا يرافقون قوافل الحج المصرية والمحمل بصفة رسمية، تقريرين عن خبراته وتجاربه فى هذا الشأن[1]. فى التقرير الذى نشره ذلك الضابط المهندس فى العام ١٨٨٦ الميلادى نجد الرجل يصف قسم السكان النازحين إلى مكة على النحو التالى: "هم خليط من الجاوة والهنود والمصريين والأتراك والتكارنة واليمنيين والبدو، وبضاعتهم الوحيدة هى ماء زمزم، والحناء وخشب الأراك (الذى يستخدم فى عمل السواك) الذى يستخدمه المسلمون مثل فرشاة الأسنان. القسم الأكبر من التجار فى مكة من الأجانب، بعض منهم يعمل فى مجال إقراض النقود نظير فائدة "ربح"، أى أنهم يقرضون العشرة ويحصلون عليها اثنى عشر أو أكثر، أو قد يستغلون الحجاج إلى أبعد حد ممكن، وبخاصة الجاوة، لأنهم أجانب وأثرياء فى ذات الوقت" .

من الواضح أن هذا المصرى المتعلم تعليما شبه أوروبى لم يلاحظ تلك الظروف إلا من الناحية الشكلية فقط، ومع ذلك نجد الرجل يضع الجاوة بلا معنى، فى مقدمة القائمة. تحت هذا المسمى[2] يدرج الرجل كل الأفراد المنتمين إلى العرق الذى ينتمى إليه سكان شبه جزيرة الملايو بأوسع معانى هذا المصطلح. هذا يعنى أن هذا المصطلح يغطى الحدود الجغرافية الممتدة ربما من سيام وملقا إلى غينيا الجديدة. والمسلمون وغير المسلمين يطلق عليهم فى مكة اسم الجاوة، لكن المعنى الحرفى هو أنهم

(١) راجع ص ١١٠ ، الهامش .

(٢) كل الأماكن التى يسكنها هؤلاء الناس تسمى بلا استثناء بلاد الجاوة، ومفرد الجاوة "جواه" Djawah (والجمع "جوات" Djawat) وأيضا "جاوى" Jawi (وجمعها جاوة Jawah أو جاويين Jawiyyin).

جميعا عبيد. الذين يسافرون من مكة يتصلون فى بعض الأحيان بالوثنيين من الجاوة أو بالجاوة الذين يدينون بالهندوكية. هناك فئة من الجاوة، خارج النطاق الجغرافى الذى سبقت الإشارة إليه، لكنهم أدوا مؤخرا فريضة الحج بصورة منتظمة. هؤلاء الجاوة يأتون من رأس الرجاء الصالح. هذا يعنى أن هؤلاء الناس من أصل شبه جزيرة الملايو، وأن الهولنديين هم الذين جلبوهم إلى رأس الرجاء الصالح، وفيهم نسبة قليلة من الدم الهولندى.

وقد تسربت بعض الكلمات الجاوية إلى اللغة الهولندية، وبخاصة اللهجة السائدة بين البوير[٣]. على الجانب الآخر، نجد أن هذه الفئة من الجاوة استبدلت بلغتها الأم اللغة الهولندية السائدة فى رأس الرجاء الصالح، الأمر الذى أدى بطبيعة الحال إلى الاحتفاظ بتعبيرات كثيرة أُخذت عن لغة الملايو. وإذا ما أخذنا بعين اعتبارنا الأسماء الهولندية الحقيقية لكثير من أهل الكاف (على حد تسمية الناس لهم هنا فى مكة) نجد أنفسنا نميل إلى تصديق ما مفاده أن الهولنديين المنحطين جرى إدخالهم فى دين هؤلاء الجاوة بواسطة الجاوة أنفسهم، ووجود نوعيات كثيرة من هؤلاء السكان يؤكد صدق هذه المقولة. ربما يكون منع هؤلاء الهولنديين المنحطين من الاختلاط بالمسلمين الآخرين، هو السبب وراء تمسكهم بدينهم، لولا مجىء إخوان لهم فى الدين من خارج البلاد. أما من أين ومتى جاء هؤلاء الإخوان فى الدين فهذا ما لا أعرفه، ربما كان ذلك راجعا إلى أن مساجد مستعمرة رأس الرجاء الصالح جرى دعمها خلال الأعوام العشرين الأخيرة أكثر من ذى قبل، وربما كان ذلك راجعا أيضا إلى تكبد المشاق فى تعليم الدين، يزاد على ذلك أن بعض أهل الكاف هؤلاء يسافرون كل عام إلى مكة لأداء فريضة الحج.

استناداً إلى أصل هذه الفئة من الجاوة (جاوة رأس الرجاء الصالح) حدد المكيون لهم "شيخا" يكون من بين مرشدى الجاوة، لكن التاريخ الخاص لهذه الفئة أعطاهم

---

(٣) على سبيل المثال كلمة bayang= banyak بمعنى "كثير"، وكلمة amper= ampir بمعنى تقريباً.

مكانة أقرب من المكانة التى للجاوة الأصليين. ونظرا لأن السواد الأعظم من حجاج "رأس الرجاء الصالح" من الأغنياء الأثرياء، وقد استرعى ذلك الثراء انتباه وتعاطف كثير من المواطنين المكيين؛ فقد سافر بعض الأتراك وبعض المكيين إلى المقاطعة الإسلامية التى اكتشفت حديثا، ولم يفشلوا فى محاولاتهم التى بذلوها من أجل إدخال سكان هذه المقاطعة فى المذهب الحنفى بدلا من المذهب الشافعى الذى كانوا عليه، فمسألة إحياء تراثهم الإسلامى الذى نسوه تعد فى حد ذاتها بعثًا للإسلام.

فى القسطنطينية لقيت طباعة كتاب عن الشريعة الإسلامية باللغة الهولندية السائدة فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح، وباستخدام الحروف العربية، لقيت تشجيعا كبيرا من الدوائر العالية. هذا يعنى أن هذه الدوائر رأت فى الإخوان الجدد فى الطرف الجنوبى من إفريقيا نجاحا للحركة الإسلامية. كان شيخ المؤذنين فى مكة الذى كان يعاملنى معاملة ودية ينتمى إلى تلك الفئة من المكيين الذين كانوا يستغلون الحجاج بطريق غير مباشر، على الرغم من أنهم لم يكونوا من مشايخ الحجاج. شيخ المؤذنين هذا كان أيضا ممن يهتمون بأهل كاف، بل وصل به الحال إلى الاهتمام بلغتهم. جاءنى شيخ المؤذنين هذا ذات يوم ومعه قصاصات ورقية مكتوب عليها بعض الجمل العربية ومقابل هذه الجمل بلغة" رأس الرجاء الصالح" مدونة بأحرف عربية. كان شيخ المؤذنين يود أن يعرف تلك اللهجة من لهجات لغة الجاوة، التى تشبه لغة "رأس الرجاء الصالح". عرض الرجل علىَّ بلغة "أفريكانية" جيدة الجملة التى تقول: hoe gaat het nog met jou ? (والتى معناها "كيف حالك؟")[٤] وعرض على أيضا الجملة التى تقول drink jij zwart thee of vaal thee? (والتى معناها "هل ستشرب شايا أسود أو شايا أخضر؟). والحجاج الهولنديون عندما يصلون إلى مكة يغيرون أسماءهم إلى أسماء عربية.

---

(٤) راجع الكتاب المعنون "الكلام المكى".

أهل مستعمرة الكاب الأصليون لا يكادون يتصلون بالجاوة، ومن الآن فصاعداً سوف يسترعى هؤلاء السكان انتباهنا. ونحن فى هذا الصدد يجب أن يكون لنا عذرنا فى عدم النظر إلى المستوطنات أو الجاليات الأجنبية فى مكة، من وجهة نظر هولندية، والسبب فى ذلك أن المؤلف المصرى الذى سبقت الإشارة إليه والاقتباس عنه لم يركز على الجاوة بلا مبرر. وليس فى أى جزء من أجزاء العالم الإسلامى تناسب بين عدد السكان والحجاج شبيه بذلك التناسب الموجود بين سكان أرخبيل الملايو أو حتى يقترب منه. وإذا كان الشحاذون ينتقلون من الهند البريطانية بأعداد كبيرة، فإن بلاد الجاوة لا يأتى منها إلى مكة فقير واحد، اللهم إلا إذا كان خادما أو مرافقا لثرى من أثرياء الجاوة. السواد الأعظم من الجاوة ليسوا من المنافقين أو المتكبرين أو أولئك الذين يتيهون عجبا بأنفسهم. وهنا نلاحظ أن الموروثات الوطنية القديمة فى الجزر والولايات تنمحى أمام وعى هؤلاء السكان بالإسلام، وهؤلاء السكان يرون أن حضارتهم الحقيقية بدأت عندما دخلوا فى الإسلام، وذلك على الرغم من عظمة وعراقة أصلهم الوطنى أو الهندى السابق.

فى كثير من مناطق الملايو يروى الناس موروثا أسطوريا أو شبه أسطورى عن دخول الإسلام إلى بلاد الملايو. يرى أصحاب الموروث الأسطورى أن الدخول فى الإسلام حدث بالفعل فى زمن محمد ﷺ وأن ذلك كان بأوامر منه. واستناداً إلى الموروث شبه الأسطورى فالمفترض أن الأمراء دخلوا فى الدين الصحيح بفضل بعض الصالحين، أو شىء من هذا القبيل، الذين جاءوا من الغرب. ومؤرخو الحوليات يعزون لقب السلطان الذى يحمله أمراء الملايو إلى أصل مكى. هذا يعنى أن الشريف الكبير، أو بالأحرى "راجا مكة"، هو الذى منحهم هذه الألقاب بناء على التماسات تقدموا بها.

الكثير من الموروثات الأسطورية القديمة فى الملايو تنطوى على أفكار خيالية عن سلطان الروم (تركيا)، وعلى الرغم من أن سكان الملايو الحاليين يعرفون سلطان إستانبول حق المعرفة، فإن مكة عند هؤلاء السكان لا تزال هى مركز الإسلام. وعلى النقيض من الشعوب التى من قبيل المصريين والأتراك والفرس والهنود الذين لعبوا

دورا كبيرا على المسرح الإسلامى، نجد الجاوة يتحركون بتواضع وتحفظ كما لو كانوا يودون أن يثبتوا مع كل خطوة يخطونها قناعتهم بأنهم لم يجنوا بعد، مع كل خطوة يخطونها، نصيبهم من بركات الإسلام.

هؤلاء الجاوة كانوا أكثر مما هم عليه الآن، نظرا لأنهم ليسوا متكبرين ولا منافقين، ومن السهولة بمكان أن يتخيل الإنسان مدى تنافس المكيين فيما بينهم على مزايا ذلك العرق من البشر الذين يسهل استغلالهم. والمؤسف أنه لا المكيون ولا الجاوة أنفسهم أعطونا أى شيء عن تطورات العلاقات بين مكة والشرق الأقصى. ومن السهولة بمكان أن نتخيل أن السفن التجارية فى العقود الأخيرة أدت إلى زيادة حركة النقل فيما بينهما زيادة كبيرة. فى الماضى كان أهل الملايو يعهدون بأنفسهم إلى ربابنة ملاحين من العرب، وهؤلاء الربابنة كانوا يضعون أعدادا كبيرة من المسافرين فى سفنهم فى كل من آتشيه وسنغافورة ... إلخ، ولم يكن أولئك الربابنة يلقون بالا للأوبئة التى يمكن أن تنتشر بين المسافرين أثناء الرحلة ووفاة الكثيرين منهم. أما الآن فإن أهل الملايو يسافرون على بواخر هولندية أو إنجليزية تبحر من موانئ باتافيا(*) أو بادانج أو من سنغافورة، وتتجه مباشرة إلى جدة أو إلى جزر الحجر الصحى التى يبدأ فيها الاستغلال. وترتيبات الحجر الصحى هذه لا هدف لها سوى الاستغلال، هذا الحجر الصحى منظم تنظيما عجيبا، يهيئ النجاح للسلطات الطبية فى القسطنطينية إقناع السلطات الطبية العليا فى أوروبا (التى لا تعرف شيئا عن أحوال الشرق الحقيقية، التى ستظل مجهولة لهم على الرغم من زيارة الأساطيل) بجدوى نظامهم فى ابتزاز الأموال. كل من رأى هذه الأمور عن قرب يصاب باليأس لهذه الحقيقة، وعلى الرغم من أن الحجاج بدأوا ينظرون إلى مسألة الحجر الصحى هذه باعتبارها شرطا

(*) كانت باتافيا مركز الحكم الهولندى فى جزر الهند الشرقية . (المراجع)

من شروط الحج فإن هذا يعنى أنه من المصلحة العامة أن يبقى الحجاج قبل دخولهم إلى جدة فى معزل لبعض الوقت على جزيرة غير صحية(٥)، يدفعون فيها كل شيء مضاعفا، وحتى رسوم الحجر الصحى تدفع مضاعفة أيضا، ويخرجون من هذه الجزيرة وقد أصابتهم الحمى. هذا يعنى أن رحلة الحج حاليا أسهل بكثير مما كانت عليه قبل ثلاثين عاما.

***

تُنتقد الحكومة الهولندية انتقاداً ظالما لحمايتها الشركات الملاحية الهولندية إلى أبعد حد ممكن من ناحية، ولتشجيعها من ناحية أخرى زيادة عدد الحجاج الذين يخشاهم الناس ويخافونهم نتيجة تشددهم(٦)، وسوف نتناول هذه النتيجة بالمزيد من التفصيل فيما بعد. وهنا سنركز على أن النتيجة الوحيدة التى سوف تترتب على سحب حكومتنا لتأييدها ودعمها، هى أن سفننا سوف تخرج من حركة النقل، ولكن عدد الحجاج سوف يستمر فى الزيادة ولن ينخفض.

على الجانب الآخر نجد أن المكيين لا يضيعون أية فرصة من الفرص التى تتيح لهم استغلال المزايا التى يمكن لهم الحصول عليها من بلاد الجاوة. و"الشيوخ" يوفدون مندوبيهم(٧) فى الاتجاهات كلها لتجنيد أكبر عدد من الحجاج للموسم القادم، وهؤلاء المندوبون يَعِدُون الحجاج المطلعين على الأحوال بسبب كثرة تنقلاتهم، بمكافآت سخية

(٥) فى مكة يتكلم أهل الجالية القادمة من الملايو عن مرض يدعى "مرض كمران " Kamran ، وهم يقولون إن هذا المرض ينتقل إليهم من جزيرة كمران جراء الاحتيال الذى يتخذ الحجر الصحى وسيلة له. ويمكن مراجعة مجلة verhandlung der gesellschaft fur التى تصدر فى برلين، المجلد الرابع عشر، صفحة ١٤٦-١٤٧ .

(٦) نحن نستعمل مصطلح حجاج hajjs وهو من لغة الملايو، لنميز به الحجاج الذين يجيئون من بلاد الجاوة.

(٧) فى جاوة يخلط السكان بين هؤلاء المندوبين وبين الشيوخ.

عن كل حاج يرسلونه إليهم، وعندما يغادر هؤلاء المندوبون يطلبون إلى الحجاج أن يرسلوا لهم أكبر عدد ممكن من مواطنيهم. يضاف إلى ذلك، أن الأشراف والسادة يسافرون إلى الخارج، هم وبعض الشيبة(*) فى قليل من الأحيان، كما يسافر أيضا مشايخ الطرق الصوفية والعلماء إلى بلاد الجاوة التى تفتح أبوابها أمامهم ولهم. ولما كان كل هؤلاء يحلُّون ضيوفا على الأمراء والحكام، فقد كانوا يحيون حياة ناعمة مؤقتة، يعودون بعدها بغنائم كبيرة وسخية، أو قد يحصلون بصفتهم مندوبين للعلماء والصوفيين على هدايا وفيرة وكبيرة من الطبقة الشعبية الدنيا، نظير تمتع هذه الطبقة بعلم هؤلاء الناس أو بسبب الزيارات السريعة التى يقوم بها هؤلاء المكيون، الذين يتبرك الجاوة بدعائهم ودعواتهم.

والحكومة الهولندية إذا لم تضع الصعاب والعراقيل فى وجه هذه المشروعات فإن أرخبيل الملايو يمكن أن يتحول إلى طوفان بفعل هؤلاء المغامرين. وسوف تترتب على ذلك بعض الأخطار السياسية، لأنه على الرغم من أن الهدف الرئيسى لهؤلاء القراصنة الدينيين هو ملء جيوبهم وحسب، فإنهم سرعان ما يجدون فى الحكومة الأوروبية، بل فى النفوذ الإفرنجى، قوة معادية لهم، ويروحون يقاومون هذه القوة سراً وعلانية كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. هؤلاء القراصنة الدينيون يتعين عليهم وعلى رعاتهم - وذلك سعيا إلى تحقيق أهدافهم - التخلص من القوة العظمى فى الوقت الذى يتعين عليهم فيه الإذعان، وهم يراقبون السلطات المتشككة مراقبةً تؤلمهم أشد الإيلام.

واقع الأمر أن الجماهير الساذجة فى بلاد الجاوة هى التى تجعل المسلمين الأجانب يغرونهم بالانخراط فى حركات سياسية دينية، وإذا ما كان المحرضون من العرب فإنهم يكونون واثقين من تحقيق شىء من النجاح. نزوح الحضارة إلى بلاد

(*) الشيبة ، أو بالأحرى آل شيبة هى الأسرة التى تتولى سدانة الكعبة . (المراجع)

الملايو أقل خطراً، نظرا لأن الدين لا يلعب دورا فى الرغبة الجامحة التى ستظل المستوطنات العربية - على الرغم منها - عنصرا [فاعلا] لا يمكن ترك عمله أو حياته بلا إشراف ولا رقابة.

حاليا وبعد أن سهلت الظروف حركة الحجاج الجاوة وجعلتها أكثر رواجا من ذى قبل، فقد أدى ذلك إلى التقليل من زيارات العلماء العرب والصوفيين والباحثين الآخرين عن الثراء إلى بلاد الجاوة، بعد انتقال الحكم إلى أيدى الأوروبيين. وفى الوقت الذى كانت البلديات الجاوية فيه مستقلة كان وصول أى عالم أو فقيه من علماء أو فقهاء العرب يعنى حدوث فورة من الحماس الدينى، فى حين إن أمثال هؤلاء الضيوف، إذا ما كان هدفهم فى الوقت الراهن هو العزف على الوتر الدينى فى قلوب الجاوة، فإنهم يغلفون هذا الهدف، تحاشيا للحكومة، بغلاف المسائل التجارية.

***

على الرغم من أن الفترة التى يمكن عد الحجاج الجاوة خلالها بالآلاف كل عام تعد فترة قريبة جدا فإن حركة تنقلات هؤلاء الحجاج استمرت بصورة مؤكدة فترة تزيد على قرنين من الزمان، يضاف إلى ذلك أن المكيين الذين تحتاج تجارتهم إلى دراسات عملية نفسية، لم يكونوا بحاجة إلى وقت طويل كى يتعرفوا خصائص الجاوة وسماتهم بصفة عامة من ناحية، أو خصائص وسمات الأفرع المختلفة لهذه العائلة من الشعوب من ناحية أخرى. كانت ملاحظات المكيين كاملة متكاملة وصادقة إلى حد بعيد، وبخاصة فى الحالات التى يكون لهم فيها مصالح عملية، ولكن تعميمات هؤلاء المكيين كانت لها قيمتها أيضا فى تشخيص أوضاع الجاوة فى مكة.

هؤلاء الجاوة متدينون ومثقفون إلى حد بعيد، على الرغم من أن الكثيرين منهم يكونون فى بداية الأمر مفتقرين إلى المعرفة الدينية الكاملة. وهذا الأمر يحدث التغاضى

عنه، نظرا لأن الجاوة جميعهم يزورون المدينة المقدسة (مكة) دون دوافع خفية ولكنهم، على العكس من ذلك، يدخلون الأراضى المقدسة حاملين معهم أكياس نقودهم لإنفاقها فى هذه البلاد. وإذا ما أرادوا أن يطيلوا بقاءهم فى مكة فإنهم يسحبون مبالغ بضمان ممتلكاتهم فى بلادهم، أو بضمان معاش تقاعد حكومى، أو بضمان دخل سنوى من أسرهم طبقا لمكانتهم الاجتماعية.

أما الجاوة كبار السن الذين يستقرون فى مكة مدى الحياة أو لبضع سنوات، فهم يرمون من وراء ذلك إلى تمضية أيامهم الأخيرة فى التعبد والتدين فى هذه الأرض الطاهرة، أما الجاوة الشبان فيكرِّسون أنفسهم للدراسات الدينية. ضيوف الرحمن الذين يكونون من هذه الشاكلة، هم والجاوة الذين يؤدون فريضة الحج، يقومون بزيارة القبور الشريفة فى المدينة المنورة، ثم يعودون إلى بلادهم وقد ميزوا أنفسهم بتلك العقيدة البسيطة السهلة من ناحية، وبالأمانة والصدق فى معاملاتهم من ناحية أخرى. وأمانة الجاوة وصدقهم هما مضرب الأمثال فى مكة، وإذا كان التاجر المكى، على سبيل المثال، يندر أن يوافق بلا ضمانات كافية على إعطاء بضاعته لغريب كى يجربها، فإن مثل هذا التاجر المكى إذا ما طلب منه جاوى مثل هذا الإذن يسارع إلى القول: "إنه من الجاوة، ولا بأس فى ذلك"(*).

والخادم الجاوى عندما يشتكى لرئيس شرطة السوق من عملية نصب أو تدليس من جانب أحد من الباعة، فإن رئيس الشرطة يصدق دوما كلام الجاوى ويروح يجلد المتهم إلى أن يعترف. ولهذه الأسباب يبحث الناس هنا عن الجاوة الذين من الطبقة الدنيا ليكونوا خدما أحرارا لهم، وبخاصة الجاويين، نظرا لأنهم يتمتعون بحلاوة المعشر ومجدون فى عملهم. والجاوى الميسور يصحب معه كثيرا من الجاويين من أفراد الطبقة الدنيا إلى مكة، وهؤلاء الناس يقومون على خدمة ذلك الميسور نظير المأكل والمسكن.

(*) جاوة، "ما علِش" ma 'alesh بمعنى "لا مانع". (المترجم)

والمكيون يستخدمون هؤلاء الشباب عن طيب خاطر، ليكونوا مساعدين لهم فى أعمال الحج أو خدما خصوصيين لهم. وهذا هو شيخ العلماء أحمد الدحلان لا يغادر محل إقامته دون أن يكون بصحبته خادماه الجاويان المخلصان.

لم يعد الثناء على التقوى، فى السنوات الأخيرة، مقصوراً على الجاوة وحدهم، وقد تسببت الزيادة فى عدد الحجاج فى ذلك. والجاويون الشبان يسمعون من العائدين من مكة عن مدى الحياة المريحة فى مكة، وعن سهولة شراء جارية حبشية جميلة، أو الزواج من مصرية، وأن الإنسان بوسعه أن يحيا حياة مواطن مستقل من مواطنى مكة نظير دخل سنوى يقدر ببضع مئات قليلة من الجلدرات(*). وبدأ الشبان الذين تحدوهم هذه الآمال يتدفقون بأعداد كبيرة، وعندما فشلت وعود السداد نتيجة عدم وصول الأموال، أو عندما فشلت تلك المبالغ فى الوفاء بهذا النوع المكلف من العيش، راح صيارفة مكة يقرضونهم المال بلا تردد. كان صيارفة مكة معتادين على إقراض الأموال بطريقة محفوفة بالخطر سعيا إلى الفائدة، ولم يعرفوا أحداً له أمانة الجاوة. ولكن الديون تزايدت، وتوقف السداد وأسفر الأمر عن وضع المدين الجاوى فى السجن. فى بعض الأحوال كانت تلك الإجراءات تدفع أصدقاء المقبوض عليه إلى الكتابة إلى ذويه طلبا للغوث السريع والمساعدة، وراحت هذه الإجراءات تفشل هى الأخرى بصورة متدرجة، وهنا لم يعد أمام المدينين من سبيل سوى الهرب، وعندما كان يتيسر لهم مثل هذا الهرب كانوا يفرون إلى مدينة جدة، ويسافرون منها بواسطة البواخر إلى بلادهم. وفى جدة يقدم لهم أقاربهم الأرز فى أضعف الأحوال، كما وفروا لهم أيضا الأماكن التى ينامون فيها، ولكن الدائنين لم يحصلوا لقاء خطابات التهديد والوعيد سوى على عبارات قليلة عن التقوى والصلاح.

(*) الجلدر وحدة النقد الهولندية . (المترجم)

غفر لهم أصدقاؤهم المكيون حماقتهم وبقيت ديونهم لدى الجاوة، وبذلك شجع هؤلاء الدائنون أولئك الجاوة على الأبهة والتبذير وراحوا يشجعونهم؛ الأمر الذى أغراهم بالاستمرار فيما كانوا عليه. لكن بعد أن أصاب الكساد دنيا المال والأعمال والتجارة بدأ المكيون يكتشفون الجانب الخفى فى شخصية الجاوة، فقد راح الكثيرون من أهل الملايو يهملون واجباتهم الدينية، وبدأت اتصالاتهم بالجنس اللطيف تتحرر، وظهر أنهم كانوا مغرورين وأغبياء ويفتقرون إلى الإحساس بالشرف، واكتشفوا أيضا أن الجاوة لا يبرون بوعودهم، وأنهم كانوا يهربون من دائنيهم مثل اللصوص. وفى كثير من الأحكام كان الدائنون يعانون من خيبة الأمل والإحباط أكثر من الاستياء نظرا لأن نصف سكان مكة على وجه التقريب كانوا مدينين، ولم تكن لدى هؤلاء المدينين أية نية فى السداد. لكن ما الذى جعل هؤلاء الجاوة يسلكون ذلك السلوك أو يتصرفون على هذا النحو؟

أضيفت شكاوى أخرى إلى الشكاوى السابقة، وأصابت الكثيرين من الجاوة الذين استقروا فى مكة وأقاموا فيها عدوى الانتهازية التى لدى المكيين، اضطر بعض آخر من الجاوة بفعل الحاجة الماسة إلى البحث عن سبل العيش أو الرزق. لكن السواد الأعظم من هؤلاء الجاوة كانوا يفتقرون إلى المكر والدهاء اللازمين للعمل بالتجارة فى البلدان المجاورة. والجاوى الوحيد الذى شاهدته يعمل مساعداً فى أحد الدكاكين كان من أَتْشيه (أَتْشِيًا)، وكان الجميع يشيرون إليه بوصفه تحفة أو شيئا فريدا.

بعض آخر من الجاوة قاموا برحلة إلى بلادهم بعد أن أنفقوا أموالهم، ليبيعوا فيها المسابح والكتب العربية والبخور إلخ، أو حاولوا الاستفادة ماليا من الحكمة (العلم الذى تعلموه فى مكة) التى أصابوها، أو من التصوف أو من فكرة الطهارة التى أصابتهم بحكم وجودهم فى مكة. بعض ثالث يساعد الأسر المكية بصناعة بعض الأشياء قليلة القيمة وبيع هذه الأشياء كل عام عن طريق أقاربهم فى بلادهم، وهذه

الأشياء تعود عليهم بأسعار عالية نظرا لبلد المنشأ. من هنا تعرفت على شيخ كان حريمه وأبناؤه يمضون وقت فراغهم فى تطريز طواقى بيضاء صغيرة ("عراًقيات" يلبسها الناس تحت العمامة أو فى المنازل بلا عمامة على الرأس المحلوق)، وكل طاقية من هذه الطواقى تكلف صانعها حوالى أربعة بنسات ولكنه يبيعها بدولار واحد أو دولارين.

أوضح مصادر الدخل لدى الجاوة المقيمين فى مكة يتمثل فى استغلال إخوانهم المواطنين الذين يأتون إلى مكة لأداء فريضة الحج. وعلى وجه اليقين يستفيد الجاوة المقيمون فى مكة من الحجاج الذين يأتون من ديارهم لأداء فريضة الحج، هؤلاء الحجاج يقدمون الهدايا والعطايا لأولئك الجاوة بوصفهم طلاب علم، أو قد يعطونهم المبالغ التى تخصم من تركة الموتى كى تستعمل فى دفع تكاليف الحج لمن سيقوم بالحج نيابة عن الميت. الجاوة من أمثال أولئك الذين جاءوا إلى مكة لخدمة إخوانهم المواطنين، أو من أمثال أولئك الذين راحوا يخدمون "شيوخهم" بسبب افتقارهم إلى المال، بدأوا يكتسبون معرفة وخبرات كثيرة مكنتهم من العمل "شيوخا" يقومون بإرشاد بنى وطنهم. واستطاعوا تعويض المكر والخبرة قياسا على منافسيهم المكيين، عن طريق معرفتهم الوثيقة لعادات وتقاليد بلادهم. يضاف إلى ذلك أنهم كانوا يتقنون الاتصالات الجيدة تماما؛ الأمر الذى مكنهم من استقطاب عدد كبير من الحجاج.

يكفينا القول هنا إن كثيرا من الجاوة فى مكة استطاعوا – قبل وقت طويل من إدخال النظام الذى يقضى بتخصيص منطقة معينة لكل شيخ من شيوخ الجاوة – الحصول على تراخيص (تقارير) للعمل شيوخا أثناء موسم الحج، وأن هؤلاء الجاوة عرفوا كيف يستفيدون تماما من تلك التصاريح فى تعاملهم مع بنى أوطانهم.

***

يتباين المركز الاجتماعى لمرشد الحجاج فى مكة تباينا كبيرا، وفيما بين الأشراف الذين يعدون تلك المكانة شديدة التدنى، والجرارين وما إليهم، الذين يضعون تلك المكانة فى مقام عالٍ، هناك طبقات كثيرة يمكن أن يعمل الشيخ المرشد فى أية واحدة منها. وعندما يكون الشخص ميسورا وعصريا لا يجد غضاضة فى شراء ترخيص يبيح له العمل شيخا مرشدا للحجاج، والثروة التى يجنيها من الطوافة تكسبه نفوذا واحتراما، لكن إذا ما ساءت الأحوال فإن لقب المطوف أو شيخ حجاج يصبح بلا حول ولا طول. الأمر على العكس من ذلك تماما عند الجاوة، والمعروف أن السلاطين وأبناء الأمراء يرفضون مسالة الشيخ هذه، كما أن العلماء لا يفخرون بهذا اللقب إذا ما حصلوا عليه فى بعض الأحيان، لكن هذا اللقب يحظى باحترام كبير لدى جماهير الجاوة العريضة. وسكان هذه البلاد البعيدة، فى ظل تطلعهم واشتياقهم إلى الألقاب والأسماء، يجدون فى اللقب "شيخ معين فى مكة" جرسا فخما ورصينا وعجيبا أيضا. يضاف إلى ذلك أن كثيرا من المتعلمين فى هذه البلاد البعيدة ينظرون إلى هذا اللقب النظرة نفسها التى يضفيها كثير من الأوروبيين الأذكياء والمتعلمين، على الألقاب التى يجرى شراؤها فى جنوب أوروبا. هؤلاء الجاوة يعلمون أن المسألة مسألة مال أولا وأخيرا مع شىء من الدهاء والمكر، ومع ذلك لا يزال الجاوة ينظرون إلى حملة ذلك اللقب بشىء من التوقير والاحترام.

أعضاء الجالية الجاوية فى مكة اكتسبوا بحكم تنافسهم مع المكيين الأصليين كثيرا من صفاتهم السيئة، وحتى فى غياب تلك العادات والصفات السيئة ما زال الجاوة يكرهون المكيين بحكم منافستهم لهم. هذا يعنى أن نشاط الجاوة يؤثر على نفوذ المكيين وتأثيرهم على الحجاج الجاوة، وأن ذلك التأثير يكون لصالح شيوخ الحج الجاويين.

هذه الأسباب هى التى تروج حاليا لكثير من الانتقادات التى توجه للضيوف الذين يأتون من الشرق الأقصى.

وعندما تبدأ قافلة الحجاج الجاوة فى دخول مكة، يسمع الإنسان فى أغلب الأحيان الأطفال الصغار والبغالين وهم يصيحون ويقولون، ويؤشرون احتقارا وازدراء (بلغة الجاوة "منشورى بنتجورى" أى بمعنى لص من لصوص الملايو) أو قد يقولون "تِيوان" (تُوان بمعنى سيد). هؤلاء الرعاع يضطهدون تلك القلة القليلة من العصريين الأجانب ويتهمونهم بسوء النية، وهنا نجد أن الجاوة كانوا يصبرون على ذلك بلا حول ولا طول إلى أن تعودوا واصطبروا على تلك الظروف.

المكيون كلهم يطلقون النكات على تلك الأمور، وشيخ القافلة الجاوية التى تصل إلى مكة يبادر، قبل أن يتوجه أفراد القافلة للطواف أول مرة، إلى تحذير هؤلاء الأفراد ويطلب منهم تركيز أبصارهم على المرشدين حتى لا يضلوا طريقهم ويقعوا فى أيدى المطوفين. وعلى الرغم من ذلك ينجح هؤلاء المطوفون فى "استقطاع" قلة قليلة من الحجاج الجاوة. هؤلاء المطوفون يمسكون الجاوى الساذج من يده وهم يتمتمون بالدعاء، وإذا ما قاومهم فإنهم يقولون له بلغة الملايو إنهم خدام الكعبة، وأنهم يقومون بواجب الإرشاد مجانا (لوجه الله) . وبعد انتهاء أركان الحج يوضحون لضحاياهم، عن طريق التهديد أنهم سيدخلون جهنم إذا لم يكافئوا مرشديهم مكافأة طيبة ومناسبة. كثير من المكيين يقولون إن هؤلاء المطوفين فى كثير من الأحيان يدسون فى الدعاء العربى الذى يردده الحجاج بعدهم، قسما بأن يعطى الحاج الجاوى "ذلك المرشد الذى يرشدهم مبلغ أربعة دولارات"، ثم يقوم هؤلاء المطوفون بعد ذلك بتهديد أولئك الحجاج الفقراء بنار جهنم إذا ما حنثوا فى الوعد الذى قطعوه على أنفسهم أمام الكعبة!

***

النشالون فى مكة (أو بالأحرى نشالو الأحزمة، نظرا لأن النقود والأشياء الأخرى يحملها الحجاج فى أحزمتهم) يلاحقون الجاوة بصورة خاصة. والأثرياء من الجاوة،

بعد مقام قصير فى مكة يشترى الواحد منهم ثوبا مكيا، يلبسه عندما يعود إلى بلده إشارة إلى كرامة الحج واحترامه. والمرء سرعان ما يتعرف بلمحة سريعة على أولئك القادمين الجدد الذين استبدلوا بلباسهم الوطنى الجبة والعنترى والعمامة المكية. وصبية الشوارع سرعان ما يتعرفون أولئك القادمين الجدد، ويروحون يتحينون الفرصة التى يدخل فيها ذلك الحاج إلى شارع من الشوارع الخالية، لكى يتسللوا إلى ذلك الشارع ويمشوا وراء ذلك الحاج ويتعقبوه، وسرعان ما يخطفون منه عمامته الجديدة ويفرون بها. ذات مرة سمعت أحد الجاويين عندما كان أحد الباعة يقنعه بشراء عمامة بالية لخصىٍّ من طواشى المسجد الحرام فى سوق الحراج (سوق الأشياء القديمة والمستعملة). هؤلاء الأغاوات يلبسون عمائم عالية مثل البرج ملفوفة حول طاقية من القطيفة زرقاء اللون ومختلفة عن غطاء الرأس المعتاد، لأنها عبارة عن طاقية قديمة لها ثلاثة أركان مختلفة عن غطاء الرأس الحالى. وراح ذلك الجاوى يمشى فى الشارع مرتديا عمامة الطواشى على رأسه، ولم يفهم أسباب ذلك الذى كان ينبعث من جانبى الشارع على طول الطريق. والمرء عندما يراقب الحجاج الجاوة، الذين لم يشاهدوا حتى ذلك الحين سوى حقول الأرز ومزارع البن، أثناء تحركهم بين الجماهير مختلفة الأشكال فى المدينة العالمية المقدسة، لن يندهش من الاحتقار والأزدراء الذى ينصب على المكيين.

وإذا ما كان هناك مرشد يقوم بإرشاد هؤلاء الجاوة، فإنهم يتبعونه بالعشرات، مثلما تتبع الأغنام الكرَّاز(*). أما هؤلاء الذين يمشون على انفراد أو ضمن جماعات صغيرة، بأفواههم شبه المفتوحة وخطواتهم غير المنتظمة، فيبدو عليهم كما لو كانوا قد فقدوا صوابهم. وهذا جائل يحملق بعينين مفتوحتين فى طاولة بائع الشمام. كل بائع من هؤلاء الباعة يعرف بضع كلمات من لغة الملايو، وهو يعرف الأعداد فى أضعف الأحوال. وهذا هو الفاكهى يعرض على ذلك الغريب شمامة وهو يقول له بلغة الملايو

(*) الكرَّاز بتشديد الراء وفتحها هو الكبش الذى يتقدم القطيع . (المترجم)

lima puluh tiwan[٨] (بمعنى "خمسون تيوانًا يا سيدى"). وعلى الرغم من تكرار هذه الكلمة تكرارا مملا، مضافا إليها كلمات الامتداح التى من قبيل bagus و manis التى معناها "جميل" و"حلو"، لم ينجح البائع فى الحصول على حرف واحد أو حتى مجرد صوت واحد من أولئك المخلوقات المنبهرة. وينادى البائع قائلا بلغة الملايو Boleh tjoba tuwan (بمعنى "تستطيع أن تذوق الشمام قبل الشراء يا سيدى") ومع ذلك ظل الجاوى محافظا على إخفاء مشاعره. وهنا تناول البائع سكينا وقال بلغة الملايو nanti saja fo-long (بمعنى "سوف أشق الشمامة") متطلعا إلى سماع كلمة "نعم" أو "لا" من ذلك الجاوى. ونظرا لعدم حصول البائع على رد من الجاوى، عزا ذلك إلى خجل من جانب الرجل الذى كان يطيل النظر إلى الشمامة، ويشق البائع الشمامة، ويضع شريحة منها فى فم الجاوى المفتوح، والذى يستاء من هذا العمل، ويمضغ الجاوى شريحة الشمام ويضحك ثم ينصرف دون أن ينطق بكلمة واحدة. أليس من المدهش أن تدوى الكلمات التالية عقب انصراف الجاوى "أنت أيها الجاوى الملعون عد إلى مرحاضك[٩] الذى جئت منه، الله يلعن جيلك."

هؤلاء الجاوة يمشون الهوينى فى الشوارع شديدة الازدحام، دون أن يلقوا بالاً للتحذيرات التى تصدر عن الجمَّالة أو البغَّالة عندما يقولون: "ظهرك يا عمى! اصحى يا حاجة (أو يا حرمة)[١٠]. أخيرا وعندما يضيق الناس ذرعا بأولئك الجاوة يروحون يضربونهم على ظهورهم بالعصى وهم يقولون لهم "ابعد أيها الجاوى، ابعد يا ملعون"[١١].

---

(٨) Lima Puluh tiwan معروف أن العرب ينطقون صوت P فى لغة الملايو على أنه F وعلى الجانب الآخر ينطق أهل الملايو الفاء العربية على أنها صوت P .

(٩) Jamban كلمة من كلمات لغة الملايو معناها "مرحاض".

(١٠) dahrak ya ammi, dshi jd hajja .

(١١) tariq ya Jawah ya mal'un .

العناصر الأكثر تعقلا من بين أفراد هذا الفريق البشرى، على الرغم من ندرتها وعزلة حياتها، والتى يمكن أن تحدث انطباعا ولو قليلاً لدى عامة الناس، تتمثل فى تلك العناصر الريفية الجلف التى تحاول خلق رأى عام حول هذا العرق البشرى. المكيون يطلقون دوما على الجاوة اسم "فروخة"(١٢) وهم يتخيلونهم وهم يسيرون فى الشوارع بغبائهم هذا من ناحية، وعدم صدقهم من ناحية أخرى مع الدائنين الذين سبقت الإشارة إليهم، وبخاصة أن المدينين منهم هربوا دون علم دائنيهم، على الرغم من رباط العيش والملح الذى ربط بينهم. والجاوة من غير أهل الملايو يتركون ديونهم بلا سداد، كما أن مسألة هروب الجاوة سرا يعطى انطباعا مفاده أنهم لا ينصاعون للأعراف التى يخضع لها المجتمع المكى، والتى تحكم كل أعضائه.

وهذا يترك لدى المكيين انطباعا مفاده أن هؤلاء الجاوة ما يزالون سذَّجًا. لكن الإنسان بعد أن يستقر هؤلاء الجاوة يستحيل عليه معرفة ما إذا كان هؤلاء الناس يخطر ببالهم أن يرحلوا فى يوم من الأيام عن هذا المكان الذى تصيبهم فيه المتاعب والأذى.

***

أحكام عامة الناس المنصفة وغير المنصفة منها للجاوة تقول عن هؤلاء الناس إنهم أهداف خاصة يجرى استغلالها. واقع الأمر أن الجاوة دون سائر الحجاج الآخرين، هم

(١٢) ferukh كلمة عامية، واحدها "فرخ" farkh، وهو الإنسان الوضيع. هذا مصطلح تقليدى ينطوى على السب والإساءة، والمكيون يستخدمون هذا المصطلح هو ومصطلحات أخرى فى سب الجاوة، إذ يقولون عنهم "آكلين الحنش" (بمعنى آكلة الثعابين). ولم أتمكن من الوصول إلى أصل هذا المصطلح، لكن يبدو أن هذا المصطلح قديم جدا نظرا لأن اللاعن والملعون يعرفانه جيداً. وقد توصلت إلى تفسير تحذيرى بواسطة واحد من السودانيين قال: إن الرحالة العرب شاهدوا كيف كان الناس يأكلون الثعابين السمكية (الأنفليس)، ولما كان ذلك النوع من الأسماك غير معروف فى بلادهم، فقد أشاعوا الخبر فى مكة أن الجاويين يأكلون الثعابين.

الذين يجرى "نحل وبرهم" تماما. يضاف إلى ذلك أن المبالغ التى تحصلها الحكومة من شيوخ الحجاج قبل وصول الحجاج لها دورها فى ذلك الاستغلال، يزاد على ذلك أن الإجراءات القاسية التى يلجأ إليها أولئك الشيوخ زادت حدتها وتفاقمت بدءاً من تاريخ العمل بالنظام الجديد(*)، الذى يؤمن لشيوخ الحجاج السيطرة على الحجاج والتحكم فيهم فى منطقة محددة، لأنهم ليسوا بحاجة أو مضطرين إلى إرضاء زبائنهم أو عملائهم. وهنا يجب استثناء الحجاج أصحاب المقامات الرفيعة أو المستقلين، لكن الأغلبية الساحقة من الحجاج يجرى توزيعهم مثل الماشية، ودونما نظر أو اعتبار لرغباتهم، بين شيوخ الحجاج الذين اشتروا تراخيص الطوافة.

تبدأ عملية جز صوف الأغنام فى مدينة جدة. هذا الاستنزاف البسيط الذى يلاقيه الحجاج فى جزيرة الحجر الصحى، يتبعه شىء من "العلاج" فى الجمارك، حيث يطالبهم موظفو الجمارك بكل أنواع الهدايا، وتفرض عليهم كل أنواع الغرامات. من هنا يتعين على الحجاج أن يدفعوا رسوم "جواز السفر التركى"، ويدفعوا دولارا تبرعا لشبكة المياه فى المدينة المقدسة، ويتعين على الحجاج أن يدفعوا أيضا للبحارة وللحمالين الذين نقلوا أمتعتهم إلى مندوب شيخ الحجاج. وفى منزل هذا المندوب يزداد الود بازدياد حجم العفش والأمتعة؛ الأمر الذى يعظم من آمال حصول الشيخ ومندوبه وخدمه على مبالغ كبيرة على سبيل البقشيش، بعد ذلك يجرى اصطحاب الحجاج إلى قبر أمنا حواء، حيث يقومون بوضع قروش قليلة، بعد أن يرددوا الدعاء خلف المرشد، على الرغم من عدم فهمهم لمضمون ذلك الدعاء. ولكن قبل أن يرتدى الحجاج ملابس الإحرام استعدادا للذهاب إلى مكة، يقوم شيخ الحجاج أو نوابه بجعل الحجاج يعترفون أو يقرون باعتراف غريب.

(*) يقصد بالنظام الجديد منح السلطات المحلية التراخيص لشيوخ الحجاج لقاء مبلغ من المال . (المراجع)

من عادة الحجاج الجاوة أن يحضروا معهم، فى معظم الأحيان، رزمًا متعددة من النقود، ومكتوب على كل رزمة أصلها والمكان المخصصة له. وهذه رزمة على سبيل المثال، تحتوى على مائة جلدر هولندى، جاءت من أب حنون، يعيش فى محل إقامة الحاج، يود إرسالها إلى ولده المدين فى مكة (المكرمة)، وتلك رزمة أخرى جاءت من أحد المريدين هدية لواحد من العلماء أو لمتصوف من الصوفيين. والقسم الأكبر من تلك الرزم يحتوى على ما يتردد بين ٥٠ و ١٥٠ جلدر هولندى، وهذه المبالغ من المؤمنين الذين أجلوا الحج إلى ما بعد الوفاة، ولكى تدفع لمن سيقومون بالحج نيابة عنهم. والمبالغ التى من هذا القبيل يطلق عليها اسم "أمانة"، أما المبالغ المحددة للحج فيطلق عليها اسم "بدل حج"[١٣].

جرى العرف على أن يعهد الحجاج بالنقود التى ائتمنوا عليها إلى أفراد من بنى وطنهم المعروفين لهم، أو لأصدقاء مشهود لهم بالصلاح، لكى يقوموا بأداء الحج نيابة عن الموتى. فى بعض الأحيان قد يعطى مرسل النقود تعليمات خاصة بمسألة البدل، وبوسعنا أن نتخيل مدى اشتياق المكيين إلى القيام بهذا البدل، والسبب فى ذلك أنهم يقومون بأداء الحج مهما كانت الأسباب، ومن هنا يعد البدل مجرد مكافأة سخية. وشيخ الحج عندما يكون له السيطرة على أبدال عدة، يعين أقاربه فى المقام الأول للقيام بالبدل وأداء الحج، ولكن شيخ الحج يخصم من مكافأة هؤلاء البدلاء نسبة مئوية على سبيل العمولة الخاصة به. من جهة أخرى يقوم شيخ الحجاج بدفع أجر خدمه الأحرار نظير القيام بالبدل، وما يتبقى بعد ذلك يقوم بإعطائه للأصدقاء الجوعى، على أن يحتفظ لنفسه بنصف المبلغ. وهناك طلب كبير على هذا الطريق السهل للحصول على المال. ومع ذلك، يقال إن البعض يستفيدون بطرق غير مشروعة

(١٣) يقول أهل الملايو "بَدل" بفتح الباء، وقد شاع بين الحجاج الجاوة إطلاق كلمة "أمانة" على النقود المخصصة لبدل الحج. ولكن المبلغ الذى يجرى منه دفع أجور بدلاء الحج يسمى "بِدل" بكسر الباء.

مرات عدة من الحج الواحد الذى يؤدونه، نظير أبدال عدة، والمؤكد أن شيوخا كثيرين لا يعرفون عدد الأبدال التى كلفوا بها من أمثال هؤلاء الناس.

عقب وصول الحجاج إلى مكة مباشرة يُحَوِّم حولهم خطر التخلص من مبالغ البدل من خلال السور المضروب حولهم، وعلى الرغم من الاحتياطات التى تحول بينهم وبين الاتصال بالغرباء. يقول الشيخ "هذا شىء طيب، سوف أدفع مبلغا كبيرا نظير الترخيص، وسوف أتحكم فى إدارة المصروفات والنفقات كلها، وسوف ألبى كل طلبات الحجاج، ثم أحصل فى نهاية المطاف على البقايا والفضلات، فى حين يفوز الآخرون باللقمة الطيبة!" من هنا يرى شيخ الحج ذلك على أنه نوع من الظلم، وبالتالى يكون من حقه استعمال الوسائل المشروعة لمنع حدوثه.

من هنا يقوم الشيخ بسؤال كل حاج من الحجاج عن الأبدال التى معه وعددها، ويحثه على أن يسلمه هذه المبالغ للمحافظة عليها تحسبا للبدو الذين يطلعون على الركب أثناء التوجه إلى مكة، أو تحسبا للهجمات التى قد يقوم بها هؤلاء البدو فى مكة نفسها. وفى ضوء هذا الكلام تزداد الثقة بشيخ الحجاج. ويرد الشيخ على احتجاجات الحجاج على هذا الأمر بصور مختلفة، وطبقا للظروف المختلفة أيضا. قد يقول قائل إن الأبدال قد حدث إرسالها إلى شخص محدد من قبل مرسل البدل. وهنا يبين الشيخ أن هذا الأمر يمكن تدبيره فى مكة. أو قد يكون الرد بما يفيد أن مرسل البدل لا يستطيع عبر هذه المسافة الطويلة تحديد البدل الأمثل، وهنا يعرب شيخ الحجاج عن تعهده بأن يبذل قصارى جهده فى احترام رغبات الأفراد فيما يتصل بالأموال، لكنه قد يحذر الحجاج أصحاب العقول الضعيفة من سوء النية.

يستطيع المطوف (الشيخ) بهذه الطريقة السيطرة على القسم الأكبر من أبدال زبائنه، وهذا يتطلب من الشيخ فى مكة سلوكا نشطا يمكنه من اختطاف كل شىء لنفسه مرة ثانية.

يزيد على ذلك أن الشيخ يحاول أيضا الحصول على الأمانات الأخرى (الهدايا ومبالغ سداد الديون ... إلخ) لتكون فى حوزته، وإذا ما سارت الأحوال على ما يرام فإن أحداً من هؤلاء الذين أرسلت لهم هذه الهدايا وتلك المبالغ لا يحصل على نصيبه منها دون وساطة الشيخ، الذى يحصل لنفسه على نسبة مئوية منها. وليس هذا هو مقام تناول الطرق والأساليب المختلفة التى يلجأ إليها هؤلاء الشيوخ فى تسوية هذه الأمور، وهذه الطرق والأساليب تختلف باختلاف الحجاج الذين يتعامل معهم الشيخ.

***

قبل إعطاء المزيد من التفاصيل عن الأساليب المختلفة المتبعة فى استغلال الحجاج الجاوة، يتعين علينا الإشارة إلى عملية جراحية يجب على الكثيرين الخضوع لها فى جدة. معروف أن الختان عملية واسعة الانتشار فى شبه جزيرة الملايو، وذلك بغض النظر عن الإسلام(١٤)، وفى بعض المناطق – حتى بعد الدخول فى الإسلام – ما زال الجاوة يحافظون على الطقوس القديمة للختان. يضاف إلى ذلك أن الاحتفالات المصاحبة لهذه العملية تؤكد خليطا من العادات الإسلامية والوثنية أيضا. ومع ذلك، وفى كثير من الأحوال، لا تفى نتائج هذه العملية (سواء أكانت طهارة كاملة أم طهارة وحسب) بمتطلبات الإسلام(١٥). هؤلاء الحجاج أشباه المختونين يتحتم عليهم عند المجيء لأداء فريضة الحج تصحيح ذلك الخطأ قبل دخول المدينة المقدسة، وهذا بحد ذاته يمكن الحلاقين من اكتساب شيء من المال.

---

(١٤) راجع مقال الدكتور جى.ايه. ولكن Wilken ، المعنون De besnijden hij de volken van den Indischen Archipel.Bijdragen van het koninklijk Netherlandsch-Indisch Institut, 4 de volgreeks, x. 165 s99 .

(١٥) وبخاصة تعرية حشفة القضيب تماما.

فى مكة وطبقا للظروف السائدة، يجرى إيواء الحجاج فى منزل شيخ الحجاج فى غرف خالية، أو فى منازل أصدقاء الشيخ. وفيما يتصل بالإقامة والسكن يكفى أن نحيل القارئ إلى القسم الأول من الكتاب، نظرا لأن الجاوة يعاملون بطريقة واحدة وأسلوب واحد، لا تختلف عن معاملة الحجاج الآخرين. وفيما بين العمرة التى يجرى القيام بها فور وصول الحاج، والحج الذى يجرى فى تاريخ محدد، ينفق بعض الحجاج أشهرا عدة، بعض آخر من الحجاج يمضى أياما قليلة ليس إلا. وسواء طالت هذه الفترة أو قصرت، فإن المكيين لا يعطون المرضى فرصة الراحة ولو للحظة واحدة، ويروحون يحيطونهم من كل جانب بالواجبات والمهام الدينية.

من بين الأعراق المختلفة والمتعددة اللغات والعادات، (نحو ٤٥ مليونًا فى العام ١٩٣٠) والتى يعيش منها نحو عشرين مليون مسلم فى جزر الهند الشرقية، نجد أن أعدادا كبيرة من هذه الأعراق ممثلة فى ذلك الحج السنوى. من هنا نجد أن مسألة قيد نشاط مرشدى الحجاج على سكان مقاطعة بعينها لا يعد أمرا صارما أو عرفيا، هذا يعنى أن المرشد الذى يكثر عمله وتعامله مع الحجاج الذين يأتون من جزيرة بوجِنيس، يصبح بحكم مثل هذا الظرف غير مناسب للتعامل مع الحجاج الذين يأتون من جزيرة جاوة .

هذا الذى ينطبق على الشيوخ، ينطبق أيضا على أولئك الذين يكسبون عيشهم عن طريق العمل مع الحجاج لتلبية مطالبهم وخدمتهم، كل واحد من هؤلاء له خبرته ومعرفته الخاصة بجزء من الجاوة، ويعرف كيف يستفيد من تلك الخبرة والمعرفة.

كل من يتعاملون مع الجاوة على وجه التقريب يعرفون شيئا من لغة شبه جزيرة الملايو، والسبب فى ذلك أن الحدود اللغوية للغة الملايو تمتد إلى أصقاع بعيدة من شبه الجزيرة، وهناك سبب آخر هو أنه حتى فى المناطق التى تسودها لهجة أخرى نجد أن لغة شبه جزيرة الملايو هى لغة التعامل مع الحرفيين ورجال الدين، فضلا عن استعمال هذه اللغة أيضا فى التعليم. وبصرف النظر عن جزيرة جاوة، نجد أن المناطق الناطقة

بلغة الملايو، والتى من قبيل القسم الأكبر من جزيرة سومطرة المسلمة، وكذلك المستعمرات المالوية فى جزيرة بورنيو مولوكاس بمثابة المصادر المهمة التى يأتى منها الحجاج. لكن فى سومطرة، وفى بلدية آتشيه فى الشمال، وكذلك فى ضواحى لامبونج فى الجنوب، نجد أن العلوم الإسلامية يجرى تدريسها باستعمال لغة الملايو، وبخاصة فى المناطق التى لم يصل أهلها إلى مستوى تعلم هذه العلوم الإسلامية باللغة العربية. ومقاطعة بتافيا تسودها واحدة من لهجات لغة الملايو، وفيها كتب إسلامية مؤلفة بلغة الملايو أيضًا. ومع كل قافلة من قوافل حجاج جزيرة جاوة، وبغض النظر عن الضاحية التى تجىء منها تلك القافلة، يوجد دائما فرد يتكلم لغة الملايو. وهذا الشىء نفسه يمكن قوله عن السواد الأعظم من الحجاج الجاوة سواء كانت لغتهم الأم هى المكاساريَّة، أو البُجِنية أو المادُورية، وحتى عندما تكون واحدة من تلك اللهجات الأقل شيوعًا فى الجزء الشرقى من عالم الجزر.

يزيد على ذلك أن تزايد انتشار المعرفة المبدئية للغة الملايو بين المكيين يعد مؤشرا على المكانة البارزة للعرق الجاوى فى سوق الحج. بعض الكلمات التى من قبيل "تُورُوس" turus (المأخوذة من كلمة "تيروس"[(١٦)] فى لغة الملايو) و"بُورُوم" (المأخوذه من كلمة "بُورُونج"[(١٧)] فى لغة الملايو) تحولتا إلى كلمتين عاميتين فى لغة أهـل مكة. من هنا، فإن المصطلح المالاوى "بابُور تُورُوس" يعنى "باخرة تسافر مباشرة من جدة إلى بتافيا"، ولكن المصطلح "ريال بُورُوم" يعنى "دولار مكسيكى". يضاف إلى ذلك أن الأعداد فى لغة الملايو هى وبعض العبارات القصيرة، تكاد تكون معروفة لدى كل صبية مكة، والبائعون الجالسون فى السوق يعرفون قدرا أكبر من لغة الملايو.

---

(١٦) terus : مباشر.

(١٧) burung : طائر.

بعد انتهاء صلاة المغرب وعندما يخرج المصلون من الأبواب الرئيسية فى الحرم المكى، يستطيع المار أن يسمع تجار التموينات فى الشوارع المجاورة لأبواب الحرم الرئيسية وهم يترجمون صياحهم العربى إلى لغة الملايو[١٨]، وبذلك يغيرون العبارة التى تقول harr ya esh "حار ياعيش" والتى معناها "خبز حار" إلى roti a fanas، كما يغيرون العبارة التى تقول sukkar ya hab hab "سكر يا حَبْحَب" والتى معناها "بطيخ حلو" إلى manis a semangka . مسألة تكرار تلك الصيحات باستعمال لغة الملايو فى مثل هذه المناطق تعد مؤشر قويا على مدى إخلاص الجاوة فى عبادتهم.

على كل حال، هذه المعرفة السطحية للغة الملايو لا تمكن صاحبها إلا من مجرد التواصل مع الجاوة على مستوى الشارع، أما العلاقات الأكثر حميمية فهى تحتاج إلى شىء من طلاقة اللسان فى اللغة الأم من جانب الأفراد، ودون هذه الطلاقة يصعب على المرء الاقتراب أو التواصل مع الحجاج فى غياب واحد منهم يقوم بدور المترجم. واقع الأمر أن الإنسان يعجز عن كسب ثقة الكثير من الجاوة إذا ما كان يتحدث بلغة الملايو على النحو الذى يتحدث به الآخرون الذين ليسوا من أهل هذه اللغة، وهذه اللغة يسميها الهولنديون "لغة الملايو العامية أو الشعبية." وعلى سبيل المثال، نجد أن المكيين تجمعهم صداقات حميمة مع سكان وسط جزيرة سومطرة الذين يتكلمون لغة خاصة بهم. وللحق نقول إن أية لغة من اللغات التى يتكلمها المسلمون فى جزر الهند الشرقية لابد من أن يكون لها فى مكة أناس يتكلمونها، من بين شيوخ الحج ومساعديهم وأصحاب المنازل والزمازمة. هؤلاء المكيون هم فى واقع الأمر سادة هذا المجال، نظرا لأنهم عاشوا زمنا طويلا - لأسباب تتعلق بالتجارة - فى تلك المواطن التى يجىء منها الحجاج، وسافروا إليها وتجولوا فى أرجائها، أو قد يكون الواحد منهم قد تزوج من امرأة من هذه البلاد. وبغض النظر عن ذلك نجد أن كثيرا من المكيين يحققون تقدما

(١٨) راجع كتابى المعنون Mekkanische Sprichworter، صفحة ١٦٤ .

مذهلا فى دراسة اللغات التى تتضح لهم أهميتها وفائدتها. والمكيون الخلَّص يتكلمون لهجة الآتشيه، واللامبونج، واللهجة السوندانية، والجاوية، والمديورية، والبجنية، فضلا عن لغتهم الأم . وهم يستعملون هذه الأدوات فى تعميق دراستهم النفسية التطبيقية، التى تزداد أهميتها عندهم فى ضوء ممارستهم لحرفتهم ممارسة ناجحة.

***

فى فصل سابق أتينا على ذكر الطابع الخاص لدراسة جغرافية مكة. الناس هنا يقسمون العالم الخارجى كله إلى مناطق غزيرة الحجاج ومناطق قليلة الحجاج، من المكيين أناس يعرفون من أسماء المقاطعات والضواحى وبلدان أرخبيل الملايو ما هو أكثر بكثير مما يعرفه التلميذ الهولندى، لكن هؤلاء المكيين لا يعرفون مواقع تلك المقاطعات أو الضواحى أو البلدان. وكل من زاروا جدة يعرفون، فى أضعف الأحوال، أن البواخر الجاوية تتجه جنوبا، وكل من سافر إلى بلاد الجاوة يعرف، على أقل تقدير، المسافات التى تفصل الأماكن بعضها عن بعض، والتى بين هذه الأماكن ومدينة جدة. وقد تزايد فى مكة مؤخرا عدد الأسماء الجغرافية المعروفة، فى ظل النظام الذى جرى تنفيذه مؤخرا، والذى يقضى بتخصيص منطقة بعينها لشيخ بعينه من شيوخ الحج(*). طوال فترة التحضير لذلك النظام كنا نسمع فى بعض الأحيان حوارات تسر الخاطر، وقد جرى نزاع عنيف بين الشيوخ المعنيين بذلك النظام، حول ما إذا كانت مقاطعة كروى فى جزيرة سومطرة تابعة لضاحية بنكولن أو لضاحية لامبونج كانت الخلفية العملية لذلك النزاع الجغرافى تقوم على ما مفاده أن الشيخ الذى أعطيت له ضاحية بنكولن وكذلك الشيخ الذى أعطيت له ضاحية لامبونج، كان كل منهما يرغب فى السيطرة والتحكم فى الحجاج الذين يحضرون من كروى، واقع الأمر أن كلا

(*) الإشارة هنا إلى نظام الرخص التى تمنح لشيوخ الحج . (المراجع)

من الطرفين كان على صواب، والسبب فى ذلك أن كروى من الناحية العرقية الجغرافية تتبع لامبونج، على الرغم من أن الإدارة الهولندية ربطتها بمقاطعة بنكولن . وكان لابد من إحالة الأمر إلى كبير الشيوخ الذى لم تكن لديه أية فكرة عن الظروف الجغرافية الحقيقية، ومن ثم لابد من أن يبنى قراره على حجج هى بحد ذاتها مدعاة للسخرية والاستهزاء.

فى إحدى المناسبات الأخرى خصص رئيس نقابة شيوخ الحج لأحد الشيوخ منطقة من المناطق التى نزح إليها البجنيون الذين يجيئون إلى مكة لقضاء فريضة الحج، وقصر نقابة هذه المنطقة على ذلك الشيخ، ثم قام رئيس النقابة بعد ذلك بنقل امتياز البجنيين من هذه المنطقة (غير البجنية) إلى منطقة أخرى. وهنا اشتكى الشيخ الأول، وكان على حق فى شكواه، فرد عليه مقللا من شأنه وهو يقول له "إذا شاء الله فسوف يدخلون فى الإسلام فى يوم من الأيام". لكن بعد ذلك الحادث راح الشيوخ يصرون على أنه فى أى ترتيب يجرى اتخاذه مع شيخ النقابة يجب أن يضاف إلى ذلك الترتيب أو الاتفاق العبارة التى تقول "المنطقة بمن فيها من سكانها الحاليين"، والسبب فى ذلك أن الأثمان التى كانت تتوقع نظير الحصول على التراخيص تصبح بلا جدوى، بل عديمة القيمة إذا ما كانت تراخيص بأرض خالية من البشر.

العرب المحدثون لا يقلون عن العرب القدامى شأنا فى مسألة تعريب الأسماء الجغرافية الأجنبية. من هنا فهم يعربون "آتشيه" **Acheh** لتكون "آشى" **Ashi** ويعربون "بادانج" **Padang** تكون "فادان" **fadan**(١٩)، ويعربون "لامبونج" لتكون "لمفون" **Lamfun** ويعربون "ديلى" **Deli** لتكون "ديلى" **Dili** بكسر الدال واللام، كما يعربون "لنجكات" **Langkat** لتكون "لنكات" **Lankat**، ويعربون "بالمبانج" **Palembang** لتكون

---

(١٩) الكلمة خليط من pulau pinang (أى جزيرة بينانج)، وبذلك يتلاعب المكيون بالكلمة العربية "فلفل" و"فلفلان".

"فلمبان" Felimban ... إلخ. أما مسألة معرفة أو عدم معرفة أسماء الضواحى الصغيرة فى مكة فتعتمد تماما على عدد أو أهمية الجاوة الذين يأتون من هذه المناطق لأداء فريضة الحج. وبذلك تصبح منطقة الرّاو الواقعة فى وسط جزيرة سومطرة أكثر شيوعا من كثير من المناطق الأخرى المهمة.

ويجرى تقسيم السكان بطريقة النسبة (أى الفلمبانيين والفدانيين ... إلخ) أو قد يضع الشيخ كلمة "الجاوة" قبل اسم الأرض التى يعيشون عليها، وبذلك يمكن القول: "جاوة فونتيانا" (أى أولئك الذين ينتمون إلى منطقة بونتياناك)، و"الجاوة السامبيون"، و"الجاوة المارتافورة" (أى الذين ينتمون إلى مارتابورا)، و"الجاوة البرنويون" الذين يجيئون من بورنيو، و"الجاوة المندوريون" (أى الذين يجيئون من ماديورا)، و"جاوة بويان"[٢٠] (أى الذين يأتون من باوين)، و"جاوة سمباوا" (أى الذين يأتون من غرب سمباوا)، و"جاوة ميكاسار" (أى الذين يأتون من ماكاسار) .

والبجنيون يطلق الناس عليهم اسما مختصرا هو "البوج". والجاوة المستقرون فى مكة يسمون بأسمائهم الحقيقية مضافا إليها اسم بلدهم بلا نسب، وبذلك عندما تقول: "عبد القادر كرنتج" فذلك يعنى (عبد القادر الكرنتيجى أى عبد القادر الذى من ضاحية أو إقليم كرنتج فى جزيرة سومطرة)، والاسم "حسن لامفون" يعنى (حسن اللمبونى، أى الذى ينتمى إلى إقليم لامبونج). وكذلك أحمد بانتن ... إلخ.

ضواحى المناطق المتحضرة فعلاً ذائعة الصيت، والسبب فى ذلك أن المناطق الأخرى التى ترسل كل عام إلى مكة عددا من الحجاج الجهلة، ولا ترسل مطلقا رجالا جديرين بالبقاء فى مكة كى يصبحوا فيما بعد مواطنين مكيين، المناطق التى من هذا

---

(٢٠) يأتى حجاج كثيرون من تلك الجزر لأداء فريضة الحج كل عام، وقد سمعت ذلك الاسم يتردد مرارا على ألسنة الجاويين والعرب على أنه "بويان" Boyan .

القبيل لا تثير الاهتمام إلا فى الدوائر الضيقة، التى لا تنشغل إلا بالزوار العابرين. ونخلص من هذا إلى أن مختلف أجزاء جزيرة جاوة ذائعة الصيت على المستوى الشعبى. يزيد على ذلك أن كل مقاطعة بل كل ضاحية من ضواحى جزيرة جاوة تكون محطا للحديث والحوار فى غير موسم الحج. ونستطيع تقدير الثروات التى يجنيها شيوخ الحج من وراء التراخيص، كما نستطيع أيضا الوقوف على الخصوصيات الغريبة لهؤلاء الشيوخ (وبخاصة فيما يتعلق بمسألة الكرم). وبوسع هؤلاء الشيوخ توقع عدد الحجاج الذين يمكن أن يحضروا إلى مكة فى العام القادم من هذه الضاحية أو تلك.

بعض المجندين الوطنيين والأجانب يسافرون إلى تلك المناطق، وإذا ما أسعدهم الحظ عادوا إلى مكة مرشدين للجماعات التى تضم الواحدة منها عشرات الحجاج لينضموا إلى حجاج الشيوخ الذين أوفدوهم فى تلك المهام[٢١]. وسكان جاوة الموجودون فى مكة يجرى تقسيمهم لا على أساس من الضواحى والمناطق، وإنما إلى فئات أكبر من ذلك، بحيث يكون لكل فئة من هذه الفئات طابعها الخاص، ولكن يكون تمييزها عن غيرها من الفئات باللغة التى تتكلمها.

وأهل بتافيا يتحدثون لهجة من لهجات لغة الملايو، ولذلك يطلق الناس عليهم اسم "جاوة البتاوى"، أما سكان غرب جزيرة جاوة أصحاب العادات والتقاليد البسيطة، وأصحاب الوعى الذاتى الكبير، والذين لا تختلط عقيدتهم الإسلامية بمعتقداتهم الحضارية الماضية اختلاطا كبيرا، يطلق الناس عليهم اسم جاوة سُوندا؛ نظرا لأنهم يتكلمون لغة السوندا، فى حين نجد الجاويين الحقيقيين، الذين تتأثر حياتهم

(٢١) أصاب الحظ التعس بعض الشيوخ إصابة مخيفة فى العام ١٨٨٥ الميلادى، فقد عاد مبعوثوهم بغنيمة طيبة، ولكنهم أُجبروا – طبقا للتعليمات الجديدة التى بدأ العمل بها فى ذلك الوقت – على التنازل عن هؤلاء الحجاج إلى زميل آخر من الزملاء الحظيظين.

بشكل أو بآخر ببعض موروثات الإمبراطورية المَتَرامية، يطلق الناس عليهم اسما غريبا هو "جاوة المرِيكى" ، وكلمة مرِيكى فى لغة جاوة تعنى "تعال هنا!". يضاف إلى ذلك الحقيقة التى مفادها أن المكيين يسمعون كلمة هذه الكلمة من فم جاوى حقيقى، فى الوقت الذى يستعمل فيه الجاوة الآخرون كلمة مارِى المأخوذة من لغة الملايو، والتى يعرفها المكيون كلهم، هذه الحقيقة هى التى أضفت على هذه الكلمة التافهة "قيمة ودلالة عرقية".

***

سبق أن قلنا إن أغنام الجاوة يحدث جزها من قبل جزازين متباينين. والجاوة شأنهم شأن الحجاج الآخرين يجرى اقتيادهم إلى المراقد الشريفة، وإلى الأماكن الأخرى شريفة الذكرى، والمرشدون يقتادون الحجاج الجاوة إلى مقبرة المعلاة، ويقتادونهم أيضا إلى الكعبة المشرفة عندما تفتح أبوابها. وفى كل مكان يذهب إليه هؤلاء الجاوة يحدث استغلالهم من قبل جيش من الشحاذين، الذين يحرضهم المرشدون عليهم، وذلك من باب محافظة المرشدين على مصلحتهم الخاصة. كل ذلك يدخل ضمن الكماليات المفروضة على الحج، والتى لسنا بحاجة إلى أن نقول عنها أكثر مما قلناه، لكن الأمر يتطلب منا تناول بعض مظاهر الاستغلال الخاصة بالحجاج الجاوة وحدهم.

السواد الأعظم من الجاوة يفتقرون إلى احترامهم لذواتهم فى التجمعات الإسلامية العالمية أو الدولية، وهذا هو ما يفسر المعاملة المزدوجة التى يلقاها هؤلاء الجاوة فى معظم الأحيان. هذا يعنى أن الحجاج الجاوة يسلمون أنفسهم تسليما أعمى للمطوفين الذين يتولون إرشادهم وقيادتهم. أليس هؤلاء المطوفون شيوخا فى مكة، المدينة التى لاسمها دوىٌّ خرافى فى آذان أهل الملايو؟ بعض الحكام الجاويين، وأبناء

بعض أمراء الملايو يقبِّلون أيادى أى خادم من الخدم العرب، الذين يحتقرونهم عندما يفعلون مثل هذه الفعلة. وهؤلاء الحكام وأبناء الأمراء لا يقبِّلون تلك الأيادى من باب أن أصحابها أرقى أو أسمى منهم، ولكن من منطلق أن دين هؤلاء الناس يطلب إليهم مراعاة مخافة الله عندما يكونون فى تلك الأرض المقدسة.

هؤلاء الجاوة يتعلمون التخلى عن ذلك الاحتقار المشين للذات بعد أن يقيموا فى مكة فترة معقولة من الزمن، لكن هذه الحكمة لا تعود على أمتهم بأية فائدة من الفوائد. هؤلاء الجاوة يبدأون بالنظر إلى وطنهم باعتباره كومة من الروث أو الحمأة عندما يقارنون ذلك الوطن بمكة المكرمة الطاهرة، والسبب فى ذلك أن أشكال الحياة الخارجية هنا (فى مكة) تجعلهم يتذكرون عقيدة الإسلام، وتعيد إلى أذهانهم أيضا ذلك الماضى الوثنى فى بلادهم. هؤلاء الجاوة يقارنون فى هذا الوقت بين الجانب المعتم من ظروفهم الوطنية والجانب المضىء فى الحياة المكية؛ الأمر الذى يجعلهم يُضحُّون - بلا صراع داخلى - بكل المشاعر الوطنية وبكل العادات والتقاليد الوطنية، كل ذلك من أجل الارتفاع بتضامنهم مع الإمبراطورية الإسلامية العظيمة.

هؤلاء الجاوة بعد أن يطول مقامهم فى مكة يختلطون بأهلها ويصبحون جزءا من المجتمع المكى، ومن ثم تقل صرامة آرائهم فى هذه المسألة عن ذى قبل، ولكن احتقارهم لا يقل ولو مثقال ذرة عما كان عليه. وإذا كانوا من قبل ينظرون إلى العالم المكى نظرات تراعى تقوى الله ومخافته، فإنهم الآن، ومن باب الوعى الكامل والصحيح لتقدمهم على سلم الطاعة والتقوى، يحتقرون مجتمعهم "النجس" الذى كانوا ينتمون إليه فى يوم من الأيام. ولعل هذا هو الذى يجعل الجاوة يظنون أن المكيين لا يمكن أن يساوونهم بأنفسهم إلا إذا نفض (الجاوة) عنهم الآثار المتبقية من أصولهم القديمة.

وواقع الأمر أن المكيين هم الذين يقومون على أمر مسألة غسل الجاوة من النجاسة الوطنية، وأن هذا الغسل لا يتم مجانا، والذين يقومون بهذا الغسل بطبيعة الحال هم

الزمازمة. وحجاج الملايو لا يقدمون للزمازمة وحدهم النذور الموعودة لكى يحضروا لهم دورقا أو أكثر من دوارق ماء زمزم، وإنما يعطونهم أيضا مبلغًا صغيرا من المال، يضاف إلى ذلك أن هذا الغسل يجرى ثلاث مرات فى أضعف الأحوال، ويقدم الحجاج الجاوة أيضا حصيرا للمصلين بهذه المناسبة. ويتطهر هؤلاء الحجاج الجاوة من الهواء الجاوى النجس ومن تراب جاوة النجس بغسلهم بماء زمزم، وهذا الغسل يتم فور وصول الجاوة إلى مكة، كما يحدث مرة ثانية عندما يغادرون مكة إلى الحرم النبوى فى المدينة المنورة، كما يغتسلون مرة ثالثة قبل عودتهم إلى أوطانهم.

جبل أبو قبيس، واحد من الأماكن المشرَّفة التى يزورها السواد الأعظم من الحجاج. قدسية هذا الجبل ترجع إلى الأزمان الوثنية. جبل أبو قبيس، شأنه شأن كل من الأماكن العربية المشرَّفة الأخرى، والفتش(*) بكل أشكاله، والذى عجز الإسلام عن اقتلاعه أو محوه، هذا الجبل جعل خيال المؤمنين الجامح يُضْفى عليه مزيداً من الأساطير على اختلاف أنواعها، مما سوَّغ زيارة ذلك الجبل عند الحجاج، وهذه الأساطير المدونة يزاد عليها بين الحين والآخر.

فى الركن الشمالى من جبل أبى قبيس يوجد حاليا مسجد صغير يرى الزائر فيه حجرا له لون الحجر الأسود الشريف(٢٢)، ويقال إن الحجر الأسود أُخِذَ من هنا (من جبل أبى قبيس) أو خبئ هنا فى أثناء الطوفان ، ومن ثم يجىء ذلك الأثر الذى يحثُّ الحجاج على تقبيله، وبالقرب منه يصلى كل حاج من الحجاج "ركعتين". وفى ركن آخر بارز من الجبل، يقال إن (سيدنا) إبراهيم وقف عليه بعد الانتهاء من بناء الكعبة، وراح

(*) الفتش، أو البُد: شىء كانت الشعوب البدائية تعتقد أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته. (المترجم)

(٢٢) راجع المقال المعنون: Verhandlungen der Gesellschaft fur Erdkunde ، برلين، المجلد رقم ١٤ ، ص١٤٦ .

يؤذن فى الناس بالحج بصوت عال[٢٣] . هنا يقوم الشحاذون بفرش قليل من الرمل الأبيض على مساحة صغيرة، ليدخل الحجاج إلى المكان، ويرددون بعض الأدعية خلف مرشديهم، وينادون بأسماء أصدقائهم الحميمين فى بلادهم وأقاربهم المقربين، وبمشيئة الله، فإن هذا النداء من الأرض المقدسة سينتج عنه مجيء هؤلاء الذين ناداهم الحجاج إلى مكة لأداء فريضة الحج. أخيرا هناك على جبل أبى قبيس حفرة كبيرة شبه مستطيلة مبنية فى الأرض، سبق أن وصفها العلامة قطب الدين قبل ثلاثة قرون فقال[٢٤]: "فوق الجبل توجد حفرة يزورها الناس باعتبارها من المشرفات. هذه الحفرة ليست قبر آدم عليه السلام، وإنما هى حفرة بنيت فى الأزمان القديمة، عندما كانت هناك قلعة على قمة الجبل لتخزين الماء. والناس هنا يزعمون أن من يأكل رأس خروف يوم السبت على جبل أبى قبيس لا يأتيه الصداع طوال حياته، ولعل هذا هو السبب وراء تدافع الناس إلى جبل أبى قبيس صباح كل يوم من أيام السبت، لكى يمارسوا تلك العملية الشافية".

منذ أن دون مؤرخ الحوليات هذا الحدث أعلن أن ذلك المكان هو الذى رست فيه سفينة نوح، وبدأت عند ذلك مسألة أكل رءوس الخراف المطهوة فى ذلك المكان، وبالأحرى داخل تلك الحفرة. هناك بعض الحفر فى جدار الحفرة على شكل درجات سلم تمكن من النزول إلى الحفرة، وعلى أرض الحفرة يتم مدُّ حصير لكل جماعة من جماعات الحجاج. هذه الوجبات لا تقدم فى أيام السبت فقط وإنما يجرى تقديمها فى أى يوم من أيام الأسبوع، لكن بقى الأمر مقصورا على الحجاج الجاوة وحدهم طوال

---

(٢٣) أسطورة أذان إبراهيم تخدم أيضا مسألة تقديس حجرة "مقام إبراهيم". راجع كتابى "الأعياد المكية" ص٤٥-٤٦ .

(٢٤) راجع كتاب Chroniken der stadt Mekka، من إعداد وستنفيلد Wastenfeld، الجزء الثالث، صفحة ٤٤٣ .

سنوات عدة. واقع الأمر أن شيوخ الحج يتقاضون ثمنا كبيرا لكل رأس من تلك الرءوس المطهوة، بل إنهم يأكلون القسم الأكبر من هذه الرءوس(٢٥) .

هناك مثال آخر على عادة أخرى يأتيها هؤلاء الجاوة الذين يصدقون كل شيء. على بعد مسافة قصيرة فى الشمال الشرقى من مكة، هناك كما هو معروف، جبل حراء، الذى يسمونه "جبل النور"، مخروطى الشكل. وجرت محاولات عدة لأسلمة ذلك الجبل وتخليصه من قداسته الوثنية عن طريق أساطير عدة منها:

١) أن محمداً ﷺ رأى رؤيته المنامية [أتاه الوحى] أول مرة فى ذلك المكان.

٢) وأن هذا الجبل خدم محمداً ﷺ عندما لجأ إليه، وكان أعداؤه تحت قدميه(٢٦).

٣) وأن هذا الجبل أنذر محمداً ﷺ وحذره من العدو الذى كاد يطبق عليه.

وهناك موروث شعبى يعزو إلى ذلك المكان القصة الشهيرة التى مفادها أن ملكين أخذا قلب محمد ﷺ من صدره وبعد أن غسلاه فى الطبق الذهبى أعاداه إلى صدر محمد ﷺ . وتحول جبل النور إلى منتجع يذهب إليه السواد الأعظم من الحجاج، ولكن المكيين تمكنوا من أن يجعلوا من مسألة "تطهير القلب" هذه مصدرا جديدا من مصادر الربح الذى يجنونه من الحجاج الجاوة. وحتى يتمكن المكيون من جعل هؤلاء

---

(٢٥) قرأنا فى التقويم الحكومى للحجاز فى العام ١٣٠٣ الهجرى فى صفحة ١٥٥ أن القزوينى يروى فى كتابه المعنون "عجائب المخلوقات" أن من بين سمات وخصائص أبى قبيس أن من يأكل هناك رأس خروف مطهواً لا يصيبه الصداع مدى الحياة، ومن هنا يرغب كثير من الغرباء فى إتيان هذا العمل، وبصفة خاصة الحجاج الجاوة.

(٢٦) الشىء نفسه يقال عن جبل ثور الجنوبى، وبعض الباحثين وقعوا فى خطأ هذه الازدواجية. نقلا عن مجلة Chroniken der stadt Mekka، المجلد الثالث، صفحة ٤٤٧ .

الناس البسطاء يحاكون النبى ﷺ ويقلدونه دون انتزاع قلوبهم من صدورهم، يضع الواحد منهم بضع ثمرات من التمر على صدر الحاج ويغطى تلك الثمرات برغيف (خبز عربى رقيق مرن ومستدير الشكل). ثم يقوم بعد ذلك طفيل من طفيليات جبل النور بشق الرغيف إلى قسمين، ببركة بسم الله الرحمن الرحيم، ويأخذ التمر الذى يمثل القلب. والدعاء الذى يقال بهذه المناسبة يدفع أجره خبزا، وتمرا، وهدية مالية.

ينبغى التنويه هنا إلى أن قسما كبيرا من الجاوة يعزفون عن هذه اللعبة.

***

مسألة تنقية الجاوة تماما من نجاستهم الفطرية لا تزال تتطلب إجراءً مهما، يتمثل فى تغيير أسمائهم التى سموا بها. هذا يعنى أن الأجانب الذين يستقرون فى مكة يغيرون أسماءهم التى يصعب على الشفاه العربية النطق بها، والسبب فى ذلك أن الجاوة إما أنهم يودون البقاء مجهولين ومجهَّلين وغير معروفين أو أنهم يريدون أن يتخذوا لأنفسهم اسما جديدا. وعلى كل حال، فإن الجاوة كلهم يتخذون لأنفسهم أسماء عربية جديدة فى مكة، سواء أكانوا قادمين لأداء فريضة الحج أم للإقامة فترة طويلة فى مكة (المكرمة). قد يكون ذلك راجعا من ناحية إلى العادات الوطنية فى مرحلة مهمة من مراحل الحياة (مثل الزواج أو تبوؤ منصب جديد) تتطلب تغيير الاسم[٢٧] .

استطاع المكيون الحصول على بعض المزايا من عملية تغيير الأسماء هذه، فقد راحوا يحرضون الجاوة ويولدون فى داخلهم مسألة أو رغبة تغيير الأسماء، من منطلق أن ذلك من الوقار الدينى، بل من التطهر فى بعض الأحيان، وأن ذلك يجلب على

(٢٧) راجع كتاب الأستاذ الدكتور بى. جى. فيث Veth، المعنون "جاوة" الفصل الأول، صفحة ٦٤١-٦٤٢ .

صاحبه الكثير من الخير والبركات، وهنا يتضح أن الاسم الجديد يحتم تقديم هدية مالية إلى من يمنح الأسماء. وقد بقى ثلاثة من الرجال يقومون بمنح الأسماء، طوال فترة زمنية غير قصيرة، وهؤلاء الرجال الثلاثة هم: مفتى الشافعية (وأى واحد من أولئك الذين ينوبون عنه، لكن مفتى الشافعية عند الجاوة بصفة خاصة هو السلطة الدينية العليا فى المدينة المقدسة). والرجل الثانى هو ذلك الإمام الذى اعتاد الجاوة أن يتعلموا منه قراءة الفاتحة فى أحد المساجد. أما الرجل الثالث فهو الرَّيِّس، أو إن شئت فقل كبير المؤذنين، والذى يقوم أيضا بدور الفلكى فى الحرم المكى، ذلك المسئول منذ قديم الأزل عن التأذين للصلاة من الطابق العلوى من مبنى زمزم.

خلفاء المفتى، أى من جاءوا بعده، وكذلك أحفاد الأمام، وأولئك الذين يحملون لقب الريِّس من هذه السلالة، كل هؤلاء يدعون لأنفسهم حق دعوة الجاوة إلى تغيير أسمائهم استكمالا لإسلامهم، وأن يذهبوا إلى منازلهم لدعوتهم إلى ذلك التغيير. هؤلاء الثلاثة هم الذين يمنحون شهادات العمادة التى يوقعون عليها بأن الحاج كيت وكيت، ومن المنطقة الفلانية سوف يحمل الاسم (س) اعتباراً من الآن. ومن باب تسهيل هذه المهمة قام مفتى الشافعية بطبع بعض الاستمارات، على أن يكتفى فقط بذكر الاسم القديم والاسم الجديد فى تلك الاستمارات. اختيار الأسماء الجديدة يكون بناء على رغبة وذوق الجاوى نفسه، هذه الأسماء علاوة أيضا على الأسماء الإسلامية الأخرى (التى من قبيل محمد وأحمد وعلى وحسن وحسين وأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الله ... إلخ) لها مذاق خاص لأنها أسماء لكبار علماء المسلمين، وهذه الأسماء هى والأسماء التى من قبيل الشافعى والرفاعى والنواوى والسنوسى والغزالى وكذلك الشربينى تتردد كثيرا فى بلاد الملايو بين الجاوة(٢٨) .

---

(٢٨) طبيعى أن يخطئ الجاوة فى نطق هذه الأسماء بطرق مختلفة (قد ينطقونها سابنجى أو سابيعى أو رابنجى أو رابيعى أو جديالى أو ساربينى ... إلخ).

عندما يكون الحجاج قد سموا عند مولدهم بأسماء تنتمى إلى لغتهم الأم أو إلى اللغة السنسكريتية يصبح التغيير مطلوبا، حتى يسهل على المكيين مناداة أولئك الجاوة بأسمائهم، وحتى لا تتسبب أسماؤهم فى إحراجهم فى الدوائر العربية، كما هى العادة. وعلى سبيل المثال فإن الكلمة الجاوية **kusuma** من الكلمات التى تستخدم فى الأسماء الجاوية الراقية، ولكن هذه الكلمة تذكر كل عربى بسبة من أبشع السباب المبتذلة والمُهينة فى اللغة العربية **(kuss ummah)** . لكن كثيرا من الجاوة الذين أطلق عليهم آباؤهم أسماء عربية يحصلون أيضا على أسماء جديدة، وبذلك يحدث تغيير الأسماء الطيبة التى من قبيل أحمد ... إلخ، إلى الغزالى وما شابه ذلك.

الهدايا هنا تعمل عملها إلى حدٍّ أن واحدًا من الناس بدأ مؤخرا فى تغيير أسماء الجاوة الذين أعيدت تسميتهم فى مكة، وذلك عندما سافروا لزيارة قبر النبى ﷺ فى المدينة المنورة. وبعد أن أصبحت مسألة توزيع الأسماء عملاً تجاريا، أصدرت الحكومة أوامرها إلى النقابة الجديدة الصغيرة بأن تؤهل نفسها بالحصول على التراخيص المطلوبة، التى دونها تصبح هذه التجارة شكلا من أشكال السرقة. وراجت هناك شائعة مفادها أن السلطات سوف تعد الاستمارات المطلوبة لذلك الغرض، وتقدمها للمتنافسين الثلاثة الذين يتعين عليهم دفع مبلغ محدد عن كل استمارة من الاستمارات التى يتم استعمالها.

ذات مرة كنت فى زيارة للمفتى أحمد الدحلان، وعندها حضرت جماعة مكونة من ثلاثة عشر حاجا، كانوا يرغبون فى الحصول على أسماء جديدة. جاء هؤلاء الجاوة بصحبة شيخهم، ومعروف أن الذى يحدد الخيار من بين المتنافسين الثلاثة هو شيخ الحجاج، وأن الشيخ الذى يقع عليه الاختيار يتعين عليه دفع عمولة لشيخ الحجاج الذى يقتاد الحجاج إليه. وإذا ما بقى الحال على ما هو عليه، فإن المفتى تكون له مزايا كبيرة فى هذا الصدد، والسبب فى ذلك أن الإمامين أحمد فقيه وعلى الريِّس لا يتمتعان بالكثير فى مواجهة نفوذ المفتى فى مكة، فضلا عن احترام الجاوة لذلك المنصب الرفيع

والمكانة العالية. من هنا فإن الإمامين يَعِدان وكلاءهما بعمولات كبيرة تصل إلى نصف المبلغ المدفوع فى بعض الأحيان، فى حين لا يدفع المفتى لشيخ الحج سوى هدية بسيطة. دخل الرجال الثلاثة عشر الكديريون (من كدِيرِى فى جاوة) غرفة صغيرة كنت أنا جالسا فيها بالقرب من المفتى على "الكراويتة"، أو بالأحرى الكنبة الخشبية، وجلسوا بالقرب من الباب. وجرى النداء عليهم الواحد بعد الآخر ليدخلوا للمفتى. أطاع الجاوة الأمر وراحوا يزحفون كما لو كانوا لا يقوون على رفع أعينهم إلى الهالة السماوية، وراحوا يقبلون يد ذلك الرجل المسن. وكان المفتى يمسك كل واحد منهم من يده ويعطيه الاسم الإسلامي، ويقول له الشهادة الإسلامية التى يروح كالمريض يرددها خلفه بصوت مرتعش. ويقول بعد ذلك باللغة العربية "ما اسمك؟" ولما كان الحجاج لا يفهمون هذا السؤال فقد أجاب عنه الشيخ بنفسه. ولما كانت الأسماء تبدو جاوية كان المفتى يقوم بتدوينها، ولم يكن ذلك التدوين خاليا تماما من الأخطاء، ولم يكن المفتى فى بعض الأحيان يتجنب الاستعاذة بالله عندما يقول له أحد الجاوة إن والده أسماه عبد مناف (وهذا الاسم معناه عبد الإله العربى القديم مناف). وهنا كان المفتى يتساءل عما إذا كانوا قد سموه عبد المنَّان، ولكن الرد كان نفيا قاطعا. الواقع أن ذلك الوالد الجاوى أخطأ عن جهل .

وفى ظرف عشر دقائق كان الجميع قد حصلوا على أسماء جديدة، وراحوا يجلسون فى أماكنهم السابقة بالقرب من الباب. وبدأوا الواحد بعد الآخر يحْبُون متقدمين صوب الرجل المسن الذى فرش أمامه قطعة صغيرة من القماش، وضعت أمام الكرسى الذى يجلس عليه. وعندما بدأوا ينصرفون ويقبلون يد المفتى، راح كل واحد منهم يضع دولاره تحت المنديل، ويرجع إلى الخلف متجها صوب الباب. وبأسلوب ينطوى على النفاق تظاهر شيخ الحجاج بالانصراف معهم، ولكن المفتى نادى عليه.

قال المفتى: "بلغنى أن خمسا وعشرين حاجا جاءوا من كدِيرِى" .

– "والله، يا شيخ، هذا ما حدث، لكن الاثنى عشر حاجا الآخرين جرى تحويلهم إلى زميلى فلان، والله العظيم[٢٩]، أنا لم أستقبل سوى هؤلاء الحجاج الثلاثة عشر، وإلا لكنت أحضرتهم جميعا إلى هنا".

– "هذا طيب، خذ هذين".

وناول المفتى شيخ الحجاج دولارين من الثلاثة عشر دولارًا الموضوعة أسفل المنديل.

– "جزاك الله خيرا".

وبذلك تنتهى طقوس منح الاسم.

***

نحن إن أردنا تتبع الجاوى العادى فى المسارات كلها، لا يتبقى لنا (بغض النظر عن أركان الحج والطواف حول الكعبة، والإكثار من الصلاة فى الحرم المكى إلى أبعد حدٍّ ممكن) سوى ثلاثة من تلك المسارات، هى التى يجدر بنا أن نأتى هنا على ذكرها. إذا كانت الإجراءات سالفة الذكر يتخذها الجاوة جميعهم على وجه التقريب فإن أولئك الذين لديهم متسع من الوقت للمهن التى سنأتى على ذكرها، هم أولئك الذين يدخلون مكة قبل أو بعد شهر رمضان بوقت قصير، أو أولئك الذين يبقون فى مكة بضعة أسابيع بعد الحج. وسوف أبدأ كلامى عن أولئك الجاوة الذين يقيمون فى مكة مددا طويلة.

بعض الجاوة، وبخاصة أولئك الذين يسكنون قبل الحج فى مكة تحت إرشاد شيخ تقى من شيوخ الحجاج، يجرى تثقيفهم بواسطة هذا الشيخ نفسه (وبخاصة إذا ما

(٢٩) "والله العظيم وبالله الكريم" هذا قسم شائع فى مكة.

كان أولئك الحجاج من بلديات ذلك الشيخ)، أو قد يكون تثقيفهم بواسطة شخص كفء من أبناء البلد بأوامر من شيخ الحجاج نفسه. وهذا التثقيف يكون فى مجال الشريعة، وبخاصة ما تعلق منها بفريضة الحج. ويجرى فى هذا الصدد استعمال كتاب المناسك المكتوب بلغة الملايو أو بلغة أخرى حسب الأفراد الذين يستعملونه. ويجب ألا يغيب عنا أن السواد الأعظم من الحجاج الذين يأتون إلى الأراضى المقدسة لا تكون لديهم أية فكرة عن أركان الحج أو العمرة. بل إن الكثيرين منهم يعودون إلى بلادهم، وهم يحملون اسم حاج، ولكن على النحو الذى كانوا عليه من قبل.[٣٠] هؤلاء الحجاج يحدث اقتيادهم يوما بعد يوم خلال المدينة، من مكان مشرَّف إلى آخر، ويتم تلقين المناسك إلى هؤلاء الحجاج تلقينا جيداً، يضاف إلى ذلك أن ترديد الدعاء يكاد يكون شكليا، نظرا لأن هؤلاء الغرباء لا يفهمون فى معظم الأحيان شيئا من هذا الدعاء. من ذا الذى لديه متسع من الوقت كى يقوم بتفسير وشرح معانى ذلك الدعاء فى مثل هذه الظروف المتعجلة لأى إنسان فى غضون أسابيع مشحونة بالقلق ولا تعرف الراحة؟ متى يعرف الجاوة، وأنَّى لهم أن يتعلموا أن زيارة الأضرحة المتعددة، وزيارة البيوت الأثرية، ودخول الكعبة، والاستحمام من ماء زمزم ... إلخ، لا تدخل ضمن أركان الحج؟

مرشد الحجاج لا يقول لهم هذه الأشياء تحت أى ظرف من الظروف، نظرا لأن ذلك سوف يسفر عن عدم المشاركة فى تلك المسيرات المرهقة، وسوف يؤثر ذلك أيضا على ما يحصل عليه أصدقاء المرشد، بل إن ما يحصل عليه المرشد نفسه سوف يصاب بأضرار مستديمة.

عدد كبير من هؤلاء الحجاج لا يحتفظون فى أذهانهم بشىء من الجهود اليومية المضنية سوى ذكريات مرتبكة ومشوشة عن الجماهير المريعة، والتدافع والصياح،

---

(٣٠) من هنا فإن بوركهارت، الذى أدى العمرة، يصف العمرة وصفا غير دقيق، كما لو كان الاستعداد للعمرة هو الشىء الأساسى، بوركهارت هو وبيرتون يعلنان أن الركن الرئيسى فى الحج هو الخطبة، التى لا يجرى إلقاؤها فعلا.

والحرارة والظمأ، وهذه الذكريات لها دورها الفعال إلى حدٍ بعيد. والحاج الجاوى يأخذ كلام مرشده مأخذا حرفيا، وأن كل شىء يجرى طبقا للنظام، لكنه لا يطلب من شيخ الحجاج مزيدا من التفاصيل. ولهذا السبب نجد أن اختبارات الحج التى كان موظفو الحكومة يعقدونها من قبل فى جزر الهند الهولندية كانت عديمة الجدوى أو الفائدة. شيوخ الحج هؤلاء يحرصون فى البداية على إفهام حجاجهم المناسك التى يتعين عليهم القيام بها، باعتبار أن هذه المناسك أجزاء من كل. الجاوة الذين يصلون إلى مكة قبل رمضان بفترة طويلة يقوم على أمر تثقيفهم أبناء بلادهم المقيمون فى مكة، ويكون ذلك التثقيف فى الصوم وأحكامه وما يتصل به.

***

المغنم الروحى الثانى الذى يبقى من أجله كثير من الجاوة وقتا طويلا فى مكة (المكرمة)، يتمثل فى تحسين قراءتهم للقرآن. والسبب فى ذلك أن شفاه أهل الملايو تجد صعوبة بالغة فى التلاوة طبقا لقواعدها الصحيحة، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من بلاد الجاوة ليس فيها عدد كاف من مدرسى القراءات المؤهلين. وبالتالى يصعب على المرء أن يحقق التقدم المنشود فى التلاوة خلال فترة تقدر ببضعة أسابيع، لكن كل ما يمكن أن يفعله المرء فى مثل هذه الفترة هو التمكن من قراءة سورة الفاتحة بطريقة سليمة (سورة الفاتحة تجرى قراءتها مرات عدة فى كل صلاة من الصلوات) وتحت توجيه جيد. ويتم دفع أجور للمدرسين نظير تعليم القراءة (التلاوة) فى سائر أنحاء العالم الإسلامى. والسلطات الشرعية هنا تقول علانية إن الإنسان بوسعه تعلُّم القرآن أو تلاوته (فى المناسبات اللائقة) نظير مبلغ من المال، وأن المهن التى من هذا القبيل تتعين تزكيتها. من هنا نجد أن مدرسى القرآن لا يأخذون عطلات ما دام هناك مغنم أو مكسب من وراء ذلك، كما أن بعضا من الفقهاء فى مكة متخصصون فى تثقيف الحجاج الجاوة الذين يبقون فترة من الوقت فى مكة قبل الحج أو بعده.

هؤلاء الذين يتوافر لهم الوقت، أو تتهيأ لهم الفرص المناسبة يتعلمون إما جزءاً كاملاً (أى $\frac{1}{30}$ من القرآن)، أو كثيرا من السور القصيرة فى أضعف الأحوال، أو قد يخصصون ساعة واحدة من صباح كل يوم لتعلم الفاتحة، إلى أن يتمكنوا من تلاوة سورة الفاتحة على نحو يرضى عنه المدرس العربى. أحمد الفقيه واحد من هؤلاء المدرسين، وأحمد هذا هو الإمام الذى سبقت الإشارة إليه، وهو يتمتع بشهرة ذائعة. ومن مصلحة أحمد الفقيه أن يتوقف التلاميذ الكبار بعد أن يتعلموا الفاتحة، لأن ذلك يوفر له الوقت ويمكنه من قبول بعض التلاميذ الجدد، يضاف إلى ذلك أن القدر الأكبر من الهدايا، تقدم قبل بدء التعلم.

***

أخيرا، كثير من الجاوة يتتلمذون على شيخ من الصوفية حتى يمكن لهم الانضمام إلى الطريقة الصوفية فى أقصر وقت ممكن. واقع الأمر أن المبادأة فى مثل هذه الأحوال تكون مقصورة على الأشياء الخارجية التى من قبيل الذكر والورد، وكثير من التدريبات العامة، وقلة قليلة من التوجهات (أى المقابلات الشخصية) مع شيخ الطريقة، أو باختصار قدر كبير من الطرق التربوية والتعليمية التى سبقت الإشارة إليها فى الفصل السابق باعتبارها ضرورية فى إعداد الناس لقبول يمين الطاعة. الشيخ سالف الذكر، وخليل باشا (الداغستانى)، هما وسليمان أفندى، ومعهم شخص آخر يدعى أيضا خليل (أفندى)، لهم أعداد كبيرة من المريدين فى سائر أنحاء أرخبيل الملايو. واقع الأمر أن هؤلاء المريدين حظوا بالتثقيف على يد واحد على الأقل من هؤلاء الشيوخ، أما أولئك الذين لم يحضروا لأداء فريضة الحج فيتولى أمرهم الخلفاء (النواب) الذين ينوبون عن هؤلاء المشايخ، والمعينون من قبلهم فى بلادهم، أى فى جزر الهند الشرقية. وفى جزيرة سومطرة بصفة خاصة وغرب جاوة وجنوب بورنيو، نجد أن الأقسام الثلاثة من الطريقة النقشبندية انقسمت إلى أفرع شخصية لبعض الشيوخ

المقيمين فى مكة، وقد بدأت تلك الأفرع تزدهر، لكن ما زال هناك فى أقصى الشرق وفى الجنوب كثير من الإخوان المبعثرين هنا وهناك، ويقال أيضا إن هذه الطريقة آخذة فى الازدهار فى مستوطنات المضايق الإنجليزية.

فى مستوطنات المضايق البريطانية يوجد كثير من المنفيين من الممتلكات الهولندية، أو أولئك الذين لا يستطيعون الدخول إلى هذه المناطق بسبب القوانين التى تحظر هجرة الشرقيين الأجانب، يضاف إلى ذلك أن الكثيرين ممن يبحرون قادمين من مكة إلى جزر الهند الشرقية يقفون للراحة فى هذه المناطق. وهذه المناطق لها أهمية كبيرة فى الحركة الدينية فى جزر الهند الشرقية، والعملية ليست مجرد درس نظرى من الدروس التى يجب أن نتعلمها من حرب آتشيه(*) التعيسة.

كثير من الجاوة الذين يرغبون فى البركة الصوفية، وبخاصة سكان جزيرة جاوة، يفضلون - حتى عندما يكونون فى المدينة المقدسة (مكة) - التوجه ناحية بنى وطنهم الذين يمكن أن يكونوا لهم قادة ومرشدين فى الطريق إلى الله، والشيخ سليمان هو والشيخ خليل لهما فى واقع الأمر كثير من المساعدين الذين جاءوا من بلاد الجاوة، وبالتالى يترك لهم الشيوخ جزءا كبيرا من التعليم. لكن الجاوة يشعرون بالراحة الكاملة فى الطريقة التى يتكلم بها رئيسها إليهم مستخدماً لغتهم الأم. وسوف نرى فيما بعد كيف يمكن الوفاء بـ هذا المطلب وفاء كاملا فى الجالية الجاوية فى مكة.

***

الحج يستغرق ستة أيام تقريبا. الرحلة من مكة إلى منى (± ساعتين) ومن منى إلى عرفات (± ٤ ساعات) مع الأخذ فى الحسبان مسألة توفير الراحة الكافية للحجاج، يضاف إلى ذلك أن المجىء والذهاب غير المنظم لقوافل صغيرة وأخرى كبيرة، وكذلك الزى غير المعتاد للحجاج، كل ذلك يجعل من الحجاج جميعهم وافدين جددا. ومن الطبيعى أن يدفع الجاوة أجرا كبيراً للإبل التى تنقلهم هم ومستلزماتهم الضرورية

(*) حرب آتشيه هى الحرب التى خاضتها هولندا ضد سلاطين آتشيه المسلمين حتى نجحت فى إدخالهم تحت حمايتها عام ١٩٠٣ . (المراجع)

إلى الوادى المقدس (منى) وإلى السهل المقدس (عرفات)، كما يدفع الحجاج الجاوة أسعارا عالية أيضا نظير استعمال جزء من الخيمة التى يحضرها المرشد، كما يدفعون أيضا ثمن الوجبات التى يتناولونها على عرفات ومنى. وعلاوة على ذلك يكون حث الحجاج الجاوة على ذبح أكبر قدر من الخراف. ويقوم أحد الأشخاص بشرح الأمر للجاوة، وأن الحاج لا يكتفى بنحر الأضحية (القربان) فى منى، وإنما يتعين عليه التكفير عن أى خطأ يقع فيه فى الحج بذبح أضحية جديدة، ويشرحون للحجاج الجاوة أيضاً المزايا التى يمكن الحصول عليها إذا ما نحر الحاج فى الأراضى المقدسة نيابة عن نفسه أو عن أقاربه ما يسمى بأضحية العقيقة التى يحتمل أن يكون قد أهملها أو غفل عنها. وتحول الأمر تدريجيا إلى عادة يُطلب بمقتضاها من الحاج الجاوى مبلغ من المال لكل من القربان والعقيقة، دون معرفة دقيقة بعدد الخراف التى سيجرى نحرها باسم كل حاج من الحجاج. جلود الأضاحى التى تنحر فى منى، وهى كثيرة العدد فى كل الأحوال، والتى يتحتم بيعها حسب مقتضيات الشريعة، تشكل على الرغم من ذلك سلعة يجرى تصديرها إلى أوروبا. ويجوز لنا هنا المرور على بعض وسائل الابتزاز الصغيرة الأخرى، التى يتعرض لها الجاوة، شأنهم فى ذلك شأن الحجاج الآخرين، خلال تجمعات الحج الكبيرة.

هذا الذى أتينا على ذكره يكفى لجعل القراء المتفحصين يحكمون على مدى أهمية الحج فى الحياة الدينية فى جزر الهند الشرقية، وذلك فيما يتعلق بالزائرين العابرين الذين يفدون مكة من أجل أداء فريضة الحج ليس إلا، وهنا يتعين علينا الحذر حذرا شديدا من الانسياق وراء المبالغة فى التعميم. وهذا الفن يعرفه "خبراؤنا" المتخصصون فى أحوال جزر الهند الشرقية، كما يعرفه أيضا كل واحد منا. ونحن نسمع من واحد من المقيمين، الذين دخلوا فى اتصالات متعبة مع الحجاج، أن أولئك الحجاج هم بمثابة الطاعون الذى يسرى فى المجتمع الوطنى، هؤلاء الحجاج هم الذين يشجعون المواطنين على المقاومة، وهم أيضًا الذين يبذرون بذور التطرف وكراهية الأوروبيين، إلخ. وهذا مقيم آخر، تهيأت له فرصة الاتصال بالحجاج الوديعين، الذين خدموه خدمة "الخدم المخلصين"، يرد بما مفاده أن ذلك كله من اختلاق الزملاء الذين لا يجيدون الأشياء، والسبب فى ذلك أن من يعرف كيف يتعامل مع الحجاج (مثل المتكلم) يعرف أنه يجب

أن يتعامل معهم على أنهم أناس عقلاء ومنظمون، كل هؤلاء يبدأون من منطلق أن الحجاج لهم طابع خاص.

قد يعجب القراء الذين لا يعرفون ظروف جزر الهند الشرقية الهولندية من ذلك الخطأ الذى يقع فيه المسئول الحكومى، لكن هذا الخطأ له ما يبرره، وهذا المبرر يسهل فهمه والوقوف عليه.

هناك أسباب متباينة هى التى جعلت من لقب الحاج فى ذلك الأرخبيل شيئا مدويا لا مثيل له فى أى جزء من أجزاء العالم. كانت المسافة الشاسعة بين الجزيرة العربية وجزر الأرخبيل تشكل عقبات كثيرة أمام أداء فريضة الحج قبل زمان السفن البخارية، وهناك أيضا دخول بلاد الجاوة فى دين الإسلام، الأمر الذى ترتب عليه أن المناطق الداخلية من البلاد كانت تعانى من ندرة المعرفة والممارسات الشرعية، إلى حدٍّ أن كل من أمضى حتى ولو فترة قصيرة فى مركز من مراكز الحضارة الإسلامية كان يعد سلطة إسلامية فى تلك الأجزاء من البلاد، وهناك أيضا العادة التى درج عليها السواد الأعظم من الحجاج الجاوة بعد أن يعودوا لوطنهم، ويحاكوا بمقتضاها اللباس العربى كى يميزوا أنفسهم عن بنى وطنهم، وفى الأغلب الأعم للوفاء بعناصر دينهم الطقوسية وفاء يفوق وفاء عامة الناس العاديين. كل هذه الظروف وظروف أخرى شبيهة لها، هى التى أدت إلى رفع مكانة الحجاج فى جزيرة جاوة بصفة خاصة، كما رفعت شأن الحجاج أيضا فى بعض المناطق الأخرى، وجعلت منهم طبقة متميزة عن بقية السكان الآخرين. هؤلاء الحجاج عاشوا، ويعيشون إلى حدٍّ ما على حساب إخوانهم المواطنين الذين لم تطأ أرجلهم الأراضى المقدسة، وهؤلاء الذين يؤمنون بالخرافات فى ذلك المجتمع يعلقون أهمية كبيرة على الأحجبة والتعاويذ التى يعدها هؤلاء الحجاج، ويؤمنون دوما أن الحاج لابد وأن يحضر معه من مكة علما كثيرا (بمعنى علمًا مباركًا) .

الفارق الكبير بين هؤلاء الذين أدوا فريضة الحج وما يتعلق بها، وأولئك الذين عاشوا سنوات فى مكة (المكرمة) جعلتهم مشاركين فى الحضارة العربية الإسلامية، هذا الفارق ليس واضحا أمام أعين الجاوة الذين يعيشون فى المناطق الداخلية. هذه

المناطق الداخلية كلها يسهل علينا فيها أن نفهم أن مسئولى الحكومة الذين ليست لديهم سوى معرفة سطحية بحياة المواطنين الدينية، كانوا ينظرون إلى أداء فريضة الحج كما لو كانت إكليروسا(*) من نوع بعينــة، ونظراً لأن الناس كانوا أيضا يشككون من قبل فى استغلال لقب الحاج استغلالاً سيئا بلا مبررات، فقد دفـــع الوقـــوع فى هذا الخطأ الحكومة إلى خطأ أدهى وأمر هو مسألة امتحانات الحجاج، الـــذى لـــم يؤدٍ بأى حال من الأحوال، للأسباب التى سبق ذكرها، إلى منع إساءة استعمال ذلك اللقب.

من الواضح أن الزيادة الهائلة التى طرأت على عدد الحجاج فى العقد الأخير لابد من أن تؤثر على المدى الطويل فى نفوذ الحجاج وتأثيرهم. هذا التأثير بدأ يظهر بشكل واضح أدى إلى ارتياح كثير من المسئولين، وجعلهم يتوقعون من الزيادة الكبيرة فى عدد الحجاج أن تؤدى إلى تنحيه التأثيرات البغيضة للحج جانبا. ويقال حاليا إنه لو استطاعت الحكومة منع ارتداء الزى العربى[٣١]، فإن اتخاذ المزيد من الإجراءات يمكن أن يترك بهدوء للزمن وتقلباته. هناك أيضا كثير من الاستنتاجات الزائفة التى يمكن ردها إلى الفرضية غير الصحيحة التى مفادها أن التأثير الذى يأتى من مكة، باعتبارها مركزا إسلاميا، ينتشــر فى سائر أنحاء إندونيسيا انتشارا واسعا أو بسيطا، هذه الفرضية لا تؤثر إلا على سائمة الحجاج. ونحن إن أردنا تقييم مغزى الحياة الإسلامية تقييما عادلا فى جزر الهند الشرقية فإن ذلك يحتاج منا إلى دراسة أعمق من تلك الدراسة التى تهيئ للمسئول الحكومى فرصة تولى منصبه، وبخاصة ظروف وأحوال الجالية الجاوية غير المعروفة إلى وقتنا هذا فى مكة، وأن نأخذ هذه الظروف وتلك الأحوال بعين اعتبارنا.

***

(*) الإكليروس هم رجال الدين المسيحى. (المترجم)

(٣١) قد يكون مثل هذا الإجراء مبررا بشكل أو بآخر، من منطلق أن الحكومة تطلب إلى كل السكان فى جزر الهند الشرقية وجوب ارتداء الملابس الوطنية، لكن زى البلدان الغربية الموقع من إندونيسيا معترف به حاليا على أنه زى الحج.

مسألة إنكار أهمية آلاف الحجاج فى حيوات شعوب جزر الهند الشرقية الهولندية يمكن أن تجرنا من مبالغة إلى مبالغة، وهذا هو ما نعارضه ونرفضه.

وعلى الرغم من أن مئات الحجاج يعودون كل عام من مكة، ولا يحملون معهم سوى فكرة غير واضحة عن مناسك الحج، فإن أشد هؤلاء الحجاج غباءً لا يعود من مكة إلا ولديه انطباع عميق عن ذلك العالم المجهول إلى يومنا هذا. قوة الإسلام السياسية الدينية المعروفة للجاوة إلى يومنا هذا (التى استقوها من الأساطير الشعبية التى تروى عن الأزمات الباكرة الرمادية، كما يستقونها أيضا من الرؤى التى تشبه رؤى الجن، عن الآخرة)، بدأت تعلن عن نفسها باعتبارها حقيقة واقعة لا مراء فيها. هؤلاء الجاوة سبق أن سمعوا فى بلادهم عن سلطان الروم العظيم (القسطنطينية) الذى ينبغى أن يخضع له السلاطين الستة الكفار، ويدفعوا له الجزية، لكنهم لم يلاحظوا فى الحياة أقل الدلائل على قوة الله.

أهلهم الذين استوطنوا مكة لا يزالون حتى بعد أن أصبحوا دنيويين يحتفظون لأنفسهم بتلك الانطباعات الساذجة عن الظروف والأحوال الأوروبية. واقع الأمر أنهم يعرفون أن هناك أكثر من ستة سلاطين كفار، ويعرفون أيضا أن مسألة الخضوع لكبير سلاطين المسلمين يعوزها شىء ما، لكنهم لا يزالون يراودهم ذلك الانطباع الذى مفاده أن الدولة الكافرة لا يكون لها أهمية أو مغزى إلا إذا كانت ممثلة لدى القسطنطينية[٣٢]. وهم بذلك يقوون ويدعمون أبناء بلدهم الذين يأتون للحج، فى اندهاشهم لعظمة الإسلام الحقيقية. يضاف إلى ذلك أن هنا فى مكة أيضا جنوداً مثل الجنود الذين فى بلاد الجاوة، ولكن هؤلاء الجنود يؤدون الصلاة.

---

(٣٢) إذا ما جرى الحديث فى أيامنا هذه، فى الدوائر المكية عن إيطاليا على سبيل المثال وعن مستعمراتها فى البحر الأحمر، فإن الناس يقولون: وصلوا إستانبول، بمعنى أنهم أصبح لهم سفارة فى بلاط سلطان العالم. والمكيون يقولون عن الصينيين إنهم ليسوا إمبراطورية "لأنهم ما وصلوا إستانبول".



حجاج من آتشيه ومعهم اثنان من وكلاء شيوخ الحج

مسالة طاعة مسئولى الحكم المحلى، تتعارض فى أغلب الأحيان مع رغبات السكان، ولكن الناس هنا مسلمون ويخافون الله سبحانه وتعالى . هنا وفى الأنحاء كلها، وفى الشوارع والمساجد، توجد سلطة تعمل عملها بإرادة الله، وتتجلى قوة الحكومة وتكشف عن نفسها بوضوح أكثر فى القسطنطينية أكثر منها فى مكة، وهذه قلة قليلة من الجاوة الجائلين هنا وهناك، هم الذين يبلِّغون عن ذلك الذى شاهدوه ورأوه. نعم، مكة هى المركز الروحى والقسطنطينية هى المركز المادى للعالم، وفيما يتصل بالتوجه نحو هذين المركزين، نجد الجاوة المؤمنين يتجهون نحوهما قلبا وقالبا.

أثناء الرحلة البحرية وأيضا فى مكة يتجمع الحجاج الجاوة من أقاصى الأرخبيل بعضهم إلى بعض، وهنا يكتسب تبادلهم الأفكار أهمية كبيرة؛ نظرا لأن أبناء بلدهم الذين استوطنوا مكة يولونهم قيادة وتوجيها محددا. فى هذا المجتمع الجاوى شديد الاختلاط تجد ابن جزيرة جاوة الذى استوطن مكة (المكرمة) يسأل الآتْشِيِّ الذى جاء لأداء فريضة الحج، عن أخبار الوطن والمعلومات عنه . ويجىء الرد الذى مفاده أنهم أوشكوا على الانتهاء من طرد الهولنديين الملعونين، وأنهم سوف يجهزون عليهم فى يوم من الأيام. وهذا جاوى آخر تقدمت به السن فى خدمة الحكومة وأحيل إلى التقاعد، يرى أن رد ذلك الآتْشِيِّ غير معقول؛ "الأوربيون لابد لهم من أن يحكمونا، وهذه إرادة الله. لماذا طرد الهولنديين وإهدار الدم والمال، وفى النهاية يصبح لنا سادة من الإنجليز بدلا من الهولنديين". وهنا يرد الجاوى على ذلك المسن محتقرا إياه: "هذا الجبن من جانب الجاويين يزيد من غطرسة الكفار. الجاويون يحاربون فى جانب الله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من آلات الحرب الشيطانية المسيحية فإن الجاويين ألقوا الآلاف منهم فى نار جهنم". يضيف أحد الجاويين المقيمين فى مكة قائلا: "هذا هو بالضبط ما يفعله السودانيون مع الإنجليز".

وهنا يتدخل أتْشِيُّ آخـر، "انتبـه يا أنت، ألا تعـرف تلك المعجـزات التى لا تنكر، التى أمدنا الله سبحانه وتعالى بها لتعاوننا . فى منطقة كيمالا، قسما بحياة السلطان، هناك صبى حى له وجه ثان على صدره، شبيه بوجهه الذى فى رأسه. وعندما يجرى القيام بشىء ضد الهولنديين، يستشير المرء ذلك الوجه الثانى، وإذا ما فتح ذلك الوجه عينيه وقـال "منصور!" يصبح النصر أمرا مؤكدا، لكن إذا ما أغلق ذلك الوجه عينيه تعين على الإنسان البقاء فى منزله، لأن المحاولة لن تجر عليه الخير". هناك وجه آخر يستطيع أن يتنبأ بأشياء أكبر من ذلك. "كلنا نعلم أن هناك بعض الهولنديين(٣٣) الذين يدينون بالدين الصحيح ويعودون إلينا، والعدو إذا مـا أسرهم يشنقـهم، ثم - من باب احتقار الإسلام - يدير ظهور الشهداء ناحية القبلة. ذات مرة وقع بهذه الطريقة فى الأسر رجـل هولنـدى شـديد الورع والتقوى وأعدموه. لم يعرف أحد منا موعد شنق ذلك الرجل الطيب، لكن ذات يوم وبينما وجد شيخنا سامان تيرو نفسه ينخرط فى البكاء دون أن يعرف لذلك سببا، خمَّن أن ذلك الهولندى ربما كان يلاقى وفاة الشـهداء فى ذلك الوقـت. وثبـت حدس ذلك الشيخ فيما بعد، فقد أجرى الله المعجزة التالية عند تنفيذ الإعدام، فبينما كان الضباط يسخرون وهم يوجهون عَجُز الشهيد نحو القبلة، هبت ريح عـاتيه وأدارت الجثمـان لتجعل الوجه فى اتجاه مكة. وهنا صاح الضباط الكفرة فزعا وهم يقولون "سبحان الله!" .

قـال حـاج من بالمبـانج : فى بلدنا، ثار الشـك فى نفـس المسئـول الحكـومى، فكر فيـما أقـول، فـقد تناهى مـؤخـرا إلى مسـامع الممثـل المقيـم أن الشـريعة الإسلامية تدرس فى أحد المساجد من كتاب عنوانه "سبـيل آل" وهـذا الكتاب كما هو

(٣٣) الهاربون من القوات الاستعمارية الهولندية .

معروف مكتوب بلغة أهل الملايو، وعنوانه "سبيل المهتدين"، وهو يشرح المسائل الشرعية بالطريقة العادية. ولما كان الممثل المقيم الهولندى يعرف أن مصطلح بلغة أهل الملايو يعنى "الحرب المقدسة"، فقد بلغ به الغباء حدًا جعله يظن أن الحرب على الهولنديين كان يجرى التحريض عليها علنا عن طريق الوعظ؛ وبالتالى أمر بمصادرة ذلك الكتاب البرىء. واعتبارا من ذلك التاريخ راح المسئولون يعارضون بأقصى ما وسعهم الجهد مسألة الوعظ فى المساجد، ولكننا رحنا على الرغم من ذلك كله نكرِّس جهودنا الدينية وننشط فيها. وبمشيئة الله سيجىء اليوم الذى تزداد فيه مخاوف ذلك الممثل المقيم.

فى الرد على تباهى أحد الآتشينيين بأن أهل بلده قتلوا فى واحدة من المعارك ١٧٠٠٠ هولندى، قال المسئول الجاوى إنه يعرف على وجه اليقين أن عدد الهولنديين فى آتشيه لم يصل إلى هذا العدد. وجاء الرد الساخر على هذه المقولة "هل سبق لك أن زرت آتشيه؟" وهنا راحت وجوه الجاوة المتعضة، بما فى ذلك وجه المسئول نفسه، تحذر المتحدث، ولسان حالها يقول إن ملاحظاتك الدنيوية لا مجال لها هنا.

أستطيع أن أمضى بلا توقف، فى سرد الحوارات التى من هذا القبيل، التى أتيحت لى فرصة الاستماع إليها فى مكة، والتى كان الحجاج الجاوة (من غير المقيمين فى مكة) يتبادلون فيها آراءهم. هذه المحاورات لم تكن تسعدنى أو تثقفنى، والإنسان إذا لم يتواصل مع المواطنين تواصلا يقوم على المساواة الكاملة، حتى يبعد عنهم فكرة أن الأوروبى له أذن تعى كلامهم، يجد نفسه يتمسك ببعض الأوهام، ويصدق أن جوانب بعينها من الحضارة الأوروبية تتعاطف مع الناس أو تؤثر فيها. كل ذلك من قبيل النصب والعار! وسواء تكلم الجاوة مع مسئول حكومى أو مع تاجر أو جندى؛ فهم

جميعا عبارة عن صور كاريكاتورية تكون فى الواجهة، وسبب ذلك أن الأوروبيين لا يعملون الفكر تماما، الأمر الذى يجعل "المواطنين" يتلقون الانطباعات وينشرونها، وبذلك يكشفون بلا تحفظ عن أسوأ وأغبى الجوانب فى شخصياتهم.

من منطلق المعرفة العملية البسيطة بالطبيعة البشرية نجد أن الجاوة العاديين أحسن بكثير من نظرائهم الأوروبيين. والرجل من أهل الملايو، الذى يتصل ويتواصل مع أحد الأوروبيين يترك لمساته فى معظم الأحيان على مثل هذا الأوروبى، وذلك بفضل قرون استشعار ذلك الجاوى من ناحية وسلوكياته التى اكتسبها من تجاربه وخبراته من ناحية أخرى . والجاوى إذا ما وصل لهدفه يبدأ فى استغلال نقاط ضعف "صديقه"، لكنه يظل فى جميع الأحوال واعيا ومدركا أنه غير قادر على سبر أعماق شخصية الرجل الأوروبى.

والجاوة يغلفون أفكارهم الحقيقية ومشاعرهم تغليفا ماهرا لكى يخفوها عن "الصديق" الأوروبى، هؤلاء الجاوة يعرضون أنفسهم دوما على أنهم طبيعيون ورصينون إلى الحد الذى يجعل "الصديق"، يظن أنه سبر أغوار "المواطن"، فى حين أنه، فى واقع الأمر، لم ير سوى الستار الموضوع على القلب. ومع ذلك، فإن الجاوة يتكتمون أسرارهم الدينية ويحجبونها عن الأوروبيين، والسبب فى ذلك أن الجاوة عندما يتطرقون إلى تلك الأسرار لا يلقون من أصدقائهم الأوروبيين سوى الجهل والاحتقار والتكفير. وكل من يناقشهم فى هذا الأمر، سواء أكان هذا النقاش من باب الفضول أم من باب المصلحة، يكشف (عن طريق شكل السؤال وطريقة صياغته) أنه لا يعرف حتى مجرد أبجديات الموضوع أو أقل القليل عنه ، الأمر الذى يجعل من يوجَّه إليه السؤال يبادر إلى صرف النظر عن السائل، مستخدما فى ذلك رطانة لا يفهمها السائل. بعض آخر من الذين حصلوا على إجابة صحيحة لكنهم لم يفهموها، يعلقون

على مثل هذه الإجابة بطريقة تجعل المتكلم يغلق فمه إغلاقا محكما، اعتقاداً منه أن الحوار دخل إلى منطقة يصعب فيها التواصل الفكرى.

أخيرا ومن سوء الطالع هناك عدد كبير من الحمقى الذين يوفرون على الوطنيين مشقة المرحلة الأخيرة من "التنوير"، ويروحون يوضحون للمواطنين أن الله سبحانه وتعالى لا وجود له فى ظل المكتشفات العلمية الحديثة. قال لى أحد أئمة مالـوكاس إن إن أكبر مسئول حكومى فى موطنه شرح له "ولم يكن ثمـلاً" هـذه الحكمة، أى مسألة عدم وجود الله سبحانه وتعالى. واستطاع ذلك المسـئول تخيل أن الناس يمكن أن يحيوا وهم يغضون الطرف عن الأدلة الواضحة على وجود الله سبحانه وتعالى (علاوة أيضا على الوحى بصوره المختلفـة)، لكن ما أغرب أن تعهد الحكـومة بالمناصب المهمة لأناس من هذا القبيل! هذا المسلم الجاوى يمكن أن يتعايش على نحـو أفضل مع مسيحى متشدد، نظرا لأن مثل هذا المسيحى يعرف أن هناك مللاً ونحـلاً أخرى غير نحلته، لكن ذلك المسئول بصفة خاصة هو الذى أصدر بنفسه شهادة جنـونه وخبله!

وأرى أن كل ملمح يمكن أن أورده هنا من باب الإضافة إلى الوصف الذى أوردته عن الأوروبيين، من وجهة نظر الجاوة الذين يستوطنون مكة ويعيشون فيها، سوف يكشف شيئا خفيا عن أولئك الهولنديين الذين يعيشون فى جزر الهند الشرقية فى ظلال وألوان مبالغ فيها فى أضعف الأحوال. وأنا لا أستنكر المزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، ولكنى أتحاشى أن تأخذ حيزا كبيرا فى هذا الكتاب.

واقع الأمر أن أية تفصيلة من تفاصيل هذا الحكم العرقى من جانب واحد يمكن أن نتعلم منها شيئا، ونحن إذا ما حاولنا التلون خجلا من الحقيقة المختفية هنا وهناك

فى هذه الصورة الكاريكاتورية، فذلك يعنى أننا نواسى أنفسنا بالفكرة التى مفادها أن الصور المرسومة فى أذهان المسلمين فى مكة عن كل من الفرنسيين والإنجليز والروس ليست أكثر تملقا من الصورة التى فى أذهان الجاوة عن الهولنديين.

***

أستطيع القول إن كل الصور التى أوردتها هنا فيها الملاحظة الدقيقة مختلطة بسوء الفهم، لكن ينبغى أن نلاحظ فى كل موقع من المواقع أن الأوروبيين هم أنفسهم وإلى حدٍ بعيد جدا مسئولون عن سوء الفهم هذا. ونظرًا لتعزيز البرامج السياسية الاستعمارية فى إنجلترا، ولما كان الكثيرون من الإنجليز يدعون أن حكمهم للهند يعتمد أو يرتكز على التعاطف مع الشعوب المحتلة، فالإنسان يندهش للحقيقة التى مفادها أن المرء فى مكة لا يسمع من أفواه الهنود المسلمين هناك سوى أردأ وأبشع الكلام الذى يدل على كراهية هؤلاء الناس للإنجليز. هناك فجوة كبيرة بين النظرية والتطبيق، فيما يتعلق بنا نحن الهولنديين، لكن على الرغم من ذلك، فإن قلة قليلة من الجاوة (وبخاصة أولئك الذين يعيشون فى الدوائر الرسمية) يتكلمون عن حكومتنا من منطلق أنهم يقبلونها بلا اكتراث، وأنا بنفسى سمعت واحدًا من أهل الملايو وبالذات من منطقة بونتياناك (فى جزيرة بورنيو)، عندما أغضب المكيين الحاضرين إلى حدٍ بعيد، وهو يتكلم كلاما رسميا يدافع به عن الحكومة الهولندية. قال الرجل "فى جزر الهند الشرقية الهولندية لو لم تحمنا أسنة رماح الهولنديين لكان الصينيون قد اجتاحونا وطردونا من بلادنا. مسئولونا الكفار أعدل من الأتراك، يضاف إلى ذلك أن "أية مملكة من ممالك الاستبداد والطغيان ينزل بها دمار وخراب أكثر من الدمار والخراب الذى ينتج عن افتقار مثل هذه المملكة إلى الإيمان والعقيدة".



حجاج من بونتياناك (فى جزيرة بورنيو)

وأنا أقولها صراحة، هذا هو الاختيار الوحيد الذى سمعته من هذا القبيل. على الجانب الآخر عرفت أن الهنود لم يكيلوا شيئا إلى سادتهم سوى الشتائم واللعنات. كان واضحًا تماما من حواراتى مع الهنود أنه لا العداء العرقى وحده، ولا التشدد الدينى وحده، وإنما أيضا الموقف المهين القائم على الاحتقار والازدراء من جانب البريطانيين تجاه "المواطنين"، كل ذلك هو الذى أدى إلى زيادة الكراهية.

السوط الروسى يرسم لنفسه شكلا أفضل من الشكل الذى يرسمه السوط الأوروبى، فقد تملكت القوة الروسية أفئدة سكان وسط آسيا، وينظر الكثيرون من هؤلاء السكان إلى أعمال القوة الروسية باعتبارها جزءا من الإرادة المقدسة التى لا يمكن سبر أغوارها. هذا يعنى أن الدستور الثيوقراطى (الدينى) يبدو لهؤلاء السكان شيئا

معقولا، كما ينظرون إلى الاعتراف بحقوقهم الدينية على أنه ميزة من المزايا. وعلى الرغم من التشدد والتطرف الذى تولد ضد "المسكوف" (الروس) خلال الحرب الأخيرة(*)، والذى جاء التعبير عنه بطريقة تنم عن الكراهية فى مكة بشكل خاص، لم أجد أحداً يتكلم عن أية حكومة من الحكومات الأوروبية كلاما طيبا أكثر مما عن الحكومة الروسية، وسرعان ما انتقل الحوار من الكراهية الدينية النظرية إلى التفاصيل الإدارية.

ومع ذلك، وعندما كان الجزائريون يتكلمون عن فرنسا كنت استمع إلى كلام ينم عن احتقار المسلم للدستور الجمهورى، كانوا يقولون هذه إمبراطورية من المجانين. قلة قليلة من الناس هم الذين كانوا يحكون عن البرلمان متعدد الرءوس الذى يحكم حكما ثيوقراطيا ومقره فى باريس جنة الكفار. كيف يمكن أن تدور المناقشات حول أعلى مصالح الدولة، وكيف يمكن اتخاذ القرارات فى ظل الكلام الخارج الخشن وفى ظل طلقات الرصاص التى تنطلق من المسدسات بين الحين والآخر؟ كانت الحسابات تقول إن المكان الوحيد المؤهل لتحويل الفرنسيين من جمهوريين إلى ملكيين، هو مكة (المكرمة) والمناطق المحيطة بها.

***

هيا بنا نعود ثانية إلى الجاوة الذين كنا نتحدث عنهم، نحن الآن نعرف التأثيرات الدينية والسياسية التى تحدث لدى هؤلاء الجاوة جراء القيام بأداء فريضة الحج. واقع الأمر أن هذه التأثيرات الدينية والسياسية لا تصيب الجاوة كلهم بدرجة واحدة ولا وبطريقة واحدة أيضا. هذا يعنى أن بعض هؤلاء الجاوة أكثر أو أقل تشدداً،

(*) الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ . (المراجع)

أو بالأحرى تدينا. هؤلاء الجاوة الذين درسوا فى البيزنترات أو السويرات أو فى المندرات(*)، أو أولئك الذين درسوا فى المساجد، كلهم معرضون ومستعدون لتلقى التأثيرات الإسلامية. وهناك قلة من بين جماهير الحجيج غير المتعلمة هم الذين يكونون دوما على استعداد لتلقى بذور التطرف الشديد، لكن بشكل عام يمكن إجمال الأشياء المهمة فيما يلى: ابتداء مشاركة الحجاج فى الاجتماعات الصوفية التى تنعقد على نطاق واسع ومتزايد، وهى حاليا تكاد تكون شكلية أو سطحية إلى حدٍّ ما. هذا يعنى وجود اتصال فاعل مع الحجاج الآخرين الذين يأتون من سائر أنحاء الأرخبيل من ناحية، والاتصال أيضا بالجاوة المقيمين فى مكة من ناحية ثانية، ومن ثم الانطباع الذى ينتج عن تبادل الأفكار فيما بين هؤلاء الحجاج عن القوة التى تتحدى الكفار جميعهم، أى تلك القوة التى تنتشر من مركز الإسلام الرئيسى. وأخيرا هناك الحقيقة التى مفادها أن كثيرا من الحجاج يعتادون طقوسهم اليومية فى مكة، ويعودون إلى أوطانهم وقد أصبحوا مؤمنين ملتزمين.

وقد جرت العادة - ونحن نتكلم عن موقف الحجاج فى جزر الهند الشرقية - أن نسقط كل هذه الأمور من حسابنا، ونحن عادة ما نتكلم عن الملابس المميزة، وعن الاحترام (الآخذ فى التناقص) من قبل الناس لأولئك الجائلين العائدين. هذه التيارات النابعة من مكة وتستهدف جزر الهند الشرقية لا يمكن اقتفاء أثرها فى عملية الحج بحد ذاتها أو فى الملابس العربية، وإنما يمكن تتبعها واقتفاء أثرها فى الأمور الأخرى التى أتينا على ذكرها، التى تلتف حول ذلك العيد العربى السنوى، الذى يتصل خلاله السواد الأعظم من الحجاج بعضهم ببعض. ولهذا السبب لا تمكن الإقدام على التحذير الشديد من ارتداء اللباس العربى، لأن ذلك لن يكون له تأثير سوى زيادة التشدد والتطرف. يضاف إلى ذلك أن زيادة أعداد الحجاج لن تمكن من علاج هذه الأخطار،

(*) mandarasahs Soeraus pesantrens مؤسسات التعليم الدينى الخاصة بالمواطنين المسلمين. (المترجم)

زيادة عدد الحجاج فى أحسن الأحوال، سوف تؤدى إلى عدم استغلالهم من قبل إخوانهم الحجاج، لكن هنا ستبرز مسألة من ذا الذى سيحل محل الحجاج؟ ومادام السكان يظلون - بسبب نقص التعليم - عاجزين عن حماية أنفسهم من محاولات الاستغلال، فلن يفيد الإحسان أو الحنان، بل ستكون هناك دوما قبيلة جديدة من الانتهازيين.

الأهم بكثير من آلاف الحجاج الذين يعودون إلى الوطن بعد أداء فريضة الحج، هم تلك المئات أو العشرات من الحجاج الذى يبقون فى مكة وينضمون إلى الجالية الجاوية فيها، وربما يصبح لهم أطفال ينتمون إلى مكة بحكم المولد، إلى الأبد. وكما سبق أن تتبعنا واقتفينا أثر المكيين فى الجاوة، فقد لاحظنا فى السنوات الأخيرة أن الجاوة جميعهم الذين يبقون فى المدينة المقدسة، لا يلجأون إلى هذا البقاء بدافع من التقوى والصلاح. الكثيرون من هؤلاء الجاوة وبخاصة الشبان منهم يتخذون من الدراسة (التى يقال لها "منجاجِى" بلغة أهل الملايو) ستارا كى يبقوا فى مكة سنوات وسنوات. أقارب هؤلاء الجاوة الشبان يتعين عليهم إرسال النقود المطلوبة لمثل هذا المقام، أو يتعين على الدائنين الاصطبار على أولئك الشبان. يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الشباب الجاوى لا يسافرون سنويا لاصطحاب مواطنيهم الأثرياء ليقوموا على خدمتهم فحسب ، بل إن هناك أيضا أولئك الشبان الذين يأتون لخدمة الحجاج، والذين حال الجاوة المقيمون فى مكة بينهم وبين العودة إلى أوطانهم.

هذه الفئة من الخدم قامت أيضا بخدمة أولئك الجاويين المقيمين فى مكة. هؤلاء الخدم الذين تتدرج أعمارهم من الثامنة إلى سن الثلاثين لا يستطيعون توفير سوى ساعات قلائل لتعليمهم الدينى كل يوم، وبعض آخر من هؤلاء الشبان يجدون أن ذلك الوقت طويل جدا، نظرا لأنهم يودون تكريس أنفسهم على المناهج الدنيوية. افتقار النوعية الأولى من الشباب إلى التعلم، وافتقار النوعية الثانية إلى الرغبة الحقيقية فى الدراسة هو الذى يجعل هاتين الفئتين من الشباب يقتصرون على دراسة التجويد

القرآنى والقراءات. هذه النوعية من التعليم يندر أن يتلقاها هؤلاء الشبان مع أبناء وطنهم، نظرا لأنها تحتم على صاحبها معرفة اللكنة العربية الخالصة.

هؤلاء الفقهاء الذين سبق التعرف عليهم، والمعينون لتعليم الحجاج الجاوة، هم وآخرون كثيرون يستقبلون كل يوم قلة قليلة من الجاوة فى أوقات متباينة، ويجعلونهم يكررون واجباتهم ويعيدونها. من بين هؤلاء المدرسين الذين يدرسون القرآن (الكريم) للجاوة المستقرين فى مكة، شيخ يدعى الشيخ محمد المنشاوى، الذى كان بارزا تماما فى هذا المجال فى الحرم فى العام ١٨٨٥ الميلادى، إضافة إلى كونه أيضا واحداً من المدرسين المهمين فى الحرم المكى . شبان الجاوة يجعلون كل ساعة من ساعات الشيخ المنشاوى مضمارا للسباق بينهم، طلبة القرآن يزورون المدرس كلما تيسر لهم الوقت. هؤلاء التلاميذ يتحاشون ضياع جلسات الشيخ المنشاوى، ويحاولون ألا يعطلهم أى شىء عن حضور تلك الجلسات. والطالب الواحد يدفع للشيخ جلدراً واحداً أو جلدرين فى الشهر الواحد، ويقدمون له بعض الهدايا الصغيرة بمناسبة الأعياد. كثير من الجاوة، ومعهم أيضا أولئك الذين ينقطعون للدراسة، يظلون أوفياء للفقيه مدة تتردد بين عشرة أعوامٍ واثنى عشر عاماً، بل إنهم يواصلون تلك الدراسة أيضا فى الأوقات التى لا يكونون مشغولين فيها.

على العموم، الدين ليس له تأثير كبير على أى من الفئتين الأخيرتين من الجاوة المستقرين فى مكة (أى الخدم والكسالى من الجاوة)، وسرعان ما يتراخى هؤلاء الخدم هم والكسالى مثلما يفعل كثير من المكيين، ويصل الأمر بهم إلى حد عدم أداء الصلاة فى الحرم، تحاشيا منهم "للزحام" هؤلاء الجاوة ينضمون أيضا إلى الطرق الصوفية، وهم يرضون بأى شىء حتى ولو كان على هامش الإخوانية، وهم لا يكلفون بمهام شاقة، وبالتالى فإن هذا المجهود الصغير يثير فى داخلهم الوعى بأنهم أصبحوا شيئا طيبا، فى حين إن استعمال المسبحة وترديد "الورد" يزيد من أقدارهم فى أعين إخوانهم المواطنين. هذه العملية تشكل عند بعض الجاوة مشقة كبيرة، وقد سمعتهم

يرفضون الانضمام إلى الإخوانية، من منطلق أنهم مازالوا متأخرين فى واجباتهم الدينية، وأنهم إذا ما أخذوا عهدا من شيخ الطريقة فذلك يعنى تحملهم لواجبات جديدة، وأن ذلك سيدخلهم بلا داع فى أخطار زيادة خطاياهم.

***

الشىء الوحيد الذى يستدعى انتباه أولئك الشبان الجاوة ويمسك عليهم ألبابهم هو تلك الحياة المرحة التى يحياها أولئك المكيون على امتداد العام العامر بالهدوء. هؤلاء الشبان لا يكلون أو يملون المشاركة فى الأعياد، وحفلات الزواج، والأعياد والمناسبات الأسرية الأخرى، ويشاركون فى كرم وضيافة الطبقة المتوسطة، ويشاركون أيضا فى ولع المتعلمين والمتقين الجاوة بالاحتفالات، التى تهيئ لهم فرصا تكاد تكون يومية. كنت فى كثير من الأحيان ألتقى أهل الملايو المدينين فى مكة بديون كبيرة، وكنت أعطى الواحد منهم مبلغًا يتردد بين ١٠ دولارات و ٢٠ دولاراً نظير ما يقدمه لى من خدمات، وجاءت النتيجة مفاجأة لى فى الأيام التالية، إذ كانوا يقيمون عزائم يدعوننى إليها أنا وعديد من الجاوة، وكانت تكاليف تلك العزائم تفوق بكثير ذلك الذى أعطيتهم إياه. وكانت مطالبات هؤلاء الجاوة بتنظيم ديونهم تمر من فوق رءوسهم مر الكرام، وهم يحسون أعباء الديون بسبب تزايد الفائدة الربوية، عندما يبدأ الدائنون فى تهديدهم. وبغير هذا التهديد تجدهم يضحكون، حتى عندما لا يكون لديهم ما يأكلونه، وهنا تراهم يتعجبون ويقولون "أنا أعتمد على الله فى رزقى".

حياة البهجة والمرح هذه تحتاج إلى النساء. هناك دوما مكيات، وبخاصة أولئك اللاتى من أصل مصرى، على استعداد لوضع مفاتنهن تحت تصرف الجاوى، إلى أن ينهبنه تماما. وهذه طرفة يرويها أحد أفراد الجالية الجاوية فى مكة، هذه الطرفة تصف الأمر وصفا حقيقيا. يروى أن أعور جاويا جاء إلى مكة ومعه ٢٠٠٠دولار، واستأجر ذلك الرجل منزلا صغيرا مدة طويلة من الزمن. وسرعان ما ظهر له "صديق" طيب،

وأخبره بشكل مفاجئ أن هناك امرأة مصرية جميلة تسكن بالقرب منه، وأنها وقعت فى غرامه وتمنت أن تكون زوجة له بأى ثمن، وأعربت عن استعدادها لإتاحة الفرصة له للتعرف عليها قبل الزواج منها. ورأى الجاوى فى ذلك علامة من علامات فضل الله، وزار تلك الجميلة التى وجد أنها تلبى كل توقعاته، وإن هى إلا أيام قلائل حتى أصبح بعدها زوجا سعيدا. كانت تلك السيدة الجميلة المتحضرة تقابله عند عودته من المسجد وهى مبتسمة وتقبل يده، وترحب "بزوجها" وتلاطفه. ويكفى القول هنا بأن الزوج كان يظن نفسه فى الجنة. وفيما يتعلق بالزوجة لم تكن تطلب من زوجها سوى أن يبادلها الحب، وأن يقدم لها أبسط المآكل وأبسط المشارب، ولم تخف عن زوجها وضع والدتها المؤسف، والتى تحتاج إلى أبسط أنواع الملبس. هذا العوز سرعان ما يبادر الزوج إلى علاجه، وبالتالى يمسح دموع تلك الابنة المخلصة.

فى غضون أسابيع قليلة كانت تحدث هناك دوما مصادر جديدة لأسف تلك الزوجة الواضح لكل من شقيقاتها وعماتها وبنات أخيها، والذى استثار هموم هذه الزوجة بصفة خاصة هو الفكرة التى ربما أدت إلى الإساءة إلى سمعته إذا ما سمح لنفسه بأن يحيا أناس يمتون إليه بصلة القرابة فى دمار من هذا القبيل. كان ذلك الحاج الجاوى قد أصبح تحت سيطرة تلك المرأة على نحو جعله يوافق على رغباتها دون أن يلقى بالا للخواء المتدرج الذى كان يحيق بكيس نقوده. وفى أحد الأيام حين دخل إلى غرفة معيشته وقع فى نفسه أن زوجته لم تأت لكى تستقبله كالعادة، بل إنها على العكس من ذلك تصرفت كما لو لم تعره انتباها. قال الرجل لنفسه: ربما كانت مريضة، فذهب إليها ملاطفا. ولم تسمح تلك المرأة الجميلة لنفسها أن يجرها ذلك الزوج المخدوع نحو ركبتيه، وهنا حملقت الزوجة فى الرجل بعينين خاليتين من الحب وقالت "سيدى! ما هذا الذى تفعله؟ أنت ليست لك سوى عين واحدة! ويا لهذه الشامات التى على جبهتك!" وهنا نزل نور مفاجئ على ذلك الجاوى المخدوع. وهنا



حاجان من موكو موكو (فى جزيرة سومطرة)

تعجب الجاوى على نحو جاء على هوى تلك المرأة عندما قال لها: "يا بنت الكلب، أنت طالق بالثلاثة!" وبعدها بثلاثة أشهر راحت تلك المرأة تلعب هذا الدور نفسه مع جاوى آخر.

على الرغم من ترديد ذلك الإنذار مرارا وتكرارا، فإنه لا يمنع روادا آخرين من الوقوع فى ذلك الشرك كل عام. الشبان الجاوة الحريصون يعملون بنصائح الأصدقاء ويبحثون عن زوجة جميلة معتدلة التطلعات. النساء اللاتى يكن من هذا القبيل، يجدن بسهولة - وهن ما زلن فى ريعان شبابهن - أزواجا أفضل من الجاوة، أو سكان الملايو بصفة عامة، الذين يودون العيش على الكفاف. هذه النوعية من الشباب يتعين عليها أن ترضى بالبقايا، أو إن شئت فقل "الحثالة"، ويتزوجون نساء يتطلعن إلى من يوفر لهن عيشهن فى أقرب فرصة ممكنة.

من هنا، وعن طريق دخلاء الزواج، تنشأ أبشع العلاقات غير الطبيعية؛ إذ نجد شبانا صغارا من أهل جزيرة جاوة لا يزيد سن الواحد منهم على ستة عشر عاما، يتزوجون مكيات فى الثلاثين بل وأكثر من الثلاثين من أعمارهن، أى نساء قد يكن فى أعمار أمهاتهم، وقد ينجبون منهن أطفالا فى بعض الأحيان. وفى بعض الأحيان قد ينفق هذان الزوجان آخر قرش معهما، ويبدآن فى الاستدانة، وفى نهاية المطاف وهذا أمر كثير الحدوث، يفر ذلك الجاوى عائدا إلى بلاده مخلفا وراءه زوجته وولده. الأطفال الذين يكونون من هذا القبيل بحكم المولد والتعليم، ينتمون إلى غوغاء أو رعاع مكة، اللهم إلا إذا هيأت لهم الفرصة إشفاقا وحنانا من جانب ثرى من أثرياء الجاوة.

تأثير هذه النوعية من الجاوة فى مكة أو فى إخوانهم المواطنين عندما يعودون إلى بلادهم، لا يمكن تقييمه من وجهة نظر محددة، لكنه ليس تأثيرا صحيا بأى حال من الأحوال. كثير من شيوخ الحج يجيئون أصلا من هذه الأوساط والطبقات، وهم تحت ضغط الحاجة يبادرون إلى شراء تراخيص الطوافة بأموال يقترضونها على أمل

استرداد رأس المال والربح أيضا من بنى وطنهم، أو قد يشترى هذه التصاريح أولئك الذين يطمحون إلى حمل لقب الشيخ. بعض آخر من هؤلاء الجاوة يغوصون أكثر فأكثر، مجموعة أخرى من هؤلاء الجاوة، وبخاصة أولئك الذين سددوا ديونهم وتحرروا منها، أو أولئك الذين تكون لهم علاقات طيبة بأوطانهم يحققون نجاحا ماليا كبيرا طيبا على الرغم من أن افتقارهم إلى الإدارة الجيدة والمنتظمة، وأيضًا على الرغم من وباء عقود الديون، تحدث لهم تقلبات كثيرة فى ظروفهم المالية.

هؤلاء الشيوخ، والشيوخ المساعدون، الذين هم من بلاد الجاوة، يسافرون فى كثير من الأحوال كل بضع سنوات من بلادهم وإليها، لأغراض مالية وأعمالية حقيقية، أو لأغراض شخصية تستهدف تشجيع أقاربهم على الكرم والسخاء، أو قد يسافرون إلى المناطق المتخلفة من بلادهم لكى يحولوا معرفتهم السطحية أو ارتباطهم بطريقة من الطرق الصوفية إلى عملات معدنية لها رنين.

المسئولون المحالون إلى التقاعد، وملاك الأراضى والعقارات، وكذلك بعض الأثرياء، أو أولئك الذين يحصلون من أقاربهم وذويهم على معاشات، كل هؤلاء يجعلون من مكة (المكرمة) بلدا ثانيا لهم، ليحيوا فيها حياة هادئة يكرِّسونها كلها للدين. وعلى الرغم من حضور هؤلاء الجاوة الصلوات التى تقام فى المسجد الحرام حضورا صارما وملتزما، وعلى الرغم من أنهم قد يقومون بأداء الحج والعمرة مرات ومرات، وعلى الرغم من استماعهم إلى المحاضرات التى لا يفهمون منها شيئا، طلبا للبركة، وعلى الرغم من التحاقهم بإخوانيات الطرق الصوفية، فإن أهمية هؤلاء الناس عند الجمهور ترتكز بصفة أساسية على ما ينفقونه من مال، وجزء كبير جدا من ذلك الإنفاق يذهب إلى الجالية الجاوية. يزيد على ذلك أن تأثير كل هؤلاء على حياة الآخرين الروحية يعد تأثيرا غير مباشر إلى حد بعيد.

***

يتمثل لب الجالية الجاوية فى كل من المدرسين والطلاب، وهؤلاء المدرسون والطلبة هم أصحاب القدر العالى فى مكة (المكرمة)، وهم يتحكمون من مكة فى شئون بلادهم الدينية. هؤلاء المدرسون والطلاب يخشاهم الحجاج من بنى وطنهم ويخافونهم مخافة كبيرة. هؤلاء الجاوة الذين يعملون فى المدينة المقدسة وصلوا إلى تلك الهامة العالية فى مكة (المكرمة). صحيح أن أرخبيل جزر الهند الشرقية تتهيأ فيه فرص الدراسات الإسلامية الكاملة الشاملة، لكن أحداً من الجاوة لا يجرؤ على الذهاب إلى مكة (المكرمة) إلا إذا كان تلميذا. من هنا نجد أن الحياة العملية لهؤلاء العلماء تشكل جانبا مهما من جوانب الجالية الجاوية، بل إنهم يشكلون جانبا بارزا فى تاريخ مستعمرة جاوة ، والسبب فى ذلك أن كثيرا من مواطنيهم يجلسون على أقدامهم ويروحون يتطلعون إلى ما وصل إليه هؤلاء العلماء بوصفه أقصى ما يمكن أن يصل إليه هؤلاء الناس.

تتباين فى مكة الظروف التى يبدأ فيها الجاوة حياتهم العملية فى مكة تباينا كبيرا. الحكام والأمراء يوفدون إلى مكة أحد أبنائهم الكثيرين كيما يكرِّس حياته للعلوم الدينية، ليكون بذلك ممثلا للعائلة كلها. وأهل هذا الابن يعهدون به إلى رعاية الأصدقاء الأتقياء المقيمين فى مكة، ويرسلون له كل عام المصروفات الضرورية. تقوم الدوائر الرسمية الأقل من الحكام والأمراء بإرسال إضافات مماثلة إلى هيئة الطلاب فى مكة. بعض الشبان الجاوة الذين جاءوا إلى مكة (المكرمة) بصفتهم خدماً، يكشفون فى بعض الأحيان عن استعداد خاص للدراسة، وبالتالى يقوم أصدقاؤهم الخيرون بالوفاء لهم بمتطلبات الحياة. هناك أيضا بعض الصبية وبعض الشبان الذين يخرجون من أرخبيل جزر الهند الشرقية هائمين على وجوههم صوب مكة (المكرمة) ولا يملكون من الدنيا شيئًا سوى ثقتهم بالله، وليس لهم من هدف سوى التغلب على مشقة العلم العربى واكتسابه على أفضل نحو ممكن. كثير من هؤلاء الصبية والشبان يحدوهم فى البداية مجرد الشغف والتطلع إلى تلك القمم العجيبة، لكن هذا الشغف والتطلع سرعان

ما يهبط إلى أرض الوعى والواقع. بعض آخر من هؤلاء الطلاب يقطع بالفعل مسافة طويلة على طريق التعلم فى الوطن، ولكنهم تستثار بهم رغبة السفر فى مرحلة لاحقة، بعد أن يستشعروا عدم كفاية أساليب التعليم المحلية فى أوطانهم، وبعد أن يستمعوا إلى قصص الطلاب العائدين من مكة، وذلك فيما يتصل بالثراء الروحى فى مكة والذى يتيسر للجميع على حد سواء.

هؤلاء الطلاب عندما يكشفون عن قوة إرادتهم ورغباتهم الأكيدة فى المضى قدما فى الدراسة يتم تقديم يد العون لهم لسد احتياجاتهم المادية من نواحٍ كثيرة. وهم يعدون أنفسهم حظيظين تماما إذا ما أخذهم باحث عربى مرموق إلى بيته ليكونوا له خدما خصوصيين. وفيما عدا ذلك، يستطيع أمثال هؤلاء الطلاب الحصول على الإقامة والمسكن مع واحد من علماء الملايو، وفى الحالين تتاح لهؤلاء الطلبة فرصة التعلم والدراسة. علاوة على ذلك، هناك أيضا كثير من منازل الأوقاف فى مكة يقيم فيها جيران الله سبحانه وتعالى ، وكل منزل من منازل الأوقاف هذه يتبع فرعا خاصا من أفرع الجاوة.

ومن بين منازل الوقف هذه، نجد أن منازل الآتشيه تعد من أفضل هذه المنازل وأحسنها، وهناك قلة قليلة من منازل الوقف مخصصة لمن يفدون من منطقة بانتين، وهناك أيضا بعض المنازل المخصصة لطلاب شبه جزيرة الملايو، وبخاصة أولئك الذين يأتون من منطقة بونتياناك (فى جزيرة بورنيو). المؤسسات والمنشآت التى من هذا القبيل يجرى إنشاؤها فى بداية الأمر بواسطة واحد من عِلْية القوم عندما يحضر لأداء فريضة الحج، ثم يجرى الصرف عليها بعد ذلك من موارده الخاصة، وتتم أيضًا إدارة هذه المنازل بواسطة شخص من قبل ذلك الرجل المحسن. والمنازل التى بناها سلطان بونتياناك لإخوانه المواطنين، والتى أشرف على بنائها قبل سنوات قلائل مضت عندما كان يؤدى فريضة الحج تعد خير شاهد على هذا العمل.

منازل أخرى من منازل الأوقاف يتم بناؤها من المبالغ التى يجمعها شيوخ الحج من الحجاج ومن إخوانهم المواطنين، والهدف من ذلك أن يكون بوسع شيخ الحج باعتباره مدير الوقف فيما بعد تخصيص أفضل الحجرات لنفسه أولا ثم لأصدقائه. وبهذه الطريقة أمكن بناء عمارة وقف فاخرة للآتشيه لا تبعد كثيرا عن بيتى فى سوق الليل(٣٤). هذا المنزل بناه شيخ من شيوخ الحج، اعتاد على استغلال الحجاج، هذا الشيخ راح يستجدى من زبائنه مبالغ صغيرة لبناء هذا المنزل، وسافر بنفسه إلى آتشيه لجمع المزيد من المال، ثم عاد من هناك بغنيمة قيمة، وهو الآن يدير هذه المؤسسة كما لو كانت ملكا خاصا له. هذا الشيخ يعيش وحده فى الطابق الأول من هذه المؤسسة، ومعه زوج ابنته يعيش فى جزء من الطابق الثانى، أما الآتشيه فيعيشون فى غرف صغيرة، ويجرى الصرف عليهم من جزء صغير من المبلغ المتبقى مع الشيخ، لكن يتعين على هؤلاء الجاوة أن يقوموا لذلك الشيخ بكل الخدمات التى يطلبها منهم. وهو لا يمانع فى أن يسكن غير الآتشيه فى بعض هذه الغرف، مقابل أن يحصل هو على الهدايا (وهى قيمة إيجارية فى واقع الأمر). معروف أن متحصلات هذا الوقف تعود إلى الآتشيين أنفسهم. المؤسسات الجاوية قصيرة الأجل شأنها فى ذلك شأن سابقاتها الأخريات، ومع ذلك فإن الطلاب، وبخاصة أولئك الذين يأتون من جزر الهند الشرقية، يستطيعون الحصول على المسكن وشىء من المأكل فى أى وقت وبلا صعوبات.

(٣٤) تفسير هذا الاسم الذى يشيع استعماله حاليا فى مكة يعد مثالا على الأساطير المحلية التى تنسج بصورة مستمرة. وعلى الرغم من أن حوليات المدينة التاريخية تكشف أن "سوق الليل" فى هذا الجزء من المدينة كان يجرى استعماله فى أزمان إسلامية متأخرة، فإن المكيين يقولون حاليا: إن القرشيين الكفرة عندما حاصروا أسرة النبى ﷺ، وقطعوا وأوقفوا التجارة معها، قام البعض سرا، وتحت جنح الليل بتزويد الهاشميين بكل ما يحتاجون إليه، ومن هنا أصبح الاسم "سوق الليل" يطلق على ذلك المكان، أو بالأحرى ذلك الشارع.

أما أولئك الجاويون الذين يرفعون أنفسهم إلى أعالى أجواء الجاوة المقدسة فيحصلون على هدايا قيمة من إخوانهم المواطنين، ولكن أولئك الذين يظلون واقفين عند المستويات الأقل من تلك الأجواء فيجمعون بين التدريس والعمل فى الإرشاد، أو قد يغادرون مكة فى بعض الأحيان عائدين إلى بلادهم، التى يحصلون فيها على مقابل كبير لقاء عملهم نظرا لصغر حجم المنافسة. كثير من هؤلاء الجاوة، بعد أن ينهوا دراستهم فى مكة، يبحثون ويجدون لأنفسهم فى بلادهم مراكز يكونون فيها مدراء للمساجد ومسئولين عنها . أو قد يصبحون مدرسين فى المدارس الدينية المتعددة، التى يجرى فيها تعليم الجاوة مبادئ الإسلام. والجاوة عندما يصبحون مدراء لمثل هذه المساجد أو المدارس، يصبحون أيضا مدراء لأوقاف تلك المساجد، وهم فى كثير من الأماكن يحصلون على جزء من الزكاة، ويكون لهم أيضا دور فى المواريث العائلية شبه القانونية، وهذا بدوره يدر عليهم شيئا من الدخل.

المدرسون يتمتعون فى معظم الأحيان بدخول تأتى لهم من أراضى الوقف الخاصة بالمدارس، ويحصلون أيضا على مزايا أخرى . وتكفى الإشارة هنا إلى الهدايا والعطايا التى تأتيهم من تلاميذهم الأثرياء، كما تأتيهم أيضا مساعدات من الجاوة الفقراء الذين يفلحون أراضيهم. والمدرس الشهير الذى تلقى تعليمه فى مكة يقصده مريدون كثيرون من أصقاع بعيدة فى بلاد الجاوة.

هكذا يجتمع من مناطق إندونيسيا المسلمة كلها، فى المدينة المقدسة (مكة) بضعة آلاف قليلة من الرجال الذين خلقت المساعى والمحاولات المشتركة، وكذلك التواصل المشترك، لديهم وعيا أكثر حيوية بوحدة عرقهم المسلم، هذا الوعى أكبر بكثير من الوعى الناتج عن المقام القصير، الذى يتمثل فى الفترة القصيرة التى ينفقها الحجاج فى أداء مناسك الحج. عدد وقيمة المستوطنين الذين يأتون من منطقة من المناطق يمكن أن يكون - بصورة أو بأخرى - معيارا من معايير القوة التى اكتسبها الإسلام فى تلك المنطقة، والإنسان وهو فى مكة يستطيع رسم خريطة توضح انتشار الإسلام وكثافته

فى مختلف أرجاء أرخبيل جزر الهند الشرقية. ومع ذلك، تصبح مثل هذه الخريطة غير دقيقة تماما، والسبب فى ذلك أن خدم العلم هؤلاء لا يمثلون سوى جانب واحد من جوانب الحضارة الروحية فى بلادهم. يضاف إلى ذلك الخصوصيات الوطنية التى تترك هى الأخرى بصماتها على الحياة الدينية، ومع ذلك فإن العناصر الوثنية القديمة ذات الأصول الوطنية والهندية، والتى تميز الحياة الشعبية فى مواطن هؤلاء الناس، قد تخلصوا منها كلية. يزيد على ذلك أن الأحياء الأشداء الذين ينتمون إلى فترة ما قبل الإسلام يقاومون فى كل مكان التغيير الكامل لظروف الحياة، بحيث تحل محلها تلك الظروف التى جاء بها الإسلام، فإن التغيير الكامل لتلك الظروف لم يكتمل فى أية منطقة من المناطق التى يعيش فيها المسلمون.

فى المناطق التى انتشر فيها الإسلام قبل جزيرة جاوة بحوالى ثمانية قرون أو تسعة، نجد أن انتشار الخرافات فيها على سبيل المثال لا يقل عنه فى جاوة، إذ ما زال الناس يحتفلون بالأعياد الوثنية ولكن تحت مسميات جديدة، ونجد أيضا أن مبدأ التوحيد الخالص الذى يقوم عليه الإسلام ليس إلا مجرد صيغة على شفاه أولئك الذين ينطقون بها. ونحن عندما نتدبر مسألة دخول الإسلام إلى هذه الجزر لا بصورة مفاجئة عن طريق قوة السلاح، وإنما راح يشق طريقه بصورة متدرجة تماما من خلال الإصلاحات الداخلية، نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف بأن النجاح الذى أصابه الدين الإسلامى بين أهل شبه جزيرة جاوة يفوق ويبز السواد الأعظم من الانتصارات التى تحققت من قبل عن طريق القتال.

رد فعل الأقدمين على رسالة محمد ﷺ، وهى حضارة لا يمكن التقليل من شأنها، لم يوقظ بين الجاويين أية نحلة من النحل المهرطقة أو الكافرة. الكفر أو الهرطقة التى وجدت فى هذه الأماكن كانت تتمثل فى رسل التطرف الشيعى القدامى، وجرى اكتساح ذلك الكفر بسهولة ويسر عن طريق تيار الإسلام القويم الذى جاء بعد ذلك. ويؤكد الباقون الأشداء على قيد الحياة بعد الماضى المنصرم، فى جزيرة

جاوة التى كانت فى أوج التحضر قبل الغزو الإسلامى(*) ، الحقيقة التاريخية الثابتة التى مفادها أن شعبا بأكمله لا يمكن تغييره تغييرا كاملا فى عشية أو ضحاها، عن طريق فكرة جديدة أيا كانت قوتها. والعادات والتقاليد التى دحضها الإسلام وأدانها، يدحضها الناس أيضا فى كل مكان، وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى الطبقات المتعلمة التى لم تفقد الاتصال بشعبها بسبب الأَوْرَبة . هؤلاء الأبناء من أبناء الوطن، الذين نفضوا عن أنفسهم إنسان ما قبل الإسلام، يتطلع إليهم الأبناء الآخرون حتى وإن كان هؤلاء الأبناء يقفون وقدم من أقدامهم لا تزال على الأرض الوثنية، وكأنهم هم سادتهم وقادتهم . ولما كانوا لا يزالون عاجزين عن محاكاتهم، فقد راحوا يلتمسون بركاتهم ودعواتهم ويؤمنون بكلامهم. كل تحرك روحى هو تحرك إسلامى، وكل المشاعر المعادية للأوروبيين، أو مشاعر التمرد، ترفع لواء الدين عاليا، وكل برنامج شعبى مستقبلى يتم ربطه بأخرويات الإسلام، ويستمد شعاره من شيوخ المتصوفة والعلماء.

***

لقد أسهبت فى تفصيل الحقائق السابقة على نحو يخل بما هو مسموح به فى هذا المقام، والمغزى الرئيسى لهذه التفاصيل الكثيرة يتمثل فى التقويم العادل للنفوذ الذى للجالية الجاوية المكية فى سائر أنحاء وطنهم الأصلى. ونحن إن أردنا تكوين فكرة عن أى شعب من الشعوب لا يكفينا مجرد الغوص فى الماضى الذى ينكره ذلك الشعب إنكارا شديدا، والسبب فى ذلك أن أولئك الذين يجيئون من الأعماق لا تظهر عليهم تلك

(*) يقع المؤلف فى تناقض ، فبينما يشير فيما سبق إلى أن الإسلام شق طريقة تدريجيا بغير طريق السلاح فإنه هنا يستخدم تعبير الغزو الإسلامى . (المراجع)

الأقذار، التى لا تزال عالقة بتلابيبهم، بالقدر الذى تظهر عليهم حقيقة مجيئهم أو قيامهم. نحن لسنا معنيين بالتفاصيل، والذى يعنينا هو الهدف الذى ينشده التطور العام.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: ما الذى يريده الجاويون؟ وليس: ما الذى كان عليه الجاويون؟ فيما يتعلق بهذه القضية، يجب أن يعرف أجهل الجاهلين أن انتشار الإسلام المنظم فى سائر أنحاء جزر الهند الشرقية يجب أن يكون درسا مستفاداً عند الجميع. وفى المناطق التى يعتنق السكان الإسلام فيها بالفعل، نجد أن السلطات الصوفية والسلطات العلمية (وذلك فى ظل تدنى مستوى التعليم وفى ظل الدجل فى المجالين) تمثل فى أحسن الأحوال الحياة الروحية والمُثُل عند الجاوة. ومع ذلك، نجد السكان يستمدون غذاءهم الروحى من خلال هؤلاء الوسطاء، سالكين فى ذلك مسارات طويلة أو قصيرة، مبتعدين عن مكة تماما. يضاف إلى ذلك أن وسائل الاتصال الحديثة سهلت كثيرا استيراد هذا البند. هناك فى مكة تعيش نخبة مختارة ألقت بنفسها فى مصدر مجرى حياة الإسلام العالمية كيما تتم تنقيتهم وتقويتهم بفعل أمواج ذلك المجرى. اتصال أفراد هذه الجالية بصورة مستمرة بأوطانهم، واستبدال طلاب جدد بالفقهاء المتعلمين هو ما يزيد من مشاركة أهل الريف الذين بقوا فى بلادهم، فى المكتسبات التى جناها زعماؤهم البعيدون عنهم.

هذه الظاهرة يمكن ملاحظتها دونما عناء فى الكتب الدراسية المستخدمة فى التدريس فى المدارس الإسلامية فى جزيرة جاوة وسومطرة، وأيضا فى جزيرة بورنيو. وسرعان ما نجد أن أحدث المطبوعات الأدبية المكية تطرد الكتب الدراسية السابقة، التى جرى إحضارها من مكة، والكتب التى يكون مؤلفوها من الجاوة الذين يستوطنون مكة أو من الأساتذة الذين يجلهم الجاوة، تدخل ضمن السلع التى يتم تصديرها من مكة، وهذه الكتب تبرز من بين السلع الأخرى كلها، وتلقى سوقا رائجة. ومفتى الشافعية فى الحرم المكى تصله باستمرار طلبات متعددة من جزر الهند

الشرقية، وتتعلق بالفتوى والفتاوى[٣٥] . فى بعض الأحيان قد يوجه طالب الفتوى سؤاله إلى ابن وطنه المتعلم فى الحرم المكى، لأنه يعرف المصادر والأشياء الأخرى، والرأى العام هنا يؤكد أن حق الإفتاء يعتمد على العلم أكثر منه على المنصب.

تمثل الجالية الجاوية فى مكة من حيث الجوهر مستقبل الشعوب التى تتألف منها هذه الجالية، والتى تتزايد بصورة مضطردة، كما أن الأمور تسير حسبما يرى أفراد هذه الجالية فى إطار عملية التنمية المتسارعة والمنظورة.

***

هذه بعض الأمثلة على ما أقول. حكى لى شيخ من منطقة لامبونج (جنوبى سومطرة) أقام خمسة وعشرين عاما فى مكة، القصة الآتية، التى يبدو أنها صحيحة فى أساسها على الرغم من أن بعض تفاصيل الأحداث فى الوطن الذى لم يزره الرجل منذ فترة طويلة، قد تكون بحاجة إلى التصحيح. فى شباب ذلك الرجل كان وطنه قد دخل فى الإسلام منذ فترة طويلة، ومع ذلك لم تكن الحياة الدينية مزدهرة بشكل واضح وبيِّن. كانت عائلة ذلك الرجل من أبرز العائلات الموجودة فى ذلك المكان، وقد زعم ذلك الرجل - فى إطار مجتمع المسئولين السابقين - أنه هو نفسه من سلالة سلاطين بانتن . وبعد أن تدهورت عائلته جراء أسباب متباينة، استطاعت استعادة مجدها السابق فى السنوات الخمسين الأخيرة التى أعقبت انضمام هذه العائلة إلى الحكومة

(٣٥) ذاع فى جاوة خبر حول مسألة منع استعمال المصابيح البترولية فى الحرم المكى، الأمر الذى أسفر عن إرسال رسائل كثيرة لاستفتاء مفتى الشافعية فى ذلك الأمر. نظرا لأن أحدا لم يتعرض لاستعمال هذه المصابيح البترولية فى مساجد جاوة. وجاءت الفتوى ترخص لهم الاستمرار فى استعمال الزيت الرخيص. فى مكة نفسها لم يكن أحد يشعر بالقلق، وإنما نظرا لأن كل طالب كان يحضر معه فى المساء مصباحه، فقد كانت تنبعث رائحة خانقة، هى التى أجبرت سلطات الحرم على منع البترول فى الحرم الإسلامى الشريف، ناهيك عن احتمالات الحرائق.

الهولندية فى الحروب التى شنتها على البالمبانج، وبعد أن أدخل الهولنديون حكمهم إلى منطقة لامبونج.

فى شباب ذلك الرجل كان الحج مسألة نادرة تماما، وكان أخوه الأكبر من بين أولئك الذين سافروا إلى مكة لأداء فريضة الحج. ولَّد الطموح والرغبة الجامحة داخل شيخنا عندما كان صبيا إحساسا قويا، كان يشده إلى أداء فريضة الحج، وخطر بباله أن المسئولين الحكوميين، الذين كانوا يرفضون الخطط التى من هذا القبيل، تسببوا فى جعل والده يؤخر رحلة الحج عاما واحداً على أقل تقدير، وعلى الرغم من ذلك وصل الوالد إلى مبتغاه، واستوطن مكة، ولم يغادرها أو يخرج منها، لكنه بعد أن أنهى دراساته المعتادة وأتمها رحب به خطيب سمباس ، ذلك الشيخ الوقور فى الطريقة القادرية، وحصل أيضا على رخصة أصبح بمقتضاها شيخا من شيوخ الحج . كان بعض من بنى وطنه يعيشون فى منزله، وبخاصة واحدة من النساء، التى أصبحت زوجة له فيما بعد. وأمضت هذه المرأة أحلى أيامها مع الرجل الذى اتخذ لنفسه زوجة ثانية هى ابنة الشيخ المنشاوى سالف الذكر.

كان ذلك الرجل أول شيخ من شيوخ الحجاج، وحتى ذلك الوقت كان مطوف البنغاليين هو الذى يتولى إرشاد الحجاج من بنى وطن ذلك الرجل. وراح ذلك الرجل يكد ويسعى سعيا حثيثا عن طريق المراسلات والوسائل الأخرى إلى زيادة أعداد الفوج اللامبونى الذى يأتى لأداء فريضة الحج. هذا الشيخ يتحدث عن قناعة – إن لم يكن بلا أسف – عن خسارته لذلك الاحتكار، الأمر الذى أسفر حاليا عن أربعة شيوخ من شيوخ الحج، ومعهم عائلاتهم الكبيرة، ومساعدوهم ... إلخ، وكلهم يستفيدون حاليا من حجاج بنى وطنهم. هذا يعنى أنه هو ومعه واحد من اللامبونيين واثنان من المكيين يتولون أمر طوافة هؤلاء الجاوة. كان مساعدو ذلك الرجل الخصوصيون من بنى وطنه فى معظم الأحوال أو من سكان الملايو فى أضعف الأحوال. تعيش حاليا فى مكة جالية مهمة من اللامبونيين، الذين أتم الكثيرون منهم دراستهم بنجاح. وبناء على ما تقدم

فإن خبراء الشريعة الإسلامية، والمدافعين عن الحياة الإسلامية فى مختلف مناطق لامبونج، تزداد أعدادهم زيادة كبيرة عما كانت عليه قبل ثلاثين عاما.

أثرت حركة الجامعة الإسلامية(*) على هذا الشيخ، كما تأثر بها أيضا سائر اللامبونيين الموجودين فى مكة. فى الحرب الروسية-التركية (١٨٧٧- ١٨٧٨) أقيمت الصلوات وارتفعت الدعوات من منزل هذا الشيخ وهى تتوسل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينصر الأسلحة الإسلامية، ولم يشارك أحد فى التبرعات المالية المطلوبة للحرب سوى هذا الشيخ وحده . فى هذا الوقت نفسه، لم يكن العنصر السياسى فى الحماس الإسلامى قد انتشر على نطاق واسع فى وطن ذلك الشيخ. كان هناك معارضون دائمون للحكم الأوروبى، لكن عائلة ذلك الشيخ لم تكن تتعاطف مع أولئك المعارضين. هذا الشيخ استطاع فى معظم الأحيان، استشراف ذلك الذى يمكن أن تئول إليه الأحوال لو لم يجر الترحيب بالهولنديين، أو لو كان الناس قد أسقطوا من حسابهم الخلافات واستبدلوا بها صيحة الحرب الإسلامية النبيلة، لو تجمع الناس تحت رايات سلاطين بانتن، وبالمبانج، أو حتى آتشيه، وطردوا البيلاندين (البيلاندين هم: الولاندون، والأولاندون)، لو فعلوا ذلك لكانت الملايين المليئة من الجاوة قد اتحدت وكونت إمبراطورية إسلامية عظيمة، ولاستمر انضمام أعضاء آخرين من الجنس نفسه إلى هذه الإمبراطورية . بينما كان ذلك الشيخ يعيش هذه الحالة النفسية، كانت الرسائل التى تصله من بلاده، ومن أقرب أقاربه بصفة خاصة، تعكس روحا مختلفة تماما. هذا واحد من أقرب أقاربه، يعمل رئيسا لأحد الأحياء، كان يحكى له دوما عن التغيير الجديد فى الإدارة ، ويعبر عن سروره للعلاقات الطيبة الجديدة التى بينه

(*) ظهرت حركة الجامعة الإسلامية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين ، وكان الداعى إليها جمال الدين الأفغانى ، واهتم بهذه الحركة السلطان عبد الحميد الثانى ١٨٧٦ – ١٩٠٨ ، ووضح تأثر المسلمين فى جزر الهند الشرقية بهذه الحركة التى توجس منها المستعمرون الهولنديون على مستقبل نفوذهم فى تلك الجزر . (المراجع)

وبين الممثل المقيم المساعد، بل إنه أرسل له في إحدى المرات رسما لميدالية منحته الحكومة إياها؛ جزاء له على خدماته الجليلة ... إلخ. أدت هذه الرسائل إلى استثارة ذلك الشيـخ، الذي لم يحدث أن كان متطرفا في آرائه، وجعلته يدخل في موجة من موجات التشدد التي جعلته يلعن واحداً من كبار أقاربه قتل في المعركة التي دارت ضد البالمبانج ونعته بأنه "شهيد الشيطان".

حدثت انتفاضة ذات مرة، فقد كتب له رئيس الحي ليقول له إن الهولنديين في آتشيه تلقوا هزائم عدة الواحدة بعد الأخرى، وإن السبب الرئيسي في تلك الهزائم يرجع لعدم قدرة الهولنديين على تحمل المناخ القاسي من ناحية وعدم قدرتهم على مواجهة خداع الآتشيين من ناحية ثانية. لكن إحساسه بالشرف والكرامة لم يسمح له بالسلبية في ظل هذه الظروف، واستطاع، عن طريق وساطة رئيسه الهولندي، أن يعرض على "السيد الكبير"، أو بالأحرى الحاكم العام، النزول إلى ميدان القتال على رأس ٣٠٠ من اللامبونيين المدربين تدريبا جيدا، ليقف في وجه العدو الشمالي. ولهذا السبب كان قد طلب من الحكومة إمداده بثلاثمائة من بنادق المؤخرة(*) . وهنا التمس ذلك الرجل من قريبه المقيم في مكة شراء سيف إستانبولي ممتاز، ويغسله بماء زمزم، ويصلي عليه في الحرم المكي حتى يجعله الله سيفا من سيوف النصر!

جاء رد شيخنا على هذه الرسالة البسيطة كما لو كانت موجة من الرعد سقطت على منزل رئيس الحي. وبدلا من التحية المعتادة التي تبدأ بعبارة "السلام عليكم" افتتح الشيخ رسالته بالتحية التي تجري بها تحية أولئك الذين لا يكون الإنسان واثقا من مشاعرهم الدينية أو في شك منها، والتي تقول "السلام على من اتبع الهدى!" ثم أتبع الشيخ هذه التحية بخطابٍ مدوٍّ عن العلاقات بين المؤمنين وغير المؤمنين. وصف الشيخ

(*) بنادق المؤخرة نوع من البنادق التي تجري تعبئتها بالذخيرة من المؤخرة. (المترجم)

الوضع المأساوى الذى تردت فيه بلاد الجاوة بسبب افتقارها إلى الأمور الدينية، وأصر الشيخ على أن الإيمان القوى يعنى المزيد من التحمس والمزيد من الوحدة، وهو الحال الذى كان يمكن أن يسفر عن تكوين إمبراطورية جاوية إسلامية قوية بدلا من الحكومة الكافرة. وفى نهاية الرسالة أعرب الشيخ عن أمل مفاده أن يهجر قريبه طريق الكفر ويعمل على نشر العقيدة الإسلامية الصافية فى المناطق المجاورة له. لكن لو قدر لذلك الشيخ أن يسمع أن صديقه هذا ذهب إلى آتشيه ليساعد على انتصار جيوش الشيطان، لذهب كل يوم إلى أبواب الكعبة وراح يدعو الله سبحانه وتعالى أن يبقى جثمان المرتد عن دين الله بلا دفن على أرض آتشيه. هذا الذى أوردته هنا سمعته من الشيخ دون أن أتحرى عنه من المحيطين به، ولكنى قرأت بنفسى الرد الذى جاء من رئيس الحى. فقد اعترف رئيس الحى بخطئه الجسيم، لكنه التمس لنفسه العذر بسبب جهله بالمسائل الدينية. هذا يعنى أن رئيس الحى وجد لنفسه وسيلة يسحب بها عرضه بشكل مناسب، وأنه فى المستقبل سوف يدعو الله أن ينصر سلاح المسلمين.

المسئولون الوطنيون الذين يكونون من هذا القبيل لا يكونون على معرفة كاملة بمحتويات الكتب الدينية، حتى عندما يكونون - وهذا هو ما يحدث فى معظم الأحيان - أقل ميلا ناحية الحكومة اللامبونية، أو عندما يقومون بدافع من الخرافات بتوقير الشيوخ الصوفيين إلى أبعد حدود التوقير والاحترام.

من خلال اتصالى بكثير من اللامبونيين، الذين جاءوا إلى مكة خصيصا لأداء فريضة الحج، عرفت أن لا أحد منهم يستطيع الحصول على التعليم الكافى فى أفرع "الإسلام الثلاثة" على الرغم من عدم وجود مراكز علمية من قبيل تلك المراكز الموجودة فى منطقة الأراضى المرتفعة فى كل من بادانج أو بالمبانج أو فى آتشيه . هذا المثال الذى أوردته هنا يجعلنا نتبين كيف أن الحج يعد قناة غير مباشرة تتسرب من خلالها تيارات الحياة الإسلامية المكثفة لتشق طريقها إلى بلاد الجاوة. وبشكل عام، يمكن القول إن العناصر العلمية للجالية الجاوية الموجودة فى مكة تلعب دوراً أكبر من الدور

الذى يلعبه الناس الذين من قبيل ذلك الشيخ اللامبونى. وإن أردت أن أورد وصفا شاملا إلى حد ما لتلك الدوائر، بالشكل الذى كانت عليه يوم أن كنت فى مكة، أجدنى مضطرا إلى تكرار الشيء نفسه لكن بكلام آخر، والسبب فى ذلك أن مستقبل أى عالم من العلماء ونشاطه يختلف عن مستقبل العلماء الآخرين وأنشطتهم، فيما يتعلق بالاسم والتفاصيل غير المهمة ليس إلا. وإذا كنا نبتغي الحصول على فكرة عامة فإننا يكفينا القيام بزيارة بعض الرجال البارزين، ونروح نسألهم وأصدقاءهم وتلاميذهم عن ماضيهم وأسلوب حياتهم.

***

جُنَيْد، مرشد المدرسين الجاويين، هو أصلا من منطقة باتافيا، هذا الرجل كان متقدما فى السن، وكان قد قام ببعض الدراسات والأبحاث المتعمقة عندما سافر إلى مكة قبل خمسين عاما، عاقدا العزم على عدم العودة إلى وطنه. كان المفتى جمال من بين الأساتذة الذين تلقى جُنيد العلم منهم. هذا المفتى اشتهر بهذا الاسم إلى يومنا هذا، وإذا ما ذكر اسم معاصر شهير لجُنيد وكان ينتمى إلى الجالية الجاوية، تعين على من يأتى بذكر هذا الاسم أن يسبقه بذكر كلمة "المبارك" الفخمة. من هؤلاء المعاصرين: خطيب سمباس (وهو من جزيرة بورنيو) وضليع فى كل أفرع العلوم الإسلامية، وبحكم أنه كان شيخا للطريقة الصوفية القادرية فقد ضم الكثيرين من الجاوة إلى هذه الطريقة. وهذا هو عبد الغنى بيما (وهو من سُمباوا) الذى كاد أن يعتبره الناس قديسا، وهذا أيضا هو إسماعيل مينانجكابو (وهو من جزيرة سومطرة) وهو عاطفى إلى حد بعيد، وعليم إلى حد ما ولكنه شديد التعصب، وتختلف آراء بنى وطنه فيه اختلافا كبيرا. وهناك أيضا رجال آخرون أقل شهرة، وينتمون إلى الماضى أيضا، وجُنَيْد هو الوحيد المتبقى على قيد الحياة، وتراه يحضر - كلما استطاع إلى ذلك سبيلا - الاحتفالات العائلية التى يقيمها أبناء بلده أو الأثرياء منهم، ويعهدون إليه فى

هذه الاحتفالات بتسمية طفل من أطفالهم، أو إقامة دعاء القراية (القراءة) أو رئاسة ذكر من الأذكار، على الرغم من الوهن الذى أصاب صوته بسبب كبر السن وفقدانه لعدد كبير من أسنانه.

فى السنوات السابقة كان جنيد يقوم بتدريس النحو العربى والشريعة فى منزله للطلاب الذين يفدون عليه من منطقة باتافيا، وربما لبعض الجاوة الآخرين (الذين يفدون عليه من كل من بالى وسمباوا) الذين يستخدمون لغة الملايو فى تلقى العلم. وقد حاول جنيد جاهدا الوصول بطلابه إلى تمكينهم من قراءة الكتب العربية على وجه السرعة. كانت لهجة باتافيا، عند هذا الشيخ الذى يجيد العربية تماما، أداة غير واضحة من أدوات التعليم، ثم ألقى بعد ذلك محاضرات عن الأفرع كلها، وكان يلقى تلك المحاضرات أحيانا فى منزله، وأحيانا أخرى فى الحرم. وكان بوسع الطلبة الجاويين المتقدمين، الذين استخدموا فى بداية تعليمهم لغة غير لغة الملايو، حضور تلك المحاضرات. وذاعت سمعة جنيد وصيته، إلى حد أنه كان يدرج اسمه دون طلب منه، ضمن أسماء المدرسين الذين كانوا يحصلون كل عام على نصيب من هدية القمح المخصصة لكل واحد منهم. واضطر الرجل إلى اعتزال محاضراته سنوات عدة، وواصل العمل بقوة مدرسون لا يقلون عنه كفاية.

أنجب جنيد ولدين من زوجته المصرية، سعيد وأسعد. وتعلم الولدان مبادئ العلم من والدهما، ومن معاصريه من بين الجاوة (أمثال عبد الغنى بيما وآخرين) كما تلقيا العلم بعد ذلك على أيدى مدرسين من الشافعية، الذين سبقت الإشارة إليهم فى فصل سابق، مثل مصطفى عفيفى وأحمد الدحلان، وكذلك المداح والنحراوى اللذان توفيا منذ زمن طويل، واللذان كان الطلاب الجاويون يداومون على حضور محاضراتهما. وبعد أن بدأ الوالد يخلد إلى الراحة راح الولدان يقومان بجزء من نشاط والدهما فى مجال التدريس، ومات سعيد فى سن مبكرة أى منذ سنوات قلائل، أو بالأحرى توفى وهو فى الخامسة والأربعين من عمره. أما أسعد الذى يبلغ من العمر أربعين عاما فما زال

يدرس للطلبة الباتافيين والطلبة الآخرين الذين يتحلقون حوله. وأكثر الجاوة علما وأكثرهم شهرة وصيتا يقبل يد جنيد الكبير ويخاطبه أمام الملأ قائلا له: يا شيخ المدرسين .

ابنة جنيد متزوجة من شيخ من بتافيا اسمه مجتبى، وقد أمضى هذا الرجل نصف عمره تقريبا الذى يبلغ أربعين عاما فى مكة (المكرمة). كان مجتبى قد بدأ دراسته الباكرة قبل أن يؤدى فريضة الحج لأول مرة، وهو يجيد لغة أهـل الملايـو إجادة طيبة، ومهارته أكثر من مهارة حميه. وبعد أن عمق مجتبى دراسته بعون من جنيد والمدرسين العرب (وبخاصة النحراوى والمداح وحسب الله) بدأ يدرس فى مكة، لكنه لم يضيع فرصة الاستماع بين الحين والآخر إلى المحاضرات التى كان أساتذته يلقونها .

كان لمجتبى تلاميذ أيضا، كما أن أصدقاءه وأقاربه فى وطنه كانوا يدعمون عن طيب خاطر الريع الذى كان يأتيه من ضيعته الصغيرة الموجودة فى بلاده، الأمر الذى وفر له دخلا مناسبا يكفيه. هذه الحياة الهادئة لم تكن ترضيه إرضاء تاما، وظل ينتمى طوال سنوات عديدة إلى العناصر المهاجرة من الجالية الجاوية. كان الرجل يترك زوجته فى رعاية والدها جنيد ويسافر كل بضع سنوات قلائل، لزيارة زوجتيه فى بتافيا التى يمضى فيها عاما أو نحو عام، ينظم خلاله أحواله وأموره المالية، ويبيع خلاله الكتب والأشياء الأخرى التى أحضرها معه من مكة، ويخصص ساعات فراغه لأبناء وطنه الذين يتشوقون إلى المعرفة.

وسلوك هذا الرجل فى التواصل الاجتماعى يتسم بالتواضع ويحظى بالاحترام، والرجل قبل أن يجيب عن أى سؤال من الأسئلة التى يطرحها الناس عليه يطيل النظر إلى الأمام مدة لحظة واحدة، ثم يبدأ بعد ذلك خطابه السلس الرقيق مستخدما فى ذلك لغة أهل الملايو أو اللغة العربيـة، طبقـا للعـرق الذى ينتمـى إليه مقـدم السـؤال.

ولم يحدث مطلقا أن نفى الرجل أو صحح على الفور أى رأى من آراء الآخرين، ولا يخرج مطلقا من فم ذلك الرجل سوى الخير والرحمة. هذا الأسلوب له تأثير كبير على الجاوة، وعلى الرغم من أن مجتبى لم يستطع أن يؤمن لنفسه مكانا - بسبب كثرة أسفاره - فى الصف الأول من علماء الجاوة، فإنه يحظى بشعبية جارفة بين بنى وطنه.

***

عند هذا الحد سنودع مقاطعة باتافيا، ولكن المناطق الأخرى التى فى غربى جزيرة جاوة ، أو بالأحرى منطقة السندانيين اللغوية، سوف تستوقفنا فترة أطول، والسبب فى ذلك أن هذه المنطقة - دون سائر مناطق جزر الهند الشرقية - هى التى تحظى بعدد كبير من مدرسى الصف الأول ومن الطلاب على اختلاف فئاتهم. وكما هو معروف فإن الإسلام عند ظهوره فى غربى جاوة صادف ظروفا وأحوالا أبسط وأسهل من مثيلتها التى صادفها فى الأجزاء الوسطى والأجزاء الشرقية من الجزيرة. والإسلام عند انتشاره فى هذه المنطقة لم تحدث بينه وبين الموروثات الوطنية العميقة والمترسخة أية مواجهة من أى نوع كان، وبذلك لم يصطبغ الإسلام كثيرا بالصبغة المحلية. يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من كبار علماء العلوم الشرعية هم أصلا من السلطنات السابقة فى بانتن . ومع ذلك تعد مقاطعة "براينجان" ، ويصح فيها أيضا "برينجر"، واحدة من أفضل مقاطعات الجاوة، لأن منها عدداً كبيراً أصبحوا علماء ويقيمون فى مكة، كما تتشابه تلك المقاطعة مع منطقة بانتن فى كثير من الأمور المادية والأخلاقية.

لم ترفع منطقة السندانيين نفسها إلى المستوى الذى يمكن أن تصبح عنده محطا للكلام عن الحضارة الإسلامية، والذين يمكن التعويل عليهم فى هذا المقام

هم أهل جزيرة جاوة وسكان شبه جزيرة الملايو[٣٦]، ولكن هناك أيضا من يمكن التعويل عليهم ولكن إلى حد ما، وهم المَديوريون، والمكاسرة والبُجنيون . الجاويون وسكان الملايو لديهم قدر كبير من الترجمات عن اللغة العربية، وقدر كبير من المؤلفات والتعليقات، كما أن لديهم أيضا أدبيات دينية شعبية ثرية، مستقلة عن اللغة العربية، أى بلغة القوم وهذه الكتب المؤلفة بلغة القوم تعبر عن الطابع المحلى للإسلام تعبيرا ناجحا وموفقا. أما المَديوريون والمَكاسرة والبُجنيون، فقد أثبتوا أنهم رداء مناسب للإسلام، ولكن على نحو أقل من الجاويين وسكان الملايو. وإذا ما أرادوا تعلم شىء فى هذا المجال بصفة خاصة تعين عليهم تعلم لغة الجاوة أو لغة الملايو، إذا ما كانت اللغة العربية شاقة وصعبة عليهم[٣٧] . ونحن عندما نعقد مقارنة بين هذه اللغات نجد أن اللغة السندانية ليست لها قيمة علمية أكبر من قيمة اللغة الآتشية أو اللغة اللامبونية على سبيل المثال. والسوندانيون أنفسهم عندما يبدأون الدراسة فى بلادهم يستعملون لغة أجنبية، وبخاصة عندما تكون تلك اللغة وثيقة الصلة بلغتهم. وفى معظم الأحيان يحظى المبتدئون بنوع من المساعدة فى فهم ما يدرسون، وهذه المساعدة تقدم لهم على شكل ملاحظات قصيرة أو ترجمات مجتزأة بين السطور وبلغتهم الأم، ويمليها عليهم مدرس من المدرسين الذين ينتمون إلى هذه المنطقة التى جاء منها هؤلاء المبتدئون.

•

إذا كان كثير من السوندانيين يحاولون تعلم أسمى آيات الحكمة من خلال اللغة الجاوية، فإن هناك بعضًا آخر من الآتشيين واللامبونيين، هم وأناس آخرون من

---

(٣٦) اللغة الجاوية هى ولغة الملايو يتخلص منهما دارسو العلوم الشرعية الذين اكتسبوهما مع ألبان أمهاتهم، وذلك عندما يأنسون أنهم تعلموا اللغة العربية وأتقنوها. وبذلك يعمل هؤلاء الدارسون على دعم فكرة احتقار عرقهم الجاوى والملاوى .

(٣٧) على الرغم من ترجمة بعض المؤلفات العربية إلى هذه اللغات الثلاث، فإن تلك اللغات لا تعد وسيطا جيدا لنقل العلوم الشرعية.

سومطرة وغيرها، يستعملون لغة الملايو. هذا الخيار مفتوح أيضا أمام السوندانيين وبالتالى فهم يذهبون فى ذلك مذاهب شتى.

الفارق الرئيسى بين الطريقة التعليمية المكية والطريقة التعليمية الوطنية يتمثل فى أن الطريقة المكية تفيد دوما من لغة الملايو ولغة جاوة باعتبارهما وسيلتين لتقديم الطلاب إلى اللغة العربية، وبخاصة القواعد؛ الأمر الذى يمكن هؤلاء الطلاب من التغلب على تلك الفجوة قبل دراسة الكتب العربية وبخاصة كتب الشريعة والفقه، على أن يواصل الطلاب استخدام اللغة الوطنية فى تفسير النصوص الشرعية والقواعد الفقهية، إلى أن تصبح هذه المسألة أمرا سهلا وسطحيا عند هؤلاء الطلاب. على الجانب الآخر يبدأ المرء فى جاوة إما باستعمال الكتب المدونة باللغة الجاوية أو بالكتب المدونة بلغة الملايو، أو قد يبدأ بلا أية مقدمات فى قراءة المؤلفات العربية البسيطة والسهلة. وهناك بعض الأماكن القليلة (سامرانج وسورابايا وفى بعض الأجزاء الداخلية من البلاد) يفتح فيها أحد المدرسين المشهورين مدرسة خاصة به هو شخصيا، يقوم بالتدريس فيها مدرسون ضليعون فى اللغة العربية، ويتبعون المنهج المكى، الذى أصبحت له اليد العليا فى غربى جاوة، والذى سوف يكتسح منظومة التعليم القديمة ويطردها إلى غير رجعة.

قد يكون من غير المناسب تماما تسليم الناس كتبا عربية، قبل أن يكونوا قد شغلوا أنفسهم بهذه اللغة فى أضعف الأحوال، ولكن هذا النظام يبدو عمليا إلى حد ما، فى ضوء متطلبات السواد الأعظم من الطلبة الذين يلتحقون بالمدارس فى جزيرة جاوة. وهنا يجب أن نأخذ بعين اعتبارنا المتاعب التى لا تنتهى، والتحمل الذى يتعين على الجاويين بذله فى مكة، أولا فى فهم جداول التصاريف العربية، ثم بعد ذلك فى استيعاب وفهم المؤلف النحوى قطرة بقطرة، وأخيرا استعمال الطالب لكل ما تعلمه فى فهم كتاب الفقه. وعليه نجد الطالب يكتب على الكلمة "فعل" fe'ala فعل ماض، لمفرد

مذكر غائب"، ويكتب هذا الكلام باللغة الجاوية أيضًا[٣٨] . والصيغة "فعلا" fa'ala يقول عنها: "فعل ماض، لمثنى مذكر غائب"، ثم يكتب هذا الكلام نفسه باللغة الجاوية أو لغة الملايو.

بعد أن يحفظ الطالب هذه التصريفات بكل شروحها عن ظهر قلب، طبقا لذلك التسلسل، يجرى اختباره فيها اختبارا عشوائيا، باستخدام جذور أخرى غير الجذر "فعل". بعد ذلك، يقوم شخص آخر بجعل الطالب يحلل (يعرب) كلاما متباينا فى كتاب من كتب النحو الصغيرة، بالطريقة سالفة الذكر، وإذا ما تمكن الطالب من فعل ذلك بلا مشقة أو تعب، يشرح بعد ذلك معنى القواعد النحوية من خلال ترجمات مختصرة إلى لغة الملايو أو إلى اللغة الجاوية. وإذا كانت لغة الطالب الأم (السوندانية أو الآتشية) تختلف عن هاتين اللغتين يقوم الطالب بترجمة كلمات الشرح غير المفهومة له مرة ثانية.

بعد أن ينهى الطالب كتاب النحو الأول، يبدأ فى التعامل مع الفقه بالطريقة نفسها، وإذا ما فشل الطالب فى فهم شىء من الأشياء قام بتحليله أولا، ثم ترجمة الشىء كله إلى واحدة من اللغتين الأدبيتين الإسلاميتين من لغات الجاوة.

يتعين على الطالب تعلم المفردات بصورة متدرجة من خلال القراءة الكثيرة وتحت إشراف واحد من المدرسين، والطلبة المقيمون فى مكة يتمتعون بمزايا كثيرة فى هذا الصدد عن أولئك الذين يتعلمون فى أوطانهم، حتى وإن كان مدرسوهم من العرب الذين يجيدون العربية. هذا يوضح أيضا أن معرفة اللغة العامية أمر لا محيص عنه.

---

(٣٨) هذه الترجمات التى بين السطور يكتبها الطلبة باللغة الجاوية، لكن بحروف عربية.

لو قدر للطالب فى بلاد الجاوة الاقتصار فقط على فتح باب الحكمة لأولئك الذين سبق لهم التجوال أولا وقبل كل شىء، على طريق التصريف والقواعد، فإن قسما كبيرا من أولئك الذين يرغبون فى التعليم سوف تفتر هممهم قبل أن يتعلموا حتى ولو كلمة واحدة من الشريعة الإسلامية. هذا السبب هو الذى يحتم، فى المدارس الجاوية التى تتبع فيها الطريقة العربية ولم يتم استبدالها بعد، إعطاء الطالب المبتدئ فى البداية بعض المؤلفات العربية التى تتناول بعض عناصر الشريعة والفقه. والمعروف أن كثيرا من العبارات التقليدية، التى فى هذه المؤلفات الصغيرة معروفة للناس، وهنا يتعين على المدرس أن يُعنَى بشرح وتفسير ذلك الذى يدونه المستمعون فيما بين السطور.

ونحن لسنا بحاجة هنا إلى القول إن الكثيرين هم الذين يفهمون ذلك الذى يجرى تدوينه بين السطور، والسبب فى ذلك أن الأصل على الرغم من تكرار تهجيه، وعلى الرغم من تكرار قراءته قراءة مؤثرة، يظل مستغلقا على مثل هؤلاء الناس. وعلى الرغم من ذلك، فنحن نصادف نجاحات مدهشة يحققها أصحابها فى بعض الأديان من وراء هذه الطريقة المحزنة من طرق التعليم. لقد شاهدت فى مكة أناسا من بونوروجو ومن باتجتان استطاعوا - بحكم دراستهم لتلك النصوص الفقهية على امتداد سنوات طويلة - أن يترجموا وبطلاقة ودقة مثل إخوانهم المواطنين الذين درسوا بالطريقة العربية، وأصبحوا يترجمون عن لغة سامرانج ولغة سورابايا، الفارق بين أولئك وهؤلاء هو أن من درسوا فى مكة لا يستطيعون قراءة الجملة مستقلة قراءة صحيحة، كما أنهم لا يستطيعون تحديد مواقع كلمات بعينها فى الجملة، لكنهم يستطيعون إعطاء المضمون الصحيح لأية مقطوعة من المقطوعات.

فى مكة يستخدم المدرسون الجاويون الطريقة العربية، لكنهم يأخذون بعين اعتبارهم سائر الخطوات التعليمية التى يخطوها تلاميذهم فى وطنهم، فتراهم يبدأون مع بعض التلاميذ من أول السلم، وقد يرتقون درجات السلم مع بعض آخر من

التلاميذ، متخطين بذلك هذا الذى تعلمه هؤلاء التلاميذ، ويروحون يطرحون عليهم بعض القضايا الفقهية الصارمة.

بعض هؤلاء الطلاب يكونون قادرين تماما على مسايرة الطلاب الأكثر تقدما، والذين سبقت لهم الدراسة فى مكة. وليس هناك ما يمنع الشباب من الاستماع إلى المحاضرات، وبخاصة أولئك الشبان الذين كان ينبغى - من وجهة نظرنا - تقسيمهم إلى فئات عدة. والسبب فى ذلك أن هؤلاء الشبان يمكن أن يساعد بعضهم بعضًا، وما يفتقر إليه أحدهم قد يكون أمرا سهلا وميسورا عند زميله. فى بعض الأحيان قد يصعب اجتياز مسار التعليم الذى يجرى على هذا النحو بطريقة واحدة. هذا يعنى أن الطالب الذى قد يتوقف عند محطة معينة متخلفا عن الآخرين، ربما يلحق بزملائه فى المحطة التالية لها ويمضى قدما بعد ذلك. هذا يعنى أيضا أن الطلاب يفيدون من الاتصال المتبادل ومن الممارسات العامة، كما يفيدون أيضا من المحاضرات.

***

بعد هذا الاستطراد، سوف نتطرق إلى علماء الشرع السودانيين فى مكة، ونلقى الضوء على البعض منهم. اثنان من هؤلاء العلماء هما اللذان يسترعيان انتباهنا بسبب ذلك العدد الكبير من شباب برانيجان الذين يتحلقون حولهما. هذان العالمان هما محمد وحسن مصطفى، وهما يلقبان باسمى موطنيهما برانيجان، وجاروت محمد جاروت متقدم نسبيا فى العمر، ولم يجئ إلى مكة فى بداية الأمر طالبا مبتدئا، وإنما وفد مكة مدرسا متعطشا لكثير من العلم والدراسة.

كان محمد جاروت يجلس عند أقدام العلماء المصريين والعلماء الداغستانيين، وعثر الرجل فى دائرة هذين العالمين على كثير من الجاوة المفعمين بالأمل، واتخذ منهم

رفاقا له. كانت حياة الاهتياج التى تعترى المدينة المقدسة أثناء العطلات حافزا للرجل فى بعض الأحيان، إذ كان يحذو حذو بنى وطنه ويسافر لزيارة وطنه، من هنا أصبح محمد جاروت حلقة فى سلسلة التواصل بين مكة (المكرمة) وجزيرة جاوة. فى بعض الأحيان هنـــا (فى مكة)، وفى أحيان أخر هناك (فى وطنه) كان الرجل يقوم بتدريس العلوم الشرعية كلها. والسنوات العشر الأخيرة أمضاها الرجل كلها فى مكة، قـد تمكن - بفضل الهدايا التى كانت تصله من أقاربه ومن مريديه - من بناء منزل خاص له على منحدر الجبل الذى يرتفع خلف حى القشاشية .

وطوال ست سنوات، كان محمد جاروت يلقى يوميا محاضرتين عن القواعد والفقه، لكن اهتمامه الرئيسى كان ينصب على التصوف . وهناك فى مكة عدد يتراوح ما بين ستين وسبعين من الجاويين والسندانيين يطيعون محمد جاروت طاعة عمياء "كما لو كانوا جثثا فى أيدى المغسِّلين،" وفى كل عام كان كثير من الحجاج يبادلونه قرابين (عطايا) التقوى والورع "بالبركات".

كان حسن مصطفى واحدا من تلاميذ محمد جاروت فى جزيرة جاوة، وقد وفد على مكة قبل حوالى أربعة عشر عاما، كى يستمع إلى محاضرات كبار علماء الجاوة، وليحضر أيضًا فى الحرم المكى محاضرات حسب الله، ومصطفى عفيفى، وعبد الله الزواوى ... إلخ، وراح حسن مصطفى يعلم نفسه بنفسه طوال عشر سنوات، يضاف إلى ذلك أن بعضا من كتبه الدراسـية (بما فى ذلك كتـابه عـن العـروض العربى) تم نشرها فى القاهرة. كنا نجد مع طلوع الشمس وبعد العصر عشرات من الطلاب الجاويين والطلاب السندانيين فى منزل حسن مصطفى كى يستمعوا إلى محاضراته وكلماته، وفى بعض الأحيان الأخرى كان الرجل يذهب بنفسه إلى الحرم المكى لتلقى العلم. قبل سنوات قلائل عاد الرجل إلى جزيرة جاوة منتويا عدم البقاء طويلا، إلا بما يسمح له بتدبير أموره وشئونه هناك.

إلى هنا نكون قد وصلنا إلى مقاطعة بانتن التى يمثل سكانها عددا كبيرا بين أفراد الجالية الجاوية. أكبر زعماء الحركة الفكرية وقادتها ينحدرون من مقاطعة البانتن. والشيخ محمد النواوى، بوصفه فقيها فى الدين يكنونه الشيخ النواوى البانتينى. هذا الرجل اسمه مأخوذ عن اسم المؤلف العظيم الذى وضع كتاب المرشد الشرعى الشافعى، وهو يجيء على رأس العلماء الآخرين بل وفى مقدمتهم. كان عمر بن عربى، والد محمد النواوى، راعيا لمسجد تانارا(فى بانتن)، وقد قام هو بنفسه بتعليم أبنائه النواوى وتميم وأحمد، مبادئ علوم الدين. وقد حصل الأشقاء على المزيد من العلم من الحاج ساهال، الذى كان وقتئذ مدرسا شهيرا فى بانتن، ثم سافر الأشقاء بعد ذلك إلى "بورواكارتا" فى كراوانج، حيث كان "رادن" الحاج يوسف يجذب إليه كثيرا من طلاب جزيرة جاوة الرحالة ، وبخاصة أولئك الطلاب الذين كانوا يأتون إليه من غرب جزيرة جاوة. هؤلاء الطلاب أدوا فريضة الحج عندما كانوا صغار السن تماما، وبعد أداء فريضة الحج بقى النواوى حوالى ثلاث سنوات فى مكة، وعندما عاد إلى بلاده بغنيمة "علمية" ثمينة، كانت خطته قد نضجت تماما، فقد قرر البقاء بصفة دائمة قريبا من بيت الله الحرام، وتلك كانت الخطة التى بدأ تنفيذها على الفور.

منذ ثلاثين عاما وإلى يومنا هذا مازال هذا الرجل يعمل جاهدا فى مكة على تحسين معرفته بالعلوم الإسلامية فى كل مناحيها، كما يعمل أيضا دليلا ومرشدا من أجل تسهيل الدراسة على الجاويين. فى بداية الأمر درس محمد النواوى على أيدى العظماء الراحلين من الجيل السابق، أمثال الخطيب سمباس، وعبد الغنى بيما ... إلخ، ولكن مدرسيه الأصليين كانا المصريين يوسف السنبلاوينى والنحراوى، إضافة إلى عبد الحميد الداغستانى (الذى توفى منذ سنوات قلائل) الذى تعود على حضور محاضراته، إضافة إلى مجموعة كبيرة من علماء الدين، واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن وافته المنية. كان الرجل فيما سبق يقوم بالتدريس فى كل الأوقات التى

كانت تتيسر له، لكن الرجل خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة راح يكرِّس فترة ما قبل الظهيرة للتدريس وإلقاء المحاضرات.

ويلقى النواوى ثلاث محاضرات فى صباح كل يوم، أو بالأحرى من الساعة السابعة والنصف صباحا حتى الساعة الثانية عشرة ظهرا، يكون ترتيبها طبقا لمتطلبات تلاميذه المتعددين. وهو يستقبل عن طيب خاطر الصبية الذين يبدأون بدراسة القواعد والنحو، كما يستقبل أيضا التلاميذ الأكبر سنا من أولئك الذين لديهم فى الوطن قائمة صغيرة للمحاضرات. هذه النوعية الأخيرة من التلاميذ هم وبعض أفراد أسرة الشيخ (أى أخوه الأصغر عبد الله، البالغ من العمر ستة عشر عاما، والذى كفله النواوى ونشأه ورباه) يتولون عن الشيخ بعض مهامه التدريسية.

النواوى يعد مثالا رائعا على الصعوبات التى يتعين على الجاويين التغلب عليها عندما يتكلمون اللغة العربية. والنواوى بعد أن تعلم تعليما أوليا كاملا، وأمضى فى مكة (المكرمة) ثلاثين عاما، يستطيع الآن تلاوة القرآن، الذى يحفظه عن ظهر قلب، إضافة إلى أنه عندما يقرأ نصا عربيا جهرا نجده ينطق الأصوات الساكنة نطقا سليما. لكنه عندما يستعمل اللغة العامية فى تسيير أمور حياته اليومية يبدأ فى تكوين أنصاف جمل جاوية، وتراه يحار فى إخراج أصوات الحاء والخاء والعين والقاف. هذه الأصوات الأربعة تشكل عقبة أمام الجاويين، ونظرا لأن صوت الخاء هو الأقل إرباكا للجاوة، فهم يستعملونه بدلا من الصوتين الآخرين، وفى ظل هذا الاستعمال الخاطئ يضحك منهم المكيون .



حاجة جاوية (من بانتن)

إجابة السؤال الذى يطرحه المكى على الجاوى المهندم قائلا "ما المدة التى درستها هنا؟" المفروض أن تكون "قرأت qaret فى الحرم سبع سنين" .

هذه الجملة يستنكرها كل أعضاء الجالية الجاوية بسبب لفظهم غير السليم لها، فهم يجيبون قائلين "خريت فى الحرم سبع سنين" .

لم يكن من صالح طلاقة النواوى فى اللغة العربية أن تكون زوجته الوحيدة من بنات وطنه، هذه الزوجة - على حد قول أصدقائه الحميمين - كانت ترتدى "السروال القصير" وكانت تنجح فى معارضة زواجه مرة ثانية. هذا لا بد من موازنته مع ارتباطه غير العادى بعلماء الدين فى مكة، ومع ذلك فإن هذا العالم الدينى يعبر عن مواهبه باستعمال القلم أفضل من استعمال اللسان.

وكان فى ذلك الرجل عيب، مرتبط دوما باضطراب الكلام، وهذا العيب يتمثل فى إهمال النواوى لمظهره الخارجى. ومع أن الإسلام يحث على النظافة فإن الرجل يدخل فى عداد من لا يعتنون بالنظافة. كان جسم الرجل فى بعض أجزائه تغطيه الأوساخ، وكان يرتدى ملابس عديمة الألوان، ويضع على رأسه عمامة متعرقة.

كان يحاضر عن الشرع فى غرفة كبيرة فى الطابق الأرضى من منزله، وفى رأى المكيين أن ملابس النواوى التى كان يمشى بها فى الشارع لم تكن تناسب مكانته الاجتماعية. يضاف إلى ذلك أن انحناء جسمه كان يجعله يبدو أقصر مما هو عليه. ويمشى الرجل فى الشارع كما لو كانت الأرض كلها كتابا عملاقًا يقرأ منه. وعندما سألته ذات مرة عن عدم تدريسه فى الحرم، قال لى إن منظر لباسه ومظهره الخارجى لا يتفقان مع المظهر اللائق للعلماء العرب، وعندما قلت له إن علماء أقل منه من بنى وطنه يدرسون فى الحرم. قال "إذا كانوا قد حظوا بذلك الشرف، فذلك من المؤكد حق لهم".

لا ينبغى علينا أن نخلص من التعبيرات التى من هذا القبيل إلى أن الرجل متواضع حقيقة، أو أن طريقة وصفه لنفسه فى مقدمة من المقدمات على أنه "تراب أقدام أولئك الذين يجاهدون طلبًا للعلم" لا تؤكد الكثير من الأمور. واقع الأمر أن الرجل

يميز نفسه بهذه الصفة. هذا يعنى أن الرجل يرضى أن يُقَبِّل يده كل الجاوة الذين يعيشون فى مكة دون مجاملات كاذبة أو زائفة تمحكا فى العلم، والرجل لا يرفض الرد على أى سؤال يتعلق بالشريعة الإسلامية. وفى المقابلات الاجتماعية بكل أنواعها ترى الرجل يشارك بأدب فى الحوار، ولا يحاول الهيمنة عليه، وهو لا يبدأ أى حوار علمى دون أن يكون هناك سبب أو مبرر لذلك الحوار. والعربى الذى لا يعرف هذا الرجل قد يقضى أمسية كاملة بصحبته دون أن يلاحظ أن هذا العالم قد ألف عشرين كتابا عربيا قيما.

نفوذ هذا الرجل وتأثيره الأخلاقى مهم جدا وواسع الانتشار، لكن شخصيته تكون دائما فى خلفية الصورة. وبإيحاء من هذا الرجل، تتزايد أعداد السندانيين والجاويين والملاويين، الذين يتحولون إلى التعمق فى دراسة الإسلام؛ الأمر الذى يجعل مُثُل الإسلام الدينية السياسية تلقى رواجا متزايدا على أيدى هؤلاء الرجال، لكن النواوى ليس وليا على أحد. ومن الطبيعى لهذا الرجل أن يفرح للصعوبات التى يسببها الآتشيه Acheh للحكومة(*)، وهو فى الحوار لا يتفق مع هؤلاء المسئولين الحالين إلى المعاش، الذين يناصرون المسألة التى مفادها أن بلاد الجاوة يتعين أن يحكمها الأوروبيون. يزيد على ذلك أن بعث سلطنة بانتن، أو أية ولاية إسلامية مستقلة بأى شكل من الأشكال، يدخل الفرح والسرور إلى نفس هذا الرجل، سواء كان التمرد الذى ترتب على ذلك طبقا للشريعة الإسلامية، أو جاء على أيدى جماعات متشددة غير نظامية. وأيضًا، فالرجل لا يبحث لنفسه عن دور سياسى، ولا يتفاوض من أجل أدوار للآخرين. وأيضًا، يستحيل على هذا الرجل أن يفعل ذلك الذى كان يفعله والده، والذى يفعله حاليا شقيقه الحاج أحمد، الذى خلف والده الذى خدم الحكومة الكافرة فى منصب راعى أو مدير المسجد.

(*) المقصود بها الحكومة الهولندية. (المراجع)

طموح النواوى الشخصى هو الذى جره إلى النشاط فى المجال الأدبى. كان النواوى قبل ذلك يرسل كثيرا من كتاباته إلى مطابع القاهرة، ويقال إنه صدر له مؤخرا تعليق كبير على القرآن، فى الطبعة الجديدة التى صدرت عن المطبعة المكية. ومن بين مؤلفات النواوى التى صدرت فى القاهرة فى مجال النحو والقواعد نجد تعليقه على الأجرومية فى العام ١٨٨١ الميلادى، وله كتاب آخر عنوانه "لباب البيان" الذى صدر فى العام ١٨٨٤ الميلادى، وله فى مجال الفقه كتاب بعنوان "ذريعة اليقين". وله كتاب على شكل تعليق على كتاب شهير من كتب السنوسى، وقد صدر هذا التعليق فى العام ١٨٨٦الميلادى، وله كتاب آخر عنوانه "فتح المجيب" على الدر الفريد، الذى ألفه النحراوى مدرس النواوى (وقد طبع هذا الكتاب فى العام ١٨٨١) وله أيضا ثلاثة كتب يناقش فيها المذاهب الشرعية الخمسة، أو إن شئت فقل "ركائز الإسلام الخمسة" بالإضافة إلى أصول الفقه. وهنا ينبغى أن نزيد على هذه المؤلفات بعض المؤلفات الأخرى التى كانت تتلى فى الاجتماعات، ومنها تعليقات على الموالد الشعرية (الأذكار، أو سيرة محمد ﷺ) التى ألفها الرازنجى . وله أيضا تعليق على كتاب لهذا المؤلف نفسه عن المعراج، كما أن له تعليقًا أيضا على قصيدة وردت فيها "أجمل الأسماء" التى يمكن أن يطلقها الإنسان على الله سبحانه وتعالى وعلى الأنبياء والأولياء. وقد ألف النواوى تعليقين كبيرين يتناولان الشريعة كلها، وله أيضًا تعليقان صغيران على مؤلفات الحضرمى الدينية "سلوك الجاوة" فى العام ١٨٨٣، "وسلم المناجاة" فى العام ١٨٨٤، وهو فى هذين التعليقين يتناول مختلف المسائل المتعلقة بالطقوس الدينية.

شيوخنا فى مجال التصوف، وفى ضوء الخصائص والسمات سالفة الذكر، يسيرون على خط الغزالى والنواوى، شأنهم شأن علماء الحرم، الذين أتينا على ذكرهم فى الفصول السابقة، يدرسون لطلابهم مؤلفات الصوفى الذى تتفوق الأخلاق عنده على عناصر التصوف المحجوبة. والنواوى لا يدفع طلابه إلى الانضمام إلى

الطريقة الصوفية، ولكنه لا يفعل أى شىء يمكن أن يمنعهم من ذلك الانضمام. ومن خلال الحوارات التى جرت بينى وبين النواوى، اتضح لى أنه اكتشف فى ولع إخوانه المواطنين الجهلة بالظروف التحتية الغامضة سببا للنظر بعين الرأفة والتسامح إلى أخطاء الطريقة الصوفية، بدلا من نظرة القداسات العربية الحالية إلى هذه الطريقة. وعندما كتب السيد عثمان بن يحيى فى بتافيا، والعدو العربى للطرق الصوفية واسعة الانتشار فى جزيرة جاوة، عندما كتب إلى النواوى جدلا عنيفا ضد هذه المنظومة، طالبا منه الموافقة على ذلك الجدل، لم يرفض النواوى تأييد السيد عثمان بن يحيى ببعض الكلمات التى فيها شىء من التملق، ولكن السيد عثمان بن يحيى استخلص من كلام النواوى موافقة أقرب إلى رأيه من جانب الرجل عنها مع ما هو قائم بالفعل. صحيح أن عثمان بن يحيى يشن حربا على الطرق الصوفية ويقاومها، ولكنه لا يصف هذه الطرق ولا يحددها بالاسم، ولكن هجومه يكون على شكل خطب وعظات مهمة، إلى درجة أن هذه الخطب والعظات تمس الطريقة الصوفية، وهنا فقط نجد النواوى يتفق مع السيد عثمان بن يحيى. لكن عند تطبيق المعيار المتفق عليه من الاثنين، نجد أن طريقيهما يفترقان، وتلك هى النقطة التى لا يمسها أو يلمسها المنشور الجدلى.

فى كل الأحوال، نجد أن الصوفية التى كان يمارسها النواوى كانت من نوعية صوفية الغزالى المعتدلة الأخلاقية، بشكلها الرسمى الذى اكتسبته فى السنوات الأخيرة. ونشاط النواوى الأدبى فى الأيام الأخيرة يشهد على ذلك، وآية ذلك أنه نشر فى العام ١٨٨١ الميلادى تعليقا له على كتاب الغزالى المعنون "بداية الهداية" كما نشر فى العظام ١٨٨٤ الميلادى تعليقا على قصيدة صوفية ألفها زين الدين المليبارى (جد المؤلف المذكور آنفا يحمل الاسم نفسه).

شقيق النواوى المولود بعده، والمدعو تميم، لم يقم، بمثل هذه الدراسات الكاملة الشاملة التى قام بها الشيخ، لكن يقال إنه كان صاحب أسلوب عربى سليم، ويقال أيضا إنه كان يتكلم العربية السليمة. كان شقيق النواوى يعمل من قبل شيخا للحجاج، وقبل أن تصبح للبواخر السيادة على حركة النقل تمكن الرجل من جمع مبلغ كبير من المال من وراء عمله وكيلا للحجاج فى سنغافورة. وأنا لم أتمكن من معرفة السبب الذى جعل الحكومة تمنعه من البقاء أو الإقامة فى بانتن، التى هى موطنه ومسقط رأسه، وبعد أن أصبح عاجزا ماليا راح يعيش حاليا فى بنانج .

ظل النواوى سنوات عدة يعمل شيخا من شيوخ الحج، على الرغم من أن أتباعه ومريديه ينظرون إلى مسألة شيخ الحج هذه على أنها لا ترقى إلى مستوى مكتسباته العلمية. ونحن إن قدر لنا تصديق هذا الكلام، نجد أن أقارب النواوى، عندما كان الرجل يقوم بزيارة للمدينة (المنورة)، ينتهزون فرصة التعميم الجديد الذى فرض على نقابة المطوفين، ويشترون ترخيصا باسم العالم النواوى، على أمل أن يكون ذلك الاسم الموقر فألاً حسنًا لذلك العمل المالى. ومع أن الشيخ لم يكن جاهلا تماما بذلك التصرف، فإنه من المؤكد أن هذا العالم الجليل لم تكن له أية علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمسألة استغلال الحجاج الأجانب، والسبب فى ذلك أن الرجل لم يكن لديه وقت لذلك العمل ولا رغبة فيه، ولا حتى المهارة التى تمكنه من القيام به. زد على ذلك أن الرجل لم تكن لديه ميول نحو جمع المال أو حتى مجرد الحياة الرغدة التى تقوم على الترف، وعى الرغم من أن الهدايا الثمينة كانت تتساقط عليه مثل المطر فإنه كان يحيا حياة بسيطة للغاية، وكان يكتب كتبه أثناء الليل على ضوء مصباح بترولى صغير "مسرجة"، كالتى يستخدمها الناس عندما ينيرون الطريق أمام الضيوف عند مغادرتهم المنازل.

يبدو أن زوجة النواوى أكثر واقعية، وتقوم هى الأخرى ببعض الأعمال المالية المهمة إلى حد ما. والفضل يرجع إلى هذه الزوجة فى عنايتها بالضيوف الذين يدعوهم الشيخ فى أيام العطلات، هؤلاء المدعوون لا ينقصهم أى شىء من مستلزمات الدعوة، على الرغم من أن الشيخ نفسه يتصرف كما لو كان غريبا على البيت.

الشيخ المرزوقى، أحد أقارب النواوى، مظهره أحسن بكثير من مظهر النواوى، ويتكلم العربية أفضل من الشيخ النواوى نفسه. المرزوقى تعلم فى مكة مثل النواوى على أيدى أساتذة النواوى أيضًا، وعلى الرغم من الفارق الطفيف بين عمرى الرجلين، فإن المرزوقى يدرس أيضا على أيدى الشيخ النواوى نفسه. ونظرا لأن المرزوقى كان مثل الطائر الطليق، فقد صادف وجودى فى مكة عودة الرجل للمرة الخامسة إلى مكة قادما من رحلاته الطويلة، وهو الآن يعيش، منذ حوالى تسع سنوات، فى مكة المكرمة عيشة هادئة مشغولا بعد أداء الصلوات الخمس بالتدريس لتلاميذه. أحمد المرزوقى كان يتكلم لغة الملايو أفضل من الشيخ محمد النواوى، وربما كان أفضل منه بشكل عام فيما يتعلق بالتدريس، على الرغم من أن المرزوقى لم يقرأ حتى ولو نصف الكتب التى قرأها النواوى. كان أحمد المرزوقى أخا فى الطريقة القادرية (وهو ما كان يعينه ويساعده أثناء تجواله) ولعل هذا هو الذى أوجد صلة حميمة بينه وبين عبد الكريم الذى سنأتى على ذكره فيما بعد. بعد أن غادرت مكة بوقت قصير، قيل إنه سافر مرة ثانية لزيارة بعض الأصدقاء، وإنجاز بعض الأعمال المالية والأعمالية فى بلاده. وأنا أعتقد أن مسألة المال والأعمال كانت ذريعة لتهدئة شكوك المسئولين الحكوميين. قبل ذلك، قام أحمد المرزوقى بزيارة بانتن، كما زار أيضا كلا من سيام وبالى، وهذان البلدان الأخيران فيهما مسلمون ولكنهم أقلية. ويقال إن الشيخ المرزوقى زار كلا من بينانج وديلى ، ويبدو أن سلطان ديلى الثرى على استعداد لاستقبال الزائرين من الأتقياء الجاويين، أو من أشراف مكة.

الشيخ إسماعيل بانتن يشغل بحكم نسبه مكانا مرموقا، وبحكم أنه من سلالة سلاطين بانتن فإن بنى وطنه يخاطبونه بلقب "طوباجوس"(*). كانت أخت إسماعيل بانتن زوجة لأحد الأمراء، كان حموه قد عين أميرا فى زمن الإنجليز، وقد تلقى العلم أولا من أبيه الحاج صاديلى، الذى اصطحبه معه فى رحلة الحج عندما كان صبيا صغيرا. بعد أن عاد من الحج سلك الطريق نفسه الذى سبق أن سلكه الشيخ النواوى، بمعنى أنه تعلم أولا على يدى الحاج ساهال فى بانتن، ثم سافر بعد ذلك إلى بوروا كارتا فى كراوانج ليتعلم من العلامة الحاج يوسف(٣٩). يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من كبار السن الذين ذاع صيتهم فى مجال العلم فى بانتن زاروا هذه المدرسة.

كان إسماعيل لا يزال شابا عندما جاء فى المرة الثانية، التى مكث فيها فترة طويلة فى مكة. فى ذلك الوقت كان مدرسو إسماعيل هم أولئك الذين درّسوا للنواوى، اللهم إلا باستثناء دراسته للفقه والتصوف على يدى عالم من الأحناف، هو السِّجِّيد الكُتُوبى. وبعد سنوات قليلة من الدراسة عاد إسماعيل إلى بانتن حيث قام بتدريس الآلات على النحو الضرورى جدا للجاوة، حتى يمكنهم فهم الموضوعات الثلاثة (الشريعة والفقه والتصوف). واستنادًا إلى الآراء العربية نجد أن

(*) طوباجوس Tubaqus كلمة من لغة الملايو معناها "الشخص كثير السجود، أى السُّجِّيد". (المترجم)

(٣٩) الواردة أسماؤهم بعد قيل لى إنهم تلاميذ يوسف: الشيخ أبو بكر، الذى درس هو الآخر فى مكة قبل عشرين عاما، واعتبارا من ذلك التاريخ أصبحت له هو الآخر مدرسة كبيرة فى بونتانج (فى بانتن). والحاج حميم، محمد الشارى (الذى ظهر بعد ذلك فى يوجور). وتتباهى بانتن بالعلماء الآتين بعد، الذين درسوا فترة من الزمن فى مكة: الحاج عثمان، فى مقاطعة أندر - أندير، الذى عاش ثمانى سنوات فى مكة، والذى أدت مهامه الرسمية إلى وقف أنشطته التعليمية بعد أن تم تعيينه مدير مديرًا لأحمد محمد صاديلى من سيرانج، الذى يضع الأمير وزنا كبيرا لمشورته، ويقال إنه يعلم أطفال الجيران الصلاة كما لو كانوا جنودًا. والحاج محمد من تيرات والحاج محمد قصيد من بدجى "تجليجون". وهذا القصيد يطلقون عليه أيضا اسم وصيد، وكان أيضا واحدًا من زعماء الإضرابات التى قامت مؤخرا فى تجيجون.

إسماعيل ذهب إلى شأو بعيد فى تحقيق هذا الهدف، مدفوعًا إلى ذلك بميله الجاوى الحقيقى إلى التصوف من ناحية وبضآلة المعرفة العربية من ناحية أخرى. وقد أبلغنى بشىء من التهكم المضحك - السندانيون الذين درسوا معه قبل ذلك فى بانتن، ثم جاءوا بعد ذلك إلى مكة أن ذلك الطوباجوس شرح الفارق بين اسم الإشارة المذكر والمؤنث فى اللغة العربية قائلا: إذا كان اسم الإشارة "هذا" يعنى القرب فاسم الإشارة "هذه" يعنى البعد!(٤٠)

كان إسماعيل يوقف أنشطته الدراسية بين الحين والآخر بسبب سفره إلى مكة؛ الأمر الذى أدى إلى إقامته بصورة دائمة فيها منذ ثلاثة عشر عاما خلت. كانت المزارع المملوكة له فى وطنه هو وأقاربه الأثرياء تدر عليه دخلا كبيرا. وقد أهداه أقاربه ثلاثة منازل فى مكة، استقل بواحد منها لنفسه. وعندما كان بحالة صحية جيدة كان يدرس بانتظام على أيدى اثنين من علماء الحرم، فى حين كان يلقى محاضرتين فى منزله كل يوم، وكان طلابه هم طلاب الشيخ النواوى أيضا. نسب هذا الرجل، وشخصيته الورعة، وإحسانه إلى المحتاجين، أكسبه شعبية النفوذ والامتياز التى تمتع بها النواوى. ولكن صحته اعتلت فى أواخر أيامه، ولم يعد يستقبل أحداً سوى أصدقائه الحميمين. وعندما كان الرجل بصحة جيدة كان منزله الذى شهد الاحتفال بمولد (سيدنا) محمد ﷺ فى شهر ربيع الأول، بمثابة مركز لاتحادات الجاوة الاجتماعية، أو بالأحرى نقاباتهم.

ما زال الناس يحتفلون بمولد النبى ﷺ احتفالا حارا فى جزيرة جاوة أكثر من مكة. واقع الأمر أن الشهر بكامله يزدحم بالأعياد والعطلات، إلى حد أن الإنسان يعجز عن تلبية كل الدعوات التى توجه إليه. وقد أبلغنى الجاويون الذين كانوا عائدين إلى بلادهم فى بداية العام أنهم كانوا فى غاية السعادة لأنهم سيمضون شهر المولد

---

(٤٠) اللغات الإندونيسية ليس فيها جنس نحوى.

(النبوى) فى وطنهم. الجالية الجاوية فى مكة تتمسك بهذه العادة إلى أبعد حد ممكن، ويندر أن تمضى أمسية بلا اجتماع فى خمسة منازل إلى عشرة من منازل الجاوة وهذه التجمعات تضم أعداداً كبيرة من الجاوة ومن أصدقائهم لكى يستمعوا فيها إلى الأذكار "الموالد" تشريفا لمحمد ﷺ ، ثم يتناولون الطعام سويا بعد ذلك. لم يكن إسماعيل، أو بالأحرى السجِّيد، خاملا فى هذه الأمور، وهو الآن يجمع أصدقاءه مرات قلائل خلال شهر المولد، لكنه لا يستطيع مشاركتهم الطعام.

هناك عشرات من طلاب العلوم الدينية من غربى جاوة، الذين جرى إعدادهم لمحاضرات الحرم المكى على يدى النواوى ، هؤلاء الطلاب عندما يبقون فى مكة يتولون أمر الطلاب الصغار لكى يعدوهم كى يبدأ النواوى معهم من مرحلة متقدمة.

وهذا هو على سبيل المثال أرشد بن عَلوان، وهو من منطقة تَنارا . هذا الصبى التحق بمدرسة والد النواوى، ثم تعلم بعد ذلك على يدى كل من النواوى، وأخيه تميم، والمرزوقى. هذا الأرشد بن علوان عندما كان فى بانتن كان يجلس عند قدمى الحاج "سماعون" فى بلدة باندجلانج(٤١)، كما كان حسب الله – من بين المدرسين العرب – أستاذا أيضا لأرشد بن علوان. و نحن نعد محاولة الرجل تعلم الطب العربى من باحث من حضرموت، محاولة رائعة؛ الأمر الذى مكنه أثناء مقامه فى بانتن طوال أربع سنوات من تقديم المشورة الطبية لمن يطلبها منه. وقد عمل الرجل فترة من الزمن عضوا فى المحكمة الإسلامية فى سيرانج . بحلول العام ١٨٨٥ كان أرشد بن علوان قد أدى فريضة الحج ثلاث مرات. ويقال حاليا إن أرشد بن علوان عاد إلى وطنه.

وهناك أرشد آخر، هو ولد أسعد . وأرشد ولد أسعد هذا من مقاطعة بانتن، وقد غادر مكة فى الفترة التى غادرها فيها أرشد بن علوان. لما كان والد أرشد ابن أسعد

---

(٤١) يقال إن الشيخ كانت له مدرسة فى قرية كادو مارنا Kadu Marna .

قد انتقل إلى بتافيا، فقد بدأ أرشد دراسته في هذه المقاطعة، ثم بعد ذلك في مكة تحت إشراف عبد الغني، ثم بعد ذلك تحت إشراف النواوى والمدرسين العرب. وأرشد بن أسعد يتكلم لغة الملايو بطلاقة، لكنه يتكلم العربية بشكل سيئ تماما. وهناك جحافل من طلبة الملايو ومن السندانيين والجاويين يتدافعون على محاضراته.

وهناك رجل آخر يبلغ من العمر ثلاثين عاما. ويدعى أحمد جاها، وهو من أبناء بلدة أنيار (في مقاطعة بانتن)، هذا الرجل شديد التواضع وغزير العلم، وقد أمضى نصف حياته تقريبا في مكة، ولو سمحت له موارده اكان أمضى عن طيب خاطر بضع سنوات في الجامع الأزهر في القاهرة. والرجل يختلط بمن هم أقل منه علما بلا تصنع، يضاف إلى ذلك أن الطلبة الجاويين يعدون الدراسة على يدى أحمد جاها شكلا من أشكال الإقناع. واقع الأمر أن هؤلاء الطلاب يتهامسون همس مبالغة الشباب، ويقولون إن الشيخ أحمد جاها أكثر علما من النواوى، الذى يعد شيخ الشيوخ.

***

قد تكون ذكريات اتصالاتى الشخصية قد جرتنى إلى إيراد قائمة طويلة تحتوى على عدد من الأسماء التى قد لا تكون كلها مطلوبة للقارئ.

مع ذلك يتبقى رجل واحد يتعين علىَّ الإتيان على ذكره؛ نظرا لأن تأثير هذا الرجل على السواد الأعظم من الجاوة وحتى أيضا على بعض العرب أهم بكثير من تأثير أىٍّ من علماء الدين الذين سبقت الإشارة إليهم. هذا الرجل هو عبد الكريم البانتن، شيخ الطريقة القادرية. هذا الرجل عندما كان صبيا صغيرا حظى بتبنى الشيخ أحمد خطيب سمباس له، يوم أن كان ذلك الشيخ فى قمة تأثيره وامتيازه، وجعل من هذا الصبى خادما فى منزله. كان معاصرو الشيخ خطيب سمباس صغار السن

يعدون الرجل علاَّمة إلى أقصى حد فى أفرع العلوم الشرعية كلها. كان الرجل يعلو على كل رفاقه من منطلق أنه وصل إلى أعلى درجة فى الطريقة القادرية، واستدخل آلافا مؤلفة من الحجاج ومن المواطنين من جزر الهند الشرقية، حسب مواهبهم، فى أسرار هذه الطريقة القادرية. ولو لم يكن الحسد أمرا مكروها لدى المتصوفة من منطلق أنه فى نظرهم خطيئة قاتلة، لحسدت تلك الآلاف المؤلفة من الطلاب عبد الكريم البانتن الذى كان يمضى الليل والنهار بجوار ذلك الشيخ المنوَّر، مصاحبا إياه فى ذهابه إلى الحرم ومصاحبا إياه أيضا أثناء مسيره فى المدينة المقدسة، إلى الحد الذى جعل عبد الكريم البانتن مشاركا للشيخ فى أسرار قلبه. زيادة على ذلك أن الناس كانوا ينظرون إلى أن الترخيص "الإجازة" الذى حصل عليه عبد الكريم ويتيح له تعليم الطريقة القادرية كان الناس ينظرون إليه باعتباره أمرا طبيعيا، وبهذا المكسب الثمين سافر الرجل، صاحب المقام الرفيع والجماهير العريضة، إلى سنغافورة التى يقال إنه نشط فيها طوال ثلاث سنوات، ثم نشط بعد ذلك مدة ثلاث سنوات أخر فى وطنه. ويقال إن خطيب سامباس المسن وجه له فى ذلك الوقت تحذيرات وتعليمات فى أثناء رحيله عن مكة، وأن هذه التحذيرات والتعليمات استرشد بها فى تعاملاته كلها.

وفيما يتعلق بتلك النصائح والإنذارات والتعليمات، أخبرنى تلاميذ عبد الكريم البانتن بشىء لم أعرف مدى صدقه عن طريق سؤال الشيخ شخصيا، والسبب فى ذلك أنى على الرغم من تدخينى مع الشيخ عبد الكريم البانتن الكثير من السجائر الجاوية، وعلى الرغم من حديثى معه مرات متعددة، فإن طرح الأسئلة التى من هذا القبيل على الشيخ يدخل فى عداد عدم اللياقة وقلة الذوق، وبخاصة أن الأسئلة التى من هذا القبيل تتعلق بحياة الرجل الخاصة.

كان الشيخ خطيب سمباس قد حذر - من بين ما حذر منه عبد الكريم البانتن - من النساء والملوك! كان التحذير من النساء أمرا معقولا، أما الملوك. وربما الممثلون المقيمون والمسئولون الحكوميون الآخرون فى جزر الهند الشرقية فكانوا هم المعنيين

بذلك التحذير، وإن صح ذلك يصبح كلام ذلك الرجل المسن مؤكداً لمعرفته بطبيعة الأمور، والسبب فى ذلك أن خطب الشيخ عبد الكريم البانتن وبركاته بحكم انتشارها وذيوعها فى سائر أنحاء مقاطعة البانتن هى التى تسببت فى أن يعمل الممثل المقيم على عرقلة تحركات الشيخ عبد الكريم البانتن، وقد حكى لى الشيخ هذا الكلام، وأضاف أن المئات كانت تتدافع كل مساء على محل إقامته أملا فى التوبة والخلاص، وطلبا لتعلم الذكر منه وتقبيل يده، ويسألونه "عما إذا كان الوقت فى صالحهم، وإلى متى ستظل الحكومة الكافرة قائمة؟".

الجاوة يوقرون تماما العالم الذى يستطيع تفسير الشرع وينادى بحياة تقية تقوم على النصوص الشرعية، ولكن النزعة الوطنية الجاوية، هى وطريقة تفكير هؤلاء الناس، وهما مستحدثان من الهندوكية، هما اللتان تجعلان من غالبية الجاوة الذين يؤمنون بالخرافات والخزعبلات عبيدا للمستنيرين منهم. فى معظم القرى الجاوية النائية نجد أن الحاج الجاهل الذى يكتب أحجبة ووصفات سحرية له قيمة وتأثير أكبر من قيمة وتأثير قارئ القرآن والواعظ بالقرآن أيضاً. وفى الدوائر الأعلى من دوائر أولئك الذين يؤمنون بالخرافات والخزعبلات، وهى دوائر أفضل علما، نجد أن عاملى الحياة الروحية يرتفعان إلى مستوى القيم المطلقة الأعلى، ولكن النسبة والتناسب بين العاملين تظل ثابتة. هذا يعنى أن المرء لا يمكن أن يسأل عالما عن مجيء "الساعة"، لأن ذلك لا يمكن للعالم أن يتوصل إليه من كتبه، أو بالأحرى ليس مذكورا فى كتبه، أما المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع فيمكن اكتسابها من ناحية عن طريق الكراسات الدعائية المتسخة التى لدى كاتب القرية، أو من خلال الشيخ الذى يكون متصلا بالله بحكم السلسلة الصوفية.

أهل جاوة – بحكم تعطشهم للمعجزات – ينظرون بفضول كبير إلى رجل رفيع من أمثال عبد الكريم البانتن تطلعا إلى العلامات الدنيوية التى يعلن بها الله سبحانه

وتعالى عن فضله على الدنيا كلها. أليس الرجل وليًا وصادقا مع الله وصالحًا؟ ثم أليست المعجزات التى يسميها الفقه كرامات[٤٢] هى العلامات الدنيوية (الخارجية) على الورع والتقوى والطهارة؟ خلال رحلات عبد الكريم البانتن كانت كراماته سرعان ما تتبدى لمرافقيه ومريديه الذين كانوا ينتظرونه، ومجرد مثال واحد رواه لى كثير من المستنيرين يبين لنا مجموعة الأساطير الواردة ضمن مناقب الأولياء.

كان عبد الكريم البانتن يوشك على السفر من سنغافورة إلى بتافيا، وكان قد اشترى بطاقة للسفر بالباخرة. وفى اليوم المحدد لإقلاع السفينة من الميناء كان رفاقه قد ركبوا الباخرة بناء على أوامر منه، فى حين كان الشيخ يودع صديقا له. ولكن الشيخ تأخر، وأزف الوقت واقترب الإنذار الأخير برحيل الباخرة، دون أن يفلح أصدقاؤه الحائرون فى رؤية أى شىء من الرجل. وعلى الرغم من أن هؤلاء الأصدقاء لم يفهموا أية كلمة من كلام القبطان أو طاقم الباخرة، فإنهم حكوا فيما بعد وبيقين ساذج أن القبطان كان قد كرر إعطاء أوامره بدق الجرس إيذانا بإقلاع السفينة ولكنه بذل محاولات يائسة أملا فى إطلاق صوت الجرس، إما لعجز البحار عن رفع يده أو لأن لسان الجرس لم يتحرك، وقيل إن ذلك دام أمام اندهاش البحارة الكفار طيلة نصف الساعة إلى أن اقترب الشيخ من الباخرة بخطاه الوئيدة وركب فيها كما لو كان واحداً من أولئك الذين جاءوا فى الوقت المحدد. وبعد ذلك بدقائق قليلة انكسر السحر ودوى الجرس، وتمكنت الباخرة من بدء الرحلة. وهنا تندفع الدعوات المتحمسة لمثل هذه العلامة وغيرها من العلامات، صادرة من أفواه الناس فى الإخوانيات القادرية ومتجهة نحو السماء.

---

(٤٢) يستعمل الجاوة مصطلح "الكرامة" أيضا فى هذا الصدد، ولكن هذه الكلمة تعنى أيضا فى لغة الجاوة المكان الذى يبُحث فيه عن المعجزات بعد وفاة الولى، بمعنى القبر الشريف.

رجع الشيخ بعد الرحلة المشار إليها إلى مكة ومضى عليه فيها إلى يومنا هذا قرابة اثنى عشر عاما، والرجل يعيش حاليا فى منزل مؤثث تأثيثا فخما، فيه متسع لكثير من الأقارب والأصدقاء، وفيه أيضا كثير من التلاميذ المحتاجين والتلاميذ الذين يعملون خدما للشيخ. وتنساب على هذا الشيخ عطايا مالية وعطايا من المستلزمات المنزلية والأشياء الثمينة على اختلاف أنواعها من كل حدب وصوب، والرجل يُسَخِّر كل ذلك لمصلحة الطريقة كلها وخدمتها. والرجل يحيا حياة غاية فى البساطة، خالية من تَصَنُّع التقشف، وإذا كان كثير من مشايخ الطريقة يمنعون إخوانهم من التدخين، فإن الشيخ عبد الكريم البانتن يضرب مثلا على الاعتدال فى التدخين، ومنزله يكاد يكون مفتوحا يوميا، ويقدم لزواره طعاما ممتازًا خاليًا من المبالغة فى الترف.

عندما عاد عبد الكريم البانتن إلى مكة كان شيخ المشايخ خطيب سمباس قد وافته المنية، وكان خطيب سمباس وهو على فراش الموت قد عين عبد الكريم البانتن خلفا له؛ الأمر الذى أدى إلى ارتفاع نفوذ وامتياز عبد الكريم ارتفاعا كبيرا، ولم يهب الجاوة وحدهم من الأرخبيل كله، حجاجا ومستوطنين، متعلمين وغير متعلمين، طلبا لبركات الزعيم الروحى، وإنما بادر المكيون مواطنين ومستوطنين إلى فعل الشىء نفسه. لم يكن الرجل يعرف من العلم سوى ذلك القدر الذى يكفى معه أن يحيا الإنسان حياة يرضى الله سبحانه وتعالى عنها، ولم يكن يعرف من النحو والقواعد سوى ذلك القدر الذى يمكنه من فهم أدبيات الدين، ولا يعرف من الفتوى أكثر من ذلك الذى يعصم الإنسان من الخطأ فى الأمور الدينية. يضاف إلى ذلك أن الرجل لا يعرف من الفقه سوى الحد الأدنى الذى يتوجب على العالم أن يعرفه. يزيد على كل ذلك أن العلماء يعترفون، على الرغم من كل ذلك، بمكانة الرجل بين علماء الصف الأول. أهل العلم هؤلاء يؤكدون أيضا صوت الشعب الذى مهما بدت له كل مُنجَزَة من تلك المنجزات صغيرة فى حد ذاتها، فإنها فى حال عبد الكريم البانتن، ومن خلال طيبة قلب الرجل، أو بالأحرى من خلال فضل الله سبحانه وتعالى عليه، انصهرت كلها مكونة كلا منسجما ومتناغما.

وكان الشيخ عبد الكريم البانتن من جانبه يوقر العلماء ومؤلفاتهم، ويتعامل مع النواوى ومن هم أقل منه من العلماء كما لو كانوا أنداداً له، ويقول إن انشغاله بتعليم نفسه وتعليم الآخرين فى الأمور الصوفية لا يترك له من قواه المحدودة سوى جزء يسير جدا يوفره للعلم البحت. طلاب عبد الكريم البانتن يفهمون ذلك تماما، على أنه يعنى أن الإنسان ينبغى عليه أن يخصص حياته لتحقيق أكبر قدر من التواصل الحميم مع الله سبحانه وتعالى بدلا من أن ينفق حياته الدنيوية القصيرة فى حل مسائل ومشكلات لا يمكن أن تعيد إحياء القلب. والرجل يستشير خبراءه المتقدمين حول مسألة الوصول إلى أسرار الحقيقة العالية عن طريق الدراسة الدقيقة للمؤلفات الصوفية. ولكن الجميع يتعين عليهم أن يتركوا الحقيقة تعمل عملها فيهم بصورة مباشرة عن طريق التدريبات المنظمة والحمية البدنية والروحية التى حددها لهم.

يستطيع الحجاج وغيرهم، الذين لا يطول مقامهم فى مكة، أن يعودوا إلى بلادهم ومعهم شىء من "بركة" الطريقة التى يتعامل الرجل معها تعاملا تقليديا. وما هى إلا بضع اجتماعات تعد على أصابع اليد الواحدة، يجتمع فيها الشيخ بتلاميذه على اختلاف مشاربهم، ويجرى إحياء تلك الاجتماعات يوميا عن طريق ترديد الورد بعد كل صلاة. ويستطيع الطلاب الكثيرون الذين يعيشون فى جزر الهند الشرقية، والذين لديهم رخص محدودة من الشيخ، بمقتضى هذه الرخص يستطيعون توسيع عملية التثقيف لتنمية بذرة الحكمة التى وضعها الشيخ. وفى مكة يحضر الإخوان كلهم يوميا إلى الشيخ بعد صلاة العصر، ويقيمون تحت إشرافه أورادا تستمر مدة زمنية تتردد بين نصف الساعة والساعة. وفى اليوم الحادى عشر والثانى عشر من الشهر العربى تنعقد اجتماعات كبيرة، يدعى إليها الأصدقاء من خارج الطريقة.

فى الفصل الأول من هذا الكتاب أوضحنا أن الحول يعنى فى الأساس الذكرى السنوية لوفاة نبىٍّ أو ولىٍّ، ولكن الإنسان قد يحدد هذه التواريخ فى بعض الأحيان تحديدا عرفيا، أو قد يغطى عيدا جاهليا باسم ولى من الأولياء، وأسلمة مثل

هذه المناسبات إلى أبعد حد ممكن. ولعل القارئ يكون قد فطن إلى ملاحظة ذلك الأسلوب اللطيف الكيس لرحيل كبار أولياء المكيين، وأنهم جميعهم رحلوا عن الحياة فى ذلك الشهر الذى تروق فيه مهابة الاحتفالات للمواطنين. ويجدر بنا أن نلاحظ أن الأحوال كلها فى مكة، (وكثير من الأحوال العالمية أيضًا) تقع عندما يوشك القمر أن يصبح بدرا. ويجدر بنا أن نذكر هنا أيضا أن البعض، وخاصة القديسين والأولياء الطيبين، يخصص لهم يوم واحد من أيام الشهر المخصص لكل واحد منهم.

من بين هذه الأيام الاثنى عشر، هناك أحد عشر يوما يطلق عليها اسم الأحوال الصغيرة، ويوم واحد هو الحول الحقيقي للوفاة، يطلق عليه اسم الحول الكبير(٤٢). من هنا فإن الحول الكبير لستنا خديجة فى مكة يصادف اليوم الحادى عشر من شهر رمضان، لأن هذا هو يوم الوفاة المتفق عليه، أما الحول الصغير فيصادف اليوم الحادى عشر من كل شهر من الشهور الأخرى. وعليه إذا كان مؤسس الطريقة القادرية، الشيخ عبد القادر الجيلانى قد توفى فى اليوم الحادى عشر من الشهر الرابع (ربيع الآخر)، وإذا كان محمد ﷺ قد ولد فى اليوم الثانى عشر من الشهر الثالث (ربيع الأول)، فإن أتباع ومريدى عبد الكريم البانتن يحتفلون بحوله الأصغر فى اليومين الحادى عشر والثانى عشر من كل شهر، وعليه فإن الذكرى السنوية الحقيقية للولى وللنبى تكون من قبيل الاحتفالات الكبيرة.

نحن نعرف الرواية التى دخلت بمقتضاها أحوال الأولياء، التى هى أصلا جزء من تقديس الموتى فى الإسلام، وبالطريقة نفسها التى يجرى بمقتضاها القيام بأعمال التقوى والورع نيابة عن الموتى من الأقارب، نجد أن أعمالا من هذا القبيل يجرى تقديمها للأولياء، لا من منطلق أن هؤلاء الأولياء يحتاجون إلى هذه العطايا والهدايا،

(٤٢) "الحول الكبير" و"الحول الصغير".

وإنما للحصول على صداقة هؤلاء الأولياء وشفاعتهم عند الله. لكن بالطريقة التى يقيم بها عبد الكريم البانتن هو وأصدقاؤه احتفالاتهم المسائية، يندر أن نجد فيها حتى ولو مجرد تلميح صغير أو حتى طفيف إلى الموقف الرسمى. فى تلك الأمسيات الاحتفالية يكون كل شيء محسوبا حسابا دقيقا بحيث يكون الهدف هو تكريم اسم الولى أو النبى ﷺ ، ولتقوية الرابطة التى تربط الإخوان بعضهم ببعض. فى اليوم الحادى عشر من الشهر يقوم الشيخ بعد صلاة العشاء بقراءة مناقب عبد القادر.

ويجرى إحداث نوع من التبادل بين المحاضرات والذكر عند الإخوان، وينتهى الأمر فى كل مرة بإنشاد قصيدة فى امتداح محمد ﷺ (مثل بردة "بانت سعاد"(*) ... إلخ). ويلى ذلك عشاء فى منزل الشيخ ومنازل جيرانه، على أن يدعى إلى ذلك العشاء الضيوف العرب والجاوة والسندانيون وكذلك ضيوف الملايو. وفى اليوم الثانى عشر تجرى الطقوس نفسها فيما عدا استبدال مولد محمد ﷺ بالمناقب .

التدريبات اليومية، هى وكثير من الأذكار والأوراد فى الدوائر الصغيرة، بالشكل الذى يتولاه عبد الكريم البانتن، تخلو من هذه الأشكال من أشكال الغلو، التى لها تأثير شبيه بتأثير الأفيون أو المسكرات. ونحن نلاحظ بين إخوان عبد الكريم، وجود نوبات من الانجذاب الدينى تكاد تشبه الجنون فى الصفوف الدنيا من الإخوان، أو إن نحن أردنا المزيد من الدقة، فى أكثر الاجتماعات حميمية للإخوان الحميمين، لكن عنصر الغموض يلعب مع بقية العناصر دورا لا يقل أهمية عن الدور الأخلاقى، والإخوان يحبون أن يظلوا بعيون شبه مغمضة، وقد اعتراهم نوع من الحذر فيما بين عالمين. وأعلى المثل يتمثل فى أن يَخبُر الإنسان الحياة الدنيوية، فى حال من حالات ثمول الروح

(*) يريد قصيدة البردة للبوصيرى ، وقصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير . (المراجع)

والحواس. والأحاسيس التى تكون من هذا القبيل لا يمكن للسان بشرى أن يصفها، هذه الأحاسيس لها أهمية كبيرة فى الحكم على الطريقة الصوفية، ومعرفة الاتجاه الذى ترشد أو تحفز الحياة البدنية على الاتجاه صوبه، حتى يتأتى خلق الحال المطلوب أو إبداعه. ونجد فى الدوائر القادرية التى تخضع لنفوذ عبد الكريم المباشر أنها ما زالت تقيم وزنا كبيراً للاتباع الصارم للشريعة، واختراق الأشكال الطقوسية عن طريق الأفكار الأعلى، ومقاتلة الخطايا المخبأة، بدلا من التحركات الحتمية للجزء العلوى من الجسم أو الرأس، وتدريب الروح عن طريق التنويم المغناطيسى الذى يجعل الصيغ القدسية التى تمر من الكتف منتقلة إلى القلب ومنه إلى الكتف الآخر وهكذا.

ولما كانت الطرق الصوفية هى التى تعطى الفرد ميل الروح إلى الاتجاه الصحيح بدلا من مجرد التعليم بالمصطلحات العامة (مثل مدرسى العلوم الشرعية) ذلك الذى ينبغى أن يفعله الجميع ويؤمنوا به، فمن الواضح أن هذه الجمعيات الصوفية تعمل بقوة فى اتجاه تعميق وإحياء المثل السياسية بدلا من الدراسة، ناهيك عن الدوائر الأوسع التى تؤثر عليها هذه الطرق الصوفية. ونحن نتعلم من العلماء على سبيل المثال العلاقة الحتمية التى ينبغى أن تكون بين الإسلام والكفر فى ضوء الشريعة، ونتعلم أيضا كيف انقلبت هذه العلاقة رأسا على عقب فى حقيقة الأمر، ونتعلم أيضا أننا يجب أن ننظر إلى العلاقة القائمة على أنها علاقة غير مبررة وسببها خطايا الإنسان.

فى الطرق الصوفية يجرى استخلاص النتائج العملية من النظريات التى من هذا القبيل، يضاف إلى ذلك أن نظرة الأمل تتحول ناحية شيخ الطريقة. ويجرى التعبير عن هذه النتائج بين الجماهير الجاهلة عن طريق التطرف بأشكاله المختلفة.

هناك شخصية عجيبة من بين الرجال، على علاقة حميمة مع عبد الكريم البانتن، هذه الشخصية هى عيداروس، وهو رجل من تيجرنجن (فى مقاطعة بانتن) أدى فريضة الحج عندما كان صبيا صغيرا، ثم عاد بعد ذلك إلى وطنه ودرس العلوم

الشـرعيـة[٤٤] إلى أن تسـبب وصـول عبـد الكريم إلى بانتن فى انضـمـام الرجل إلى الطريقة القادرية بوصفه طالبا أو مريدا متحمسا من مريديها. وعندما عاد الأستاذ إلى مكة، سافر معه عيداروس إلى هناك وبدأ اعتبارا من عام ١٨٧٨ يعيش بالقرب من ذلك الأستـاذ. وراح عيداروس فى مكة يدرس عند أقدام العلماء مع بنى وطنه، من أمـثال النواوى وإسماعيل، ثم درس بعد ذلك على أيدى أحمد الدحلان وحسب الله ومصطفى عفيفى وعبد الله الزواوى ... إلخ، ومع ذلك بقى عبد الكريم البانتن بمثابة والده الروحى، وربما تعلم الكثير من العلم مثل أستاذه.

وكان الرجل فى وقت فراغه يقوم بتدريس لعدد قليل من العلماء، مثل أستاذه، كما يقوم بالتدريس لعدد قليل من الأطفال وعدد قليل من كبار السن الذين يفتـقرون إلى التعليم الأولى. ولكن مهما كانت دراساته، ومهما كان تعليمه أو كلامه فإن الرجل يتمتع بنغمة صوفية، كما أنه مقنع للإخوان. وذاكرته الممتازة تختزن مئات الأحاديث التى يرويها فى المواقف المناسبة بصوت يوحى بالتواضع. والرجل عندما يفتح الكلام عن الأمور الدنيوية يكون ذلك دوما للتشجيع على "الارتقاء بالتفكير"، وتحاشى الأحاسيس والمشاعر الدنيوية. وعلى سبيل المثال قد يتكلم بعض الأصدقاء الجالسين معه وهم غاضبون من الأعمال الشريرة أو الشخصية الشريرة لشخص غائب. ومن باب تحاشى اللوم المباشر يلجأ عيداروس إلى التوقف قليلا ليورد حديثا يستنكر الغيبة والنميمة بوصفهما من الخطايا المهلكة. وعندما تتناثر النكات والطرف الدنيوية يبرز الرجل أقوال الأنبياء التى تدل على أن الدين فيه أيضا شىء محدود من الترويح. عندما كنت فى حضرته ذات مرة سمعت ذما لإسراف سيد من السادة الذين يعيشون فى مكة، وبطريقة محببة إلى النفس يروى حديث محمد ﷺ : "الكريم صديق الله حتى وإن

---

(٤٤) درس هذا الرجل بصفة رئيسة فى بلده كادو مَرنا بالقرب من باندجلانج والذى درَّسه فيها الحاج سماعون Sama'un .

كان خطاءً، والبخيل عدو الله حتى وإن كان يحيا حياة ورع وتقوى". الأمر الذى أدى إلى تحويل مجرى الحوار إلى اتجاه آخر.

فى بعض الأحيان قد يفاجئ عيداروس من يزوره فى بيته باقتباس حديث موجه ضد سمة سيئة من جانب الزائر، ويبدى ملاحظة مفادها أن الجميع يجب أن يحفظوا هذا الكلام عن ظهر قلب ويعملوا به والرجل إذا ما وجد ميول الإنسان الطبيعية والروحية مناسبة يبدأ فى تنمية ميول مثل هذا الرجل وجذبها إلى الصوفية بطريقة مباشرة تماما، ثم يعلن فى نهاية المطاف حتمية وجود مرشدين روحيين للنفس، ويؤكد الرجل أن المسألة لا تعنى اللامبالاة عندما يسلم الإنسان أعز ما يملك لشخص آخر. ولم يكن الرجل يفعل أى شىء أو يقول أى شىء عن أناس من أمثال الشيخ النبيل خليل باشا، أو سليمان أفندى، سوى المدح والثناء عليهما، وكل من كان يتحول إلى هذين الشيخين من شيوخ الطريقة القادرية طلبا "للبركة" يكون قد أحسن التصرف. وهو من واقع خبرته كان يزكى عبد الكريم المبارك بحسبانه أبا يمكن أن يسلم الإنسان نفسه إليه بلا تردد. عيداروس هو بمثابة رجل الدين المتطوع بين المتصوفين، ويزيد على ذلك أن الرجل يعمل خلفا لأستاذه العجوز من بانتن.

رؤساء المتصوفة المهمون الآخرون من غير الجاوة فى مكة كان من بينهم خليل باشا وسليمان أفندى سالف الذكر، والذى أتينا على ذكره فى الفصل السابق. كان لهذين الرجلين فى مكة المكرمة مترجمون ومساعدون من الجاوة ومن السندانية ومن الملايو، كما كان لهما وكلاء ومندوبون فى أرخبيل جزر الهند الشرقية، يرتبطون بهما عن طريق المراسلات القوية والنشطة. فى بعض الأحيان كانت تقارير الخلفاء فى جزر الهند الشرقية تهيئ للشيخ فرصة إصدار منشور دورى للإخوان عبر البحر، وكان الإخوان فى الأمور المهمة يتجهون إلى الشيخ طلبا للفتوى. لقد ذكرنا بالفعل أن الاعتراف بأصالة الفتوى يعتمد، وإلى حد كبير، على من يطلبون تلك الفتوى. ترى ما

السلطة العلمية التى يمكن أن يفضلها "الأخ" على شيخ الطريقة الذى أسلم نفسه له قلبا وقالبا؟

***

لما كنا نود التركيز هنا على أكثر الأمور أهمية وبروزا، فنحن لسنا بحاجة إلى التطرق إلى المناطق الصغيرة الأخرى من جزيرة جاوة. شيخ الحجاج الذى ينحدر أصلا من مدينة شيريبون يعلم أبناء وطنه أصول الفقه والشريعة. معروف أن الدور الذى تؤديه مقاطعة سيمارانج فى الحياة العلمية يظهر ويتجلى بشكل واضح فيما تنتجه مؤسسة الطباعة فى مكة. فى العام ١٨٨٦ الميلادى نشر تعليق محمد معصوم السيمارانجى على الأجرومية، وفى العام ١٨٨٥ الميلادى نشر كتيب أبو حميد محمد، وهو من بلدة كندال، عن الصرف وتصريف الأسماء.

الجاوى الوحيد والأخير الذى يقيم فى مكة، والذى سوف نتناوله بشىء من التفصيل، هو عبد الشكور (الذى عادة ما يطلق عليه بنو وطنه اسم عبد السكور). وهو من مقاطعة سورابايا .

جاء هذا الرجل إلى مكة قبل أربعين عاما عندما كان صغيرا تماما، وكان قليل الموارد وقليل المعرفة أيضا، آملا أن يجعل منه أحد العلماء العرب خادما له ويعلمه مقابل تلك الخدمة. فى ذلك الوقت، وكما هى الحال الآن، فإن علماء الحرم كانوا يقدرون بقيمة عالية مهارة الخدم الجاويين وأمانتهم، الذين كان واحد منهم يرافق الشيخ عبد الشكور بصفة دائمة ، وكان يسارع إلى تلبية ما يريده الشيخ بمجرد الإشارة، وقد وجد الشيخ عبد الشكور فى السيد محمد شطا رجلا محسنا. ومحمد شطا هذا هو والد مؤلف كتاب "إعانة الطالبين ". وافق السيد محمد شطا على أن يكون عبد الشكور

خادما خاصا له في منزله، وما زال ذلك الجاوى يفخر ويتباهى بخدمته تلك لذلك الشيخ. وكرس عبد الشكور وقت فراغه كله للدراسة، كما تلقى عبد الشكور أيضا العلم على أيدى أساتذة النواوى من العلماء العرب والعلماء الذين من جزر الهند الشرقية.

كل واحد من الجاوة في مكة يعرف قصة تميز العلاقة التي بين عبد الشكور ووالده الروحى، أو بالأحرى السيد محمد شطا. كان من عادة الشيخ العجوز إذا ما استيقظ فى أثناء الليل - حكمه فى ذلك حكم بقية العلماء - أن يمضى وقتا قصيرا فى بعض التدريبات الطقوسية، أو بالأحرى الصلاة، هذه الصلاة كانت تتطلب من ذلك الرجل اغتسالا شرعيا، ولذلك كان يذهب أولا إلى بيت الماء (الحمام). وكان عبد الشكور، من باب المحافظة على عدم ضياع شرف صب الماء على يدى الشيخ، يبادر إلى النوم كل مساء بالقرب من بيت الماء، ليهب واقفا عندما يسمع وقع خطو أستاذه، ويروح يؤدى معه صلاة القيام. ذات مرة راح عبد الشكور فى النوم وضاعت منه الفرصة، ولما كان عبد الشكور لا يجرؤ على أن يطلب من أستاذه أن يوقظه إذا ما احتاجه، فقد آثر النوم أمام عتبة ذلك المكان غير الطاهر، وجعل منه مكانا لنومه. وفى الليلة التالية تعثر شطا فى تلميذه، الذى لم يره فى الظلام؛ الأمر الذى جعل عبد الشكور يصحو ويقبل قدم أستاذه السيد محمد شطا، ويحضر له ماء الوضوء. وعندما اعتذر الأستاذ لتلميذه عن الرفسة التى جاءت عن غير قصد، رجاه التلميذ رجاء حارا أن يوقظه كل ليلة إذا ما دعت الضرورة. وتأثر الشيخ كثيرا مما دفعه إلى تقبيل واحتضان تلميذه الأمين.

عندما توفى السيد محمد شطا، كان عبد الشكور قد اكتسب، بتوجيه من الشيخ ومن العلماء الآخرين، مقاما عاليا فى العلوم الإسلامية، ومثلما جاء وهو يحمل قليلا من العلم وسط أجواء عربية زاخرة بالعلم، قلّت أيضا نقائصه وغرائبه الوطنية. ليس هناك من بين الجاوة من يتكلم لغة عربية سليمة مثل لغة عبد الشكور، ونظرا لقلة التدريب

فإن الرجل لا يستطيع الترجمة عن العربية إلى لغته الجاوية الأم، وذلك طبقا للعرف المتفق عليه بين المدرسين الجاوة. وعبد الشكور يتكلم لغة الملايو مثل شخص آخر ليس من أهل هذه اللغة. أوصى محمد شطا، حتى بعد وفاته، باستمرار عبد الشكور في تطوير الجانب العربي من شخصيته، كما خص تلميذه الأمين بفضله عندما أوصى بأن تتزوج ابنته الكبرى من عبد الشكور. على العموم فإن زواج ابنة السيد محمد شطا من شخص من العامة، ناهيك عن كونه غير عربي أيضا، يعد زواجا غير متكافئ، ولنا أن نتخيل القلق الذي يترتب على مثل هذه الأمور التي رتبها العالم السيد شطا. واقع الأمر أن عبد الشكور تزوج بنات أستاذه الثلاث؛ فعندما ماتت الكبيرة تزوج الثانية، وعندما توفت الثانية تزوج أختها الصغرى. وقد أنجبت الأختان ابنتين لعبد الشكور.

على الرغم من أن الأشياء المحيطة بعبد الشكور أضفت على دراساته مسارا عربيا فإنه لم يفقد ميله الوطني إلى التصوف. وهو يجيد القواعد والنحو العربي إجادة تامة، كما يجيد أيضا المنطق والشعر، وعندما يحس بالارتياح من آلام البواسير كان يدرس الفقه والعقيدة، تلك الموضوعات بألمعية منقطعة النظير. ونجد أيضًا في عبد الشكور طالبا ورسولا شغوفا، كانت نظرة عبد الشكور لهذه الموضوعات تتفق تماما مع نظرة أهل العلم من المتصوفة، وكان يفضل تمكين تلاميذه من قراءة الغزالي أو ابن عطاء الله، وكان عبد الشكور يحبذ بشكل قاطع، للأعداد الكبيرة من الجاوة أصحاب التعليم البسيط، أن يتدربوا تدريبا عمليا على أصول الشريعة ومبادئ العقيدة المضاف إليها شيء من التصوف، بدلا من المضي قدما في التعلم بالطريقة العربية المتعبة عديمة الجدوى.

على امتداد سنوات طويلة بقي بيت عبد الشكور العامر الذي يقع بالقرب من الحرم بمثابة هدف تقصده أعداد كبيرة من الزوار الذين ينتمون إلى مختلف الطبقات. فالرجل له اتصالاته بكبار العلماء العرب أمثال أحمد الدحلان، وإلى سنوات

قليلة مضت لم يكن عدد طلاب وتلاميذ عبد الشكور أقل من عدد طلاب النواوى، يضاف إلى ذلك أن الحجاج الجاوة كانوا يتشوقون لزيارة عبد الشكور لمجرد "التبرك" بتلك الزيارة. هذا الشيخ المسن كان يقيم تلك اللقاءات على نحو مهيب، كان الشيخ عبد الشكور يقدم يد العون إلى الحجاج من الطبقات الدنيا، على شكل عبارات عامة قليلة، مستخدما فى ذلك اللغة الأم، وكانت تلك العبارات القليلة تتعلق بأسلوب الحياة، وكان الرجل يتحدث إلى المتعلمين بأسلوب نحوى سليم عن كثير من الأحاديث البديعة التى تختزن ذاكرته منها مددا لا ينتهى. كان عبد الشكور يدعو أهل العلم من بنى وطنه لتناول الطعام على مائدته، وكان الناس يردون على تلك الدعوات بالهدايا فى ضوء إمكاناتهم.

ومثلما حدث مع النواوى، قام أقارب عبد الشكور باستخراج ترخيص حجاج باسم الشيخ، ولكن هذا التصريح استغل بطريقة مختلفة. وإذا كان أهل النواوى، شأنهم شأن أهالى الشيوخ الآخرين، يستغلون مقاطعة الحجاج التى خصصت لهم، فإن أقارب عبد الشكور يحصلون بسبب "البركة" على أعداد كبيرة من الحجاج، الذين يكونون تحت إرشاد شيوخ آخرين من شيوخ الحج. هؤلاء الحجاج يشرفون بأنهم يجرى إرشادهم من الناحية الاسمية بولىٍّ من "سوبرابايا"، ويدفعون مقابلا طيبا لذلك الإشراف. والشيخ لا يشغل باله بمصدر الدخل، وأصدقاؤه يزعمون أن الرجل لا يعرف شيئا عن ذلك الدخل، ولو علم شيئا عن ذلك الدخل قد يوقفه.... والله أعلم .

***

ليس لسمعة جزيرة سومباوا الطيبة أثر فى الجالية الجاوية، ومن بين علماء مكة فى الجيل السابق يوجد رجل اسمه عبد الغنى بيما ، الذى سبقت الإشارة إليه. هذا الرجل ظل لسنوات عدة لا يعرف أن بيما واحدة من بلدان جزيرة سومباوا .

وهناك أيضا اثنان من المدرسين الشبان المهمين ولدا فى الجزء الغربى من جزيرة سومباوا. زين الدين سومباوا الذى هو الآن فى مقتبل العمر، عاش أكثر من خمسة وعشرين عاما فى مكة. كان مدرسوه هم أولئك الذين تتلمذ عليهم النواوى، ثم تتلمذ بعد ذلك على كل من المفتى أحمد الدحلان وعبد الحميد الداغستانى. والرجل يتكلم لغة عربية ممتازة، ويلقى كل يوم محاضرة عربية عن الشريعة لا يقتصر حضورها على بنى وطنه، وإنما يحضرها بعض أخر من الجاوة الذين يتكلمون لغة الملايو، أو إن شئت فقل يحضر هذه المحاضرة شباب من منطقتى ديلى ولامبونج (فى جزيرة سومطرة)، كما يحضرها أيضًا أناس من بَنجارماسين ومن سَمباس (فى جزيرة بورنيو).

هؤلاء الطلاب من النوعيات المتقدمة، على الرغم من إثارة حلقة التلاميذ لبعض الأسئلة التى تطرح على الأستاذ، وتحتاج إلى شىء من الشرح والتفسير باستخدام لغة الملايو. فى بعض الأحيان يحاضر زين الدين سومباوا فى بيته طلابا من العرق نفسه لكنهم أقل تقدما فى سلم العلم، وفى مثل هذه المحاضرات نجد أن لغة الملايو هى وسيط التواصل الرئيسى مع الطلاب، ويعتادون بعد ذلك اللغة العربية بصورة متدرجة.

عمر سومباوا واحد من بلديات زين الدين سومباوا، غير أن عمر أصغر سنا من زين الدين، يزيد على ذلك أن عمر أقل علما من زين الدين، لكن عمر يتكلم العربية بطلاقة غير معهودة فى جزيرة جاوة، من سوء الطالع أن عمر سومباوا، يعبر عن نفسه فى الاتصالات السرية فى كثير من الأحيان بشىء من الاحتقار لذلك العالم الذى هو واحد من بلدياته، لأسباب لا تتعلق بأى شىء أخر سوى العلم. كان قلب عمر سومباوا متيمًا بحب ابنة جاوية أنجبها أحد الجاوة من امرأة عربية، يضاف إلى ذلك أن الرجل كان يطيل التفكير فى الطرق والوسائل التى ستمكنه من الفوز بفتاته، وفجأة تناهت إلى مسامع عمر السومباوى أنباء

زواج زين الدين من تلك الفتاة! عمر سومباوا لا يحاضر إلا فى بلاده، وطلبته الذين يفدون عليه هم من المنطقة نفسها التى يجيء منها طلبة زين الدين.

فى مطلع العام ١٨٧٦ الميلادى، أى قبل اكتمال مكتب الطباعة فى مكة، ظهرت طبعة من مختارات الدعاء والطقوس من تأليف زين الدين سومباوا، وقد صدرت تلك الطبعة عن مطبعة حجرية فى شبه جزيرة الملايو. والآن ونحن فى العام ١٨٨٥–١٨٨٦ تجرى طباعة مؤلفين من مؤلفات زين الدين سومباوا التى سبق أن طبعت فى جزيرة الملايو، فى المطبعة الجديدة فى مكة المكرمة. المُؤلَّف الأول بعنوان "سراج الهدى" وهو عبارة عن تعليق على كتيب العقيدة المعنون "أم البراهين"(٤٥) لمؤلفه السنوسى، أما المُؤلَّف الثانى فعنوانه "منهاج السلام"، وهو عن العلاقات التى بين الإسلام والإيمان، وهو الموضوع الذى جرى تناوله فى كثير من المؤلفات التى تستخدم فى التعليم الأولى فى جزيرة جاوة. هذا العدد الكبير من الكتب التى جرى طبعها فى الملايو ابتداء من العام ١٨٨٤ الميلادى إلى يومنا هذا يعد شاهداً على أهمية العنصر الجاوى فى مكة المكرمة.

وقد عهدت الحكومة التركية إلى شخص يدعى أحمد بن محمد زين، وهو من باتانى (فى ملقا) بالإشراف على مطبعة الملايو. وربما تكون هذه المطبعة صاحبة الفضل فى الحقيقة التى مفادها أن مؤلفات علماء باتانى تمثل القسم الأكبر من بين المؤلفات كلها فى مكة. أحمد بن محمد زين هذا عالم جليل، وقد سبق للرجل أن نشر فى القاهرة فى العام ١٨٨٣ كتابا عن القواعد والنحو، يضاف إلى ذلك أن الجزء الرابع من إعانات الطالبين للسِّجِّيد بكرى يحتوى على قصيدة ألفها أحمد بن محمد زين يمتدح فيها مؤلف الكتاب. وربما يرجع الفضل إلى حماس وطنية أحمد بن محمد زين، فى مسألة نشر مؤلفات كبار الباحثين الباتانيين ، أو إن شئت

(٤٥) أبلغنى حجاج لامبونيين أن الناس يطلقون فى مكة على رسالة السنوسى اسم "أم إبراهيم".

فقل أهل الملايو الذين ينحدرون من مقاطعة باتانى، ككتاب مختارات من أحاديث الآخرة[٤٦] الذى ألفه زين الدين باتانى. وسلسلة كاملة من مؤلفات داود بن عبد الله الباتانى، الذى كتب أحسن مؤلفاته فى الفترة ما بين عامى ١٨١٥ و١٨٤٠ نصادف اسمه فى قائمة إصدارات مخطوطات الملايو ضمن مجموعة مؤلفات باتافيا. فى سوق الكتب فى مكة نلاحظ أنه اعتبارا من عام ١٨٨٠ الميلادى كانت هناك سلسلة من الكراسات من تأليف هذا الرجل، وتدور عن الصلاة، وقد جرى طبع هذه السلسلة من الكراسات طباعة حجرية فى بومباى فى الهند، كما ألف الرجل أيضا كتابا عنوانه "كفاية المحتاج"، والكتاب عن معراج محمد ﷺ إلى السماء.

وأنا أيضا أرى أن داود بن عبد الله هو مؤلف كتاب عن شريعة الزواج، وقد تم نشره مجهلاً فى القسطنطينية. ومبلغ علمى أن الكتب الآتية جاءت من المطبعة الحكومية إلى السوق، وهى أيضا من تأليف داود بن عبد الله، المؤلف العظيم عن الشريعة والعقيدة المعنون "فروع المسائل"[٤٧] الذى يعد من الكتب واسعة الاستعمال فى جزر الهند الشرقية، وكتيبه الصغير عن العقيدة والمعنون "الدر الثمين"؛ ورسالته الفخمة عن الحياة بعد الموت المعنون "كشف الغمة"؛ ومختارات من القصص والتحذيرات الصوفية بعنوان "جمع الفوائد" يضاف إلى ذلك أنه طُبع فى مكة تعليق من الملايو على كتاب إبراهيم اللقانى المعنون "جوهرة التوحيد"[٤٨] على مخطوطة ألفت بلغة سمباس، كما

---

(٤٦) هذا هو ما وصلت إليه من الرقم ١٤ فى قائمة إصدارات فان دن برج ، الخاصة بمختارات باتافيا.

(٤٧) العدد رقم ٣٨ من قائمة إصدارات باتافيا.

(٤٨) هذا العالم الهندى جرى اعتباره وليًا بعد وفاته، وأطلق عليه بعد المؤلف المشار إليه عن العقيدة لقب الجوهرى الذى حوله المكيون إلى الولى جوهر .

جرى أيضًا نشر تعليق ألفه آتشيٌّ مغمور(٤٩) على كتاب مشهور عنوانه "حكم ابن عطاء، الله" . وفي العام ١٨٨٥ الميلادي نُشر في القسطنطينية التعليق المعنون "بداية الهداية"(٥٠) وهو من تأليف محمد زين الآتشيّ، وهو بمثابة تعليق على كتاب السنوسي المعنون "أم البراهين". وطبع في القاهرة كتاب "الدر النفيس"(٥١) الذي ألفه محمد نفيس في بنجارماسين في العام ١٨٨٦ الميلادي.

ومن المطبوعات التي نشرت خارج مكة يمكن أن نلاحظ أحمد الدحلان رئيس الجامعة كان قد بالغ عندما زعم في تاريخه (عن مدينة مكة) أن مطبعة مكة المكرمة التي تأسست بناء على توصية من السلطان الحاكم(*)، تجيء في مقدمة المطابع الأخرى، من منطلق أنه بالإضافة إلى الكتب العربية والتركية كان بالإمكان أيضا طباعة كتب بلغة الملايو. ولكننا يتعين علينا هنا الاعتراف والإقرار أننا عندما نأخذ في الحسبان العمر القصير لتلك المطبعة، وكذلك الفراغ التركي الذي يميز السواد الأعظم من الأنشطة، نخلص إلى أن أدب الملايو يحتل مكانة مشرفة بين المنتجات التي أنتجتها تلك المطبعة.

***

السواد الأعظم من مناطق لغة الملايو لا يمثله في الوقت الراهن في مكة علماء من أولئك الذين ينتمون إلى علماء الطبقة الأولى. ومن أحسن المناطق الشهيرة في مقاطعة

---

(٤٩) راجع قائمة إصدارات باتافيا تحت الرقم ٢٨ .

(٥٠) راجع قائمة إصدارات باتافيا تحت الرقم ٤٥ .

(٥١) راجع قائمة إصدارات باتافيا تحت الرقم ٣٢ .

(*) السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٨ . (المراجع)

سمباس ومقاطعة بنجارماسين (فى جزيرة بورنيو) على سبيل المثال، يجىء شباب كثيرون لتلقى العلم والدراسة فى مكة، لكنهم فى الوقت الحالى يعجزون عن الاستفادة بدرجة كبيرة من المحاضرات التى يلقيها العلماء فى الحرم المكى، ولذلك نراهم يتحولون إلى المدرسين سالفى الذكر الذين ينحدرون من كل من سومباوا أو بتافيا أو بانتن .

الجالية الجاوية المنتسبة إلى مقاطعة بونتياناك (فى جزيرة بورنيو) لها وضع خاص، أعضاء هذه الجالية كلهم أقارب إلى حد بعيد أو أصدقاء أو من المقربين إلى السلطان الذى يحكم ذلك المكان. هذا السلطان عندما أدى مؤخرا فريضة الحج أسس منازل وقف متعددة فى مكة المكرمة، وبدأ اعتبارا من ذلك التاريخ إرسال مبالغ كبيرة كل عام لصيانة هذه المنازل وللوفاء باحتياجات ساكنيها. أفراد هذه الجالية فيهم بعض العلامات الطفيفة من العرق العربى، وبخاصة فى ملامحهم، لكن هذا الأثر لا وجود له فى كلامهم، هذا يعنى أن هؤلاء الناس أصبحوا مثل سكان الملايو الخلَّص، وبذلك يكونون خير دليل على صدق المثل العربى الذى معناه أن الإنسان فيه ثلثا شخصية خاله. وعلى الرغم من ذلك، فهم يتميزون بالصراحة والتواضع، كما يتمتعون أيضا باحترامهم لأنفسهم، ولا يسمحون لأى أحد من العرب بإهانتهم.

كنت شاهدا فى الحرم على وقوف واحد من هؤلاء الجاوة فى وجه أعرابى بذىء، ذات مرة، وقبل أن نأتى على ذكر شجاعة ذلك الرجل الذى كان ينحدر من مقاطعة بونتياناك، أكد ذلك الرجل للمجتمع المكى مدى احتياج بلاده إلى الحكم الأوروبى. هم يتعلمون التفكير فى الأمور على هذا النحو، وبصفة خاصة من منظور دراستهم الكاملة للشريعة الإسلامية، التى تصم آذانهم عن التشدد الكريه وتفتح المجال واسعا أمام الاعتراف بمختلف أحوال الضرورة الطاغية على الشرع فى كثير من الأحوال. كل هؤلاء الناس على اختلاف مشاربهم من المسلمين شديدى التحمس، الذين تتوغل

داخلهم مُثُل الإسلام السياسية، لكنهم لا يحاولون تحقيق هذه المُثُل عن طريق أساليب غير عملية.

ونحن يمكننا القول إن جالية بونتياناك تخضع لسيطرة أسرة الزواوى، التى عرفنا منها بالفعل عالمين مهمين وكريمين بحق. وعن طريق هذين العالمين وعن طريق الأصدقاء يسمح أفراد هذه الجالية لأنفسهم أن يبدأوا دراسة العلوم الشرعية، وبذلك يستطيع أولئك الذين عاشوا فترات جد صغيرة فى مكة ولم يحصلوا على علم كاف فى بونتياناك، الحصول على التعليم اللازم لهم عن طريق بنى وطنهم المتعلمين، ولكن عن طريق لغة الملايو. والزواوى قبل أن يقبل هذه النوعية من أفراد الجالية فى الطريقة الصوفية النقشبندية يحتم عليهم أن يكونوا قد أحرزوا تقدما كبيرا فى التعليم. بعض أصدقائى الذين كانوا ينحدرون من مقاطعة بونتياناك كانوا يتعلمون فى المدينة (المنورة) على يدى الشيخ ماثار الذى يعرض على زواره الأتقياء "بعض شعرات من شعر النبى ﷺ"[٥٢]، المحفوظة فى الشمع. كان هناك فى مكة عالم ينحدر من مقاطعة مكاسار فى جنوب سلبيز، وكان هذا العالم يحاضر فى بيته أحيانا باستعمال لغة مكاسار وأحيانا أخرى باستعمال لغة الملايو، وهذا الشيخ كان يتردد عليه أناس كثيرون، وكان الكثيرون من طلاب هذا الشيخ يزورون الحرم فى المساء للاستماع إلى المحاضرات التى كانت تلقى فيه.

تمثل أعداد الطلاب الذين من بلاد سومطرة فى مكة نسبة مئوية كبيرة من الجاوة، لكن العلماء الذين من هذه البلاد من علماء الصف الثانى، وهذه بطبيعة الحال ظروف طارئة يمكن أن تتغير فى أى عقد من العقود. والمعروف أن الآتشيين المقيمين هنا ليس

---

(٥٢) كتب أمين المدنى، الذى حضر فى العام ١٨٨٣ مؤتمر المستشرقين فى ليدن، فتوى فى المدينة المنورة ضد هذه العبادة لشعر النبى ﷺ. أبلغنى أصدقاء ماثار أن هذه الكتابة المغرضة كانت ناجمة عن الحقد والغيرة المالية من جانب أمين.

لهم وزن كبير فى المجتمع، ونحن نعرف أن موطن الآتشيين يتميز عن بلدان الجاوة الأخرى بانتشار اللواط، أو إن شئت فقل مضاجعة الذكور، والأكثر من ذلك أن الآتشيين يضايقون كل العرب الذين على صلة بهم، عندما يطرحون عليهم الفكرة السخيفة التى مفادها أن آتشيه مركز من مراكز الحضارة الإسلامية. هناك قلة قليلة من المدرسين أصحاب القدر ينحدرون من مقاطعة بالمبانج، والشيخ اللمبونى الذى سبقت الإشارة إليه هو الذى يقوم على عملية التثقيف الأوَّلى، أو التعليم الأوَّلى للحجاج، كما يضع أيضا المواطنين المقيمين فى مكة تحت حمايته. والسواد الأعظم من كل هؤلاء الناس الذين ينحدرون من جزيرة سومطرة منضمون إلى الطريقة النقشبندية، وعادة ما يكون هؤلاء الناس تابعين للطريقة القادرية أو الطريقة النقشبندية، وشيخ هؤلاء الجاوة السومطريين واحد من الشيوخ الأتراك مثل سليمان أفندى أو خليل باشا، وخليل أفندى أو الشيخ عبد الكريم البانتينى.

الشيخ زين، شيخ آخر من شيوخ الحج، وهو من بلدة راو (غرب جزيرة سومطرة)، هذا الرجل غزير العلم والمعرفة، ولا يصلح للقيام بدور "مرشد" الحجاج. مسألة الإرشاد هذه تديرها فى واقع الأمر زوجته شديدة "التحرر"؛ الأمر الذى يجعل المكيين يتحدثون بصفة دائمة عن "راوية". عندما كنت فى مكة كان هناك نحو ستين طالبا من الملايو، كانوا يدرسون على يد الشيخ زين، الذى كان يمضى ساعات قلائل أثناء النهار فى غرفة المحاضرات بعيدا عن تهديد ووعيد "شبشب" زوجته. كانت تلك المرأة تخالط الرجال على اختلاف أنواعهم بلا أدنى تحفظ، وكانت ترعى مصالحها الخاصة بحماس وهمة يندر أن يتوافرا لبنات جنسها حتى فى أوروبا. ومعروف أيضا أن أفضل مدرسى الأراضى المرتفعة فى بادانج، وفى بالمبانج، وحتى فى المناطق التى تتسودها حياة شبه علمية، معروف أن كل هؤلاء المدرسين تعلموا فى مكة المكرمة.

منذ قرن مضى عاش فى مكة مؤلف شهير من بالمبانج، هذا الرجل كان اسمه عبد الصمد، ومعروف أيضا أن أفضل المؤلفات الشرعية بلغة الملايو جرى تأليفها فى آتشيه فى زمن باكر. كان علماء العلوم الشرعية العرب من أمثال ابن حجر يزورون سلطنة آتشيه. واليوم، ومثلما سبق أن قلنا، وفيما يتعلق بجزر الهند الهولندية، نجد أن أساتذة العلوم الشرعية البانتن من أصحاب المكانة البارزة هم الذين يجعلوننا لا نخلص إلى نتائج مهمة، فيما يتصل بسكان هذه المقاطعة وحماسهم النسبى، والسبب فى ذلك أن الطلبة الواعدين تضطرهم الظروف فى معظم الأحيان إلى امتهان مهن أخرى غير العمل بالعلوم الشرعية. وهذا يمكن الوقوف عليه تماما من الحقيقة التى مفادها أنه منذ ثلاثين عاما مضت كان العلماء الشرعيون المنحدرون من كل من بيما وسمباس وباتافيا أصحاب مكانة فى مكة المكرمة من المنظور الفكرى، لا تقل عن مكانة العلماء الذين من بانتن، وسورابايا أو المكانة التى كانت من قبل لعلماء بانجارماسين، وبالمبانج، وآتشيه، دون حدوث تغييرات كبيرة فى تلك البلدان.

***

وإلى هنا أجدنى أختم ملاحظاتى عن الجالية الجاوية والتأثيرات التى يحدثها الحج فى الأراضى الجاوية. وهنا أجدنى منساقا إلى الحديث عن الأهمية السياسية لكل ما يتصل بالحج فى جزر الهند الهولندية.

من يقرأ ما تقدم لا يمكن أن يقبل الرأى السائد لدى كثير من المسئولين الذين يرون أن الحجاج كلهم أعداء ألِدَّة للحكومة، أعداد كبيرة من هؤلاء الحجاج يعودون أغناما مثلما ذهبوا؛ الأمر الذى يترتب عليه أن يصبح احتفال (مولد) رءوس الأغنام فى أبى قبيس مزدوج المعنى عند هؤلاء الحجاج. يضاف إلى ذلك أن الوقار الظاهرى الذى يكتسبه الحاج الجاوى من لباسه العربى وجهل الفلاحين يضيع ويخبو مع زيادة

عدد الحجاج، وزيادة حكمة الناس ووعيهم. ونحن حاليا مازلنا نجد بين هؤلاء الحجاج المبعثرين فى سائر أنحاء البلاد مادة قابلة للاشتعال، يتعين عدم إهمالها أو التقليل من شأنها، هذه المادة يمكن أن تشتعل إذا ما توافر لها الشرر. هذه القابلية للاشتعال ترجع إلى الحقيقة التى مفادها أن مصالح الحج تتعارض دوما مع مصالح الحكومة، فى الوقت الذى يعود الحجاج فيه من مكة ومعهم ميول حركة إسلامية يمكن أن تتطور إلى نوع من التطرف بسهولة ويسر.

أما هؤلاء الذين يقضون مددا طويلة فى مكة فقد تحولوا من ناحية، إلى مدرسى قرآن موقرين، وإلى أعضاء فى الطرق الصوفية من ناحية أخرى، وهذه الطرق الصوفية تفعل الكثير من أجل نشر المثل الإسلامية فى سائر أنحاء الأرخبيل، وتصيب نجاحا أكبر بكثير من النجاح الذى تحققه جماهير الحجاج، والسبب فى ذلك أن الجاوى يمكن أن يسبح مع الطرق الصوفية فى مياه ضبابية، وتأثير الحجاج على المشاعر العامة يكون بطيئا ولكنه منتظم ومستمر. هذه التأثيرات الأكثر أهمية، هى نتائج غير مباشرة للحج، ولكنها تعد نتائج فى نهاية المطاف، والمؤسف بحق أننا فيما مضى، وبخاصة فى المناطق التى توفد الناس لأداء فريضة الحج، لم نفعل أى شىء لتحويل ذلك التيار إلى قنوات أخرى. لقد فات أوان ذلك، صحيح أن مسألة الحد من السماح بأداء الحج إلا لمن تسمح مواردهم بذلك لها قيمتها، لكننا لا يمكن أن نصل إلى حد استثارة فكرة الاضطهاد الدينى التى سيلقى الجاوة فيها دعما كبيرا من المكيين المهتمين بهذا الأمر.

الاعتبارات الأخرى كلها المتعلقة بالنتائج الناجمة عن الحج تعد أقل بكثير عن النتائج الناجمة عن تلك الجالية الجاوية الآخذة فى الازدهار والزيادة فى مكة. مكة هى قلب الحياة الدينية فى أرخبيل جزر الهند الشرقية، وهناك شرايين عدة تضخ من مكة دما جديدا وعلى نحو متسارع بصورة دائمة فى عروق الجسم الإسلامى فى إندونيسيا. هنا فى مكة نجد أن خيوط الطرق الصوفية الجاوية تتضافر بعضها مع

بعض، والجاويون يأخذون ويستقون من مكة الأدبيات المستخدمة فى مدارسهم الدينية. هنا فى مكة، ومن خلال وساطة الأصدقاء والأقارب المقيمين فى مكة يشارك الجاوة فى حياة وجهود الحركة الإسلامية.

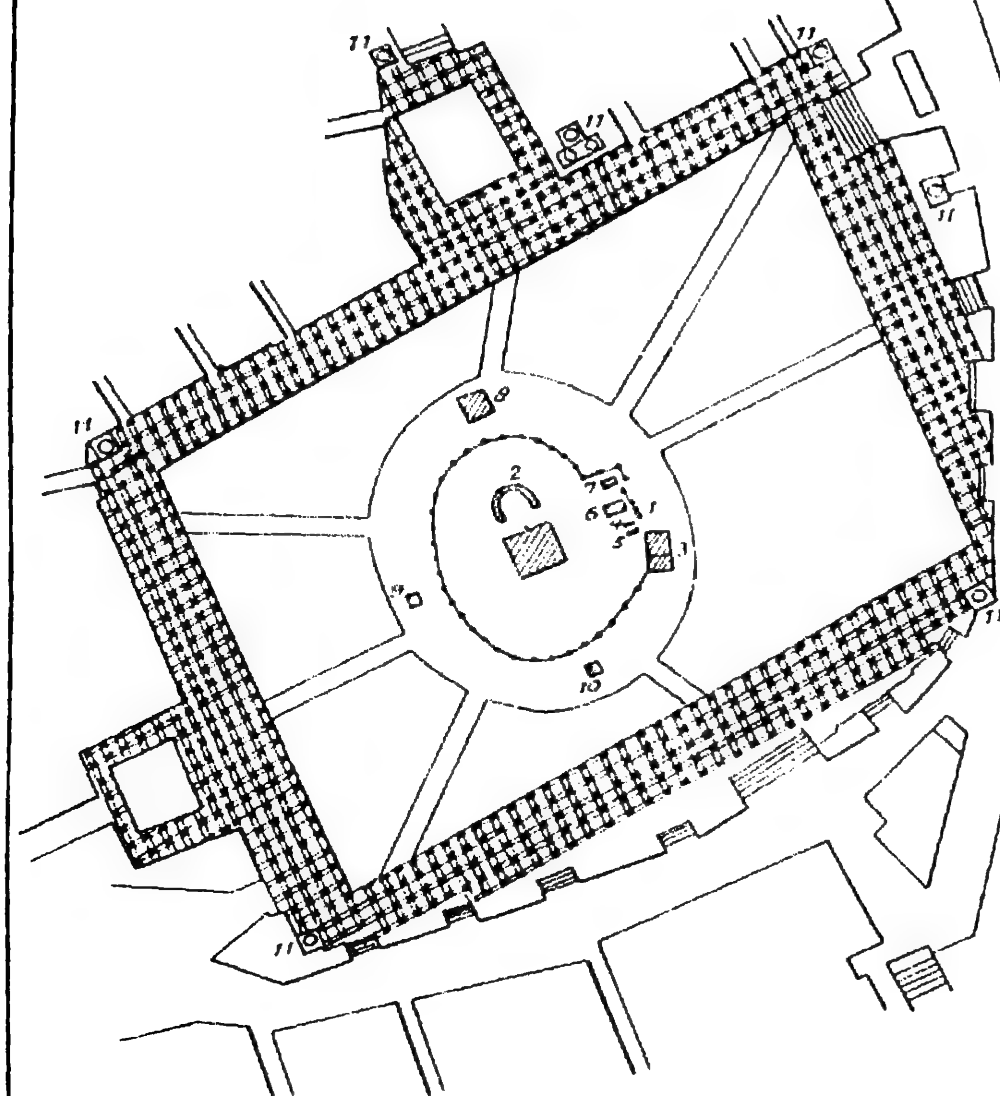
وإذا كنا لا نستطيع حاليا إقامة سد لمواجهة تيار الحج الجارف، فإن أحدا لا يستطيع أن يفعل أى شىء لمنع انسياب الذهاب إلى مكة والعودة منها؛ الأمر الذى ييسر إرسال البذور إلى بلاد العرب كى تنمو هناك، ثم تعود بعد ذلك إلى جزر الهند الشرقية بعد أن تصبح نباتا مستويًا على عوده، ليبدأ التكاثر من جديد. ومن المهم للحكومة أن تعرف ذلك الذى يدور فى مكة، وأن تعرف أيضًا نوعية العناصر التى يجرى تصديرها كل عام من مكة إلى جزر الهند الشرقية، وأن تعرف أيضًا الأساليب الماهرة التى يمكن بها كسب هؤلاء العائدين إلى جانب الحكومة، أو اتقاء شرهم فى أضعف الأحوال.

وهنا يمكن، دون الإخلال بالسلام، توجيه الحياة الروحية، وتحاشى الإجراءات القائمة على سوء الفهم، التى تتسبب فى الكراهية أحيانا والاسترخاء والفوضى أحيانا أخرى، وبذلك يمكن فى بعض الأحيان استباق التأثيرات النابعة من مكة، القلب الفكرى للإسلام، أو تلطيف تلك التأثيرات فى أضعف الأحوال. لكن أولا وقبل كل شىء يجب عدم إصدار أحكام مبنية على الفصل أو التصنيف، بمعنى أنه لا الحجاج، ولا الخبراء فى الطرق الصوفية، ولا العلماء الذين تلقوا تعليمهم فى مكة، هم وحدهم موطن الخطر والتطرف ... إلخ، وإنما ثلاثتهم يمثلون علاقة جزر الهند الشرقية الفكرية بعاصمة الإسلام، ومن هنا يتطلب الأمر من الإدارة الأوروبية ما هو أكثر من مجرد المراقبة الشكلية، حتى يمكن لنا تحاشى نفور العناصر المعتدلة منا بسبب إساءتنا إليها أو جهلنا أو ضيق أفقنا. يتعين أيضا على الإدارة الأوروبية معرفة العناصر العنيدة، وأن تحذر وتحتاط أيضا للحركات الجديدة، وأن تكون لديها الوسائل التى تمكنها من تقويم أهمية تلك الحركات الجديدة.

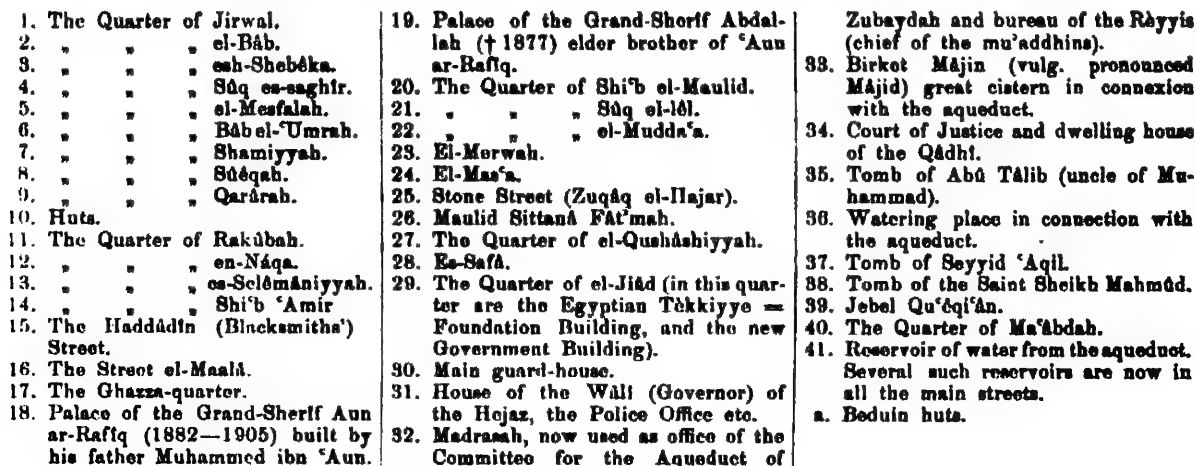
التقيت ذات مرة فى جدة قبطان باخرة هولندية، جاءت إلى الميناء لنقل بضع مئات من الحجاج الجاوة. وفى اليوم السابق لاستئناف الرحلة البحرية حدثنى الرجل عن عدد أولئك "المتوحشين" غير المتحضرين الذين كانوا على وشك الركوب على ظهر الباخرة. وقلت له إنى أعرف الكثيرين من أولئك الذين سيسافرون معه، بعض منهم كانوا غير متعلمين تماما، لكنه كان معه أيضا كثيرون ممن أمضوا سنوات طويلة فى الدراسة جعلتهم بمثابة زعماء فكريين لشعبهم، وحذرته أيضًا من التعامل مع هؤلاء الحجاج على قدم المساواة، نظرا لأن هؤلاء الناس يرتدون لباسا واحداً أثناء الرحلة. وابتسم القبطان لهذه الفكرة التى مفادها أن هناك عددا من الجاوة المتعلمين الذين يستطيعون قراءة كتب علمية بلغتين أو أكثر من لغتين، وذلك على الرغم من أنه كان يعرف أن الشخص الجاوى العادى يعد أفضل بكثير من الأوروبى العادى فى مسألة التواصل والعلاقات الاجتماعية. وأصر القبطان على موقفه، وأنه على الرغم من التعليم والتعلم فإن الحاج سيظل حاجا، أو بالأحرى "بريًّا" .

تعين على هؤلاء الحجاج أن يمضوا أسابيع قليلة تحت إمرة هذا القبطان على تلك الباخرة الكبيرة، واستطاع ذلك القبطان بفضل روحه الطيبة أن يضمن لهم المساواة على الرغم من "عدم تحضرهم" . فى تلك الإمبراطورية الواسعة المكونة من الجزر يتعين على مسئولينا فى بعض الأحيان التعامل مع هؤلاء الناس، إذا ما كانوا متماثلين فى اللباس ومتماثلين أيضا فى الأسماء. ولكن الأخطاء المؤسفة قد تترتب عليها نتائج أخطر وأفدح من التى يمكن أن تترتب على الرحلة السريعة من جدة إلى بتافيا، ولعل زيادة معرفتنا للحياة الروحية للجاوة الهولنديين تجنبنا الوقوع فى الأخطاء التى من هذا القبيل.

GROUNDPLAN
OF THE MOSQUE (HARAM)



PLAN OF MEKKA
mainly from BURCKHARDT's "Travels in Arabia" with a few corrections (1885)



1. The Quarter of Jirwal.
2. " " " el-Bâb.
3. " " " esh-Shebêka.
4. " " " Sûq es-saghîr.
5. " " " el-Mesfalah.
6. " " " Bâb el-ʿUmrah.
7. " " " Shamiyyah.
8. " " " Sûêqah.
9. " " " Qarârah.
10. Huts.
11. The Quarter of Rakûbah.
12. " " " en-Nâqa.
13. " " " es-Selêmâniyyah.
14. " " " Shiʿb ʿAmir
15. The Haddâdîn (Blacksmiths') Street.
16. The Street el-Maalâ.
17. The Ghazza-quarter.
18. Palace of the Grand-Sherif Aun ar-Rafîq (1882—1905) built by his father Muhammed ibn ʿAun.
19. Palace of the Grand-Sherif Abdallah († 1877) elder brother of ʿAun ar-Rafîq.
20. The Quarter of Shiʿb el-Maulid.
21. " " " Sûq el-lêl.
22. " " " el-Muddaʿa.
23. El-Merwah.
24. El-Masʿa.
25. Stone Street (Zuqâq el-Hajar).
26. Maulid Sittanâ Fât'mah.
27. The Quarter of el-Qushâshiyyah.
28. Es-Safâ.
29. The Quarter of el-Jiâd (in this quarter are the Egyptian Tèkkiyye = Foundation Building, and the new Government Building).
30. Main guard-house.
31. House of the Wâlî (Governor) of the Hejaz, the Police Office etc.
32. Madrasah, now used as office of the Committee for the Aqueduct of Zubaydah and bureau of the Rèyyis (chief of the mu'addhins).
33. Birket Mâjin (vulg. pronounced Mâjid) great cistern in connexion with the aqueduct.
34. Court of Justice and dwelling house of the Qâdhî.
35. Tomb of Abû Tâlib (uncle of Muhammad).
36. Watering place in connection with the aqueduct.
37. Tomb of Seyyid ʿAqîl.
38. Tomb of the Saint Sheikh Mahmûd.
39. Jebel Quʿêqiʿân.
40. The Quarter of Maʿâbdah.
41. Reservoir of water from the aqueduct. Several such reservoirs are now in all the main streets.
a. Beduin huts.

المؤلف فى سطور :

سى . سنوك هيرجرونجى - هولندى الجنسية

- عمل أستاذاً فى جامعة ليدن فى تخصص الدراسات الإسلامية وعلم الاجتما ع.
- نشر أول أعماله باللغة الهولندية عن مناسك الحج عام ١٨٨٠م فى محاولة لتحليلها وردها إلى أصولها الأولى من وجهة نظره .
- قضى عاماً كاملاً فى الحجاز (١٨٨٤ - ١٨٨٥) أمضى نصفه فى مكة المكرمة ونصفه فى جدة، ولم تتح له فرصة زيارة المدينة المنورة .
- بعد عودته إلى هولندا نشر مجلدين باللغة الألمانية . أولهما عن تاريخ مكة منذ البعثة النبوية حتى عام ١٨٨٥م، أما الثانى فقد تناول فيه الحياة اليومية والأسرية ونظام التعليم فى مكة مع رصد العادات والتقاليد والظواهر الاجتماعية التى عايشها، كما تناول الجالية الجاوية فى مكة، والتى تعنى جميع الوافدين من أرخبيل جزر الهند الشرقية التى كانت خاضعة للاستعمار الهولندى آنذاك .

وهذا الجزء الثانى نشرته جامعة ليدن سنة ١٩٣١ مترجما إلى اللغة الإنجليزية مع مراجعة هيرجرونجى بنفسه، وهو الكتاب الذى بين أيدينا .

المترجم فى سطور :

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

مقالات وأبحاث نشرت بمجلة الفيصل، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية والمجلة العربية : الرياض - المملكة العربية السعودية . ومجلة الهلال : القاهرة - جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية :

١ - التفكيكية : النظرية والممارسة، تأليف : كرسيتوفرنوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية .

٢ - الشاعر والشكل، تأليف : جدسون جيروم - دار المريخ .

٣ - الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه - دار المريخ .

٤ - الأطفال والمخدرات المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية :

١ - المعطف المشاكس .

٢ - عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال، القاهرة، جمهورية مصر العربية :

١ - هارون الرشيد، تأليف : فيلبى .

٢ - الكوكائين والمراهقين .

٣ - بنات مدمنى ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال :

١ - حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية :

١ - سبعة أنماط من الغموض، تأليف وليم أمبسون .

٢ - وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف : بالجريف (جزآن) .

٣ - حركات التحرر الإفريقى، تأليف ريتشارد جبسون .

٤ - إرادة الإنسان فى علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزآن) .

٦ - سيرتى الذاتية، تأليف : أحمد بللو .

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية :

١ - سكين واحد لكل رجل .

٢ - نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية، تأليف : آن بلنت .

- صـ٤٩١ـدرت له مؤخراً ترجمة "الحج إلى نجد" تأليف : آن بلنت، فى جزأين، عن المركز القومى للترجمة .

المراجع فى سطور :

جمال زكريا قاسم

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر غير المتفرغ بكلية الآداب جامعة عين شمس، وعميدها الأسبق .
- شارك فى كثير من الندوات والمؤتمرات العلمية التى عقدت فى الجامعات ومراكز البحوث العلمية فى مصر والدول العربية والسنغال وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .
- عضو فى العديد من اللجان العلمية والجمعيات التاريخية فى مصر وخارجها .
- أستاذ زائر فى كلية رويال هولواى بجامعة لندن، وفى جامعة مينسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية .
- أشرف على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه، أشرف وشارك فى العديد من المشروعات البحثية فى معهد البحوث والدراسات العربية وأكاديمية العلمى والتكنولوجيا . .
- رئيس تحرير مجلة مصر الحديثة التى تصدر عن الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية .
- من أهم مؤلفاته : موسوعة تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر فى خمسة مجلدات، وتاريخ العرب فى أمريكا، والعلاقات العربية الإفريقية، ودولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا .
- حصل على جائزة الكويت للتقدم العلمى عن أفضل كتاب مؤلف عن الكويت، وعلى جائزة جامعة عين شمس التقديرية فى العلوم الاجتماعية .

الإشـــراف اللغوى : **محمد عيسوى**
الإشـــراف الفنـى : **حسن كامل**